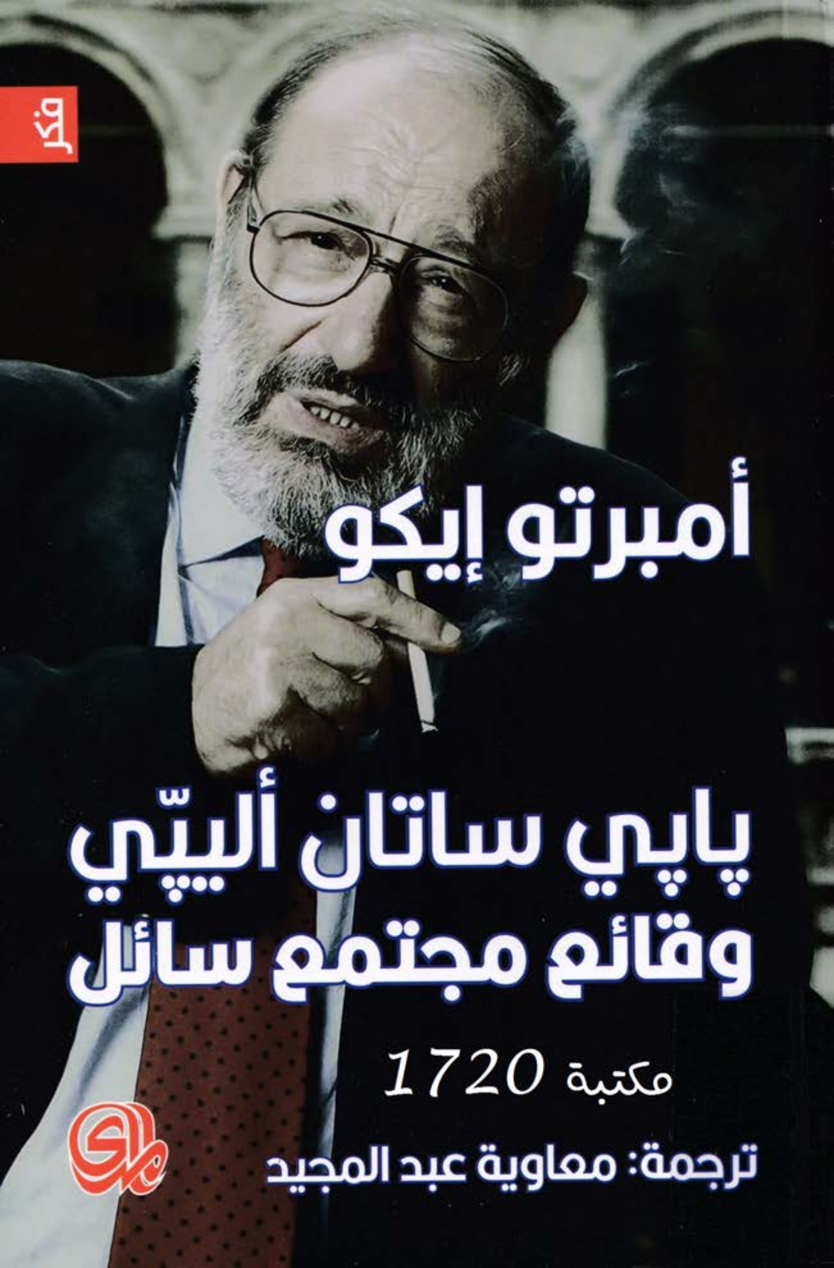
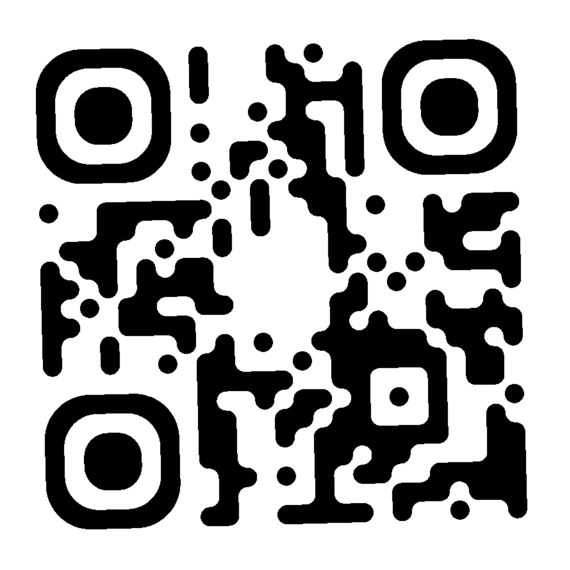

فكر
أمبرتو إيكو
پاپي ساتان أليپّي
وقائع مجتمع سائل
مكتبة 1720
ترجمة: معاوية عبد المجيد

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود
telegram @soramnqraa



باپي ساتان أليپّي
وقائع مجتمع سائل



Author: **Umberto Eco** | اسم المؤلف: أمبرتو إيكو

Title: **Pape Satan aleppe - Cronache di una società liquida** | عنوان الكتاب: بابي ساتان أليبّي - وقائعُ مُجتَمعٍ سَائِل

Translated by: **Muauia Alabdulmagid** | ترجمة: معاوية عبد المجيد

P.C.: **Al-Mada** | الناشر: دار المدى

First Edition: **2023** | الطبعة الأولى: **2023**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 780 808 0800 + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 175 2617 + 961 706 15017 + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275 + 963 11 232 2289 ص.ب: 8272

أمبرتو إيكو

پاپي ساتان أليپّي
وقائع مجتمع سائل

ترجمة : معاوية عبد المجيد



المحتويات

مُقدمة

بدأتُ كتابة مقالات العمود الثقافيّ *مغلّف مينرڤا La Bustina di Minerva* على الصفحة الأخيرة من مجلّة إسبريسّو *Espresso* عام 1985، مرَّةً كلَّ أسبوع لفترةٍ طويلة، ثمّ مرّةً كلَّ أسبوعين. ومثلما نوهّتُ في البداية، كانت مغلَّفات أعواد الثقاب «مينرڤا»[1] تحتوي في جانبها الكرتونيّ الداخليّ على مساحتين صغيرتين خاليتين، من الممكن تسجيل الملاحظات عليهما، لذا كنتُ أُعُدُّ مداخلاتي تلك تعليقاتٍ موجزةً واستطراداتٍ للأمور المختلفة التي تدور في رأسي – عادةً ما تكون مستوحاةً من الأحداث الراهنة، ولكن ليس دائمًا، لأنّني كنتُ أعتبر حدثًا راهنًا أن يتملَّكَني التَّوقُ ذات مساء لإعادة قراءة، ما أدراني، صفحةً من هيرودوت، حكايةً للأخوين غريم، أو قصَّةً مصوَّرةً لباباي.

أدرجتُ كثيرًا من *المغلَّفات* في كتاب *دفتر اليوميّات الثاني الصغير*، في العام 1992، وظهر منها عددٌ معتبرٌ في كتاب *مغلَّف مينرڤا* الذي يُعنى بالمقالات المنشورة حتّى مطلع العام 2000، واستعدتُ بعضَها في كتاب *على مشية القريدس* في العام 2006. ولكنْ منذ العام 2000 وحتّى العام 2015، إذا أحصينا ستّةً وعشرين *مغلّفًا* في السنة، فهذا يعني أنّني كتبتُ أكثر من أربعمئة، وقد رأيتُ أنَّ بعضَها ما زال صالحًا للاستعادة.

1- أوضح إيكو في مستهلّ عموده الأوّل «يا له من خطأ جميل»، الذي نُشِرَ في 31 مارس 1985، أنَّ المقصود من مينرڤا هو ماركة أعواد الثقاب، لا إلهة الحكمة والمعرفة، حتّى لو كان التلميح قائمًا. وأشار إلى أنَّ تلك المغلَّفات الصغيرة تستوعب خواطر شاردة، أرقام هواتف نساء قد يقع المرء في حبّهنّ يومًا مّا، وعناوين كتب ينبغي شراؤها أو تجنُّبها. (المترجم).

يبدو لي أنَّ كلَّ تلك المقالات (أو كلَّها تقريبًا) التي جمعتُها في هذا الكتاب، قد تُقرَأُ بوصفها تأمُّلاتٍ في ظواهر «مجتمعنا السائل»، الذي أتحدَّث عنه في واحدٍ من *المغلَّفات* الحديثة، وقد وضعتُهُ استهلالًا للسلسلة.

وعلى الرغم من أنّي حذفتُ كثيرًا من المتكرِّرات، ما زال بعضُها موجودًا على الأرجح، لأنَّ بعض الظواهر تكرَّرت في هذه الأعوام الخمسة عشر بانتظامٍ يبعث على القلق، ما يحثُّ بالنتيجة على العودة بإلحاحٍ إلى مواضيع معيَّنة ما تزال راهنةً بشكلٍ مخيف.

كلمةٌ بشأن العنوان. الاقتباس من دانتي أليغييري بما لا يقبل الشكّ: («پاپي ساتان، پاپي ساتان أليپّي»، الجحيم، الأنشودة السابعة، البيت الأوَّل). ولكن، كما هو معلوم، على الرغم من محاولة جحافِلَ من الشُّرَّاح إيجاد معنى لهذا البيت، يعتقد سوادُهُم الأعظمُ أنّه بلا أيّ معنى محدَّد. إنَّها كلماتٌ تُشوِّشُ الأفكار، عمومًا، لا سيّما أنّها وردت على لسان پلوتوس، وقد تكون مجديةً لأيّ نوعٍ من الشيطنات. لذا حَسِبتُ أنّه من المناسب استخدامُها عنوانًا لهذه المجموعة التي ليس ذنبي بقدْرِ ما هو ذنبُ الزمان أنَّها غير مترابطة، تنتقل من الديك إلى الحمار -كما يقول الفرنسيُّون- وتتمعَّنُ في الطبيعة السائلة لهذه الأعوام الخمسة عشر.

المجتمع السائل

تعود فكرةُ الحداثة «السائلة» أو المجتمع «السائل»، كما هو معلوم، إلى زيجمونت باومان. مَن يرغب في استيعاب المضامين المتعدِّدة لهذا المفهوم قد يجد ضالَّته في كتاب *حالة الأزمة* (2015)، حيث يحاجُّ باومان وكارلو بوردوني حول هذه المسألة وغيرها.

بدأت معالمُ المجتمع السائل بالتشكُّل تزامنًا مع التيَّار المسمَّى ما بعد الحداثة (وهو بالمناسبة مصطلحٌ «مظلَّة» تحتشد تحته ظواهرُ مختلفة، من العمارة إلى الفلسفة والأدب، وليس بصورةٍ متناسقةٍ دائمًا). كان تيَّارُ ما بعد الحداثة يترصَّد أزمة «السرديَّات العظمى» التي آمنت بقدرتها على تغليب نموذجِ نظامٍ للعالم بأسره؛ وانشغل التيَّارُ بإعادة النظر في التاريخ بطريقةٍ ترفيهيَّةٍ أو هزليَّة، وتقاطَعَ مع النزعات العدميَّة بشتّى الطرق. إلّا أنَّ بوردوني يعتبر ما بعد الحداثة أيضًا في مرحلة انحدار. فهذا التيَّار ذو طابعٍ موقَّت، مررنا من خلاله دون حتّى أن ننتبه إلى ذلك، وقد يُدرَّسُ يومًا مّا مثلما تُدرَّسُ حركةُ ما قبل الرومانتيكيّة. كان نافعًا في رصد حدثٍ بالغ الأهمّيّة وهو في طور النشوء، وتمظهَرَ بما يشبه العبور من الحداثة إلى حاضرٍ ما يزال بلا تسمية.

ويرى باومان أنَّ أزمة الدولة قد تكون مندرجةً بين طبائع هذا الحاضر الوليد (أيُّ حريّةٍ في صنع القرار تتبقّى للدول القوميّة في مواجهة قوى الكيانات العابرة للحدود القوميّة؟). يختفي كيانٌ كان يضمن للأفراد إمكانيّةً لحلِّ مشكلات زماننا المتنوِّعة بأسلوبٍ متجانس، وما إن وقع هذا الكيان في أزمةٍ حتّى تبدَّت أزمةُ الأيديولوجيّات، ومِن ثَمَّ أزمةُ الأحزاب، وبالتالي

أزمةُ كلِّ مناداةٍ إلى مجتمع القيم الذي كان يكفل للفرد أن يشعر بأنّه جزءٌ من جسمٍ يُلبّي احتياجاته.

وفي ظلّ أزمة مفهوم المجتمع برزت فردانيّةٌ لا يُكبَح لها جماح، حيث لا أحد رفيقُ دربٍ لأحد إنّما خصمٌ ينبغي الحذر منه. زعزعت هذه «الذاتيّةُ» أسسَ الحداثة، وجعلتْها هشَّة، ونجَمَ عن ذلك وضعٌ تنعدم فيه أيُّ نقطةٍ مرجعيّة، ويذوب فيه كلُّ شيء بما يشبه السيولة. يُفتَقَدُ اليقينُ القانونيُّ (القضاءُ يُوصَفُ بأنّه عدوّ)، فلا يتبقّى من حلولٍ أمام الفرد الفاقد للمرجعيّة إلّا الظهور بأيّ ثمن، الظهور باعتباره قيمة (تطرَّقتُ كثيرًا إلى هذه الظواهر في *المغلّفات*) وثقافة الاستهلاك. لكنَّنا بصدد استهلاكٍ لا يتطلّع إلى الاستحواذ على أغراض المتعة لإشباع الرغبات، إنّما سرعان ما يُحوِّلها إلى أغراضٍ بائدة، فيتنقَّلُ الفردُ من استهلاكٍ إلى آخَرَ بما يشبه النُّهام الذي لا هدف له (لا يوجد فرقٌ شاسعٌ بين الميزات التي يقدِّمها الجوّال الجديد مقارنةً بسابقه، ولكن يجب إتلاف القديم للمشاركة في عهر الملذّات الجماعيّ هذا).

أزمة الأيديولوجيّات والأحزاب: قال أحدهم إنَّ الأحزاب باتت سيّارات أجرة يركبها قائدٌ غوغائيّ أو زعيمُ مافيا، يتحكّم بالأصوات، ويختار ركوبها بسلاسةٍ وفقًا لما تجود به الفرص – وهذا ما ينزع وصمةَ العار عن الانتهازيّين لا بل يجعل تبدُّلاتهم مفهومةً أيضًا. فليس الأفراد فحسب، بل المجتمع نفسه يعيش ضمن مسارٍ ينحو إلى عدم الثبات متعمِّدًا.

بماذا سنستبدل هذه السيولة؟ لا نعرف حتّى الآن، وستدوم فترةُ الفراغ هذه طويلًا. يلاحظ باومان (مع زوال الإيمان بخلاصٍ يتنزَّلُ من الأعلى، من الدولة أو من الثورة) كيف أنَّ حركات الاستنكار مرتبطةٌ بفترات الفراغ. وهذه الحركات تعرف ما لا تريد، لا ما تريد. وأودُّ التذكير هنا أنَّ إحدى الصعوبات التي أفصَحَ عنها المسؤولون عن الأمن العامّ بخصوص الكتل السوداء[1] هي تعذُّرُ دمغِهِم بسمةٍ مميَّزة، بخلاف ما كان فعلُهُ سهلًا بالأناركيّين، والفاشيّين،

1- «Black Bloc» أسلوبٌ لجأ إليه المتظاهرون في أوروبا إبّان الثمانينات، إذ كانوا يرتدون ثيابًا سوداء ويتلثّمون بأوشحة سوداء لإخفاء هويّاتهم، ويحتشدون في كتلٍ توحي بضخامة مواكبهم. (المترجم).

والألوية الحمراء. إنَّهم يتحرَّكون، ولكنْ ما عاد أحدٌ يعرف متى وفي أيٍّ اتِّجاه. حتّى هم أنفسهم لا يعرفون.

هل توجد طريقةٌ للصمود في وجه السيولة؟ نعم توجد، وهي بالضبط أن نعي أنَّنا نعيش في مجتمعٍ سائلٍ يتطلَّبُ أدواتٍ جديدة، ليصبحَ مفهومًا وربّما مُتَجَاوَزًا. غير أنَّ المصيبةَ هي أنَّ السياسةَ وغالبيّةَ الأنتلجانسيا لم تدركا بعدُ خطورةَ الظاهرة. يبقى باومان حتّى الآن مثل «صوتٍ صارخٍ في البرّيّة»[1].

2015

1- وردت العبارة في الأصل باللاتينيّة «vox clamantis in deserto»، وهي اقتباسٌ من الإنجيل، صيحة البشارة التي أطلقها إشعياء النبيّ لإعداد طريق الرَّبّ. والمقصود هنا أنّه يتعيَّن علينا سماع نصيحة باومان لا تجاهلها. (المترجم).

على مشية القريدس[1]

كاثوليك بأسلوبٍ حرٍّ وعلمانيّون متشدِّدون

عندما يُفتَحُ النقاشُ حول التحوُّلات الروحيّة الكبرى التي وسمت نهاية القرن العشرين، سرعان ما يُشارُ إلى أزمة الأيديولوجيّات، الأزمة التي لا يمكن إنكارها، إذ شوَّشَت الفروقات التقليديّة بين اليمين واليسار. غير أنَّه ينبغي طرح تساؤلٍ عمّا إذا كان سقوط جدار برلين هو سبب ذلك الانهيار، أم أنَّه أحد تداعياته ليس إلّا.

فلنأخذ العِلم: كان يُرادُ له أن يكون أيديولوجيا محايدة، نموذجًا للتقدُّم متَّفقًا عليه لدى الليبراليّين والاشتراكيّين على حدٍّ سواء (وما وَقَعَ الخلافُ إلّا على كيفيّة إدارة هذا التقدُّم، ولمصلحة مَن؛ ويبقى المثال الأبرز هو بيان الحزب الشيوعيّ عام 1848، الذي كان يمتدح المنجزات الرأسماليّة باستحسان، ليَخْلُصَ إلى ما معناه: «والآن نحن كذلك نريد هذه الأشياء»). كان التقدُّميُّ هو مَن يؤمن بالتطوُّر التكنولوجيّ، والرجعيُّ هو مَن يُبشِّر بالعودة إلى التقاليد والطبيعة ذات الأصول البِكْر. ولم تكن حالاتُ «الثورة إلى الوراء» -اللوديُّون[2]

1- يأتي التشبيه من قدرة القريدس على المشي القهقرى بفضل أرجله المتعدِّدة والدقيقة، التي تسمح له بالتراجع إلى الخلف بيسرٍ إذا أحسَّ بخطرٍ داهم. بعض المترجمين نقلوا المعنى فقط، إذ تُرجِم العنوان إلى الإنكليزيّة مثلًا «عكس عقارب الساعة». لكنَّنا ارتأينا الحفاظ على طرافة التشبيه كما ورد في النصِّ الإيطاليّ. (المترجم).

2- الحركة اللوديّة: نسبةً إلى نيد لود، وهو عاملٌ بريطانيٌّ يقال إنَّه حطَّمَ آلة نسجٍ ميكانيكيّة في نوبة غضب. فتحوَّلَ في نظر أجيال العمَّال اللاحقة إلى رمزٍ لمقاومة ظروف العمل المزرية، واحتجاجهم على إنجازات الثورة الصناعيّة حيث تطوَّرت الآلة بما يُهدِّد وظائفهم وأرزاقهم وأشغالهم. فتمرَّدوا على الأسياد والصناعيّين المتعسِّفين في العام 1820، واستمدّوا من فورة لود قدوةً لهم في تحطيم الماكينات الحديثة. (المترجم).

على سبيل المثال، الذين سعوا إلى تحطيم الماكينات- إلّا أحداثًا هامشيّة. أي لم تستطع تلك الحالاتُ أن تُؤثِّرَ في صميم الانقسام الصريح بين المنظورَيْن.

ظهرت بوادرُ التصدُّع في هذا الانقسام في العام 1968، عندما تخالَطَ ستالينيّون عشَّاقُ الفولاذ بأطفال الزهرة[1]، ونشطاءُ الطبقة العاملة الذين تطلَّعوا إلى رفض العمل بحُجَّة الأتمتة، بأنبياء التحرُّر عبْر مُخدِّرات الدون خوان غيرا. ثمّ تفتَّتَ الانقسام حين أصبحت الشعبويّة العالمثالثيّة رايةً مشتركةً لدى اليسار المتطرِّف واليمين المتطرِّف على السواء. والآن نجد أنفسنا إزاء حركاتٍ من قبيل *سياتل*، حيث يلتقي لوديُّون جدد ونشطاء مناخ راديكاليّون، ونشطاء سابقون للطبقة العاملة، مع بروليتاريا رثَّة، وألمعيَّة النخبة، رفضًا للاستنساخ، والبيغ ماك، والتعديل الجينيّ والطاقة الذرّيّة.

حَدَثَ تحوُّلٌ ليس ببسيطٍ في التعارض ما بين العالَم الدينيّ والعالَم العلمانيّ. فمنذ القِدَم ونحن نربط الروحانيّة الدينيّة بالريبة من التقدُّم، والزهد في الدنيا، والتخشُّب الفقهيّ؛ بالمقابل كان العالَم العلمانيّ يعايش تحوُّلاتِ الطبيعة بتفاؤل، ويُبدي ليونةً حيال المبادئ الأخلاقيّة، ويُقْبِلُ بوداعةٍ على الأفكار البرّيّة وإعادة اكتشاف مظاهر التديُّن عند «الآخر».

ولم تَغِبْ عن المؤمنين النداءاتُ إلى «الحقائق الدنيويّة»، وإلى التاريخ بصفته مسيرةً نحو الخلاص (انظر تيبار دو شاردان)، في حين تزايدت «رؤى القيامة التشاؤميّة» لدى العلمانيّين، والطوباويّات السلبيّة لأورويل وهكسلي، أو نظريّات الخيال العلميّ التي تُنبِئُنا بمستقبلٍ مريعٍ تهيمن عليه ذهنيّةٌ علميّةٌ مقيتة. ولكن في نهاية المطاف تعيَّنَ على الوعظ الدينيّ تذكيرنا باللحظة الحاسمة لآخِرِ الزمان، وتعيَّنَ على الإرشاد العلمانيّ غناء أناشيده للقاطرة البخاريّة.

إلّا أنَّ تجمُّع *البابابويز* الأخير يُظهِرُ لنا اللحظة الحاسمة للتحوُّل الذي

1- أطفال الزهرة: لقبٌ مرادف لحركة الهيبيز الأمريكيّة، وذلك لاعتيادهم توزيع الأزهار على الجماهير احتفاءً بالمحبَّة والسلام. (المترجم).

أجراه ڤويتيوا[1]: حشدٌ غفيرٌ من الشبّان يعتنقون الإيمان، لكنّهم بالحُكم على الإجابات التي قدَّموها في هذه الأيَّام لمحاوريهم، يبدون بعيدين كلَّ البعد عن عُصاب التزمُّت، ومستعدّين لتقبُّل علاقات ما قبل الزواج، وحبوب منع الحمل. بعضهم مرنٌ حتّى مع المخدِّرات، وجميعهم مع المراقص الليليّة. وذلك في الوقت الذي يبكي فيه العلمانيّون من التلوُّث الضوضائيّ، وروح *العصر الجديد New Age* التي يبدو أنّها تُوحِّد ثوريّين جدًا مع مريدي المونسنيور ميلينغو[2]، ومترفين مُتفرِّغين لجلسات التدليك الشرقيّة.

تلك ليست سوى البداية، وكم من هذه الأعاجيب سوف نرى!

2000

هل ابتكرنا الكثير حقًّا؟

ظهر الإعلانُ في الإنترنت أغلب الظنّ ولكن لا أدري أين، لأنّه وصلني من خلال البريد الإلكترونيّ. وهو عبارة عن عرضٍ تجاريٍّ زائفٍ يُروِّج اختراعًا جديدًا: Built-in Orderly Organized Knowledge، يُعرَفُ اختصارًا بالأحرف الأولى BOOK (كتاب).

لا أسلاك، لا بطّاريّة، لا دارة كهربائيّة، لا قاطع تيّار أو زرّ، إنّما جهازٌ مضغوطٌ ومحمول، يمكن استعماله حتّى ونحن جالسون قبالة المدفأة. يتكوَّن من متتاليةٍ من الأوراق المرقَّمة (من الورق القابل لإعادة التدوير)،

1- أطلق البابا يوحنا بولس الثاني (كارول يوزيف ڤويتيوا) مبادرة احتفاليّة «اليوم العالمي للشبيبة الكاثوليكيّة» عام 1984، عندما شعر أنَّ أعداد الشباب تتناقص في معاهد إعداد القساوسة. وما لبث ذلك اللقاء الثقافيّ الروحانيّ أن حظي بجماهيريّةٍ واسعة، واستقبل أعدادًا كبيرة من الفتية. ومن هنا شاعت تسميتهم «*papa boys*» في الأوساط الإعلاميّة. (المترجم).

2- إيمانويل ميلينغو، رئيس أساقفة لوساكا عاصمة زامبيا. التحق بدولة الفاتيكان في الثمانينات وحصل على شعبيّة في إيطاليا بفضل ظهوره الإذاعيّ والتلفزيونيّ، وتقرُّبه من فنّانين يساريّين. أثار الجدل عام 2001 إثر زواجه من سيّدة كوريّة في واشنطن، إثر انضمامه لكنيسة التوحيد، مخالفًا بذلك أبرز القوانين الكهنوتيّة الكاثوليكيّة، ما عرَّضه للحرمان الكنسيّ. (المترجم).

وكلُّ واحدةٍ منها تحتوي على أكثر من ألف بِتْ من المعلومات. وهذه الأوراق مدمجةٌ معًا في الترتيب الصحيح بحافظةٍ أنيقة تُسَمَّى «مُجلَّد».

وكلُّ صفحةٍ تُمسَحُ بالتقنيّة البصريّة الضوئيّة، فتُسَجَّلُ المعلومة مباشرةً في الدماغ. وهناك أمرٌ يُسَمَّى «تصفُّح» يتيح الانتقال من صفحةٍ إلى أخرى، سواء أكان إلى الأمام أم إلى الوراء، بنقرة إصبعٍ واحدة. أمّا الخدمة المسمَّاة «فهرس» فتتيح العثور على الموضوع المبتغى وفي الصفحة الصحيحة، وهذا كلُّهُ في اللحظة ذاتها. وبالإمكان الحصول على ميزةٍ تُسَمَّى «مُؤشِّرة الكتاب» تتيح لك العودة إلى حيث توقَّفتَ في المرَّة الماضية، حتّى لو كان الـ BOOK مغلقًا.

ينتهي الإعلان بعدّة تفاصيل أخرى حول هذه الأداة البديعة الفظيعة، ويُبشِّر أيضًا بالانتشار التجاريّ لمنتج الـ Portable Erasable-Nib Cryptic Intercommunication Language Stylus واختصاره PENCIL (قلم رصاص). نحن لسنا بصدد وصلةٍ ساخرةٍ فحسب، إنّما هي الإجابة على التساؤلات المتزايدة والمتخوِّفة بشأن الأفول المحتمل للكتاب أمام تقدُّم الكمبيوتر.

ثمّة أغراضٌ كثيرة ليست قابلةً للتحسين أكثر ممّا هي عليه، منذ أن اختُرِعَتْ، مثل الكأس والملعقة والمطرقة. وعندما أراد فيليب استارك تغيير شكل العصَّارة، أنتَجَ جهازًا في منتهى الروعة لكنَّه يُسْقِطُ الحبوبَ في العصير، في حين تُبقيها العصَّارة التقليديّة في اللُّبّ. قبل أمس غضبتُ في المحاضرة عندما وجدتُ آلةً كهربائيّة باهظة الثمن تعرض الصور بطريقةٍ رديئة: السبّورة الضوئيّة تعرضها بشكلٍ أفضل، دع عنك المسلاط النافذ أو المخيال العتيق.

بينما يوشك القرن العشرون على نهايته يجدر بنا أن نتساءل عمّا إذا كنّا قد اخترعنا أجهزةً مبتكرة كثيرة حقًّا خلال هذه الأعوام المئة. فكلُّ الأشياء التي نستخدمها يوميًّا كانت قد اختُرِعَت في القرن التاسع عشر. سأعدِّد بعضًا منها: القطار (لكنَّ المحرِّك البخاريّ في القرن الأسبق)، السيَّارة (وصناعة الوقود التي تستلزمها)، السفن البخاريّة بالدفع المروحيّ، العمارة بالأسمنت المسلَّح وناطحات السحاب، الغوَّاصة، سكك الأنفاق، الدينامو، العنفة، مُحرِّك الديزل بالنفط، الطائرة (التجربة الحاسمة للأخوين رايت ستقع

بعد ثلاثة أعوام من نهاية القرن التاسع عشر)، الآلة الكاتبة، الغرامافون، الدكتافون، ماكينة الخياطة، الثلّاجة والأغذية المعلّبة، الحليب المبستر، ولّاعة السيجار (والسيجارة)، أقفال الأمان يل، المصعد، الغسّالة، المكواة الكهربائيّة، قلم الحبر السائل، الممحاة، الورق النشّاف، الطوابع، الأنبوب الهوائيّ، المرحاض، الجرس الكهربائيّ، المروحة، المكنسة الكهربائيّة (1901)، شفرة الحلاقة، الأسِرَّة القابلة للطيّ، كرسيّ الحلّاق والكرسيّ المكتبيّ الدوّار، أعواد الثقاب المشتعلة بالقَدْح وأعواد الثقاب الآمنة، السترة المطريّة، السحّاب، الدبّوس المشبك، المشروبات الغازيّة، الدرّاجة الهوائيّة بالإطارات الداخليّة، العجلات ذات الأسلاك الحديديّة والحركة بالجنزير، المركبة العموميّة، الترام الكهربائيّ، والسكك الحديد المرفوعة، السلوفان، السلوليد، الألياف الاصطناعيّة، والمتاجر الضخمة لبيع كلّ هذه الأشياء، واسمحوا لي أن أضيف المصباح الكهربائيّ، الهاتف، التلغراف، الراديو، التصوير الفوتوغرافيّ والسينما. اخترع بابيج آلةً حاسبة قادرةً على القيام بستٍّ وستّين عمليّة جمع بالدقيقة الواحدة، وها نحن أولاء على درب الكمبيوتر.

وبالتأكيد، أمدَّنا قرنُنا بالإلكترونيّات، والبنسلين وأدوية كثيرة أطالت أعمارنا، والموادّ البلاستيكيّة، والانصهار النوويّ، والتلفاز والملاحة الفضائيّة. لعلّي أغفلتُ أشياء أخرى، ولكن من الحقيقة أيضًا أنّ أقلام الحبر السائل والساعات الباهظة الثمن، في أيّامنا هذه، تدأب على إعادة إنتاج التصاميم الكلاسيكيّة التي راجت مئة عامٍ مضت. وفي أحد *المغلّفات* القديمة كنت قد لاحظتُ أنَّ التطوُّر الأخير في مجال الاتّصالات –وهو الإنترنت– يتجاوز الإبراق اللاسلكيّ الذي ابتكره ماركوني إلى إبراقٍ سلكيّ، أو بالأحرى يُسجِّل عودةً (إلى الوراء) من الراديو إلى الهاتف.

وهناك سعيٌ حثيثٌ لنزع سمة الابتكار عمّا لا يقلّ عن اختراعين يُميّزان قرننا: الموادّ البلاستيكيّة والانصهار النوويّ، لأنّنا أدركنا أنّهما يُسمِّمان كوكبنا. فالتقدُّم لا يعني بالضرورة المضيَّ إلى الأمام مهما كلَّفت الأثمان. طلبتُ منهم أن يعيدوا إليَّ سبّورتي الضوئيّة.

2000

إلى الوراء بأقصى سرعة!

في أحد *المغلّفات* القديمة كنتُ قد نوّهتُ إلى أنّنا نشهد نكوصًا تكنولوجيًّا مثيرًا للاهتمام. كنّا قبل ذلك قد سيطرنا على سطوة التلفاز المزعجة بفضل جهاز التحكُّم عن بعد، بحيث يتمكّن المتفرِّج من تقليب القنوات بعجالة، ليدخل والحال هذه في طورٍ من الحرّيّة الإبداعيّة، المسمَّى «طور البلوب[1]». كان التحرُّر النهائيّ من التلفزيون قد وقع بفضل مُسجِّل الفيديو، الذي ساهَمَ بالتطوُّر المعاكس نحو السينماتوغراف. إضافةً إلى أنَّ جهاز التحكُّم مكَّنَنا من كتم الصوت لنعود بذلك إلى فخامة الفيلم الصامت. ثمَّ جاء الإنترنت ليفرض تواصلًا أبجديًّا بجدارة، ويقضي على حضارة الصورة وما تُسَبِّبه من مخاوف. وكان من الممكن عندئذٍ التخلُّصُ من الصور نهائيًّا، بابتكار ما يشبه العلبة التي تُصدِرُ الأصوات حصرًا، ولا تتطلَّبُ حتّى جهاز تحكُّم. خِلْتُ حينذاك أنَّني أسخر مُتخيِّلًا اكتشاف الراديو، غير أنَّي (وقد أوحى إليَّ أحد الآلهة بطبيعة الحال) كنتُ أتنبّأ بقدوم الآي بود.

وفي النهاية بلغنا الشوط الأخير عندما أطلَقَ البثُّ عبْر الأثير، من خلال الاشتراك التلفزيونيّ المدفوع، عصرًا جديدًا للبثّ عبْر الكابل الهاتفيّ، منتقلًا بذلك من الإبراق اللاسلكيّ إلى الاتّصال السلكيّ، وقد تحقَّقت هذه المرحلة كلّيًّا بفضل الإنترنت، فتجاوزْنا ماركوني وعدنا إلى ميوتشي[2].

وكنتُ قد استعدتُ نظريّتي هذه «نظريّة التقدُّم إلى الوراء» في كتابي *على مشية القريدس* حيث طبَّقتُ هذه المبادئ على الحياة السياسيّة أيضًا (ومن جهةٍ أخرى لاحظتُ في *مغلَّفٍ* حديث أنّنا بصدد العودة إلى ليالي العام

1- «Blob» أو «المسخ». الكلمة مقتبسة من برنامج تلفزيونيٍّ فكاهيٍّ راج في إيطاليا الثمانينات (متَّخذًا اسمه من فيلم رعبٍ وخيالٍ علميٍّ أمريكيّ). يعتمد البرنامج على تسلسلٍ سريع لمقاطع منتقاة من برامج تلفزيونيّة، وممزوجة بطريقةٍ تُحدِثُ تأثيرًا غرائبيًّا ومضحكًا. (المترجم).

2- يُنسَب إلى أنطونيو ميوتشي (1808–1889) اختراع الهاتف، في حين أنَّ غوليلمو ماركوني (1874–1937) قد اخترع الإبراق. والمقصود هو أنَّ الإنترنت لكونه يعتمد الاتّصال السلكيّ يعود خطوةً إلى الوراء بالنسبة إلى الإبراق اللاسلكيّ. (المترجم).

1944، حيث دوريّات الجيش في الشوارع، والأطفال والمعلّمات بالبزّة العسكريّة). إلّا أنَّ ما حصل كان أكثر.

إنَّ كلَّ مَن اضطرَّ مؤخَّرًا إلى شراء كمبيوتر (تخرج الحواسيب عن الاستعمال في غضون ثلاث سنوات) أدرَكَ أنَّه لا يسعه العثور سوى على الأجهزة المحمَّلة أساسًا بنظام ويندوز فيستا. والآن، يكفي أن تقرأ على مختلف المدوَّنات ما رأي المستخدمين بنظام فيستا (لن أحيل عليها خشية أن أساق إلى المحاكم)، وما يقوله أصدقاؤك الذين وقعوا في هذا الفخّ، وقراراتهم (الخاطئة ربّما، لكنّها حاسمةٌ جدًّا) بالعدول عن شراء كمبيوتر بنظام فيستا. ولكن إن أردتم جهازًا مُحدَّثًا بمواصفاتٍ معقولة، فيجدر بكم تجرُّع الفيستا. أو ستلتجئون إلى آلة استنساخ عملاقة، بحجم شاحنة طرق دوليّة، يُشيِّدها بائعٌ خدوم، ما زال يستخدم نظام ويندوز إكس بي وما سبقه. وهكذا سيبدو مكتبكم مثل مختبر أوليڤيتّي بحاسوب إليا 1959.

أعتقد أنَّ مُنتِجي الكمبيوتر انتبهوا إلى أنَّ المبيعات تتناقص بشكلٍ ملحوظ، لأنَّ المستخدم يرفض الحصول على نظام فيستا حتّى لو كلَّفَهُ ذلك عدم تحديث جهازه. فما الذي حدث إذًا؟ لفهم الأمر عليكم بالدخول إلى الإنترنت والبحث عن «Vista downgrading» أو ما شابه. سيتَّضح لكم التالي: إذا اشتريتم كمبيوترًا جديدًا بنظام فيستا، ودفعتم فيه ما دفعتم، فبوسعكم إنفاق مبلغٍ إضافيّ (ليس بهذه السهولة، إنّما عبْر إجراءٍ طويلٍ امتنعتُ عن فهمه)، وخوض بعض المغامرات، مقابلَ أن تستعيدوا إمكانيّة التمتُّع بنظام إكس بي أو ما سبقه.

مَن يستخدم الكمبيوتر يعرفْ ما معنى «upgrading»: إمكانيّةٌ تسمح لك بتحديث برنامجك حتّى التحسين الأخير. وبالنتيجة فإنَّ «downgrading» هي إمكانيّة إرجاع جهازك، المتقدِّم جدًّا، إلى الوضع الهانئ الذي كانت تنعم به البرامج الأقدم. وذلك ليس بالمجّان. قبل أن تُبتَكَرَ هذه اللفظة المستحدثة في الإنترنت، كنتَ إذا فتحتَ أيّ قاموس إنكليزي-إيطاليّ عاديّ وجدتَ أنَّ *downgrade* إذا وردت بصيغة اسميّة تعني انحدار وانخفاض، أو نسخة موجزة. وإذا وردت بصيغة فعليّة تعني تراجَعَ، انحطَّ، تَقَلَّصَ، تَحَجَّمَ. أي أنَّهم يعرضون علينا بذلَ عناءٍ وإنفاقَ مبلغٍ معيَّن للحصول على

إمكانيّة تحجيم وتقليص شيءٍ مّا سَبَقَ أن أنفقنا فيه مبلغًا معيّنًا. وقد يبدو الأمر لا يُصدَّق لو لم يكن حقيقيًّا (تحدَّثَ فيه جامباولو بروني بطرافة في المجلّة الإلكترونيّة *Golem-L'indispensabile*)، فعلى شبكة الإنترنت هنالك مئات المساكين الذين يعملون كالمجانين ويدفعون ما يجب دفعه ليتخلَّفَ برنامجُ حاسوبهم. فمتى سوف نصل إلى المرحلة التي ندفع فيها مبلغًا معقولًا، مقابلَ أن يتحوَّلَ حاسوبنا إلى دفترٍ مزوَّدٍ بدواةٍ وقلمٍ بريشة من نوع بيرّي؟

ليس في المسألة مفارقة فحسب. هناك أشكالٌ من التطوُّر التكنولوجيّ لا يمكننا الذهاب بها أبعد ممّا هي عليه. لا يسعنا اختراع ملعقة آليّة، فالملعقة التي كانت صالحة قبل ألفي سنة ما تزال صالحة إلى يومنا هذا. ولقد استغنينا عن الكونكورد، مع أنّها كانت تصل باريس بنيويورك بثلاث ساعات. لستُ واثقًا ما إذا كانوا قد أحسنوا صنعًا، لكنَّ التقدُّم قد يعني أيضًا أن نرجع خطوتين إلى الوراء، كالعودة إلى الدفع المروحيِّ عوضًا عن البترول وأشباهه. تطلَّعوا نحو المستقبل! إلى الوراء بأقصى سرعة!

2008

أولد من جديد، أولد من جديد، في الألف وتسعمئة وأربعين

الحياة ليست سوى تذكُّرٍ بطيء للطفولة. موافق. إلّا أنَّ ما يجعل استحضار الذكريات حلوًا هو أنّه في أفق النوستالجيا تغدو جميلةً حتّى اللحظاتُ التي بدت لنا أليمةً حينها، بما فيها يومَ انزلقنا في الحفرة فالتوت قدمنا، واضطررنا للمكوث في المنزل خمسة عشر يومًا للتجبير، بالضمادة المنقوعة بزلال البيض. على المستوى الشخصيّ، أذكر بحنينٍ تلك الليالي التي أمضيتُها في الملجأ أثناء القصف الجويّ: أيقظونا من أوج نومةٍ عميقةٍ وهانئة، وجرجرونا بلباس النوم والمعطف إلى سردابٍ رطب، مبنيٍّ من الأسمنت المسلَّح بالكامل، تضيئه مصابيح صغيرة وخافتة. رحنا نلعب لعبة المطاردة في حين كانت تدوّي فوق رؤوسنا ضرباتٌ بكماء لا نعرف إن

كان مصدرها القنابل أم المضادات الجويّة. كانت أمّهاتنا يرتجفن، من البرد ومن الخوف، بينما كان الوضع بالنسبة إلينا مجرَّد مغامرة غريبة من نوعها. هذه هي النوستالجيا: نحن مستعدُّون لتقبُّل كلِّ ما يُذكِّرنا بأعوام الأربعينات المروِّعة، إنَّها الضريبة التي ندفعها لشيخوختنا.

كيف كانت المدن في تلك الفترة؟ ظلامٌ دامسٌ في الليل، عندما يُجبرُ المارُّون القلائل بسبب فرض التعتيم على عدم استعمال المشاعل المزوَّدة بالبطّاريّة، إنّما تلك التي تعمل على الدينامو مثل ضوء الدرَّاجة، الدينامو الذي يُشحَن بالقَدْح فتتشنَّجُ على إثره اليد لتفعيل ما يشبه الزناد. ثمَّ باتت الغلبة لحظر التجوُّل نهائيًّا، ومُنِعَ الجميع من الخروج إلى الشوارع.

أمّا في النهار فكانت المدينة تسلكها وحداتٌ عسكريّة، حتّى العام 1943 على الأقلّ، عندما كان الجيش الملكيّ يتّخذ المدنَ ثكناتٍ لعساكره، لكنَّ هذه المظاهر ازدادت حدَّتها في أيّام جمهوريّة سالو، حيث تجوب المدنَ الكبرى أرتالٌ ودوريّاتٌ تابعةٌ لمشاة البحريّة فيلق سان ماركو، أو عناصر الألوية السوداء، في حين تتحرَّك جماعات المناضلين في البلدات بسهولةٍ أكبر، وهؤلاء وأولئك كلُّهم مدجَّجون بالسلاح حتّى أسنانهم. كانت التجمُّعات محظورة في بعض المواقع من المدينة التي طغت عليها معالم العسكرة. وما زالت طليعة باليلّا للفتية الفاشيّة ومنظَّمة الفتيات الإيطاليّات تحتشد هنا وهناك بالبزّة العسكريّة، وينصرف التلاميذ بالمئزر الأسود من المدرسة عند منتصف النهار، بينما تتَّجه الأمَّهات إلى دكاكين البقالة لشراء القليل المتبقّي، وإن أردتَ أن تتناول الخبز لا أقول الأبيض إنّما غير المقزِّز المخلوط بنشارة الخشب، فينبغي لك أن تدفع مبلغًا معتبرًا في السوق السوداء. وفي المنازل كانت الأضواء خافتة؛ دع عنك التدفئة، المحدودة بالمطبخ فقط. وفي الليل كنّا ننام وبجوارنا طوبةٌ ساخنةٌ في السرير، أذكر بحنينٍ حتّى قضمات الصقيع. والآنَ لا يسعني أن أقول إنَّ كلَّ هذا قد عاد، ليس بأكمله بالتأكيد. لكنّي بدأتُ أشمُّ رائحته ثانيةً. فلنبدأ بأنَّ ثمّة فاشيّين في الحكومة. ليسوا هم وحدَهم، ليسوا فاشيّين بالمعنى الدقيق، ولكنْ لا أهميّة لذلك، فمن المعلوم جيِّدًا أنَّ التاريخ يتمظهر مرَّتين، في الأولى على شكل مأساة وفي الثانية على شكل مهزلة. ومن ناحيةٍ أخرى كانت الجدران

في ذلك الزمان تمتلئ بملصقاتٍ يظهر فيها أمريكيٌّ أسود قميء (ومخمور) يشبك بيده الملتوية تمثال أفروديت الميلوسيّة. واليومَ أرى في التلفاز زنوجًا، وجوههم متوعِّدة وأجسادهم نحيلة، يجتاحون أراضينا بالآلاف، وللصراحة يبدو لي الناس من حولي أشدَّ ذعرًا ممّا كانوا عليه في تلك الآونة.

المئزر الأسود يعود إلى المدارس، ليس لديَّ أيُّ موقفٍ ضدّه، فهو أفضل من الـ T-shirt ذي الماركة الذي يرتديه المتنمِّرون، سوى أنّني أتحسَّسُ في فمي مذاق *المادلين* المغمَّسة بالزيزفون، ويخطر في بالي أن أقول على غرار غوتسانو[1]: «أولد من جديد، أولد من جديد، في الألف وتسعمئة وأربعين». قرأتُ منذ مدَّةٍ قصيرةٍ في إحدى الصحف أنَّ عمدة نوڤارا اليمينيّ المتطرِّف حظر تجمُّع أكثر من ثلاثة أشخاص في المنتزهات ليلًا. أترقَّب العودةَ إلى حظر التجوُّل برعشةٍ بروستيّة[2]. جنودنا يقاتلون ضدَّ متمرِّدين ملوَّني البشرة في مناطق من آسيا (ما عادوا يتوجَّهون إلى أفريقيا لسوء الحظّ). لكنَّني أرى وحداتٍ من الجيش، مسلَّحين بعتادٍ كامل، يتجوَّلون بالبزّة المموَّهة حتّى على أرصفة مدننا. الجيش، الآن كما في ذلك الحين، الجيش لا يقاتل على الحدود فحسب بل يتكفَّل بمهام الشرطة أيضًا. يبدو لي أنَّني أجد نفسي في ***روما مدينةٌ مفتوحة***. أقرأ مقالاتٍ وأسمع خطاباتٍ مماثلةً إلى حدٍّ كبير لتلك التي كنت أقرأها آنذاك على صفحات ***الدفاع عن العرق***، التي لم تكن تشنُّ هجومًا عنيفًا على اليهود وحدَهم، إنّما على الغجر والمغاربة والأجانب بالعموم. الخبز يغدو باهظ الثمن. وقد بدأوا يُنبِّهوننا إلى ضرورة توفير الوقود، وتحديد هدر الطاقة الكهربائيّة، وإطفاء أضواء واجهات المحلّات في الليل. تتناقص السيَّارات في حين يظهر ***لصوص الدرّاجات الهوائيّة*** مجدَّدًا. وكلمسة إبداع، قد نُقنِّن المياه عمّا قريب. ليس لدينا بعدُ حكومةٌ في

1- يقتبس أمبرتو إيكو عنوان مقالته من بيتٍ للشاعر غويدو غوتسانو ورد في قصيدة «صديقة الجدّة سبيرانسا»، وفيها يحنُّ الشاعر إلى أعوام طفولته وأجوائها. سوى أنَّ غوتسانو يقول في قصيدته: أولد من جديد في الألف وثمانمئة وخمسين؛ في حين أنَّ إيكو يُحرِّفها إلى ألف وتسعمئة وأربعين، لتتناسب مع ذاكرته وطفولته. (المترجم).

2- بروستيّة، نسبةً إلى مارسيل بروست، وقد أشار إيكو إليه ضمنيًّا حين أورد حلوى المادلين بالزيزفون التي تُحرِّض لديه ذكرى مؤثِّرة من الطفولة والماضي. (المترجم).

الجنوب وأخرى في الشمال، ولكن هناك مَن يعمل لدفع الأمور إلى ذلك الاتّجاه. أفتقد قائدًا يعانق ويُقبّلُ بعفّةٍ خدود مزارعاتٍ ريفيّاتٍ[1] يانعات، سوى أنَّ لكلٍّ ذوقه.

2008

تسقط إعطاليا[2]

في مغلّفٍ كتبتُه منذ حوالي العام، كشفتُ عن تكاثر المواقع المعادية لليقظة القوميّة والمواقع المناصرة للبوربون على شبكة الإنترنت. واليومَ نستطلع على الجرائد أنَّ ثلث الإيطاليّين يُؤيِّدون حكم الإعدام. سنعود إلى مستوى الأمريكيّين *(اللعنة على بيكّاريا)*، ومستوى الصينيّين والإيرانيّين. وهناك نداءٌ آخر ومُؤثّر للعودة إلى الماضي، أي الحاجة التي تزداد إلحاحًا لإعادة فتح بيوت الدعارة، لا دُور الجنس العصريّة المنسجمة مع الحالة، إنّما تلك المواخير السائدة في الماضي، حيث المبولة الخالدة عند المدخل، والقوَّادة التي تصيح: «إلى الغرف يا شباب، فهذا ليس مرتعاً للعاطلين!». ومن المؤكّد أنّه لو أُبيحَ فعلُ كلِّ شيء في ظلّ فرضِ التعتيم وربّما حظر التجوُّل، لكان ألذَّ كثيرًا. بالمناسبة، ألا تُذكِّر المسابقةُ لاختيار العارضات التلفزيونيّات بالحلم الذي لطالما راوَدَ الراقصات المغمورات بالعمل في عروض الملاهي الليليّة الخالدة؟

في الأعوام الأولى من الخمسينات قرَّرتُ أنا وروبرتو ليبدي أن نؤسِّس جماعةً مناوئةً للحسّ الوطنيّ. كوسيلةٍ للسخرية من التربية التي تلقَّيناها

1- «Massaie Rurali» اسم منظَّمة فاشيّة كانت تهدف إلى تعليم الفلّاحات وتثقيفهنَّ. (المترجم).

2- تحريف مقصود لمحاكاة ما ورد في عنوان المقال باللغة الإيطاليّة. يضع إيكو كلمة «Itaglia» المنحوتة من «taglia» بمعنى (قصَّ، قطع) و«Italia». لا يوجد معنى للكلمة المنحوتة ولا تُستخدم إلّا أحيانًا للسخرية من هوان البلاد حيال مشكلةٍ تمرّ بها. مثالٌ على ذلك كلمة «سورياليا» للدلالة على ظواهر عجيبة قد تحدث في سوريا. فارتأينا الحفاظ على عنصر الدعابة، ونحت كلمة «إعطال» من (عُطْل، تعطيل) ودمجها بكلمة «إيطاليا». لذا وجب التنويه. (المترجم).

أثناء الدكتاتوريّة المشؤومة، التي كانت ترشُّ التوابلَ القومجيّة على كلّ الصلصات، إلى حدٍّ أصابنا بالغثيان. ناهيك أنَّ تلك الآونة شهدت صعودًا لمجموعات من الفاشيّين الجدد. فضلًا عن أنَّ التلفاز حينها لم يكن يعرض سوى قناة واحدة تبثُّ بالأبيض والأسود، وكان لا بدَّ لنا من إيجاد طريقة لقضاء السهرة. كانت جماعتنا المناوئة للوطنيّة تعتمد «مارش راديتزكي» نشيدها الخاصّ، وتقترح بطبيعة الحال إعادة تقييم البعد الأخلاقيّ لشخصيّة جوزيف راديتزكي اللامعة والمعادية ليقظة الإيطاليّين واتّحادهم. وكنّا سنطالب بإجراء استفتاء لإرجاع لومبارديا وڤينيتو إلى النمسا، ونابولي إلى البوربون، وروما إلى البابا طبعًا، والتنازل عن بيمونته لفرنسا، وصقليّة لمالطا. وكان ينبغي إسقاط تماثيل غاريبالدي من كلّ الساحات الإيطاليّة، ومحو أسماء الشوارع التي تُمجِّد كاڤور وشهداء اليقظة وبقيّة الوحدويّين. وكنّا في الكتب المدرسيّة سندسُّ شكوكًا حادّة حول أخلاق مناضلين مثل كارلو بيزاكانه وإنريكو توتي. وهلمَّ جرًّا.

انحلَّت الجماعة عقب اكتشافٍ صادم. فلكي نكون مناوئين للوطنيّة بحقّ، عازمين على خراب إيطاليا، فمن الضروريّ أن نعيد الاعتبار للدوتشي، الرجل الذي خرَّب إيطاليا فعلًا، ما يعني أنّنا كنّا سنغدو فاشيّين جدًا. فألغينا المشروع إثر اشمئزازنا من هذا الخيار.

كنّا في ذلك الحين نلهو ونسخر، إلّا أنَّ كلَّ ما تخيَّلنا حدوثه تقريبًا صار يتحقَّق الآن-حتّى لو لم يخطر في بالنا أن نفعل بالعلم الوطنيّ ما أعرَبَ بوسّي عن نيَّته فعله به، وحتّى لو لم تخطر في ذهننا تلك الفكرة العظيمة بالاحتفاء بالذين قتلوا الرماةَ في بورتا بيا[1].

في تلك الحقبة كان الحزب الديمقراطيّ المسيحيّ في سدّة الحكم، وقد تولّى صدَّ الكنيسة لصون علمانيّة الدولة. وتجلّت أقصى سمات

1- ما فعله أمبرتو بوسّي، زعيم عصبة الشمال اليمينيّة المتطرّفة، هو أنّه في أحد اجتماعاته الحزبيّة حقَّرَ العلم الإيطاليّ قائلًا إنّه يصلح لمسح مؤخِّرته. أمّا النقطة الثانية فتخصُّ متطرِّفين أرادوا الاحتفاء بجنود الدولة البابويّة الذين تصدّوا للوطنيّين الإيطاليّين في معركة بورتا بيا، التي تعتبر ذروة اليقظة الإيطاليّة، حيث استطاع الوطنيّون الاستيلاء على روما وجعلها عاصمة لمملكة إيطاليا الموحَّدة في 20 سبتمبر 1870. (المترجم).

الإكليروسيّة الجديدة في التأييد الذي منحَهُ توليانّي للمادّة السابعة السيّئة الصيت من الدستور، التي تعترف بالمعاهدات اللاتيرانيّة[1]. وكانت حركة «الإنسان اللامبالي» قد انحلَّت منذ مدّة، وهي التي أثارت لبعض الوقت أحاسيس مناهضة للوحدة، ومرتابة بالعاصمة روما اللصّة والفاسدة، ورافضة لبيروقراطيّة الدولة المحكومة من متكاسلين يمصُّون دماء الناس الخيِّرين والنشيطين. لم يخطر في أيّ زاويةٍ من دماغنا أنَّ تصرُّفاتٍ من هذا القبيل ستغدو يومًا مّا تصرُّفات وزراء في الجمهوريّة.

لم تخطر لنا تلك الفكرة الساطعة بأنَّك إذا أردتَ تجريد البرلمان من كرامته وسلطته الفعَّالة، فما عليك إلّا أن تصوغ قانونًا لا يُنتَخَبُ النوّابُ بموجبه من قِبَلِ الشعب، إنَّما يُعيِّنهم الرئيس قبل الانتخابات. كان يبدو لنا أنَّ التطلُّع للعودة التدريجيّة إلى المجلس التشريعيّ للهيئات والنقابات الفاشيّة ضربًا من الخيال العلميّ.

كنّا نريد هدم إيطاليا، ولكن تدريجيًّا، وخِلْنا أنَّ الأمر سيستغرق قرنًا من الزمان على الأقلّ. فإذا بنا نصل إلى غايتنا في وقتٍ أبكر، وها هي شركة الطيران الإيطاليّة تنهدم أيضًا، إضافةً إلى إيطاليا. لكنَّ الأجمل هو أنَّ العمليّة لا تعتمد على انقلاب ألمعيّة النخبة، أي نحن المثاليّين الأجاويد القلائل، إنّما تتحقَّق بموافقة أكثريّة الإيطاليّين.

2008

1- اللاتيرانيّة نسبةً إلى منطقة لاتيرانو في روما حيث وقَّعت الدولة الإيطاليّة ودولة الفاتيكان معاهدات تاريخيّة لتنظيم العلاقة بينهما في العام 1929؛ وكان بالميرو توليانّي رئيس الحزب الشيوعيّ قد صدَّقَ على هذه المعاهدة. ويبدو أنَّ المفارقة التي يلمح لها إيكو هنا هي أنّ الديمقراطيّ المسيحيّ تحرَّكَ ضدّ الكنيسة في فترةٍ معيّنة، بينما وافق الشيوعيّ على معاهدة تعترف بدولة الكنيسة. (المترجم).

أن نكون مرئيِّين

لوِّحْ بيدك تحيَّةً للكاميرا

في الوقت الذي أَختَبِرُ فيه الاحتباس الحراريّ وزوال الفصول البينيّة، وأجد إثباتاتٍ عليهما في عدّة مداخلات موثوقة، أتساءل كيف سيتجاوب حفيدي الصغير، الذي لم يتجاوز السنتين ونصف السنة بعد، عندما سيسمع يومًّا مّا كلمة «ربيع» أو يقرأ في المدرسة قصائد تتحدَّث عن بدايات الإعياء الخريفيّ. كيف سيتجاوب مع سيمفونيّة ڤيڤالدي *الفصول الأربعة* حينما يكبر؟ لعلَّه سوف يحيا في عالمٍ مختلفٍ يكون قد اعتاده كلّيًّا، ولن يتألَّمَ من اختفاء الربيع إذا رأى تفتُّحَ البراعم عن طريق الخطأ في شتاءاتٍ شديدة السخونة. وفي واقع الأمر، عندما كنتُ أنا صغيرًا لم أختبر وجود الديناصورات، ومع ذلك استطعتُ أن أتخيَّلها. لعلَّ الربيع يعكس حنينَ شخصٍ طاعنٍ في السنّ، كالليالي التي أمضيتُها في الملجأ أثناء القصف الجوّيّ للعب الغمّيضة.

سيبدو لهذا الطفل حين يكبر عندئذٍ أنَّه من الطبيعيّ أن يعيش في عالمٍ تكون فيه إمكانيّةُ الظهور ضرورةً أساسيّة (أهمّ من الجنس والمال). حيث كي ينال المرء اعتراف الآخرين، وكي لا تبتلعه المجهوليّةُ المرعبةُ التي لا تطاق، سوف يبذل الغالي والنفيس ليصبح مرئيًّا، وليظهر على شاشة التلفاز أو على تلك القنوات التي ستحلّ محلَّ التلفاز في العصر القادم. حيث لن تتوانى أمَّهاتٌ صادقاتٌ عن فضح أقذر خفايا العائلة في برنامجٍ يُمزِّق القلوب، بغية أن يعرفهنَّ الناسُ في اليوم التالي في متجر الأغذية ويطالبونهنَّ

بإمضاء. حيث ستقول الفتيات (وهذا يحصل في أيّامنا حاليًّا) إنَّهنَّ يرغبن في أن يَكُنَّ ممثِّلات، لا ليصبحن مثل إليونورا دوزي أو غريتا غاربو، لا لأداء أدوار شكسبير أو للغناء مثل جوزفين بيكر على الأقلّ -التي لم تكن ترتدي سوى الموز على خشبة مسرح فولي بيرجير- ولا حتّى للقفز الرشيق كراقصات الملهى في زمنٍ ولّى؛ إنَّما لكي يتسنّى لهنَّ العمل كعارضاتٍ حسناوات في برنامج مسابقات: أي توقًا للظهور المحض حيث لا داعيَ لموهبةٍ أو مؤهِّلات.

سيشرح أحدهم في المستقبل لهذا الطفل (ربّما في المدرسة، إلى جانب تاريخ ملوك روما وسقوط برلسكوني، أو في أفلامٍ تاريخيّةٍ معنونةٍ من قبيل *كان يا ما كان سيّارة الفيات* التي ستصنِّفها مجلّة ***دفاتر السينما*** أفلامًا «بروليّة»، على غرار أفلام «البيبلوم»)[1] أنَّ البشر منذ القِدَم لطالما رغبوا في أن ينالوا اعتراف الذين يحيطون بهم. بعضُهُم بذل قصارى جهده ليكون خيرَ نديمٍ في السهرات في الحانة، وآخرون تألّقوا في كرة القدم أو رمي السهام في احتفالات أعياد القدِّيسين، أو في سرد كيف اصطادوا سمكةً ضخمة. أمّا البنات فأردنَ أن يلفتن الأنظار من خلال ريشة الطائر التي يتزيَّنَّ بها يوم الأحد للذهاب إلى القدّاس. وتبارت الجدَّات على نيل لقب أفضل طبّاخةٍ أو خيّاطةٍ في القرية. والويل لو لم يحدث هذا، لأنَّ الإنسان لمعرفة مَن يكون، يحتاج إلى نظرة **الآخر**، وكلَّما تعرَّفَ على ذاته (أو ظنَّ أنَّه تعرَّفَ على ذاته) أحبَّهُ **الآخرُ** وأعجب به أكثر. أمَّا إذا كان هنالك عوضًا عن **آخر** واحد، مئةٌ أو ألفٌ أو عشرة آلاف **آخر**، فذلك أفضل كثيرًا، إذ يشعر الإنسان أنَّ وجوده قد تحقَّقَ بشكلٍ تامّ.

وبالتالي، في عصرٍ سيقوم على تنقُّلاتٍ كبيرة ومتواصلة، حيث كلُّ امرئٍ يفتقد مسقطَ رأسه وإحساسَهُ بالجذور، ويكون الآخَرُ شخصًا نتواصل معه

1- البروليّة نسبةً إلى برول، اختصار بروليتاريا، شعب أوقيانوسيا في رواية 1984 لجورج أورويل. أمّا البيبلوم فهو نوعٌ من الأفلام التاريخيّة التي يبالغ فيها المخرجون بالمؤثّرات والتشويق والدراما على حساب مصداقيّة الحدث التاريخيّ أو الميثولوجيّ الذي تتناوله، وغالبًا ما كان مذمومًا من الأوساط الأكاديميّة السينمائيّة، المشار إليها هنا بالمجلّة الفرنسيّة الشهيرة «*Cahiers du cinéma*». (المترجم).

عن بُعد عبْر الإنترنت، سيبدو من الطبيعيّ أن يحاولَ البشرُ نيل الاعتراف بطرائق بديلة. وهكذا سينوب عن ساحة الضيعة جمهورٌ عالميٌّ تقريبًا يتابع برنامج التلفزيون أو ما سيحلُّ محلَّه.

لكنَّ ما سيعجز حتّى أساتذة المدرسة أو مَن في حُكمهم عن تذكُّره، ربّما، هو أنَّه في ذلك الزمان الغابر كان هناك تفريقٌ صارمٌ للغاية يُميِّز بين الشهرة والتشهير. كان الجميع يتطلَّعون ليصبحوا مشاهير مثل أمهر نبَّال أو أحسن راقصة، ولكن لا أحد كان يرغب في أن يُشهَّرَ به لكونه صاحب أكبر قرون في البلدة، أو أن يُغتابَ بصفته المصاب بعجزٍ جنسيٍّ مُبين، أو العاهرة العديمة الاحترام. لا بل كانت العاهرة والحال هذه تحاول إقناع الناس أنَّها راقصة، وكان العاجز يقصُّ مغامراته الجنسيّة البانتاغرويليّة[1]. في عالم الغد (إن كان مماثلًا للذي يتشكَّل أمامنا اليوم) سيختفي هذا التفريق: سيكون المرء مستعدًّا لفعل أيّ شيء حتّى يكونَ «مرئيًّا» أو «محكيًّا». لن يكون هناك فرقٌ بين شهرة عالِم مناعة بارز، وشهرة الفتى الذي قتل أمَّه بعدَّة ضرباتٍ بالفأس. بين العشيق الفحل، وبين مَن يفوز بمسابقةٍ لصاحب أقصر عضوٍ ذكريٍّ على مستوى العالم. بين مَن أسَّسَ مستشفى لمعالجة الجذام في إفريقيا الوسطى، وبين مَن نجح في التحايل الضريبيّ. كلُّ شيء سيهون مقابل أن يظهر المرء، ليعرفَهُ الصيدلانيُّ (أو المصرفيُّ) في اليوم التالي.

وإن بدوتُ لأحدهم أنّني أُنذِرُ بالشؤم، أسأله: ما المغزى من سعي بعضهم، حتّى في أيّامنا (لا بل منذ عقود)، للوقوف خلف حامل الميكروفون ليكونوا مرئيّين ويُلوِّحوا بأيديهم تحيّةً للكاميرا؟ ما المغزى من ذهابهم للمشاركة في برنامج *الغجريّة* مُتيقِّنين حتّى من عدم معرفتهم بأنَّ سنونو واحدًا لا يصنع الربيع؟[2] ولكنْ مَن يبالي! سيصبحون مشاهير.

غير أنّي لا أُنذِرُ بالشؤم. لعلَّ الطفل الذي أتحدَّث عنه سوف ينتسب إلى طائفةٍ جديدة، تكون أهدافها التواري عن العالم، النفي في الصحراء،

1- نسبةً إلى «حياة غارغانتوا وبانتاغرويل» للأديب الفرنسيّ فرانسوا رابليه (1483-1553). (المترجم).

2- «سنونو واحد لا يصنع الربيع»، مقولة لسقراط. وتعني أنَّ مؤشّرًا واحدًا لا يكفي للخلوص إلى نتيجة معتمدة. (المترجم).

الانغماس في الحبر، الاعتزاز بالصمت. وفي الحقيقة سبَقَ للأمر أن وقع، إبّان أفول عصرٍ بدأ فيه الأباطرة بتعيين حصانهم سيناتورًا.

2002

الله شاهِدٌ عليَّ أَنَّني أحمق...

صباحَ أمس كنتُ في مدريد أتناول الفطور مع مَلِكي. لا أودُّ أن يُساء فهمي: فعلى الرغم من مشاعري الجمهوريّة الفيَّاضة، نُصِّبْتُ منذ عامين دوقًا لمملكة ريدوندا (بلقب **دوق جزيرة اليوم السابق**). وإنَّني أتقاسم هذا الشرف الدوقيّ مع بيدرو ألمودوفار، أنطونيا سوزان بيات، فرانسيس فورد كوبولا، أرتورو بيريث-ريبرته، فرناندو ساباتير، بييترو تشيتاتي، كلاوديو ماغريس، راي برادبيري وغيرهم، تجمع بينهم بشكلٍ أو بآخر ميزةٌ مشتركة وهي استلطاف الملك لهم.

حسنًا. تقع جزيرة ريدوندا في الهند الغربيّة (الكاريبي)، على مساحة ثلاثين كيلومترًا مربّعًا (بحجم منديل)، غير مأهولة بالسكّان نهائيًّا، وأعتقد أنَّ لا أحد من عواهلها قد وطئتها قدمه على الإطلاق. اشتراها مصرفيٌّ في العام 1865، يدعى ماثيو دودي شيل، وسأل الملكة فيكتوريا أن تعلنها مملكةً مستقلّة، الأمر الذي فعلته جلالتُها بلا تردُّد لأنّها لم ترَ في الجزيرة أيَّ تهديدٍ على الإمبراطوريّة الاستعماريّة البريطانيّة. وعلى مدى الأعوام، انتقلت الجزيرة لعدَّة ملوك، وقد باع بعضُهم اللقب أكثر من مرّة، ما أسفر عن مشاجرات بين المطالبين بالعرش (إذا أردتم معرفة التاريخ الكامل لتعدُّد الأسر المالكة ابحثوا عن ريدوندا في ويكيبيديا). وفي العام 1997 تنازل عنها الملك الأخير لكاتبٍ إسبانيٍّ شهير، خابيير ماریاس (أعماله مترجمة على نطاقٍ واسع حتّى في إيطاليا)، الذي راح يُعيِّن الأدواق يمنةً وشِمالًا.

هذه هي كلُّ الحكاية، التي تتَّسم بقليلٍ من الجنون البطافيزيقيّ بطبيعة الحال، ولكنْ بالمحصِّلة، أن تصبح دوقًا هو أمرٌ لا يحدث كلَّ يوم. ومع هذا، فالمسألة ليست هنا: في أثناء محادثتنا قال ماریاس شيئًا يستحقُّ التأمّل حقًّا. كنّا نتناقش حول معطى بديهيٍّ وهو أنَّ الناس في هذه الأيّام مستعدُّون

لفعل أيّ شيء مقابل الظهور على شاشة تلفزيون، حتّى لو مِثلَ الأحمق الذي يُلوِّح بيده تحيّةً للكاميرا من خلف المتحاورين. ومؤخَّرًا توجَّهَ شقيق فتاةٍ مقتولةٍ بوحشيّة في إيطاليا، توجَّهَ إلى الوكيل الفنيّ ليلي مورا، بعد أن تصدَّرَ صفحات الأخبار بسبب تلك الفاجعة، وطلب منه وظيفةً تلفزيونيّة ليتمكَّن من استثمار شهرته المأساويّة إلى أقصى حدّ. ثمّ إنَّنا نعرف مَن هم مستعدُّون للتصريح بأنَّ زوجاتهم ركَّبْنَ لهم قرنين، أو أنَّهم عاجزون جنسيًّا، أو أنّهم محتالون، في سبيل أن تتسلَّطَ عليهم أضواء الإعلام. ولا يخفى على علماء نفس الجريمة أنَّ ما يُحرِّض القاتل المتسلسل هو رغبته في أن يُكْشَفَ أمره ليصبح مشهورًا.

فتساءلنا: لِمَ كلُّ هذا الهوس الجنونيّ؟ طرح مارياس فرضيّةً مفادها أنَّ ما يحدث حاليًّا مردُّهُ أنَّ البشر ما عادوا يؤمنون بالله. ففي الماضي كان الإنسان موقنًا أنَّ لكلّ أفعاله مُشاهِدًا واحدًا على الأقلّ، على درايةٍ بكلّ مبادراته ونواياه، وبإمكانه أن يتفهَّمها أو أن يدينها إن اقتضت الضرورة. ولعلَّ هذا الإنسان كان منبوذًا، أو فاشلًا، أو «تعيسًا» يتجاهله أقرانه، وقد ينساه الجميع مباشرةً بعد دقيقة من وفاته؛ لكنَّه كان على يقينٍ من أنَّ واحدًا على الأقلّ يعرف عنه كلَّ شيء.

«يعلم الله ماذا عانيتُ» كانت تقول الجدّة الطريحة الفراش التي تخلَّى عنها أحفادها. «يعلم الله أنّي بريء» كان المحكوم ظلمًا يعزِّي نفسه. «يعلم الله كم ضحَّيتُ من أجلك» كانت الأمّ تقول لابنها ناكر المعروف. «يعلم الله كم أحبّك» كان العاشق المهجور يصيح. «الله وحدَه يعلم بما مررتُ» كان المنحوس يتباكى وهو الذي لا تهمُّ مصائبُهُ أحدًا في شيء. كان الله دائمًا يُستَحضَر كأنَّه عينٌ لا تفوتها فائتة، ونظرتها تعطي معنى حتّى للحياة البائسة والفارغة من أيّ معنى.

فما الذي يتبقَّى عقب اختفاء، أو إقصاء، هذا الشاهد الذي يبصر كلَّ شيء؟ تتبقَّى عين المجتمع، عين الآخرين، التي ينبغي للمرء إظهار نفسه أمامها مخافةَ الغرق في ثقب المجهوليّة الأسود، في دوَّامة النسيان، حتّى لو كلَّفه الثمن أن يختار دور مخبول القرية الذي يتعرَّى إلّا من سرواله ويرقص على الطاولة في الحانة. إنَّ الظهور على الشاشة هو البديل الوحيد

عن الارتقاء إلى العلياء. وهو بديلٌ مُرضٍ بالعموم: نرى أنفسنا (ويروننا) في الآخِرة، وبالمقابل الكلُّ في تلك الآخِرة يروننا هنا، في حين أنَّنا هنا نحن أيضًا. تخيَّلوا أيُّ امتيازٍ هو! أن نتمتَّع بكلّ امتيازات الخلود (حتّى لو كان سريعًا وزائلًا)، وأن نحظى في الوقت نفسه بإمكانيّة أن يُحتَفى بنا في بيتنا (على الأرض) لأنّنا ارتقينا إلى السماء العليا.

والبلاء هو أنَّه في مثل هذه الحالات يقع التباسٌ بالمعنى بين الاعتراف بنا والتعرُّف علينا. فنحن جميعًا نطمح أن ننال «الاعتراف» عن أفضليّاتنا، أو تضحياتنا، أو ميزةٍ جميلةٍ فينا. ولكنْ بظهورنا على الشاشة، عندما يرانا أحدهم في المقهى ويقول لنا: «رأيتُ حضرتك البارحة في التلفاز»، فإنَّه بكلّ بساطة «يتعرَّف علينا»، أو على وجهنا بالأحرى. وهذا أمرٌ مختلفٌ كلّيًّا.

2010

لماذا السيّدة العذراء فقط؟

في أثناء الأمسيات التي نظَّمتها صحيفة *لاريبوبليكا* في مدينة بولونيا، الجمعة الفائتة، أوصلني الحوارُ مع ستيفانو بارتيتزاغي، للإسهاب حول مفهوم السمعة. كانت السمعة في الماضي إمّا حسنة وإمّا سيّئة، وعندما كان المرء يتعرَّض لسوء السمعة (جرّاء فشلٍ ذريع، أو أقاويل عن خيانة زوجته له) كان يتخلَّص منها سواءً عبْر الانتحار أو من خلال جريمة الشرف. وبطبيعة الحال كان الجميع يتطلَّعون للحصول على سمعةٍ حسنة.

إلّا أنَّ مفهوم السمعة في الآونة الأخيرة تنازل عن مكانه لمفهوم الشهرة. أصبح اهتمام الإنسان منصبًّا على كسب «اعتراف» أمثاله، ليس بمعنى التقدير أو التكريم، إنّما بالمعنى التافه للكلمة: «التعرُّف»، الذي يقتصر على أن يراك الآخرون في الشارع فيقولون: «انظر، إنَّه هو حقًّا!». أمست القيمة السائدة متمثِّلةً بالظهور، ومن البديهيّ أن تكون أضمن الوسائل هي الظهور على شاشة التلفاز. وليس من الضروريّ أن تكون بمنزلة ريتا ليڤي مونتالتشيني أو ماريو مونتي، إنّما يكفي أن تبوح في برنامجٍ مُدِرٍّ للدموع أنَّ شريكتك قد خانتك.

وكان بطل الظهور الأوّل هو الأحمق الذي يقف خلف المتحاورين ويُلوِّح بيده تحيّةً للكاميرا. الأمر الذي كان يسمح له بأن يتعرَّفوا عليه في الحانة في المساء اللاحق («هل تعلم أنّي رأيتُك في التلفاز؟»)، ولكن من المؤكّد أنَّ ظهورًا من هذا النوع لا يدوم أطول من أصبوحة. وبالتالي حظيت هذه الفكرةُ بالقبول تدريجيًا، وهي أنّك إذا رغبت في الظهور بشكلٍ ثابتٍ وجليٍّ فسوف تضطرّ إلى أمورٍ كانت ذات يومٍ تودي بك إلى سوء السمعة. هذا لا يعني أنّنا لا نطمح إلى السمعة الحسنة، إلّا أنَّ الحصول عليها شاقّ، ينبغي لك أن تُقدِمَ على فعلٍ بطوليّ، أن تحصد جائزة نوبل، أو لوستريغا على أقلّ تقدير، أو أن تفني حياتك في مداواة المجذومين، وهذه الأشياء ليست في متناول أيّ جاهلٍ دعيّ. فمن الأسهل أن يصبح المرء موضع اهتمام، حبّذا لو كان تافهًا، أو إذا مارس الجنس مع شخصيّةٍ مهمّة مقابل المال، أو إذا اتُّهِمَ بالاختلاس. لستُ أمزح، يكفي أن تشاهد زهوَّ المختلس أو المرتشي المتذاكي عندما يظهر في نشرة الأخبار، في يوم القبض عليه مثلًا: دقائق الشهرة تلك تستحقُّ السجن، أغلى من السقوط بالتقادم، لهذا السبب يبتسم المتَّهم. فلقد انقضت عقودٌ منذ أن انهارت حياة أحدهم لحظةَ تكبيل يديه بالأصفاد.

باختصار، المبدأ هو: «إذا كانت السيّدة العذراء تظهر، فلِمَ لا أظهر أنا كذلك؟». ثمَّ نتغاضى عن شرط العذريّة.

كنّا نتحدَّث في هذه الأمور يوم الجمعة الفائت، وها إنَّ مقالًا طويلًا لروبرتو إسبوزيتو يظهر في اليوم التالي على صفحات *لا ريبوبليكا*، عنوانه *الحياء المفقود*، يتناول فيه أيضًا كتب غابرييلّا تورناتوري (*الحياء. تحوُّلات الشعور*، فيلترينلّي، 2012) وماركو بلبوليتي (*بلا حياء*، غواندا، 2010). يبدو أنَّ موضوعة فقدان الحياء حاضرةٌ في عدَّة تأمُّلاتٍ عن الأخلاق المعاصرة.

والآن، هل هذا الهوس العصابيُّ بالظهور (والشهرة مهما كانت العواقب، حتّى لو تمثَّلت العاقبة بما كان يُحسَبُ وصمةَ عار في زمنٍ مضى) يرجع إلى فقدان الحياء؛ أم إنَّ الشعور بالحياء يتبدَّد لأنَّ القيمة السائدة حاليًّا هي الظهور، حتّى لو كان الثمن فضيحة؟ أميل إلى الاحتمال الثاني. فأن يكون الإنسان مرئيًّا، وموضعَ نقاش، هي قيمةٌ سائدةٌ لدرجة أنّنا مستعدُّون

للتخلّي عمّا كانت تُسمَّى حشمة (أو الإحساس بالغيرة على خصوصيّتنا). يلاحظ إسبوزيتو أنَّ معالم انعدام الحياء تنطوي أيضًا على التحدُّث بصوتٍ جهير بالجوَّال في القطار، لإعلام الجميع بشؤوننا الخاصّة، تلك التي كنّا في الماضي نتوشوش بها. لا ينطبق هذا على مَن لا يعي أنَّ الآخرين يسمعونه (ففي هذه الحالة هو مجرَّد قليل أدب)، إنّما على مَن يريد عن غير وعيٍ إسماعَ ما عنده للآخرين، حتّى لو كانت شؤونه الخاصّة تافهة – ولكن واحسرتاه، ليس بمقدور الجميع أن تكون شؤونه الخاصّة قيِّمة، مثل هاملت أو آنّا كارنينا، وحينها يكفي أن يتعرَّفوا عليك كبائعة هوى أو كمدينٍ مُقصِّر.

قرأتُ أنَّه لستُ أدري أيُّ حركةٍ كهنوتيّةٍ تطالب بالرجوع إلى الاعتراف العلنيّ. فعلًا، فأين المتعة من إفراغ فضائحنا في أذن كاهن الاعتراف حصرًا؟

2012

أنا أُغرِّد، إذًا أنا موجود

ليس لديَّ حسابٌ على تويتر، ولا على فيسبوك. الدستور يسمح لي بذلك. ولكن بطبيعة الحال هناك حسابٌ زائفٌ باسمي على تويتر، مثلما يبدو أنَّ هناك حسابًا زائفًا لكازاليجّو. ذات مرَّة التقيتُ بسيّدةٍ ملءُ عينيها عرفان، قالت لي إنَّها تتابعني على تويتر دومًا وقد تفاعلت معي أحيانًا مُحقِّقةً مكاسب فكريّة عظيمة. حاولتُ أن أشرح لها أنَّ تلك «أنا» زائفة عنّي، فإذا بها ترمقني كما لو أنّي أقول لها إنَّ أنا لستُ أنا. فإن كان لديَّ حسابٌ على تويتر، فهذا يعني أنَّ لي وجودًا. «*Twitto ergo sum*»: أنا أُغرِّد، إذًا أنا موجود.

لم أنشغل بإقناعها، فمهما كانت أفكار تلك السيّدة عنّي (سرُّ سعادتها مردُّهُ أنَّ إيكو الزائف يقول أشياء تشاركه الرأي بها) فإنَّ القضيّة ما كانت ستُغيِّر تاريخ إيطاليا، ولا تاريخ العالم، ولا حتّى تاريخي الشخصيّ. في فترةٍ ماضية كنت أتلقّى ملفَّاتٍ ضخمة بانتظام عبْر البريد من سيّدة أخرى أكَّدت أنَّها أرسلتها إلى رئيس الجمهوريّة وشخصيّات بارزة أخرى، لتحتجَّ على

واحدٍ من الناس كان يطاردها. وكانت ترسلها إليَّ لتحيطني علمًا بالأمر، لأنّني ووفقًا لما أكَّدتُه كنت أناصرها وأدافع عنها في كلّ أسبوع من خلال هذه الزاوية. ما يعني أنَّ أيَّ شيء أكتبه، كانت تقرأه باعتباره ذا صلةٍ بمشكلتها الشخصيّة. لم أنفِ مزاعمها يومًا، إذ لا فائدة تُرجى من ذلك، كما أنَّ جنونَ ارتيابِها الشخصيّ المتوقِّف عليها حصرًا ما كان ليغيِّر الأوضاع في الشرق الأوسط. ومِن ثَمَّ، ولكوني لم أجبها إطلاقًا، بطبيعة الحال، وجَّهت اهتمامها إلى شخصٍ آخر، ولا أدري مَن تُعذِّبُ الآن.

إنَّ تفاهة الآراء المعبَّرِ عنها في تويتر تكمن في أنَّ الجميع يتحدَّثون، وأنَّ بينهم مَن يؤمن بظهور السيّدة العذراء في ميديوغوريه، ومَن يقصد قارئة الكفّ، ومَن يعتقد أنَّ الحادي عشر من سبتمبر وقع بتدبيرٍ من اليهود، ومَن يؤمن بدان براون. ولطالما أذهلتني رسائل تويتر التي تظهر في أسفل الشاشة في برامج تيليسي وبورّو. يتحدَّثون عن كلّ شيء وأكثر، وكلٌّ منهم يقول عكس ما قاله الآخر، وكلُّهم جميعًا لا يُقدِّمون فكرةً عمّا يُفكِّر به الناس، إنّما مجرد ما يُفكِّر به بعض المفكّرين بحلقة مفرغة.

تويتر مثل أيّ مقهى محلّيّ في أيّ قريةٍ أو ضاحية. يتحدَّث بهلول البلدة، والمالك الصغير الذي يظنُّ أنَّ الماليّة تتعقَّبه، وطبيب الناحية المحزون لكونه لم يحظَ بفرصة تدريس التشريح المقارن في الجامعة العريقة، وعابر السبيل الذي تجرَّعَ كثيرًا من كؤوس العرق، وسائق الشاحنة الذي يروي عن عاهراتٍ خرافيّات ينشطن على الطريق الدوليّ، وأحيانًا، أحيانًا، هنالك مَن يدلي ببضعة أحكام لها معنى. لكنَّ كلَّ شيء يبقى وينتهي هناك: الدردشات في المقهى لم تُغيِّر السياسة الدوليّة يومًا، ولم يقلق بشأنها سوى النظام الفاشيّ، الذي كان يمنع النقاشات حول الاستراتيجيّة العليا في المقاهي. ولكن في المجمل ما يُفكِّر به غالبيّة الناس محدودٌ في ذلك المعطى الإحصائيّ الذي يبرز في اللحظة التي يُصوِّت فيها كلُّ شخصٍ على ضوء تأمُّلاته الخاصّة، وبناء على الآراء التي عبَّرَ عنها أحدهم، متجاهلًا ما قيل في المقهى.

وهكذا فإنَّ أثير الإنترنت تعوقه الآراء التافهة، ذلك لأنّه إذا أردنا التعبير عن أفكارٍ جليلة، بما لا يزيد عن مئة وأربعين حرفًا (مثل «أَحِبَّ قريبَكَ

كَنفسِك»)، فإنَّنا نحتاج إلى أحرفٍ أكثر للتعبير عن كتاب *ثروة الأمم* لآدم سميث، وربَّما ما يفوق ذلك لتوضيح معنى $E=mc^2$[1].

فلماذا نرى حتّى الأشخاص المهمّين ينشرون رسائل عبْر تويتر، مثل إنريكو ليتّا[2] الذي يكفيه أن يبعث فكرته نفسها إلى وكالة الأنباء الإيطاليّة لتتناقلها الجرائد ونشرات الأخبار، فتصل حتّى إلى الأكثريّة التي ليس لها اتّصالٌ بالإنترنت؟ ولماذا يوكل البابا طالبَ لاهوتٍ وظيفةً بعقدٍ غير دائم بالفاتيكان تقتصر على كتابة الملخَّصات الموجزة لما سبق أن خطب به على أسماع روما والعالم أمام ملايين وملايين المشاهدين عبْر التلفاز؟ لا أدري بصراحة، لا بدَّ أنَّ أحدًا قد أقنعهما بأنَّ هذه الطريقة أيضًا ممكنة لتقوية إيمان عدد كبير من مستخدمي الويب. لا بأس إذًا، يُسمَحُ بالمرور لإنريكو ليتّا وخورخي ماريو برغوليو[3]؛ فلماذا أيضًا يستخدم التويتر السادة روسّي، باوتاسّو، برامبيلّا، تشيزاروني وإسبوزيتو؟

ربّما لكي يشعروا بأنّهم مثل ليتّا والبابا.

2013

فقدان الخصوصيّة

إحدى مشكلات عصرنا التي (وفقًا لما تنشره الصحف) يهجس بها الجميع نوعًا مّا، هي مشكلة ما يُسمَّى بالـ«*privacy*»؛ التي إذا أردنا أن نتعالى نترجمها إلى الإيطاليّة العاميّة «*privatezza*». والكلمة تعني بتبسيطٍ شديد أنَّ لكلّ امرئٍ الحقَّ في القيام بشؤونه الخاصّة من دون أن يعرف بذلك أحد، لا سيّما الوكالات المرتبطة بمراكز السلطات. وتوجد مؤسَّساتٌ معنيّةٌ بضمان الخصوصيّة للجميع (ولكن احرصوا على تسميتها «*پرايڤاسي*»، وإلّا استخفّوا بكم). ولهذا السبب ينتابنا القلق إذا استطاع أحدهم من خلال

1- «الطاقة تساوي حاصل الكتلة مضروبة بمربّع سرعة الضوء»، وهي المعادلة الشهيرة التي صاغها أينشتاين لتبيين تكافؤ الكتلة والطاقة. (المترجم).

2- رئيس وزراء إيطاليا الأسبق (2013–2014). (المترجم).

3- اسم الولادة للبابا فرانسيس. (المترجم).

بطاقاتنا البنكيّة معرفة ما الذي اشتريناه، وفي أيّ فندقٍ نزلنا، وأين تعشّينا. فما بالك بالتنصُّت الهاتفيّ، عندما لا يُستخدم بداعي تحديد مواقع المجرمين. بل إنَّ شركة فودافون أصدرت في الآونة الأخيرة تحذيرًا من إمكانيّة أن يعرف عملاء سرّيّون تقريبًا، لكلّ الدول، بمن اتّصلنا وعمّا تحادثنا.

يبدو إذًا أنَّ الخصوصيّةَ نعمةٌ يسعى كلٌّ منّا للدفاع عنها بأيّ ثمن، كي لا نعيش في عالمٍ يهيمن عليه الأخ الأكبر (أقصد الأخ الأكبر الحقيقيّ، الذي كتب عنه أورويل)[1] حيث بمستطاع عينٍ كونيّة مراقبة كلّ أفعالنا، أو كلّ أفكارنا حتّى.

لكنَّ السؤال هو: هل الناس حريصون كلَّ الحرص بالفعل على خصوصيّاتهم؟ كان الخطر الذي يُهدِّد الخصوصيّة في الماضي يتجسَّد بالشائعة المغرضة، التي كنّا نخشى أن تُعرِّضَ سمعتَنا بين الناس لهجومٍ سافر، فنضطرُّ إلى النزول إلى الساحة العامّة حاملين غسيلنا القذر الذي يجدر بنا شرعيًّا أن ننظِّفه في داخل العائلة. ولكن ربّما، بسبب ما يُسمَّى بالمجتمع السائل، حيث يتعرَّضُ كلُّ فردٍ لأزمة هويّةٍ وقيم، ولا يدري إلى أين يتَّجه للبحث عن نقطةٍ مرجعيّةٍ يستند إليها ليُعرِّف ذاته، تبقى الوسيلة الوحيدة لنيل اعترافٍ اجتماعيٍّ هي «أن يكون مرئيًّا» مهما كانت العواقب.

وهكذا فإنَّ السيّدة التي تتاجر بلحمها (التي كانت في زمنٍ مضى تحاول إخفاء عملها على الأهل أو الجيران) لعلَّها تتّخذ لنفسها لقب escort/ صاحبة، تؤدّي اليوم دورها العلنيّ على نطاقٍ واسع حتّى إنَّها لا تجد حرجًا في تقديم نفسها على شاشة التلفاز. لذلك نرى أنَّ الزوجين اللذين لطالما دفعهما الإباءُ في الماضي للتستُّر على خلافاتهما، يشاركان في برامج تلفزيونيّة مبتذلة ورخيصة لأداء دور الفاسق تارةً ودور المخون تارةً أخرى، وسط تصفيق الجمهور. ونرى أنَّ جليسنا في القطار يقول رأيه بنسيبته على الجوّال بصوتٍ جهير، أو ما يتوجَّبُ لمستشاره الضرائبيّ أن يفعله. ونرى أنَّ المتَّهمين الحثالة، عوضًا عن الانسحاب إلى الريف ريثما تنحسر موجة

1- إشارة ساخرة إلى برنامج تلفزيون الواقع الشهير «الأخ الأكبر». (المترجم).

الفضيحة، يضاعفون ظهورهم، بابتسامةٍ على شفاههم، لأنَّه من الأفضل أن تكون لصًّا معروفًا على أن تكون شريفًا لم يسمع به أحد.

مؤخَّرًا، صدر مقالٌ لزيجمونت باومان في صحيفة *لا ريبوبليكا* يُبيِّن فيه أنَّ وسائل التواصل الاجتماعيّ (فيسبوك على سبيل المثال) التي تُعَدُّ أداةً لمراقبة أفكار الغير ومشاعرهم، تُوظِّفها سلطاتٌ عديدة بهدف الترصُّد، وهذا بفضل المساهمة المتحمِّسة لمن يُفعِّل لنفسه حسابًا فيها. يتحدَّث باومان عن «مجتمعٍ اعترافيٍّ يُروِّج الاستعراض الذاتيّ العلنيّ إلى حدّ اعتباره دليلًا دامغًا ومتاحًا -ناهيك بأنّه الأكثر فاعليّة تقريبًا- على الوجود الاجتماعيّ». بمعنى آخر: للمرَّة الأولى في تاريخ البشريّة، يتعاون ضحايا التجسُّس مع الجواسيس لتسهيل عملهم، ويتحصَّلون من هذا الاستسلام على سببٍ للرضا لأنَّ أحدًا مّا *يراهم* وهم موجودون، ولا يهمُّ إذا كانوا موجودين أحيانًا بصفتهم مجرمين أو أغبياء.

من جهةٍ أخرى صحيحٌ أنَّه كلَّما استطاع أحدهم معرفة كلّ شيء عن الجميع، (عندما يتطابق *الجميع* بمجموع سكّان الكوكب)، اقتصَرَ الإفراطُ بالمعلومات على توليد الفوضى والجعجعة والصمت. لكنَّ هذا يجب أن يُقلِقَ الجواسيس، أمَّا ضحايا التجسُّس فيكونون في أسعد حالٍ إذا صار الأصدقاء على الأقلّ، والجيران، وحبَّذا الأعداء، يعرفون كلَّ شيءٍ عنهم وعن أسرارهم الحميمة؛ لأنَّ هذه هي الطريقة الوحيدة ليشعروا أنَّهم أحياء وأنَّهم جزءٌ ناشطٌ في الجسد الاجتماعيّ.

2014

في خفايا الحمض النوويّ

شرحتُ في *المغلّف* السابق ما الذي يحدث في عالم تتلاشى فيه الخصوصيّة ويستطيع الجميع معرفة ما الذي نفعله. واستنتجتُ أنَّه يبدو من غير المجدي الكفاح من أجل الحفاظ على مناطق تصان فيها الخصوصيّة، إذا كان النزوع العامّ ينحو بنا لكي نكون مرئيّين ومسموعين بمحض إرادتنا وبأيّ ثمن، بغية أن نشعر بوجودنا. الناس لا يريدون الخصوصيّة، حتّى لو كانوا يطالبون بها.

الآن، في حالة يارا[1] وقع شيءٌ مختلف. أحدهم -إن لم يكن المحقِّقين، فالصحافة، أو مصدرٌ آخر- لم يقتصر على القول إنَّ المجرم هو بوسّيتّي (الذي ما يزال حتّى هذه الساعة التي أكتب فيها يُعدُّ مجرمًا «مفترضًا» فقط)، وأنَّ تورُّطه في الجريمة كُشِفَ بفضل دليل الحمض النوويّ؛ بل إنَّ هذا الدليل بيَّنَ أنّه ابنٌ غير شرعيٍّ لفلانٍ من الناس، وأنَّ السيّدة الوالدة أقامت مع هذا الفلان علاقة زنا منذ عقود، وأنَّ زوج الأمّ لم يكن على دراية بالأمر مطلقًا، وأنَّه رعى بوسّيتّي كما لو كان ابنه من صلبه، وأنّه أمسى اليوم في غضبٍ عارم إلخ.

وعلى الفور، ما إن خمدت إثارة البدايات، برزت أصواتٌ مُندِّدة: من الجيّد اعتقال مجرم، ولكن هل كان من الضروريّ إذاعة كلِّ ما حدث في عائلته بمُضخِّم الصوت، والتسبُّب بإحراجٍ مقيتٍ للأمّ وللأب على حدٍّ سواء، وتخريب علاقة زوجيّة، بالنبش في خصوصيّات أشخاص واستعراضها على الملأ، وهم لا شأن لهم بالجريمة، بل لديهم كامل الحقّ في ألّا يروا غسيلهم القذر إيّاه منشورًا على مرأى كلّ مَن هبَّ ودبّ؟

نَجَمَ عن هذا شعورٌ متسلسلٌ بالذنب، شَمَلَ الصحافة أيضًا، واعتذر كلُّ مَن ساهم بالتحريض على نطاقٍ واسع، واستغلال قبول الرأي العامّ المنافق الذي يحتفي بانتصار ما يُسمَّى بالألمانيّة «*Schadenfreude*»/ الشماتة، أي الاستمتاع الشهوانيّ بمآسي الآخرين وآلامهم.

ولكن فلنُجْرِ تأمُّلاتنا الآن. فلنفترض أنَّ المحقِّقين قالوا إنَّهم اكتشفوا المجرم (الذي ما يزال مفترضًا حتّى هذه اللحظة التي أكتب فيها) وأنَّ جرمه ثَبُتَ عن طريق دليل الحمض النوويّ. وكفى. كانت الصحافة والرأي العامّ حينئذٍ سوف يسألان كيف توصَّلت التحقيقات إلى بوسّيتّي من بين آلاف الأشخاص الذين يقطنون في الأرجاء. فلنفترض أنَّ المحقِّقين أجابوا: «لن نخبركم بهذا، على الأقلّ إلى حين المحاكمة، إذا أُقيمَت».

1- يارا غامبيرازيو، طفلة إيطاليّة عُثِرَ عليها مقتولةً في ربيعها الثالث عشر، 26 فبراير 2011. وظلَّ مقتلها لغزًا غامضًا حيَّرَ السلطات، وشغل الرأي العامّ في إيطاليا لمدّةٍ طويلة، إلى أن حكمت المحكمة عام 2018 بالسجن المؤبّد على المجرم ماسّيمو بوسّيتّي، بفضل الاعتماد على نتائج تحاليل الحمض النوويّ. (المترجم).

من السهل أن نتصوَّر ما الذي كان سيقع. كنّا سنتساءل ما الذي يخفيه عنّا القضاء والأمن: مَن سيكشف لنا إن كانوا قد تصرَّفوا على أحسن وجه (أو كما يقال بالعادة «بمهنيّة»)؟ كنّا سنصيح بأنَّ الرأي العامّ له الحقّ في أن يعرف!

والحال أنَّ الجمهور، مع ويكيليكس وتسريبات سنودن، اعتاد واقعَ أنَّ كلَّ شيء -كلَّ شيءٍ حقًّا- يجب أن يُكشَفَ للعموم. وهذا مُسوَّغٌ إلى حدٍّ معيَّن: بعض الشيطنات العامّة أو الخاصّة لا بدَّ أن يُماط عنها اللثام وأن يُبلَّغَ عنها. ولكن من حيث المبدأ، يجب أن تبقى تقارير السفارات ووثائق حكوميّة قيد الكتمان، ذلك لكي تتمكَّن آلة الدولة من العمل. تخيَّلوا لو أنَّ الشرطة مجبَرةٌ على القول: «نحن بصدد البحث عن القاتل، وهنالك ما يشير إلى أنّنا استطعنا تحديد موقعه، سنتعقَّبه لمباغتته مُتلبِّسًا، اسمه فلان الفلانيّ ويسكن في شارع كذا». سيلوذ فلان الفلانيّ بالفرار ولن يُقبَضَ عليه أبدًا. يجب أن تبقى بعض المشاريع سرّيّةً، على الأقلّ طوال الوقت اللازم لنجاحها (الذي قد يكون باهرًا).

غير أنَّ فقدان الخصوصيّة، لا سيّما بعد تسريبات ويكيليكس وسنودن، ارتقى لأن يكون مبدأً أخلاقيًّا، وبات الجميع يشعر بضرورة الكشف عن كلّ شيء، دائمًا، وبغضّ النظر عن الظرف. لذا، لو قوبلت مصيبة أهل بوسّيتّي بالتجاهل، لاتُّهِمَ المحقِّقون بالتآمر الفظيع.

فعلامَ ننتحب إذًا؟ يجب على والدة بوسّيتّي، ومَن كان يُعتَبر والده حتّى الأمس، أن يأخذا بالحسبان أنَّ الغسيل القذر بات يُغسَلُ في التلفزيون، أثناء دعاية الغسّالات. وإن كان فقدان الخصوصيّة قد وصل (بحقّ) إلى خفايا الحمض النوويّ، فليس أمامه سوى الانتصار في كلّ زمانٍ ومكان. شئنا أم أبينا.

2014

الشيوخ والشبّان

مُتوسِّط العمر

مَن يدري كم منّا مازال يذكر قصيدة دي آميتشيس: «ليس دائمًا يمحو الزمنُ الجمالَ/ حتّى لو كان مثقلًا بالدموع والهموم/ أمّي عمرها ستّون عامًا/ وكلَّما نظرتُ إليها بدت لي جميلة». ليس هذا نشيدًا عن الجمال النسائيّ، إنّما عن إحسان الابن لأمّه. ويُفترَض بهذا الشكل من الإحسان أن يمتدَّ في عصرنا إلى حدود التسعين عامًا: إذ إنَّ سيّدةً بعمر الستّين، إذا كانت تنعم بصحّةٍ جيّدة، ما تزال تُعدُّ في كامل البهاء. وإذا التجأت إلى جرَّاح التجميل، ظهرت أصغر من سنِّها بعشرين عامًا. ومن ناحيةٍ أخرى، أذكر أنَّني عندما كنتُ فتىً كنتُ أقول لنفسي ليس من الصواب أن يتخطّى المرء حاجز الستّين عامًا، فما بعد ذلك يغدو العيش مقيتًا من كثرة الأوجاع وسيلان اللعاب والخَرَف في مأوى للعجزة المساكين. وعندما كنتُ أفكِّر بعام الألفين كنتُ أقول نعم، يشهد عليَّ دانتي[1]، بوسعي أن أعيش حتّى السبعين، أي أن أبلغ العام 2002، لكنّي لطالما استبعدتُ هذه الفرضيّة، فقلَّما وصل الإنسان إلى تلك السنّ الجليلة.

كنتُ أفكِّر مليًّا في الأمر منذ بضع سنوات عندما التقيتُ هانس غادامير وكان عمره مئة عام حينها، أقبَلَ من مكانٍ بعيد إلى مؤتمر، وكان على المائدة

1- من الوارد أن إشهاد دانتي بهذه النبرة الممازحة مردّهُ إلى أنّه يفتتح رحلته إلى العالم الآخر قائلًا «في منتصف مسيرة حياتنا»، أي كان في الخامسة والثلاثين عامًا. وبحسب معارف عصره كان العمر المثاليّ للإنسان لا يتعدّى السبعين عامًا. (المترجم).

يأكل مُتلذِّذًا. سألتُه عن صحَّته فأجابني بابتسامةٍ تميل إلى الحزن قليلًا إنَّ ساقيه تؤلمانه. اعترتني رغبةٌ بصفعه بشدّةٍ على سفاهته المرحة (وبالفعل لقد عاش بأحسن حال عامين تاليين).

ما زلنا نعتقد أنَّنا نحيا في عصرٍ تتقدَّم فيه التقنيّة بخطواتٍ عملاقة كلَّ يوم، ونتساءل أين سينتهي بنا المطاف مع العولمة، لكنّنا لا نتمعَّن كثيرًا بأنَّ أقصى ما بلغته البشريّة من تطوُّر (والتسارع في هذا المجال يتجاوز التسارع في أيّ مجالٍ آخر) هو إطالة مُتوسِّط الأعمار. ففي الحقيقة، أن يكون بمتناول البشر الهيمنة على الطبيعة، هي فكرةٌ أدرَكَها على غموضها إنسانُ الكهف، الذي تمكَّنَ من إنتاج النار اصطناعيًّا؛ دع عنك جدَّنا الأكثر نضجًا الذي اخترع العجلة. وأن يكون بمستطاعنا صنع سيّاراتٍ تُحلِّق في الأجواء يومًا مّا، هو أمرٌ سبَقَ أن قاله روجر باكون، ليوناردو دافنشي وسيرانو دو برجراك. وأن يكون بمقدورنا مضاعفة سرعة تحرُّكاتنا، كان أُفُقُهُ واضحًا منذ اختراع المحرِّك البخاريّ. وأن يكون باستطاعتنا التوصُّل إلى الضوء الكهربائيّ، كان بالإمكان افتراضه منذ أيّام ألساندرو فولتا. إلّا أنَّ البشر ومنذ عصورٍ سحيقة، ما انفكّوا يحلمون بإكسير الحياة المديدة ونبعة الشباب الأبديّ، ولكنْ عبثًا. ففي القرون الوسطى كان الاعتماد قائمًا على طواحين هواء ممتازة (ما تزال صالحة إلى اليوم لإنتاج الطاقة البديلة)، وفي الوقت نفسه كان ثمّة كنيسةٌ مَن قصَدَ إليها حاجًّا نالَ معجزة البقاء على قيد الحياة حتّى الأربعين عامًا.

لقد وصلنا إلى القمر قبل أكثر من ثلاثين سنة، ولم نستطع بعد أن نطأ المرّيخ؛ ولكن في فترة الهبوط على سطح القمر كان مَن بلغ السبعين عامًا قد بلغ نهاية حياته، في حين أنَّه الآن (بمعزلٍ عن الجلطة والسرطان) لديه آمالٌ واقعيّةٌ ببلوغ التسعين. في المحصِّلة، لقد أحرزنا التقدُّمَ العظيمَ (إن أردنا الحديث عن تقدُّم) في مجال الحياة أكثر ممّا أحرزناه في مجال الكمبيوتر. فلقد أُعْلِنَ عن الحواسيب أساسًا منذ آلة باسكال الحاسبة، الذي مات في التاسعة والثلاثين من عمره، وهي سنٌّ كانت تُعدُّ مُتقدِّمة. من جهة أخرى، مات كلٌّ من الإسكندر الأكبر وكتولوس في الثالثة والثلاثين عامًا، وموزارت في السادسة والثلاثين، وشوبان في التاسعة والثلاثين، وسبينوزا في الرابعة والأربعين، وتوما الإكوينيّ في التاسعة والأربعين، وكلٌّ من شكسبير وفيشته

في الثانية والخمسين، وديكارت في الرابعة والخمسين، وهيغل -الطاعن في السنّ- في الحادي والستّين.

إنَّ معظم المشكلات التي يتوجَّب علينا مواجهتها اليوم تتعلَّق بإطالة مُتوسِّط العمر. لا أتحدَّث عن معاشات التقاعد حصرًا. بل إنَّ الهجرة الهائلة من العالم الثالث نحو الغرب مردُّها بالتأكيد أنَّ ملايين من الأشخاص يأملون هنا إيجاد الطعام والعمل وكلِّ ما تعد به السينما والتلفزيون، لكنَّهم يحاولون أيضًا بلوغَ عالمٍ يعيش فيه الإنسان حياةً طويلة - والهروب بكلّ الأحوال من عالمٍ يموتون فيه باكرًا. وعلى الرغم من هذا (حتّى لو أنَّ الإحصائيّات ليست في متناول يدي) أعتقد أنَّ المبالغ التي ننفقها على البحوث في علم الشيخوخة والطبّ الوقائيّ هي أقلّ كثيرًا ممّا ننفقه على تطوير التكنولوجيا الحربيّة والتكنولوجيا المعلوماتيّة. ناهيك أنّنا نعرف جيّدًا كيف نُدمِّر مدينة وكيف ننقل المعلومة بسعرٍ زهيد، لكنّنا ما زلنا نفتقر إلى الأفكار الدقيقة حول كيفيّة التوفيق بين الرفاهية الجمعيّة، ومصير الشباب، والانفجار السكّانيّ على مستوى الكوكب وإطالة أمد الحياة.

قد يظنّ الشابُّ أنَّ التقدُّم هو ما يتيح له إرسال رسائل نصّيّة بالخليويّ أو السفر بالطائرة إلى نيويورك بسعرٍ بخس، في حين أنَّ الواقع الصادم (والإشكال العالق بلا حلّ) هو أنَّه في أحسن الأحوال يُجهِّز نفسه لكي يصبح راشدًا في سنّ الأربعين، بينما كان أجداده يصبحون راشدين في الستّة عشر.

وبالتأكيد لا بدَّ لنا من شكر الله أو القدر لأنّنا نعيش أمدًا أطول، وبالمقابل علينا أن نواجه هذه المشكلة باعتبارها إحدى أكثر المشكلات مأساويّةً في زماننا، لا على أنّها من بواعث الطمأنينة.

2003

هل الجميلُ قبيحٌ والقبيحُ جميل؟

لاحظ هيغل أنَّ التمثُّلات الفنّيّة لم تشهد دخول الألم والقبح إليها إلّا مع المسيحيّة، إذ «لا يمكن في أشكال الجمال الإغريقيّ تجسيدُ المسيح

المجلود، والمكلَّل بتاج الشوك... والمصلوب، والمحتضر». وكان على خطأ، لأنَّ العالَم الإغريقيَّ لم يقتصر على تماثيل فينوس الرخاميّة الناصعة البياض، إنّما صوَّرَ سَلْخَ مارسياس، وعذابات أوديب، والآلام التي فتكت بميديا. غير أنَّ الرسم والنحت المسيحيّين لا تنقصهما الوجوه المشوَّهة من فرط الألم، حتّى من دون الوصول إلى ساديّة ميل جبسون. وفي أيّ حال، يُذكِّرنا هيغل مرّةً أخرى (بإحالةٍ على مدرسة الرسم الجرمانيّة والفلامانيّة خاصَّةً)، أنَّ المسخ ينتصر عندما يتبدّى مضطهدو يسوع.

منذ فترةٍ أطلعني أحدُهم على لوحةٍ شهيرةٍ لهيرونيموس بوش عن آلام المسيح (محفوظة في غينت)، يظهر فيها بين الجلّادين المرعبين اثنان قد يُجَنُّ منهما حسدًا الكثيرُ من مغنّي الروك ومُقلِّديهم الشبّان: أحدهما بقرطٍ مزدوج «بيرسينغ» على ذقنه، والثاني مُثقَّبُ الوجه كلّيًا بشتّى أنواع الخردة المعدنيّة. سوى أنَّ هيرونيموس أراد بذلك الشكل أن يُحقِّق نوعًا من تجلّي الشرّ (مستبقًا اعتقاد لومبروزو في أنَّ مَن وشَمَ جلدَه أو أفسَدَ جسمَه فهو مجرمٌ بالفطرة)؛ في حين يُضمِر كثيرون انزعاجهم اليوم إزاء الفتيات والفتية الذين يضعون دررًا صغيرةً على ألسنتهم، إلّا أنّه يبدو من الخاطئ، إحصائيًّا على الأقلّ، اعتبارهم مشوَّهين خُلُقيًّا.مكتبة سُر مَن قرأ

ثمَّ إذا فكَّرنا بأنَّ كثيرًا من هؤلاء الشبّان أنفسهم يُغمى عليهم أمام الجمال «الكلاسيكيّ» لجورج كلوني أو نيكول كيدمان، يصبح من الجليّ أنَّهم يُقلِّدون آباءهم: الذين يشترون سيّارات وتلفزيونات مصمَّمة بحسب المعايير الفنّيّة النهضويّة للتناسق الإلهيّ من جهة، ويتزاحمون في متحف أوفيتسي بفلورنسا لتجريب متلازمة ستندال، ومن الجهة الأخرى يستمتعون بمشاهدة أفلام الرعب الدمويّة، حيث تتناثر المادّة الدماغيّة على الجدران، ويشترون مجسَّمات ديناصورات ووحوشٍ هزليّة لأولادهم الصغار، أو يذهبون للانبهار بمسرح الهابنينغ لفنّانٍ يبعج يديه، أو يُعذِّب أعضاءه أو يبتر خصيتيه.

فالآباء والأبناء على حدٍّ سواء لا يرفضون تجارة الجمال، بانتقائهم ما كان يُعَدُّ في القرون الماضية فظيعًا. وقد وقع هذا أيضًا عندما أراد المستقبليّون إحداث صدمةٍ لدى البرجوازيّين، فأعلنوا: «سنتملَّك الشجاعة لإبراز القبح

في الأدب». وقد اقترح بالاتسيسكي (في *مضادّ الألم* عام 1913) أنّه لتربية الأطفال صحّيًا على القبح، ينبغي إعطاؤهم كألعابٍ تربويّة «دمىً حدباء، عمياء، عرجاء، مصابة بالغرغرينا، والسلّ، والسفلس، تبكي بطريقةٍ آليّة، وتصيح، وتشتكي، تتعرَّض للصرع، والطاعون، والكوليرا، والنزيف، والبواسير، والسيلان، والجنون، يُغمى عليها، تحشرج، فتموت». واليوم، في حالاتٍ معيَّنة، نتذوّق الجمال (الكلاسيكيّ) بكلّ بساطة، ونتمكَّن من تمييز طفلٍ جميل، ومنظرٍ جميل، ومنحوتة إغريقيّة جميلة، وفي حالاتٍ أخرى نستمتع بما كان حتّى الأمس يُرى على أنّه قبيح بما لا يطاق.

لا بل إنَّنا أحيانًا ننتقي القبيح بناءً على معيارٍ جديدٍ للجمال، مثلما يحدث في «فلسفة» السايبورغ[1]. فإذا كان في الروايات الأولى لجبسون (أقصد ويليام جبسون هذه المرّة، يبدو أنَّ بوادر الحتميّة الاسميّة واضحة) كائنٌ بشريٌّ استُبدِلَت أعضاؤه الحيّة بأجهزةٍ ميكانيكيّة أو كهربائيّة، دليلًا على تكهُّناتٍ مقلقة حينذاك؛ فإنَّ بعض النسويّات الراديكاليّات اليوم يقترحن تجاوز الفروقات الجنسيّة من خلال إيجاد أجسامٍ محايدة، ما بعد عضويّة أو «ما بعد إنسانيّة»، وتطلق دونا هاراوي شعارًا: «أُفضِّل أن أكون سايبورغ على أن أكون إلهة».

وبالنسبة إلى بعض المراقبين هذا يعني أنّه في عالم ما بعد الحداثة ينحلُّ أيُّ تباينٍ بين الجميل والقبيح. لسنا حتّى في صدد الترديد مع ساحرات ماكبث «الجميلُ قبيحٌ والقبيحُ جميلٌ». إذ إنَّ القيمتين قد تنصهران ببساطة وتفقدان سماتهما المميِّزة.

ولكن هل هذا صحيح؟ وماذا لو كانت بعض تصرُّفات الشباب أو الفنّانين مجرَّد ظواهر هامشيّة، يحتفي بها مَن هم أقلّيّاتٌ مقارنةً بسكّان الكوكب؟ في التلفزيون نشاهد أطفالًا يموتون جوعًا وقد استحالوا هياكل عظميّة منتفخة البطون. ونعرف عن نساءٍ اغتصبهنَّ الغزاة، ونعرف عن أجسادٍ بشريّة تعرَّضت للتعذيب. ومن جهةٍ أخرى، تمرُّ أمام أعيننا باستمرارٍ

1- سايبورغ كلمة منحوتة من «Cybernetic Organism» وهو كائن يحمل صفات بشريّة وسايبرانيّة في الآن نفسه، يشيع في أفلام ومسلسلات الخيال العلميّ. (المترجم).

صورٌ ليست قديمةً جدًّا عن هياكل عظميّة حيّة قُدِّرَ لها أن تُعدَمَ في غرف الغاز. نشاهد أشلاء تتطاير في الأمس إثر انفجار ناطحة سحاب أو طائرة في الجوّ، ونعيش في رعبٍ ممّا قد يقع في الغد لنا أيضًا. كلٌّ منّا يشعر جيّدًا أنّ هذه أشياء قبيحة، ولا يمكن لأيّ تصوُّرٍ لنسبيّة القيم الجماليّة أن يقنعنا بأن نعيشها بهدف المتعة.

ربّما إذًا يكون السايبورغ، الأفلام الدمويّة، الأفلامِ الكارثيّة، «الشيء» القادم من عالَمٍ آخر، ما هي إلّا تمثُّلات للسطح، تُضخِّمها وسائل الإعلام الجماهيريّة، نتعوَّذ عبرها من قبحٍ أعمق بكثير، يحاصرنا، يُروِّعنا، نحاول جاهدين أن نتجاهله، متظاهرين بأنَّ كلَّ ما نراه مُلفَّق.

2006

ثلاثة عشر عامًا مهدورة

أمس الأوّل، سألني محاوِرٌ (وجلُّهُم يسألونني) عن أكثر كتابٍ أثَّرَ في حياتي. إن لم يؤثِّر فيَّ إلّا كتابٌ واحدٌ بصورةٍ جوهريّةٍ على مدار حياتي كلّها، فهذا يعني أنّني أحمق، مثل كُثُرٍ يجيبون على هذا السؤال. هنالك كتبٌ كانت حاسمةً في سنواتي العشرين، وكتبٌ أخرى حسمت سنواتي الثلاثين – وإنّي أنتظر بفارغ الصبرِ الكتابَ الذي سيقلب سنواتي المئة رأسًا على عقب. سؤالٌ مستحيلٌ آخر: «مَن علَّمك شيئًا جوهريًّا في حياتك؟». أعجَزُ عن الإجابة، (إلّا إذا قلتُ «أبي وأمّي») ففي كلّ منعطفٍ من حياتي يُعلِّمني أحدُهم شيئًا مّا. وقد يكونون أشخاصًا قريبين منّي، أو بعض الأعزّاء المتوفّين مثل أرسطوطاليس، توما الإكويني، جون لوك أو تشارل سندرس بيرس.

وبكلّ الأحوال هنالك تعاليم غير متعلّقة بالكتب، أستطيع أن أقول بكلّ ثقة إنّها غيَّرت حياتي. التعليم الأوّل كان على يد الآنسة بيلّيني، معلِّمتي الرائعة في الصفّ الأوّل المتوسِّط، التي كانت تعطينا واجباتٍ نحضِّرها لليوم التالي، وهي بمنزلة تعليقاتٍ على كلماتٍ مُحفِّزة (مثل دجاجة أو سفينة بضائع)، يجب أن نُنشِئ عليها تأمُّلاتنا أو خيالاتنا. ذات يوم، تلبَّسَني لستُ أدري أيُّ جنّيّ، فقلتُ إنّني سأكتب عن أيّ موضوعٍ تقترحه الآنسة في

اللحظة نفسها. نظرت إلى منضدتها وقالت: «مذكِّرة». خطر في بالي بعد فوات الأوان أنّه كان بوسعي التحدُّث عن مذكِّرة الصحفيّ، أو دفتر يوميّات رحلة مستكشفٍ من روايات سالغاري؛ إلّا أنّني حينئذ صعدتُ إلى المنصّة بثقةٍ عالية ولم أستطع أن أفتح فمي بكلمةٍ واحدة. علَّمتني الآنسة بيلّيني آنذاك ألّا يجدر بالمرء أبدًا أن يطالب قواه بما يفوق تحمُّلها.

التعليم الثاني كان على يد الدون شيلي، الأب الساليزيّ الذي علَّمني العزف على آلةٍ موسيقيّة – ويبدو لي أنّهم ينوون الآن أن يجعلوه قدِّيسًا، ولكن ليس لذلك السبب، بل قد يُستَعمَلُ ذلك السبب ضدَّه من قِبَلِ محامي الشيطان. في الخامس من يناير عام 1945 ذهبتُ إليه بكامل حيويّتي وقلت له: «دون شيلي، اليومَ أتمّ عامي الثالث عشر». فأجابني بنبرةٍ جلفة: «ثلاثة عشر عامًا مهدورة». ما الذي قصده بتلك العبارة؟ أنّي إذ بلغتُ هذه السنّ الجليلة ينبغي لي أن أبادر إلى امتحان ضميرٍ صارم؟ أنّه يجب ألّا أرجو الثناء على أداء واجبي البيولوجيّ البسيط؟ ربّما كانت مجرّد تمثُّلٍ عاديٍّ لحسّ الرصانة على طريقة أهل بيمونته؛ أو مجرّد رفضٍ للبلاغة؛ بل ربّما كانت تهنئةً بأسلوبٍ ودود. لكنّي أعتقد أنَّ الدون شيلي يعرف، ويُعلِّمني، أنَّ المعلِّم يجدر به دومًا أن يضع تلاميذه في أزمة، وألّا يُحمِّسهم بعدُ أكثر من اللازم.

وكنتيجةٍ لهذا الدرس صرتُ شحيحًا في إبداء الثناء على مَن ينتظره منّي، إلّا في بعض الحالات الاستثنائيّة المنطوية على مآثِرَ مفاجئة ومذهلة. لعلّي بهذه الرصانة جرحتُ أحدًا مّا، وإن كان هذا صحيحًا، فلم أهدر أعوامي الثلاثة عشر الأولى فحسب، إنّما أعوامي الستّة والسبعين الأولى أيضًا. ولكن من المؤكَّد أنّني قرَّرتُ أن تكون طريقتي الأوضح على التعبير عن استحساني هي ألّا أنهال بالتوبيخ. فإن لم يكن ثمّة توبيخ فهذا يعني أنَّ الشخص أحسَنَ عملًا. فلطالما أثارت انزعاجي تعابير من قبيل «البابا الطيّب» أو «زاكّانيني الشريف»، وهي التي لا توحي إلّا بأنَّ البابوات الآخرين كانوا أشرارًا، وأنَّ السياسيّين الآخرين كانوا فاسدين. في حين أنَّ يوحنا الثالث والعشرين وبينينو زاكّانيني قد فعلا ما يُنتَظَرُ منهما، وليس من المفهوم سبب الإشادة المتفرِّدة بهما.

لكنَّ إجابة الدون شيلي علَّمتني كذلك ألّا أتفاخر أكثر ممّا ينبغي، مهما كان

فعلي عظيمًا، وحتّى لو اعتبرتُه صالحًا، وعلى الأخصّ ألّا أبالغ في التفاخر به أمام الناس. أهذا يعني أنّه لا يجب الطموح نحو الأفضل؟ كلّا بالتأكيد، لكنَّ إجابة الدون شيلي تحيلني بشكلٍ غريب على مقولة أوليفر وندل هولمز جونيور، التي وجدتُها ما عدتُ أعرفُ أين: «إنَّ سرَّ نجاحي هو أنّي اكتشفتُ في شبابي أنّني لستُ إلهًا». في غاية الأهمّيّة أن يدرك المرء أنّه ليس إلهًا، وأن يتشكّك دومًا في أفعاله، وأن يعتقد أنّه لم ينفق أعوامه التي عاشها بالفائدة المثلى. هذه هي الطريقة الوحيدة لنحاول أن ننفق ما تبقّى من حياتنا خيرَ إنفاق.

ربّما ستسألونني لماذا تحضرني هذه الأمور في هذا التوقيت تحديدًا، بالتزامن مع الحملات الانتخابيّة حيث ينبغي لمن يخوضها أن يدّعي ألوهيّة نوعًا مّا، أي أن يقول أشياءَ تامّة، مثل الخالق بعد الخلق، وأن يصف صنائعه بأحسن الأوصاف، وأن يخرج علينا بثرثرةٍ عن مقدرته الكلّيّة مُصرِّحًا أنّه قادرٌ على فعل الأفضل دومًا (بينما قَنُعَ الربُّ بأنّه خلق أفضل الأكوان الممكنة). أنا لا أعظ، فليكن واضحًا. الحملة الانتخابيّة تتطلّب أن يفعل المرء هكذا. هل تتصوّرون مرشّحًا يقول لناخبيه: «حتّى الآن لم أفعل إلّا التفاهات، ولستُ واثقًا من أنّني سأفعل خيرًا منها في المستقبل، لا أعدكم إلّا بأنّي سأجرِّب»؟ لن ينتخبوه. فإذًا، أكرِّر، لا مواعظ زائفة. سوى أنّني، بعد الاستماع إلى عدّة خطابات انتخابيّة تلفزيونيّة، يخطر في بالي الدون شيلي.

2007

مدلَّلون معذَّبون

في خضمّ الجدال الوطنيّ الدائر حول الشبّان المدلَّلين[1]، ذُهِلتُ من أنّه لم يخطر في بال أحدٍ الرجوعُ إلى قاموس اللغة الإيطاليّة العظيم والجليل

1- في عام 2007 أثار وزير الاقتصاد بادوا-سكيوبّا عاصفة من الجدل في إيطاليا، حين وصف الشبّان الذين ما يزالون يعيشون عند آبائهم بالمغنَّجين. أراد بذلك تحفيزهم، لتخطّي هذه الأزمة الاجتماعيّة المتفاقمة. لكنّه وُوجِهَ بانتقاداتٍ على استخدامه لكلمةٍ اعتُبِرَتْ مسيئة «bamboccione». يتدخّل أمبرتو إيكو هنا ليبحث عن جذور الكلمة في اللغة الإيطاليّة، مستخلصًا أنّها لا تتحمّل كلّ تلك التأويلات المغالية، ومبيِّنًا وجهة نظره في موضع الجدال. (المترجم).

والموثوق إلى أبعد الحدود UTET (أو المعروف باسم باتّاليا). كان سيجد فيه أنَّ كلمة «bamboccio»/ «البَبُّ»[1] تعني «الطفل الذي يتَّصف بملامح الدلال والدعابة في الآن نفسه؛ وهو الطفل البدين والسمج والبليد نوعًا مّا، الذي لم ينطق بعد، وما زال يفتقر إلى الإدراك، تكاد تحسَبُه جمادًا، أو دمية». في حين أنَّ الكلمة المشتقَّة «bamboccione»/ «البَبُّ الغنوج» (صيغة المبالغة) تحيل على سلسلةٍ من الاستخدامات الكلاسيكيّة، فيراها تومّازيو-ريغوتيني: «بلفظِها لا تستدعي لديَّ البدانةَ أكثر ممّا تستدعي النضارة... من الصعب أن أتخيَّل بَبًّا غنوجًا من دون وجهٍ كبيرٍ نضير». ونجدها عند بالديني: «والآن يعيشون حياة هانئة جميعًا، هي، وبرتولدينو، والمربّية مينيغينا، وذلك البَبُّ الغنوج كاكاسينّو».

أمّا كاكاسينّو (في العمل الذي أضافه بانكييري على رائعة كروتشي الكلاسيكيّة *برتولدو وبرتولدينو*) فنجد أنَّ: «كاكاسينّو كان سمين البطن، خفيض الجبين، واسع العينين، كثيف الرموش، حادّ الأنف ومقوَّس الفم، يشبه قطًّا مدلَّلًا بلا شكّ، أو قردًا صغيرًا بالأحرى». وعندما تعيَّنَ عليه امتطاء الحصان، «استغلَّ كاكاسينّو الفرصة، فوضع قدمه اليسرى على الركاب الأيمن، وما إن امتطى صار وجهه نحو ردفي الحصان؛ فكاد إرمينيو يتفتَّق من الضحك، وبات من المستحيل إقناعه بالترجُّل».

وعندما وصل إلى الملك، «فتح ساسةُ خيول البَلاطِ البوَّابةَ، وأدخلوا كاكاسينّو الذي كان يجرُّ خلف ظهره بابًا خشبيًّا. وكاد الملك والملكة يتمزَّقان من الضحك على ذلك الدخول السخيف إذ أدركا غرابة أطوار الفتى. إلّا أنَّ ماركولفا كانت أكثر المتعجِّبين من هذا. لذا ما إن تمالك القهرمان نفسه من الضحك، وكان حاضرًا، قال لأصحاب التاج الملكيّ: فليعلم أصحاب التاج الملكيّ أنَّ هذا البَبَّ الغنوج، إبّان صعوده على سلالم القصر، وبينما دخلت ماركولفا إلى الصالة، قال لأحد الخدم إنَّه يريد أن يتبوَّل. فرافقوه إلى مكان قضاء الحاجة، مُتفهِّمين وضعه، وحين خرج لم يغلق باب الخلاء خلفه، وبما أنّي كنتُ هناك قلتُ له: «أيُّها الصبيّ، اسحب

1- البَبُّ: الغلام السمين. ويقال: تَبَبَّبَ إذا سَمِنَ. * لسان العرب. (المترجم).

الباب وراءك، كي لا تفوح الرائحة». فما كان منه إلّا أن خلع باب الخلاء من مفاصله، وجرَّهُ خلفه، وهكذا أدخلناه إلى جلالتكم».

سأله الملك: «قل لي يا كاكاسينّو، لماذا تجرُّ هذا الباب خلفك؟»، فأجاب: «وما الذي يهمُّ جلالتكم؟». ردَّ الملك: «يهمّني لأنّي صاحب الدار». فأجاب كاكاسينّو: «إن كنتم جلالتكم صاحب الدار، فهذا الباب لكم. أخبروني ما الذي عليَّ فعله به». الملك: «دعه في حال سبيله». كاكاسينّو: «أيُّها الباب ارحل من هنا، فصاحب الدار أَذِنَ لك. قلتُ لك ارحل، فأنت ثقيلٌ جدًّا ولم أعد أستطيع أن أبقيك على ظهري». وحينذاك «أزاحت ماركولفا الباب عن كتفيه، وأمرت كاكاسينّو أن يتقدَّم بانحناءةٍ للملك والملكة، وأن ينحني حتّى الأرض، ويُقبِّل يد كلٍّ منهما. فأوقع كاكاسينّو نفسه على الأرض مباشرة، كما لو أنّه كابالاو الجديد، وبإيماءةٍ سموحة قال هكذا: «أوه! أيُّها السادة، ها أنا ذا قد انحنيتُ على الأرض، مثلما قالت لي جدّتي. ضعوا يدكم في فمي، لأنّي أريد تقبيلها. تعالوا، أنا بانتظاركم».

إن كان كاكاسينّو بَبًّا غنوجًا، فإنَّ كثيرين ممّن نعتَهم بادوا–سكيوبّا بالوصف ذاك ليسوا كذلك. وإن كان لأحدهم ممّن بلغ الثلاثين عامًا وما زال يعيش عند أبويه ويستخدم سيّارتهما للذهاب إلى المرقص مساء السبت (وربّما يموت إثر حادثٍ أليم على الطريق السريعة في الثالثة صباحًا)، فمن الوارد أنَّه أدهى من كاكاسينّو. وبكلّ الأحوال ما كان ليفعل ذلك إلّا لأنَّ لا أحد أمَّنَ له عملًا، فاللائمة تقع على عاتق المجتمع إذًا.

لا غبار على هذا. ولكن، بما أنّني بفضل مهنتي على تواصلٍ دائم مع الشبّان، وأعرف كثيرًا منهم يتكبَّدون الأهوال لإيجاد منحة دراسيّة و/ أو عملٍ أيًا كانت طبيعته، ويسكنون مع أصدقاء آخرين في مدينةٍ أخرى، ولعلَّهم يتقاسمون الغرفة على أربعة، أتساءل لماذا تعجُّ مؤسَّساتنا الصغيرة بالأجانب، والكثير منهم يعملون سعاة بريد ويُوزِّعون الطرود، ليشغلوا بشكلٍ مهين (مثلما ترى عصبة الشمال اليمينيّة) فرصَ عملٍ بوسع مواطنينا الثلاثينيّين الذين ما زالوا يعيشون لدى ذويهم أن يشغلوها.

الإجابة البديهيّة هي أنَّ هؤلاء الثلاثينيّين ربّما يكونون خرّيجين أو دكاترة

(مثلما يتلقّب الإيطاليّون على نحوٍ مستغرب، في هذه الأيّام، بعد إنهاء ثلاث سنوات جامعيّة) وقد يشعرون بالإهانة إزاء مهنةٍ تقوم على توزيع الطرود. وذلك على الرغم من أنّك في كلّ السير الذاتيّة الأمريكيّة لكبار الكُتّاب أو السياسيّين، تقرأ أنّهم حتّى بعد إتمام دراساتهم، لمجرّد أن يكونوا قادرين على انتظار نشوة المجد، لمّعوا أحذيةً وغسلوا أطباقًا وباعوا صحفًا. فلماذا يستمرئ الأمريكيّون ذلك والإيطاليّون لا؟ ألا يمتلك بادوا-سكيوبّا بعضًا من الحقّ فيما قال؟ ألا يجدر بالسياسيّين الجهابذة من اليمين أو اليسار، الذين تولّتهم ردودٌ غاضبة على كلامه، ألا يجدر بهم أن يكفّوا عن البحث عن أصواتٍ بين الأطفال المدلّلين (الذين من المرجّح أنّهم، ولكونهم مدلّلين، ما عادوا حتّى يقترعون)؟

2007

كان يا ما كان تشرتشل

قرأتُ في عدد مجلّة إنترناسيونالي الصادر في مطلع مارس، تعقيبًا قصيرًا يتناول استطلاعًا أُجرِيَ في بريطانيا العظمى، يخلُصُ إلى أنَّ ربع البريطانيّين يظنُّون أنَّ تشرتشل هو شخصيّةٌ من صنع الخيال، والأمر ذاته يشمل غاندي وديكنز. كثيرٌ من المُحاوَرين (أعدادُهم غير محدَّدة) كانوا سيعتبرون شارلوك هولمز، روبن هوود وإليانور ريغبي، من ضمن الذين لهم وجودٌ حقيقيّ.

كردَّةِ فعلٍ أوّليّة، لا أميل إلى تهويل الموضوع. إنّما يهمُّني على وجه الخصوص أن أعرف إلى أيّ فئةٍ اجتماعيّةٍ ينتمي الربع الذي ليس لديه أفكارٌ واضحةٌ تجاه تشرتشل وديكنز. لو أنّهم استطلعوا آراء اللندنيّين في زمان ديكنز، أولئك الذين يظهرون في منقوشات غوستاف دوريه عن البؤس والشقاء اللذين خيّما على لندن، أو في مشاهد الرسّام هوغارث، حيث ثلاثة أرباعهم على الأقلّ يبدون متّسخين ومُقبَّحين يتضوّرون جوعًا، لما كانوا سيعرفون مَن هو شكسبير. ولستُ متفاجئًا حتّى من أنّهم يظنُّون أنَّ لشارلوك هولمز أو روبن هوود وجودًا حقيقيًّا، أوّلًا لأنَّ هنالك صناعة سياحيّة هولمزيّة في لندن تدعوك لزيارة شقّة هولمز المزعومة في بيكر ستريت. وثانيًا لأنَّ الشخصيّة التي ألهمت أسطورة روبن هوود كانت موجودةً فعلًا (الأمر الوحيد

الذي يجعلها غير واقعيّة هو أنّه في عصر الاقتصاد الإقطاعيّ كان يُسْرَقُ من الأثرياء لإعطاء الفقراء، بينما مع نشوء اقتصاد السوق صار يُسْرَقُ من الفقراء لإعطاء الأغنياء). ومن جهةٍ أخرى، حين كنتُ صغيرًا كنتُ أظنُّ أنَّ بوفالو بيل شخصيّة خياليّة، إلى أن كشف لي والدي أنّه حقيقيّ، لا بل قد رآه بعينيه عندما عرَّجَ بسيركه على مدينتنا، حيث آلَ به اللحاق وراء لقمة العيش إلى الانتقال من الغرب الأمريكيّ الأسطوريّ إلى أنحاء مقاطعة بيمونته.

ولكن من الصحيح أيضًا -وهذا ما ننتبه إليه عندما تُوجَّهُ الأسئلة إلى شبّاننا (دع عنك، ما أدراني، الأمريكان)- أنَّ الأفكار حول الماضي، بما فيه القريب، غامضةٌ إلى حدٍّ كبير. لقد سمعنا عن امتحاناتٍ ظهر فيها أنَّ أحد الشبّان يظنُّ أنَّ مورو عضوٌ في الألوية الحمراء، وأنَّ دي غاسبيري قائدٌ فاشيّ، وأنَّ بادوليو مناضل إلخ[1]. قد يقول أحدهم: لقد انقضى زمنٌ طويل، فلماذا يجدر بمن هُم في الثامنة عشرة أن يعرفوا مَن كان في الحكومة قبل خمسين عامًا على ولادتهم؟ حسنًا، لعلَّ المدرسة الفاشيّة كانت تُصدِّع رؤوسنا كثيرًا، لكنّني في سنّ العاشرة كنت أعرف أنَّ لويجي فاكتا كان رئيسَ الوزراء أيّامَ زحف الفاشيّين إلى روما (أي قبل عشرين عامًا)، وفي الثامنة عشرة كنتُ أعرف مَن هو راتّاتسي أو كريسبي، وهذه كلّها شؤون القرن السابق.

والحال أنَّ علاقتنا بالماضي قد تغيَّرت، ومن المحتمل أنَّ هذا التغيُّر يسري على المدرسة كذلك. فذات مرّة كنّا نهتمّ كثيرًا بالماضي لأنَّ الأنباء عن الحاضر كانت شحيحة، تخيَّلْ أنَّ جريدة يوميّة تقدر على إحاطتك بكلّ شيء بما لا يزيد على ثماني صفحات. أمّا مع وسائل الإعلام الجماهيريّة فقد انتشرت معلوماتٌ هائلة عن الحاضر، فتخيَّلْ أنّك عبر الإنترنت تستطيع الحصول على أخبار عن ملايين الأشياء التي تقع في اللحظة ذاتها (بما فيها أتفه الأشياء). إنَّ الماضي الذي تُحدِّثنا عنه الوسائل الجماهيريّة، كوقائع الأباطرة الرومان أو ريتشارد قلب الأسد على سبيل المثال، أو حتّى الحرب

1- في الحقيقة اغتيلَ ألدو مورو على يد الألوية الحمراء. وكان دي غاسبيري ملاحقًا من الفاشيّين وتولّى رئاسة الحكومة الإيطاليّة بعد سقوط نظام موسوليني. أمّا بادوليو فكان ضابطًا كبيرًا في الجيش الإيطاليّ وعيَّنَهُ الملك دوقًا على أديس أبابا، بينما تُطلَقُ صفة المناضلين على الذين قاوموا النظام الفاشيّ وحليفه النازيّ. (المترجم).

العالميّة الأولى، يمرُّ (من خلال هوليوود، وما شابهها من مصانع) مترافقًا بضخٍّ لسيلٍ من المعلومات عن الحاضر. ويصبح من الصعب كثيرًا أن يلتقط المتفرِّجُ على الأفلامِ الفرقَ الزمنيَّ بين سبارتاكوس وريتشارد قلب الأسد. وعلى الشاكلة نفسها يتفتَّتُ أو يتلاشى عمومًا الفرقُ بين المتخيَّل والواقعيّ: اشرحوا لي لماذا ينبغي لفتى يشاهد الأفلام في التلفاز أن يعدَّ سبارتاكوس حقيقيًّا ولا يعدَّ ماركوس ڤينيكيوس -في فيلم *إلى أين أنت ذاهب*- كذلك؟ ولماذا عليه أن يرى الكونتيسة كاستليوني شخصيّةً تاريخيّةً ولا يرى إليزا دي ريڤومبروزا كذلك؟ ولماذا يجدر به أن يعتبر إيفان الرهيب موجودًا حقًّا ولا يعتبر مينغ طاغية مونغ كذلك، نظرًا لكونهما يتشابهان كثيرًا؟

في الثقافة الأمريكيّة، يُعاش هذا التسطيح للماضي على الحاضر باسترخاءٍ كبير. ومن الممكن أن يحدث لكم أن تلتقوا بأستاذ فلسفة يقول لكم كم من السخيف معرفة ما قاله ديكارت عن طريقة تفكيرنا، فما يهمُّنا هو القَدْر المهول الذي تُقدِّمه العلوم المعرفيّة من اكتشافاتٍ في عصرنا الحاليّ حول طريقة تفكيرنا. إنَّنا نشهد نزوعًا إلى تناسي أنَّ العلوم المعرفيّة إذا كانت قد وصلت إلى ما وصلت إليه، فهذا أيضًا لأنَّ نقاشًا معيَّنًا قد فُتِحَ بفضل فلاسفة القرن السابع عشر. كما أنَّنا نشهد بالتحديد رفضًا للتعلُّم من تجربة الماضي درسًا من أجل الحاضر.

يظنُّ كثيرون أنَّ المقولة القديمة عن التاريخ بوصفه مُعلِّمًا للحياة ما هي إلّا من ترَّهات معلِّمٍ نَسَجَهُ خيال الكاتب دي آميتشيس؛ لكنَّ الأكيد هو لو أنَّ هتلر قد درس حملةَ نابليون على روسيا بإمعانٍ فائقٍ لما وقع في الفخّ الذي وقع فيه، ولو أنَّ بوش قد درس جيّدًا الحروب البريطانيّة على أفغانستان في القرن التاسع عشر (ما الذي أقوله، بل حتّى حرب السوفييت الأخيرة على طالبان) لكان قد خطَّطَ لحملته الأفغانيّة بطريقةٍ مختلفة.

قد يبدو أنَّ هناك فرقًا شاسعًا بين البليد البريطانيّ الذي يظنُّ أنَّ تشرتشل شخصيّة خياليّة، وبين بوش الذي ذهب إلى العراق موقنًا بقدرته على الحسم في غضون خمسة عشر يومًا. لكنَّ الأمر ليس كذلك. نحن بصدد الظاهرة نفسها: طمس البعد التاريخيّ.

2008

كيف نقتل الشباب بمنفعةٍ متبادلة

في العدد السابق من مجلّة الإسبريسّو، كنتُ ألهو بتصوُّر بعض تداعيات المسار الجديد للشفافية الذي دشَّنه ويكيليكس، لا سيّما على المجال الدبلوماسيّ. وكانت تصوُّراتي تنضح بالخيال العلميّ عمومًا، لكنَّها تنطلق من افتراضٍ بديهيّ وهو أنَّه إذا باتت ملفّات الأرشيف الأكثر سرّيّةً وتكتُّمًا معرَّضةً للاختراق، فلا بدَّ أن يتغيَّر شيءٌ مّا، في طرائق الأرشفة على الأقلّ.

فلماذا إذًا، ونحن على أعتاب عامٍ جديد، لا نُجرِّب استقراءً من نوعٍ آخر على معطيات واقعيّة مفروغ منها، حتّى لو كان من خلال المبالغة في تقديم رؤىً قياميّة؟ ففي الحقيقة كان يوحنا اللاهوتيّ برؤياه قد اكتسب شهرةً خالدة، وما زلنا حتّى الساعة كلّما حلَّت بنا مصيبة، قلنا إنَّ ما تنبَّأ به يحدث تمامًا. لذا أرشِّح نفسي متنبِّئًا ثانيًا لجزيرة بطمس[1].

في بلدنا على الأقلّ (دعونا نقتصر على هذا) يصبح الشيوخ دومًا أكثر عددًا من الشبّان. كانوا في الماضي يموتون في الستّين، واليوم في التسعين، ما يعني أنَّهم يستهلكون ثلاثين عامًا إضافيّة من التقاعد. ومن المعروف أنَّ هذا التقاعد سيتحمَّل الشبابُ تكلفته. ولكن بسبب اجتياح كبار السنّ لكثيرٍ من المؤسَّسات العامّة والخاصّة، وازدياد حضورهم على دفّاتها حتّى بداية إصابتهم بهزال الشيخوخة على الأقلّ (ويتخطّون هذا الحاجز في حالاتٍ عدّة)، أمسى من الصعب على الشبّان أن يجدوا فرصة عمل، وبالتالي لا يسعهم الإنتاج من أجل دفع تقاعد الشيوخ.

وإزاء هذا الوضع، حتّى لو طرحت الدولة سندات رسوم مغرية في السوق، ستفقد ثقة المستثمرين الأجانب، وستنعدم الأموال من أجل رواتب التقاعد. ومع هذا ينبغي أن نأخذ بالحسبان أنَّه في حال لم يجد الشبّان عملًا، سيعيشون بتمويلٍ من آبائهم أو أجدادهم الحاصلين على التقاعد. مأساة.

1- تُعدُّ جزيرة بطمس اليونانيّة محجًّا مسيحيًّا، لأنَّ فيها دير القدّيس يوحنا اللاهوتيّ، صاحب سفر الرؤيا، حيث يقال إنَّه نُفيَ إليها وكتب السفر في أحد كهوفها. ومن هنا يقول إيكو ممازحًا إنَّه سيغدو متنبِّئًا ثانيًا بعد يوحنا، في جزيرة بطمس، إذا تحقّقت رؤاه. (المترجم).

الحلّ الأوّل، والبديهيّ. على الشباب أن يبادروا إلى تحضير قوائم إعدام بحقّ العُجَّز الذين لا ذرّيّة لديهم. لكنَّ هذا لن يكفي، وبما أنَّ غريزة البقاء هي ما هي، فعلى الشباب أن يُسلِّموا أمرهم ويباشروا إعدام حتّى الشيوخ الذين لديهم ذرّيّة، أي أقاربهم. ستكون صعبة في البداية، ولكن يكفي اعتيادها. هل عمرك ستّون عامًا؟ لا أحد يُعمَّر أبد الدهر يا أبتِ، سنصحبك جميعًا إلى المحطّة لنلقي عليك تحيّة الوداع قبل أن نُرحِّلك إلى مراكز الإعدام، وأحفادك يهتفون: «وداعًا جدّي». ثمّ إذا تمرَّدَ الشيوخ، تبدأ عمليّة ملاحقتهم، بالتعاون مع الوشاة. لقد وقع هذا على اليهود، فلِمَ لا يقع على المتقاعدين؟

وماذا عن الشيوخ الذين لم يحالوا إلى التقاعد بعد، وما زالوا في السلطة، هل سيتقبَّلون ذاك المصير بصدورٍ رحبة؟ سيكونون آنذاك قد امتنعوا عن إنجاب أبناء كي لا يضطرّوا إلى وضع قتلة محتملين في هذا العالم، ما سيترتَّب عليه تناقصٌ هائلٌ بأعداد الشبّان. وفي النهاية سيُقرِّر هؤلاء الشيوخ النقباء (والفرسان) الصناعيّون، المعتادون على آلاف المعارك، سيُقرِّرون -بحسرةٍ تعتصر قلوبهم ربّما- تصفية أبنائهم وأحفادهم. ليس بإرسالهم إلى معسكرات الإبادة مثلما كانت ذرّيّتهم ستفعل بهم، إذ إنَّهم عمومًا من جيلٍ ما يزال متعلِّقًا بالقيم التقليديّة للعائلة والوطن؛ إنّما بتفجير النزاعات والحروب التي يعلم الجميع أنَّها تقضي على المجنَّدين الأصغر سنًّا، ناهيك بأنَّها على حدّ وصف المستقبليّين: المُطهِّر الوحيد للعالم.

سيكون لدينا بهذا الشكل بلدٌ لم يعد فيه شبَّانٌ تقريبًا، إنّما فيه الكثير الكثير من الشيوخ، اليانعين والمزهرين، لا غاية لهم سوى نصب الصروح للشهداء والاحتفاء بمن قدَّمَ حياته بكلّ سخاء فداءً للوطن. ولكن مَن الذي سيعمل ليدفع لهم رواتبهم التقاعديّة؟ المهاجرون، التوَّاقون كلَّ التوق للحصول على الجنسيّة الإيطاليّة، والمتلهِّفون للعمل بأجورٍ زهيدة وبلا عقودٍ ضامنة، والمهيَّؤون بسبب أمراضٍ وراثيّةٍ متأصِّلة للموت في عمر الخمسين، ليفسحوا المجال بذلك لطاقةٍ عاملة جديدة أكثر اتّقادًا ونشاطًا.

وهكذا في ظرف جيلين، سيكون هناك عشرات الملايين من الإيطاليّين «المسمَّرين» يضمنون الرفاهية لنخبةٍ من التسعينيّين البيض ذوي الأنوف

السليمة والبدلات الراقية (والسيّدات بالأوشحة والطراح المخرَّمة)، الذين يرتشفون الويسكي بالصودا في شرفات ممتلكاتهم الاستعماريّة، على البحيرات أو أرصفة البحر، بعيدين عن نتانة المدن، التي لا يسكنها والحال هذه إلّا الزومبي من ذوي البشرة الملوَّنة، المخمورين بمُطهِّر الكلور الذي يظهر إعلانه في التلفاز.

أمّا بشأن يقيني من أنّنا نسير على مشية القريدس، ومن التقدُّم الذي غدا يتقاطع مع النكوص، سنلاحظ أنّنا سنكون في وضعٍ لا يختلف كثيرًا عن وضع الإمبراطوريّة الاستعماريّة في الهند، في أرخبيل الملايو أو في وسط إفريقيا. ومَن سيبلغ عامه العاشر بعد المئة بسعادةٍ عارمة، بفضل تطوُّر الطبّ، سيشعر أنّه مثل الراجا الأبيض حاكم ساراواك، السيّد جيمس برووك، الذي تبني عليه رواياتُ سالغاري خيالاتٍ وتصوُّراتٍ قرأتُها في صغري.

2011

الرماة المساكين

أطلعني بعض الزملاء على أنّهم، خلال امتحانٍ جامعيّ، حيث تشعَّبَ النقاش لا أدري كيف حتّى وصل بهم إلى مجزرة محطّة بولونيا؛ وإزاء شكوكهم بأنَّ الطالب الممتحَن يهرف بما لا يعرف، سُئِلَ إن كان يذكر إلى مَن نُسِبَتْ المجزرة المروِّعة. فأجاب: إلى الرماة[1].

كان من الممكن توقُّع إجاباتٍ من شتّى الأنواع: أن تُنسَبَ الجريمة إلى المتطرِّفين العرب أو حتّى إلى جماعة أبناء الشيطان، لكنَّ نسْبَها إلى الرماة لا يخطر على بالٍ حقًّا. أجازف بالظنّ أنَّ في ذهن الطالب المنحوس تغبَّشت صورةٌ مشوَّشة عن ثغرةٍ محفورة في جدار المحطّة للتذكير بالمجزرة، وأنَّ

1- «Bersaglieri»: فرقة المشاة المتمرِّسة على القنص في الجيش الإيطاليّ. كان لها فضلٌ كبير في معارك توحيد إيطاليا أواسط القرن التاسع عشر، لاسيّما الاستيلاء على روما من جانب بورتا بيا، حيث أحدث الرماة ثغرةً في السور تسلَّلوا من خلالها إلى المدينة. أمّا مجزرة محطّة بولونيا، فهي عمليّة إرهابيّة نفَّذَها الفاشيّون الجدد عام 1980. (المترجم).

رؤية تلك الثغرة أحدثت ماسًا كهربائيًّا في دماغه مع مفهومٍ آخر غير دقيق، شيء مّا يشبه *زفير الأصوات*[1]، متعلّق بالثغرة التي أحدثها الرماة في سور بورتا بيا. من جهةٍ أخرى، في السابع عشر من مارس 2011، سُئِلَ كثيرٌ من البرلمانيّين، إضافةً إلى حاكم إحدى المناطق، في برنامج «الضباع» التلفزيونيّ، حول سبب اعتماد هذا التاريخ للاحتفال بالذكرى المئة والخمسين لتوحيد إيطاليا، فقدَّمَ هؤلاء أغرب الإجابات وأغباها، من أيّام ميلانو الخمسة وصولًا إلى الاستيلاء على روما.

إنَّ قضيّة الرماة هذه تبدو أنَّها تختزل بشكلٍ ناجعٍ أمثلةً عديدةً عن العلاقة المتعثّرة لما لا يُحصى من الشبّان بأحداث الماضي (والرماة أيضًا). منذ مدّة قال بعض الشبّان في إحدى المقابلات إنَّ ألدو مورو هو قائد الألوية الحمراء. في حين أنّني كنتُ في سنّ العاشرة أعرف مَن هو رئيس وزراء إيطاليا إبّان الزحف الفاشيّ إلى روما (أي عشرة أعوام قبل ولادتي) «فاكتا الجبان». من المؤكَّد أنّي عرفتُ هذه المعلومة لأنَّ المدرسة في العهد الفاشيّ كانت لا تكلُّ ولا تملُّ من تكرارها على مسامعي كلَّ يوم، الأمر الذي يجعلني أفكّر أنَّ إصلاحات جنتيلي، بحدّ ذاتها، أنضج من إصلاحات جلميني[2]؛ لكنّي لا أعتقد أنَّ اللائمة كلَّها تقع على المدرسة. أعتقد أنَّ الأسباب مختلفة، وأنَّها راجعة إلى شكلٍ من أشكال الرقابة المتواصلة التي لا يخضع لها الشبّان فحسب إنّما الكبار أيضًا. لكنّي لا أعني بكلمة «رقابة» تكميم الأفواه المدان حصرًا: توجد رقابة قائمة على الإفراط في إثارة الضجيج، يعرفها الجواسيس أو مجرمو الأفلام البوليسيّة، الذين إذا أرادوا البوح بسرٍّ مّا رفعوا صوت الراديو إلى أقصى درجة. لعلَّ طالبنا ذاك ليس ممَّن قيل له القليل عن الموضوع، إنّما *ممَّن قيل له أكثر ممّا ينبغي*، فلم يعد قادرًا على انتقاء ما يستحقُّ التذكّر. بل أصبحت لديه مفاهيم متشابكة وغير دقيقة عن الماضي،

1- *Flatus vocis* تعبير منسوب إلى الفيلسوف روسيلنيوس، الذي يعتبر أنَّ المفاهيم الكونيّة لا تمتلك أيَّ حقيقة موضوعيّة، فهي مجرّد أسماء، أصوات ملفوظة ليس إلّا. (المترجم).

2- جوفانّي جنتيلي هو وزير التعليم في حكومة موسوليني عام 1923؛ ماريّاستيلا جلميني هي وزيرة التعليم في حكومة برلسكوني عام 2008. (المترجم).

لا لأنَّه لم يُحدِّثه بها أحد، بل لأنَّ الأنباء المفيدة والموثوقة اختلطت ودُفِنَتْ في سياق أنباءٍ فائضة عن الحاجة ولا أهمّيّة لها. وإنَّ الولوج غير المنضبط إلى المصادر المتنوّعة يجعله عرضةً لعدم القدرة على تمييز المعلومات الأساسيّة والضروريّة عن تلك الأقرب إلى الهلوسة.

والنقاشُ جارٍ حاليًّا عمّا إذا كان من الصواب أم من الخطأ أن يُتاحَ لأيّ شخصٍ أن يطبع كتابًا ويضعه في التداول من دون وساطة ناشر. النقطة الإيجابيّة هي أنَّه في الماضي ظلَّ كثيرٌ من الكُتّاب الممتازين مغمورين جرّاء عثرةٍ ظالمة تسبَّبَت بها أوساط النشر، وأنَّ التداول الحرّ لمقترحاتٍ متعدِّدة لا يمكن إلّا أن تتمخَّضَ عنه موجةُ حرّيّة. لكنَّنا نعلم علم اليقين أنَّ كثيرًا من الكتب تؤلّفها شخصيّاتٌ غريبة الأطوار نوعًا مّا، وكذلك يحدث في عديدٍ من مواقع الإنترنت. وإن كنتم لا تصدِّقون فاذهبوا لتصفُّح (*nonciclopedia.wikia.com/wiki/Groenlandia*) حيث يُقال: «غرينلاند هي جزيرة تقع في حيِّزٍ من الكرة الأرضيّة يؤكِّد فرضيّة أنَّ الأرض مربَّعة، هذا إذا كان للحيِّز وجودٌ أصلًا. وهي أكثر جزيرة مأهولة بالسّكان بالتناسب مع مقدار الجليد... فضلًا عن كونها دولةً أوروبيّة، أو هكذا تبدو لي على الأقلّ، ليس لديَّ رغبةٌ في الرجوع إلى الأطلس لذا ثقوا بكلامي. موجودة في نصف الكرة الشماليّ، في نصكوريا الشماليّة».

فكيف للفتى أن يفهم أنَّ كاتب هذه المعلومة يمزح، كيف له أن يدرك أنّه بصدد شخصيّة غريبة الأطوار بما لا يطاق، وكيف له أن يشكّ في أنّه يقول الحقيقة بطريقةٍ أو بأخرى؟ هذا ما قد يحدث للكتب. من الصعب أن يقبل ناشرٌ بنشر أخبارٍ من هذا القبيل، إلّا إذا حدَّدَ على الغلاف أو على ثنيّته أنَّها مجموعة من المفارقات المضحكة. ولكن في حال انعدام وسيطٍ يؤكِّد لنا أنَّ بين أيدينا كتابًا يستحقُّ أن يؤخذ بجدّيّةٍ أم لا؟

2011

مفاجأتان رائعتان

يُحدِّثني زملاءٌ مفجوعون عن أنَّ طالبًا في المرحلة الجامعيّة الأولى،

خلال الامتحان، لفَظَ اسمَ نينو بيكسيو «نينو بيپيريو»، لأنَّ المواظبة الهستيريّة على الرسائل النصّيّة القصيرة SMS، أوهمته أنَّ الـ X لا تُلفَظُ إلّا Per. ومن هنا توالدت تأمُّلاتٌ كئيبة: «ما الذي يُعلِّمونهم في المدارس المتوسّطة والثانويّة؟ هل حقًّا يتوجَّبَ إلغاء المدرسة العامّة لنودع الأمر للمدارس الخاصّة؟» وبمعزلٍ عن أنّه إذا كان ثمّة مدارس خاصّة ممتازة، وأنَّ بعضها متخصِّصٌ في تنجيح الأغبياء من أبناء العوائل الميسورة الحال، فهل مدرستنا العامّة تتّجه إلى الهلاك حقًّا؟

في أواسط مارس تعيَّنَ عليَّ الذهاب إلى ألبينيا، من أجل جائزة تشيرا أونا زفولتا. أُسِّسَت الجائزة بوصفها مسابقة محلّيّة في المدرسة الحكوميّة جوردانو برونو، لكنّها في ظرف أربعة عشر عامًا أصبحت جائزة وطنيّة (وهذه السنة تنافَسَ عليها حوالي ألف ومئة فتى من ثمانٍ وثلاثين مدرسة ثانويّة تابعة لتسع وعشرين مقاطعة مختلفة). يُطلَبُ في كلّ عامٍ من كاتبٍ أن يطلق شارة البدء لحكاية، وعلى المتسابقين أن يتابعوها (ضمن امتحانٍ شديد الصرامة داخل قاعة)، ثمّ تُرفَعُ النصوص المجهولة الأسماء لتقديرها من قِبَلِ لجنةٍ داخليّة ثمّ إلى لجنةٍ خارجيّة، وبعد عدّة عمليّات فرزٍ واصطفاء، يتأهّل خمسة متسابقين إلى المرحلة النهائيّة لدى الكاتب المدعوّ الذي توكَلُ إليه مهمّة انتقاء الأفضل.

وفي هذه السنة كنتُ أنا الكاتب المدعوّ، وقد استمتعتُ بمقترحٍ تحفيزيٍّ، وهو أن نختار حكاية اجتماع منتدى من الأدباء المجانين الذين يُكرِّسون أنفسهم لوضع بداية ونهاية لما عُرِّفَت بأنّها أقصر حكاية في العالم، وهي حكاية أوغوستو مونتيرّوسو التي تقول: «عندما أفاق، كان الديناصور ما يزال هناك».

الآن، من الوارد أن تكون بعض الحكايات، من أصل ألف ومئتين، مشكوكًا في قيمتها (مع أنّ أعضاء اللجنتين أخبروني أنّهم وجدوا صعوبة في الاختيار)، إلّا أنّه من المؤكَّد أنَّ الخمس التي تعيَّنَ عليَّ الحكم عليها تركتني حائرًا، لدرجة أنّني فكّرتُ باختيار إحداها عشوائيًّا، لأنَّ جميعها كانت نماذج عن أدبٍ رفيع. أقصد أنّها كانت ناضجةً إلى حدٍّ بعيد، وأنَّ كثيرًا من الكتّاب المحترفين ما كانوا ليتردّدوا في الإمضاء بأسمائهم على تلك النصوص.

إذا كنتم مهتمّين بالتحقّق من ذلك تجدون الحكايات الخمس المتأهّلة إلى النهائيّات في العدد القادم من مجلّة ألفابيتا. يبدو لي أنّهم حلّقوا عاليًا. ولستُ أتحدّث عن مدرسةٍ واحدة، إنّما عن قرابة الثلاثين، من غوريتزيا شمالًا إلى الجزر جنوبًا.

المفاجأة الثانية: تلقّيتُ من مدرسة مليكورّي جويا في مدينة بياتشنتزا حصيلةَ عامٍ كامل من العمل الذي أجراه تلاميذ من الصفّ الخامس الأدبيّ والصفّ الخامس العلميّ. وهي نسخة (أربع وأربعون صفحة رائعة وملوّنة) تحاكي صحيفة يوميّة تشبه *لا ريبوبليكا* في الإخراج، لكنَّ اسمها *تريكولوري*، سعرها خمسة قروش في ميلانو وسبعة خارج ميلانو، بتاريخ يوم الإثنين 18 مارس 1861.

تُقَدِّمُ بطبيعة الحال أنباءً عن اتّحاد إيطاليا الراهن آنذاك، وتفتتح بمقالات لكافور، كاتّانيو، ماتسيني، وخطاب الملك ڤيتّوريو إيمانويلي الثاني أمام البرلمان. وتعرض مداخلةً لجوزويه كاردوتشي، وذكرى لغوفريدو ماميلي، وخبرًا عن زيارة أندرسن إلى ميلانو، وتأمُّلات حول قانون كازاتي وقرارات دي سانكتيس وزير التربية الجديد. وتأخذ بالحسبان أنَّ لينكولن انتُخِبَ منذ فترة رئيسًا للولايات المتّحدة، وأنَّ غوليلم الأوّل تربَّعَ على عرش بروسيا. وتفرد صفحاتٍ ثقافيّة لكريستينا دي بلجويوزو وفرنشسكو هايز، كما تتناول الجدل الحاصل حول *أزهار الشرّ* لبودلير، وتُذكِّرُ برحيل إيتالو نييڤو. وتستعرض مراجعةً لرواية *فَحّامو الجبل* للأديب ڤيرغا، دون أن تغفل عن التطرُّق إلى ڤيردي طبعًا، وموضة العصر وصدور الطبعة الثالثة لكتاب *أصل الأنواع* لداروين. وتنتهي بتقريرٍ من ليفربول بعنوان *كرة القدم، لعبةٌ بلا مستقبل*. ولطيفةٌ هي الفواصل الإعلانيّة.

لا أعلم إن كان ثمّة صحيفة حقيقيّة من ذلك الزمن كانت ستُخرِج عددًا دسمًا تقارن فيه تناقضات إيطاليا الموحَّدة للتوّ دون تلاعبٍ بالألفاظ. وهذا الدليل الآخر آتٍ من مدرسة عامّة كذلك. أترقَّبُ مقترحاتٍ مثيرة كتلك من مدرسةٍ خاصّة.

2011

جيلٌ من الفضائيّين

أعتقد أنَّ ميشال سيريس هو أبرز المفكّرين الفلاسفة الموجودين في فرنسا حاليًّا، وشأنه شأن كلّ فيلسوفٍ قدير يستطيع الانحناء للتأمُّل في القضايا الراهنة أيضًا. سأستخدم، بلا استحياء، مقالَهُ الرائع (باستثناء بعض التعليقات الشخصيّة) الصادر على صفحات اللوموند في 6-7 من شهر مارس الفائت، حيث يُذكِّرنا بأشياء تخصُّ أبناءَ قرّائي الشبّان، وأحفادَنا نحن المتقدِّمين في السنّ.

بادئ ذي بدء، إنَّ هؤلاء الأبناء أو الأحفاد لم يروا في حياتهم خنزيرًا، أو بقرة، أو دجاجة (أذكر بالمناسبة أنَّ تحقيقًا أمريكيًّا ثلاثين عامًا خلت أفاد أنَّ أطفال نيويورك في غالبيّتهم يظنّون أنَّ الحليب، الذي يرونه بالعبوات في المتاجر، ما هو إلّا مُنتَجٌ مصنَّعٌ مثل الكوكا كولا). إنَّ الكائنات البشريّة الجديدة لم تعد معتادة العيش في الطبيعة، ولا تعرف إلّا المدينة (أُذكِّر أنَّهم عندما يذهبون في إجازة ينزلون غالبًا في تلك التي عرَّفَها مارك أوجيه بتسمية «اللا أماكن»، والتي تبدو فيها القرية السياحيّة شبيهةً كلّيًّا بمطار سنغافورة، تُقَدِّمُ لهم بكلّ الأحوال طبيعةً ساذجة ومشذَّبة، مصطنعة بالمجمل). نحن بصدد واحدة من أكبر الثورات الأنثروبولوجيّة بعد العصر الحجريّ الحديث. هؤلاء الشبّان يعيشون في عالمٍ مكتظٍّ بالسكّان، ويأملون في الحياة حتّى يبلغوا الثمانين؛ وبسبب طول أعمار آبائهم وأجدادهم، وإن كان يحدوهم أملٌ بأن يرثوا شيئًا مّا، فإنَّ ذلك ما عاد يتمُّ في سنّ الثلاثين إنّما على أعتاب شيخوختهم.

إنَّ الشبّان الأوروبيّين لم يعرفوا حروبًا منذ ما يزيد على ستّين سنة، وبفضل استفادتهم من الطبّ المتقدّم لم يعانوا مثلما عانى أسلافهم، لا بل إنَّ آباءهم أكبر سنًّا من آبائنا (ومعظمهم مطلّقون). يدرسون في المدارس جنبًا إلى جنب فتيةٍ من لونٍ مختلف، وديانة مختلفة، وعادات مختلفة (ويتساءل سيريس إلى متى سيظلّون ينشدون النشيد الوطنيّ *المارسّييز* الذي يشير إلى دم الأجانب «النجس»؟). وما الأعمال الأدبيّة التي ستبقى محطَّ ذائقتهم طالما أنَّهم لم يعرفوا الحياة الريفيّة، ومواسم قطف العنب، والاحتلالات،

وصروح الشهداء، والرايات التي مزَّقَها رصاص العدوّ، والحاجة الملحّة لمنظومة قيمٍ أخلاقيّة؟

لقد تلقَّوا تأهيلهم عن طريق وسائل إعلاميّة أنشأها الراشدون الذين خفَّضوا استمراريّة الصورة إلى سبع ثوانٍ فقط، ومدّة الإجابة على الأسئلة إلى خمس عشرة ثانية؛ وعلى الرغم من هذا يشاهدون في تلك الوسائل أشياء ما عادوا يرونها في الحياة اليوميّة: جثثٌ نازفة، انهيارات، دمار: «قبل أن يتمّوا الثانية عشرة، أجبرهم الراشدون أن يروا عشرين ألف مجرم». لقد تلقَّوا تربيتهم عن طريق الإعلانات التي تبالغ في الاختصارات والكلمات الأجنبيّة التي تساهم في إضاعة معنى اللغة الأمّ. لم يعد لديهم وعيٌ بالنظام القياسيّ العُشريّ ما داموا يَعِدُونَهم بمكافآتٍ تُحسَب بالأميال. لم تعد المدرسة مكانًا للتعلُّم، ناهيك بأنَّهم لفرط اعتيادهم الكمبيوتر يعيش هؤلاء الفتية جزءًا كبيرًا من حياتهم في العالم الافتراضيّ. فالكتابة نقرًا بإصبعٍ واحدةٍ عوضًا عن اليد بأكملها «ما عادت تثير الأعصاب نفسها أو القشور الدماغيّة نفسها» (وفي النهاية صاروا كالحواسيب المتعدّدة المهام تمامًا). نحن كنّا نعيش في فضاءٍ قياسيٍّ مُدرَكٍ حسّيًّا، في حين أنَّهم يعيشون في فضاءٍ غير واقعيٍّ ما عاد فيه أيُّ فرقٍ بين المسافات القريبة والبعيدة قائمًا.

لن أقف على التأمُّلات التي يجريها سيريس حيال إمكانيّة تلبية الاحتياجات الجديدة للتربية. تُحدِّثنا نظرتُهُ البانوراميّة بكلّ حال عن خرابٍ شاملٍ يؤدّي بنا إلى حقبةٍ تُعادِلُ حقبة اختراع الكتابة، واختراع الطابعة بعدها بعصور. سوى أنّ هذه التقنيّات الحديثة والعصريّة تتبدَّل بسرعةٍ هائلة «وفي الوقت نفسه يتحوَّل الجسد، وتتغيَّر أشكال الولادة والموت، والسقم والشفاء، والألغاز، والفضاء، والبيئة، والكينونة في العالم»[1]. لماذا لم نكن مهيَّئين لهذا التحوُّل؟ يَخلُص سيريس إلى أنَّ الذنب يقع أيضًا على الفلاسفة، الذين تقتضي عليهم مهنتهم بأن يتنبّؤوا بتغيُّرات المعارف والتطبيقات، ولم يقوموا بذلك على أكمل وجه، لأنَّهم «بسبب انشغالهم بالسياسة اليوميّة، لم

1- الكينونة في العالم، لا بدّ أنّها إحالةٌ على فلسفة مارتن هايدغر الذي يستخدم مصطلح الدازاين للتعبير عن التجربة التي يُكوِّنها الإنسان من خلال وجوده في العالم. للمزيد حول هذا الموضوع، راجع كتابه الأشهر «الكينونة والزمان». (المترجم).

يشعروا بقدوم المُعاصَرَة». لا أدري إن كان سيريس على صوابٍ في كلّ ما ذهب إليه، لكنَّه أصاب في معظمه.

2011

أين هم الستّينيّون الآخرون؟

احتفى ألدو كاتسولو، في صحيفة *كورييري ديلا سيرا* 15 أبريل، بإنريكو ليتّا (ستّة وأربعون عامًا) باعتباره كان شابًّا إبّان الثمانينات، أي أنَّه نشأ في عقدٍ مُتَّسمٍ باتّقاد سهرات يوم السبت، وعدم إيلاء اهتمامٍ كبير بالسياسة. لكنَّ كاتسولو يذكر أنَّ سنوات الثمانينات تتميَّز بشهرةٍ حولها خلاف، ولئن كانت في نظر بعضهم أعوامَ اليوبّي[1] الظافر، وميلانو للشرب[2]، وانهيار الأيديولوجيّات، فإنَّها تبدو في نظر آخرين أعوامًا حاسمة. ولقد تطرَّقتُ إليها في أحد *المغلّفات* في العام 1997، ورأيتُ أنَّها سنواتٌ عظيمة لأنَّها وهبتنا نهاية الحرب الباردة، وانهيار الإمبراطوريّة السوفييتيّة، ونشوء توجُّهاتٍ جديدة كالبيئويّة والعمل الطوعيّ، والبداية الصادمة والتاريخيّة للهجرات الكبرى من العالم الثالث نحو أوروبا، والشيء الذي لم يكن حينذاك معدودًا بكونه الانطلاقة الحقيقيّة للألفيّة الثالثة: الكمبيوتر الشخصيّ. أكان عقدًا خاليًا من الغليان بالفعل؟ حسنًا، سنرى في المستقبل أيّ جيلٍ أفرز، لأنَّ إنريكو ليتّا هو بطبيعة الحال كالسنونو الذي لا يصنع الربيع. أمّا ماتّيو رينزي، المولود بعده بتسعة أعوام، فلم يصبح راشدًا إلّا في التسعينات.

لكنَّ المشكلة تبدو لي في مكانٍ آخر. بيَّنت لنا الأزمة الأخيرة أنَّ جيل الفتية اليافعين، المولودين في أعوام التسعينات، أفرز «حركة» لكنَّه لم يُولَّد بعدُ قادةً عظامًا، في حين أنَّ كلَّ النقاشات في الأسابيع الماضية اقتصرت على

1- «Yuppie» مصطلح أمريكيّ شاع في الثمانينات، يشير إلى المهنيّين ورجال الأعمال من فئة الشباب المميَّزين الذين يحقِّقون نجاحات باهرة وخاطفة في الأوساط الرأسماليّة، وهو اختصار «Young Urban Professional». (المترجم).

2- مصطلحٌ صحفيٌّ أُطلِقَ على الحياة الاجتماعيّة في ميلانو الثمانينات، بوصفها مرتعًا للوصوليّة والفساد، وإحدى أبرز شخصيّاتها هي سيلفيو برلسكوني. (المترجم).

تمحورها حول كاريزما الأشخاص الذين يناهزون الثمانين أو تجاوزوها، مثل جورجو نابوليتانو، سيلفيو برلسكوني، ستيفانو رودوتا، فرانكو ماريني، والأصغر منهم بقليل مثل جوليانو أماتو (خمسة وسبعون عامًا)، رومانو برودي (أربعة وسبعون عامًا)، غوستافو زغربلسكي (سبعون عامًا). ما سبب فجوة الزعامات ما بين المولودين في عقد الثمانينات وأولئك الشيوخ الأجلّاء ذوي الكاريزما؟ نلاحظ غيابًا للجيل المولود خلال الخمسينات، فليكن واضحًا، ذلك الجيل الذي كان ما بين الثامنة عشرة والعشرين في العام 1968.

لكلّ قاعدة استثناء، بوسعنا أن نذكر بيير لويجي برساني (1951)، ماسيمو داليما (1949)، جوليانو فيرّارا (1952)، بل حتّى جوزيبّي غريلّو (1948)، لكنَّ الثلاثة الأوائل اجتازوا حراك الـ68 من داخل الحزب الشيوعيّ الإيطاليّ (وهذا ما وقع للأصغر منهم، نيكي فندولا، مواليد 1958)، أمّا الرابع فكان في تلك الأعوام ما يزال يعمل ممثّلًا. فالمتغيّبون عن معترك السياسة، الذين عجزوا عمومًا عن تنشئة قيادات تحظى بمكانةٍ عالميّة، هم الذين شاركوا سابقًا بحراك الـ68.

انتهى المطاف ببعضهم إلى الإرهاب أو إلى النضالات خارج البرلمان، وفضَّلَ آخرون أداء مهامّ سياسيّة خفيّة نوعًا مّا (مثل ماريو كابانا)، فيما أثبت غيرهم أنَّ واجبهم الثوريّ ما كان سوى واجهة أو منفعة، فأصبحوا موظَّفين برلسكونيّين، أحدهم يؤلِّف كتابًا أو يشتغل مُحلِّلًا سياسيًّا، ويعتكف آخَرُ في برجه العاجيّ الأليم والمستهين. وانغمست شخصيّاتٌ مثل جينو سترادا في الأعمال الطوعيّة، ولكن بالمحصِّلة في الأوقات العصيبة لم يبرز أحدٌ من ذلك الجيل كمُخَلِّصٍ للوطن.

تقمَّصَ شبّان الـ68 توتُّرات ومثاليّات حراكٍ قلَبَ العالم بأسره حقًّا، وغيَّرَ جزءًا من العادات والعلاقات الاجتماعيّة، لكنَّه في نهاية المطاف لم يقترب من العلاقات الاقتصاديّة والسياسيّة الحقيقيّة. أصبح أولئك الشبّان -في ريعان شبابهم- زعماء يتمتَّعون بكاريزما عالية، يُعظِّمهم مريدوهم من كلا الجنسين، إذ كان بوسعهم التعامل وجهًا لوجه (وربَّما كفًّا لوجه) مع شيوخ تلك المرحلة الكبار. أخذهم هوسُ الجبروت (أودّ رؤيتكم وصوركم

تتصدَّر الصفحات الأولى في سنّ الثامنة عشرة) فنسوا أو لم يسعفهم الوقت ليتعلَّموا أنَّك لكي تصبح جنرالًا فلا بدَّ أن تبدأ عريفًا، ثمّ رقيبًا، ثمّ ملازمًا لتترقّى هكذا رتبةً في إثر رتبة. أمّا مَن يبدأ جنرالًا على الفور (كان لهذه الأمور أن تحدث حصرًا في زمن نابليون أو في جيش بانتشو بيا، لكنّنا رأينا مآلها) فسوف يعود في النهاية إلى مكتب الشؤون الإداريّة من دون أن يتعلَّم أصول المهنة الشاقّة، مهنة القيادة.

ومثلما يعرف الشبّان الكاثوليك والشبّان الشيوعيّون من زمنٍ مضى: لا بدَّ من الكدِّ والتعب طويلًا.

أمّا أولئك فقد حرقوا المراحل، ومع المراحل أحرقوا جيلهم (سياسيًّا).

2013

تيريزا البليدة

في العدد الفائت من الإسبريسّو صدرت رسالتي إلى حفيدي الصغير، التي كنت أحثُّهُ فيها على تمرين الذاكرة، وأدعوه إلى حفظ قصيدة *تيريزا الليبية* عن ظهر قلب، لأنَّ جيله قد يتعرَّض لفقدان الذاكرة الشخصيّة وتلك التاريخيّة على حدٍّ سواء، فهناك الكثير من الطلبة الجامعيّين اليوم (اقتبستُ من بعض المصادر الإحصائيّة) يظنّون أنَّ ألدو مورو كان قائد الألوية الحمراء. كنتُ قد كتبتُ الرسالة في أواسط ديسمبر، وفي تلك الأيّام تحديدًا ظهر خبرٌ على اليوتيوب، شاهده على الفور ثماني مئة ألف شخص، وفاضت به صحفٌ عدّة.

المسألة تخصّ *الورثة*، برنامج المسابقات التلفزيونيّ الذي يُقدِّمه كارلو كونتي، حيث يُدعى المتسابقون المختارون بناءً على قاعدة الطلعة الحسنة، واللطافة العفويّة، أو على بعض الطبائع الغريبة، لكنَّ المؤكَّد أنَّ انتقاءهم يقوم أيضًا على قاعدة كفاءاتهم المفاهيميّة، وذلك تجنُّبًا لإظهار أفرادٍ يشردون بأفواهٍ فاغرة حين تتحدّاهم بسؤالٍ عمّا إذا كان غاريبالدي درّاجًا، أم مستكشفًا، أم قائدًا عسكريًّا أم مخترعَ الماء الساخن. الآن، في إحدى تلك السهرات التلفزيونيّة، طرح كونتي على أربعة متسابقين السؤال التالي: «متى

عُيِّنَ هتلر مستشارًا؟» تاركًا لهم الخيار بين 1933، 1948، 1964، 1979. توجَّبَ الردُّ على إلاريا الصبيّة الصغيرة والجميلة؛ ماتّيو المكتنز حليق الرأس، يُطوِّق عنقَهُ بسلسلة، ومن الوارد أنَّه في الثلاثين من العمر؛ تيتزيانا، امرأةٌ شابّة وجذّابة، في الثلاثين من عمرها على ما يبدو؛ والرابعة يفوتني اسمها، تضع النظّارة وملامحها تشي بأنَّها المتفوِّقة في صفِّها.

وبما أنَّه من المفترض أن يكون معروفًا أنَّ هتلر مات في نهاية الحرب العالميّة الثانية، فلا يمكن للإجابة إلّا أن تكون 1933، طالما أنَّ التواريخ الأخرى كلَّها بعد نهاية الحرب. غير أنَّ إلاريا أجابت 1948، وماتّيو 1964، وتيتزيانا غامرت بـ 1979، ووحدَها المتسابقة الرابعة أُرغِمَتْ على اختيار 1933 (تبدَّت عليها الحيرة، فلم يُفهَمْ ما إذا كان سببها السخرية أم الدهشة).

وفي الفقرة اللاحقة طُرِحَ سؤال: متى استقبل موسوليني عزرا باوند؛ والخيار بين 1933، 1948، 1964، 1979. لا أحد (بمن فيهم أعضاء جماعة كازا باوند المتطرِّفة) مجبرٌ على معرفة مَن يكون عزرا باوند، وأنا لم أكن أعرف في أيّ عامٍ التقاه موسوليني، ولكن من البديهيّ أنَّ الاحتمال الوحيد الممكن هو 1933، طالما أنَّ جثّة موسوليني عُلِّقَت في ساحة لوريتو عام 1945 (مع أنّي ذُهلتُ من مواكبة الدكتاتور لتطوُّر الشعر الأنغلوساكسونيّ). دهشة: إلاريا الجميلة، تطلب الغفران بابتسامةٍ رقيقة، وتغامر بـ 1964.

كان تعجُّب كونتي بديهيًّا، وكذلك تعجُّب الكثيرِ ممّن تفاعلوا مع الخبر على اليوتيوب في الحقيقة. لكنَّ المشكلة باقية، وهي أنَّه في ذهن أولئك المتسابقين الأربعة الذين تتراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين -ومن المشرَّع اعتبارهم ممثِّلين عن فئةٍ معيّنة- تتسطَّح تلك التواريخ الأربعة، السابقة لتواريخ ولادتهم بطبيعة الحال، تتسطَّح في أذهانهم بما يشبه الماضي المبهم وغير الواضح المعالم، ولعلَّهم كانوا سيقعون في الفخّ نفسه حتّى لو كان بين الاحتمالات 1492.

إنَّ تسطيح الماضي بسديمٍ غير متمايزٍ قد تحقَّقَ في حقبٍ كثيرة، ويكفي أن نتذكَّر رافّايلّو إذ يُصوِّر زفاف العذراء بحضور شخصيّات ترتدي أزياء عصر النهضة. لكنَّ هذا التسطيح في وقتنا الحاضر لا ينبغي أن يكون مُسوَّغًا،

نظرًا إلى كمّيّة المعلومات التي بوسع حتّى أشدّ المستخدمين بؤسًا تلقّيها من الإنترنت، أو السينما أو قناة راي ستوريا السخيّة ببرامجها التاريخيّة. هل من الممكن ألّا يكون لدى أبطالنا الأربعة أدنى فكرة عن أوجه الاختلاف بين فترة صعود هتلر إلى سدّة الحكم وفترة هبوط الإنسان على سطح القمر؟ بالنسبة إلى أرسطوطاليس، الممكن هو ما يتحقّق مرّةً واحدة على الأقلّ؛ وعليه فمن الممكن أن تكون الذاكرة لدى بعض الناس (أو الكثير منهم؟) تضيَّقَت في حاضرٍ أبديٍّ حيث كلّ الأبقار سوداء. نحن إذًا بصدد مرض الجيل.

لعلّي سأعقد بعض الآمال لأنّني أُبْلِغْتُ بخبر اليوتيوب، ما بين قهقهةٍ وضحكات، من قِبَلِ حفيدي ذي الثلاثة عشر عامًا، ومن أصحابه في المدرسة الذين سيتمكّنون من حفظ *تيريزا الليبية* عن ظهر قلب يومًا مّا.

2014

أونلاين

أشباهي في الإيميل

كنت أحاول التوصُّل إلى إيميل زميلٍ أمريكيّ، فوجدتُ في أحد مُحرِّكات البحث على الإنترنت خدمةً تؤمِّن لي عناوين الذين تسجَّلوا باسمه. كتبتُ اسم الزميل فوجدتُ عشرة عناوين مختلفة، أحدها في اليابان. أهذا معقول؟ خطر في بالي حينها أن أجري بحثًا عن اسمي، فوجدتُ اثنين وعشرين عنوانًا. تعرَّفتُ على اثنين منها، وقد انتهت صلاحيّتهما، وكان اسمي لا يظهر فيهما إنّما كان متوافرًا في عمليّة التسجيل بجميع الأحوال. والعناوين الأخرى عاديّة، مثل *umbertoeco@hotmail.com* أو *umberto_eco@hotmail.com* لكنَّ ما أذهلني حقًّا هو *agharta2@hotmail.com* (مسجَّلٌ باسمي أيضًا).

أغارثا هي عاصمة ملك العالم، خرافة باطنيّة معروفة وقد أتيتُ على ذكرها في روايتي *بندول فوكو*. فهمتُ إذًا أنَّ الأمر عاديّ: مَن يُسجِّل نفسه في خدمة الإيميل، بوسعه أن يضع الاسم الذي يشاء، قد يتَّخذ أحدهم اسم كاتبٍ قرأ له، وبإمكانه إذا كان راغبًا أن يختار حتّى دانتي أليغييري. ساورني الشكُّ والحسد أن يكون دانتي أكثر شعبيّةً منّي، فأخذتُ أبحث عنه. النتيجة: خمسون عنوانًا، من بينها: *dante@satanic.org, danteSB@yahoo.com, alighieri@vergil.inferno.it, belzebius@yahoo.it, divinpoeta@yahoo.it, mostromaldido@yahoo.it*

بحثتُ عندئذ عن كاتبٍ معاصرٍ من شأنه أن يُحفِّزَ هذيانًا من هذا النوع،

فجاء في ذهني سلمان رشدي بطبيعة الحال. هناك ستّة وثلاثون عنوانًا، من بينها عناوين لا يمكن وصفها بالتافهة: salman@netcom.com, salman@grex.com, salman.rushdie@safe.com, وأخرى أكثر إثارةً للقلق: satan@durham.ac.uk, love@iraq.com, atheist@wam.umd.edu, sephiroth@zombieworld.com blasphem@aol.com, -أيُّ رعبٍ يتملَّكني إذا اضطررتُ إلى التواصل مع متلقّين من هذا النوع. غير أنَّ المشكلة ليست في العناوين الغريبة، إنّما بتلك التي تبدو عاديّة. لن يتوهَّم أحدٌ أنَّ دانتي سيجيب على أيّ بريدٍ إلكترونيّ، ولكنْ كم ساذجًا سيسعى إلى التواصل مع salman.rushdie@safe.com, ولعلَّهُ يستلم باسمه ردًّا مُرْضيًا بشكلٍ كارثيّ؟ الحلُّ واحدٌ بالطبع: الاحتراز من عناوين البريد الإلكترونيّ. ما يعني أنَّ الخدمة التي كان بمقدور الشبكة أن تؤمِّنها تفقد فاعليَّتها- كما لو أنَّ دليل الهاتف يغدو عرضةً للتحريف من قِبَلِ مَن يعبث بوضع رقم برتينوتّي تحت اسم برلسكوني، أو أن يعطي عنوان ڤيتّوريو ميسّوري لراقصة تعرٍّ شهيرة[1].

إنَّ مبدأ الاحتراز راسخٌ لدى كلّ مَن يلج تجربة *الشات*، طالما أنَّ الجميع بات على دراية بأنَّ مراهقًا رومانسيًّا قد يجري محادثات غراميّة مع مَن تُدعى غريتا غاربو التي قد تكون في الحقيقة ضابطًا متقاعدًا. ثمَّ تعمَّمَ هذا المبدأ رسميًّا عقب الفيروس الأخير I-Love-You. لا ينبغي الاحتراز من أيّ رسالةٍ تردنا من جهةٍ غير معروفة فحسب، إنّما من تلك التي تردنا من مراسلينا المؤتمنين كذلك، لأنَّ الفيروس قد يسلك عناوينهم ليوصل إلينا الرسالة المميتة.

وإنَّ جريدةً تُعرِّف نفسها بأنَّها لا تنشر إلّا أنباء زائفة، لا تستحقُّ أن تُشترى (إلّا بقصد التسلية)، كما أنَّنا لن ندفع ليرةً واحدة لنشرة السكك الحديديّة إذا أركبتْنا قطارًا للذهاب إلى باتّيباليا لنجد أنفسنا قد وصلنا إلى فيبيتينو. وبالفعل، فإنَّ كلًّا من الجرائد ونشرات السكك الحديديّة تبرم مع المستخدمين معاهدةً ضمنيّةً أساسها المصداقيّة، ولا يجوز انتهاك هذه

1- المفارقة التي يريد أمبرتو إيكو إحداثها هنا هي أنَّ برتينوتّي سياسيٌّ يساريٌّ بعيدٌ كلَّ البعد عن برلسكوني، وأنَّ ميسّوري كاتبٌ ذو توجُّهات كاثوليكيّة لا يجدر به أن يتقاطع مع راقصات التعرّي. (المترجم).

المعاهدة إلّا في حالة التنصُّل من كلّ عقدٍ اجتماعيّ. فما الذي قد يحصل إذا كانت وسيلة التواصل العظمى في الألفيّة الجديدة عاجزةً عن إرساء هذه المعاهدة وضمان مراقبتها؟

2000

كيف يُنتَخَبُ الرئيس

First good news/ خبر سارّ أوّلًا : مثلما قلتُ في العدد الماضي من الإسبريسو، إذا دخلتم موقع البريد الإيطاليّ على الإنترنت *www.poste.it* فبإمكانكم أن تُسجِّلوا في خدمةٍ تتيح لكم إرسال الرسائل أو البرقيّات من جهاز الكمبيوتر، حيث تتكفَّل مكاتب البريد بطباعتها وتسليمها إلى العنوان الصحيح (سعر الرسالة الواحدة، 1700 ليرة)، لتجنُّب العمليّة الروتينيّة الشاقّة المتمثِّلة بالسفر بالقطار والنزول بالمحطّات. تهانينا للبريد الإيطاليّ (أكاد لا أصدِّق أنّني أقولها).

Now bad news/ والآن مع الخبر السيّئ : نحن بصدد الانتخابات الأمريكيّة، طبعًا، حيث تبيَّنَ أنَّ ماكينة فرز الأصوات أقلّ فاعليّةً من البريد الإيطاليّ. ورغم هذا فالحلُّ كان موجودًا، قدَّمَهُ إسحاق عظيموف في إحدى قصصه منذ الستّينات (*حقّ التصويت*، صدرت نسختها الإيطاليّة من منشورات غالاكسي ديسمبر 1962). القصّة بإيجازٍ شديد تحكي عن أنّهم في الولايات المتّحدة عام 2008 البعيد جدًّا آنذاك، لاحظوا أنَّ الخيار يتمثَّل بين مرشَّحين اثنين، متشابهين لدرجة أنَّ أفضليّات الناخبين تتوزَّع بينهما مناصفةً تقريبًا. فضلًا عن أنَّ استطلاعات الرأي، التي باتت تجريها حواسيب خارقة القدرة، بإمكانها إحصاء متغيِّراتٍ لامتناهية وتكهُّن النتيجة الفعليّة بطريقةٍ حسابيّة إلى حدٍّ كبير. ولاتّخاذ قرارٍ صائبٍ من الناحية العلميّة، فإنَّ الحاسوب العملاق ملتيڤاك (طوله نصف ميل وارتفاعه بعلوّ بيتٍ من ثلاثة طوابق – وهذا مثالٌ على عدم تمكُّن الخيال العلميّ من تنبّؤ التطوُّر) ما عليه سوى أن يأخذ بالحسبان «بعض سلوكيّات العقل البشريّ التي يصعب تقديرها».

ولكن، بما أنَّ القصّة تحتوي على إشارةٍ ضمنيّة بأنَّ قدرات العقول البشريّة في بلدٍ متحضِّر ومتمدِّن تكون متساوية، ينحصر عمل ملتيڤاك في إجراء اختبار على ناخبٍ واحد. فكلَّما تحين الانتخابات السنويّة، يُحدِّد الحاسوب ولايةً، ومواطنًا واحدًا من هذه الولاية، ليصنع منه «الناخبَ الأوحدَ»، وبناءً على أفكاره ومزاجه يقع اختيار رئيس الولايات المتّحدة. حتّى إنَّ كلَّ دورةٍ انتخابيّة تُسمَّى على اسم الناخب الوحيد، تصويت ماك كومبر، تصويت مولر وهلمَّ جرًّا.

يقصّ عظيموف بسردٍ ممتعٍ التوتُّرَ الحاصلَ في بيت مَن أُختِيرَ ناخبًا (الذي يحظى بفرصة أن يصبح مشهورًا رغم التوتُّر، وأن يتلقّى عقودًا إعلانيّة ويبدأ مسيرة ناجحة، مثل الناجين في برنامج *الأخ الأكبر*). ومن الممتع أيضًا وصف اندهاش الابنة التي يحكي لها جدُّها أنَّهم في الماضي كانوا يُصوِّتون جميعًا، فتعجز الطفلة عن إدراك كيف للديمقراطيّة أن تعمل بنجاح بوجود ملايين وملايين من الناخبين، خطَّائين أكثر من ملتيڤاك بكثير.

كان جان جاك روسو في الأساس قد استبعد الوصول إلى ديمقراطيّة جمعيّة إلّا في دولةٍ صغيرةٍ للغاية، حيث الجميع يعرف الجميع، وبوسعهم أن يجتمعوا بسهولة. ولكنْ حتّى الديمقراطيّة التمثيليّة -التي تدعو الشعبَ لاختيار ممثِّليه كلَّ أربع سنوات أو خمس- هي اليوم في أزمة. ففي حضارةٍ جماهيريّةٍ يهيمن عليها التواصلُ الإلكترونيّ، تميل الآراء لتكون متطابقة بحيث تغدو مشاريع المرشَّحيَن متشابهة جدًّا. المرشَّحان ليسا مختارَين من الشعب، بل من نومنكلاتورا حزبيّة، وعلى الشعب أن يختار (حدًّا أقصى) بين شخصين (اختارهما آخرون) متشابَهين مثل قطرتَي ماء. وهذه الحال تُذكِّر إلى حدٍّ بعيدٍ بالوضع السوفييتيّ، باستثناء أنَّ النومنكلاتورا السوفيتيّة تنتقي مرشَّحًا واحدًا ويُصوِّت الناخبون لمصلحته. لو أنَّ السوفييت قدَّموا للناخبين مرشَّحين اثنين عوضًا عن واحد، لكان الاتّحاد السوفييتيّ شبيهًا بالديمقراطيّة الأمريكيّة.

أجل، أعرف، في الديمقراطيّات -حتّى بعد انتهاء طقوس الانتخاب الواهية- يخضع الحكّام للصحافة، وجماعات الضغط، والرأي العامّ. ولكن من الممكن فعل ذلك في النظام الذي اقترحه عظيموف أيضًا.

2000

وجود المقرصِن ضرورةٌ للنظام

لا ينبغي للحوادث العالميّة الأخيرة على الإنترنت أن تدهشنا. فمن المعلوم أنَّه كلَّما ازدادت التكنولوجيا تطوُّرًا ازداد المجرمون دهاءً. إذ كان من السهل تصفية مختطفٍ على متن طائرة ذات دفعٍ مروحيٍّ وغير مضغوطة: ما عليك سوى فتح النافذة ورميه منها. في حين أنَّه بوسع أيِّ مجنونٍ يحمل مسدَّسًا خلَّبيًّا في طائرة نفَّاثة عابرة للقارّات أن يقطع أنفاس الجميع.

المشكلة بالأحرى تكمن في تسريع التطوُّر التكنولوجيّ. فبعد أن جرَّبَ الشقيقان رايت الطيران للمرّة الأولى، مرَّت عقودٌ حتّى استطاع كلٌّ من بليريوت وفون ريختوفن وباراكّا ولندبيرغ وبالبو أن يتكيَّفوا مع التحديثات اللاحقة التي أُجريَت على هذه الوسيلة. كما أنَّ السيّارة التي أقودها الآن تفعل أشياء ما كانت الفيات 600 التي حصلتُ بها على رخصة السياقة حتّى لتحلم بفعلها؛ لكنّي لو اضطررتُ إلى السير حينذاك بسيّارتي الحاليّة لكان من المؤكَّد أنّني لقيتُ مصرعي في مكانٍ مّا. لحسن الحظّ أنّي كبرتُ مع سيَّاراتي، وتكيَّفتُ شيئًا فشيئًا مع نموّ قدراتها.

أمّا مع الكمبيوتر، فما إن يسعفني الوقت لتعلُّم كلّ إمكانيّات الآلة أو أحد برامجها، حتّى تصل إلى الأسواق آلةٌ جديدة مزوَّدة ببرنامج أشدّ تعقيدًا. ولا يمكنني حتّى أن أقرِّر المضيّ قُدُمًا بحاسوبي القديم، رغم أنَّه قد يلبِّي احتياجاتي، ذلك أنَّ بعض التحديثات التي لا غنى عنها غير متاحة إلّا في الحواسيب الجديدة. يعود مُعدَّل الإسراع هذا إلى متطلَّباتٍ تجاريّةٍ في المقام الأوّل (فالصناعة تريد منّا أن نتلف القديم لنشتري الجديد حتّى لو لم نشعر بضرورته)، لكنَّه متعلِّقٌ أيضًا بعدم وجود ما يمنع أيَّ باحثٍ من اختراع معالجٍ أقوى. والأمر ذاته ينطبق على الهواتف الجوَّالة، والمسجِّلات، والحواسيب المصغَّرة، وسائر الرقميّات من هذا النوع.

لا يسعف الوقت أجسادنا باستجاباتها للتكيُّف مع السيَّارات التي تُحسِّن قدراتها كلَّ شهرين. لحسن الحظّ أنَّ السيَّارات باهظة الثمن، والطرق السريعة هي ما هي عليه. أمّا الحواسيب فتتناقص أسعارها دومًا، والطرق

التي تتّخذها رسائلُها للسفر لا تفرض أيَّ شكلٍ من التضييق. وبالتالي يظهر الكمبيوتر الحديث قبل أن نتمكَّن من استيعاب كلّ ما كان بوسعنا فعله على الكمبيوتر السابق. ولا تعمُّ هذه المأساةُ المستخدمَ العاديَّ فحسب، إنّما حتّى أولئك الذين من مهمَّتهم مراقبة السيل المعلوماتيّ، بمن فيهم عملاء الإف بي آي، والبنوك، وصولًا إلى البنتاغون.

فمَن هو الذي لديه وقتٌ، أربع وعشرون ساعة باليوم، لهضم الإمكانيّات الحديثة لآلته؟ المقرصن، الأشبه بالزاهد، أحد آباء البرّيّة الذي يهب أيّامه كلّها للتأمُّل (الإلكترونيّ). هل رأيتم وجه المقرصن الأخير الذي اخترق بريد كلينتون؟ كلُّهم بُدُنٌ، رُعْنٌ، يعانون سوء النموّ، لأنَّهم نشأوا قبالة الشاشة حصرًا. أصبحوا الخبراء الوحيدين بالمطلق لاختراعٍ يتطوَّر بوتيرةٍ جنونيّة، لديهم الوقت لاستيعاب كلّ ما يمكن للآلة والشبكة فعله، إنَّما ليس لصياغته بفلسفةٍ جديدة ودراسة تطبيقاته الإيجابيّة. لذا يُكرِّسون أنفسهم للعمل المباشر والوحيد الذي تمنحهم إيّاه كفاءتهم اللاإنسانيّة: اختطاف الطائرات، الإزعاج، زعزعة استقرار النظام العالميّ.

ولفعل ذلك من الوارد أنَّ كثيرًا منهم يؤمن بالتصرُّف بموجب «روح سياتل»، أي أنَّهم يناهضون مولوخ هذا الزمان. وفي الحقيقة ينتهي بهم المطاف ليصبحوا أفضل المتعاونين مع النظام، لأنَّ ضرورة تحييدهم تدفع النظام إلى ابتكار المزيد وبتسارعٍ أكبر. إنَّها حلقةٌ شيطانيّة يُقوِّي فيها المعترضُ الجهةَ التي يظنُّ أنَّه يُدمِّرها.

2000

إنترنت أكثر من اللازم؟ ورغم ذلك، في الصين...

في السنوات العشر الأخيرة حدَثَ أن شاركتُ في ثلاث فعاليّاتٍ ثقافيّةٍ مختلفة. كانت إحداها مخصَّصةً لمشكلات المعلومة، في حين خُصِّصت الاثنتان التاليتان لشيءٍ آخر. حسنًا، في كلّ الحالات الثلاث حدَثَ أن طُرِحَت أسئلةٌ ونقاشاتٌ محتدمة حول الإنترنت. ومن جهةٍ أخرى كان للأمر أن يحصل حتّى لو كنتُ قد شاركتُ في مؤتمرٍ حول هوميروس، وإن كنتم لا

تصدِّقون فاذهبوا وتبيَّنوا بوساطة مُحرّك بحثٍ جيّد كم هنالك من أشياء عن هوميروس، تتفاوت جودتها ورداءتها، تمدُّكم بها الشبكة. لا بدَّ لأيّ مؤتمرٍ حول هوميروس اليوم أن يولي اهتمامًا لتعميم أحكامه عن الموثوقيّة بكثيرٍ من المواقع المكرَّسة للشاعر، وإلّا ما عاد الطلبة والدارسون يعرفون بأيّ المواقع يضعون ثقتهم.

سأقتصر هنا على تعداد بعض النقاط الهامّة من النقاشات التي شهدتُ عليها. احتفى أحدهم بالإنترنت باعتباره بلوغًا للديمقراطيّة الشاملة في نظام المعلومة، فاعترض آخر قائلًا إنَّ الفتية قد يصادفون اليوم على الشبكة مئات المواقع العنصريّة، وباستطاعتهم تنزيل كتبٍ مثل *كفاحي* وبروتوكولات حكماء صهيون. إجابة: إن خرجتَ من هنا وذهبتَ إلى مكتبة الخفائيّات التي عند الزاوية لوجدتَ طبعةً من *البروتوكولات* بسهولة. إجابةٌ مضادّة: صحيح ولكن عليك أن تتمتَّع بالإرادة للبحث عنها، أمّا على الشبكة فقد تعترضك حتّى لو كنتَ تبحث عن شيءٍ آخر. إجابةٌ مضادّة للإجابة المضادّة: صحيح لكنَّك في الوقت نفسه قد تصادف الكثير من المواقع المناهضة للعنصريّة، ما يعني أنَّ ديمقراطيّة الشبكة تُعوِّض نفسها بنفسها.

مداخلة حاسمة: لقد نشر هتلر *كفاحي* وعمَّمَهُ قبل وجود الإنترنت، وتوفَّقَ بذلك على ما يبدو. مع الإنترنت لا يمكن لأوشفيتز أخرى أن تقع، لأنَّ الجميع يعرف كلَّ شيء لحظة وقوعه، ولا يمكن لأحدٍ أن يقول إنّه لم يكن يعلم.

وبعد أيّام سمعتُ ما يصبُّ في مصلحة هذه الأطروحة الحاسمة، من عالم اجتماعٍ صينيٍّ يتحدَّث عمّا يحصل للإنترنت في الصين. لا يتسنّى للمستخدمين الدخول إلى الويب مباشرة، ينبغي لهم المرور عن طريق مراكز حكوميّة تنتقي المعلومة. الأمر الذي يسعنا تسميته بالرقابة. غير أنَّ ما يبدو هو استحالة إخضاع الإنترنت للرقابة. المثال الأوّل: صحيحٌ أنَّ المصافي الحكوميّة تسمح -فلنفترض- ببلوغ الموقع آ وتحظر الموقع ب، لكنَّ كلَّ المتصفِّحين البارعين يعرفون أنّك إذا وصلتَ إلى آ، ولجأتَ إلى بعض التدابير سيكون باستطاعتك الانتقال من آ إلى ب. ثمَّ هنالك البريد الإلكترونيّ: ما إن يحظى بالإقرار، يستطيع الناس تناقل الأنباء من خلاله.

وفي النهاية هناك *الشات* لاين؛ يبدو أنّه في الغرب مستخدمٌ بكثرة من قِبَلِ أناسٍ لديهم وقتٌ يُضيّعونه وليس لديهم ما يقولونه، لكنَّ الوضع مختلفٌ في الصين: الناس هناك تتناقش بالسياسة، الأمر الذي يصعب حدوثه في مكانٍ آخر.

غير أنَّ عجز الدولة في مواجهة الشبكة ما يزال حادًّا. فالموظَّفون البيروقراطيّون الذين يُشغِّلونها لا يعرفون ماذا يحظرون. يبدو أنَّ النيويورك تايمز منذ فترة اتَّصلت لتبدي اعتراضها عن سبب حجب موقعها، في حين لم يُحجَبْ موقع الواشنطن بوست. فقال الموظَّفون إنَّهم سيتكفَّلون بالأمر، وردُّوا في اليوم التالي بما معناه لا داعي للقلق، لأنَّهم كانوا يُدبِّرون لحجب الواشنطن بوست أيضًا. لكنَّ هذه حكايا. الواقع أنَّه، على سبيل المثال (إن كنتُ أذكر جيّدًا)، لا يمكن بلوغ موقع CBS بينما يمكن بلوغ موقع ABC. سألتُ صديقي الصينيّ لماذا: ليس هناك أسبابٌ وجيهة، أجابني، لا بدَّ للموظَّفين البيروقراطيّين من إظهار أنَّهم يفعلون شيئًا مّا، فتأتي ضرباتهم عشوائيّة. الخلاصة: في المعركة الدائرة بين الحكومة الصينيّة والإنترنت، فإنَّ الحكومة هي التي ستخرج مهزومةً.

ثمّة نبأٌ سارّ بين حينٍ وآخر.

2000

إليكم لعبةٌ جميلة

لو أنَّ همبرت همبرت جديدًا –الشخصيّة الشهيرة في رواية *لوليتا*– قد انصرف من بيته مع صبيّةٍ صغيرة، لكان باستطاعتنا اليوم أن نعرف كلَّ شيء عنه. لقال جهاز الملاحة الفضائيّ لنا أين موقعه وإلى أين ينوي الذهاب؛ وكشفت بطاقاته المصرفيّة في أيّ نُزُلٍ أقام وكم غرفةً استأجر واحدةً أم اثنتين؛ واستطاعت الدارة المغلقة للمتاجر الكبرى تعقُّبَهُ وهو يشتري مجلّة إباحيّة عوضًا عن جريدة، وكنّا عرفنا مواقفه السياسيّة لو أنّه اشترى جريدة؛ ولو أنَّه اشترى في المتجر دمية باربي لاستنتجنا أنَّ الصبيّة قاصر؛ ولو أنّه في النهاية اتَّصل بموقعٍ لمعاشرة الغلمان على الإنترنت، لاستطعنا التوصُّل إلى

خلاصاتنا. ولو أنَّ همبرت همبرت هذا لم يقترف أيّ جرمٍ بعد، لقرّرنا أنَّ لديه ميولًا خطيرة ومن المستحسن القبض عليه. ولو عرفنا لاحقًا أنَّ الصبيّة كانت حفيدته، ولو أنَّ الخيالات الخاصّة بالشخصيّة لا تُمهِّد لأيّ عمليّاتٍ إجراميّة مطلقًا، فلا بأس، رُبَّ مظلومٍ إضافيٍّ في السجن خيرٌ من لغمٍ متنقِّلٍ يُشكِّل خطرًا على المجتمع.

من الممكن فعل كلّ ذلك أساسًا. فوريو كولومبو في روايته خصوصيّة (ريتزولي، 2001) يضيف لمسةً من الخيال العلميّ ليس إلّا، أي أنّه يتخيَّل جهازًا لا يتيح ترصُّد السلوك فحسب إنّما الفكر أيضًا. يبني حولها أيديولوجيّة الوقاية باعتبارها مصلحةً عامّة لتكتمل أركان اللعبة: تصبح رواية أورويل *1984*، بالمقارنة بها، حكاية ذات نهاية سعيدة.

ستقرؤون الكتاب، وتتساءلون عمّا إذا بتنا قريبين للغاية من المستقبل الذي يُنذِرُ به. لكنّي أودُّ هنا اتّخاذ هذا الكتاب حُجّةً لتصوُّر لعبةٍ تقع على منتصف الطريق بين الواقع مثلما هو الآن والمستقبل الذي يُنذِرُ به كولومبو.

اللعبة تسمّى إخوة إيطاليا[1] (لكنَّ النموذج قابل للتصدير إلى بلدانٍ أخرى) وهي نسخةٌ محدَّثة من *الأخ الأكبر*. عوضًا عن وضع الناس أمام التلفاز لمتابعة وقائع قلّة من الأشخاص الموضوعين في موقفٍ مصطنع، نُوسِّع إطار أنظمة المراقبة في المتاجر ليشمل كلّ النسيج السكّانيّ. بذلك يتسنّى للمتفرِّجين في كلّ شارعٍ ومكانٍ عامّ (ربّما حتّى داخل الشقق الخاصّة) أن يتابعوا ساعةً بساعة، لحظةً بلحظة، الوقائعَ اليوميّةَ لأيّ مواطنٍ آخر، وهو يمشي في الطريق، وهو يشتري حاجيّاته، وهو يمارس الحبّ، وهو يعمل، وهو يتعارك مع رجلٍ بسبب تصادم سيرٍ بسيط. يا لها من متعة، لعلَّ الواقع يبدو أشدّ إثارةً من التخييل، ولعلَّ حسَّ التلصُّص الشهوانيّ والنميمة الماثل في كلٍّ منّا يتضخَّم إلى حدوده القصوى.

لا أخفيكم احتماليّة بروز بعض المشاكل. مَن الذي يشاهد ومَن الذي يفعل؟ في البدء سيشاهد مَن لديه وقتٌ يُضيِّعه، في حين أنَّ مَن لديه ما يشغله سيفعل شيئًا مّا ويحيي العرض. ومِن ثَمَّ سنفترض أنَّ أحدهم يُفضِّل

1- «يا إخوة إيطاليا» هي الجملة الافتتاحيّة للنشيد الوطنيّ الإيطاليّ. (المترجم).

عدم الظهور، فيبقى في بيته للتفرُّج على الآخرين. لكنَّ المراقبة ستكشف الحياة الخاصّة لمن يتفرَّج أيضًا، وسيكون لدينا بالحدّ الأدنى ستّون مليونًا من المتفرِّجين بوسعهم مشاهدة ستّين مليونًا من المتفرِّجين بزمنٍ فعليّ، والتجسُّس على تعابير وجوههم. ومن الوارد أنَّ الجميع سيفعل شيئًا مّا، طالما أنَّ الظهور يصبح قيمةً بحدّ ذاته أكثر فأكثر. فمن سيشاهدهم إذًا؟ ستتولَّد حاجةٌ لكلّ واحدٍ في امتلاك تلفازٍ صغيرٍ محمول، يرى من خلاله الآخرين يفعلون شيئًا بينما هو كذلك يفعل شيئًا. ولكن قد يتحوّل العرض إلى مجرّد ستّين مليونًا يفعلون شيئًا بطريقةٍ متشنِّجة كمشاهدة الآخرين الذين يفعلون شيئًا بطريقةٍ متشنِّجة كالتعثُّر أثناء المشي ليتسنّى لهم فعلُ شيءٍ ومشاهدةُ تلفزيوناتهم الصغيرة المحمولة في اللحظة ذاتها.

باختصار، كم من هذه الأعاجيب سوف نرى!

2001

الكتابُ المدرسيُّ مُعلِّمًا

أثار المقترح الحكوميّ (ما يزال قيد المشاورات) باستبدال الكتب المدرسيّة بموادّ تُنزَّل من الإنترنت مباشرةً (لتخفيف وزن الحقائب وتقويض سعر الكتب) ردود أفعال متباينة. يرى الناشرون وباعة الكتب المدرسيّة في هذا المشروع تهديدًا قاتلًا لصناعةٍ تكفل العمل لآلافٍ من الأشخاص. وعلى الرغم من شعوري بالتضامن مع الناشرين وباعة الكتب، فإنَّ هذه الأسباب نفسها كانت ستؤلِّبُ منتج العربات والحوذيّ وسائس الخيل احتجاجًا على قدوم الآلة البخاريّة، أو كما فعل النسَّاجون حقيقةً لمواجهة الأنوال الميكانيكيّة. ولو كان التاريخ يمضي بالضرورة في الاتّجاه الذي تنشده الحكومة، فينبغي لتلك القوى العاملة أن تعيد تموضعها بطريقةٍ مغايرة (كأن تنتج موادّ للإنترنت مدفوعة الأجر على سبيل المثال).

يتمثَّل الاعتراض الثاني بأنَّ المبادرة تتضمَّن حصول كلّ طالب على جهاز كمبيوتر، ومن المشكوك فيه أنَّ الدولة قادرة على تحمُّل هذه التكلفة، وإذا فرضتْها على الآباء جعلتْهم ينفقون أكثر ممّا كانوا ينفقونه على الكتب

المدرسيّة. ومن جهةٍ أخرى، قد يلغي تخصيصُ كمبيوتر واحد لكلّ صفّ طابعَ الفرديّة في البحث، الطابع الذي يُكوِّن الجانب البديع من هذا الحلّ. كما أنَّه يُلزِمُ دارَ الطباعة الوطنيّة بطبع آلاف المناشير وتوزيعها كلَّ صباح، مثلما هي الحال مع الأرغفة في مقاصف المشرَّدين. ولكنْ قد يقول قائل: لعلَّنا بذلك نصل إلى تأمين الحواسيب للجميع.

المشكلة ليست هنا. بل في أنَّ الإنترنت ليس من المفترض به أساسًا أن يحلَّ محلَّ الكتب، إنّما هو مُكمِّلٌ رائعٌ لها، ومُحفِّزٌ لقراءة المزيد منها. ما يزال الكتاب يُشكِّل الأداة المبدئيّة لنقل المعرفة وتأمينها (كيف يمكننا التدريس في الصفّ خلال يومٍ تنقطع فيه الكهرباء؟)، في حين تُمثِّل النصوص المدرسيّة الفرصة الأولى التي لا غنى عنها في سبيل تربية الصغار على استعمال الكتاب. فضلًا عن أنَّ الإنترنت يؤمِّن ذخرًا هائلًا للمعلومة لكنَّه لا يؤمِّن المصافي لانتقائها، بينما لا تكمن التربية في نقلِ المعلومة فحسب إنَّما في تعليم معايير انتقائها أيضًا. هذه هي وظيفة المعلِّم، ووظيفة الكتاب المدرسيّ كذلك، إذ إنَّه بالضبط يُقدِّم نموذجًا لانتقاءٍ عمليٍّ من البحر الوسيع لكلّ المعلومات الممكنة. وينطبق هذا حتّى على النصّ الناقص (وهنا يأتي دور المعلِّم بانتقاد نقصانه وإتمامه، من منظور معيارٍ انتقائيٍّ مختلفٍ بالضبط). وإن لم يتعلّم الصغار هذا، أي أنَّ الثقافة ليست تراكمًا بل تمييزًا، فهذه ليست تربية إنَّما فوضى ذهنيّة.

استُطلِعَت آراء بعض التلاميذ فقالوا: «رائع، بوسعي في هذه الحالة أن أطبع حصرًا الصفحات التي تفيدني دون الحاجة إلى حمل كلّ الكتب التي ليس عليَّ دراستها». خطأ. أذكر أنَّ الصفّ الثالث المتوسّط في الريف كان يقوم على أيّام متناوبة خلال العام الأخير من الحرب، وأنَّ المعلِّمين (الوحيدين الذين نسيتُ أسماءهم في مسيرتي كتلميذٍ وطالب) لم يُعلِّموني الكثير، لكنّي كنت بالنكاية أتصفَّح الأنطولوجيا خاصّتي فوجدتُ فيها للمرّة الأولى قصائد أونغاريتّي وكوازيمودو ومونتالي. كانت بمنزلة الرؤيا والإنجاز الشخصيّ العظيم. يكتسب الكتاب المدرسيّ قيمةً كبيرة لأنَّه يسمح باكتشاف ما يغفل مُعلِّمٌ عن تدريسه (سواء بسبب التكاسل أو لأسبابٍ متعلِّقة بالوقت)، ويراه مُعلِّمٌ آخر جوهريًّا.

ثمّ إنَّ الكتاب المدرسيّ يبقى كذكرى مفيدة وشيِّقة لسنوات المدرسة المنقضية، في حين أنَّ الأوراق القليلة المطبوعة للاستخدام المباشر، والتي تنزلق على الأرض باستمرار، تفضي بنا إلى التخلُّص منها بعد أن خطَّطنا عليها (يحدث هذا لنا نحن الدارسين، فما بالك بالتلاميذ) وبالتالي لا تُخلِّف أيَّ أثرٍ في الذاكرة. مجرّد خسارةٍ فادحة.

وبالتأكيد، يمكن للكتب أن تصبح أقلّ وزنًا وكلفةً إذا تخلَّت عن الرسوم التوضيحيّة الملوّنة الكثيرة. يكفي أن يشرح كتاب التاريخ مَن كان يوليوس قيصر، ثمّ سيكون من المثير قطعًا، في حال وجود كمبيوترٍ شخصيّ، تفعيل غوغل إيماج أو ما أدراني، والانطلاق لاصطياد صورٍ ليوليوس قيصر، وإعادة إنشاء روما مثلما كانت في ذلك العصر، ومخطّطات بيانيّة توضِّح كيفيّة تنظيم الفيالق الرومانيّة. ناهيك بأن يشير الكتاب أيضًا إلى بعض المواقع الموثوقة، بحيث يكتمل الإدراك بأبحاثٍ محتملة بغية التعمُّق، ليشعر التلميذ أنَّه مُلزَمٌ بخوض مغامرةٍ شخصيّة. سوى أنَّه يجدر بالمعلِّم أن يكون قادرًا على تعليم التفريق بين المواقع الجادّة والموثوقة والمواقع المستهترة والسطحيّة. كتابٌ وإنترنت خيرٌ بما لا يدع مجالًا للشكّ، من كتاب وبندقيّة[1].

وفي النهاية، إن كان لا بدَّ من التضحية بالكتب المدرسيّة، فمن المؤكَّد أنَّ الإنترنت بديلٌ جيّد للقواميس، التي تُشكِّل الوزن الأكبر في الحقيبة. وقد يكون تنزيل قاموس اللاتينيّة، أو الإغريقيّة، أو أيّ لغةٍ أخرى، قد يكون أسرع وأجدى.

إلّا أنَّه لا بدَّ لكلّ هذا أن يدور دائمًا في فلك الكتاب. صحيحٌ أنَّ رئيس الوزراء قال ذات مرّة إنَّه لم يقرأ رواية منذ عشرين عامًا، لكنَّ المدرسة ليست وظيفتها أن تُعلِّم التلميذ كيف يصبح رئيس وزارة (ليس مثل هذا، على الأقلّ).

2004

1- «كتابٌ وبندقيّة، فاشيٌّ مثاليّ»: شعارٌ شائع في الحقبة الفاشيّة، يهيب بالتلميذ أن يُجسِّد النموذج المثاليّ للمواطن الفاشيّ، عن طريق الدراسة (الكتاب) والتربية العسكريّة (البندقيّة). (المترجم).

كيفيّة النسخ من الإنترنت

يحتدم النقاش في عالم الإنترنت حول الويكيبيديا. لا أعلم مدى الدقّة التي تحرص عليها إدارة التحرير المركزيّة لمراقبة جميع المساهمات التي تردها من كلّ حدبٍ وصوب، لكنّني واثقٌ من أنّي وجدتُها على درايةٍ واسعة، وأنَّها تحسن صنعًا إلى حدٍّ كبير، عندما حصَلَ أنّني رجعتُ إليها بخصوص مواضيع أعرفها جيّدًا (لتفحُّص تاريخٍ أو عنوان كتاب لا أكثر). ولكنَّ انفتاحها على إسهام الجميع مهما كانوا، ينطوي على مخاطر شديدة، وقد حدث فعلًا لبعض الأشخاص أنّهم رأوا أشياء تُنسَب إليهم مع أنَّهم لم يفعلوها، ومن بينها أفعالٌ مستهجنة أيضًا. أبدوا احتجاجهم بطبيعة الحال، وسرعان ما صُوِّبَت المادّة. وكانت المادّة التي تخصُّني متعلِّقة ببيانات ذاتيّة غير دقيقة، فصوَّبتُها ولم تعد المادّة منذئذٍ تحتوي على تلك السقطة. إضافةً إلى وجود ما اعتبرتُهُ تأويلًا خاطئًا في ملخَّصٍ لواحدٍ من كتبي، وهو أنَّه يقول إنّني «أطوِّر» فكرةً نيتشويّة في حين كنت في الواقع «أفنِّدها». صوَّبتُ «develops» بـ «argues against»، وحصل هذا التصويب على القبول كذلك.

الأمر لا يطمئنني على الإطلاق: لأيّ امرئٍ إمكانيّة التدخُّل في هذه المادّة غدًا لينسب إليَّ (سواء من باب الاستهزاء، أو الخبث، أو الغباء) عكسَ ما قلتُه أو فعلتُه. هناك نصٌّ ما زال متداولًا على الإنترنت يقال فيه إنّني قد أكون على رأس جماعة المزوِّرين لوثر بليسيت المعروفة، (وهذا رغم أنَّ كتبة تلك المهازل قدَّموا أنفسهم بأسمائهم وكناهم منذ أعوام، علنًا بما يشبه حفل الإفصاح عن الميول الجنسيّة). فعلى هذا النحو قد يتسنّى لي أن أكون حقودًا وأمضي في تشويه الموادّ التي تخصُّ كُتَّابًا لا أستلطفهم، فأنسب إليهم كتاباتٍ زائفة، وتحرُّشات بالأطفال، أو صلاتٍ بعبدة الشيطان.

يقترح أحدهم، بالإضافة إلى التفحُّص من قِبَلِ هيئة التحرير، إقامة ما يشبه الاستدراك الاحتماليّ، ما يعني أنَّ الخبر الكاذب سيحدِّده أحد المتصفِّحين عاجلًا أم آجلًا. نأمل ذلك، ولكن كما هو واضح ليس لدينا الضمانة المطلقة

التي تمتَّعَ بها السيّد تريكّاني[1] الحكيم الذي كان يكتب كلَّ الموادّ بخطّ يده ويتحمَّل المسؤوليّة عنها كاملةً.

بيد أنَّ حالة ويكيبيديا هي أقلّ إثارةً للمخاوف من ظاهرةٍ أخرى تُعدُّ إحدى إشكاليّات الإنترنت العصيبة. فإلى جانب مواقع موثوق بها للغاية يقوم عليها أشخاص كِفاء، تعجُّ الشبكة بمواقع مضلِّلة كلّيًا، يديرها حمقى ومختلّون، بل نازيّون إجراميّون أحيانًا؛ وليس كلُّ مستخدمي الويب قادرين على تحديد أيّ المواقع جديرة بالثقة وأيّها لا.

لهذا الشأن جانبٌ تربويٌّ مأساويّ، لأنَّه بات من المعلوم أنَّ التلاميذ والطلبة غالبًا ما يتجنَّبون الاستئناس بالكتب المدرسيّة والموسوعات ويتَّجهون مباشرةً للحصول على المعلومات من الإنترنت، لدرجة أنّني منذ مدّة وأنا أؤيّد أنَّ المادّة الأساسيّة الجديدة التي ينبغي أن تُدرَّس في المدرسة هي تقنيّات انتقاء المعلومة من الإنترنت. سوى أنَّها مهاراتٌ يصعب تعليمها، إذ غالبًا ما يكون المعلِّمون أنفسهم عرضةً للخديعة بقدر ما هم عليه تلاميذهم.

كما يشكو كثيرٌ من المربّين حالَ الفتية الذين إذا توجَّبَ عليهم كتابة نصٍّ بحثيّ أو حتّى أطروحة جامعيّة محدودة، باتوا ينسخون ما يجدونه في الإنترنت. وعندما ينسخون من موقعٍ غير موثوق، فمن المفترض أنَّ المعلِّم يلاحظ أنَّهم يتفوَّهون بالترَّهات، ولكن من البديهيّ أنَّه في بعض المواضيع الاختصاصيّة يتعذَّر التأكُّد فورًا من أنَّ الطالب يقول أشياء مغلوطة. فلنفترض أنَّ طالبًا اختار لأطروحته كاتبًا هامشيًّا جدًّا، بالكاد سمع المعلِّم باسمه، وراح ينسب إليه أعمالًا معيَّنة. هل سيكون الأستاذ قادرًا على القول إنَّ ذلك الكاتب لم يؤلِّف هذا العمل-إلّا إذا خصَّصَ لكلّ نصٍّ يتلقّاه (وعادةً ما تصل النصوص إلى عشرات وعشرات) فحصًا شاملًا في عدّة مصادر؟

ليس هذا فحسب، قد يُقدِّم الطالب بحثه الذي يبدو سليمًا (فليكن) لكنَّه نسخه مباشرة من الإنترنت بـ «القصّ واللصق». أميل إلى عدم اعتبار هذه الظاهرة كارثيّةً لأنَّ النسخ الجيّد أيضًا هو فنٌّ ليس بالسهل؛ وإنَّ طالبًا

1- جوفانّي تريكّاني (1877-1961): رائد أعمال وداعم للآداب والفنون ومؤسِّس معهد الموسوعة الإيطاليّة عام 1925، وناشر القاموس الذي حمل اسمه. (المترجم).

ماهرًا بالنسخ الجيّد تحقُّ له علامةٌ جيّدة. من جهةٍ أخرى، كان الطلبة، حتّى قبل اختراع الإنترنت، ينسخون من كتابٍ وجدوه في المكتبة، دون أن يتغيَّر شيء في المسألة (سوى أنَّها كانت تتطلَّب جهدًا يدويًّا عسيرًا). وفي النهاية، فإنَّ الأستاذ الجيّد يتحسَّس الحيلة وينتبه دومًا إذا ما كان النصُّ منسوخًا بلا معايير (أكرِّر، إذا كان منسوخًا ضمن معايير، فلتُرفَع له القبَّعة).

وعلى أيّ حال أؤمن بوجود وسيلة في منتهى الفاعليّة لاستثمار عيوب الإنترنت بطريقة تربويّة. وهي عبارة عن تمرينٍ في الصفّ، أو واجبٍ منزليّ، أو ورقة جامعيّة، تتناول الفكرة التالية: «البحث عن جملة من الدراسات غير الموثوق بها المتوافرة في الإنترنت، وشرح أسباب اعتبارها غير موثوق بها». إليكم هذا البحث الذي يستلزم مقدرةً نقديّةً وبراعةً في المقارنة بين المصادر المختلفة، والذي من شأنه أيضًا أن يُدرِّب الطلّاب على فنّ التمييز.

2006

أين نرسل الشعراء؟

في عدد السبت الماضي من *الكوريري ديلا سيرا* افتُتِحَ جدالٌ، صيفيٌّ في ظاهره فقط. بدأ كلُّ شيء من حوارٍ مع الشاعر نانّي باليستريني على صفحات *الليبيراتسيوني* حيث كان صاحبنا، وهو الذي لا يمتنع عن الاستفزاز رغم بلوغه من العمر ما يُدخِلُهُ مجمع الأساقفة، يشكو من أنَّ دور النشر توقَّفت عن نشر الشعر، وقال إنَّه لحسن الحظّ يوجد الإنترنت الذي يتيح تداول قصائد الجميع. يقصد باليستريني بطبيعة الحال مواقع أنطولوجيّة تجمع مقتطفات لشعراء بارزين وأخرى تستضيف المبتدئين على حدٍّ سواء، ويقرُّ بصعوبة التحرُّك وسط تلك الكمّيّة الهائلة، لكنَّه يشير إلى بعض العناوين الموثوق بها.

وبعد أن سئل شعراءٌ ونقّادٌ آخرون، رشحت ثلاثة اعتراضات أساسيّة. الأوّل (ويبدو لي صائبًا) هو أنَّه على الرغم من توقُّف بعض السلسلات عن الصدور، غير صحيح أنَّ دور النشر عزفت عن إصدار الشعر، كما أنَّ بعض الشعراء الأبرز (معاصرين، لا كلاسيكيّين) تبيع دواوينهم أكثر من عشرة آلاف نسخة. الاعتراض الثاني (في غاية الصواب أيضًا) هو أنَّ للشعراء

الشباب الذين يريدون التعريف بأنفسهم قنواتٍ بديلةً أخرى كالمجلّات، والمهرجانات والقراءات العامّة. وأمّا الثالث فهو ما قاله شاعرٌ مكرَّس: «إن بحثتَ عن الشعر في الإنترنت، وجدتَ الكثير من المواد الخاملة، وفضفضة عاطفيّة يؤدّيها بهاليل القرية؛ في حين أنَّ المدوَّنات يشرف عليها الاستعراضيّون في أغلب الأحيان. ستجد الحثالة، من دون أيّ بوصلة».

الاعتراض الثالث هذا ليس خاطئًا، لأنّك في الإنترنت تجد كلَّ شيء حقًّا، إنّما يتطلَّب مزيدًا من التفكُّر. وبما أنّي وفيٌّ لتعاليم توما الإكوينيّ ومنهجه، وبعد أن أصغيتُ لمختلف الطروحات، يطيب لي أن أقدِّمَ *إجابتي*[1]. من المؤكَّد أنَّ السلسلات الشعريّة والنوادي الأخرى حيث يلتقي مَن يكتب الشعر بمَن يقرأه، لا غنى عنها سواء أكان للشعراء الشباب أم للقرّاء الشباب.

فالشعراء الشباب يجدون فيها مكانًا للمواجهة، حيث يُنتَقدون ويُنتَقون -ولكن صريحين- يُنصَحون بتغيير المهنة إذا كانوا مجرَّد سواعِدَ انتُزِعَت من مجال الزراعة (مثلما يحدث للغالبيّة العظمى، للتسعين بالمئة من البشر الذين تعلَّموا الكتابة، أن يُجرِّبوا حظوظهم في الشعر). وأمّا القرّاء الشباب، فيجدون فيها مَن يؤدّي لهم دور الفارز والضامن. فالشابُّ المولع بالشعر عادةً ما يعتبر أبياتًا أنّها جيّدة وهي ليست كذلك، أو يعتبر أبياتًا جيّدة أنّها منسوخة، بينما لو بحث عن القصيدة في سلسلةٍ رفيعة المستوى، عرف أنَّ ما يقرأه -على قدر ما يمكننا الوثوق بأحكام الذائقة- كان قد صودِقَ عليه ممّن يُفتَرض أنَّ لديهم حسًّا مهذَّبًا على نحوٍ خاصّ.

أذكر أعوام مدرستي الثانويّة التي أمضيتُها في بلدةٍ نائية، حيث لم يكن بوسعي الحصول إلّا على بعض الكتب من سلسلة *المرآة* الصادرة عن دار مونداموري حدًّا أقصى، لكنّي كنت أقرأ مجلّة *المعرض الأدبيّ* كلَّ أسبوع. كان فيها زاوية (مثل صفحة الأسئلة العاطفيّة في مجلّاتٍ أخرى) تنشر مقاطع صغيرة من أعمالٍ شعريّة يرسلها القرّاء، وكانت ترفقها بالمدائح، أو

1- باللاتينيّة في الأصل «*respondeo dicendum quod*» بمعنى «أجيب». وهي جملة افتتاحيّة كان توما الإكوينيّ غالبًا ما يستخدمها في الردّ على التساؤلات والطروحات المراد تفنيدها. (المترجم).

بالتشجيعات، أو بالتصحيحات أحيانًا، أو بالانتقادات اللاذعة أيضًا. كان كلُّ ذلك يحدث بحسب المعايير الشعريّة السائدة في تلك الفترة وأذواق المراجعين؛ لكنّه كان بالنسبة إليَّ درسًا نقديًّا عظيمًا، ودعوةً لتقييم الأسلوب لا المشاعر الحميدة، التي كانت أولى نتائجها هي أنّي رميتُ قصائدي في سلّة المهملات (الأمر الذي قد يجعل آباء الأدب ممتنّين لمجلّة *المعرض*).

هل من الممكن وجود مواقع إنترنت تقوم بالوظيفة ذاتها اليوم؟ قد يعترض أحدهم قائلًا إنَّ *المعرض الأدبيّ* هي المجلّة الأسبوعيّة الوحيدة المعنيّة بالفنون والآداب التي كان بوسع الشابّ العثور عليها في كشك الجرائد، في حين أنَّ الإنترنت يُقدِّم عشرة آلاف موقعٍ مماثلٍ، لذا تتبدّى حتّى في هذه الحالة مأساةُ استحالة الانتقاء. لكنّني أذكر أنّه حتّى في زماني انتشرت مجلّات صغيرة (مجّانًا) لشعراء مدفوعي الأجر، ورغم هذا أدركتُ بطريقةٍ مّا (متّبعًا حدسي أو نصيحة أحدهم) أنّه ينبغي الوثوق بمجلّة *المعرض* أكثر من تلك الأوراق السخيفة. وهذا ما يمكن أن يحدث للشعر في الإنترنت. طالما أنَّ مَن قال بوجود المهرجانات والمجلّات محقّ، فيُفترَض أنّه بوسع الشاعر الجادّ وقارئ الشعر الجادّ تلقّي الإرشادات السديدة للتوجُّه إلى المواقع الموثوق بها.

وماذا عن الآخرين؟ «بهاليل القرية»، والمتصفِّحين المهووسين الذين لا ينزاحون عن الكمبيوتر ولا يعرفون بوجود المجلّات والمهرجانات؟ إلى الموت، مثلما حدث دائمًا حتّى قبل اختراع الإنترنت، عندما سقطت حشود اللاموس[1] الشعراء في أفواه *النشر المأجور*[2] والجوائز الزائفة التي تُروِّجها الجرائد، وزادوا من قوام الجحافل الدهليزيّة المكوَّنة من كُتّابٍ ينشرون على نفقتهم الخاصّة، الجحافل الزاحفة بموازاة عالم الأدب «الرسميّ» الذي ينكر وجودها فتنكر وجوده. مع ميزة أنَّ الشعراء السيّئين لن يزيدوا

1- نوع من القوارض، كان يُظَنُّ أنَّ أسرابه المتدافعة لكثرة أعدادها، تنتحر بشكلٍ جماعيّ أثناء الهجرات. ومن هنا جاء تشبيه أولئك الشعراء بجرذان اللاموس. (المترجم).

2- بالإنكليزيّة في الأصل «*vanity press*»، الدار التي تُحمِّل كُتّابها تكاليف نشر كتبهم. (المترجم).

من قوام ضباع الشعر، إذا نشروا *الساميزدات*[1] خاصّتهم على الإنترنت. ومع إمكانيّة تفتُّح زهرةٍ أحيانًا حتّى في ذلك المستنقع الجهنَّميّ، ما دامت رحمة الإله القدير لامتناهية.

2006

ما النفع من الأستاذ؟

في هذه الغمرة الهائلة من المقالات حول التنمُّر في المدارس، قرأتُ عن حادثةٍ لا أميل إلى تعريفها بالتنمُّر تمامًا، إنّما وقاحة في أبعد تقدير – ورغم هذا نحن بصدد وقاحةٍ ذات أهمّيّة. إذًا، يحكى عن تلميذٍ أراد استفزاز أستاذه فسأله: «عذرًا، ما الذي تفعله حضرتك هنا في زمن الإنترنت؟»

لقد قال التلميذ نصف الحقيقة، التي بالمناسبة يقولها حتّى الأساتذة منذ ما لا يقلّ عن عشرين عامًا، وهي أنَّ المدرسة في الماضي كانت مُلزَمةً بالتأهيل، صحيح، غير أنَّها مُلزَمةٌ قبل كلّ شيء بنقل المعارف، من جداول الضرب في الابتدائيّة، مرورًا بمعلومات عن عاصمة مدغشقر في المتوسّطة، وليس انتهاءً بتاريخ حرب الثلاثين عامًا في الثانويّة. ولكن –دع عنك الإنترنت– مع قدوم التلفزيون أو حتّى الراديو، وربَّما مع قدوم السينما، بات الفتية يتشرَّبون معظم تلك المعارف خلال حياتهم خارج المدرسة.

لم يكن والدي في صغره يعلم أنَّ هيروشيما تقع في اليابان، ولا إن كانت غوادالكانال موجودة، إنَّما كانت لديه معلومات تفتقر للدقّة عن درسدن، وكان يعرف عن الهند ممّا قرأه في روايات سالغاري. أمّا أنا فلقد تعلَّمتُ هذه الأشياء منذ أيّام الحرب عن طريق الراديو والخرائط على صفحات الجرائد، في حين أنَّ أبنائي شاهدوا في التلفاز الخلجان النرويجيّة، وصحراء غوبي، وكيف النحل يُلقِّح الأزهار، وكيف كان

1– كلمة روسيّة تعني «النشر الذاتيّ» الذي لجأ إليه الكتّاب السوفييت لمواجهة سطوة الرقابة على أعمالهم. (المترجم).

شكل التيرانوصور؛ وفي النهاية يعرف الولد في العصر الحاليّ كلَّ شيء عن الأوزون والكوالا والعراق وأفغانستان. لعلَّه لا يستطيع أن يتحدّث عن ماهيّة الخلايا الجذعيّة، لكنَّه سمع بها على الأقلّ، بينما لم أسمع بها في طفولتي حتّى من أستاذة العلوم الطبيعيّة. فما الحاجة إلى المعلِّمين إذًا؟

قلتُ إنَّ التلميذ الذي تحدّثتُ عنه جاء بنصف الحقيقة فقط، لأنَّ وظيفة الأستاذ هي التأهيل أوَّلًا وقبل كلّ شيء علاوةً على التعليم. إذ إنَّ ما يضع الصفَّ على سكّة النجاح لا يكمن في حشو التلاميذ بالتواريخ والمعطيات، بل بتوطيد حوارٍ مستمرّ، وتفاعلٍ للآراء، ونقاشٍ حول ما يتعلَّمونه في المدرسة وحول ما يجري خارج أبوابها. لا شكَّ أنَّ التلفاز يخبرنا بما يحدث في العراق، لكنَّ المدرسة وحدها هي القادرة على أن تخبرنا لماذا يحدث في العراق دومًا شيءٌ مّا، منذ عصور حضارات الرافدين، وليس في غرينلاند مثلًا. وإن اعترض أحدهم قائلًا إنَّ هذه الأمور تُلقى على أسماعنا من قِبَلِ مسؤولين حتّى في البرنامج التلفزيونيّ *بآبا لباب*، فالمدرسة هي التي ينبغي لها أن تفسح المجال لمناقشة التصريحات الواردة في ذلك البرنامج.

تخبرنا وسائل الإعلام بأشياء كثيرة وتنقل لنا قيمًا معيَّنة أيضًا، ولكن يجدر بالمدرسة أن تناقش الطريقة المستخدمة في نقل تلك الأشياء لنا، وتقدير النبرة وقوّة الحجج الظاهرة على الصفحات المطبوعة وشاشة التلفاز. ثمَّ يجب عليها التحقُّق من المعلومات التي تبثُّها وسائل الإعلام: فعلى سبيل المثال، مَن غيرُ المعلِّم قادرٌ على تصحيح الألفاظ الخاطئة للغة الإنكليزيّة التي يظنُّ كلٌّ منّا أنَّه يتعلَّمها عبْر التلفزيون؟

بيد أنَّ التلميذ نفسه لم يقل للأستاذ إنَّه لا حاجة له به لأنَّ الراديو والتلفزيون باتا يخبرانه بموقع تمبكتو أو بمخرجات النقاش حول الاندماج النوويّ البارد؛ أي أنَّه لم يقل له إنَّ دوره تقلَّصَ لحساب أحاديث مطلقة على عواهنها إن صحَّ التعبير، تنتشر بطريقةٍ عشوائيّة وفوضويّة يومًا بعد يوم على وسائل الإعلام المختلفة – وأنَّنا إذا عرفنا الكثير عن العراق والقليل عن سوريا فإنَّ هذا متعلِّقٌ بنوايا بوش الحسنة أو السيّئة. إنّما كان التلميذ يقول إنَّ اليومَ يوجد الإنترنت، الأمّ العظمى لكلّ الموسوعات،

حيث توجد سوريا، والاندماج النوويّ البارد، وحرب الثلاثين عامًا والجدال المفتوح حول الأرقام الفرديّة العليا. كان يخبره بأنَّ المعلومات التي يضعها الإنترنت في متناوله هي أوسع وأعمق من تلك التي تحت تصرُّف الأستاذ بما يفوق الوصف. إلّا أنَّه غفل عن نقطةٍ في غاية الأهمّيّة: وهي أنَّ الإنترنت يقول له *كلّ شيءٍ تقريبًا*، باستثناء كيفيّة البحث عن تلك المعلومات، واصطفائها، وانتقائها، وقبولها أو رفضها.

الجميع قادرون على تخزين معلوماتٍ جديدة، شرط أن يكون لديهم ذاكرةٌ قويّة. سوى أنَّ القدرة على فرز ما يصلح منها للتذكُّر هو فنٌّ رفيع. وهذا ما يصنع الفرق بين مَن درس في التعليم النظاميّ (وإن متعثِّرًا) وبين المتعلِّم الذاتيّ (وإن عبقريًّا).

ومن المؤكَّد أنَّ المشكلة المأساويّة هي أنَّ الأستاذ ذاته لا يجيد تعليم فنِّ الانتقاء، ليس في كلّ فصلٍ من المعرفة على الأقلّ. لكنّه على الأقلّ يعلم أنَّه مُلزَمٌ بإجادة ذلك. وإن كان لا يعرف مدَّ تلامذته بالإرشادات الدقيقة حول كيفيّة الانتقاء، فبإمكانه أن يُقدِّم نفسه أنموذجًا عن المرء الذي يدأب لإخضاع ما يضعه الإنترنت في متناوله للمقارنة والتقييم مرّةً في تلو مرّة. وفي النهاية بإمكانه يوميًّا أن يُبرز الجهودَ الرامية لإعادة تنظيم ما ينقله له الإنترنت بتسلسلٍ أبجديّ، فالإنترنت يقول بوجود تيمورلنك وأحاديّات الفلقة لكنَّه لا يقول ما الرابط المنهجيّ بين هذين المفهومين.

لا يمكن إلّا للمدرسة أن تخبرنا بمعنى هذه الروابط، وإن كانت لا تحسن فعل ذلك فعليها أن تستعدّ. وإلّا فإنَّ الألفات الثلاثة «إنترنت، إنكليزيّة وأعمال[1]» ستبقى مجرَّد شطرٍ أوّلٍ من نهيق حمارٍ لا تصل أصداؤه إلى السماء.

2007

1- حملة تربويّة أطلقتها ليتيزيا موراتّي وزيرة التعليم في حكومة لامبيرتو ديني، لتعزيز قدرات الشباب على إتقان اللغة الإنكليزيّة والإلمام بالمعلوماتيّة والتحضير لإطلاق المشاريع التجاريّة. قوبلت الحملة بانتقادات واسعة من حيث المبدأ واعتباطيّته وكيفيّة تطبيقه على أرض الواقع. (المترجم).

كنّا معتادين على مبدأين: الأوّل، يُعبَّر عنه بقولٍ صقلّيٍّ لذيذ: «megghiu cumannari c'a fottiri» وهو إذا ترجمناه باحتشامٍ يعني: «ممارسة السلطة أشهى من الزنا»؛ والمبدأ الثاني كان يقوم على أنَّ رجال السلطة، إذا أرادوا ممارسة علاقاتٍ جنسيّة، فكانوا يُصوِّبون نحو الكونتيسة كاستليوني، ماتا هاري، سارا برنهاردت أو مارلين مونرو.

اللافت اليوم أنَّ كثيرًا من رجال السياسة أو الأعمال لم يتورَّطوا بالفساد الناجم عن نسب الأرباح في قضيّة قناة بنما، بقدر ما كانوا ضالعين بخدماتٍ من جانب محترفاتٍ وقادرات بالتأكيد لكنَّ أجرة أدائهنَّ لا تتعدَّى ألف يورو – وهو مبلغٌ كبيرٌ بالنسبة إلى موظَّفٍ موقَّت، إلّا أنَّه أقلُّ بكثير ممّا كانت تتقاضاه مدام دو بومبادور[1] في زمانها. أمّا إذا كان لديهم أذواقٌ من نوعٍ آخر، فلا يُصوِّبون نحو آلكيبيادس الإغريقيّ الراقي، إنَّما نحو عابرٍ جنسيّ أضنته النوائبُ في أزقّة بيرايوس.

ليس هذا فحسب: يبدو أنَّ كثيرين يسعون إلى الحصول على وضعيّات قياديّة، نعم، ولكن ليس لأنَّهم يعتبرونها أفضل من الوضعيّات الجنسيّة، إنّما من أجل تحقيق الغاية الرئيسة في تجريب وضعيّاتٍ جنسيّةٍ منقطعة النظير. مهلًا، هذا لا يعني أنَّ رجال الدولة في الماضي كانوا عديمي الحساسية حيال ملذّات اللحم. لا شكَّ أنَّ دي غاسبيري أو برلينغوير عوّدانا على سياسات تقشُّفٍ من نوعٍ مختلف، وأنَّ تولياتّي تجرَّأ على الطلاق حدًّا أقصى، وأنَّه إذا كان هناك فتاةٌ قاصر تناديه بابا فهذا لأنَّه تبنَّاها. بيد أنَّ يوليوس قيصر كان يمارس مع قادة الجيش ونبيلات روما وملكات مصر بلا تمييز، وكان لدى ملك الشمس محظيّات متسلسلات، وكان فيتّوريو إيمانويلي الثاني يصاحب روزينا الجميلة، كي لا نتحدَّث عن جورج كينيدي. ورغم هذا كان يبدو أنَّ هؤلاء الرجال العظام يرون في المرأة (أو الغلام) استراحة محارب: أي أنَّه يتوجَّب عليهم قبل كلّ شيء الاستيلاء على باختريا، وإذلال فرسنجتريكس،

1- ماركيزة فرنسيّة شهيرة في القرن السابع عشر كانت خليلة الملك لويس الخامس عشر. (المترجم).

وبسط النفوذ من جبال الألب إلى الأهرامات، وتوحيد إيطاليا، ثمَّ يأتي الجنس باعتباره أمرًا إضافيًا، مثل كأس كوكتيل المارتيني الصرف البارد بعد نهارٍ شاقّ.

في حين يبدو أنَّ رجال الدولة في هذا العصر متطلِّعون إلى سهرةٍ قوامها الاستعراضيّات في المقام الأوَّل، أمّا المشاريع العظمى أو المشروع العظيم فإلى الجحيم.

وهذا لأنَّ أبطال الماضي كانوا ينتشون بقراءة بلوتارخس، بينما يُقلِّبُ أبطال اليوم قنواتٍ صغرى بعد منتصف الليل أو ينتشون أونلاين عبْر التصفُّح. دخلتُ الإنترنت وبحثتُ عن الأب بيوس: 1.400.000 موقع. لا بأس. بحثتُ عن يسوع: 4.830.000 موقع–ما يزال الناصريُّ متفوِّقًا على البيترالشينيّ[1]. ثمّ كتبتُ «بورنو»، فاصطدمتُ بـ130.000.000 موقعٍ (أقول مئة وثلاثين مليونًا). فكَّرتُ أنَّ كلمة بورنو فضفاضة أكثر ممّا ينبغي قياسًا بيسوع، فقرَّرتُ أن أقارن البورنو بالدين: يُقدِّم الدين ما يربو على تسعة ملايين موقع بقليل، أكثر من ضِعف يسوع بالتأكيد، الأمر الذي يبدو لي صوابًا سياسيًّا، لكنّه أدنى بالكثير الكثير مقارنةً بالبورنو.

ما الذي يوجد في المواقع الإباحيّة المئة والثلاثين مليونًا؟ بالإمكان العثور، بين الخيارات المتعدِّدة، على الشرجيّ، الآسيويّ، اللاتينيّ، الفيتشيّ، الجماعيّ، الازدواجـيّ، الفمويّ، الألمانيّ (*وفق المصدر*)، السحاقيّ، الاستمنائيّ، التلصُّصيّ (حيث نتلصَّص على شخصٍ يتلصَّص على مؤتمرٍ لحميّ)، ثمَّ هناك أنماط متنوِّعة من سِفاح القربى: أبٌ وابنة، أخٌ وأخت، أمٌّ وابن، أبٌ وأمٌّ وابنٌ وابنة كلُّهم معًا، زوجة أب وابن زوجها، وأيضًا حفيدٌ وجدّة (*granny*) والـMILF وهي بحسب ويكيبيديا اختصار لجملة: (*Mother I'd Like to Fuck*)، أي هي تلك الأمّ الحسناء التي تشتهون إقامة علاقاتٍ جنسيّة معها، وهنَّ بالعموم سيّدات جذّابات تتراوح

1– ولد القدّيس الأب بيوس في بلدة بيترالشينا في مقاطعة كامبانيا. يستخدم إيكو نسبة الأب بيوس إلى مسقط رأسه للتوفيق مع لقب الناصريّ يسوع الذي ولد في الناصرة. (المترجم).

أعمارهنّ ما بين الثلاثين والخمسة والأربعين عامًا (تصوَّروا أنَّ بلزاك عنوَنَ حكايةً عن أفول الأنوثة بـ «امرأة في الثلاثين»).

الآن، قد تقدِّم البورنوغرافيا تنفيسًا لمن لا يستطيع ممارسة الجنس بشكلٍ حيٍّ بصرف النظر عن الأسباب، أو مقترحًا لإحياء العلاقة بين زوجين يمرّان بمرحلة فتور (ولها وظيفة إيجابيّة في هذه الحالة)، لكنَّها قد تُهيِّج مخيّلة أشخاصٍ مكبوتين لتدفعهم بالنتيجة إلى تفريغ غرائزهم عن طريق التحرُّش والاغتصاب والعنف الجنسيّ. إضافةً إلى أنَّ البورنوغرافيا تقنعك بأنَّ خليلةً تتقاضى ألف يورو بوسعها فعل أشياء لا تخطر حتّى في بال فريني[1].

دع عنك الثلاثين بالمئة من الإيطاليّين الذين يستخدمون الإنترنت، يصادف السبعون بالمئة الآخرون على شاشة التلفاز رؤىً يوميّة أشدّ إثارةً بعشرة أضعاف ممّا كان حكرًا على أمراء الجيش في ميلانو إبّان الأربعينات، حيث كانوا يدفعون سعرًا باهظًا، ولمرّةٍ واحدةٍ في السنة فقط، لمشاهدة النجمة واندا أوزيريس. أمّا في أيّامنا هذه فإنَّ الشخص العاديّ تستثار دوافعُهُ الجنسيّةُ أكثر بكثير ممّا كان يحدث لجدِّه. تخيَّلوا حتّى قسًّا مسكينًا: كان فيما مضى لا يرى إلّا الخادمة خاصّته ولا يقرأ إلّا جريدة *المرصد الرومانيّ*، في حين أنَّه اليوم يرى مسيرةً من صبايا عاريات الفخذ كلَّ مساء. ثمّ يتعجَّبون إذا أصبح أحدهم غلاميًّا.

ما الذي يمنعنا من التفكير بأنَّ تهييج الشهوة بهذا الشكل الضاغط قد يكون له أثرٌ مّا على المسؤولين عن الشأن العامّ أيضًا، بتسبيب تبدُّلاتٍ تطرأ على النوع، وبتغيير حتّى المقاصد من سلوكهم الاجتماعيّ؟

2010

تعقيب:

قال أحدهم إنَّ عالم الاجتماع هو الذي إذا دخل مرقصًا للتعرّي لا ينظر إلى المنصّة بل إلى الجمهور. ليس لديَّ وسيلةٌ لمراقبة جمهور مواقع البورنو، ولا لمراقبة كلّ تلك المنصّات قاطبةً. فبحسب عدّة تحقيقات على

1- مومس في اليونان القديمة، أضحى جمالها مضربًا للمثل. (المترجم).

الإنترنت، يبدو من المتعذِّر حصر عدد المواقع الإباحيّة. أقرأ على الويب أنَّ مواقع البورنو، وفقًا لتحقيقٍ أُجرِيَ في العام 2003، قد قفز إلى 260 مليونًا، ويبدو لي الرقم مبالغًا فيه؛ لعلَّهم اعتبروا موقعًا تظهر فيه كارول بيكر عاريةً على أنَّه إباحيّ. لذا اخترتُ من بينها واحدًا، ربّما الأكثر تصفُّحًا، ورأيتُ أنَّ فيه 71 فئة، وكلُّ فئة تحتوي على قرابة ألف فيديو بالمعدَّل المتوسِّط. فإذا أخذنا بالحسبان أنَّ الموقع يتجدَّد يوميًّا (هناك إمكانيّة استرداد الفيديوهات الفائتة أيضًا)، استطعنا أن نحصي 170.000 فيديو. ونظرًا إلى أنَّ ذلك الموقع يفضي إلى 21 موقعًا آخر، وعلى الرغم من مراعاة المتكرِّرات وتواضع بعض المواقع من حيث الأبعاد، خرجتُ برقمٍ يناهز 3.570.000. ليست 260 مليون موقع إذًا، وربّما كانت تتجاوز ثلاثة ملايين، إلّا أنَّ هذا هو الحجم المفترض للظاهرة.

وبما أنّي لا أمتلك ترف زيارة ثلاثة ملايين موقع لأنَّ *الفنَّ طويل والحياة قصيرة*[1]، دخلتُ إلى عيِّناتٍ شبه عشوائيّة وقمتُ برصدٍ لا يدَّعي الاستناد إلى حقيقةٍ علميّةٍ لكنَّه أقنعني شخصيًّا. أوضِّح أنّني وقفتُ على وجوه الإناث حصرًا (فوجوه الذكور ليست ذات صلة، لأنَّ الكاميرا تُركِّز بالأحرى على جهازهم التناسليّ)، واكتشفتُ أنَّ جزءًا كبيرًا من الصبايا المنخرطات في تلك العروض الإيروتيكيّة، عندما يفتحن أفواههنَّ (ويفعلن ذلك غالبًا، لا أثناء الابتسام أو شهقة النشوة فقط) يُبرِزن أسنانًا لا تخلو من العيوب. لا بأس بالقواطع عادةً، إنّما تظهر أنيابٌ معوجّة وصغيرة، ناهيك بالأضراس غير المنتظمة والحشوات البادية للعيان إلى حدٍّ يلفت الأنظار.

لا تُشهِرُ هوليوود ممثِّلةً جديدة قبل أن تعمل على تحسين منظر أسنانها. لكنَّ العمليّة مكلفةٌ للغاية، وهذا معروفٌ حتّى لمَن يتردَّد إلى عيادة طبيب الأسنان في بوخارست. لذا فإنَّ الغالبيّة الساحقة من أولئك الصبايا، اللواتي غالبًا ما يَكُنَّ جميلات أو حلوات على الأقلّ، ينتمين إلى مرتبةٍ اجتماعيّةٍ متدنّيةٍ جدًّا وليس لديهنَّ المال للتوجُّه إلى طبيب الأسنان. لا أعتقد أنَّهنَّ

1- باللاتينيّة في الأصل: «ars lunga, vita brevis» وهي حكمة أخلاقيّة لأبي الأطبّاء أبقراط، وتعني أنَّ حياة الإنسان لا تكفي للإلمام بجميع العلوم والفنون. (المترجم).

يأملن بتحقيق المبلغ المطلوب بفضل أدائهنَّ، طالما أنَّ الأرقام تخبرنا أنَّ الإقبال مرتفعٌ جدًّا لذا فإنَّ المكافآت لا ينبغي أن تكون فلكيّة (الويب نفسه يقول لي إنَّ أكثرهنَّ شعبيّةً قد تصل أجورُهنَّ إلى عشرة آلاف دولار بالشهر، لكنَّ موسمهنَّ لا يدوم طويلًا، وأنَّ عدد النجمات الحقيقيّات يُعدُّ على الأصابع). ربّما يأملن بأنَّه في ظهورهنَّ على شاشة الكمبيوتر، قد يجذبن انتباه قطبٍ متنفِّذٍ في هوليوود ليأخذ على عاتقه ترميمَ أسنانهنّ. وربّما لا؛ قد يعرفن أنَّ لا أحد يدخل هوليوود بأسنانٍ كهذه، فيرضخن والحال هذه لتأدية تلك الألعاب الشبقة ذات المستوى الهابط؟

هذا يكشف لنا شيئًا: أنَّ هذا الجيش المسحوق من الزانيات بدوامٍ كاملٍ آتٍ من بروليتاريا الجنس، وعليه فإنَّ مجمل الإنتاج الإباحيّ ليس سوى شكلٍ من الإتجار بالنساء واستغلال أوضاعهنَّ المتردّية والميئوس منها.

وجب التحذير، ذلك أنَّ زوّار تلك المواقع غالبًا ما يستثارون وهم يظنّون أنَّ البطلات يفعلن ما يفعلنه من باب السفاهة، والفجور، والتلذُّذ، والتحدّي الفاحش، الأمر الذي يجعلهنَّ مرغوباتٍ أكثر. لكنَّهنَّ في الحقيقة يؤدّين تلك الأدوار بسبب الإحباط، فهنَّ على درايةٍ بأنَّ أسنانًا كتلك لن تكفل لهنَّ أيَّ مستقبل إنّما مجرَّد حاضرٍ زهيد الأجر.

2015

بين العقائديّة والتخطيئيّة

كتب أنجلو بانيبيانكو في عدد الأحد الماضي من *الكوريري ديلا سيرا*، عن العقائديّات المحتملة في العلم. أوافقه الرأي من حيث المبدأ، سوى أنّي أودُّ تسليط الضوء على جانبٍ آخر من المسألة.

يقول بانيبيانكو، باختصار، إنَّ العلم حسب التعريف مضادٌّ للعقائديّة، لأنَّه قادرٌ على الاستمرار من خلال التجارب والأخطاء، ولأنَّ مبدأه الضمنيّ قائمٌ على «التخطيئيّة»، (لعلّي أضيف بيرس، الذي ألهم بوبّر)، لذا فهو متأهّبٌ دومًا لتصويب أخطائه. يصبح العلم عقائديًّا في تبسيطاته الصحفيّة المميتة، التي تُحوِّل ما كان مجرَّد فرضيّاتِ بحثٍ حذرة إلى اكتشافٍ إعجازيٍّ وحقيقةٍ

راسخة. لكنَّه يكون عرضةً للعقائديّة كذلك عندما يقبل بمعيارٍ حتميّ، وهو أنَّ ثقافة حقبةٍ معيَّنة تخضع لـ «نموذجٍ فكريّ»، ليس النموذج الداروينيّ والأينشتاينيّ فحسب، بل النموذج الكوبرنيكيّ أيضًا، الذي يتمسَّك به كلُّ عالمٍ تمامًا لمحو جنون مَن يتحرَّك خارجه، بمن فيهم المجانين الذين ما يزالون يعتقدون أنَّ الشمس تدور حول الأرض. فما عسانا فاعلون بفكرة أنَّ التجديد يقع بالضبط حين يتمكَّن أحدهم من وضع النموذج الفكريّ المهيمن على المحكّ؟ أليس العلم يتصرَّف على نحوٍ عقائديٍّ عندما يتحجَّر في قوقعة نموذجٍ فكريّ، بغية الدفاع عن مناصب سلطويّة مكتسبة أغلب الظنّ، باستبعاد المشكِّكين به واتّهامهم بالهرطقة أو الجنون؟

المسألة مأساويّة. هل ينبغي الدفاع عن النماذج الفكريّة دومًا أم التشكيك بها دومًا؟ حسنًا، إنَّ الثقافة (بوصفها منظومة المعارف، والآراء، والمعتقدات، والتقاليد، والتراث التاريخيّ المشترك لمجموعةٍ بشريّةٍ بعينها) ليست مجرّد تراكمٍ للبيانات، بل إنَّها نتيجة اصطفاء هذه البيانات. الثقافة هي أيضًا القدرة على التخلُّص ممّا هو غير مفيد أو غير ضروريّ. إنَّ تاريخ الثقافة والحضارة ناشئٌ من أطنانٍ من المعلومات التي دُفِنَت عبر الزمان. وما ينطبق على ثقافةٍ معيَّنة ينطبق على حياتنا الفرديّة. كتب بورخيس قصّة *فونيس القويُّ الذاكرة* حيث يروي عن شخصيّة تتذكَّر كلَّ شيء، كلَّ ورقةٍ رآها على كلِّ شجرة، كلَّ كلمةٍ سمعها على مدى حياته، كلَّ نسمةٍ تحسَّسَها، كلَّ نكهةٍ تذوَّقَها، كلَّ جملةٍ قرأها. ومع هذا (لا بل بسبب هذا تمامًا) فإنَّ فونيس أبله كلّيًّا، رجلٌ عالقٌ في عجزه عن الانتقاء والحذف. إنَّ عقلنا الباطن يعمل لأنَّه يحذف. وفي حال حدوث خللٍ مّا، نذهب لدى المحلِّل النفسيّ لاسترداد ذاك القليل المفيد الذي حذفناه عن طريق الخطأ. لكنَّ كلَّ ما تبقّى قد امَّحى لحسن الحظّ، وما روحُنا إلّا نتاجُ استمراريّة هذه الذاكرة المنتقاة. لو كان لدينا روح فونيس لكنّا أشخاصًا بلا روح.

هذا ما تفعله الثقافة، فإنَّ مجمل نماذجها الفكريّة هو نتيجة الموسوعة المشتركة، التي لم تنشأ من المحفوظات فحسب، بل من المحظور حول المحذوفات كذلك، إن جاز التعبير. ثمّ يُفتَح النقاش على أرضيّة تلك الموسوعة المشتركة. ولكن لإقامة نقاشٍ مفهومٍ من قِبَلِ الجميع، لا بدَّ من

البدء بالنماذج الفكريّة الموجودة والمعتَمدة، لا لشيءٍ سوى لتبيين أنّها لم تعد صامدة. لولا إنكار نموذج بطليموس الفكريّ، الذي ظلَّ في الخلفيّة، لبقيَ خطاب كوبرنيكوس غير مفهوم.

الآن، الإنترنت هو مثل فونيس. بصفته مجموعًا كلّيًا للمحتويات المتوافرة بطريقةٍ عشوائيّة، وغير المصطفاة وغير المنظّمة، يبيح الإنترنت لكلّ امرئٍ أن يُشيِّدَ موسوعته الخاصّة به، أو بالأحرى منظومته الحرّة والخاصّة الحاوية لمعتقداته ومفاهيمه وقيمه، والتي تشمل –مثلما يحدث في رؤوس كثيرٍ من البشر– فكرة أنَّ الماء هو H_2O وفكرة أنَّ الشمس تدور حول الأرض على حدٍّ سواء. ما يعني، نظريًا، أنّنا قد نصل إلى وجود ستّة مليارات موسوعة مختلفة، وأنَّ المجتمع البشريّ قد يقتصر على الحوار المهشَّم لستّة مليارات شخص، يتحدَّث كلٌّ واحدٍ منهم لغةً مختلفة، لا يفهمها إلَّا مَن يتحدَّث بها.

لحسن الحظّ أنَّ الفرضيّة نظريّةٌ بحت، لكنَّها كذلك تمامًا لأنَّ المجتمع العلميّ حريصٌ على إتاحة خطابات مشتركة، ومدركٌ أنّه للإطاحة بنموذجٍ فكريٍّ فمن الضروريّ أن يكون ثمّة نموذجٌ فكريٌّ يستدعي الإطاحة به. فالدفاع عن النماذج الفكريّة يُولِّد خطر العقائديّة بالتأكيد، إلّا أنَّ تطوُّر العلم يرتكز على هذا التناقض بالضبط. ولتلافي الخواتيم المتسرِّعة، أوافق ما قاله العالم الذي اقتبس منه بانيبيانكو في الختام: «لا أدري، إنَّها ظاهرة معقَّدة، عليَّ أن أدرسها».

2010

مارينا، مارينا، مارينا

وصلني الإيميل التالي (أنقله كما هو بما فيه من أخطاء نحويّة وإملائيّة): «أنت هو مَن أريد معرفة جيّدًا. مرحبًا. المسمّى لي ومارينا. 30 عام لي. رأيتُ صفحتك وقرَّرَ الإنتاج معكم. كيف حالك تفعل؟ عندي حالة روحيّة عجيب. أبحث فرد لعلاقة جادّة، ما نوع الرابط الذي تحبث عنه؟ أنا مهتمّ بمعرفتك، لكن أعتقد أفضل إذا أنتي وأنا مراسلات عن طريق الإيميل. إن كنتم محفَّزين لفعل التفاهم مع أنا، هذا عنون الإيميل لي: *abhojiku@nokiamail.com*. أو إيميلني عنونك الإيميل لأكتب لك دائريّة. أتمنّى ألّا

نتطلق دون الانتباه والمراسيل تكتب لي. سأكون سعيد جدًّا بصندقة رأيكم. يتلهّف لبرقيّتك على الإيميل. مارينا عزيزتك.»

تُظهرُ الصورة المرفقة فتاةً لكأنَّها ملكة جمال الكون، مستعدَّة لتلقّي دعوة إلى عشاء فاخر في أركوري[1]، بحيث ينمو في الأذهان تساؤلٌ عمّا يدفع فتاةً تتمتَّع بجودةٍ جماليّة مثلما هي عليه مارينا الفاتنة للبحث عن علاقة «جادّة» على الإنترنت. ربّما أُخِذَتِ الصورةُ من أحد المواقع أونلاين (كصور الممثِّلين المغمورين التي تظهر في افتتاحيّة الكلمات المتقاطعة لمجلّة *أسبوع الألغاز*) وأنَّ ما وراء مارينا تتخفّى شخصيّة غامضة قد تثير اهتمام روبرتو سافيانو، ولكنْ من يدري. حسنًا، أبقيتُ على إيميلها في المقال، بما أنَّ الحمقى فيالق، بحيث يتقاطرون إليها لإقامة صداقةٍ ودودة معها - ولستُ مسؤولًا عن العواقب طبعًا. إذ إنَّ عدد زبائن المقدِّمة المحتالة ڨانّا ماركي الخالدة، وأولئك الذين يستعينون بتوقُّعات الأبراج، والذين صوَّتوا في الانتخابات الفائتة، يقول لنا إنَّ مارينا بوسعها التعويل على نسبةٍ مئويّةٍ عالية من المؤمنين بالعالم الافتراضيّ.

وعلى ذِكر الافتراضيّ، يعرف كثيرون (لأنَّ الإنترنت يؤدّي دور مُضخِّم الصوت بامتياز) أنّني أعلنتُ عن وفاة دان براون مؤخَّرًا، على أحد حساباتي الزائفة في تويتر. وعلى الرغم من أنَّ كلَّ وسائل الإعلام تحقَّقت من أنَّه خبرٌ كاذب، رأيتُ فيما بعد أنَّ بعض الناس فهموا الموضوع كما لو أنّني (وأنا الخَرِفُ المراهق كما يعلم الجميع) عمَّمتُ تلك الرسالة «الكاذبة» من حسابي «الحقيقيّ». بالمحصِّلة، تعمي الآلهةُ بصائرَ الذين يرغبون في التيه داخل الشبكة. وآمل أن ينوي كازاليجّو (الذي يبدو أنَّه يحمل كلَّ ما يُتداوَلُ في الشبكة على محمل الجدّ) التواصل مع مارينا لعلَّهما يصبحان ثنائياً رائعًا.

أمّا المربُّون الذين يريدون تعليم الشبّان كيفيّة عدم الوثوق بالافتراضيّ، فأحيلهم على هذا الموقع:

(*http://piazzadigitale.corriere.it/2013/05/07storyful-il-social-checking-anti-bufala*)

1- في أركوري يقع قصر سان مارتينو، الذي اشتراه برلسكوني، وأقام فيه سهرات ماجنة بحضور ساسة وغانيات، ما عُرِفَ لاحقًا بقضيّة روبي. (المترجم).

حيث تتاح الخدمات المكافحة للأخبار الكاذبة أونلاين (وأشير هنا إلى أنَّ الإنترنت لحسن الحظّ مثلما يعجُّ بمعلوماتٍ مضلِّلة، يمنح الوسائلَ لكشفها. يكفي أن يتعلَّمَ المرءُ كيفيَّة التصفُّح المثلى).

لكنَّ الولع بالافتراضيّ يستنزف ضحاياه. إليكم هذا الخبر من الأسبوع الماضي: في روما، شابٌّ في الثالثة والعشرين من عمره، يمتطي حافّة نافذة غرفته، في الطابق التاسع من البناية، مُصوِّبًا سكِّينًا إلى بطنه، ويهدِّد بالانتحار. بسط الأهل ورجال الشرطة والدفاع المدنيّ الفراش المنفوخ أسفل البناية، وعجزوا عن إقناعه بالعدول عن قراره. إلى أن صاح الشابّ بأنَّه يريد أن يحلَّ ضيفًا على أحد برامج الواقع التلفزيونيّة، ويريد الذهاب إلى هناك بسيّارة ليموزين. تذكَّرَ عملاء الأمن أنَّ سيّارة ليموزين قد استُخدِمَت في الأرجاء في اليوم السابق لأغراضٍ إعلانيّة. فجاؤوا بها فنزل الشابّ.

العبرة هي أنَّ الشيء «الواقعيّ» الوحيد الذي بوسعه إقناع مَن ينشد الانتحار بالعدول عن ذلك، هو التعهُّد بواقعٍ افتراضيّ. صحيحٌ أنَّ الشابَّ كان مضطربًا، لكنَّ هذا لا يطمئننا، لأنَّه من الصواب أن نُفكِّر بأنَّ جميع أولئك الذين يؤمنون ببرامج الواقع التلفزيونيّة (أو الذين قد يجيبون على رسائل مارينا، أو الذين يتعاملون بجدّيّة مع المواقع التي يقال فيها إنَّ هجمات البرجين كانت من تدبير بوش واليهود) قادرون على اجتياز اختبارٍ نفسانيٍّ بكلّ سهولة. مشكلة الافتراضيّ إذًا لا تخصُّ المرضى (إلّا في حالاتٍ استثنائيّة) إنّما الأصحّاء.

2013

تلك الأشعّة الكونيّة العاهرة

انتقدني أحد الأصدقاء على مغلَّفٍ سابق قائلًا إنَّ الكلام عن كوكتيل الجين مارتيني 007 في الوقت الذي تنزلق فيه إيطاليا نحو الهاوية يشبه إلى حدٍّ مّا تصرُّفَ الفرقة الموسيقيّة على متن التايتانيك، التي واصلت العزف بينما كانت السفينة العابرة للأطلسيّ تغرق فيه. هذا صحيح، لكنّي أعتقد أنّ موسيقيّي التايتانيك (إن كان الأمر قد جرى كذلك فعلًا) هم المحترفون

الجادّون الوحيدون في تلك الحادثة الكارثيّة. ففي الحين الذي أبدى فيه الجميع مظاهر الخبل واللوثة والفزع والذعر، بل وحتّى الأنانيّة، اتَّبعَ الموسيقيّون المقولة التشجيعيّة للأميرال نيلسون قُبيلَ معركة الطرف الأغرّ: «بريطانيا تأمل أن ينجز كلُّ رجلٍ واجبه». وبكلّ الأحوال، وكي لا أبدو أنّني ألوذ بالبرج العاجيّ الذي يختبئ فيه المثقّف المتوحِّد والناقم، سأقدِّم فكرتين سياسيّتين وملتزمتين ولذيذتين.

عن اللغة الجديدة: يبدو أنَّ المصطلحات المستخدمة حاليًّا في الأدبيّات السياسيّة هي عاهرة، عرص، انتاك. والمعذرة إذا كان التزامي بتأريخ الوقائع هنا يرغمني على استخدام تعابير مغايرة عن تلك التي سادت في زمنٍ مضى، من قبيل التقاطعات المتوازية، الرجعيّة المتربِّصة، الطبقة العاملة.

ومع هذا استغربتُ من فرط الذكوريّة الذي برز عندما استخدم فرانكو باتياتو (عن تهوُّرٍ قطعًا) كلمة «عاهرة» في حديثه عن بعض البرلمانيّين، فاستاء الجميع من هذه الهجمة السوقيّة على العضوات الإناث في مجلس النواب ومجلس الشيوخ. لماذا ظنّوا أنَّ المرأة هي المقصودة حالما سمعوا كلمة «عاهرة»؟ لقد أمسى المصطلح مستخدمًا بشكلٍ اعتياديّ حتّى على مَن هم مِن الجنس الذكريّ، وصار صفةً تُطلَقُ بهذا المعنى للدلالة على مَن يبيع صوته أو مَن يُغيِّرُ جلده بين عشيّةٍ وضحاها، أو مَن يؤكِّد في البرلمان أنَّ روبي[1] هي حقًّا حفيدة مبارك. وأعتقد أنَّ الفيزيائيّ زيكيكي نفسه، إذ قال في لحظة غضب جرَّاءَ اختبارٍ فاشل: «تلك الأشعّة الكونيّة العاهرة تكاد تصيبني بالجنون»، لم يكن يلمح بالضرورة إلى أنَّ تلك الجسيمات اللطيفة هي من جنس حوّاء. ولكنَّنا يا للأسف جميعنا ذكوريّون، ونفكِّر أنّه باستثناء أمّهاتنا، كلُّ العاهرات نساء وبالتالي كلُّ النساء عاهرات.

1- روبي اسمٌ مستعار لراقصة مغربيّة شاركت في سهرات برلسكوني الماجنة في قصره في أركوري. تسبَّبَ هذا الكشف بفضيحة، لاسيّما أنَّ روبي كانت قاصرًا، وأسفر عن دعوى قضائيّة ضدّ برلسكوني الذي أحيل إلى المحاكمة عدّة مرّات بسببها، بتهمٍ عصفت بوضعه السياسيّ جرّاء استغلاله السلطة والمال لمآرب جنسيّة. وقد ادّعى باطلًا ذات مرّة أنَّ الفتاة هي حفيدة حسني مبارك، في مساعيه للمناورة والالتفاف على القضيّة. (المترجم).

فكرةٌ عن تويتر: في حقبةٍ يجنُّ فيها تويتر، ويستخدمه حتّى البابا، ويُنتَظَرُ من التغريد الكونيّ أن يحلّ محلَّ الديمقراطيّة التمثيليّة، ما تزال ثمّة أطروحتان متناقضتان تتواجهان أحيانًا. الأولى هي أنَّ تويتر يسوق الناس إلى التعبير عن أنفسهم بطريقةٍ مقتضبة لكنَّها سطحيّة، لأنَّه كما يعلم الجميع، لكتابة *نقد العقل المحض* يلزمنا أكثر من مئة وأربعين حرفًا. أمّا الثانية فهي أنَّ تويتر يُربِّي على الاختصار والإيجاز.

فاسمحوا لي أن أخفِّف من حدِّة الموقفين كليهما. قيل عن خدمة الرسائل النصّيّة القصيرة أيضًا إنَّها تدفع أبناءنا إلى استعمال وإدراك لغةٍ تلغرافيّة فقط (من قبيل: «أحبك دومًا»)، متناسين أنَّ البرقيّة الأولى قد أرسلها صمويل مورس في العام 1844، ورغم ذلك، ورغم سنواتٍ طوالٍ من برقيّات على غرار «أمّك مريضة تعال بسرعة» أو «أطيب التهاني كاترينا»، واظب الكثير من الناس على الكتابة على نهج بروست. تعلَّمت الإنسانيّةُ إرسال رسائل تحوي كلماتٍ قليلة ولكنْ يبدو أنَّ ماركو بواتو في العام 1981 ألقى خطابًا في البرلمان دامَ ثماني عشرة ساعة.

أمّا بخصوص أنَّ تويتر يُربِّي على ما قلَّ ودلّ، فهذا يبدو لي تماديًا. لأنَّك بمئة وأربعين حرفًا قد تُعرِّض نفسك لخطر الإطناب أساسًا. لا شكَّ أنَّ هذا النبأ: «في البدء خلق الله السماوات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه»[1] يستحقُّ جائزة بوليتزر، لأنَّه بعشرين كلمة (90 حرفًا لا 140) يقول تمامًا ما يودُّ القارئ معرفته. كما من الممكن اللجوء إلى طرائق أكثر إيجازًا لقول أشياء تدلُّ على بصيرةٍ سديدة («فقدان أحد الوالدين محنة، وفقدان كليهما محض استهتار»[2]. «العجب غاية الشاعر، ومَن يعجز عن الإبهار فليذهب لتمشيط الخيول»[3])؛ وعمقٍ بليغ («طوبى للمساكين بالروح لأنَّ لهم ملكوت السماوات»[4]. «ليكن كلامكم نعم نعم لا لا وما زاد على ذلك فهو من

1- سفر التكوين 1: 1. (المترجم).

2- أوسكار وايلد. (المترجم).

3- جامباتّيستا مارينو. (المترجم).

4- إنجيل متّى 5: 3 (المترجم).

الشرير»[1]. «السلطة لا تؤخذ إنّما تحاز»[2]. «الإنسان حيوان ناطق فانٍ»[3]. «أن أكون أو لا أكون تلك هي المسألة»[4]. «ما لا تستطيع التحدُّث به، عليك أن تسكت عنه»[5]. «كلُّ ما هو واقع هو معقول»[6]. «*كلُّ بلاد الغال مقسَّمة إلى ثلاثة أجزاء*»[7]؛ وجملٍ وكلماتٍ أثَّرت في تاريخ البشريّة مثل: «أطيع»[8]. «*أتيتُ رأيتُ انتصرتُ*»[9]. «فلنمضِ إلى الأمام»[10]. «*لا يمكننا*»[11]. «سنقاتل تحت الظلّ»[12]. «هنا إمّا أن نبني إيطاليا وإمّا أن نموت»[13].

فيا مستخدمي تويتر، لتفسير شعر فوسكولو، أحثُكم على الإيجاز[14].

2013

1- إنجيل متّى 5: 37. (المترجم).
2- شارل ديغول. (المترجم).
3- أرسطوطاليس. (المترجم).
4- وليم شكسبير. (المترجم).
5- فيتغنشتاين. (المترجم).
6- هيغل. (المترجم).
7- يوليوس قيصر. باللاتينيّة في الأصل «*Gallia est omnis divisa in partes tres*». (المترجم).
8- نصّ البرقيّة التي ردَّ بها غاريبالدي على أوامر الجنرال لامارمورا بإيقاف الحملة ضدّ النمساويّين عام 1866. (المترجم).
9- يوليوس قيصر. باللاتينيّة في الأصل «*Veni vidi vici*». (المترجم).
10- مقولة الوطنيّ الميلانيّ أنطونيو شيزا عام 1851 رفضًا للتعاون مع المستجوبين واستخفافًا بحكم الإعدام. (المترجم).
11- باللاتينيّة في الأصل «*Non possumus*». ردّ بطرس ويوحنّا للذين أوصوهما ألّا يعلِّمَا باسم يسوع: «لا يمكننا ألّا نتكلّم بما رأينا وسمعنا». سفر أعمال الرسل 4: 20. (المترجم).
12- ردّ جيش إسبارطة على مَن أخافهم بأنَّ جحافل الفرس عديدةٌ حتّى إنّها تحجب الشمس. (المترجم).
13- ردّ غاريبالدي على الجنرال نينو بيكسيو الذي نصحه بالانسحاب إثر معركة دامية ضدّ جيش البوربون عام 1860. (المترجم).
14- قال الشاعر الكبير أوغو فوسكولو (1778-1827) في إحدى محاضراته الجامعيّة، مُعظِّمًا دور الأدب: «أيّها الإيطاليّون، أحثُكم على الحكايات». يستحضر إيكو هذه العبارة الخالدة بأسلوبه ليجري عليها تنويعًا طريفًا يناسب الحالة. (المترجم).

عن الهواتف الجوَّالة

إعادة النظر في الجوَّال

في مطلع التسعينات، عندما كانت الهواتف الخليويّة ما تزال في حوزة قلّةٍ من الناس، ورغم قلّتهم كانوا يجعلون الرحلة بالقطار أمرًا لا يطاق، كتبتُ *مغلّفًا* ساخطًا نوعًا مّا. كنتُ أقول فيه، باختصار، أنه يجب السماح بحيازة الجوَّال حصرًا لأطبَّاء زراعة الأعضاء، والسمكريّة (إذ لا غنى عن هؤلاء في الحالتين كلتيهما، بل ينبغي تسهيل الوصول إليهم أينما كانوا وعلى الفور)، والفَجَرة. أمّا ما تبقَّى، لاسيّما في حالة أولئك السادة غير الملحوظين، وتراهم بخلاف ذلك يزعقون في القطار أو المطار بخصوص أسهم البورصة والصفائح المعدنيّة والقروض المصرفيّة، فما الجوَّال إلّا دلالةٌ على دونيّةٍ اجتماعيّة: ليس لدى ذوي النفوذ الحقيقيّ جوَّالات إنّما عشرون سكرتيرًا يغربلون المكالمات. في حين أنَّ مَن يحتاج إلى الجوَّال هو الموظَّف المتوسِّط المرتبة الذي لا بدَّ أن يردَّ على اتِّصال المدير التنفيذيّ في أيّ لحظة، أو الأجير الصغير الذي يتَّصل به البنك لإبلاغه بأنَّه استنفد رصيده.

ومنذ تلك الآونة، وقبل كلّ شيء، تغيَّر وضع الفَجَرة مرَّتين: ففي المرحلة الأولى اضطرّوا إلى نبذ هذه الأداة ذات الخصوصيّة المفرطة، لأنَّهم ما إن يشتروها حتّى يقعوا في شكٍّ مُشرَّعٍ من قِبَلِ زوجاتهم. وفي المرحلة الثانية انقلب الوضع مجدَّدًا، نظرًا إلى أنَّ الجميع باتوا يمتلكون الجوَّال، فلم يعد هذا دليلًا قاطعًا على علاقةٍ فاجرة. بوسع العشيق أن يكون لديه جوَّال، شرط ألّا تكون لديه غراميّات مع شخصيّات عامَّة حسْبَ مقاييس معيَّنة،

لأنَّ التواصل في هذه الحالة لا شكَّ أنَّه خاضعٌ للمراقبة. من جهةٍ أخرى، لم يتغيَّر شيء بخصوص الدونيّة الاجتماعيّة (لم نشهد حتّى اللحظة صورًا لبوش والجوَّالُ على أذنه)، غير أنَّ واقع الحال يؤكِّد أنَّ الجوَّال أصبح وسيلة تواصل (مفرط) بين الأمَّهات والأبناء، ووسيلة غشٍّ في امتحانات الثانويّة العامّة، ووسيلةً لوسواس التصوير القهريّ؛ وأمست الأجيال الشابَّة تتخلّى عن ساعات اليد لأنَّهم يعرفون الوقت من خلال الجوَّال؛ زد على ذلك ظهور الرسائل القصيرة، وخدمة الأخبار لحظةً بلحظة، وإمكانيّة اتِّصال الجوَّال بالإنترنت وتلقّي البريد الإلكترونيّ لاسلكيًّا. يؤدّي الجوَّال، بأشكاله الأكثر تطوُّرًا، وظيفة حاسوب الجيب أيضًا، وها نحن إزاء ظاهرةٍ جوهريّةٍ من الناحية الاجتماعيّة والناحية التكنولوجيّة.

أما زال بالإمكان العيش بلا جوَّال؟ تتضمَّن «الحياة من خلال الجوَّال» انتسابًا شاملًا إلى الحاضر وفورةً تواصليّةً تحرمنا من كلّ لحظات التأمُّل الانعزاليّ. وبناءً عليه، يستطيع مَن تعزُّ عليه حرّيّتُهُ (الداخليّة والخارجيّة على حدٍّ سواء) أن يستثمر ما لا يُحصى من الخدمات التي تكفلها هذه الوسيلة، ما عدا الاستعمال الهاتفيّ. من الممكن بالحدّ الأقصى تشغيل الجوَّال حصرًا لطلب سيَّارة أجرة أو لإبلاغ الأهل أنَّ قطارنا متأخِّرٌ ثلاث ساعات، ولكن ليس لتلقّي مكالمةٍ من أحد (إذ يمكننا إطفاؤه). عندما ينتقد أحدهم عادتي تلك، أجيب بحُجَّةٍ أليمة: حين توفّي والدي، منذ أكثر من أربعين عامًا (أي قبل الهواتف الجوَّالة)، كنتُ على سفر ولم يردني النبأ إلّا بعد ساعاتٍ طويلة. حسنًا، لم تُعدِّل ساعات التأخير هذه أيَّ شيء. لم يكن للوضع أن يتغيَّر لو أنَّني أُبْلِغْتُ في غضون عشر دقائق. هذا يعني أنَّ التواصل الآنيّ الذي يتيحه الجوَّال لا شأن له بالمواضيع الكبرى كالحياة والموت، ولا يَفيد مَن يُجريَ بحثًا حول أرسطوطاليس، ولا حتّى مَن ينغمس قلبًا وقالبًا في مسألة وجود الربّ.

هل يخلو الجوَّال إذًا ممّا يثير اهتمام فيلسوف (ما عدا أن يضع في جيب بدلته قائمة مراجع بثلاثة آلاف عنوان حول مالبرانش مثلًا)؟ على العكس تمامًا. هناك ابتكاراتٌ تكنولوجيّة غيَّرت حياة الإنسان بحيث غدت نقطةَ جدلٍ في الفلسفة - يكفي التذكير بابتكار الكتابة (من أفلاطون إلى دريدا)

أو قدوم الأنوال الميكانيكيّة (انظر ماركس). وأستغرب ضآلةَ التناول الفلسفيّ لطفراتٍ تكنولوجيّةٍ تبدو لنا في غاية الأهمّيّة كالسيَّارة أو الطائرة على سبيل المثال (رغم التطرُّق للتغيُّرات التي طرأت على فكرة السرعة). سوى أنَّ السيَّارة أو الطائرة (ما لم نكن سائقي تاكسي أو شاحنة، أو طيَّارين) لا نستخدمهما إلّا في لحظاتٍ معيَّنة، في حين أنَّ الكتابة ومكننة معظم النشاطات اليوميّة غيَّرتا كلَّ دقيقةٍ من حياتنا جذريًّا.

يُكرِّس ماوريتسيو فيرّاريس الآن كتابًا لفلسفة الجوَّال، عنوانه *أين أنت؟ علم وجود الجوَّال*، الصادر عن بومبياني عام 2011. قد يخامرنا الشكُّ بملهاةٍ هزليّةٍ من العنوان، إلّا أنَّ فيرّاريس يستخلص من هذا الموضوع جملةً من التأمُّلات في منتهى الجدّيّة ويُقحِمنا في لعبةٍ فلسفيّةٍ مخادعة إلى حدٍّ مّا. الخليويُّ يُغيِّرُ طريقة حياتنا جذريًّا وبالتالي يغدو موضوعًا «مثيرًا للاهتمام من منظورٍ فلسفيّ». إذ يتولّى مهامَّ الأجندة الكفّيّة ووظائف الحاسوب الصغير المتَّصل بالويب، يفقد الجوَّال صفتَه وسيلةً شفويّة شيئًا فشيئًا، ويصبح أداةً للكتابة والقراءة أكثر فأكثر. وبذا أضحى الجوَّال وسيلةً للتسجيل خارقة الاستيعاب – وسنرى كم تُسبِّبُ كلماتٌ مثل كتابة، تسجيل، «تدوين»، القشعريرة لواحدٍ من إخوان دريدا.

تثير الصفحات المئة الأولى من «أنثروبولوجيا» الجوَّال متعةً لدى القارئ غير المتخصِّص أيضًا. ثمّة فرقٌ جوهريٌّ بين التحدُّث بالهاتف والتحدُّث بالجوَّال. كنّا على الهاتف نسأل عن أحدٍ إذا كان موجودًا في البيت، بينما على الجوَّال (باستثناء حالات السرقة) فنحن نعرف دومًا مَن يجيب ونعلم أنَّه موجود (الأمر الذي يُغيِّر وضع خصوصيّتنا). لكنَّ الهاتف الثابت كان يسمح بمعرفة مكان المتَّصلِ به، في حين أنَّ مشكلة مكانه تظلُّ قائمةً مع الجوَّال (فإذا أجابك: «أنا خلف ظهرك» وكان مشتركًا بخدمة اتّصالات في بلدٍ آخر، فإنَّ الإجابة تطوف نصف الأرض). وإذا كنتُ لا أعرف أين يكون مَن يجيبني، فشركة الهاتف تعرف مكانه ومكاني معًا – بحيث إنَّ قدرتنا على التملُّص من المراقبة تتراجع على حساب شفافيّةٍ شاملةٍ نبدي بها تحرُّكاتنا، مقارنةً بالأخ الأكبر الذي تصوَّرَهُ جورج أورويل.

الباب مفتوحٌ للعديد من التأمُّلات التشاؤميّة (التي تتمتَّع بمصداقيّة

لكونها غير منطقيّة) حول «الهوموسيلولاريس»[1] الجديد. فعلى سبيل المثال، تتغيَّر ديناميّة التفاعل المباشر نفسها بين فلان وعلان، التفاعل الذي ما عاد علاقةً بين اثنين، إذ قد تنقطع المحادثة إذا تدخَّلَ علتان باتِّصالٍ خليويٍّ، فإمّا أن يجري التفاعل بين فلان وعلان بشكل مُتقطِّع وإمَّا أن ينقطع نهائيًّا. وبذا تغدو وسيلة الاتِّصال الرئيسة (أناي الحاضرة لدى الآخر دومًا مثلما أنا الآخر حاضرةٌ لديّ) وسيلةً لقطع الاتِّصال في الوقت نفسه (فلان متَّصل بالجميع ما عدا بعلان). ومن بين التأمُّلات التفاؤليّة أعجبني استحضار مأساة الدكتور جيفاكو حين يرى لارا ثانيةً من الترام، فلا يسعفه الوقت للنزول واللحاق بها، ويموت. كيف كانت قصَّتهما المأساويّة ستنتهي لو كان لدى كلٍّ منهما خليويّ؟ يتراوح تحليل فيرّاريس (وأراه مصيبًا بهذا) ما بين الإمكانيّات التي يؤمِّنها لنا الخليويّ، وحالات الخصاء التي يفرضها علينا، وأوَّلُها فقدان الوحدة، وزوال التفكُّر الصامت حول أنفسنا، ومعاقبتنا بحضورٍ متواصلٍ للحاضر. لا يتقاطع التغيير دومًا مع الخلاص.

ولكن مع بلوغ ثلث الكتاب ينتقل فيرّاريس من الجوَّال إلى نقاشٍ حول المواضيع التي لطالما أثارت اهتمامه في السنوات الأخيرة، من بينها مجادلة أساتذته الأصلاء، من هايدغر إلى غادامير وڤاتّيمو، وما بعد الحداثة الفلسفيّة، وفكرة أنَّه لا وجود لحقائق إنّما محض تأويلات، وصولًا إلى دفاعٍ شاملٍ عن المعرفة باعتبارها *الوفاق بين الواقع والفكر* أو (ما أتعس ريتشارد رورتي) باعتبارها «مرآة الطبيعة» بالأحرى. يفعلها بحكمةٍ ورويّةٍ بطبيعة الحال، ومن المؤسف تعذُّرُ المتابعة خطوةً بخطوة لتأسيس ما يشبه الواقعيّة التي يسمّيها فيرّاريس «النَّصّانيّة الضعيفة».

كيف نتوصَّل من الجوَّال إلى مشكلة الحقيقة؟ عبْر التمييز بين الأشياء المادّيّة (كالكرسي أو الجبل الأبيض)، والأشياء المثاليّة (كمبرهنة فيثاغورث)، والأشياء الاجتماعيّة (كالدستور الإيطاليّ أو إلزاميّة دفع المستهلكات في الحانة). النوعان الأوَّلان من الأشياء موجودان حتّى بمعزلٍ

1- الهوموسيلولاريس، الإنسان الخليويّ، على غرار الهوموسابينس، الإنسان العاقل. بمعنى أنَّ الإنسان بات يعتمد اعتمادًا كلّيًّا على جهازه الخليويّ حتّى يكاد ينوب عن عقله. (المترجم).

عن قراراتنا، في حين أنَّ النوع الثالث لا يصبح إن جاز التعبير معمولًا به إلّا بعد تسجيلٍ أو تدوين. وما إن قلنا إنَّ فيرّاريس يسعى إلى تأسيسٍ «طبيعيّ» بشكلٍ أو بآخر لهذه التسجيلات الاجتماعيّة، حتّى يبرز الجوَّال ليُقدِّم نفسه الأداة المطلقة لكلّ أفعال التسجيل.

قد يكون مثارًا للاهتمام مناقشة كثيرٍ من نقاط هذا الكتاب. على سبيل المثال، الصفحات المكرَّسة لتوضيح الفرق بين التسجيل (كشف حسابٍ مصرفيّ، قانون، وأيُّ مجموعةٍ من بياناتٍ شخصيّة) والتواصل. فعلى الرغم من أنَّ أفكار فيرّاريس حول التسجيل في منتهى الأهمّيّة، تبدو أفكاره حول التواصل عامّةً جدًّا (سأستخدم بحقّه الاستعارة التي جاء بها في إحدى هجائيّاته الأخيرة: يبدو أنّه قد حصل على أفكاره تلك من متجر إيكيا). إلّا أنَّ المقالة لا تفسح لي المجال لإجراء نقاشاتٍ فلسفيّةٍ متعمِّقة.

قد يتساءل أحد القرّاء إن كان من اللازم حقًّا الانطلاق من الجوَّال للتوصُّل إلى خلاصاتٍ كان من الممكن لها أن تتوالد من مفاهيم الكتابة و«التوقيع». بالتأكيد، بمقدور الفيلسوف أن ينطلق حتّى من التأمُّل في دودة لتصميم ميتافيزيقا كاملة، ولكن لعلَّ الجانب الأهمّ في الكتاب ليس هو أنَّ الجوَّال أتاح لفيرّاريس أن يُطوِّرَ فصلًا من عِلمِ الوجود، بل إنَّ فهمَهَ الخاصَّ لعِلمِ الوجود سمح له بأن يفهم الجوَّال وأن يُفهِمَنا إيّاه.

2005

ابتلاع الجوَّال

قرأتُ في إحدى صحف الأسبوع الماضي هذا الخبر غير المسبوق: «في روما، مغربيٌّ يبتلع جوَّالًا وتنقذه الشرطة». أي أنَّ الشرطة كانت تمرُّ من هناك في ساعةٍ متأخرة من المساء، فتلاحظ شخصًا مرميًّا على الأرض يبصق دمًا، ومحاطًا من أبناء بلده، فتُنهِضُهُ وتسعفه إلى المستشفى، حيث يستخرجون من حلقه جوَّال نوكيا.

يبدو لي من المستحيل أنَّ إنسانًا يستطيع ابتلاع خليويّ، أيًّا كانت التحوُّلات التي أُجرِيَت عليه (إلّا إذا كان الأمر برمَّته حيلةً تسويقيّةً من شركة

نوكيا). تُرجِّح الصحيفة فرضيَّة أنَّ الحادثة وقعت خلال تصفية حسابات بين باعة المخدِّرات، لذا فمن الوارد جدًّا أن يكونوا قد لقَّموه الجوَّال في فمه بالقوّة والإكراه، لا بدافع الشراهة إنّما القصاص (لعلَّ مَن نزلت به العقوبة كان قد أجرى اتِّصالًا بجهةٍ معيَّنةٍ لا ينبغي له التواصل بها).

إنَّ الحَجَرة في الفم تُعدُّ أذيّةً ذات أصول مافيويّة، إذ تُزَجُّ الحجرة بين فكَّي جثَّة رجلٍ أفشى أسرارًا لغرباء (وهنالك فيلمٌ لجوزيبّي فيرّارا بهذا العنوان أيضًا)، ولا يوجد ما يدعو للاستغراب من انتقال هذه التقاليد إلى جماعاتٍ عرقيّةٍ أخرى - ناهيك بأنَّ المافيا أصبحت ظاهرة عالميّة لدرجة أنَّ أحدهم في موسكو منذ عدَّة سنوات سأل مترجمتي كيف تقال كلمة «مافيا» بالإيطاليّة.

إلّا أنَّ هذه المرَّة لسنا بصدد حَجَرة بل خليويّ، وهذا ما يبدو لي ترميزيًّا للغاية. لم تعد العقليّة الإجراميّة ريفيّةً إنّما مدنيّة، وتكنولوجيّة؛ فمن الطبيعيّ إذًا العدول عن تكتيف القتيل كالخرفان، من أجل اعتماد السايبورغيّة[1] للتشفّي. ليس هذا فحسب، بل إنَّ حَشْرَ الجوَّال في فم أحدهم يشبه إبلاعه خصيتيه، أي العضو الأكثر حميميّةً وخصوصيّةً لديه، التكملة الطبيعيّة لجسمانيّته، تمدُّدًا للأذن، والعين، وكذلك القضيب في معظم الأحيان. وعليه فإنَّ خَنْقَ أحدِهم بجوَّاله يشبه خنقه بأحشائه. خذْ، وصلتكَ رسالة!

2008

كعكة الفراولة والقشطة

منذ مدَّة، في الأكاديميّة الإسبانيّة بروما، كنتُ أحاول أن أتكلَّم، لكنَّ سيّدةً أبلجت في وجهي ضوءًا يعمي الأبصار (ليتسنَّى لها تفعيل كاميرا الفيديو الخاصّة بها) وكانت تعيق عليَّ قراءة ملاحظاتي. فتصرَّفتُ باستياءٍ واضح قائلًا (وهذا ما أقوله لمُصوِّرين غير لبقين) إنَّني أؤمن بمبدأ تقاسُم العمل: لذا حبَّذا أن يتوقَّف الآخرون عن العمل عندما أعمل؛ فأطفأت السيِّدة ضوءها،

1- المقصود هنا أنَّ الآلة الإلكترونيّة غدت جزءًا من تكوين الإنسان الفيزيولوجيّ، وفقًا لما تُروِّجه فلسفة السايبورغ. (المترجم).

فيما تبدَّت عليها ملامح مَن تعرَّض للظلم. وفي الأسبوع الماضي تمامًا، في سان ليو، أثناء إطلاق مبادرةٍ رائعةٍ من البلديّة بهدف إعادة اكتشاف المناظر الطبيعيّة في مونتيفلترو التي تظهر في رسومات بييرو ديلا فرانشسكا، كان هناك ثلاثة أفراد يعمون أبصاري بأضواء الفلاش، حتّى إنّي اضطررتُ إلى تذكيرهم بقواعد حسن السلوك.

جديرٌ بالملاحظة أنّه في الحالتين كلتيهما لم يكن أصحاب الضوء الباهر من الناس الذين يتابعون برنامج *الأخ الأكبر*، بل من المرجَّح أنّهم أشخاصٌ مثقَّفون يأتون بملء إرادتهم لحضور ندواتٍ تستدعي التزامًا كبيرًا. ورغم هذا من الجليّ أنَّ متلازمة العين الإلكترونيّة أنزلتهم من المستوى الإنسانيّ الذي ربّما يتطلّعون إليه: فقدوا اهتمامهم فعليًّا بما كان يقال، وبات همُّهم الوحيد أن يُسجِّلوا الحدث، ربّما لتنزيله على اليوتيوب. تنازلوا عن استيعاب ما كان يقال، من أجل تخليد -على جوَّالاتهم- ما كانوا يستطيعون رؤيته بأعينهم.

يبدو هوس الحضور بعينِ آليّةٍ على حساب الدماغ آخذًا في إخضاع الأشخاص لتحوُّلاتٍ ذهنيّة حتّى وإن كانوا مُتحضِّرين. سيخرج هؤلاء من الندوة، التي عزموا على حضورها شخصيًّا، ببعض الصور (وكان من الممكن تسويغ فعلتهم هذه لو كنتُ راقصَ تعرٍّ) ولكن من دون أدنى فكرةٍ عمّا حضروه. وإن كانوا وفق تصوُّري يجوبون العالم بتصوير كلِّ ما تقع عليه أعينهم، فسيكون مُقدَّرًا عليهم بطبيعة الحال أن ينسوا في اليوم التالي ما سجَّلوه في اليوم السابق.

لقد رويتُ في مناسباتٍ عديدة كيف أقلعتُ عن التصوير في العام 1960، بعد جولةٍ للكاتدرائيّات الفرنسيّة، وكنتُ في ذلك الحين أُصوِّر كالممسوس. وعند عودتي وجدتُني أمام سلسلةٍ من صورٍ متواضعة جدًّا، وفي المقابل لم أعد أذكر شيئًا ممّا رأيتُ. فرميتُ آلة التصوير بعيدًا وبتُّ في رحلاتي اللاحقة أكتفي بتسجيلٍ ذهنيٍّ لما أراه. وللذكرى البعيدة، كنت أشتري بطاقاتٍ رائعة، من أجل الآخرين أكثر ممّا هي من أجلي.

ذات مرّة، كان عمري أحد عشر عامًا، أثارت انتباهي ضجّةٌ غير مألوفة على الطريق الدائريّ للمدينة التي نزحتُ إليها. رأيتُ من مسافةٍ بعيدة:

شاحنة اصطدمت بعربةٍ يقودها فلّاحٌ وزوجته بجانبه، ارتمت المرأة على الأرض، وشُجَّ رأسها، ورقدت وسط بقعةٍ كبيرةٍ من الدماء والمادّة الدماغيّة (علق المشهد في ذاكرتي المذعورة كأنّي أرى مَن يهرس كعكة الفراولة والقشطة) بينما كان زوجها يضمُّها إليه بشدّة وينتحب من اليأس.

لم أقترب أكثر من اللازم، بسبب الفزع: لم تكن المرَّة الأولى التي أرى فيها دماغًا يتلطَّخ به الأسفلت فحسب (ولحسن الحظّ أن كانت الأخيرة) إنّما المرَّة الأولى التي أجدني فيها قبالة الموت. والألم. واليأس.

ما الذي كان سيحدث لو أنّي كنتُ أمتلك جوّالًا بكاميرا فيديو مدمجة، مثلما هي حال أيِّ فتى في أيّامنا هذه؟ ربّما كنتُ سأسجِّل المشهد، لأُظهِرَ على مرأى أصدقائي أنّني كنتُ هناك، ثمَّ كنتُ سأُنزِّل رأسمالي البصريّ على اليوتيوب، لإمتاع عبدة الشماتة «*Schadenfreude*»، أي المتعة التي تعتري المرء بمشاهدة مصائب الآخرين. ثمَّ مَن يدري، ربّما كنتُ سأواصل تسجيل مصائب أخرى، حتّى أغدو لامباليًا إزاء الأذى الذي يحلُّ بالآخرين.

غير أنّني احتفظتُ بذلك كلّه في ذاكرتي، وما تزال تلك الصورة، بعد مضيّ سبعين عامًا، تؤلمني وتُربِّيني، أجل، تُربِّيني على أن أكون شريكًا بآلام الناس لا حياديًّا تجاهها. لا أدري إن كان ما يزال لدى شباب اليوم هذه الإمكانيّات التي تتيح لهم أن يصبحوا راشدين. فالراشدون، بأعينهم اللصيقة بجوّالاتهم، ضاعوا إلى الأبد.

2012

تطوُّر: كلُّ شيء بيدٍ واحدة فقط

أوّل من أمس كنتُ في الطريق فإذا بخمسة أشخاص من كلا الجنسين يتقاطرون بجانبي واحدًا خلف الآخر: اثنان كانا يتكلّمان على الجوّال، واثنان كانا ينقران عليه بطريقةٍ عصابيّةٍ حتّى كادا يتعثّران، وواحدٌ كان يمسك ذلك الشيء بيده، مستعدًّا للردّ على أيّ رنّةٍ تَعِدُهُ بتواصلٍ بشريّ.

لي صديقٌ مثقّفٌ واستثنائيّ، تخلّى عن ساعته الرولكس، لأنّه على حدّ قوله بات بوسعه معرفة الوقت من جهاز البلاك بيري. كانت التكنولوجيا قد

ابتكرت ساعة اليد لكي تسمح للبشر بالتحرُّك من دون الحاجة إلى تعليق الساعة على صدورهم، ومن دون التعسُّر بإخراج ساعة الجيب من جعبة السترة كلَّ دقيقتين؛ وها إنَّ صديقي يتعيَّنُ عليه في كلّ أفعاله أن يتحرَّكَ بيدٍ مشغولةٍ على الدوام. إنَّنا نشهد اليوم ضمورَ واحدٍ من أطراف الإنسان، مع أنَّنا نعلم كم ساهمت اليدان ذواتا الإبهام المقابل في تطوُّر النوع البشريّ. خطر في ذهني أنَّ البشر حين كانوا يكتبون بريشة الطائر، كانوا في حاجةٍ إلى يدٍ واحدة، في حين أنَّهم مع لوحة مفاتيح الكمبيوتر يحتاجون إلى يدين اثنتين، وبالتالي فإنَّ الإنسان الهاتوف لا يستطيع استخدام الجوَّال والحاسوب في الوقت ذاته. لكنّي فكَّرتُ فيما بعد بأنَّ «مدمن التلفون» لم يعد مضطرًّا إلى الكمبيوتر (الأداة التي أضحت ما قبل تاريخيّة) لأنَّه بالجوَّال يستطيع الاتِّصال بالإنترنت وإرسال الرسائل النصّيّة القصيرة، ولا ضرورة لديه لإرسال الإيميل طالما أصبح قادرًا على التخاطب مباشرةً مع الشخص الذي ينوي إزعاجه أو الذي يبتغي هو الانزعاج على يديه. صحيحٌ أنَّ قراءاته لويكيبيديا ستكون أشدّ إرهاقًا وستصبح عجولةً وسطحيّة، وأنَّ رسائله المقتضبة ستغدو أشبَهَ بالبرقيّات (بينما كان بالاستعانة بالإيميل قادرًا حتّى على كتابة الرسائل الأخيرة لياكوبو أورتس)، لكنَّ الإنسان الهاتوف لم يعد لديه وقتٌ لجمع معلوماتٍ موسوعيّة ولا للتعبير عن نفسه بلغةٍ فصيحة لأنَّه منشغلٌ بدردشاتٍ تشي لنا الاختراقاتُ المستنكَرةُ بالكثير عن صحَّتها النحويّة. ومن هذا نستنتج أنَّ مدمن التلفون، إذ يتنازل عن كلّ سرّيّته، يفصح عن مشاريعه بوساطة نقاط الإضمار وبعض صيغ الحشو النياندرتاليّة[1] من قبيل أير وانتاك.

كما أدعوكم لتذكُّر فيلم *الحبُّ أبديٌّ إلى أن ينتهي* لكارلو فيردوني، حيث الفتاة الغنوج تجعل الجماع كابوسيًّا لأنَّها بينما تتأرجح على بطن شريكها، تواصل الردَّ على رسائل عاجلة. وقد حدث لي أن قرأتُ مقابلةً أُجرِيَت معي من قِبَلِ صحفيّةٍ إسبانيّة (ذكيّة ومثقَّفة بالمناسبة) لاحظتْ باندهاش كيف أنَّني طوال محادثتنا لم أقاطعها للردّ على الجوَّال، لتُقرِّر بذلك أنَّني شخصٌ

1- النياندرتاليّة نسبةً إلى الهومونياندرتال، الإنسان البدائيّ، والمراد بالصفة هنا السخرية من بعض الناس المتخلِّفين الذين يتلفَّظون بعباراتٍ نابية طوال الوقت، يحشون بها كلامهم الفارغ. (المترجم).

محترم. لم تستطع أن تتخيَّل أنّني إمّا لا أمتلك جوّالًا وإمّا أبقيه مطفأ على الدوام إذ لا أفيد منه لتلقّي رسائل غير مرغوبة إنّما لمراجعة الأجندة حصرًا.
2013

الجوَّال وملكة بياض الثلج

كنتُ أمشي على الرصيف فإذا أنا أرى سيّدةً تُقبِلُ باتّجاهي وعيناها لصيقتان بجوَّالها، لذا لم تكن تنظر أمامها. كان عليَّ أن أتنحّى كي لا نتصادم. وبما أنّني شرّيرٌ بطبعي، توقَّفتُ فجأةً واستدرتُ، كما لو كنتُ أنظر إلى آخِرِ الطريق: فما كان من السيّدة إلّا أن اصطدمت بظهري. تحجَّرتُ استعدادًا للصدمة، فصمدتُ جيّدًا، أمّا هي فتشتَّتت وسقط منها الجوَّال، وأدركت أنّها اصطدمت برجلٍ لم يتسنَّ له أن يراها، وأنَّها هي التي كان يجدر بها أن تتنحَّى لتتفاداه. تمتمت بأعذارها، بينما كنت أقول لها بإنسانيّة: لا تقلقي، فهذه الأمور تحدث في هذه الأيّام.

آمل فقط أن يكون الجوَّال بسقوطه قد تحطَّم، وأنصح مَن يجد نفسه بمواقف مماثلة أن يتصرَّفَ مثلي. وبالتأكيد لا بدَّ من قتل المهووسين بالتلفون وهم صغار، ولكن نظرًا إلى تعذُّر العثور على هيرودس جديد كلَّ يوم، فمن الجيِّد معاقبتهم عندما يكبرون على الأقلّ، مع أنّهم لن يعوا أبدًا في أيِّ هاويةٍ سقطوا، وسيواصلون سقوطهم.

أعلم علم اليقين أنَّ عشرات الكتب قد كُتِبَت بخصوص متلازمة الجوَّال، وليس هنالك ما يضاف، ولكنَّنا إذا تمعَّنّا قليلًا، لبدا لنا ممّا يصعب تفسيره أنَّ البشريّة برمَّتها وقعت فريسةً للسعار ذاته، وأنَّها فقدت علاقاتها المباشرة التي تجري وجهًا لوجه، وأنَّها لم تعد تشاهد المنظر، ولا تتفكَّر بالحياة والموت، إنَّما يتولّاها هاجس الكلام، وفي أغلب الأحيان من دون ضرورةٍ طارئة لهذا الكلام، لتستنزف حياتها بحوارٍ بين فاقدي البصر.

وهذا لأنَّنا نعيش في عصرٍ استطاعت فيه البشريّة للمرَّة الأولى أن تُحقِّق واحدةً من أمانيها المؤرِّقة الثلاث التي حاول السحرُ تلبيتها طيلة قرون. الأولى هي أمنيّة الطيران، ولكن بالارتقاء بخفَّة أجسامنا، ورفرفة أذرعنا،

لا بالصعود على متن مركبة. والثانية هي القدرة على التأثير في العدوّ أو في المحبوبة بالتلفُّظ بكلماتٍ مبهمة وملغزة أو باستجداء التماثيل الطينيّة. والثالثة تمامًا هي التواصل عن بُعد، باجتياز محيطاتٍ وسلاسل جبليّة، وأن يكون تحت تصرُّفنا جنّيٌّ أو غرضٌ عجائبيٌّ بوسعه أن ينقلنا على حين غرّة من فروزينونه إلى بامير، ومن إنيسفري إلى تمبكتو، ومن بغداد إلى بكبسي، وبالتواصل الآنيّ مع مَن هو بعيدٌ عنّا ألف ميل. بمفردنا، وبمبادرةٍ شخصيّة، لا مثلما يحدث حتّى الآن مع التلفاز الذي نخضع من خلاله لقرارات آخرين، ولا نشاهد ما نبتغيه في بثٍّ حيٍّ متى أردنا.

ما الذي رغَّبَ البشر بتطبيقات السحر؟ العجلة. كان السحر يعد بالقدرة على الانتقال من السبب إلى النتيجة فورًا، عبْر دارةٍ قصيرة، دون إتمام الخطوات الوسيطة: ألقي تعويذةً فأحوِّلُ الحديد إلى ذهب، أستدعي الملائكة وأبعث بوساطتهم رسالة. لم يتلاشَ الوثوق بالسحر مع نشأة العلم التجريبيّ، لأنَّ الحلم بتزامن السبب والنتيجة انتقل إلى التكنولوجيا. والتكنولوجيا اليوم هي ما يمنحك كلَّ شيء وفي اللحظة ذاتها (تضغط على زرٍّ في جوّالك فتتحدَّث مباشرةً مع شخصٍ في سيدني)، في حين أنَّ العلم يسير برويّة، ولا يرضينا بطؤه الحذر لأنَّنا نرغب بالدواء الشافي من السرطان الآن، وليس غدًا. وهكذا نجد أنفسنا منقادين لنضع إيماننا بالطبيب-الوليّ الذي يعدنا بالجرعة العجائبيّة في اللحظة ذاتها ولا يجعلنا ننتظر أعوامًا.

إنَّ العلاقة بين الحماسة التكنولوجيّة والفكر السحريّ وثيقةٌ للغاية ومرتبطةٌ بالأمل الدينيّ بفعل المعجزة اللحظيّ. كان الفكر اللاهوتيّ يُحدِّثنا وما زال عن الغوامض، لكنَّه كان يجادل وما زال لبرهنة كيف أنَّها معقولة وخارقة في الوقت نفسه. أمّا الإيمان بالمعجزة فكان يُبيِّنُ لنا المشيئة الربّانيّة، والقدسيّة، والألوهيّة، التي تتجلَّى وتُنفِّذُ بلا إرجاء.

هل هناك ما يجمع بين مَن يعد بالعلاج الفوريّ من السرطان، والأب بيوس، والجوّال وملكة بياض الثلج؟ بمعنىً مّا، نعم. لهذا السبب كانت السيّدة في حكايتي تحيا في كونٍ خرافيّ، مسحورةً بأُذنٍ عوضًا عن مرآةٍ سحريّة.

2015

عن المؤامرات

أين الوشاة؟

من اللافت مدى انتشار الكثير من نظريّات المؤامرة حول الحادي عشر من سبتمبر. هنالك النظريّات المتطرِّفة (المتوافرة لدى مواقع الأصوليّين العرب والنازيّين الجدد)، التي تتحدَّث عن مؤامرةٍ مدبَّرةٍ من قِبَلِ اليهود، وأنَّ كلَّ اليهود العاملين في برجي التجارة أُبْلِغوا في اليوم السابق كي يتغيَّبوا عن العمل - في حين يعرف الجميع أنَّ قرابة أربعمئة من المواطنين الاسرائيليّين أو اليهود الأمريكيّين صُنِّفوا بين الضحايا. وهنالك النظريّات المعادية لبوش، التي تقول إنَّ الهجمات كانت مُعدَّةً سلفًا لأخذها ذريعةً لغزو أفغانستان والعراق فيما بعد. وهنالك النظريّات التي تعزو السبب إلى عدَّة أفرعٍ من المخابرات الأمريكيّة الضالّة نوعًا مّا. وهنالك النظريّة التي تنسب ما وقع إلى الأصوليّين العرب، وتقول إنَّ الحكومة الأمريكيّة كانت على علمٍ بتفاصيله مسبقًا، سوى أنَّها تركت الأمور تجري في أعنَّتها للحصول على المسوِّغ لمهاجمة أفغانستان والعراق (مثلما قيل تقريبًا عن روزفلت، أنَّه كان على دراية بالهجوم الوشيك على بيرل هاربر لكنَّه لم يتَّخذ أيًّا من التدابير لحماية أسطوله لأنَّه كان يبحث عن حُجَّةٍ لإعلان الحرب على اليابان). وفي النهاية هنالك النظريّة التي تؤكِّد أنَّ الأصوليّين من جماعة بن لادن هم المسؤولون عن الهجمة بلا شكّ، إلّا أنَّ السلطات المفوَّضة للدفاع عن الأراضي الأمريكيّة تصرَّفت على نحوٍ سيّئ، ومتباطئ، ما يكشف عن انعدام كفاءةٍ مثيرٍ للمخاوف. وفي كلِّ هذه الحالات يعتقد المؤيّدون

لواحدةٍ من بين هذه المؤامرات على الأقلّ أنَّ الرواية الرسميّة لما حدث زائفة ومُضلِّلة وصبيانيّة.

ومَن أراد الحصول على فكرةٍ عامّة عن نظريّات المؤامرة المتعدِّدة هذه فليقرأ الكتاب الذي أشرف عليه جولييتو كييزا وروبرتو فينيولي: *صِفر. لماذا تُعدُّ الرواية الرسميّة لأحداث 9/11 زائفة* (إصدار بي امي، 2007)، حيث تظهر أسماء لمشاركين جديرين بالاحترام مثل فرانكو كارديني، جانّي ڤاتّيمو، غور بيذال، ليديا راڤيرا، والكثير من مشاركين أجانب.

ولكن مَن أراد الإصغاء إلى الحملة المضادّة فليشكر منشورات بي امي لأنَّها اتَّسمت برصانةٍ مدهشة (وأثبتت مقدرتها على استحواذ قطاعين متعاكسين من السوق) ونشرت في العام نفسه كتابًا مضادًّا لنظريّات المؤامرة: *9/11 المؤامرة المستحيلة*، بإشراف ماسّيمو بوليدورو، ومشاركين جديرين بالاحترام كذلك مثل بييرجوروجو أوديفريدّي وجيمس راندي. وإن كان اسمي واردًا فهذا لا يصمني بالعار ولا يُكلِّلني بالغار، لأنَّ المشرف طلب منّي ببساطة أن أعيد نشر أحد *المغلَّفات* في كتابه هذا، وليست مقالتي حول الحادي عشر من سبتمبر بقدر ما هي حول المتلازمة الأبديّة للمؤامرة. ومع هذا، وبما أنّي أعتقد أنَّ عالمنا نشأ عن طريق الصدفة، لا أجد صعوبةً برؤية أنَّ الجزء الأعظم من الوقائع التي زعزعت عالمنا على مدى العصور كانت نتيجة الصدفة أو المنافسة بين أشكال مختلفة من الغباء، منذ حرب طروادة إلى أيّامنا هذه؛ لذا فإنَّني بفطرتي وتشكُّكي وحذري، أميل دومًا إلى التشكيك بأيّ مؤامرة، ذلك أنّي أعتقد أنَّ أمثالي هم أغبياءٌ إلى حدٍّ يخفقون فيه بتدبير مؤامرةٍ على أتمّ وجه. وهذا على الرغم من أنَّني –لأسبابٍ مزاجيّةٍ بالتأكيد، لكنَّها متعلِّقة بدوافع لا يمكن ضبطها البتّة– أميل أيضًا إلى الظنّ بأنَّ بوش وإدارته قد يُقدِمون على أيِّ شيء.

لن أدخل (بسبب ضيق المساحة) في تفاصيل البراهين التي يستند إليها مؤيِّدو الفرضيَّتين كلتيهما، والتي قد تبدو جميعها مقنعة، لكنّي سألتجئ إلى ما أُعرِّفُهُ بـ «دليل السكوت». أستخدم مثالًا على دليل السكوت عادةً ضدَّ الذين يصرُّون على أنَّ الهبوط الأمريكيّ على سطح القمر ما هو إلّا فبركةٌ تلفزيونيّة: كان هنالك مَن بوسعهم التحقُّق من عدم وصول السفينة الفضائيّة

الأمريكيّة إلى القمر، ولهم مصلحةٌ في فضح الأمر: إنّهم السوفييت؛ وما دام السوفييت التزموا الصمت حيال ذلك، فهذا دليلٌ على أنَّ الأمريكيّين قد وصلوا إلى القمر فعلًا. نقطة انتهى.

وفيما يتعلّق بخصوص المؤامرات والأسرار، فإنَّ التجربة (التاريخيّة أيضًا) تقول لنا التالي: آ، في حال وجود سرّ، وإن كان معلومًا من طرف شخصٍ واحدٍ فقط، فإنَّ هذا الشخص سيبوح به عاجلًا أم آجلًا، ربّما لعشيقته على السرير (وحدَهم الماسونيّون السذَّج وأتباعُ مذهبٍ هيكليٍّ مزعومٍ يؤمنون بسرٍّ يبقى مكتومًا أبد الدهر)؛ ب، في حال وجود سرّ، فهناك دومًا مبلغٌ معتبرٌ إذا تقاضاه أحدُهُم استعدَّ لفضحه (كانت بضع مئات الآلاف من الجنيه الإسترلينيّ كافيةً كعوائد الحقوق الفكريّة لإقناع ضابطٍ من الجيش البريطانيّ بسرد كلٍّ ما فعله على السرير مع الأميرة ديانا، ولو كان قد فعلها مع حماتها لاكتفوا بمضاعفة المبلغ ولكان حريًّا بجنتلمان مثله أن يروي فعلته في كل الأحوال). والآن، لتدبير هجومٍ مفتعلٍ على البرجين (لزرع الألغام فيهما، لإبلاغ القوى الجويّة بعدم التدخُّل، لإخفاء أدلّةٍ محرجة، وهلمَّ جرًّا) يتوجَّبُ على المنظِّمين إشراك آلاف الأشخاص أو المئات على الأقلّ. والأشخاص المسخَّرون لعمليّاتٍ من هذا النوع لا يكونون في العادة من النبلاء، ومن المستحيل ألّا يفشي واحدٌ منهم على الأقلّ فعلاته مقابل مبلغٍ معتبر. مختصر الكلام، هذه الحكاية ينقصها الوشاة.

2007

مؤامرات ومكائد

صدرت أخيرًا الترجمة الإيطاليّة لكتاب كيت توكيت: *مؤامرات. مكائد، دسائس، أخبار مضلِّلة، وحقائق خفيّة ومقلقة أخرى* (منشورات كاستلفيكّي، 2007). إنَّ متلازمة المؤامرة قديمةٌ قِدَمَ العالم، وكان كارل بوبّر أبرز مَن تتبَّعَ فلسفتها بجدارةٍ عالية، في دراسةٍ حول النظريّة الاجتماعيّة للمؤامرة، متوافرة في كتابه *التكهُّنات والتفنيدات، تطوُّر المعرفة العلميّة* (1963): «بمسمّى النظريّة، تُعَدُّ أقدمَ من أشكالٍ كثيرةٍ لمفهوم الألوهيّة، وتشبه تلك

المكتشفة في أشعار هوميروس. إذ كان هوميروس يعي سلطة الآلهة بأنَّ كلَّ ما يجري في السهول المقابلة لطروادة ما هو إلّا محض انعكاسٍ للمؤامرات العديدة المدبَّرة في الأوليمب. وإنَّ النظريّة الاجتماعيّة للمؤامرة هي نسخةٌ عن مفهوم الألوهيّة ذاك فعليًا. أي الإيمان بذواتٍ إلهيّة، لمشيئاتها ونزواتها المقدرةُ على تسبيب أيّ شيء. فهي نتيجةٌ للاستغناء عن مرجعيّة الربّ، ونتيجةٌ للسؤال التالي: «مَن يشغل مكانه؟». يشغل هذا المكانَ الآن عدّةُ رجال مُتحكّمين ومجموعاتٌ مُتنفِّذة - جماعات ضغط مرعبة، يُعزى إليها تدبير الكآبة وسائر الشرور التي نعانيها... وعندما يصل مُنظِّرو المؤامرة إلى سدَّة الحكم، تتَّخذ المؤامرة طابعَ النظريّة التي تُوصِّف وقائع حقيقيّة. فعلى سبيل المثال، عندما استولى هتلر على السلطة، وكان موقنًا بأسطورة مؤامرة حكماء صهيون القدماء، حاول ألّا يكون أقلَّ حيلة فجاء بمؤامرةٍ مضادّة».

تنبع نفسيّة المؤامرة من عدم رضانا بالتفسيرات الجليّة لكثيرٍ من الأحداث المقلقة، وغالبًا لا ترضينا لأنَّ القبول بها يؤلمنا. تذكَّروا نظريّة «الشيخ الكبير» عقب اختطاف ألدو مورو: كان الناس يتساءلون، كيف من المعقول أنَّ شبّانًا في الثلاثين من أعمارهم استطاعوا التحضير لعمليّةٍ بهذه الدقّة؟ لا بدَّ من وجود عقلٍ مُدبّرٍ أشدَّ فطنةً وراءهم. ولم يفكّروا أنَّ هناك ثلاثينيّين آخرين في الفترة نفسها يديرون مؤسسات ويقودون طائرات جمبو جيت ويخترعون أجهزةً إلكترونيّة حديثة. فالمشكلة إذًا ليست في كيف كان شبّانٌ ثلاثينيّون قادرين على اختطاف مورو من وسط روما، بل إنَّ هؤلاء الثلاثينيّين هم أبناء مَن كانوا ينسجون الخرافات عن «الشيخ الكبير».

إنَّ التأويل الارتيابيّ بمعنى مّا يعفينا من مسؤوليّاتنا لأنّه يجعلنا نظنُّ أنَّ وراء ما يقلقنا سرًّا خفيًّا، وأنَّ حجب هذا السرّ يُشكّل مؤامرةً ضدَّنا. فالتصديق بالمؤامرة يشبه إلى حدٍّ مّا التصديقَ بأن نُشفى بأعجوبة، سوى أنّنا في هذه الحالة لا نحاول أن نُفسّر تهديدًا، إنّما ضربة حظّ لا يمكن تفسيرها (انظر بوبّر، الأصل يكمن دومًا في الاستعانة بمكائد الآلهة).

والجميل أنّه، في الحياة اليوميّة، لا يوجد ما هو فائق الشفافيّة أكثر من المؤامرة والسرّ. فالمؤامرة، إن كانت فعّالة، تُولّد نتائجها عاجلًا أم آجلًا وتصبح جليّة. والأمر نفسه ينطبق على السرّ، الذي لا يُكشَفُ عادةً من

مجموعةٍ من «الوشاة» فحسب، بل لأنّه مهما كانت إحالاته، سيرى النور في نهاية المطاف إذا كان مهمًّا (سواء أكان صيغة مادّةٍ عجيبة، أو مناورة سياسيّة). فالمؤامرات والأسرار، إن لم تطفُ على السطح، فهي مؤامراتٌ فاشلة، أو أسرارٌ تافهة. إذ إنَّ قوّة مَن يُصرِّح بأنَّ لديه سرًّا، ليست في تستُّره على شيء مّا، بل في إقناع الآخرين بوجود سرٍّ مّا. وفي هذا المعنى يمكن للمؤامرات والأسرار أن تكون أسلحةً فعَّالةً تمامًا في يد مَن لا يُصدِّق بوجودها.

يُذكِّر جورج سيميل في دراسته الشهيرة عن الأسرار، أنَّ «السرَّ يُسنِدُ لمن يمتلكه موضعًا استثنائيًّا... فالسرُّ مستقلٌّ جوهريًّا عن محتواه، لكنَّه بالتأكيد يكتسب فاعليّةً قصوى كلَّما كان احتكاره واسعًا وذا أهمّيّة... وفي مقابل المجهول، تتعاون النزعة الفطريّة نحو المثلنة مع الخوف الفطريّ لدى الإنسان في سبيل الهدف ذاته: تكثيف المجهول بوساطة المخيِّلة واعتباره ذا كثافةٍ لا تُخصَّص في العادة للوقائع البيِّنة».

والنتيجة هي هذه المفارقة: وراء كلّ مؤامرة زائفة، تتخفّى دومًا مؤامرةٌ لمَن لديه مصلحةٌ في تقديمها لنا على أنَّها حقيقيّة.

2007

الجماعة الرائعة

كلَّما عدتُ في فضاء هذه *المغلَّفات* إلى موضوع متلازمة المؤامرة، تلقَّيتُ رسائل من أشخاصٍ ساخطين يُذكِّرونني بأنَّ المؤامرات موجودةٌ حقًّا. أجل بالتأكيد. كلُّ انقلابٍ هو مؤامرة حتّى اليوم السابق لتنفيذه. ويتآمر بعضهم طمعًا بالسيطرة على مؤسَّسة بالاستحواذ على أسهمها شيئًا فشيئًا. أو يتآمرون لزرع عبوة ناسفة في مترو الأنفاق. لطالما كان هناك مؤامرات، فشل بعضُها من دون أن ينتبه أحدٌ إلى ذلك، ونجح بعضُها الآخر، إلّا أنَّ ما يُميِّزها بالعموم هو أنَّها محدودةٌ دومًا بما يتعلَّق بأهدافها ومجال فاعليَّتها. أمَّا ما نعنيه بالإشارة إلى متلازمة المؤامرة، فهي فكرة وجود مؤامرة شاملة (وفي بعض اللاهوتيّات تصبح أبعادها كونيّة أيضًا)، تستوجب أنَّ كلَّ أحداث التاريخ أو كلَّها تقريبًا تُحرِّكها سلطةٌ واحدةٌ وغامضة تعمل في الخفاء.

هذه هي متلازمة المؤامرة التي تحدَّثَ عنها بوبّر، ومن المؤسف أن يمرَّ مرورَ الكرام كتابُ دانيال بايبس *الجانب المظلم من التاريخ*، وقد تُرجِمَ إلى الإيطاليّة في العام 2005 من منشورات لينداو، لكنَّه كان قد صدر في الواقع عام 1997 بعنوانٍ صريح *Conspiracy مؤامرة* (وبعنوانٍ فرعيّ: «كيف يزدهر أسلوب البارانويا ومن أين ينبع»). يستهلُّ الكتاب باقتباسٍ من كليمنس فون مترنيش، الذي يبدو أنَّه قال، إثر درايته بموت السفير الروسيّ: «تُرى ما أسباب الوفاة؟»

هكذا إذًا، تستبدل متلازمةُ المؤامرة حوادثَ التاريخ وعشوائيّته بصورةٍ شرّيرةٍ بطبيعة الحال، وغيبيّةٍ على الدوام.

إنَّني صفيُّ الذهن بما فيه الكفاية لأشكَّ أحيانًا بأنّي إذ أُكثِرُ من انتقاد متلازمات المؤامرة أقدِّم دليلًا على فرط ارتيابي، بمعنى أنَّه تظهر عليَّ أعراض متلازمةٍ تجعلني أتوهَّم وجود متلازمات مؤامرة في كلّ مكان. غير أنَّني للاطمئنان أكتفي دومًا باستقصاءٍ خاطفٍ على الإنترنت. المهووسون بنظريّات المؤامرة فيالق، ويصلون أحيانًا إلى أرفع قمم السخرية اللاإراديّة. أوّلَ من أمس صادفتُ موقعًا يحتوي على نصٍّ طويل، بعنوان *عالَمُ اليسوعيّين المريض*، لجويل لابروير. وكما يوحي العنوان، نحن بصدد استعراضٍ موسَّع لكلِّ أحداث العالم (ليس المعاصر فحسب) الناجمة عن مؤامرة اليسوعيّين الشاملة.

لطالما كان يسوعيّو القرن التاسع عشر، من الأب بارويل إلى نشأة مجلّة *الحضارة الكاثوليكيّة* إلى روايات الأب بريشاني[1]، من الملهمين العظام لنظريّة المؤامرة اليهوديّة–الماسونيّة؛ لذا من المنصف أن ترتدَّ عليهم من قِبَلِ ليبراليين وأنصار ماتزيني وماسونيّين ومناهضين للإكليروس، بنظريّة المؤامرة اليسوعيّة بالضبط، التي ذاع صيتها من بعض المناشير اللاذعة، أو الكتب الشهيرة، بدءًا من *الرسائل الإقليميّة* لباسكال، *اليسوعيُّ الحديث* لجوبرتي وكتابات ميشليه وكينيه، وكذلك من روايات أوجين سو «*اليهوديُّ الشريد*» و«*ألغاز الشعب*».

1- أنطونيو بريشاني (1798–1862) أديب يسوعيّ إيطاليّ، عُرِفَ عنه فكره الرجعيّ ومعاداته للتيّار الوطنيّ لمصلحة النظام الكهنوتيّ وحقده على اليهود. (المترجم).

لا جديد إذًا، سوى أنَّ موقع لابروبير يفضي إلى بُرَحاءِ الهوس باليسوعيّين. سأذكر بعجالة لأنَّ حيّزَ *المغلّف* هو ما هو بينما مخيّلة لابروبير المصاب بمتلازمة المؤامرة تضاهي مُخيِّلة هوميروس. إذًا، لطالما ابتغى اليسوعيّون إنشاء حكومةٍ عالميّة، تهيمن على البابا وجميع الملوك الأوروبيّين على السواء، عن طريق متنوِّري بافاريا السيّئي السمعة (الذين اختلقهم اليسوعيّون أنفسهم ليدينوهم لاحقًا بوصفهم شيوعيّين) وحاولوا الإطاحة بأولئك الملوك الذين حظروا جماعة يسوع؛ كما أنَّ اليسوعيّين هم الذين أغرقوا التايتانيك لأنَّ تلك الكارثة سمحت لهم بتأسيس البنك الاحتياطيّ الفيدراليّ من خلال وساطة فرسان مالطة الذين تحت إمرتهم – وليس من قبيل الصدفة أن يموت في غرق التايتانيك ثلاثة يهود من أثرى أثرياء العالم: أستور وغوجينهايم وستراوس، الذين كانوا يعارضون تأسيس ذلك المصرف. وبالتعامل مع البنك الاحتياطيّ الفيدراليّ موَّلَ اليسوعيّون فيما بعد الحربين العالميّتين اللتين لم تجلبا إلّا المنافع لدولة الفاتيكان بكلّ وضوح. أمّا بخصوص اغتيال كينيدي (اليسوعيّون يتحكَّمون بالمخرج أوليفر ستون طبعًا)، فإذا أخذنا بالحسبان أنَّ السي آي إيه أيضًا نشأت كبرنامجٍ يسوعيٍّ مستوحى من التمارين الروحيّة للكاهن إغناطيوس دي لويولا، وأنَّ اليسوعيّين يديرونها من خلال الكي جي بي السوفييتيّة، سندرك أنَّ كينيدي اغتيل على يد الذين أغرقوا التايتانيك أنفسهم.

تستلهم كلُّ الجماعات النازيّة الجديدة والمعادية للساميّة فكرها والحال هذه من اليسوعيّين، كما أنَّ اليسوعيّين كانوا وراء نيكسون وكلينتون، واليسوعيّون هم الذين خطَّطوا لمذبحة مدينة أوكلاهوما، واليسوعيّون ألهموا الكاردينال سبيلمان الذي حرَّضَ على الحرب في فيتنام، التي حقَّقت للبنك الفيدراليّ اليسوعيّ أرباحًا بقيمة مئتين وعشرين مليون دولار. لا يفوتنا بطبيعة الحال إضافة حبريّة أوبوس داي الدعويّة إلى هذا الملفّ، التي يتحكَّم بها اليسوعيّون عبر فرسان مالطة.

سأتغاضى عن الكثير من المؤامرات الأخرى. ولكنْ لا تتساءلوا بعد الآن لماذا يقرأ الناس دان براون. ربّما كان وراءه اليسوعيّون.

2008

احزرها يا مُهرِّج

عادةً ما يستخدم السحرة والمتنبِّئون والمنجِّمون تعابير مبهمة تصلح لجميع الحالات. فإذا قيل لك: «أنت شخصٌ طيِّب، لكنَّك تُثبِتُ نفسك»، تروقك رؤية أنَّ هاتين الفضيلتين تنالان الاعتراف، مع أنَّهما متضاربتان. وهذا ما يُنعِش السحرة. ولكن ما الذي يقال حيال التكهُّنات الدقيقة التي تُكذِّبها الوقائع بلا استحياء (وبانتظام)؟

تعمل الـ CICAP «الهيئة الإيطاليّة لاستجلاء ادِّعاءات الخوارق والعلوم الزائفة»، بانتظامٍ وكلَّ عام، على رصد تنبّؤات المنجِّمين التي قيلت في العام السابق.

تنبَّأ لوتشانو سامبييترو، مُفسِّرُ نوستراداموس، باغتيالٍ دامٍ بحقّ البابا في العام 2009. وتكهَّنَ بيتر فان وود في مجلّة *أبيض على أسود* بحدوث زلازل (في العام 2009) في اليونان وكرواتيا وإندونيسيا وأمستردام، ولكن لا زلازل في إيطاليا لحسن الحظّ. أمَّا الساحر أوتيلما فتوقَّعَ لأوباما مخاطرَ على سلامته الشخصيّة في الخريف.

ونوَّهت العرَّافة تيودورا ستيفانوفا في موقع *كوتيديانانت* أنَّ الأمين العامّ القادم للناتو سيكون سولومون باسي. وأبلَغَ موقع *روزنامة باربانيرا* أنَّ الصين قد تجد حلًّا لمسألة التبت. وتنبَّأ جوني ترافيري المعروف بالساحر جوني (في *لاناتسيوني*) أنَّ أوباما سيتعرَّض لمحاولة اغتيال، وأضاف: «ستحدث عمليّات انتحار جماعيّ، وسينتحر حتّى قامةٌ تلفزيونيّة كبيرة وسيطغى على عالم الرياضة حِدادٌ مفجع».

أمّا بشأن إيطاليا، فقد توقَّعَ المنجِّم هوروس (في جمعة *لاريبوبليكا*) أنَّ الإصلاحات الهامّة التي أُعلِنَ عنها مرارًا ستدخل حيّز التنفيذ في نهاية العام. وبالنسبة إلى لويزا دي جولي (على قناة تي جي الإخباريّة، ميدياسيت أونلاين) ستتكلَّل بالنجاح الجهودُ التشريعيّةُ الراميةُ لإعادة الاستقرار بعد الاختلالات الاجتماعيّة خلال يونيو 2009. ويرى المنجِّم ماورو برفيتّي (في نجوم *الكالتشو*) أنَّ نادي تورينو سينجو من الهبوط إلى الدرجة الثانية. وبالنسبة إلى المنجِّمة ميريديث دوكين (في *لوماتان* أونلاين) لن تدوم قصَّة

الحبّ بين كارلا بروني وساركوزي بعد سبتمبر 2009 (لكنّها أوضحت لاحقًا: «لا يمكنني تأكيد ذلك، فأنا لستُ بصّارة». يا لحسن الحظّ).

تصوَّروا طبيبًا، كلَّما وصف دواءً مات مريض. أو أن يُعرَفَ عن محامٍ خسر كلَّ القضايا التي ترافَعَ فيها. لن يقصد أحدٌ أيًّا منهما بعد. أمّا مع المنجِّمين فالكلُّ قادرون على التحقُّق في نهاية العام من أنَّهم أخطأوا في جميع تنبُّؤاتهم تقريبًا، ومع هذا يستمرُّون بقراءة المنجِّمين ودفع مبالغ كبيرة للسحرة من أجل العام المقبل. فالناس بطبيعة الحال لا تريد أن تعرف، إنّما تريد إشباع غريزة التصديق، حتّى لو كانوا يُصدِّقون أشياء خاطئةً بما لا يدع مجالًا للشكّ. فماذا نقول؟ تعمي الآلهةُ بصيرةَ مَن يريد الضياع. وفي نهاية المطاف يعكس التعاملُ مع السحرة والمنجِّمين التعاملَ مع السياسيّين الذين يظهرون في التلفاز أيضًا.

يُوجِّه المنجِّمون لنا بين الحين والآخر ضربةً موجعةً طبعًا، لكنَّ أيًّا منّا بوسعه العمل في مهنتهم إذا استطاع صياغة تنبُّؤات كالتالية، ظهرت كلُّها في مكانٍ مّا: ارتفاع مؤشِّر العنف لدى الأصوليّين والإرهابيّين؛ مفاوضات متعثِّرة بين الإسرائيليّين والفلسطينيّين؛ فضائح في قطاع المناقصات في إيطاليا؛ يواصل السياسيُّ روكو بوتيليوني الخروجَ من الأزمة بحنكة في ظلّ ازدياد المصاعب؛ لن تكون الأمور سهلة على فلتروني؛ هناك مَن هو أسوأ وضعًا من ليولوكا أورلاندو؛ حريٌّ بأمبرتو بوسّي الخضوع لفحوصاتٍ طبّيّة؛ لا أحد بمقدوره خداع جوليو أندريوتّي ما عدا عجلة الزمن؛ لامبيرتو ديني مَن يعِش يرَ (هذه الطرفة لصاحبتها المنجِّمة بونومي). ويضع الساحر أوتيلما حبّة الكرز الختاميّة على الكعكة، بقوله: «ستتزايد صعوبات العثور على موقف لركن السيّارة».

خبرٌ أخير من الـ CICAP. العرّافة روزماري ألتيا، التي وضعت بعضَ التعساء في برنامج ماوريتسيو كوستانتزو باتّصالٍ مع أحبّائهم المتوفّين منذ أعوام، تعرّضت للاحتيال بقيمة مئتي ألف دولار على يد مديرة مكتبها دينيس م. هيل. فكيف عجزت عن التنبُّؤ بذلك؟ يُذكِّرنا الخبر بأحدوثة الرجل الذي طرق بابًا عُلِّقَت عليه لافتة «مُتنبِّئ». فجاءه صوتٌ من الداخل يسأل: «مَن الطارق؟».

2010

لا تنخدعوا بالمصادفات

كتب أحدهم أنَّ أعداء برلسكوني كانوا (وما زالوا) اثنين: الشيوعيّون والقضاة، وقد فاز في انتخابات المجالس المحلّيّة الأخيرة شيوعيٌّ (سابق) وقاضٍ (سابق). ولاحظ آخرون أنّه عندما كان كراكسي رئيسًا لمجلس الوزراء في العام 1991، وقد دعا الإيطاليّين للذهاب إلى البحر بدلًا من التوجُّه إلى صناديق الاقتراع، أحرز الاستفتاءُ على النظام الانتخابيّ نجاحًا لافتًا، ومنذئذٍ بدأ السقوطُ السياسيُّ لكراكسي. بإمكاننا أن نتابع: وصل برلسكوني إلى الحكم في مارس 1994، وفي نوفمبر فاض نهر البو والتانارو والكثير من روافدهما فاجتاحت المياه أقاليم كونيو وآستي وأليساندريا؛ عاد برلسكوني إلى الحكم في مايو 2008 وفي غضون عام حلَّ بنا الزلزال في أكويلا.

كلُّ هذه المصادفات مسلِّية لكنَّها لا تعني شيئًا البتّة (باستثناء المقاربة بين برلسكوني وكراكسي). ولطالما أذهلت لعبةُ المصادفات أشخاصًا مصابين بالبارانويا وهوس المؤامرة، إلّا أنّنا بالمصادفات ولا سيّما التواريخ نفعل ما يحلو لنا.

رُصِدَت مصادفاتٌ غزيرةٌ بما يخصُّ أحداث برجي مركز التجارة، وكان باولو أتّيفيسّيمو قبل سنوات قد أورد في *العلوم والخوارق* جملةً من التكهُّنات الرقميّة التي أجريت على الحادي عشر من سبتمبر. سأقتبس بعضها هنا: مدينة نيويورك بالإنكليزيّة (New York City) تتألّف من 11 حرفًا، وأفغانستان (Afghanistan) 11 حرفًا؛ رمزي يوسف (Ramsin Yuseb) الإرهابيُّ الذي توعَّدَ بتدمير البرجين، يتألّف اسمه من 11 حرفًا، وجورج بوش الابن (George W. Bush) من 11 حرفًا؛ البرجان المتشابهان يُشكِّلان الرقم 11، ونيويورك هي الولاية الحادية عشرة؛ الطائرة الأولى التي اصطدمت بالبرجين كانت الرحلة رقم 11، وهذه الرحلة تُقِلُّ 92 مسافرًا، 2+9 = 11؛ والرحلة رقم 77 التي اصطدمت أيضًا بالبرجين كان على متنها 65 مسافرًا، 5+6 = 11؛ وتاريخ 9/11 مطابقٌ لرقم الطوارئ الأمريكيّ 911. وحصيلة ضحايا الطائرات المختطفة كلِّها كان 254، وناتج الجمع يساوي 11؛ الحادي عشر من سبتمبر يوافق اليوم 254 من التقويم السنويّ وناتج الجمع يساوي 11.

ولكن لسوء الحظّ أنَّ نيويورك لا تساوي 11 حرفًا إلّا إذا أضيفت إليها كلمة «City»، وأنَّ أفغانستان تساوي 11 حرفًا بالإنكليزيّة لكنَّ الخاطفين لا ينحدرون من هناك إنّما من العربيّة السعوديّة ومصر ولبنان والإمارات العربيّة؛ وأنَّ (Ramsin Yuseb) يساوي 11 حرفًا، لكنَّ اللعبة تتعطَّل إذا قلنا «Yussef» عوضًا عن «Yuseb»؛ وأنَّ جورج بوش الابن لا يساوي 11 حرفًا إذا كتبنا اسمه بشكلٍ صحيح؛ وأنَّ البرجين يُشكِّلان 11 ولكن أيضًا 2 بالأرقام الرومانيّة؛ وأنَّ الرحلة 77 لم تضرب أيًّا من البرجين إنّما مبنى البنتاغون، ولم تكن تُقِلُّ 65 مسافرًا إنّما 59؛ وأنَّ حصيلة ضحايا الطائرات لم تكن 254 إنّما 265 وهكذا دواليك.

هل ثمّة مصادفاتٌ أخرى منتشرة في الإنترنت؟ أجل. لنكولن انتُخِبَ في الكونغرس عام 1846، وكينيدي عام 1946. لنكولن انتُخِبَ رئيسًا عام 1860، وكينيدي في العام 1960. فقدت زوجةُ كلٍّ منهما طفلًا أثناء إقامتها في البيت الأبيض. ولقي كلٌّ منهما مصرعه برصاصةٍ بالرأس على يد جنوبيٍّ في يوم جمعة. سكرتير لنكولن كان يدعى كينيدي، وسكرتير كينيدي كان يدعى لنكولن. خليفة لنكولن هو أندرو جونسون (المولود عام 1808)، وخليفة كينيدي هو ليندون جونسون (المولود عام 1908).

جون ويلكس بوث، الذي اغتال لنكولن، وُلِدَ عام 1839، في حين أنَّ ليي هارفي أوزوالد، قاتل كينيدي، وُلِدَ عام 1939. اغتيل لنكولن في مسرح فورد، واغتيل كينيدي بسيَّارة لنكولن من إنتاج شركة فورد.

اغتيل لنكولن في مسرح والتجأ قاتله للاختباء في متجر. أمّا قاتل كينيدي فقد أطلق النار من متجر والتجأ للاختباء في مسرح. وقُتِلَ كلٌّ من بوث وأوزوالد قبل المحاكمة على حدٍّ سواء.

وفي الختام، كَرَزَة (بذيئة) على الكعكة، سوى أنَّها لا تصلح إلّا باللغة الإنكليزيّة: قبل أسبوعٍ على اغتياله كان لنكولن «في» مونرو، ماريلاند. قبل أسبوعٍ على اغتياله كان كينيدي «في» مونرو، مارلين.

2011

مؤامرة على المؤامرات

يُعدُّ ماسّيمو بوليدورو واحدًا من أنشط المتعاونين مع الـ CICAP «الهيئة الإيطاليّة لاستجلاء ادّعاءات الخوارق والعلوم الزائفة»، ومجلّة *Query*، وقد أصدر عن منشورات بي امي كتابًا بعنوان *كشوفات، كتاب الأسرار والمؤامرات* (2014)، وهو واحدٌ من كتبه العديدة التي تتناول الأكاذيب والشائعات المنتشرة في وسائلِ الإعلام بل حتّى في رؤوس أشخاصٍ اعتدنا اعتبارهم مسؤولين. أتصوَّرُ أنَّ بوليدورو باختياره عنوانًا جذَّابًا كهذا إنّما يأمل اجتذاب المولعين بكلّ أنماط السرّ، أولئك الذين يؤكِّد بخصوصهم جون شيدويك، مُفكِّك طلاسم الكتابة الموكيانيّة المعروفة بالنظام الخطّيّ ب: «إنَّ الرغبة في كشف الأسرار مُتجذِّرة بعمقٍ في الطبيعة البشريّة: التعهُّد بالمشاركة في معارف سرّيّة محظورة على آخرين يُلهِب حتّى أقلَّ الأذهان فضولًا».

لا شكَّ أنَّ هنالك فرقًا كبيرًا بين فكّ طلاسم كتابةٍ كان لها معنى لبعض الناس في الماضي، وبين تصوُّرِ أنَّ الأمريكيّين لم يصعدوا إلى القمر، وأنَّ الحادي عشر من سبتمبر مؤامرة من تخطيط بوش أو اليهود، وأنَّ شيفرة دا فنشي موجودة حقًّا. إلّا أنَّ بوليدورو يتوجَّه بالضبط إلى المنتسبين إلى هذه الطائفة الثانية، وليس بغرض المضاربة (المشروعة) التجاريّة: بل إنَّ فصول كتابه الموجزة تعطي أملًا كبيرًا في البداية، وبنبرةٍ ودودة، لكنَّها في النهاية تحكي أنَّ المؤامرة حول اغتيال كينيدي، والنهاية الحقيقيّة لهتلر، وأسرار رين لو شاتو، وزواج يسوع بالمجدليّة، هي محض تلفيقات كانت كذلك وما زالت.

لماذا يُكتَبُ النجاح للتلفيقات؟ لأنَّها تعدنا بمعرفةٍ محظورةٍ على الآخرين ولأسبابٍ كثيرة أخرى يحيلها بوليدورو على دراسة بوبّر الشهيرة حول النظريّة الاجتماعيّة للمؤامرة. ويذكر أبحاث ريتشارد هوفستاتر، الذي ارتأى أنَّه لتفسير متعة المؤامرات يتعيَّن علينا تطبيق فروع الطبّ النفسيّ على الفكر الاجتماعيّ. نحن بصدد ظاهرتين من البارانويا. سوى أنَّ مريض البارانويا النفسانيّة يرى العالم بأسره متآمرًا عليه، بينما يظنُّ مريض البارانويا

الاجتماعيّة أنَّ عدوان القوى الخفيّة موجَّهٌ ضدَّ جماعته، أو أمَّته، أو دينه. ولعلّي أقول إنَّ مريض البارانويا الاجتماعيّة هو أخطر من مريض البارانويا النفسانيّة، ذلك أنَّه يجد ملايين من الأشخاص يشاركونه وساوسَهُ، ويتملَّكُه انطباعٌ بأنَّه يواجه المؤامرة بشكلٍ مُتجرِّدٍ عن المنفعة الشخصيّة. الأمر الذي يشرح كثيرًا من الأشياء التي تقع في العالم اليوم، علاوة على تلك الأكثر التي وقعت في الأمس.

ويأتي بوليدورو على ذكر مقتل بازوليني كذلك، حيث إنَّ المؤامرة تصيبنا بالهذيان لأنَّها تُخلِّصنا من عبء التزامنا بمواجهة الحقيقة. والحال أنَّ امتلاء العالم بمهووسين بنظريّة المؤامرة قد يجعلنا لا مبالين: إذا صدَّقَ أحدهم أنَّ الأمريكيّين لم يهبطوا على سطح القمر، فهو الخاسر. ولكن هناك دراساتٌ حديثة لدانيال جولي وكارين دوغلاس تخلُصُ إلى أنَّ «الإقبال على معلوماتٍ تُعزِّز نظريّة المؤامرة يُقلِّص القابليّة للانخراط في السياسة مقارنةً بالذين يُقبِلون على معلوماتٍ تدحض نظريّات المؤامرة». وبالفعل، إذا كنّا مقتنعين بأنَّ تاريخ العالم تتحكَّم بوجهته جماعاتٌ سرّيّة، فلنفترض المتنوِّرين جماعة بلدربرغ، الذين يعملون على إرساء نظامٍ عالميٍّ جديد، فما الذي بوسعي أنا فعله؟ سأستسلم، وأنكفئ على نفسي. لذا فإنَّ كلَّ نظريّة مؤامرة تهدف إلى اقتياد المخيِّلة العامّة نحو مخاطر خياليّة وذلك بإشغالها عن التهديدات الحقيقيّة. مثلما أوضح تشومسكي ذات مرّة، مُتصوِّرًا ما يشبه مؤامرةً لنظريّات المؤامرة، تفيد بأنَّ المنتفع الأكبر من الخرافات المتمحورة حول مؤامرةٍ مزعومة، هي المؤسّسات التي تسعى نظريّةُ المؤامرة إلى ضربها. ما يعني أنَّنا عندما نتخيَّل أنَّ بوش هو الذي أسقَطَ البرجين لتسويغ تدخُّله في العراق، نتراوح بين هلوساتٍ مختلفة، وننغمس بتحليل الاستراتيجيّات والأسباب الحقيقيّة التي تدخَّلَ على إثرها بوش في العراق، وتأثير المحافظين الجدد عليه وعلى سياسته.

وهذا ما يحثُّنا على الظنّ أنَّ الذي ينشر أنباءً عن تورُّط بوش بهجمات الحادي عشر من سبتمبر، هو بوش نفسه. لكنَّنا لسنا مهووسين بنظريّة المؤامرة إلى هذا الحدّ.

2014

عن وسائل الإعلام

التنويم الإذاعيّ

كنتُ أروي في مغلَّفٍ سابق عن الأحاسيس التي تراود فتىً، أثناء أمسيات الحرب، وهو يستمع إلى أغاني الراديو، وإذاعة لندن، والرسائل المشفَّرة التي تُوجَّهُ إلى المناضلين. لقد نُقِشَت تلك الذكريات في ذاكرتي، وما زالت هناك بكامل عنفوانها وسحرها. فهل سيحتفظ فتيان هذه الأيّام بذكرياتٍ عميقةٍ إلى ذلك الحدّ من نشرات الأخبار حول حرب الخليج، أو حرب كوسوفو؟

كنتُ أطرح تلك التساؤلات على نفسي في الأسبوع الماضي، حين استمعنا مجدَّدًا –خلال حفل الجوائز التلفزيونيّ بريكس إيطاليا– إلى مقاطع من برامج إذاعيّة بُثَّتْ في الأعوام السبعين الأخيرة. وجاءني الردُّ من تمييزٍ شهيرٍ كان قد قدَّمَهُ عالم الاجتماع مارشال ماكلوهان (الذي كان بالمناسبة سبَّاقًا لكثيرين ممَّن كتبوا عن الراديو، من بريخت إلى بنيامين، ومن باشلار إلى آرنهايم). يُميِّز ماكلوهان بين الإعلام الساخن والبارد. فالإعلام الساخن يشغل منك حاسَّةً واحدة، ولا يفسح لك المجال للتفاعل: يتمتَّع بقوّةٍ تنويميّة. والإعلام البارد يشغل منك عدَّة حواسّ، لكنَّه يسيطر عليك بطريقةٍ تجزيئيّة، ويطلب منك أن تتعاون لملء المادّة التي تلقَّيتَها ودمجها وإتمامها. وبذلك يعتبر ماكلوهان المحاضرةَ والفيلمَ إعلامًا ساخنًا، لأنَّك تتابع وأنت جالسٌ وبحالةٍ سلبيّة؛ بينما يرى في المناظرة أو السهرة التلفزيونيّة إعلامًا باردًا. الصورة الفوتوغرافيّة، العالية الدقّة، ساخنة؛ أمَّا القصَّة المصوَّرة، التي تُمثِّل الواقع بملامح تخطيطيّة، فهي باردة.

عندما بُثّت واحدةٌ من أولى التمثيليّات الإذاعيّة في تاريخ الراديو، دُعِيَ الجمهور للاستماع إليها تحت الظلام. أذكر بدوري أمسياتٍ معيَّنةً تُبَثُّ في أثنائها تمثيليّةٌ أسبوعيّة، كان والدي يجلس على الأريكة، ضمن إضاءةٍ خافتة، وتكاد أذنه تلتصق بسمّاعة المذياع، وينصت لمدّة ساعتين في صمتٍ مطبق. وكنتُ أقعد في حضنه، وأشكّلُ جزءًا من طقسٍ معيَّن، مع أنّي لم أكن أفهم الكثير من تلك الحلقات. هذا ما كانت عليه قوّةُ الراديو.

كان أدورنو من بين أوائل مَن اعترضوا على أنَّ الموسيقى، إذ تصلنا بوفرةٍ عبْر الراديو، تفقد وظيفتها الأشبه بالشعائريّة، لتغدو والحال هذه محض سلعة. لكنَّ أدورنو كان يفكّر بكيفيّة إفساد ذوق مُحِبٍّ للموسيقى، لا بكيفيّة نشأة مراهقٍ من خلال الموسيقى. أذكر كثافة الانغماس الذي كنتُ أتابع فيه الأنغام، عندما اكتشفتُ الموسيقى الكلاسيكيّة بفضل الراديو، وكيف كنتُ أتّبع إرشادات جريدة *راديوكورييري* لأطابق ذبذبات الإرسال في تلك اللحظات القصيرة، التي كانوا يُعِدُّون فيها معزوفةً بولنديّة لشوبان أو حتّى حركة واحدة من إحدى السمفونيّات.

أما يزال الراديو هكذا في يومنا هذا، وهل سيظلُّ كذلك في الغد؟ يزداد استخدام الراديو في عصرنا الحاليّ على أنّه مجرّد صوتٍ في الخلفيّة، فالتمثيليّة باتت تُحضَرُ على التلفاز، والموسيقى تُنزَّلُ من الإنترنت. لم يعد للراديو وظيفةٌ تنويميّة لمن يستمع إليه بالسيّارة (وهذا لحسن الحظّ، وإلّا اصطدم الجميع بالصهاريج على الطرقات): صار السائق يُغيِّر الموجات بين الحين والحين، كأنّه يتنقّل بين القنوات بجهاز التحكُّم عن بُعد، وذلك لأنَّ نطاق المحطّات الإذاعيّة لا يتعدّى عشرة كيلومترات وبالتالي ينبغي البحث عن محطّة جديدة. ولا نتابع سوى ثرثرة رجلٍ يتحدّث بأمورٍ ليس لها قيمة مع جيسيكا من بياتشنزا أو سالفاتوري من ميسّينا.

لحسن الحظّ أنَّ سعر الراديو في انخفاضٍ دائم وأنَّ شكله يصبح أجمل، صار يشبه الساموراي. وصحيحٌ أنّنا نستخدمه لتدوير الأقراص أو الأشرطة أكثر ممّا كنّا نُعوِّل عليه لاستكشاف أصواتٍ آتيةٍ من مدنٍ غامضة (مثلما كان يحدث في الماضي، على الموجات القصيرة) مثل تالين، ريغا، هيلفرسوم. ولكن لا مجال للنبوءات في تاريخ وسائل الإعلام. لعلَّ ابتكاراتٍ تكنولوجيّةً

حديثةً تعيد الراديو إلى قلب تجاربنا التي لا تُنسى، ومن يدري إذا كانت أجهزة الزينة المدهشة هذه لن تُوفِّر لنا أنماطًا جديدةً من «السخونة»، التي ما زلنا بلا أدنى فكرةٍ عنها.

2000

هل سنشتري عُلَبَ صمت؟

في إحدى زواياه الأخيرة في مجلّة *بانوراما* استشرف أدريانو سوفري أنّه من الأفضل أن ننسى الصمت، لأنَّ المستقبل سيكون للضجيج المضادّ، الضجيج المحبَّب، الذي من شأنه أن يطغى على الضجيج المنفِّر. تُذكِّر هذه الفكرة برواية *يأجوج* لجوزيبّي بابيني، إلّا أنَّ الوضع بات لا صلة له بالمستقبل: فهذا ما يقع في عصرنا الحاليّ أساسًا. خذوا موسيقى المطارات مثالًا، ناعمة ومهيمنة، لا هدف منها سوى التخفيف من حدّة ضجيج الطائرات. ولكنَّ إضافة ديسيبيل[1] لطيف على اثنين ديسيبيل غليظين، لا تساوي ديسيبيل ونصفاً إنّما ثلاثة ديسيبيل. الحلُّ أسوأ من المشكلة.

إنَّ الصمتَ موردٌ في طريقه إلى الزوال، حتّى من الأماكن المجهَّزة بأفضل التقنيّات. لا أعرف ما الذي يحدث في الأديرة التيبتيّة، لكنَّني وجدتُ نفسي في كنيسةٍ كبيرة بميلانو حيث دُعِيَ منشدون بارعون بموسيقى *الغوسبل*، وقد استطاعوا تدريجيًّا، وبمؤثِّراتٍ صوتيّة كالتي يستخدمونها في مراقص ريميني، إدخالَ المؤمنين بمشاركةٍ قد تكون روحانيّة، لكنَّها بحسب وحدة قياس الديسيبيل لا توحي إلّا بدوائر الجحيم. انصرفتُ عند حدٍّ معيَّن وأنا أغمغم: «لم يكن الربُّ في الزلزلة، لم يكن الربُّ في الزلزلة»[2] (ما يعني أنَّ الربَّ قد يكون في أيّ مكان، ولكن من الصعب العثور عليه في الفوضى).

كان جيلنا يرقص على أنغامٍ هامسةٍ يشدو بها فرانك سيناترا وبيرّي

1- الديسيبيل: وحدة قياس تُستَخدم في الصوتيّات والإلكترونيّات. والقصد هو أنَّ اللجوء إلى أصوات خفيفة للتغطية على أصوات ثقيلة، لن يُنقِصَ الضجيج إنَّما سيفاقمه. (المترجم).

2- سفر الملوك، 19 :11. (المترجم).

كومو؛ أمَّا هذا الجيل فيحتاج إلى حبوب إكستازي المهلوسة للصمود إزاء هذه المستويات الصوتيّة الصاخبة في أمسيات يوم السبت. يستمعون إلى الموسيقى في المصاعد، ويضعونها بسمَّاعات الأذن أثناء تجوالهم، ويسمعونها بالسيَّارة (مع هدير المحرِّك)، ويضعونها بالخلفيّة خلال أوقات عملهم بينما تقتحم ضجّةُ الزحامِ النافذةَ المفتوحة. وفي الفنادق الأمريكيّة لا وجود لغرفةٍ لا تعاني من ضوضاء السير المقلقة والمؤرِّقة. نرى حولنا أشخاصًا يفزعهم الصمت فيلجؤون للبحث عن الجلبة الصديقة في الخليويّ.

ربّما تتكيَّف الأجيال القادمة مع الضجيج بشكلٍ أفضل، ولكنْ وفقًا لما أعرفه عن تطوُّر الأنواع، يستغرق هذا النمط من التكيُّف آلاف السنوات في العادة، ومقابل نسبةٍ مئويّةٍ من الأفراد الذين يفلحون في التكيُّف، ستفنى الملايين منهم على الطريق. وبعد هذا الأحد الجميل 16 يناير، حيث تنقَّلَ الناس في المدن الكبرى بالأحصنة أو بالأحذية المزوَّدة بالعجلات، لاحظ جوفانّي رابوني على صفحات *الكورييري* كيف أنَّ المواطنين الذين يمشون في الشوارع يستمتعون بصمتٍ ساحرٍ ومستعادٍ على حين غرّة. صحيح. ولكن كم منهم نزل إلى الشوارع للاستمتاع بالصمت وكم منهم بقي متقوقعًا في بيته يشاهد التلفاز بأعلى صوت؟

يتَّجه الصمت ليصبح موردًا باهظ الثمن، وهو غير متاح فعليًّا إلّا لقلّةٍ من ميسوري الحال الذين بمقدورهم استملاك قصور في أحضان الطبيعة الخضراء، أو لرهبان الجبال الذين يفترشون العراء ويثملون بالصمت النقيّ في القمم الشواهق حتّى تذهبَ عقولهم، فيسقطون في شقوق المرتفعات، بحيث تتلوَّث المنطقة لاحقًا بأزيز مروحيّات المسعفين.

سنصل إلى تلك اللحظة حيث بوسع مَن لا يقاوم الضجَّة أن يشتري علبة صمت، أو أن يحجز ساعةً في غرفةٍ مُبطَّنةٍ كتلك التي سكنها بروست، بسعر تذكرة مقعد في مسرح لاسكالا. وكبصيص أمل، وبما أنَّ دهاء العقل لا ينضب، ألاحظ أنّه بمستطاع الجميع -ما عدا أولئك الذين يستخدمون الكمبيوتر لتنزيل موسيقى في منتهى الضجيج- أن ينعموا بالصمت قبالة الشاشات المشعّة تمامًا، ليلًا ونهارًا، وذلك بإلغاء الصوت بجهاز التحكُّم.

سيكون ثمن هذا الصمت هو رفض التواصل مع أمثالنا. ولكنَّ هذا بالضبط ما كان آباء البرّيّة يفعلونه.

2000

هنالك أَخَوان أكبران

في أواخر سبتمبر انعقد في فينيسيا مؤتمرٌ دوليّ حول «الـ*Privacy* الخصوصيّة». وألمحت النقاشاتُ غير مرَّة إلى برنامج تلفزيون الواقع *الأخ الأكبر*، لكنَّ السياسيّ والأكاديميّ ستيفانو رودوتا، الضامن لحماية البيانات الشخصيّة، نوَّهَ منذ البدء إلى أنَّ هذا البرنامج بحدّ ذاته لا ينتهك خصوصيّة أحد.

ما من شكٍّ في أنَّ البرنامج يُلهِب متعة التلصُّص الشهوانيّ لدى المتفرِّج، الذي يتلذَّذ برؤية بعض الأفراد خاضعين لوضعٍ غير طبيعيّ، وعليهم التظاهر بإبداء المودَّة المتبادلة في حين أنَّ واحدهم يقضي على الآخر عمليًّا. إلّا أنَّ الناس أشرارٌ بطبعهم، ولطالما استمتعوا برؤية الأسُودِ تنهش أشلاء المسيحيّين، وبرؤية المصارعين يدخلون الحلبات الرومانيّة وهم على معرفةٍ مسبقة بأنَّ بقاءهم أحياءً مُتعلِّقٌ بمقتل رفاقهم. وكم دفع الناس أموالًا للتجسُّس في الملاهي على تشوُّهات النساء البدينات، وفي السيرك على الأقزام الذين يُعنِّفهم المهرِّجُ المعطوب، وفي الميادين العامّة على تنفيذ حكم الإعدام بحقّ أحد المدانين. فإذا كان الأمر كذلك، بدا أنَّ برنامج *الأخ الأكبر* أرقى من الناحية الأخلاقيّة، ليس لأنَّ لا أحد يموت فيه، وأنَّ المشاركين في أسوأ الأحوال يجازفون بالتعرُّض لعطبٍ نفسيٍّ بسيط – ليس أخطر ممّا يعانيه الذي جاء بهم إلى البرنامج. فالمسيحيّون كانوا سيُفضِّلون البقاءَ للصلاة في سراديب الموتى؛ والمصارعون كانوا أسعَدَ لو أنَّهم من وجهاء روما؛ والأقزامُ لو أنَّ أبدانهم تضاهي رامبو؛ والنساءُ البديناتُ لو أنَّهنَّ يشبهن بريجيت باردو؛ والمدانُ بالإعدام لو أنَّه حظي بالعفو. أمّا المتنافسون في *الأخ الأكبر* فيشاركون بملء إرادتهم، وربّما كانوا مستعدّين حتّى لدفع مبلغٍ لمجرَّد الحصول على ما يعتبرونه قيمةً جوهريّة: الاستعراض العلنيّ والشهرة والظهور.

إنَّ الجانب المناقض لحسن التربية لبرنامج *الأخ الأكبر* يكمن في مكانٍ آخر، هو تمامًا في العنوان الذي وضعه أحدهم لهذه اللعبة. قد لا يعلم كثيرٌ من المتفرِّجين أنَّ الأخ الأكبر هو ترميزٌ من إبداع جورج أورويل في روايته «1984»: الأخ الأكبر هو ديكتاتور (يوحي اسمه بالأب الأصغر، أي ستالين) يستطيع بمفرده (أو بحلقة نومنكلاتورا ضيِّقة) مراقبة رعيّته كلِّها، لحظةً بلحظة، وحيثما كانوا. وضعٌ مريع، يُذكِّر بسجن البانوبتيكون الذي خطَّطَ له بنثام، حيث يتسنّى للسجَّانين مراقبة السجناء من دون أن يعرف هؤلاء أنّهم تحت المراقبة ولا متى.

في نموذج أورويل للأخ الأكبر، قلّةٌ قليلة تتجسَّس على الجميع. أمّا في نموذج الأخ الأكبر التلفزيونيّ، فبوسع الجميع التجسُّس على قلّةٍ قليلة. وهكذا نعتاد اعتبار برنامج *الأخ الأكبر* على أنّه شيءٌ ديمقراطيٌّ ومُسلٍ بدرجةٍ عالية. لكنَّنا بهذا الفعل نتناسى أنَّ خلف ظهرنا ونحن نشاهد البرنامج، يتجسَّس علينا الأخ الأكبر الحقيقيّ، الذي تنشغل بأمره المؤتمرات حول الخصوصيّة، والمكوَّن من عدّة جماعاتٍ سلطويّة تراقب متى ندخل إلى موقع إنترنت، ومتى ندفع ببطاقة الائتمان في أحد الفنادق، ومتى نشتري غرضًا مّا عبر البريد، ومتى نخضع لتشخيص مرضٍ في المستشفى، ومتى نتجوَّل في متجرٍ ضخمٍ مرصودٍ بدائرة تعقُّبٍ مغلقة. ومن المعلوم أنّه في حال عدم إخضاع هذه التطبيقات لمراقبة منتظمة، قد يراكم كلٌّ منّا خلف ظهره قدرًا هائلًا من البيانات الشخصيّة التي قد تجعلنا شفّافين بالمجمل، وتنزع منّا الحميميّة والخصوصيّة كلّيًّا.

بينما نشاهد *الأخ الأكبر* في التلفاز نكون في واقع الحال مثل شريكٍ تراوده الحيرة إزاء نزوةٍ بريئةٍ في إحدى الحانات، ولا يعلم أنَّ شريكه الآخر في الوقت ذاته يخونه على نحوٍ متعمَّد. فعنوان البرنامج، *الأخ الأكبر*، يساعدنا بهذا الشكل على الجهل، أو التجاهل، بأنَّ أحدًا مّا في تلك اللحظة نفسها يضحك من خلف ظهورنا.

2000

روبيرتا

روبيرتا والطبقة المتسلِّطة: مَن أراد تكوين فكرة عن برنامج *الأخ الأكبر* فليكتفِ بمتابعة حلقات مساء الخميس مرَّتين أو ثلاثًا، مثلما حدث لي، حيث تنحلُّ كلُّ العُقَد. أمّا ما تبقّى، فقد اتَّصلتُ بالإنترنت وشاهدتُ، بدقّةٍ منخفضة، رجلًا موشومًا، عاريًا إلّا من سرواله، يقلي بيضة بالمقلاة. صمدتُ قليلًا، ثمَّ انشغلتُ بما هو أفضل. ولكنْ بين الفترة والأخرى يتجمَّع فتاتُ النفسيّة الإيطاليّة المتوسِّطة بما قد يثير اهتمام علماء الاجتماع. خذ مثلًا حالةَ روبيرتا بيتا السيِّئة السمعة، الزاعقة والمتمادية بانفتاحها، التي أُقصِيَت من إيطاليا الموحَّدة، فاستحالت تلك الشقّة إلى مأتم.

في محاولاتها اليائسة لتجعل من نفسها شخصًا بغيضًا، تجرَّأت روبيرتا على تأكيد أنَّها متفوِّقة اجتماعيًّا على رفاقها، الجزَّارين في العموم، لأنَّها غالبًا ما تذهب للعشاء مع تجّار تُحَف. وكردَّة فعلٍ تعدَّت رفاقَها البؤساء لتشمل المتفرِّجين النشطين كذلك، اعتبروا أنَّها منتمية إلى الطبقة المتسلِّطة بما لا يقبل النقاش، ومن أجل ذلك عوقبت. لم يفكِّر أحدٌ أنَّ المنتمين إلى الطبقات المتسلِّطة هم ليسوا ممّن يذهبون للعشاء مع تجَّار التحف (إلّا إذا كنّا بصدد رئيس شركة كريستيز) إنّما أولئك الذين يستدعون تاجر التحف إلى بيوتهم لتفحُّص لوحةٍ لرافّايلّو بطول متر وعرض ثمانين سنتمترًا أو أيقونة روسيّة عائدة إلى القرن الحادي عشر.

المنتمون إلى تلك الطبقات المتسلِّطة هم الذين حبسوا روبيرتا وأصدقاءها، وقفلوا عليهم، في شقّةٍ يبدو أنَّ المحقِّق ديريك هو المسؤول عن أثاثها.

لماذا يروقنا أن يتعاطى الفنَّانون المخدِّرات: في الأسابيع الفائتة كتب أحدهم إلى عمود مونتانيلّي الثقافيّ في *الكورييري ديلا سيرا* يسأله لماذا يُروِّعنا كثيرًا إذا تعاطى درَّاجٌ أو لاعبُ كرة مادّةً مُنشِّطة، بينما نُفتَنُ دومًا بأن يُدخِّن بعض الفنّانين العظماء الأفيون أو أن يستدرجوا الوحيَ من خلال مهلوسات الإل إس دي أو الكوكايين. يبدو السؤال للوهلة الأولى منطقيًّا: إذا كنّا نحكم بعدم استحقاق الفوز لمن تجرَّعَ مضافات كيميائيّة، فلماذا تثير إعجابنا قصيدةٌ لا تتوالد من عبقريّة الشاعر إنّما من محلولٍ محقونٍ بالوريد؟

بكلّ الأحوال، يخفي هذا الفرق بين الصرامة الرياضيّة والتسامح الفنّيّ (حتّى عند الذين لا يفطنون لذلك) يخفي حقيقةً غائرة، ويشي لنا هذا التصرُّف الغريزيُّ للرأي العامّ بأكثر ممّا تُفسِّره أيُّ نظريّةٍ جماليّة بكثير. إنَّ الذي يؤجِّج إعجابنا في الممارسات الرياضيّة لا يكمن في أنَّ الكرة استقرَّت في الشباك ولا في أنَّ الدرَّاجة وصلت خطّ النهاية قبل درَّاجةٍ أخرى (لأنَّ الفيزياء تشرح هذه الظواهر بشكلٍ ممتاز). بل إنَّ ما يثير اهتمامنا هو الإعجاب بكائنٍ بشريٍّ يتمكَّن من فعل تلك الأشياء بمهارةٍ أفضل منّا. فإن جئنا بمدفعيّةٍ تقذف الكرات إلى المرمى، تفرَّغت كرة القدم من كلّ مضامينها.

أمّا في الفنون، فإنَّنا نعجب بالعمل على وجه الخصوص، ولا نعجب بالإمكانيّات الجسمانيّة والنفسانيّة لمَن أنجزه إلّا في مرحلةٍ لاحقة. حتّى إنّنا نُقدِّر أعمالًا رائعةً أَلَّفَها شخصٌ مشكوكٌ بأخلاقيّاته؛ ونتأثَّر إزاء آخيل وأوليس مع أنَّنا لسنا واثقين إذا ما كان لهوميروس نفسه وجودٌ أساسًا؛ وقد تُدهِشنا الكوميديا الإلهيّة أكثر لو قيل لنا إنَّ قردًا هو الذي نضَّدَها على الكمبيوتر عن طريق الخطأ؛ ونُصنِّف بين الروائع الفنّيّة أشياءً من صنع الطبيعة أو الصدفة، ونهتزُّ لرؤية الآثار، مع أنَّها لم تُبرَمَجْ -على شكلها هذا- من أيّ إنسانٍ استثنائيّ. فمقابل سحر العمل، نحن مستعدُّون للتساهل مع الطريقة التي أفضت بالفنَّان إلى إنجاز هذا العمل. ونتغاضى لبودلير عن كافّة فراديسه المصطنعة، شرط أن يعطينا *أزهار الشرّ*.

2000

مهمّة الرواية البوليسيّة

كان برنارد بنستوك باحثًا أمريكيًّا مُلمًّا بجيمس جويس، وعقب رحيله الباكر تبرَّعَت زوجتُه بمجموعته الجويسيّة للمدرسة العليا للمترجمين والمترجمين الفوريّين في فورلي. ثمّ أهدِيَت هذا العام مجموعةٌ أخرى له، تضمُّ قرابة سبعمئة كتاب، كلُّها من الأدب البوليسيّ. وبينما كنّا نؤبِّن الصديقَ في الأسبوع الماضي، تساءلنا لماذا نجد لدى مفكّرين ونقَّاد ودارسين بالعموم، ولعًا بالرواية البوليسيّة. يمكننا أن نفترض بالتأكيد أنَّ الملزَمين

بقراءة كتبٍ شاقّةٍ يطيب لهم الاسترخاء مساءً بقراءاتٍ مريحة. ولكن لِمَ كلُّ هذا التعلُّق؟ الأسباب، برأيي، ثلاثة.

السبب الأوَّل فلسفيٌّ بحت. جوهر الرواية البوليسيّة ميتافيزيقيٌّ بامتياز، وليس من قبيل الصدفة أن يوصف هذا الجنس الأدبيّ في اللغة الإنكليزيّة بـــ*whodunit*، أيْ: مَن فعل ذلك، وما كان السبب وراء كلِّ هذا؟ وقد طُرِحَت هذه المسألة أساسًا عند الفلاسفة ما قبل سقراط ولم نكفَّ قطّ عن طرحها. بل حتّى الطرق الخمس لإثبات وجود الربّ، التي درسناها عند القدّيس توما الإكويني، كانت بمنزلة رائعةٍ أدبيّة قوامها التقصّي البوليسيّ: بالأثر الذي نعثر عليه في عالم تجربتنا، وأنوفنا على الأرض ككلاب الكمأة، نتوصَّلُ إلى العتبة الأولى لتسلسل الأسباب والنتائج، أو إلى الدافع الأوَّل لكل الحركات...

سوى أنّنا نعرف مسبقًا (منذ كانط) أنَّه إذا كان البدء من النتيجة للوصول إلى السبب مشروعًا في عالم التجربة، فإنَّ المنهج تساوره الشكوك حين نبدأ من العالم صوب شيءٍ مّا هو خارج العالم. ومن هنا يأتي العزاء الميتافيزيقيّ العظيم الذي تؤمِّنه الرواية البوليسيّة، حيث إنَّ المسبِّبَ الأخير، والدافعَ الخفيَّ لكلّ الحركات، ليس خارج الرواية، إنّما في داخلها، ويُشكِّل جزءًا منها. وهكذا يؤمِّن لنا الأدب البوليسيّ كلَّ مساء العزاءَ الذي تحرم الميتافيزيقا كثيرين منه.

السبب الثاني علميّ. أثبت كثيرون أنَّ مناهج التحقيق المتَّبعة لدى شارلوك هولمز وسلالته مشابهةٌ إلى حدٍّ كبير لمناهج البحث، سواء أكانت في العلوم الطبيعيّة أم في تلك الإنسانيّة، حيث يراد العثور على المفتاح السرّيّ للنصّ، أو السلف الأكبر لسلسلةٍ من المخطوطات. إنَّ هذا الفعل، التكهُّنيّ في ظاهره فقط، يُطلِق عليه هولمز –المعروف بجهله التامّ في أغلب الأمور– تسمية الاستنتاج، وكان على خطأ، إذ إنَّ بيرس يُسمِّيه *الاستدلال*، وهو المنطق نفسه للفرضيّة عند بوبّر، مع بعض الفروقات.

وفي النهاية، السبب الأدبيّ. كلُّ نصٍّ يستوجب أن يُقرَأ على أحسن وجه مرَّتين: مرَّةً لمعرفة ما يقول، ومرَّةً لتقدير كيف يقوله (وبذا تكتمل المتعة

الجماليّة). الرواية البوليسيّة نموذجٌ (مُصغَّرٌ لكنَّه مُتطلِّب) لنصٍّ يدعوك ضمنيًّا أو علانيةً للنظر إلى الوراء حالما تكتشف هويَّةَ القاتل، وذلك إمّا لتفهم كيف اقتادك الكاتبُ لتكوين فرضيّاتٍ مغلوطة، وإمّا لتُقرِّرَ أنّه في نهاية المطاف لم يُخفِ عنك أيَّ شيء، سوى أنَّك أنت الذي أخفقتَ في النظر جيّدًا بخلاف نظرة المحقِّق.

إنَّها تجربةٌ قرائيّةٌ تمتعك وفي الوقت ذاته تؤمِّن لك عزاءً ميتافيزيقيًّا، هي أشبهُ بالدعوة للبحث، وأنموذجٌ استجوابيٌّ لأعمالٍ ذات ألغازٍ يصعب سبر أغوارها، لذا فالرواية البوليسيّة خير معين على مهمَّة المثقَّف.

2001

حلفاء بن لادن

يتَّسع الجدال، لا أقول حول الرقابة، بل حول حذر وسائل الإعلام، ليشمل الغرب بأسره. إلى أيّ مدىً يُعزِّز نشرُ الأخبار حملاتٍ دعائيّةً، أو يساهم حتّى في تعميم رسائل مشفَّرة يُطلِقها الإرهابيّون؟

يهيب البنتاغون بصحفيّين وقنواتٍ تلفزيونيّةٍ توخّي الحذر، وهذا بديهيّ، فما من جيشٍ في حالة حرب يودُّ أن تُعمَّمَ خططه أو نداءات أعدائه. لا تتمكَّن وسائل الإعلام، بعد اعتيادها حريَّةً مطلقة، من التكيُّف مع اقتصاد الحرب، التي كان مَن يُعمِّم خلالها (في الماضي) أخبارًا تُضعِفُ الأمن القوميّ، يُقتَل. من الصعب الخروج من هذه العقدة، لأنَّ مجتمعًا يعتمد على التواصل، أضف إليه الإنترنت، لم يعد فيه مكانٌ للرصانة والتحفُّظ.

المشكلة والحال هذه أعقد ممّا تبدو عليه. فما نُفِّذَ عملٌ إرهابيٌّ إلّا من أجل توجيه رسالةٍ معيَّنة (وهذه قصَّة قديمة)؛ رسالة تشيع الذعر بالضبط، أو زعزعة الاستقرار أو التوتُّر على الأقلّ. ولطالما كان الأمر كذلك حتّى مع الإرهابيّين الذين أصبحنا نُسمِّيهم «حِرَفيّين»، أولئك الذين كانوا في السابق يقتصرون على اغتيال فردٍ أو وضع عبوة ناسفة عند منعطف الطريق. لكنَّ الرسالة الإرهابيّة تُقوِّض الاستقرار حتّى لو كان أثرها متدنّيًا، أو كانت الضحيّة محدودة الشهرة. وتُقوِّض الاستقرار أكثر إذا كانت الضحيّة معروفةً ورمزًا لشيءٍ مّا.

انظروا النقلة النوعيّة التي حقَّقتها الألوية الحمراء، حيث انتقلت من اغتيال صحفيّين أو مستشارين لدى السلطة السياسيّة، مغمورين عند الجمهور العريض في المحصِّلة، إلى اختطاف ألدو مورو واحتجازه المبرح ثمَّ اغتياله.

والآن، ماذا كان غرض بن لادن من ضرب البرجين؟ خَلْقُ «أعظم عرضٍ في العالم»، لم يخطر في بال حتّى صانعي أفلام الكوارث، وإعطاء انطباعٍ بصريٍّ بالانقضاض على رموز القوّة الغربيّة نفسها، وإظهار إمكانيّة الإطاحة بأضخم صروح هذه القوّة. لم يتطلَّع بن لادن إلى قتل عددٍ معيَّنٍ من الضحايا (الذين صاروا قيمةً مضافة إلى أهدافه): كان مستعدًّا لقبول نصف أعداد الضحايا، شرط أن يتمَّ ضرب البرجين (فما بالك بأن ينهارا كلّيًّا). لم يكن يخوض حربًا تولي أهمّيّةً لعدد الأعداء المقتولين، إنّما كان بالضبط يُوجِّه رسالة إرهاب، وما الأهمّيّة فيها إلّا للصورة.

الآن، إن كان هدف بن لادن إحداث صدمة لدى الرأي العامّ العالميّ بتلك الصورة، فما الذي وقع؟ أرغِمَت وسائل الإعلام على نشر أخبارٍ عن الصورة، وهذا طبيعيّ. وبالطريقة نفسها أرغِمَت على نشر أخبارٍ عمّا تلا الصورة، والإسعاف، والحفريّات، وأفق مانهاتن المكلوم.

هل كانت وسائل الإعلام مرغمةً حقًّا على إعادة ذلك النبأ كلَّ يوم، وطيلة شهر على الأقلّ، بصورٍ وفيديوهات وحكايات شهود العيان المتكرِّرة التي لا تنتهي، بحيث تتجدَّدُ في أعين الجميع صورةُ ذلك الجرح؟ تصعب الإجابة على هذا السؤال. فالصحف بتلك الصور زادت من نسبة مبيعاتها، والقنوات التلفزيونيّة بتلك الفيديوهات المتكرِّرة زادت من نسبة مشاهداتها، وكان الجمهور نفسه يطالب بإعادة رؤية تلك المشاهد المريعة، إمّا لتأجيج غضبه الشخصيّ، وإمّا لسببٍ راجعٍ إلى ساديّةٍ غير واعية. ربّما كان من المستحيل التعامل مع الحدث بطريقةٍ مغايرة، كما أنَّ الانفعال الملتهب في الأيّام اللاحقة للحادي عشر من سبتمبر منع القنوات والصحافة في العالم بأسره عن التزام الرزانة، إذ لا أحد كان بوسعه أن يسكت طواعيةً، لئلا يخسر النقاط بموجب المنافسة.

والحال أنَّ وسائل الإعلام بهذه الطريقة أهدت بن لادن دعايةً مجانيّة تعادل مليارات الدولارات، بمعنى أنَّها عرضت يوميًّا الصورَ التي ابتدعها، وما كان قد ابتدعها إلّا ليراها الجميع: فالغربيّون سيستخلصون منها شعورًا بالضياع، وأتباعه الأصوليّون سيستخلصون منها سببًا للاعتزاز.

وفي أثناء ذلك، القضيّة مستمرّة وبن لادن يواصل جني الثمار بتكلفةٍ ضئيلة، إذا حسبنا أنَّ عدد ضحايا الجمرة الخبيثة عرضةٌ للتجاهل مقارنةً بعدد ضحايا البرجين، لكنَّه يُرهِبُ أكثر، لأنَّه يُشعِرُ الجميعَ بأنَّهم تحت وطأة التهديد، بمن فيهم أولئك الذين لا يسافرون بالطائرة والذين لا يسكنون بجوار رموز القوّة.

خلاصة القول إنَّ وسائل الإعلام، بينما كانت تُرَذِّلُ بن لادن، كانت أفضل حليفٍ له، وقد ربح الجولة الأولى بهذه الطريقة.

ولكي نُعزِّي أنفسنا إزاء الضياع الناجم عن هذا الوضع الذي يبدو مُتأزِّمًا، نذكر أنَّ الألوية الحمراء عندما رفعت السقف واغتالت مورو، كانت الرسالة صادمةً لدرجة أنَّها ارتدَّت على أصحابها: فعوضًا عن التفرقة المأمولة أسفرت عن تحالفٍ بين مختلف القوى السياسيّة، وتنديدٍ شعبيّ، فدخل الإرهابيّون مرحلة انحسار منذ ذلك الحين.

سيُحدِّد المستقبل ما إذا كان العرض الذي أخرجه بن لادن –تمامًا لأنَّه تجاوَزَ كلَّ الحدود وتمادى بما لا يُطاق– قد فتح مسارًا يطلق شارة البدء لهلاكه. في تلك الحالة ستكون وسائل الإعلام هي المنتصرة.

2001

الذهاب إلى المكان نفسه

لطالما قلنا إنَّنا نعيش في واقعٍ افتراضيٍّ على نطاقٍ واسع. بتنا نتعرَّف على العالم بوساطة التلفاز، الذي غالبًا ما لا ينقل العالمَ كما هو، إنَّما يعيد بناءه (فمثلًا يعيد بناء حرب الخليج على لقطاتٍ من الأرشيف) أو بالأحرى يعيد بناءه من نقطة الصفر (كبرنامج *الأخ الأكبر*). لا نرى من الواقع إلّا أطيافًا وهميّة أكثر فأكثر.

ورغم هذا لم يسافر الناس مطلقًا بقدر ما يسافرون في عصرنا الراهن: يزداد عدد الذين يخبرونني بأنَّهم زاروا أماكنَ أكتفي بالحلم بها حتّى هذه اللحظة -علمًا بأنّي رحّالةٌ مهووس، أو مسافرٌ محترف- في حين أنَّ أسفارَ آبائهم اقتصرت على مدينةٍ واحدة وقريبة بالمجمل. لم يعد هناك شواطئ بعيدة، أو مدنٌ منسيّة، مجهولة لدى الكثيرين، الذين يقضون أعياد الميلاد في كلكتا وشهر أغسطس في بولنيزيا. أليس لزامًا علينا إذًا اعتبارُ هذا الشغف السياحيّ طريقةً للهروب من الواقع الافتراضيّ لرؤية الشيء نفسه (*the Real Thing*)؟

صحيحٌ أنَّ السياحة تُعتَبر وسيلةً للإلهاء، لكنَّها تُجسِّد الشكلَ الذي يستعيد الناس من خلاله امتلاكهم للعالم. سوى أنَّ تجربة الرحلة في الماضي كانت حاسمة، وكان الناس يعودون مختلفين عمّا انطلقوا عليه، بينما تراهم الآن كالعائدين الذين لم تمسَّهم صدمةُ المكان الآخر ولو قليلًا. يعودون، ولا يفكِّرون إلّا في الإجازة القادمة، ولا يُحدِّثونك عن الضياء الذي صنع منهم أشخاصًا مختلفين.

يحدث ذلك ربّما لأنَّ أماكن الاستقطاب الواقعيّ تفعل ما بوسعها لتتشبَّهَ بأماكن الاستقطاب الافتراضيّ. يُحدِّثني خبيرٌ أنَّه ذات مرّة في السيرك أضاع نهاره في تنظيف الفيل وتجميله (لأنَّه فوضويٌّ وقذرٌ بطبيعته) وذلك لكي يبدو في المساء مماثلًا تمامًا للفيلة التي شاهدها المتفرِّجون في السينما أو بالصور. وكذلك المكان السياحيّ لا يطمح إلّا للتشبُّه بالصورة اللامعة التي أضفتها عليه وسائل الإعلام. وينبغي بطبيعة الحال أن يُقتاد السائحُ إلى الأماكن المتوافقة مع الافتراضيّ، لا أن يرى الأماكن الأخرى: بمعنى أنَّك تزور معابد وأسواق لا مشافي الجذام، وآثارًا مُعتَنى بها لا تلك التي نهبها نابشو القبور. وأحيانًا تُبنى أماكن استقطاب من الصفر، طبقًا للصورة التي أظهرتها وسائل الإعلام؛ وقد سمعنا جميعًا عن الزيارات السياحيّة إلى الطاحونة البيضاء المطابقة كلّيًّا للطاحونة التي تظهر في الإعلانات، دع عنك ديزني لاند، وفينيسيا التي أُنشِئَت في لاس فيغاس.

ولكن يحدث أيضًا أنَّ جميع الأماكن باتت تبتغي أن تتشابه فيما بينها، وهذا مردُّه ولو لمرَّةٍ واحدة إلى العولمة حقًّا. أفكِّر ببعض الأماكن الساحرة

في باريس مثل سان جيرمان، حيث تختفي المطاعم القديمة شيئًا فشيئًا، والمكتبات المظلَّلة، ودكاكين الحِرَفيّين العريقة، وتحلُّ محلَّها متاجرُ المصمِّمين العالميّين. وهي نفسها الموجودة في الجادّة الخامسة بنيويورك، ولندن، وميلانو. غدت الطرقات الرئيسة في المدن الكبرى يشابه بعضُها بعضًا، وتتوافر فيها المحلّات ذاتها.

قد يقول قائلٌ إنَّه على الرغم من أنَّ تلك المدن الكبرى تتَّجه لتصبح متطابقة، فإنَّها ما تزال تتمتَّع بمظهرها الفريد: فمدينةٌ فيها برج إيفل، وفي أخرى برج لندن، وفي الأخرى كاتدرائيّة ميلانو، وفي الأخرى كاتدرائيّة القدّيس بطرس. هذا صحيح، لكنَّنا نشهد رسوخ عادة إنارة الأبراج والكنائس والقلاع بأضواء احتفاليّة توحي بقوس قزح، ومن شأن هذه الأضواء إخفاء معالم البنيان العمرانيّ وراء الغلبة الإلكترونيّة، بحيث إنَّ الصروح العظمى كذلك تغدو عرضةً للتشابه جميعًا (بنظر السائح على الأقلّ) لأنَّها أصبحت جميعًا مجرَّد قاعدة لتعليق أضواء الزينة ذات الطابع العالميّ.

عندما سيصبح كلُّ شيء مشابهًا لكلّ شيء، لن نُقدِمَ بعدُ على السياحة بغية اكتشاف العالم الحقيقيّ، إنّما للعثور دومًا، أينما ذهبنا، على ما نعرفه مسبقًا، وهو ما كان بمستطاعنا أن نراه ونحن جالسون في بيوتنا قبالة التلفاز.

2001

هل ماندراكي بطلٌ إيطاليّ؟

جاء آرت سبيجلمان إلى ميلانو لتقديم مجموعته الثريّة من أغلفة *النيويوركر* الرائعة. أصبح سبيجلمان شهيرًا بفضل روايته المصوَّرة «موس»، حيث بيَّنَ أنَّه بوسع القصّة المصوَّرة التحدُّث عن الهولوكوست بقوّة ملحمةٍ عظيمة، وبإمكانها البقاء حاضرةً بالتعليق على أحداث زماننا بقصصٍ قادرة على مزج العصر الراهن والجدال الملتزم بتاريخ *الكوميكس* البعيد والمعاد النظر فيه بأسلوبٍ مُحبَّب. باختصار، إنّني أعتبره عبقريًّا.

قدم إلى بيتي لتناول الشراب فأريتُهُ مجموعتي الخاصّة عن القصص المصوَّرة من الزمن الخالي، بعضُها أصليٌّ ومستهلك وبعضُها منسوخٌ

وبصحّةٍ جيّدة. وقد ذُهِلَ برؤية أغلفة مجلّد نيربيني عن الرجل المقنَّع، ماندريك، شينو وفرانكو وغوردون. لا بسبب فلاش غوردون، الذي ظلَّ أسطورةً حتّى فيما وراء البحار، بل بسبب الثلاثة الآخرين. إذا أمسكتم بأيديكم قصّة جيّدة من الكوميكس الأمريكيّ وجدتم بالتأكيد إشارةً إلى الرجل المقنَّع (الفانتوم/ الشبح) ورفاقه، ولكنْ -حتّى بتصفُّح الإنترنت- ترون أنَّ الاستعادات العصريّة العظمى تتمحور حول السوبرمان وجماعة الأبطال الخارقين مثل الرجل العنكبوت، ويضاف إلى ذلك تحديثات بمنظورٍ ما بعد حداثيّ لباتمان أو إعادة اكتشاف (كما فعل سبيجلمان في إحدى قصصه الممتعة) الأصول الأقدم للبطل الخارق، ألا وهو رجل البلاستيك. حاولوا أن تبحثوا عن شينو وفرانكو (العنوان الأصليّ لهذه المجموعة بالمناسبة هو *Tim Tyler's Luck*): ستجدون إشارات كثيرة عن الفيلم الرديء أو الفيلم التلفزيونيّ المقتبس عنها (مثلما اقتُبِسَ مسلسلٌ في غاية التعاسة عن غوردون، وبات الآن من المتَّفق عليه اعتباره من التوافه)، ولكن من النادر ما يشار إلى المجموعة الأصليّة بعينها.

لذا يبدو، وفقًا لما قاله لي سبيجلمان، أنَّ الرجل المقنَّع ماندريك وأعوانه مشهورون في إيطاليا أكثر ممّا هي عليه الحال في ديارهم. سألني لماذا، فأعطيتُهُ تفسيري، وهو تفسيرٌ من شاهدٍ على التاريخ، واكَبَ نشأتهم ووصولهم إليه بترجماتٍ ركيكة وحافلة بالأخطاء النحويّة فورَ ظهورهم في أمريكا تقريبًا (كما أنَّ بعضًا من أغلفة مجلَّدات نيربيني تُعنونُه *ماندراكي*، ربّما إيذانًا بطَلْيَنَتِهِ). السبب أنَّه، مقارنةً بالكوميكس الفاشيّ (تكفي الإشارة إلى دِكْ الصاعقة، رومانو المقاتل، ومراهقي *الكوريري دي بيكّولي* الذين يحملون الحضارة إلى الحبشة أو يُنفِّذون عمليّاتٍ مدهشة لمؤازرة الكتائب الفرانكيّة في وجه الجمهوريّين الحمر الأوباش)، كان غوردون آتيًا ليكشف للفتية الإيطاليّين أنَّه من الممكن القتال في سبيل حرّيّة كوكب مونغو ضدَّ مستبدٍّ جائرٍ وسفَّاح مثل مينغ؛ وأنَّ الرجل المقنَّع لا يقاتل ضدَّ الأناس الملوَّنين إنّما في صفّهم، لإخضاع الأفَّاقين البيض؛ وأنَّ هناك وجودًا لإفريقيا الشاسعة التي يجوبها فصيلٌ للقبض على تجّار العاج؛ وأنَّ ثمّة أبطالًا لا يتجوَّلون بقمصانٍ سود بل ببدلة فراك وقبَّعة على غرار تلك التي يُسمِّيها

الفاشيُّ ستاراتشه «أنبوب المدفأة» وأشياء كثيرة أخرى؛ وأخيرًا الكشف عن حريّة الصحافة بوساطة وقائع ميكي ماوس الصحفيّ وذلك قبل وصول همفري بوغارت إلى شاشاتنا (ما بعد الحرب) ليقول على الهاتف: «إنَّها الصحافة، يا جميلة» (بالأصل: «This is the power of the press, baby, and there is nothing you can about it»). فهل تغرورق المقل بالدمع في هذا الزمان، إذا ما أُعلِنَ عن عودة ميكي ماوس مُقدِّم الأخبار التلفزيونيّ؟

ها هو إذًا، في تلك الأعوام المظلمة علَّمَنا الكوميكس الأمريكيّ شيئًا مّا وأثَّرَ في حياتنا، حتّى عند الراشدين. وبما أنَّنا نتحدَّث عن هذه الأمور، فاسمحوا لي بحركةٍ استباقيّة، أو نصيحة أتوجَّهُ بها إلى الصحف اليوميّة والأسبوعيّة والبرامج التلفزيونيّة: نحتفل كلَّ عام بذكرى مؤلِّف أو كتاب أو حدثٍ رائع. حسنًا، فلنُحضِّر أنفسنا (ولدينا من الوقت ستّة أشهر) للاحتفال بالذكرى السنويّة السبعين للعام المدهش 1934.

ففي يناير من ذلك العام، ظهرت في أمريكا المغامرة الأولى لفلاش غوردون، وبالمرفق جيم الأدغال، برسم ألكس ريموند. وبعد أسبوعين، ظهر العميل السرّيّ X-9 للرسَّام نفسه (والنصُّ من تأليف ديشيل هاميت!). في أكتوبر، صدرت في إيطاليا قصّة *المغامر*، بالمغامرة الأولى لغوردون، سوى أنَّ البطل لا يظهر على أنَّه لاعب بولو (فهذه برجوازيّةٌ مفرطة) بل نقيبٌ في الشرطة. ولا نغفل أنَّه في شهر مارس تظهر القصص المصوَّرة لما سنُسمِّيه في إيطاليا بوب ستار وإذاعة الفصيل، ولكن في يونيو يدخل على المشهد ماندريك من تأليف ليي فالك وفيل ديفيس، وفي أغسطس يصدر ليل أبنر لأل كاب (لن يصل إلى إيطاليا إلّا بعد الحرب). وفي سبتمبر يعلن والت ديزني عن إصدار دونالد دك: تلك البطّة ستتمُّ السبعين عامًا، هل تدركون؟ وفي أكتوبر يصدر *تيّري والقراصنة* لميلتون كانيف (سيظهر عندنا على استحياء في السنوات اللاحقة، على حلقات في مجلّدات يوفنتوس، بعنوان *في بحار الصين*). وفي العام نفسه يظهر في فرنسا *يوميّات ميكي*، وقصص ذلك الفأر بالفرنسيّة.

قولوا لي إنَّه لم يكن عامًا مهمًّا للحظاتنا النوستالجيّة.

2002

أخ بارع اجله

عندما كنتُ فتىً كان والدي يقول لي دومًا إنَّني، إذا أردتُ إتقان لفظ الأسماء الأجنبيّة، يتوجَّبُ عليَّ الإصغاء إلى المذيع في أخبار الإذاعة (يبدو لي أنَّ أشهرهم كان اسمه كريمر). تعلَّمتُ منه فقط أنَّ تشرتشل على سبيل المثال يُلفَظُ هكذا وليس «شيورشيل» كما كانوا يلفظونه في تلك الحقبة، حيث اللغة الوحيدة المعروفة نسبيًّا هي الفرنسيّة. أمّا لمعرفة الكتابة الصحيحة لاسم شخصيّة عامّة، أو مدينة، فيجب مطالعة الجرائد، الصفحة الثالثة خصوصًا.

ولكن الآن لا يستطيع أيُّ والدٍ أن يُلقِّن هذا الدرس المفيد لأبنائه، إذ غالبًا ما تُشوَّهُ الأسماء الأجنبيّة بشكلٍ مريع من قِبَلِ مذيعين في برامج موسيقيّة وإخباريّة (لا يوجد إعلانٌ واحدٌ عن حفلٍ موسيقيّ يُلفَظُ فيه اسم المايسترو بيير بوليه هكذا، إنّما «بيير بوليز»). دع عنك الجرائد، حيث غالبًا ما يُكتَبُ «باودولير»، و«سيمونه دي بوفواري».

يستفحل انحطاط هذا التقليد بسبب استخدام تعابير أجنبيّة حتّى عند انعدام الضرورة لها، وهناك مثالٌ مُتكرِّرٌ على هذا: *pole position* الذي من الممكن ترجمته على نحوٍ سليم بـ«المركز الأوّل» أو «الصدارة»، لكنَّ لفظه الخاطئ أدّى إلى *pool position* الذي -إن كان له وجودٌ في اللغة الإنكليزيّة- قد يعني شيئًا من قبيل موقع المسبح.

لكنَّ الطامَّة تقع حين يكون استعمال التعبير الأجنبيّ حتميًّا، وبذا ننتقل إلى طَلْيَنةٍ غريبةٍ جدًّا. لدينا مصطلحات أجنبيّة مُطَلْيَنة أساسًا، فنحن نقول السوربونة عوضًا عن السوربون، لكنَّنا قد نشعر بالحيرة إذا سمعنا مَن يقول «كلّيّة فرنسا» لأنَّنا نقول تمامًا: «كوليج دو فرانس». لكنَّ المصائب تنزل بنا مع أسماء الجامعات الأمريكيّة. ففي جرائدنا عادةً ما تُذكَرُ «Università di Harvard»، و«Università di Yale»، بينما هارفرد وييل هما من أسماء العَلَم، فتخيَّلوا أن نُسمّي جامعة بوكّوني بـ«Università di Bocconi» (أين تقع هذه المدينة الضاحكة؟)، أو أن نقول جامعة يولم[1] (تبدو أنَّها في ولاية

1- IULM: اختصار لـ«Istituto Universitario di Lingue Moderne»: المعهد الجامعيّ للغات الحديثة، ومقرُّه ميلانو. (المترجم).

بادن – فورتمبرغ)، أو «جامعة دي كاتوليكا» (كأنَّها تخوض منافسة شريفة مع جامعة غابتشي ماري).

منذ عدّة أيّامٍ فقط، قرأتُ في إحدى الصحف المهمّة، تقريرًا من مراسلها في أمريكا، يتحدَّث عن جامعة سوني SUNY. وهذا اختصارٌ لـ «State University of New York» (مثلما أنَّ CUNY اختصار لـ City University of New York). لذا إمّا أن نكتفي بكلمة سوني (ولكن قد لا يفهمها الإيطاليّون)، وإمّا أن نكتب «State University of New York»، فهذا هو اسم الجامعة وكنيتها، أو أن نترجمها إلى «جامعة ولاية نيويورك». ولكن لا يجدر بنا أن نُسمّي جامعة نيويورك بـ «New York University» (NYU) لأنَّها جامعة خاصّة اختارت أن يكون اسمها على اسم الولاية. لم أتحقَّق بعد ممّا إذا كان أحدهم قد قال «Università della Columbia»، لكنَّني لن أستغرب.

أهناك خشيةٌ من استخدام الاختصارات؟ لكنَّنا نكتب KGB ونلفظها «كي جي بي» بكلِّ أريحيّة، لأنَّ عائق اللغة يمنعنا من لفظ «*Komkitet Gosudarstvennoi Bezopasnosti*»، ولا نجرؤ على كتابة «لجنة أمن الدولة» التي لا يعرف أحدٌ ماهيَّتها. فلماذا إذًا لا نقول «Yale University»، التي يفهمها حتّى آخِرُ الأمّيّين؟

وجَّهتُ هذه الشكوى المتكرِّرة أخيرًا إلى مدير جريدةٍ كبيرة، حول فقدان مكتب التحرير لتلك القامة الجليلة، أي القيِّم على العمَّال في المطبعة، الذي كان يحفظ موسوعة ميلزي العالميّة عن ظهر قلب، ولا يترك مجالًا لظهور خطأ واحد. فجاء الجواب البديهيّ والمحزن بأنَّ المقال لا يصل مباشرةً من حاسوب الصحفيّ إلى المطبعة فورًا فحسب، إنّما قد تتجاوز الصحيفة بملحقاتها مئة صفحة، ولا يوجد أيُّ شخص قادر على مراجعة تلك الكمّيّة الضخمة سطرًا بسطر قبل منتصف الليل.

فإذًا يُحتَّمُ علينا أن نقرأ صحفًا تتضمَّن «أخطاء مطبعيّة» متعدّدة، مثل تلك الصفحة الأولى الأسطوريّة من العدد الأوَّل من *أصداء العالم*، الجريدة الشجاعة التي تظهر في ميكي *ماوس الصحفيّ*، بطرائف في نسختها الإيطاليّة من قبيل: «أخ بارع اجله».

لطالما كانت كتابة الأسماء الأجنبيّة بالشكل السليم أمرًا صعبًا بطبيعة الحال. ثمّة زميلٌ ألمانيٌّ مرموق يعرفني جيّدًا، كتب إليَّ دعوةً لحضور إحدى الفعاليّات، ووجَّهَها أخيرًا إلى «أومبيرتو إِكُّو». وأنا بدوري أصاب باختلاجٍ عضليٍّ كلّما تعيَّنَ عليَّ ذكر لوسيان غولدمان (Goldmann) أو إرفينغ غوفمان (Goffman)، إذ أتساءل أيٌّ منهما ينتهي اسمُهُ بنونٍ واحدة وأيٌّ منهما بنونين (مع أنَّهما كانا صديقين لي وغالبًا ما راسلتُهُما). ولكنَّني عندما أضطرّ، أتحقَّق عبر الإنترنت، أو ألجأ إلى موسوعة غارتزانتي المصغَّرة.

أمّا لماذا يتجنَّب الصحفيّون والمحرِّرون أنفسُهُم هذا الطقسَ الضروريَّ، فذلك يبقى لغزًا عصيًّا.

2003

مينكولبوب[1] والسُّرَّة

لا أعلم إن كان هذ *المغلَّف* سيصدر بالتزامن مع الجدل الحاصل حول إنشاء مدرسة لـ«فتيات الاستعراض» في نابولي، إلّا أنَّ الظاهرة تشمل بعض الاعتبارات التي من شأنها أن تبقى راهنة حتّى في المستقبل. إنَّ مهنة الاستعراض ليست فاحشة بالعموم، وبعض العارضات أصبحن إمّا مُقدِّماتٍ تلفزيونيّات أو نجمات سينمائيّات من العيار الوسط. ففي مجتمعٍ يسوده الاستعراض، من الطبيعيّ أن تُغرى فتاةٌ جميلة بسلك هذا الدرب.

ومع ذلك، فإنَّ تأسيس مدرسةٍ عموميّةٍ لتخريج العارضات يشبه إلى حدٍّ مّا تأسيسَ مدرسةٍ عموميّةٍ لتخريج الشعراء. فإذا أطلقنا دورةً لتدريس الشعر لمئة شخص، وإذا تدخَّلت العناية الإلهيّة، فليس من المستحيل أن يصبح واحدٌ من المشاركين شاعرًا بحقّ، ولكن من المؤكَّد أنَّ التسعة والتسعين الآخرين سيعيشون حياةً ملؤها الإحباط، ويكونون سبب اللعنة التي ستحلُّ على وظائف البنوك، ويُغرِقون دور النشر بمخطوطاتٍ تُرفَضُ باستمرار.

1- MinCulPop: اختصار لـ«Ministero della Cultura Popolare»: وزارة الثقافة الشعبيّة في النظام الفاشيّ، كانت وظيفتها تهيئة المجال لترويج البروباغاندا الفاشيّة. وغالبًا ما يُستَخدم الاختصار للاستهزاء. (المترجم).

مقارنةٌ غير ملائمة؟ فلنفترض أنَّ كلَّ شبكة تلفزيونيّة تبثُّ يوميًّا برنامجين يستخدمان عارضتين لكلٍّ منهما، بمجمل عشر شبكات كلَّ مساء (باستثناء البرامج المخصَّصة لبيع السّجّاد، حيث يصعب بلوغ النجاح حتّى بوظيفة العارضة) فبذلك نحصي أربعين عارضة يتوظّفن بالمساء الواحد. لا داعيَ لإحصاء مئتين وثمانين عارضة أسبوعيًّا، لأنَّ واحدًا من البرنامجين على الأقلّ يُبثُّ يوميًّا (يعني أنَّ العارضتين ذاتهما دومًا) ولذا نضرب عشرين بسبعة، زائداً العشرين عارضة الثابتات، والناتج سيكون مئة وستّين عارضة، اللواتي من المحتمل أنّهنَّ سيبقين بالخدمة عامًا شمسيًّا واحدًا على الأقلّ. فهل ستحظى المتخرِّجات من المدرسة بفرصٍ أكثر من الشعراء، لا أقصد أولئك الذين سيصبحون عظماء، إنّما على الأقلّ الذين ينشرون قصائدهم في مجلّاتٍ أدبيّة تتمتَّع بحظوةٍ لا بأس بها أو يصدرون كتيِّباتهم عند ناشرين مُتخصِّصين؟

ناهيك بأنَّ نجاح شاعرٍ مّا يستمرُّ طيلة حياته، في حين أنَّ نجاح عارضة يستغرق بضع سنوات لا أكثر. وفي النهاية، ونظرًا إلى أنّه ليست كلُّ المتخرِّجات من تلك المدرسة سيصبحن عارضات في برنامج «*Striscia la notizia*»، هنالك خطرٌ حقيقيٌّ في أنَّ معظمهنَّ ستنتهي بهنَّ الحال إلى العمالة اليدويَّة لدى تظاهراتٍ محلّيّة، ولن يُحقِّقن أحلام مجدهنّ.

صدر كتابٌ فرنسيٌّ ساخرٌ بعنوان *مبادئ نظريّة الفتاة الشابّة* (بولّاتي بورينغييري 2003)، لا يتناول مختلف العارضات فحسب إنّما الصبايا اللواتي ينصعن لأعراف الموضة بالعموم (كالسُّرَّة المكشوفة وأشياء من هذا القبيل) باعتبارهنَّ ضحايا مجتمعٍ يدفعهنَّ لبيع قوى الإغراء عوضًا عن قوى العمل، أفيون الشعوب الجديد. راجَعَ جامبييترو موغيني الكتاب على صفحات مجلّة *بانوراما*، مُبرِزًا احتقارًا فرِحًا بتأكيده أنَّ هذه التجلّيات تُشجِّع عمومًا على حلم الجمال الأنثويّ «الذي لا حياة من دونه»، وختم قائلًا: «شكرًا على وجودكنَّ، يا فتياتنا النرجسيّات المحبوبات». وبما أنّني لستُ عديم الحساسيّة تجاه جاذبيّة الجمال النسائيّ، باستطاعتي تفهُّمُ السلوى التي يستمدُّها موغيني من هذه الرؤى. ولكنّنا نستمدُّ السلوى

حتّى من رؤية مُصارِعَة ثيران، ومَن يبالي بالثور؟ المشكلة ليست موغيني، بل الفتيات.

لا يمكن لبعض البرامج أن تصمد لولا الجمال شبه العاري والتبختر بالأرداف؛ فيما هنالك أخرى كبرامج المسابقات التي أتابعها بكلّ سرور (أماديوس وسكوتّي) بإمكانها الاستغناء عن تلك العناصر والنجاح كلّيًّا حتّى من دون عارضة مبتسمة تظهر في النهاية بجانب المتسابقة المهزومة البائسة التي غالبًا ما تُجسِّدُ دونيّةً من حيث الجمال الفينوسيّ. وفي كلتا الحالتين، يتعيَّن حتّى على أشرس المعادين للنسويّة أن يقرَّ بأنَّنا بصدد وظيفةٍ تعكس تشيّؤ المرأة. كفانا ادّعاءً، لو أنَّهنَّ نساءٌ فاعلات لَكُنَّ هُنَّ اللواتي يطرحن السؤال، ولكان أماديوس سيظهر في النهاية عاريًا إلّا من سرواله. بيد أنَّ أماديوس الذَّكَر هو ضامن الفكر («لا يا سيّدتي، الإيبيكاكوانة ليست من زواحف أمريكا الوسطى!») في حين أنَّ الصبيَّة ما كانت لتُوضَعَ هناك إلّا ليكون رجلٌ مثل موغيني -مثلما أَقَرَّ بكلّ صراحة- ممتنًّا لوجودها.

إن لم يكن هذا دورًا يليق بالمرأة المتشيِّئة، فإنَّ المرأة المتشيِّئة الوحيدة هي العاهرة، المنخرطة في شبكة إتجارٍ جنسيٍّ حصرًا، أمّا بخصوص ما تبقّى فبإمكاننا أن ننام مطمئنّين. وفي حال كان الدور لائقًا، فإنَّ إنشاء مدرسة عموميّة جزئيًّا لتشجيع الفتيات على أن يصبحن نساءً مُتشيِّئات، لا تبدو لي فكرةً حسنة.

الاعتبار الأخير لغويٌّ بحت: لم يتساءل أحدٌ لماذا اختار المعدُّ أنطونيو ريتشي تسمية «Velina» لفتياته العارضات (اللواتي بالمناسبة يُجِدْنَ الرقص والتفوُّه ببعض النكات). الـ Velina هي الورق الشفّاف المعتمد للتواصل من قِبَلِ المينكولبوب «جهاز البروباغاندا لدى النظام الفاشيّ»، الذي كان يستعمله لإرسال التوجيهات والإيعازات إلى الصحف لتتحدَّثَ عن شيء وتتكتَّمَ عن شيء آخر. وبما أنَّ البرنامج قد نشأ بدافع المحاكاة الساخرة للوقائع التي تبثُّها نشرات الأخبار (ثمَّ غدا أكثر مصداقيّةً ممّا يسخر، لكنَّ هذا موضوعٌ مختلف)، فلا بدَّ أنَّ ريتشي ارتأى بهدف السخرية أن يطلق تسمية «Velina» على الفتاة التي تُلهِم مُقدِّمَ البرنامج. من هنا اتَّخذت التسمية

موطئًا، وباتت تُستَخدَم للدلالة على الأشرعة الصغيرة، باعتبار أنَّ Velina أيضًا هي تصغيرٌ لـ Vela/ الشراع.

كان الغرض من الـ Velina عند جهاز الدعاية الفاشيّ منْعَ الإيطاليّين من التفكير مليًّا. لا أقول إنَّ الـ Velina ذات السُّرَّة تؤدّي الغرض نفسه عمدًا، ولكنّي قد آخذ هذا التشابه بالحسبان.

2003

هل الجمهور يضرُّ بالتلفزيون؟

اتَّصل بي الزميل والصديق خورخي لوثانو من مدريد، وهو بروفيسور السيمياء ونظريّة التواصل في جامعة كمبلوتنسي بمدريد. قال لي: «هل رأيتَ ما الذي حدث عندنا؟ إنَّه تأكيدٌ لكلّ ما كتبتموه في الستّينات. إنّني الآن أُقرِئُ طلّابي ذلك البيان الذي وضعتَه مع باولو فابري وبيير باولو جليولي في بيروجا عام 1965؛ ومداخلتك في نيويورك عام 1957 حول حرب العصابات السيميائيّة[1]؛ ودراستك المعنونة «هل الجمهور يضرُّ بالتلفزيون؟» عام 1973. كلُّ ما يحدث الآن عندنا كان مكتوبًا فيها».

يُسَرُّ المرءُ بالتعريف به على أنَّه نبيّ، لكنَّني لفتُّ انتباه لوثانو إلى أنَّنا في تلك الآونة لم نكن نطرح النبوءات: كنّا نُسلِّط الضوء على خطوط الاتّجاه الموجودة في الواقع منذ ذلك الحين. حسنًا، حسنًا –قال لي خورخي– لكنَّ الوحيدين الذين لم يقرأوا تلك الأشياء هم السياسيّون تمامًا. هذا وارد. حقيقة الأمر هي كما يلي: في أعوام الستّينات تلك ومطالع السبعينات، كان يقال في مقرَّراتٍ مختلفة إنَّ التلفزيون (ووسائل الإعلام كافّةً) هو بلا شكّ أداةٌ خارقة القوّة وقادرة على التحكُّم بما كانت تُسمَّى آنذاك بـ «الرسائل»، وبتحليل تلك الرسائل تتَّضح استطاعتها على التأثير في آراء المستخدمين بل حتّى على تكوين الضمائر. ومن جهةٍ أخرى كان من الملحوظ أنَّ ما كانت الرسائل

1- ابتكر أمبرتو إيكو هذا المصطلح، مجازيًّا، للدلالة على المقاومة التي بوسع الجمهور إبداؤها في وجه التلفزيون، حيث كانت تتحكَّم بوسائل الإعلام جهةٌ واحدةٌ هي الدولة في معظم الأحيان. (المترجم).

تتقصَّد قوله لم يكن بالضرورة ما كان الجمهور يقرأه. والأمثلة البسيطة التي كنّا نطرحها: صورة لمرور قطيعٍ من الأبقار «تُقرَأ» بطريقةٍ معيَّنة من قِبَلِ جزَّارٍ أوروبيّ، تختلف كليًّا عن طريقة طفلٍ هنديّ؛ دعاية سيَّارة الجاغوار تُلهِب الرغبة عند متفرِّج ميسور الحال، ومشاعر الخيبة عند المُعدَم. باختصار، تروم الرسالةُ صنعَ تأثيراتٍ معيَّنة لكنَّها قد تصطدم بأوضاعٍ محلّيّة، وميولٍ نفسيّةٍ أخرى، ورغبات، ومخاوف، وقد ينجم عنها تأثير الكيد المرتدّ.

هذا ما حدث في إسبانيا. كانت الرسائل الحكوميّة تريد أن تقول: «ثقوا بنا، العمليّة من صنيعة منظَّمة إيتا»، ولكنْ لأنَّ تلك الرسائل كانت لحوحةً وجازمةً إلى ذلك الحدّ، قرأها معظم المستخدمين كالتالي: «أخشى أن أقول إنَّها من تدبير القاعدة». وهنا أُقْحِمَت الظاهرة الثانية، التي عُرِّفَتْ في تلك الحقبة بـ«حرب العصابات السيميائيّة». كنّا نقول: مَن لديه التحكُّم بشبكة البثّ، لن يجلس في المقعد الأوَّل أمام الكاميرات، إنّما سيجلس على النحو الأمثل في المقعد الأوَّل قبالة كلّ تلفاز.

بعبارةٍ أخرى، كان ينبغي لحرب العصابات السيميائيّة أن تتشكَّل من سلسلةٍ من التدخُّلات الجارية لا عند منبع الرسالة، بل عند مصبِّها، لتحثَّ المستخدمين على التناقش حول الرسالة، وعلى انتقادها، وعلى عدم تلقّيها سلبيًّا. وكانت «حرب العصابات» هذه في أعوام الستّينات فكرةً قائمةً على عالمٍ ما يزال قديمًا، لتُطبَّقَ من خلال توزيع المناشير، وإقامة «منتدى التلفزيون» على غرار منتدى السينما، وإجراء مداخلات خاطفة في المقاهي حيث كان معظم الناس يجتمعون حول التلفاز الوحيد في الحيِّ بأسره. في حين أنَّ ما أعطى زخمًا وفاعليّةً مغايرة في إسبانيا، هو أنّنا نعيش في عصر الإنترنت والهواتف الجوَّالة. بحيث إنَّ «حرب العصابات» الحاليّة لا تُنظِّمها النخبة والناشطون في مجالٍ مّا، ولا حتّى قاماتٌ ألمعيّون، إنّما تطوَّرت عفويًّا، بما يشبه القيل عن قال، وعبْر تواتر المعلومات من لسانٍ إلى لسان، وتناقلها من مواطنٍ إلى مواطن.

يقول لي لوثانو إنَّ ما أوقَعَ حكومة أثنار في مأزق هو تدفُّق سيلٍ جارفٍ من الاتّصالات الخاصّة التي اتَّخذت أبعاد ظاهرةٍ جماعيّة؛ تحرَّكَ الناس، كانوا يتابعون التلفزيون ويطالعون الجرائد لكنَّ كلًّا منهم في الوقت نفسه

كان يتواصل مع الآخرين ويتساءل إذا كان ما قيل قد وقع فعلًا. وقد ساعد الإنترنت حتّى على مطالعة الصحافة الأجنبيّة، ما سمح بإجراء المقارنات بين الأنباء، والنقاش حولها. وفي غضون ساعات تشكَّلَ رأيٌ عامٌّ لا يفكِّر ولا يقول ما عزم التلفزيون على إرغام الناس على أن يفكِّروا به ويقولوه. كانت تلك ظاهرةً تاريخيّة، ردَّدَ لوثانو على مسمعي، باستطاعة الجمهور فعلًا إلحاق الضرر بالتلفزيون. لعلّه كان يلمح إلى هتاف «لن يمرُّوا!»

كنت أشير منذ أسابيع في إحدى المناقشات، إلى أنّه إذا كان التلفزيون خاضعًا لسيطرة سيّدٍ أوحد، فمن الممكن القيام بحملة انتخابيّة عبر رجال اليافطات الذين يجوبون الطرقات مرتدين يافطاتٍ ضخمة ليرووا على الناس ما لا يقوله التلفزيون لهم، ولم أكن حينذاك أقدِّم اقتراحًا مسلّيًا. كنت أفكِّر حقًّا بالقنوات البديلة التي لا حصر لها والتي يضعها عالم التواصل تحت تصرُّفنا: بإمكاننا الاحتجاج على معلومةٍ مُدبَّرة، وذلك عن طريق الرسائل النصّيّة بالجوّال، بدلًا من الاقتصار على إرسال كلمة «أحبّك».

وإزاء حماسة صديقي أجبتُهُ أنَّ وسائل التواصل البديلة عندنا لم تتطوَّر بعد، نظرًا إلى أنّنا نمارس السياسة (لأنّها سياسةٌ، ومأساة) باحتلال الملاعب وإيقاف مباراة، ولأنَّ الفاعلين المحتملين لحرب عصابات سيميائيّة عندنا منشغلون بإلحاق الضرر بعضهم ببعض عوضًا عن الإضرار بالتلفزيون. ورغم هذا لا بدَّ من التمعُّن بالدرس الإسبانيّ.

2004

الشاهد على نفسه

عندما يقول الإشهار إنَّ المنتَجَ الفلانيَّ هو الأفضل بين جميع المنتجات، لا يطالب أن يُصدِّقه الناس بالتأكيد. ما يهمُّ هو أن يُحدِّدَ الناسُ المنتَجَ، بحيث يعرفونه حين يصادفونه في المتجر. فإذا كان الإشهار لا يطالب بالتصديق، فما الحاجة إلى *الشاهد*، أي الشخصيّة الشهيرة التي تظهر في الإعلان لتضمن جودة المنتَج؟ لا بدَّ أن يكون حضورها تأكيدًا وإن ظاهريًّا على أنَّ حتّى هذا الشخص اللطيف و/ أو المعتَمد يوصي بالغرض، ولا بدَّ

أن يكون الأمر مقنعًا على وجه الخصوص إذا كان الشاهد منتميًا إلى المجال التقنيّ-البضائعيّ الذي ينتمي إليه المنتَج (لاعب كرة القدم الشهير يبدو ذا مصداقيّةٍ كبرى إن شهد على حذاءٍ رياضيٍّ أكثر من شهادته على مياهٍ معدنيّة).

لكنَّ ما يكثر حدوثه اليوم هو أن يشهد لاعب الكرة على المياه المعدنيّة، ومن جهةٍ أخرى تعرف الناس حقَّ المعرفة أنَّ الشاهد (إلّا إذا كان القصد من مشاركته نداءً إلى المنفعة العامّة) يتقاضى أجورًا طائلة، لذا فإنَّ شهادته ليست بالضرورة منوطةً بالحماس للمنتَج بعينه. والحقيقة هي أنَّه ليس من المطلوب أن يُصدِّق الجمهور حسن نيّة الشاهد. يكفي أن يجذب الناس بحضوره، وأن تحصل الرسالة على نسبة مشاهدات عالية.

في الإعلانات الأمريكيّة، أي قبلنا، نشأت صورة الشاهد «الداخليّ»: ضمانة جودة المنتَج لا تأتي من الخارج (من مُمثِّل، أو عالم، أو رياضيّ) إنّما من المنتِجِ نفسه (كما لو أنَّه يقول: «إن كان هذا الشيء ينتجه واحدٌ مثلي، وأنا مثلكم، فجديرٌ بكم أن تثقوا به»). لكنَّ تطبيق الفكرة خطير: سأتجنَّب تسمية أناسٍ معيَّنين وما ينجم عنها من شكاوى، لكنّي أذكر أنّي رأيتُ فيديو لمنتِجٍ ذي وجهٍ مُنفِّرٍ حتّى إنّني تساءلتُ إن كنتُ سأشتري من عنده سيَّارةً مستعملة.

ولتلافي هذه الخطورة، تذكَّرَ بعضُهم أنَّ الجمهور قد ينجذب حتّى إلى شخصيّات مغرية لا تنحدر من الحياة الحقيقيّة إنّما من خلق الدعاية نفسها (ميغان جيل على سبيل المثال)، ولذا من الممكن إظهار منتِجٍ «افتراضيّ»، أي مُمثِّلٌ يضمن أن يكون المُنتِجَ، الذي يضمن بدوره نفسَهُ ومُنتَجَهُ. وقد أعطى جيرّي سكوتّي النسخة الساخرة لهذا التطبيق (التي لعب فيها على تشابهٍ محظوظ بين الأسماء) إذ قدَّمَ إشهارًا لماركة الرزّ سكوتّي، مُتحدِّثًا مع الدكتور سكوتّي الشبحيّ، لكنَّه يوحي بأنَّ لهذا الرزّ كلَّ المزايا الحسنة لسكوتّي المرئيّ لا مزايا سكوتّي الخفيّ.

والآن نتحدَّث عن السيّد جوفانّي رانا. مَن هو السيّد رانا؟ مُنتِج مكرونة، وقد غدا شهيرًا لأنَّه قدَّمَ إشهارًا بصريًّا لمكرونته شخصيًّا. يُمثِّل السيّد رانا الحالة النموذجيّة لما يجوز تسميته «الشاهد المشهود»، لا بل الشاهد الذي

يشهد على نفسه، لأنَّه بظهوره في الفيديو يشهد على أنَّه السيّد رانا، هذا من جهة؛ ومن الجهة الأخرى، وبما أنَّه كذلك، يشهد على جودة منتجات رانا. فهل ضامن مكرونة رانا هو السيّد رانا الحقيقيّ أم مُمثِّلٌ يؤدِّي دوره؟ لا أعتقد أنَّ الجمهور يتساءل عن ذلك: فالسيّد رانا الظاهر على شاشة التلفاز لم يعد شخصًا آتيًا من الحياة الحقيقيّة، إنّما شخصيّة من الخيال الإعلانيّ.

والآن أرى في التلفاز إشهارًا لشيءٍ مّا (ليس مكرونة، يبدو لي مُتعلِّقًا بالهواتف)، ويظهر فيه السيّد رانا ذاته بصفة الشاهد. أعتقد أنَّنا إزاء أمرٍ جديد بالمطلق. إذ إنَّ الخيالَ الإعلانيَّ آ تدخله شخصيّةٌ منحدرةٌ من الخيال الإعلانيّ ب، أو بالأصحّ: الإعلان آ يستقدم بصفة الشاهد شخصيّةً كانت في الإعلان ب تشهد على نفسها؛ يمكننا أن نقول (بتأويل فلسفة الاقتصاديّ بييرو سرافا) إنَّ إنتاجًا دعائيًّا قد حدَثَ عن طريق الدعاية. كما لو أنَّ ميكي ماوس يظهر ليضمن أنَّ الذئب ألبرتو موجودٌ بالفعل، أو العكس بالعكس.

في كلّ هذه المسألة لا يتَّضح إلّا أمرٌ واحد: صُدِمتُ من دخول السيّد رانا الإشكاليّ هذا إلى الميدان، ومن اقتحام خيالٍ إعلانيٍّ لخيالٍ إعلانيٍّ مختلف (مثلما حدث في فيلم *هيلزابوبين*، أثناء حفلةٍ راقصة، يدهمها هنودٌ خيَّالة خارجون عن طريق الخطأ من فيلمٍ آخر)، لم أعد أذكر ما الذي كان الإشهار المذكور يُروِّجه. ومن جهةٍ أخرى لسنا بصدد ظاهرة غير مسبوقة: يحدث دائمًا أنَّنا إذا شاهدنا إسكيتش جذَّابًا وخالدًا، نتذكَّر الموقف المضحك وليس المنتَج المراد تسويقه.

وهذا لأنَّ علامة المنتَج، لكي تغدو خالدةً في الذاكرة، تحتاج إلى أن تُشكِّل جزءًا من الطرفة الختاميّة، المجدية والخالدة. خذوا مثالًا عبارة «لا مارتيني، لا حفلة»، والطفل الذي يخطئ في لفظ اسم مرتديلا سيمنتال، والإشهار الكلاسيكيّ للمُحقِّق روك [الأصلع] الذي يقول: «أنا أيضًا اقترفتُ خطأً، لم أستخدم مُلمِّع الشعر ليناتي في حياتي!».

لماذا يعمد بعض المعلنين (وبعض المتعهِّدين تحديدًا) إلى الانتحار بالتفريط بخلود العلامة، حبًّا بالطرفة؟ أعترف أنَّني لم أتمكَّن بعد من حلّ هذا اللغز.

2005

أعطنا اليوم جريمتنا كفاف يومنا

أعتقد أنَّ الإعصار الذي دمَّرَ نيو أورلينز لو لم يجد فيها أرضًا محفورة، مُمهَّدة، مجروفة، منزوعة الغابات، منهوبة، لكانت عواقبه أقلّ إضرارًا. أرى أنَّنا جميعًا موافقون على هذا. لكنَّ الجدال يبدأ من أنَّه إذا هبَّ إعصارٌ هنا وضرب تسونامي هناك فهذا عائدٌ إلى الاحتباس الحراريّ الذي يعانيه الكوكب. أوضِّح على الفور أنَّني، على الرغم من كوني لستُ القيّمَ على المعرفة العلميّة بهذا الشأن، مقتنعٌ بأنَّ تغيُّرات الظروف المناخيّة الكثيرة تُسبِّبُ ظواهرَ ما كان لها أن تقع لو أنَّنا أعطينا مصير كوكبنا جُلَّ اهتمامنا، لذا فإنَّني أؤيِّد بروتوكول كيوتو. لكنّي أعتقد كذلك أنَّ الزوابع والعواصف والأعاصير لطالما كانت موجودة، وإلّا ما كنّا لنحصل على صفحاتٍ رائعةٍ كتبها كونراد أو أفلام شيِّقة كُرِّسَت لهذه البلايا.

لذا أغامر إن قلتُ إنَّ العصور المنقضية شهدت كوارث طبيعيّة مُروِّعة، ذهب ضحيّتها عشرات الآلاف من البشر، ولعلَّها وقعت في ذات المسافة الزمنيّة (الضيِّقة جدًّا) المتخلِّلة بين التسونامي الآسيويّ والكاترينا الأمريكيّ. سمعنا عن بعضها؛ وقد تمخَّضَ بعضُها عن أدبٍ أيضًا، مثلما حدث مع زلازل بومبي ولشبونة، وشاعت عن بعضها الآخر أنباءٌ رهيبةٌ وتفتقر إلى الدقّة، مثل ثوران بركان كاراكاتوا، ولكن في نهاية المطاف أرى أنَّه من الجائز الافتراض أنَّ عشرات ومئات الكوارث الطبيعيّة الأخرى اكتسحت شطآنًا وحصدت شعوبًا بعيدة في حين كنّا منشغلين بأمورٍ مختلفة كلّيًّا. يحدث إذًا في هذا العالم المُعولَم أن تفعل سرعةُ تناقل المعلومة فعلَها بحيث إنّنا نصبح على دراية (مباشرة) بأيّ واقعةٍ مأساويّة تضرب أبعد زوايا الكوكب، فيتشكَّلُ لدينا انطباعٌ أنَّ زماننا هذا يشهد كوارث طبيعيّة أكثر ممّا شهده أيُّ زمانٍ سالف.

على سبيل المثال، أعتقد أنَّ متابعًا معتدلًا للتلفزيون يتساءل: أيُّ فيروسٍ غامضٍ هذا الذي يجعل الأمَّهات حاليًّا يُقدِمنَ على قتل أطفالهنّ. وهنا يصعب إلقاء اللائمة على ثقب الأوزون. لا بدَّ أنَّ وراء الأمر شيئًا مّا. وبالفعل، هنالك شيءٌ مّا، لكنَّه أمام الأمر، لا وراءه، بمعنى أنَّه ليس سرًّا

وليس خافيًا. الحال أنَّ قتل الأطفال لطالما كان موجودًا، على مرِّ العصور، وكان رياضةً ممارسةً على نطاقٍ واسع، فالإغريق كانوا يذهبون إلى المسرح للبكاء على ميديا التي كما يعلم الجميع قتلت أبناءها قبل آلاف السنوات، لا لشيء إلّا نكايةً بزوجها. لكن ما يطمئننا هو أنَّ نسبة تلك النساء القاتلات من أصل ستّة مليار نسمة من سكّان هذا الكوكب، كانت دائمًا ملتصقة بأصفارٍ كثيرة على الجهة اليسرى، لذا فلنحاول ألّا ننظر بعين الريبة إلى كلّ سيّدةٍ تمرّ بجانبنا وهي تدفع عربة أطفال.

ورغم ذلك، فمَن يشاهد نشرةً من نشرات أخبارنا يتملّكه انطباعٌ بأنّنا نعيش في إحدى حلقات الجحيم حيث لا تقتل الأمّهات أطفالهنّ يوميًا فحسب، بل يُطلِقُ المراهقون النار، والأجانب يسرقون، والرعاة يقطعون الآذان، والآباء يعدمون العائلة بأسرها رشقًا بالرصاص، والساديّون يحقنون قوارير المياه المعدنيّة بمُطهِّر الكلور، والأحفاد الودودون يُمزِّقون أعمامهم إربًا. كلُّ ما سبق حقيقيٌّ بطبيعة الحال، لكنّه طبيعيٌّ من منظورٍ إحصائيّ، وبالطبع لم يعد أحدٌ يذكر السنوات الهانئة والمسالمة التي نعمنا بها في أعقاب الحرب، عندما كانت المُصبِّنة تغلي جيرانها، ورينا فورت تُهشِّم رؤوس أبناء عشيقها بدقِّ المطرقة، والكونتيسة بيلّانتاني تُسبِّب الإزعاج في عشاء الشخصيّات المهمّة للغاية على وقع الرصاص.

الآن، إن كان من الطبيعيّ «تقريبًا» أن تقتل أمٌّ طفلها بين الحين والحين، فهذا يؤدّي إلى اعتبار تطاير أشلاء الأمريكيّين والعراقيّين كلَّ يوم أمرًا أقلّ طبيعيّة. وهذا على الرغم من أنّنا نعرف كلَّ شيء عن الأطفال المقتولين، والقليل القليل عن أعداد الموتى الراشدين. ذلك أنَّ الصحف الجادّة كانت في الماضي تُسخِّر بعض الصفحات لأزمات السياسة، والاقتصاد، والثقافة، وأخرى لسوق البورصة، والإعلانات الاقتصاديّة، وصفحة الوفيات التي كانت تُشكِّلُ القراءة الأحَبَّ لأمّهاتنا، ومِن ثَمَّ -إلّا إذا كان هناك قضايا كبرى- تُخصِّص بعض الصفحات الداخليّة فقط لصحافة الجريمة. لا بل إنّهم في السابق كانوا يوجزون الموضوع أكثر من اليوم، حتّى إنَّ القرّاء المتعطِّشين للدماء كان يتوجَّبُ عليهم اقتناء منشوراتٍ

مُتخصِّصة مثل كريمين - بحيث إنَّ الصحف، حَرِيٌّ أن نُذكِّر أنفسنا، كانت تترك النميمة التلفزيونيّة لمجلّاتٍ صغيرة مزوَّدة برسومات ومتوافرة لدى الحلّاقين.

أمّا اليوم فنشراتنا الإخباريّة، بعد تعريجٍ موفَّقٍ على أخبار الحروب، والمجازر، والهجمات الإرهابيّة وما شابه، وبعد التطرُّق الحذر إلى بعض الشائعات حول السياسة الراهنة -من دون إصابة المتفرِّجين بالهلع- تبدأ متتالية الجرائم، ومقتل *الأمـ-أختـ-زوجـ-أخـ-أبـ-طفل*، والسلب، والسطو، وإطلاق الرصاص. وحرصًا على ألّا يُفوِّتَ المشاهد شيئًا، يبدو أنَّ أحداق السماء تنفتح كلَّ يوم على مناطقنا فتمطر مثلما لم تمطر من قبل، ليصبح الطوفان العظيم مقارنةً بهذه الأمطار الغزيرة مجرَّد عطلٍ هيدروليكيٍّ بسيط.

هنا تحديدًا فإن وراء الأمر، بل أمامه، شيئًا مّا. ارتأى مديرو نشرات النياغارا لدينا اعتماد خيار *الكريمين*، لعدم رغبتهم بالمجازفة كثيرًا بأخبارٍ خطيرة من الناحية السياسيّة والاقتصاديّة. فالمتتاليات الجميلة لرؤوس مبتورة على وقع البلطة تؤدِّب الناس جيّدًا وتطرد أفكارًا غير مستحبّة من رؤوسهم.

2005

ربّما كان أجاممنون أسوأ من بوش

جلستُ في القطار أقرأ الصحيفة فإذا بسيِّدٍ في جواري يفتح نقاشًا: «أرأيتَ في أيّ زمانٍ نعيش؟ لا بدَّ أنَّك قرأتَ اليوم عن ذاك الذي قتل زوجته الحامل. وماذا عن الرجلين اللذين ارتكبا مجزرةً بعائلة جيرانهما قبل شهر، لا لشيء سوى لأنَّهم كانوا قد رفعوا صوت الراديو قليلًا؟ وتلك العاهرة من رومانيا التي غرست مظلّةً في عين فتاةٍ تشاجرت معها من أجل سببٍ تافه؟ وكم من الأمَّهات في الآونة الأخيرة قتلن أبناءهنّ؟ والرجل الذي ذبح ابنته (لا داعي للسؤال، إنَّه أجنبيٌّ ومسلمٌ علاوةً على ذلك) لمنعها من الزواج بمسيحيّ؟ وإذا عدنا بالزمن قليلًا، ألا تذكر الفتاة التي من نوڤي إذ قتلت أمَّها

وشقيقها الأصغر؟ وماذا عن الذين خطفوا طفل جارهم ثمَّ قتلوه لأنَّه كان يبكي؟ فما الذي يحدث في هذا الزمان؟»

لفتُّ انتباهه إلى أنَّه لم يُخبَرْ بكلّ شيء بطبيعة الحال. فلو أنَّه أمعن في قراءة ما قرأتُه أنا (في الإنترنت ربّما) لَعَلِمَ أنَّ القائمة لا تتوقَّف عند ذلك الحدّ.

هل قرأتَ عمّا وقع في بياتشنزا؟ فكَّرَ سيّدٌ يدعى مينيني باستمالة مَن سيضمن له نجاح مشروعه، فأقدَمَ على تسليم ابنته له، وهو على درايةٍ تامّة بأنَّ الرجل بلا ضمير وأنَّه سيذيقها شتّى صنوف العذاب، ثمَّ غادر بطمأنينة كأنَّه البابا في رحلة عمل. وفي الأثناء يتدخَّل شابٌّ وسيمٌ وواعد، يدعى إجيدي، ينتهز غياب الزوج ويُكرِّس نفسه لمؤاساة السيّدة مينيني، ويغدو عشيقها، ويساكنها ويستغلّها مادّيًّا. وعندما يعود السيّد مينيني من سفره، يقتله إجيدي بمعاونة السيّدة. يلصقان التهمة بأحدٍ مّا، ويظهران في الجنّاز بمُقلٍ باكية. لكنَّ نجل مينيني يدرك الملعوب، فيعود من الخارج حيث كان يدرس بمنحة تبادلٍ طلّابيّ (إرازموس)، ويقتل إجيدي. لا يُشفى غلُّهُ فيقتل أمَّه أيضًا (وبالمناسبة، أنقذته شقيقته إذ قدَّمَت أدلّةً زائفة للمُحقِّقين). ياه ما هذا، ما هذا! – تنهَّدَ السيّد في القطار.

والسيّدة ميدي من مولفيتّا؟ هجرها زوجها، فعزمت على الانتقام منه، فقتلت أبناءه لأنَّه كان مُتعلِّقًا أشدَّ التعلُّق بهم. «ما عاد هناك دينٌ فعلًا، قتلت أبناءها فلذات كبدها لإغضاب زوجها» تأسَّى صاحبي «هل هؤلاء أمّهات؟ إنّني ألقي اللوم على أثر التلفزيون وتلك البرامج العنيفة التي يعدُّها الشيوعيّون».

ازددتُ إصرارًا. لعلَّ السيّد لا يعلم عن واقعة كروني من ساتورنيا الذي لستُ أذكر إن كان السبب مقترنًا بالورثة أو شيءٍ آخر، بتر خصيتي أبيه، هذا أوّلًا. ومن ثَمَّ ولأنَّه لا يريد ذُرّيّة، وقد يكون محقًّا نظرًا إلى ما فعله هو نفسه بوالده، أرغم زوجته على الإجهاض والتهَمَ الأجنّة المسكينة. فيقول السيّد: «ربّما كان منتسبًا إلى طائفة شيطانيّة، وربّما كان في صغره يرمي الصخور من على جسور الطريق السريع، وربّما كان أهالي بلدته قاطبةً يعتبرونه شخصًا

صالحًا. ولكنَّ هذا طبيعيّ، طالما أنَّ الجريدة التي تقرأها حضرتك تُشجِّع على الإجهاض وزواج الشواذّ...»

ولكن لاحِظْ -قلتُ له- أنَّ معظم الجرائم الجنسيّة تُرتَكَبُ اليومَ في داخل النواة العائليّة. لا بدَّ أنَّك سمعتَ عن المدعو لاي من باتّيباليا، الذي قُتِلَ على يد ابنه، ثمَّ جامَعَ الابنُ أمَّه حتّى ما عادت تحتمل الوضع فانتحرت. وفي بلدةٍ بالجوار قتل الأخوان تييستي أخاهما غير الشقيق لأسبابٍ منفعيّة، ثمَّ غدا أحدهما عشيقًا لزوجة الثاني الذي عزم على الانتقام فقتل أبناء الأوَّل، وشوى لحمهم وقدَّمَهم طعامًا لأخيه، الذي ابتلع اللحم من دون أن يعرف ماذا أكل.

يا يسوع، يا يسوع -صاح مخاطبي- هل هؤلاء إيطاليّون أم أجانب؟ لا، سأشرح لك. غششتُ قليلًا بالأسماء والأماكن. كانوا يونانيّين جميعًا، ولم أقرأ تلك القصص في الجريدة إنّما في قاموس الأساطير. السيّد مينيني هو أجاممنون الذي قدَّمَ ابنته قربانًا للآلهة عقب انتصاره في الحملة على طروادة، والشابّ إجيدي الذي قتله لاحقًا هو إيجيستيس، والزوجة الخائنة هي كليمينيسترا، التي تُقتَلُ على يد ابنها أوريست. والسيّدة ميدي هي ميديا، والسيّد كروني هو كرونوس، يُسمِّيه الرومان ساتورن، والسيّد لاي هو لايوس الذي قتله أوديب، والزوجة التي تقترف سِفاح القربى هي جوكاستا، وفي النهاية الأخوان تييستي هما ثيتيس آكِلُ الأبناء، وأخوه أتريوس. وهؤلاء هم شخصيّات الأساطير التي أسَّست حضارتنا، وليس زواج قدموس وهرمونيا فقط.

بيد أنَّ هذه القصص حينذاك كان يُكتَبُ فيها مسرحيّات تراجيديّة وملاحم شعريّة من حينٍ لآخر، في حين أنَّ الصحف اليوم مُتيقِّظة لكلِّ قطرة دم لتملأ منها صفحتين أو ثلاثًا. ناهيك بأنَّنا نبلغ اليوم ستّة مليار نسمة، بينما كانت شعوب العالم المعروف حينذاك لا تتعدّى عشرات الملايين، وبناءً على كلِّ الحسابات ينتج أنَّهم كانوا يقتلون بعضهم بعضًا أكثر ممّا عليه الحال في هذه الأيّام. في الحياة اليوميّة على الأقلّ، باستثناء الحروب. وربّما كان أجاممنون أسوأ حتّى من بوش.

2007

معًا لإزالة أسماء الشوارع

لا بأس أن يخلو الصيف، ولا سيّما منتصف أغسطس، من أخبارٍ كثيرة تستحقُّ النقاش، ما عدا بعض المذابح في جورجيا، التي تطغى عليها أخبار الأولمبياد، لكنّي ذُهِلتُ في هذه الأسابيع من استعادة موضوعٍ أجرؤ على وصفه بالأبديّ. عاد الجدال في مكانٍ مّا حول مَن أراد تسمية شارعٍ باسم شخصيّةٍ متصالحة مع الفاشيّة، أو شخصيّاتٍ هي موضع خلاف مثل بيتّينو كراكسي، أو إزالة أسماء شوارع أخرى، ربّما في مقاطعة رومانيا حيث يُصدَم المرء بمروره في بعض المدن الصغيرة من كثرة الشوارع التي تحمل اسم كارلو ماركس أو لينين. أصبح الأمر لا يطاق بصراحة، ولا توجد إلّا طريقة وحيدة للخروج منه: سَنُّ قانونٍ يمنع تسمية الشوارع باسم مَن لم تمرّ على رحيله مئة عام على الأقلّ.

وبقانون المئة عام بالطبع، باستثناء كارلو ماركس، سيكون في العام 2045 مَن يطالب بتسمية شارعٍ على اسم بينيتو موسوليني، ولكن صبرًا، فأحفادنا الذين ستناهز أعمارهم الأربعين حينها (كي لا نضع أبناء أحفادنا احتمالًا واردًا) ستكون أفكارهم حول تلك الشخصيّة مُشوَّشة. فاليوم يتمشّى المؤمنون الكاثوليك من أبناء روما بكلّ سكينة في شارع كولا دي رينتزو، وهم لا يعلمون أنَّه لم يحظَ بما يشبه حادثة ساحة لوريتو فحسب، إنّما كان الذين سمَّوا ذلك الشارع المهمَّ باسمه ماسونيّين ما بعد يقظويّين، نكايةً بالبابا[1].

كما أنَّه ينبغي الأخذ بعين الاعتبار، احترامًا لأناسٍ راحلين على الأقلّ، أنَّ تسمية شارعٍ باسم أحدهم هي أسهل طريقةٍ لإدانته بالنسيان العامّ والمجهوليّة المدويّة. باستثناء حالاتٍ نادرة، مثل غاريبالدي أو كافور، لا أحد يعرف منَ هي الشخصيّات التي تُسمَّى بأسمائها الساحات أو الطرقات – وإن عُرِفُ ذلك، فسوف تغدو الشخصيّة في الذاكرة الجمعيّة مجرَّد شارعٍ وكفى. ففي المدينة مسقط رأسي، مشيتُ آلاف المرّات بشارع سكيڤانا دون

1- كولا دي رينتزو (1313–1354) حاول إقامة ما يشبه النظام البلديّ في مدينة روما التي كانت آنذاك خاضعةً كلّيًّا لسلطة البابا. وإذ غدا طاغية وانقلب عليه الشعب، قُتِلَ وسُحِلَت جثّته إلى ميدانٍ عامّ وعُلِّقَت فيه للتمثيل بها. وقد تعرَّضت جثّة موسوليني للمصير نفسه تقريبًا، إذ عُلِّقَت في ساحة لوريتو بمدينة ميلانو. (المترجم).

أن أتساءل مَن يكون (أعرف الآن فقط أنَّه كان مؤرِّخ حوليّات في القرن التاسع عشر)، وشارع كينّا (أعرف الآن مَن يكون لأنَّ لديَّ في بيتي كتابه عن أسقفيّات أليسّاندريا، 1785)، دع عنك لورنتزو بورغونتسيو (علمتُ متأخِّرًا من الإنترنت أنَّه كان مؤلِّف *الأنباء التاريخيّة على شرف ماريّا قدّيسة الغاب*، إصدار الناشر فيميركاتي 1738).

أتحدّى معظم الميلانيّين الذين يسكنون في شوارع أنديغاري، كوزاني، بيلي، ميلتزي ديريل إن كانوا يعرفون مَن هم هؤلاء الذين استحقّوا هذا التكريم؛ لعلَّ أحدهم قد درس وعرف أنَّ فرانشسكو ميلتزي ديريل كان نائب رئيس الجمهوريّة الإيطاليّة في العهد البونابرتيّ، لكنّي أظنُّ أنَّ المشاة العاديّين -إلّا إذا كان بينهم مؤرِّخٌ محترف- لا يعرفون إلّا النزر اليسير عن عائلات كوزاني وبيلي وأنديغاري (وبالمناسبة هناك مَن يؤيّد انحدار هذا الاسم من الكلمة السلتيّة «*andeghee*» التي تعني «الزعرور البرّيّ»).

لا تُسبِّب أسماء المواقع *لعن الذاكرة*[1] فحسب، بل قد يحدث أن يرتبط اسمُ شخصٍ صالحٍ بشارعٍ سيّئ الصيت، وأن يُستَخدَم اسم تعيس الحظّ هذا لدلالاتٍ فاحشة إلى أبد الآبدين. بالعودة إلى مدينة تورينو إبّان دراستي الجامعيّة، أذكر أنَّ شارع كالاندرا كان مقرونًا بشكلٍ خبيث (ويدعو للأسف بالنسبة إلى المحافظين) ببيتين للدعارة، في حين كان المراد تكريم إدواردو كالاندرا، الكاتب الجليل الذي عاش في القرن التاسع عشر. وساحة بودوني، التي كانت تشريفًا لطبّاعٍ عظيم، ومقرًّا لمعهد موسيقى مميَّز، كانت حينذاك ملتقىً ليليًّا للمثليّين (تخيَّلوا أثر هذه الكلمة في الخمسينات)، لذا كان اسم ذلك المكان يدلُّ كنايةً (كنايةً عن الموصوف) على مَن ينغمس في متعٍ بعيدة جدًّا عن الطباعة والموسيقى الكلاسيكيّة. ناهيك بأنَّ الماخور المفضَّل لدى العساكر كان يقع في شارع كيارافالّي، ولا أحد كان باستطاعته لفظ اسم كنيسة الدير الشهيرة والنبيلة تلك من دون أن يلمز.

1- «*damnatio memoriae*» قانون رومانيّ لمعاقبة الخونة وأعداء مجلس الشيوخ، وينطوي على محو أيّ أثرٍ للمدانين وإزالة أسمائهم من الوثائق والسجلّات الرسميّة، كما لو أنّهم لم يأتوا إلى هذه الدنيا. (المترجم).

ولكن بماذا نُسمّي الشوارع إذًا؟ حريٌّ بالمدراء الإقليميّين أن يُفعِّلوا مُخيِّلاتهم، إذ لا يمكنهم انتقاء أسماء مثل بوتّاي أو إيتالو بالبو عشوائيًّا من قوائم العائلات، إنّما عليهم أن يعيدوا اكتشاف، ما أدراني، سالفينو ديلي أرماتي، الذي من الوارد أنَّه مخترع النظّارة، أو بيتيتزيا غوتساديني (المرأة الأولى التي علَّمَت في جامعة بولونيا خلال القرون الوسطى)، أو مثلًا أوغوتشوني ديلا فاجولا وفاتشينو كاني، اللذين لم يكونا أحسن الناس خُلُقًا ولكن بالبو أيضًا لم يكن كذلك. من جهةٍ أخرى، تعيش مدينة نيويورك بأفضل حال وليس في شوارعها سوى أرقام، الأمر الذي لا يختلف كثيرًا عن ميلانو حين كانت تُسمّي أحد طرقاتها بالشارع العريض. كما أنَّ في المدن الإيطاليّة المئة أماكنَ في منتهى الروعة بأسماء من قبيل: صعدة الجدجد، وشارع الدبّ أو السنبلة، وشارع التلّ، وبإمكاننا إضافة شارع الزيزفون (وفي الواقع هناك مثله حتّى في برلين)، وشارع الحور، وهلمَّ جرًّا بالنباتات.

2008

سفنٌ ترفع كواثلها[1]

فكرة رقم واحد: كنتُ في باريس أتناول العشاء مع أصدقاء فرنسيّين، قال أحدهم للآخرين إنَّ التلفزيون الإيطاليّ يُروِّحُ عن النفس، إذ يكفي أن تشاهد أيَّ برنامج، لا يهدف للتسلية بالضرورة، فترى عيناك فتيات جميلات شبه عاريات، حتّى في البرامج الإخباريّة وبرامج المسابقات. جحظت أعين الجميع (هل من المعقول وجود قنوات من هذا النوع؟)، وقال أحدهم إنَّه سيُوسِّع اشتراكه بالقمر الصناعيّ ليشمل التلفزة الإيطاليّة أيضًا. وقال آخر إنّه فهم أخيرًا لماذا يغفر الإيطاليّون كلَّ شيء للسياسيّين الذين يراودون الصبايا

1- الكاثل هو مؤخِّرة السفينة. وفي اللغة الإيطاليّة تُستَخدم كلمة (*poppa*) للدلالة على الكاثل، وثدي المرأة في حالاتٍ معيَّنة. تختلف المعاني بحسب السياق، فرفع الثدي يعني فطم الرضيع، إلّا أنَّ أمبرتو إيكو يقصد التلاعب بمعاني الكلمات للسخرية من ظاهرةٍ بعينها كما سنقرأ في هذا المقال. (المترجم)

عن أنفسهنّ، فلقد تربُّوا على ذلك. استأتُ لما سمعتُ قليلًا. في الحقيقة كلُّنا مهووسون بالجنس.

بعد يومين كنتُ في محطّة روما المركزيّة، حيث تتربَّع المكعَّبات الإعلانيّة العملاقة لشركة ت لاينز للنقل البحريّ نابولي-كاتانيا. تتراءى في الإعلانات بواخر هذه الشركة، ولكنَّ أكثر ما يلفت الانتباه هو العدد الكبير للفتيات اللواتي أولين ظهورهنَّ، عارياتٍ بما يكفي لإبراز جمال أردافهنّ. وكأنَّ هنالك خشيةً من أنَّ هذه الأدبار المصقولة لا تثير الاهتمام، أضيفت عبارةٌ ضخمة تقول: «لدينا أشهر الكواثل في إيطاليا». وإذا لم تفهموا النكتة فعليَّ أن أشرح أنَّ العبارة تحمل معنىً مزدوجًا لبيبًا، وتلمح إلى مُؤخِّرة السفن ومُقدِّمة الفتيات على حدٍّ سواء. فهل كان أصدقائي الفرنسيّون على حقّ؟

سؤال: «هل تُسلِّمون أبناءكم ليتتلمذوا عند مدير المكتب الصحفيّ لشركة ت لاينز؟» مخافتي أن يجيب كثيرٌ من الإيطاليّين نعم، مؤملين أن يصبح ذكورهم الصغار متَّقدين بأجمل الصواري في إيطاليا.

فكرة رقم اثنين: قدَّمت عصبة الشمال اليمينيّة مشروع قانون يكفل التعليم الإجباريّ للهجات المحلّيّة في المدارس الإلزاميّة. اعترض حزب التحالف الوطنيّ بطبيعة الحال، وإلّا لكان اسمه التحالف المناطقيّ. وقد ظهر في صحيفة *الكورييري* في 31 مايو مقالٌ رائع لداريو فو مصوغٌ على طريقة *الغراملوت* المتمثِّلة بإدراج ألفاظٍ صوتيّة منقولة حرفيًّا، وإن تحلّينا بإرادةٍ حسنة لاعتبرنا المقال مكتوبًا باللهجة الرسميّة لإقليم البو (مثلما لم يكن لها وجودٌ من قبل)؛ سوى أنَّ المقال مذيَّلٌ بترجمةٍ إلى التوسكانيّة الفصيحة، وبذا نستوعب أنَّ فو لا يعير اهتمامًا لتلك المطالبات.

أعتقد أنّه من الواجب فعل شيء لكي يتسنّى لأطفال الغد أن يستمتعوا بمسرحيّة *اللغز المضحك* لصاحبها فو الذي كتبها باللهجة. ولكن بما أنَّ أمَّ الأغبياء حاملٌ دومًا، يبدو أنَّ هنالك مشروعًا يطمح إلى تدريس اليقظة الإيطاليّة بناءً على أسسٍ مناطقيّة، ما يعني أنَّهم في تورينو سيسمعون عن كافور وغاريبالدي، بينما في نابولي سيُدرِّسون فرانشسكيلّو وفرا ديافولو والكاردينال روفّو. ربّما من الصائب أن نقول لأبناء مدينة تورينو ومقاطعة

ليغوريا إنَّ نينو بيكسيو تصرَّفَ على نحوٍ سيّئ في برونتي[1]، لكنَّ تنشئة أبناء الجنوب على ثقافة العصابات ما بعد اليقظويّة هي أقرب إلى إقصائهم عن التاريخ. كما أنَّ تدريس اللهجة المحلّيّة لأطفال جيرمونيو سيمنعهم حين يكبرون من الهجرة إلى مناطق أخرى أو حتّى إلى خارج البلاد. وهذا عملٌ دنيء بحقّ أبرياء ليس لزامًا عليهم أن يحملوا أوزار أجدادهم الأوباش.

وقد ردَّدَ اللغويُّ توليو دي ماورو مرارًا أنَّ الميزة العظمى للتلفزيون إبّان الخمسينات هي في أنَّه ساعد على نشر اللغة الإيطاليّة المعياريّة في جميع أنحاء شبه الجزيرة، بحيث إنّ الذين كانوا منعزلين عن التقدُّم لأنَّهم لا يجيدون إلّا اللهجة المحلية صار بوسعهم الاندماج في تلك المرحلة التي سُمِّيَت بالمعجزة الاقتصاديّة الإيطاليّة. لكنَّه تحسَّرَ بالمقابل على ضياع الجذور الأصيلة كلّيًّا، ضمن مسار النمذجة اللغويّة ذاك. في المدينة مسقط رأسي تُعرَضُ مسرحيّة *الراعي جيليندو* كلَّ عام، وهي حكاية رقيقة ومضحكة من أجواء الميلاد، كلُّها باللهجة المحلية، لكنّي أرى أنَّ العرض يصطدم بنوعين من الأزمات: تسبَّبَت الهجرة بصعوبة العثور على فتيةٍ جدد يجيدون التحدُّث باللهجة ويفهمونها، ما صَعَّبَ الحصول على مُتفرِّجين جدد وكفاء. ستكون خسارةً فادحة أن يندثر طقسٌ تقليديٌّ بهذا الجمال.

لذا لا أرى من السوء أن تُخصَّصَ ساعةٌ بالأسبوع لتعليم اللهجة المحلّيّة، بعد أن تُضمَنَ المعرفة التامّة للغة الوطنيّة لجميع الصغار. سيكون الأمر تربويًّا للغاية بحيث يشرف الأولاد على اللهجة المحلية ليكونوا قادرين على مقارنة المفردات والنحو بينها وبين اللغة الإيطاليّة. ومن المؤكَّد أن يتسبَّب ذلك بإشكاليّة في مدارس ميلانو حيث الغالبيّة من الصينيّين والرومانيّين. فلنتركْ هذا النشاط اختياريًّا وما بعد انتهاء ساعات الدروس، ومن يدري ربّما يستمتع به الصينيّون أيضًا.

منذ مدّة في ميلانو رأيتُ رجلًا أسود البشرة إلى حدٍّ ليس بعده سواد، يبيع

1- في برونتي، جنوب إيطاليا، حصل تمرُّدٌ شعبيّ على النبلاء والبرجوازيّة المحلّيّة، التي نصَّبَها غاريبالدي إبّان توحيد البلاد، فأقدم الضابط بيكسيو، المنحدر من الشمال، على ارتكاب مجزرة بحقّهم. (المترجم).

الولّاعات ويتقرَّب من المارّة بلهجةٍ ميلانيّةٍ خالصة، ويشكو من «الجنوبيّين الأجلاف» الذين يظهرون في محيطه. ابن اللعينة، حسنًا، لكنَّه كان يقوم بأعمالٍ ممتازة.

يا بروليتاريا العالم بأسره، إنَّ تعلُّمَ اللغات يجعلكم أحرارًا!

2009

عالٍ مُتوسِّط منخفض

في الملحق الثقافيّ لصحيفة *لا ريبوبليكا* السبت الماضي، استعاد أنجلو أكوارو ومارك آوجيه، بمناسبة صدور النسخة الإيطاليّة من كتاب فريدريك مارتيل *الاتّجاه السائد* (فيلترينلّي 2010)، وبخصوص الأشكال الجديدة من العولمة الثقافيّة، استعادا مسألةً يتجدَّدُ النقاش حولها بانتظام كلَّ حين، ولكن من وجهات نظرٍ مختلفة في كلّ مرّة، ألا وهي التساؤل عن الخطّ الفاصل بين الثقافة الرفيعة والثقافة الهابطة.

إذا كان هنالك شابٌّ يستمع إلى موزارت والموسيقى الإثنيّة من دون تمييز، ويبدو له الفارق غريبًا، فإنّي أذكِّرُ أنَّ هذا الموضوع كان ساخنًا في أواسط القرن المنصرم، لا بل إنَّ دوايت ماكدونالد في دراسته الرائعة والمفعمة بالحسّ الأرستقراطيّ «*الثقافة الجماهيريّة والثقافة المتوسِّطة*» عام 1960، حدَّدَ لا مستويين إنّما ثلاثة. كانت الثقافة الرفيعة تتمثَّل –فقط للتوضيح– في جويس، بروست، بيكاسو؛ بينما يضمُّ المصطلح الذي عُرِفَ بـ*Masscult الثقافة الجماهيريّة* كلّ الخردة الهوليووديّة البالية، وأغلفة مجلّة *ساترداي إفنينغ بوست*، وموسيقى الروك (كان دوايت ماكدونالد من أولئك المفكِّرين الذين ليس في بيوتهم تلفاز، في حين كان المفكِّرون الأكثر انفتاحًا على الجديد يضعون التلفاز في المطبخ).

إلّا أنَّ ماكدونالد نفسه قد بيَّنَ مستوىً ثالثًا، الـ*Midcult الثقافة المتوسِّطة* المتمثِّلة بمنتجات الترفيه التي تستمدُّ السمات الأسلوبيّة من الفنون الطليعيّة أيضًا، بيد أنّها في الأساس مجرَّد كيتش. وكان ماكدونالد يضع في جدول منتجات الثقافة المتوسِّطة مثقَّفين سابقين له من طراز ألما

تاديما وروستاند، ومعاصرين له مثل سومريست ماوغهام وهمنغواي في كتاباته الأخيرة وثورنتون وايلدر - ومن الوارد أنَّه كان سيُلحِقَ بهذا الجدول كثيرًا من الكتب التي حقَّقت نجاحًا ساحقًا من إصدار أديلفي، إذ إنَّه بجانب شهادات من الثقافة الرفيعة التي ليس بعدها رفعة، كان يساوي بين ماوغهام وساندور ماراي والراقي سيمنون (كان ماكدونالد سيُصنِّف سيمنون قبل إبداعه شخصيّة المحقِّق ميغريه على أنَّه من *الثقافة المتوسِّطة*، أمّا سيمنون الذي أبدع ميغريه فكان سيندرج في *الثقافة الجماهيريّة*).

غير أنَّ الانقسام بين الثقافة الشعبيّة والثقافة الأرستقراطيّة هي أقلُّ قِدَمًا ممّا نتخيَّل. يشير آوجيه إلى جنّاز فيكتور هوغو الذي شارك فيه مئات آلاف الناس (هل هوغو من الثقافة المتوسِّطة أم من الثقافة الرفيعة؟)؛ وإلى مآسي سوفوكليس التي كان يذهب لمشاهدتها حتّى باعةُ السمك في ميناء بيرايوس؛ وإلى رواية مانتزوني *الموعودان بالزواج* التي ما إن صدرت حتّى انتشرت أعدادٌ مذهلة من طبعاتها المزوَّرة، دلالةً على شعبيَّتها. وكيف لنا أن ننسى الحدَّادَ الذي كان يُحرِّف أبيات دانتي، مُسبِّبًا بذلك غضب الشاعر، لكنَّه في الوقت ذاته يُبيِّنُ أنَّ شعره ملحوظٌ حتّى لدى الأمّيّين.

صحيحٌ أنَّ الرومان كانوا يتركون عرضًا مسرحيًّا لترينتوس ليذهبوا لمشاهدة الدببة، إلّا أنَّه في الواقع هنالك كثيرٌ من المفكِّرين الشامخين في عصرنا يرفضون حضور حفلٍ موسيقيّ ليذهبوا لمشاهدة المباراة. والحال أنَّ التمييز بين مستويين (أو ثلاثة) من الثقافة ما تجلَّى إلّا عندما وضع الطليعيّون التاريخيّون نصب أعينهم استفزاز البرجوازيّين، وبالتالي اختاروا اللامقروئيّة ورفض التمثُّل معيارًا قياسيًّا.

هل استمرَّ هذا الانقسام حتّى زماننا؟ لا، لأنَّ موسيقيّين مثل بيريو أو بوسور تعاملا مع موسيقى الروك بجدّيّةٍ تامّة، وكثيرٌ من مطربي الروك ضليعون بالموسيقى الكلاسيكيّة فوق ما نتصوَّر. كما أنَّ البوب آرت خلط المستويات، فبات شرف اللامقروئيّة اليوم مستحقًّا للكوميكس ذي الرقيّ العالي. كما أنَّ الكثير من موسيقى أفلام رعاة البقر الإيطاليّة تستعاد بوصفها أعمالًا موسيقيّة عظيمة، ويكفي أن تشاهد أحد المزادات الليليّة التلفزيونيّة لترى كيف أنَّ المتفرِّجين غير الخبراء (فمَن يشتري لوحة عبْر

التلفزيون لا يمكن أن يكون عضوًا في النخبة الثقافيّة) يشترون لوحاتٍ تجريديّةً كان آباؤهم سيقولون إنَّ حمارًا قد رسمها بذنبه. ويُوضِّح آوجيه أنَّه «لطالما كان هناك تبادلٌ خفيٌّ بين الثقافة الرفيعة والثقافة الجماهيريّة، وغالبًا ما تغذَّت الثانية على زخم الأولى» (سوى أنّي كنتُ سأضيف: «والعكس بالعكس»).

انتقل التميز بين المستويات اليوم، هذا إن حدث، من مضامينها أو شكلها الفنّيّ إلى طريقة الاستمتاع بها. أقصد أنَّ الفرق ليس بين بتهوفن وأغنية الميلاد جنغل *بيلز*. فبيتهوفن الذي يصبح أنغام جوَّال أو موسيقى مطارات (أو مصاعد) يُستَمتَعُ بموسيقاه في لحظات الشرود، مثلما كان بنيامين سيقول، لذا فإنَّه يصبح (لمن يستعمله بهذا الشكل) أشبَهَ بألحان دعاية. بخلاف ذلك نرى أنَّ جنغل *بيلز* التي ظهرت لتكون دعايةً لسائل غسيل قد تصبح موضعَ اهتمامٍ نقديّ، وتثمينٍ لعبقريّتها اللحنيّة والإيقاعيّة والتناغميّة. لا أقصد أنَّ الموضوع يُغيِّر النظرة إليه، بقدر ما أنَّ هنالك نظرةً ملتزمة ونظرةً سارحة، وبإمكانك أن تقترح للنظرة (أو الأذن) السارحة حتّى أعمال فاغنر كموسيقى تصويريّة لبرنامج تلفزيون الواقع جزيرة *المشاهير*. في حين أنَّ الأعلى رُقيًّا سينصرفون للاستماع من أسطوانةٍ قديمة إلى أغنيةٍ من قبيل *لا تنسي كلماتي*.

2010

«مُتحدِّثًا من منظورٍ فكريّ»

في إحدى أمسيات الأسبوع الماضي، في القدس، نقل إليَّ صحفيٌّ إيطاليٌّ أنَّ خبرًا ورَدَ إلى وكالة الأنباء في إيطاليا مفاده أنّني قلتُ في المؤتمر الصحفيّ الصباحي إنَّ برلسكوني كان مثل هتلر. وقد سارع بعض نوّاب الأكثريّة الموقَّرين إلى إطلاق التصريحات حيال تصريحي «المهلوس» هذا، الذي يسيء إلى المجتمع اليهوديّ بأكمله (حرفيًّا) حسب رأيهم. وكان المجتمع اليهوديّ بطبيعة الحال منشغلًا في أمورٍ من نوعٍ مختلفٍ كلّيًّا، ففي الصباح التالي نشرت عدّة صحف إسرائيليّة وقائع مفصَّلة عن ذاك المؤتمر

الصحفيّ (*الجيروزاليم بوست*، فضلًا منها، خصَّصت للحدث افتتاحيّةً في الصفحة الأولى دفعة واحدة، وكل الصفحة الثالثة تقريبًا)، ولكنْ ليس هناك أيُّ إشارة إلى هتلر، إنّما تناولٌ للمسائل المتعدِّدة التي نوقشِتَ فيه.

لا يوجد أيُّ شخصٍ عاقلٍ، ومهما كان انتقاديًّا في تطرُّقه إلى برلسكوني، يسعه مقارنته بهتلر، طالما أنَّ برلسكوني لم يشعل فتيل صراعٍ عالميٍّ أسفر عن مقتل خمسين مليون إنسان، ولم يرتكب مجزرةً بحقّ ستّة ملايين يهوديّ، ولم يغلق برلمان جمهوريّة فايمار، ولم ينشئ فصائل القمصان البنّيّة وفرق الإس إس إلخ. فما الذي وقع في ذلك الصباح؟

لا يدرك كثيرٌ من الإيطاليّين مدى فقدان رئيس وزرائنا للمصداقيّة في الخارج، حتّى إنَّنا عندما نجد أنفسنا في موضع الردِّ على أسئلة الأجانب نضطرُّ أحيانًا إلى الدفاع عنه، حبًّا بالعَلَم. ادَّعى أحد المزعجين أنّني قلت إنَّه ما دام برلسكوني ومبارك والقذافي عاندوا خيار الاستقالة، فهذا يعني أنَّ برلسكوني هو القذافي الإيطاليّ. مع أنّي كنت قد أجبتُ بأنَّ القذافي طاغيةٌ سفَّاح يُطلِق النار على أبناء شعبه وقد استولى على السلطة بانقلابٍ عسكريّ، في حين أنَّ برلسكوني كان قد انتُخِبَ شرعيًّا من جزءٍ كبير من الإيطاليّين (وأضفتُ: «مع الأسف»). وعليه، كنتُ أقول ممازحًا، إنَّه إذا تعيَّنَ علينا إجراء مقاربات بأيِّ ثمن، فقد نقارن برلسكوني بهتلر لا لشيء سوى لأنَّ كليهما قد انتُخِبَ شرعيًّا. وبعد أن استنتجنا عبثيّة هذه الفرضيّة الطائشة، أقفلنا وعدنا للتحدُّث بأمورٍ جدّيّة.

عندما أبلغني الزميل الإيطاليّ بخبر الوكالة علَّقَ قائلًا: «كما تعلم، على الصحفيّ أن يستخرج الخبر حتّى إذا كان مخفيًّا». لا أوافق. على الصحفيّ أن يُقدِّمَ الخبر عندما يكون هناك خبرٌ حقًّا، لا أن يختلقه. لكنَّ هذا دليلٌ إضافيٌّ على الوضع المتخلِّف لبلادنا، وبناءً عليه لا يهمُّ إذا كانوا في كلكتا يتباحثون حول مصير الكوكب، ما يهمُّ هو إذا قال أحدٌ في كلكتا شيئًا مع أو ضدّ برلسكوني.

جانبٌ غريبٌ من المسألة، لاحظتُهُ عقب عودتي إلى الديار، وهو أنَّ كلَّ الصحف التي تناولت الموضوع، جاءت فيها بياناتي المزعومة كلُّها، مقتبسة

بين أظفار، من خبر الوكالة الأصليّ، الذي يظهر فيه أنّني وصفتُ تلميحي الخاطف إلى هتلر باعتباره «مفارقة فكريّة»، أو أنّني أشرتُ إلى تلك المقاربة «مُتحدِّثًا من منظورٍ فكريّ». قد يسعني، في حالة الثمالة، أن أقارن برلسكوني بهتلر، لكنّني حتّى لو بلغتُ أقصى درجات إدمان الكحول ما كنتُ لأستخدم تعابير فارغة من أيّ معنى مثل «مفارقة فكريّة» أو «مُتحدِّثًا من منظورٍ فكريّ». فما النقيض المقابل للمفارقة الفكريّة؟ المفارقة اليدويّة، الحسّيّة، الريفيّة؟ ليس مطلوبًا من الجميع أن يعرفوا مصطلحات البيان ومفاهيم المنطق على أتمّ وجه، ولكنْ ممّا لا شكَّ فيه أنَّ «المفارقة الفكريّة» ما هي إلّا لفظةٌ من جاهلٍ أمّيّ. ومَن يدَّعي زورًا بأنَّ أحدًا يقول أشياء «مُتحدِّثًا من منظورٍ فكريّ» فإنّما يبني ادّعاءه على سذاجةٍ وركاكة. وهذا يعني أنَّ التعابير الواردة في الخبر بين أظفار هي من حصيلة التدليس الذي أجراه أحدهم.

ردًّا على هذه الموادّ ذات الفساد المفضوح، قامت كالمعتاد حملة استياء غاضبة وعفيفة، للنيل ممَّن لا يحبُّ رئيسَ وزرائنا ويرتدي جوارب فيروزيّة. دون أن يفطن أحدٌ، على الأقلّ، إلى استحالة مقارنة برلسكوني بهتلر لأنَّ هتلر كان من المعروف أنّه أحادي الزوج.

2011

مستجوَبون وأفظاظ

في أحد *المغلّفات* القديمة أذكر أنّني احتججتُ على العادة السيّئة للأفلام والمسلسلات التي نشاهدها على الشاشة الصغيرة إذ تُظهِرُ لنا زوجين على الفراش يستعدّان للنوم فتراهما: 1 يمارسان الجماع، 2 يتشاجران، 3 تقول له إنَّ رأسها يوجعها، 4 يستدير هو على مضض إلى جانبه وتستدير هي إلى جانبها ويغفوان. ولا مرّة، أؤكِّد ولا مرّة، رأيتَ أحدهما على الأقلّ يقرأ كتابًا. ثمَّ نشتكي من أنَّ الناس، الذين يقتدون بالنماذج التلفزيونيّة، لا يقرأون البتّة.

هناك ما هو أسوأ. ما الذي يحدث إذا دخل بيتك مُحقِّقٌ أو ضابط شرطة وبدأ يطرح عليك أسئلةً لا تُعتَبر محرجةً في أغلب الأحيان؟ إذا كنتَ منحرفًا صلبًا ومكشوف الهويّة، مافيويًّا ذا سوابق، قاتلًا متسلسلًا وعصابيًّا، ربّما

ستجيب بالشتائم والقهقهة، أو قد ترمي بنفسك على الأرض متظاهرًا بنوبة صرع. أمّا إذا كنتَ شخصًا طبيعيًا ولا حُكمَ عليك فسترُحِّب بالمحقِّق، وتردُّ على أسئلته بتهذيب، ولعلَّك تشعر بوخزة قلق لكنَّك ستحافظ على تهذيبك قبالته. أمّا إذا كنتَ مذنبًا بنسبةٍ ضئيلة فستحرص على عدم إغضابه.

فما الذي يحدث في المسلسلات البوليسيّة (أنبئكم على الفور -لئلا أبدو محاضرًا بالأخلاق الأرستقراطيّة- أتابعها باهتمام، لاسيّما الفرنسيّة والألمانيّة التي باستثناء *كوبرا 11* لا تحتوي على مشاهد عنف مفرط وانفجارات رباعيّ نترات الكربون السامّ)؟ يحدث دومًا (ركِّزوا معي: دومًا) أنَّه حينما يدخل المحقِّق ويباشر طرح الأسئلة، يواصل المواطن القيام بما يحلو له على رِسْلِه، يطلُّ من النافذة، ينهي قلي بيضه بكرشة الخنزير المجفَّفة، يُرتِّب الغرفة، يُنظِّف أسنانه ولا ينقصه سوى الذهاب للتبوُّل، يتَّجه إلى الطاولة ليُوقِّع أوراقًا، يقفز إلى الهاتف، يتحرَّك فعليًّا مثل سنجابٍ يفعل أفضل ما بوسعه لإيلاء ظهره إلى المحقِّق، وبعد قليل يقول له بوقاحة أن ينصرف لأنَّه (أو لأنَّها) مشغول.

أهذا هو التصرُّف الأمثل؟ لماذا يعمد مخرجو المسلسلات إلى الغرس في أذهان مشاهديهم أنَّه ينبغي التعامل مع وكلاء الشرطة على أنَّهم مندوبو مبيعات مكانس كهربائيّة مزعجون؟ قد تقولون إنَّ المستجوَبَ الوقح يزيد من إلهاب رغبة الانتقام عند المتفرِّج، الذي سيستمتع فيما بعد بانتصار المحقِّق المهان، وهذا صحيح. ولكن ماذا لو أنَّ كثيرًا من المتفرِّجين المتخلِّفين ذهنيًّا انتهزوا أقرب فرصة لإهانة ضابط الشرطة، ظنًّا منهم أنَّه التصرُّف الأمثل؟ هل يرى مَن يشاهد المسلسلات أنَّه غير معنيٍّ بالقلق إزاء الأمر طالما أنَّ أشخاصًا أهمّ بكثير من المجرمين الصغار المستجوَبين في مسلسلٍ مثل *سيسكا* علَّموه أنَّه بوسع المرء أن يرفض المثول أمام المحكمة؟

الحقيقة هي أنَّ مخرج المسلسل يدرك أنَّ الاستجواب إذا دام أكثر من بضع ثوانٍ، فلن يتمكَّن من تصوير مُمثِّلين اثنين بلقطةٍ أماميّة، ويجدر به أن يُحرِّك المشهد بأيِّ طريقة. ولتحريك المشهد يُقرِّر تحريك المستجوَب. فلماذا لا يستطيع المخرج أن يتحمَّل، وأن يُحمِّلَ المتفرِّج، بعض الدقائق لشخصين يتناظران كلٌّ في وجه الآخر، خصوصًا إذا كانا يتناقشان بشؤون

ذات أهمّيّة كبيرة ومأساويّة؟ لأنَّ المخرج إذا أراد فعل ذلك فعليه أن يكون حدًّا أدنى بسويّة أورسن ويلز، وعلى الممثِّلين أن يكونوا مثل آنّا مانياني، وإميل جانينغز في دوره بفيلم *الملاك الأزرق*، وجاك نيكلسون في *Shining*. أناسٌ يستطيعون تحمُّل اللقطة القريبة جدًّا، والتعبير عن حالتهم النفسيّة بنظرةٍ واحدة، بثنيّة فم. استطاع إنغريد برغمان وهمفري بوغارت في *كازابلانكا* أن يتحادثا لدقائق طويلة من دون أن يجرؤ مايكل كورتيز (الذي لم يكن بمنزلة آيزنشتاين) على تنفيذ لقطة أمريكيّة؛ ولكن إذا كنتم مجبرين على تصوير حلقة (وحلقتين أحيانًا) بالأسبوع، فلن تسمح إمكانيّات المنتِج حتّى بالإتيان بمخرجٍ من وزن كورتيز. أمّا عن الممثِّلين فطوبى لهم إذا كانوا، مثلما يحدث في المسلسلات البوليسيّة الألمانيّة، يُقدِّمون أفضل ما عندهم حين يتناولون شطيرة نقانق بين نقرةٍ على الحاسوب وأخرى.

2012

دعني أنهي حديثي، يا واطي!

آمل ألّا يؤاخذني مدير *الإسبريسو* إذا أكَّدتُ أنَّ المجلَّة التي أقرأها أسبوعيًّا ببالغ الاهتمام والاحترام هي *أسبوع الألغاز*، ليس لأنَّها لا تفرض عليَّ محتواها فحسب، بل لأنَّها تطلب منّي التعاون بغية إكمال صفحاتها الثماني والأربعين.

أرى في قائمة تعريفات الكلمات المتقاطعة جانبًا تثقيفيًّا للغاية. تختلف التقاليد الإيطاليّة في إنشائها عن تلك الفرنسيّة التي تطرح في التعريف لغزًا. ويبقى شهيرًا المثالُ الذي أشار إليه اللغويُّ غريماس حيث ينبغي تأويل «صديق البسطاء» على أنَّه «طبيب الأعشاب» (وهذا يستوجب أن يعرف حَلَّالُ اللغز أنَّ المقصود بالبسطاء تقليديًّا هي النباتات البسيطة المتَّسمة بمزايا علاجيّة، كان الأطّباء يستخدمونها في السابق). أمّا تقاليدنا في صياغة التعريفات فتُعوِّل على التلميح إلى آراء شائعةٍ أقرَّها الجميع، لذا فإنَّ «ما يقوم على الباستا والخضروات» يُقصَدُ به «حمية متوسِّطيّة»، و«أفعى أمريكيّة» ينبغي أن تُقرَأ «أصلة».

وقد حَدَثَ أنّني في إحدى صفحات الكلمات المتقاطعة عثرتُ على «تؤجِّج البرامج الحواريّة»، فظننتُ للوهلة الأولى أنَّ التعريف يحيل على شخصيّةٍ شهيرة، أو على مقصدٍ يخصُّ حديث الساعة. إطلاقًا، كان الحلُّ هو «مشاحنات». اعتمد مؤلِّف التعريفات إذًا على الرأي السائد القائم على أنَّ ما يجعل برنامج التوك شو مثيرًا للاهتمام ليس أنَّ مُنشِّطه شخصيّةٌ شعبيّة مثل برونو فيسبا، وأنَّ المشاركين فيه أشخاصٌ مؤثِّرون مثل فلاديمير لوكسوريا، أو مثل طارد أرواح شرّيرة معنيٍّ بالتحرُّش بالأطفال أو بمجزرة أوستيكا. ما من شكٍّ في أنَّ جميع هذه العوامل مُكمِّلاتٌ مهمّة، وإلّا لكان من المضجر أن يُنشِّط التوك شو فقيهٌ لغويٌّ بيزنطيّ، يستضيف راهبةً معتزلة في دير ومصابة بالبكم الاختياريّ أو أن يهتمَّ باستعراض أوراق بردي عائدة لأرطميدورس. إلّا أنَّ ما يريده المتفرِّج حقًّا هو المشاحنة.

صدف أن شاهدتُ برنامجًا حواريًّا بجانب سيّدةٍ عجوز، وكانت كلّما تصايح المشاركون بعضًا على بعض قالت: «لماذا يقاطع أحدهم الآخر؟ لا أفهم ما يقولون! ألا يمكنهم التحدُّث بالتناوب؟»، كأنَّها تحسَبُ التوك شو الإيطاليّ كالبرنامج الخالد الذي كان يُقدِّمه برنار بيڤو حيث كان يومئ بحركةٍ طفيفةٍ من خنصره ليُنبِّه المتحدِّث بأوان إفساح الكلام لجاره.

الحقيقة هي أنَّ متابعي التوك شو لا يستمتعون إلّا بمشاهدة الناس يتشاجرون، ولا يهمُّهم ما يقولون (وعادةً ما يُوصَفُ كلامهم بأنه هراء)، بقدر ما تهمُّهم الطريقة التي تتبدَّى فيها معالم الضراوة على وجوههم، وهم يصرخون: «دعني أنهي حديثي، فأنا لم أقاطعك» (وردَّة الفعل هذه تُشكِّل جزءًا من لعبة المقاطعة)، أو تبادل الشتائم والنعوت مثل «يا واطي»[1]، التي باتوا يستقونها من الطبعة الأخيرة للقواميس على أنَّها كلماتٌ عامّيّة مُجازة. يشاهد المرء برنامجًا حواريًّا مثلما يشاهد مبارزة الديكة، أو جولة مصارعة حرّة، حيث لا يهمُّ إذا كان المتنازعون يُمثِّلون، مثلما لا يهمُّ في كوميديا لاري سيمون أن تخبط الكعكة بالوجه فعلًا، فما يهمُّ هو إتقانه التظاهر بأنَّه تلقَّاها بوجهه.

1- يورد أمبرتو إيكو كلمة «*vaiassa*» والتي كانت تعني «خادمة» بلهجة نابولي، ثمّ غدا معناها أوسع لتشمل الدناءة بشتّى مظاهرها. (المترجم).

كان لكلٍّ ذلك أن يبدو متناسقًا لو أنَّهم قدَّموا التوك شو باعتباره برنامجَ ترفيهٍ محض على غرار *الأخ الأكبر*. بيد أنَّ أحدًا وصف برنامج *بابًا لباب* بأنَّه البرلمان الثالث - أو ردهة المحكمة. فالموضوع الذي سيُناقَشُ في البرلمان، أو الحكم النهائيّ على مَن خنق إحدى الفتيات، سيُعرَضُ سلفًا على التوك شو بحيث يغدو تافهًا، وبكلّ الأحوال يستبق الجلسة البرلمانيّة أو قرار محكمة الجنايات العليا.

وعليه، إذا كان شكل المشاحنة لا مضمونها هو المهمّ، فهذا يشبه استعراضًا استباقيًّا لدرسٍ جامعيٍّ حول التوافق الزمنيّ باللغة اللاتينيّة، وتفريغه من محتواه، عبْر خطابٍ مصاغٍ بطريقة *الغراملوت* بإمضاء داريو فو أو بمشهد هذيان من اختصاص الممثِّل ماسّيمو ترويزي.

ثمَّ نغضب إذا بَهُتَ اهتمام الناس أكثر فأكثر بما يقع في مونتيشيتوريو [مجلس النوَّاب] أو قصر ماداما [مجلس الشيوخ]، أو بما سوف تقرُّه المحكمة بخصوص فتيات قضيّة روبي، أو إذا امتنعوا عن التصويت في الانتخابات.

2013

مخضوض أم مخلوط؟

قرأتُ رسالةً موجَّهةً إلى الناقد أنطونيو دورّيكو، في مجلّة سيتّي -وكان دورّيكو نفسه قد نوَّهَ إلى الأمر مسبقًا- يقول فيها المرسل إنَّ جيمس بوند، في ترجمةٍ حديثةٍ لرواية يان فليمينغ *عِشْ ودعهم يموتون*، يطلب كوكتيل مارتيني بمشروب المارتيني «الأحمر». من الهرطقة الحديث عن مارتيني بالفيرموث الحلو، كما أنَّه في ترجمةٍ إيطاليّة سابقة كان جيمس بوند قد طلب كوكتيل جينْ ومارتيني وفيرموث أحمر، وهذا شيءٌ مختلف. صحيحٌ أنَّ كوكتيلات المارتيني الأولى المبتكرة في أمريكا خلال القرن التاسع عشر، كانت مُكوَّنةً من أونصتين من المارتيني والفيرموث الأحمر الإيطاليّ، وأونصة من جينْ أُلدْ توم، ونفحة من مشروب الماسكارينو ومُكوِّنٍ آخر يُولِّد الرعب لدى أيّ شخصٍ مؤدَّب. ولكن، إذا ظهر المارتيني الأحمر عام 1863، فبحسب خبراء آخرين لم ينتشر كوكتيل المارتيني في البدايات

بشكله الحاليّ بإضافة فيرموث المارتيني إنّما النوالي برات، وأنَّ ارتباط اسم المارتيني بالكوكتيل الأصليّ عائدٌ سواءً إلى المحلّة الكاليفورنيّة (مارتينيز)، أو إلى مارتينيز اسم الساقي. باختصار، إذا أردتم مزيدًا من الإيضاح حول هذه المسألة المعقَّدة للغاية، فعليكم بكتاب *Martini straight up* للمؤلِّف لويل إدموندس، وقد صدر بالإيطاليّة عام 2000 عن منشورات أركينتو بعنوان *وسرعان ما يأتي المارتيني*.

حسنًا، ماذا يشرب جيمس بوند؟ في الواقع يشرب من كلّ شيء، ويبقى شهيرًا مطلعُ رواية *الإصبع الذهبيّة*، الذي ساءت إليه الترجمة الإيطاليّة الصادرة عام 1964، إذ تقول: «كان جيمس بوند جالسًا في صالة الانتظار بمطار ميامي. وكان قد شرب كأسين مزدوجتين من ويسكي باربن، وها هو هناك يتأمَّلُ في الحياة والموت» - كما لو أنَّ بوند لا سواه ينتظر الطائرة كمسافرٍ عاديّ في رحلةٍ سياحيّة. في حين أنَّ يان فليمينغ (البارع في أساليب السرد) كتب: «جيمس بوند، وفي جوفه كأسان مزدوجتان من ويسكي البارين، جلس في صالة المغادرة الأخيرة بمطار ميامي، وتأمَّلَ في الحياة والموت». لكنَّ المارتيني الأوَّل الذي يشربه العميل 007، في فيلم *كازينو رويال* هو الذي سيدخل التاريخ بمُسمَّى ڤسبر مارتيني: «ثلاثة عيارات من غوردون جينْ، عيار من الفودكا، نصف عيار من خمر كينا ليليت. اسكبوا في الزجَّاج، خضُّوه حتّى يتثلَّجَ جيّدًا، ثمَّ أضيفوا إليه قشرة ليمون». خمر كينا ليليت هو نوعٌ نادرٌ من الفيرموث الجامد، وسيشرب بوند كأس ڤسبر مارتيني أيضًا في فيلم *كم من العزاء*.

في الحقيقة عادةً ما يشرب بوند المارتيني مثلما نعرفه نحن، ولكنَّه حين يطلبه يُحدِّد: مخضوض، لا مخلوط. ما يعني وضع المكوِّنات في الزجَّاج لخضِّها (كما هي حال كوكتيلات أخرى) لا مزجها في الخلَّاط. والمشكلة بالأحرى هي أنَّه منذ همنغواي وما بعد، لتحضير المارتيني الجيّد تُسكَبُ في الخلَّاط المليء بالثلج أساسًا جرعةٌ من المارتيني الجامد، والجينْ، ثمَّ تبدأ عمليّة المزج أو «الخلط»، ثمَّ يُصفَّى المشروب في الكأس التقليديّة المثلَّثة التي توضع فيها حبَّة الزيتون في النهاية. لكنَّ الذوّاقين يؤكِّدون أنَّه بعد صبّ المارتيني وخلطه جيّدًا، توضع شبكةٌ فوق الخلَّاط، ويُسكَبُ الفيرموث

بحيث لا تتبقّى منه سوى قشرةٍ تُنكِّهُ مكعَّبات الثلج، وبعدئذٍ يُسكَبُ الجينْ وفي النهاية يُصفّى الجينْ البارد والمنكَّه بالفيرموث. فالعلاقة بين الجينْ والفيرموث تختلف من ذوَّاقةٍ إلى آخر، بما فيها التوصية بتمرير شعاع شمسٍ عبْر قنّينة الفيرموث حتّى يلامس الثلج، وكفى. وفي التوصية التي يُسمّيها الأمريكيّون *Gin Martini on the rocks*، يُنزَّلُ الثلج في الكأس أيضًا، لكنَّ الراقين يهلعون عند سماعهم بذلك.

فكيف لذوَّاقةٍ مثل جيمس بوند أن يطلب المارتيني مخضوضًا لا مخلوطًا؟ هناك مَن يرى أنَّ عيار المارتيني عند خضِّه يستوعب هواءً أكثر (وهذا ما يُعرَفُ بطحن الشراب) لتحسين مذاقه. لكنّي شخصيًّا لا أعتقد أنَّ رجلًا نبيلًا مثل بوند يطلب المارتيني مخضوضًا. وبالفعل هنالك مواقع على الإنترنت تجزم أنَّ الجملة التي تظهر في الفيلم، لا تظهر في الروايات (كذلك شارلوك هولمز في روايات آرثر كانون دويل لا يقول لمساعده أبدًا «الأمر بسيط يا عزيزي واتسون» مثلما يفعلها في الأفلام)، فما بالك بخصوص المصطلح الإشكاليّ «فودكا مارتيني». لكنّي أعترف أنَّه لو توجَّبَ عليَّ التحقُّق في أعمال فليمينغ الكاملة كلّها، فمن يدري متى كنتُ سأتمكَّن من كتابة هذا *المغلَّف*.

2013

كثيرٌ من التواريخ عند نيرو وولف

لأسبابٍ مُتعلِّقة بالمزاج كلّيًّا كرَّستُ شهرين ما قبل أعياد الميلاد لإعادة قراءة (أو لقراءة جديدة) حكايات نيرو وولف الثمانين البوليسيّة. وإذ غصتُ في ذلك العالم المحبَّب، برزت أمامي عدّة إشكاليّات لطالما شغلت أذهان المولعين بكتابات ريكس ستاوت. ففي المقام الأوَّل، ما الرقم التسلسليّ لبيت وولف الشهير المبنيّ من الحجر الرمليّ، الموجود في الجادّة 35 ستريت ويست؟ حثَّت جماعة وولف (منظّمة الشغوفين بحكايات نيرو وولف) بلديّة مدينة نيويورك، في العام 1966، على نصب يافطة فخريّة عند البيت رقم 454؛ لكنَّ ستاوت على امتداد رواياته ذكر أرقامًا تسلسليّة

مختلفة: ففي *نيرو وولف وابنته* أسكَنَ بطله في البيت رقم 506، وفي *زبائن كثر* رقم 618، وفي *لا تثق بأحد* رقم 902، وفي *الكانتونات الأربعة* رقم 914، وفي *العلبة الحمراء* رقم 918، وفي *الميّت المتكلِّم* رقم 922، وفي *نيرو وولف: دعوةٌ إلى تحقيق* رقم 939 إلخ.

ليت هذا هو الريب الوحيد في الملحمة: يقال لنا على سبيل المثال إنَّ وولف، ذا الأصول المونتنغريّة، وُلِدَ خلافًا لذلك في ترينتون، وأنَّه لم يذهب إلى مونتنغرو إلّا في صباه، لكنَّ وولف يذكر غير مرَّة أنَّه جُنِّسَ في فترةٍ متأخّرة كمواطنٍ أمريكيّ، لذا لا يجوز أن يكون قد وُلِدَ في نيوجيرسي. ومن الوارد أن يكون قد وُلِدَ في العام 1892 أو 1893. ولكن إن كان الأمر كذلك في حكايته الأخيرة، المكتوبة عام 1975، فهذا يعني أنَّ عمره ثلاثة وثمانون عامًا، في حين أنَّه يظهر شابًّا مثلما ظهر في الحكاية الأولى، المكتوبة عام 1934. دع عنك شخصيّة آرتشي غوودواين، الذي يبدو بحسب أدلّةٍ عديدة أنَّه من مواليد العام 1910 أو 1912، لكنَّه في الحكايات التي تدور أحداثها بشكلٍ واضحٍ في فترة حرب فيتنام وما بعدها أيضًا، لا بدَّ أن يكون في عمر السبعين، في حين أنَّه يظهر دائمًا مثل شابٍّ ماجنٍ في الثلاثينيّات من عمره يفتن الحسناوات العشرينيّات، ويسطح بالضربة القاضية شخصيّاتٍ أضخم منه قامةً.

هل من المعقول أنَّ كاتبًا يستطيع وصف النباتات في بيت وولف بلا أخطاء، من كتابٍ إلى كتاب، والأطعمة التي يتناولها، وعشرة آلاف نوع من الأوركيد الذي يزرعه، نوعًا بنوع، لم يفكِّر في وضع جدولٍ زمنيٍّ عامّ (جديرٍ بالثقة من الناحية البيوغرافيّة) لشخصيّاته؟ لا بدَّ للسبب أن يكون في مكانٍ آخر.

يحدث في كثيرٍ من الملاحم الشعبيّة ألّا يكون للشخصيّات عُمر وألّا يشيخوا أبدًا. ليس لسوبرمان عُمر، ولا لليتيمة الصغيرة آنّي (التي صنع المؤلِّف من طفولتها الأبديّة عددًا كبيرًا من الحلقات)، والرجل المقنَّع ليس له عُمر، الذي دامت خطوبته لديانا بالمر قرابة خمسين سنة. يتيح هذا الأمر للمؤلِّفين أن يُحرِّكوا أبطالهم دومًا في حاضرٍ أبديّ. وهذا ما يقع لوولف وغوودواين، اللذين يبقيان شابّين أبد الدهر. إلّا أنَّ حكايات ريكس ستاوت

ترتكز أيضًا على دقّة التفاصيل، والخلفيّة التاريخيّة (يشارك نيرو وآرتشي في الحرب العالميّة الثانية بصفتهما عميلين للحكومة أو أنَّ لهما صلة بالحملة الماكارثيّة)، والهوس في وصف أدقّ تفاصيل الطرقات والمنعطفات والمتاجر ومسارات التاكسي وهلمَّ جرًّا. فهل من الممكن الحفاظ بأبديّةٍ ثابتة على وقائع تحتاج إلى مراجع متواصلة للحظاتٍ تاريخيّة وأوساطٍ دقيقة؟ أجل، وذلك بتشويش أفكار القارئ.

يأتي ستاوت بتواريخَ متضاربة ومفارقاتٍ تاريخيّة لا يطيقها مَن يقرأ وبيده آلةٌ حاسبة؛ يذرُّها في دوَّامةٍ على أعين ذاكرتنا، وذلك لسعيه لاختلاق واقعيّةٍ مستفزّةٍ نعيش من خلالها في حالةٍ تكاد لفرط غموضها تشابِهُ الحلمَ. نستطيع أن نقول إنَّ ستاوت كانت لديه فكرة غير مبتذلة عن التخييل الأدبيّ، وليس من قبيل الصدفة أنَّه بدأ مشواره الكتابيّ، وإن بنجاحٍ ضحل، راويًا شبه تجريبيّ في حكايته *درجتان عن الهاوية*. وكان مدركًا لآليّات التلقّي: لم يكن يفترض أن يفعل قرّاؤه مثلي ويقرأوا أعماله الكاملة كلَّها في جلسةٍ واحدة، بل كان يعرف أنَّهم سيرجعون إلى كتبه على فتراتٍ متباعدة حوليًّا، أي بعد أن يتشوَّشَ التسلسل الزمنيّ في ذاكرتهم إلى حدٍّ معقول. كان يراهن على الذكرى الأمينة للمواقف المتكرِّرة وانتظارها (لفتة خاطفة لوولف، آليّات السهرات الختاميّة، الوقفة في المطبخ)، وكذلك على الإغفال عن الأحداث الكبرى. وبالفعل بإمكاننا أن نعيد قراءة هذه الحكايات أكثر من مرَّة، بالمتعة في إعادة العثور دومًا على العناصر الثابتة نفسها، ولكن بنسيان الشيء الأهمّ، أي هويَّة المجرم.

2014

وإلى ما هنالك

من البديهيّ أن يبدي الأشخاص الذين بلغوا سنًّا أكثر من ناضجة انزعاجهم من تطوُّر اللغة، حين لا يسعهم قبول الاستعمالات اللغويّة الجديدة الرائجة عند المراهقين. ويحدوهم أملٌ وحيدٌ بألّا تدوم هذه الاستعمالات أطول من أصبوحةٍ واحدة، مثلما حدث لتعابير من قبيل *matusa* (الذي انتشر في أعوام

الخمسينات والستّينات لدى فئة الشباب، للدلالة على العُجَز المتحجِّرين والرافضين لكلّ جديد. ومَن يصرُّ على استخدامه اليوم يشي بأنَّه هو نفسه، أو هي نفسها، *ماتوزة*)؛ أو تعبير *bestiale* [وحشيٌّ، ولكنْ بمعنى «عظيم»] (سمعتُ سيّدةً يصعب تحديد عمرها تستخدمه فأدركتُ أنَّها كانت شابّةً في سنوات الخمسينات البعيدة). ولكن طالما تُتداوَلُ الاستعمالات الحديثة بين الشباب أنفسهم، فإنّي أعتبرها شؤونهم الخاصّة، وأراها ممتعة أحيانًا. ولا تغدو مزعجة إلّا حين تصطدم بنا.

لم أستطع أن أتحمَّلَ يومًا، فلنقل من الثمانينات فصاعدًا، أن أُنادَى بـ «بروفـ»، اختصارًا لـ «بروفيسور». هل نادي المهندس بـ «مهـ» والمحامي بـ «محـ»؟ كانوا بالحدّ الأقصى ينادون الطبيب بـ «دوكـ»، ولكنَّ هذا في الغرب الأمريكيّ، وعادةً ما كان هذا الدوكـ مُحتَضرًا بالسلّ ومدمنًا على الكحول.

لم أُبدِ اعتراضي علانيةً يومًا، ذلك أنَّ التعبير يوحي بمودّةٍ وثقة أيضًا، لكنَّ الأمر كان يزعجني وما يزال. كان الوضع أفضل عندما كان الطلبة والبوّابون، في العام 1968، ينادونني بـ أمبرتو ويرفعون الكلفة نهائيًّا.

أمرٌ آخر كنتُ أعتاده وهو أنَّ النساء كُنَّ مُقسَّمات إلى شقراوات وسمراوات. وفي لحظةٍ مّا أصبحت «*bruna*/ *سمراء*» خارج الموضة، ومن المؤكَّد أنَّها تُذكِّرني بأغاني الأربعينات وتسريحات الغرّة. والحال أنَّه ليس الشبّان فحسب، إنّما الراشدون كذلك، بدأوا في لحظةٍ مّا باستعمال كلمة *mora* للدلالة على السمراء (وجدتُ في إحدى الصحف أوّلَ من أمس أنَّ الكلمة باتت تستخدم حتّى بالمذكَّر، في وصف راقصٍ كلاسيكيٍّ أسمر ووسيم). وهذا تعبيرٌ فظيع، لأنَّ الكلمة في القرون المنصرمة كانت مُخصَّصةً للجاريات المسلمات اللواتي كنَّ يرقصن على جثث آخِر المدافعين عن فاماغوستا؛ وتذكِّرني اليوم بالهتاف البذيء للذكور المتعجرفين بقمصانهم الداخليّة وهم يصيحون لفتاةٍ تمرُّ بجانبهم: «ها يا حلوة يا *مورة*!»؛ وتُذكِّرُ لا محالة بالأجسام المتضخِّمة التي كان بوكّازيلي الفاشيُّ يرسمها، أو بالشابّات الإيطاليّات اللواتي كنَّ يفزن بمسابقة «خمسة آلاف ليرة لأحلى ابتسامة»، ويتضوَّعن بعطورٍ وطنيّةٍ شعبيّة، وهناك غابةٌ تحت الآباط.

هذه هي الحياة، الشقراوات يبقين شقراوات (بشعرٍ بلاتينيّ أو رصاصيّ أو قشّيّ) بينما مَن كان شعرها داكن اللون تصبح مورة، حتى لو كان لها وجه أودري هيبورن. وفي المحصِّلة، أفضِّل البريطانيّين إذ يقولون «*dark*–*haired*» أو «*brunette*».

ومع ذلك لا أجد نفسي مناوئًا لكلّ ما هو جديد، فلقد تقبَّلتُ شيئًا فشيئًا في قاموسي الشخصيّ -كمستمعٍ سلبيّ على الأقلّ إن لم أكن مُتكلِّمًا نشطًا- كلماتٍ مثل (*gasato, rugare, tavanare, sgamare, assurdo, punkabbestia, mitico, pradaiola, pacco, una cifra, lecchino, rinco, fumato, gnocca, cannare, essere fuori come un citofono, caramba, tamarro, abelinato, fighissimo, allupato, bollito, paglia e canna, fancazzista, taroccato, fuso, tirarsela*)[1]. منذ بضعة أيّام أفادني مراهقٌ من روما أنّه على الرغم من أنَّ كلمة *bigiare* ما تزال مفهومة للتعبير عن التغيُّب عن المدرسة، فإنَّها لم تعد مستخدمة، وقد حلَّ محلَّها تعبير *التبوُّل على المدرسة*.

بأيّ حال، ولكي أكون صريحًا، أفضِّلُ الكلمات الشبابيّة المستحدثة على تلك العادة الكريهة لدى الراشدين الذين يقولون باستمرار «*إلى ما هنالك*». ألستم قادرين على قول *وهلمّ جرًّا* أو *إلى آخره*؟ لحسن الحظّ أن اندثرت تعابير مثل *لُحَيظة* و *مصيب*، فلقد أصبحت إيطاليا البلد الجميل حيث الصواب يُدوِّي، لكنَّ عبارة «إلى ما هنالك» ما زالت مُتضمَّنةً في خطابات شخصيّاتٍ جادّة. وفي فرنسا استخدامٌ مماثلٌ ولا يمكن استيعابه لكلمة *incontournable* التي أصبحت تفيد للدلالة (اسمعوا، اسمعوا) على أمرٍ ذي أهمّيّة (ويصعب الاستغناء عنه حدًّا أقصى). أمّا القصد الحقيقيّ للكلمة فهو للإشارة إلى شيءٍ إذا اعترض سبيلك لا يمكنك الدوران حوله، وعليك

1- كلمات مستخدمة في أوساط الشباب الإيطاليّ اليوم، ومعناها بحسب الترتيب: (مبتهج، إزعاج، ثرثرة، اكتشف، عبث، متشرِّدو الشوارع، أسطوريّ، فتاة تنتعل حذاء برادا، عضو ذكريّ، مبلغ كبير، منافق، أبله، مدخِّن، فتاة جميلة، تدخين الحشيشة، مخبول، رجل الشرطة، قرويّ، حقير، هائل الجمال، سريع كالذئب، أحمق، سيجارة وحشيشة، كسول عاطل، الكلام الرذيل، منهك، العجرفة). (المترجم).

أن تُصفّي حسابك معه، قد يكون شخصًا، أو معضلة، أو انتهاء مهلة دفع الضرائب، أو إلزاميّة وضع سدَّادة أفواه الكلاب، أو وجود الربّ.

صبرًا، فالعادات اللغويّة المكروهة خيرٌ من الاستعمال الخاطئ للغة. منذ مدّة قصيرة، أراد أحد نوّابنا أن يقول إنَّه لن يسهب في الموضوع، فأكَّدَ تحت قبّة البرلمان أنَّه «مختون». كان من المفضَّل لو أنَّه اقتصر على قول: «لن أطيل عليكم، وإلى ما هنالك». لكنَّه على الأقلّ ليس معاديًا للساميّة.

2014



ما أتعس ذاك البلد

احتفت الصحافة والتلفزيون وسط ارتياحٍ بالغٍ بما آلَ إليه إنقاذ عبَّارة *النورمان أتلانتك*. أسفر غرقها عن وفيات ومختفين، لكنَّ عمليّات الإغاثة في مجملها أثبتت فاعليَّتها. وتوقَّفت وسائل الإعلام بشكلٍ خاصّ عند القبطان أرجيليو جاكوماتسي باعتباره حدثًا بحدّ ذاته، إذ أرجأ نجاته الشخصيّة حتّى المرحلة الأخيرة، بعد أن تولَّى عمليّات الإنقاذ على متن السفينة. لم يكن لهذا الخبر إلّا أن يُحدِثَ ضجّة، نظرًا إلى ما سبقه من سلوكٍ بغيضٍ صدر عن قبطانٍ آخر. سوى أنَّه في بعض التقارير بدأ يتفشّى لقبُ *البطل*.

ليس بالإمكان كبح جماح وسائل الإعلام عن تهويل الأمور، فعندما أكَّدَ أحدهم أنَّه لا يوافق على موضوعٍ معيَّن، قيل إنَّه يرعد، كما لو أنَّه زيوس الأولمبيّ. فالناس ما عادت *تقول* وما عادت تتورَّطُ في مأزق، إنّما ترعد وهي في عين الإعصار (وهذا خطأ بالمناسبة، ففي عين الإعصار يهيمن الهدوء، ولكن ينبغي إشعال عواطف الجمهور).

فلنعد إلى القبطان جاكوماتسي. أعرف حقَّ المعرفة أنّني أقول أشياء بعد فوات الأوان لأنَّ لوتشانو كانفورا قد عبَّرَ مسبقًا عن أفكارٍ أوافقه عليها في موقع *ليتيرا 43* في الثاني من يناير. ولكن لا بأس من العودة إلى الموضوع مرَّةً أخرى. لا شكَّ أنَّ القبطان جاكوماتسي شخصٌ جديرٌ بالثقة (حتّى لو أُثبِتَ لاحقًا أنَّه على صلة بأسباب الحريق) ونأمل أن يقتدي به كلُّ قبطان في المستقبل. لكنَّه ليس بطلًا: إنَّه رجلٌ أدَّى واجبه بنزاهةٍ وبسالةٍ وعلى أتمّ

وجه. فمن واجبات مزاولة الملاحة أن يتعهَّد القبطانُ بأن يكون آخِرَ مَن يغادر السفينة، ومن الأكيد أن ينطوي هذا الواجب على مخاطر، مثلما هي الحال في شروط تجنيد المظلّيّين، الذين قد يلقون مصرعهم في اشتباكٍ مسلَّح.

فمَن هو البطل؟ إذا اتَّبعنا نظريّة الرجل العظيم وفقًا لتوماس كارليل، فالبطل هو كلُّ إنسانٍ عظيم يتمتَّع بالكاريزما ويترك بصمته في التاريخ. فبحسب هذا المعنى يكون شكسبير ونابليون من الأبطال على حدٍّ سواء، بمعزلٍ عن احتماليّة أن يكونا (آملُ أنّني لا أظلمهما) من كبار الجبناء. لكنَّ فكرة كارليل أُدينَت من قِبَلِ تولستوي ومؤرِّخي الحياة المادّية فيما بعد، الذين أعطوا أهمّيّةً أقلّ للأحداث العظمى والتفتوا لدراسة البنى الاقتصاديّة والاجتماعيّة أو النزعات الجماعيّة. وخلافًا لذلك، إذا فتحتَ القواميس والموسوعات، برز دومًا أنَّ البطل هو الذي يؤدّي عملًا استثنائيًّا، لم يُطلَب منه، ويخاطر بحياته لمصلحة الآخرين. سالفو داكويستو كان بطلًا: لم يطلب منه أحد أن يحمل على عاتقه مسؤوليّةً لا تخصُّه، وأن يقف أمام فرقة الإعدام لإنقاذ سكّان بلدته؛ لكنَّه فعلها ولقي مصرعه، بمعزلٍ عن أيّ واجبٍ منوطٍ به. ولكي يصبح المرء بطلًا ليس من الضروريّ أن يكون جنديًّا أو قائد جيش: فالبطل هو ذاك الذي يجازف بحياته لإنقاذ طفلٍ من الغرق، أو زميله في المنجم، أو الذي يتخلّى عن العمل الهانئ في مستشفيات وطنه ويذهب إلى أفريقيا ليخاطر بحياته وسط مرضى الإيبولا. ومن جهةٍ أخرى، يبدو أنَّ جاكوماتسي نفسه قد قال عندما أجريت معه مقابلة عقب عودته: «لا فائدة من الأبطال. لا ينبغي التفكير إلّا بالأشخاص الذين توفّوا». وهذه طريقةٌ حكيمة للهروب من التأليه الإعلاميّ.

لماذا نُلقِّب مَن تحلَّى بالشجاعة والدم البارد وأنجز واجبه، لماذا نُلقِّبُه بالبطل؟ يُذكِّرنا بريخت (في مسرحيّته *غاليليو*) أنَّه ما أتعس ذاك البلد الذي في حاجةٍ إلى أبطال. ما الذي يجعله تعيس الحظّ؟ افتقاره إلى أناس عاديّين يؤدّون ما تعهَّدوا تأديته، بنزاهة، بلا سرقة أو تملُّص كلٍّ من مسؤوليّاته، وينجزون أعمالهم (كما يقال اليوم بابتذال) «بمهنيّة». فعندما يخلو البلد من مواطنين عاديّين، يبحث بيأسٍ كبير عن شخصيّةٍ بطوليّة، ويُقلِّدها أوسمة الذهب يمينًا وشِمالًا.

البلد التعيس هو الذي ما عاد أحدٌ فيه يؤدّي واجبه بإتقان، فيبحث يائسًا عن قائدٍ غوغائيّ، تُسنَدُ إليه سمة الكاريزما، ويؤمر بما يجدر عليه القيام به. وهذه -إن لم تخنّي الذاكرة- هي فكرةٌ عبّر عنها هتلر في كتابه *كفاحي*.

2015

الزمن والتاريخ

إن كنتم لا تحبُّون البرامج التلفزيونيّة التافهة، فليس من الحتميّ أن تمضوا السهرة بلعب الورق. يكفي أن تشاهدوا قناة *راي ستوريا*، وهي الأفضل من بين قنوات شبكة *راي*، وأرشّحها بشدّة خصوصًا للشبّان، كي لا تفقد ذاكرتهم ما كنّا عليه. عنوان البرنامج الذي أتابعه يوميًا تقريبًا هو *الزمن والتاريخ*، بتقديم ماسّيمو برناردينى. ومن الأفضل لهم أن يُقصِّروا الشارة الموسيقيّة (فما بين شارة البداية والبداية الفعليّة هناك وقتٌ للذهاب للاستحمام)، لكنّه برنامج لا يُفوَّت بكلّ الأحوال.

منذ أيّام كانت الحلقة مُكرَّسةً لتربية الأطفال والناشئين المتَّبعة لدى النظام الفاشيّ (الشبيبة الإيطاليّة الرومانيّة، أبناء الذئبة، الإيطاليّات الصغيرات، المسابقات الجامعيّة، النصوص المدرسيّة إلخ). برز تساؤلٌ عندئذ: هل شكّلَت هذه التربية الشموليّة لجيلٍ كاملٍ طابعَ الإيطاليّين في وجدانهم؟ كان من غير الممكن تناسي ملاحظةٍ لبازوليني، الذي أشار إلى أنَّ الطابع الوطنيّ قد تعرَّضَ للتغيير من جانب الرأسماليّة الجديدة ما بعد الحرب فصاعدًا أكثر ممّا طرأت عليه تغييرات من جانب الدكتاتوريّة. تبعتها محادثةٌ بين برناردينى والمؤرِّخة ألسّاندرا تاركويني، لكنَّهما توقَّفا عند تأثير الفاشيّة أكثر ممّا توقَّفا عند تأثير الرأسماليّة الجديدة.

وبالتأكيد (باستثناء المتطرِّفين الفاشيّين الجدد) تبقَّى شيءٌ مّا من إرث الفاشيّة في الطابع الوطنيّ، يطفو على السطح كلَّما سنحت الفرصة: العنصريّة، ورهاب المثليّة، والذكوريّة الصاعدة، ومعاداة الشيوعيّة وتفضيل التوجُّهات اليمينيّة -ولكن في المحصِّلة كانت هذه السلوكيّات راسخةً في إيطاليا الحديثة النشأة ما قبل الفاشيّة أيضًا. إلّا أنّي أعتقد أنَّ بازوليني كان

محقًّا: تأثَّرَ الطابع الوطنيّ عميقًا بأيديولوجيا الاستهلاك، وأحلام السوق الحرّة، والتلفزيون- ولا داعيَ إطلاقًا لإزعاج برلسكوني، لأنَّه إن كان ذا صلة بالشأن فهو يُعدُّ ابن هذه الأيديولوجيا لا أباها، التي نشأت بالتزامن مع جلب المحرِّرين للعلكة، وخطّة مارشال والطفرة الاقتصاديّة في أعوام الخمسينات.

ما الذي كانت الفاشيّة تطالب الإيطاليّين به (أو تفرضه عليهم)؟ الولاء والطاعة والقتال، اعتناق عقيدة الحرب، بل مثاليّة الموت الجميل، القفز في حلقات النار، إنجاب مزيدٍ من الأولاد، اعتبار السياسة الغاية الأساسيّة للوجود، الاعتقاد بأنَّ الإيطاليّين هم الشعب المختار. هل بقيت هذه الملامح في الطابع الإيطاليّ؟ ولا حتّى في الأحلام. لا بل إنَّها موجودة بشكلٍ لافت في الأصوليّة الإسلاميّة -مثلما لاحظ حامد عبد الصمد في عدد/الإسبريسو الماضي- هناك حيث تزخر فعلًا العقيدة المتعصِّبة للتقاليد، وتبجيل البطل وشعار يحيا الموت، وإخضاع المرأة، ومعنى الحرب الدائمة ومثاليّات الكتاب والبندقيّة. قلَّما تشرَّبَ الإيطاليّون هذه الأفكار (ما عدا الإرهابيّين من اليسار واليمين، ولكن حتّى هؤلاء مستعدّون لإماتة الآخرين عوضًا عن الفداء بأنفسهم على غرار الكاميكاز). والدليل على ذلك هو الكيفيّة التي سارت عليها الحرب العالميّة. وللمفارقة، لم تحضر مواجهة الموت الطوعيّة إلّا في لحظةٍ واحدة، وحاسمة، ومأساويّة، في خضمّ الرشقات الأخيرة بين التابعين لجمهوريّة سالو النازيّة وبين المناضلين. أقلّيّة.

فما الذي اقترحته الرأسماليّة الجديدة بخلاف ما سبق، في مختلف أطوار تهافتها، إلى حين ظهور البرلسكونيّة؟ أن تُحَصِّلَ حقوقك، بالتقسيط ربَّما، بشراء سيَّارة، وثلّاجة، وغسَّالة وتلفاز، وباعتبار التهرُّب الضريبيّ ضرورةً إنسانيّةً ملحّة، وبتمضية الأمسيات في اللهو والترفيه، وبالتصبُّب على راقصات شبه عاريات (وإلى أبعد الحدود في هذه الأيَّام، حيث المواقع الإباحيّة الساخنة بمتناول نقرةٍ واحدة)، وبعدم الانشغال كثيرًا بالسياسة، والإحجام عن الانتخابات (وهذا هو النموذج الأمريكيّ في الحقيقة)، وبتحديد عدد الأولاد تجنُّبًا لمحنٍ اقتصاديّة، وباختصار بمحاولة العيش مرفَّهين بتفادي تضحياتٍ إضافيّة. لقد تكيَّفت غالبيّة المجتمع الإيطاليّ مع

هذا النموذج. أمّا مَن يضحُّون بأنفسهم في الذهاب إلى مساعدة البؤساء في العالم الثالث فيبقون أقلّيّةً هزيلة. أناسٌ جنوا على أنفسهم -يقول كثيرون- بدلًا من أن يبقوا في بيوتهم يتفرَّجون على التلفاز.

2015

أشكالٌ مُتعدِّدة من العنصريّة

فلسفة نسويّة

إنَّ الإثبات الفلسفيّ القديم القائم على أنَّ الرجل قادرٌ على التفكير في المطلق اللانهائيّ بينما تهتمُّ المرأة بالمحدود المنتهي، قد يُقرَأ بعدَّة طرائق: فعلى سبيل المثال ما دام الرجل لا يستطيع أن يلد أطفالًا، يُعزِّي نفسه بمفارقات زينون. واستنادًا إلى إثباتاتٍ من هذا النوع انتشرت فكرةٌ تفيد بأنَّ التاريخ (حتّى القرن العشرين على الأقلّ) عرَّفنا على شاعراتٍ عظيمات وروائيّاتٍ كبيرات، وعالماتٍ في مختلف التخصُّصات، لكنَّه لم يُعرِّفنا على نساءٍ فيلسوفات ونساءٍ عليمات بالرياضيّات.

وبناءً على اختلالاتٍ من هذا النوع ترسَّخَ يقينٌ بأنَّ النساء غير مؤهَّلات للرسم، باستثناء روزالبا كارّييرا أو أرتيميزيا جنتليسكي. ومن الطبيعيّ أنَّه إذا كان الرسم منحصرًا في إفريسك جدران الكنائس، فإنَّ صعود السّقالات بالتّنورة لم يكن عملًا لائقًا، كما لم تكن إدارة ورشة تضمُّ ثلاثين مُتدرِّبًا مهنةً تناسب المرأة؛ ولكن ما إن صار من المستطاع الرسم على مسند اللوح حتّى ظهرت نساءٌ رسَّامات. وهذا إلى حدٍّ مّا يشبه القولَ بأنَّ اليهود كانوا بارعين في كثيرٍ من الفنون ما عدا الرسم، إلى أن ظهر شاغال. صحيحٌ أنَّ ثقافتهم كانت سمعيّةً بشكلٍ بارزٍ لا بصريّة، وأنَّها ما كانت لتبيح تجسيد الذات الإلهيّة بالصور، إلّا أنَّنا نجد إنتاجًا بصريًّا مهمًّا بما لا شكَّ فيه عند مطالعة الكثير من المخطوطات العبريّة. الإشكاليّة هي أنَّه كان من الصعب أن يتشجَّعَ يهوديٌّ ليرسمَ مريم العذراء ومشهديّة الصلب، خلال عصورٍ كانت

فيها الفنون التصويريّة حكرًا على الكنيسة: كأن يُدهَش المرء بعدم تولّي أيّ يهوديٍّ منصب البابا.

تذكر الوقائع التاريخيّة أستاذاتٍ في جامعة مدينة بولونيا مثل بيتّيزيا غوتساديني ونوفيلا داندريا، وكُنَّ في منتهى الجمال بحيث اضطررن إلى تقديم الدرس من خلف حجاب كي لا يُهيِّجنَ الطلّاب، لكنّهنَّ لم يُدرِّسنَ الفلسفة. كما أنّنا لا نلتقي في كتب الفلسفة المدرسيّة بنساءٍ يُعلِّمن الديالكتيك واللاهوت. وها هي إلواز، تلميذة الفيلسوف أبيلار المتألِّقة، والتعيسة، اكتفت بالرهبنة في الدير.

بيد أنّه لا يجوز الاستخفاف بمسألة الراهبات، فلقد كرَّست ماريّا تيريزا فوماغالّي كثيرًا من الصفحات لهذا الأمر، وهي أشهر امرأة-فيلسوف في عصرنا. إذ كانت الراهبة تُمثِّل سلطةً روحيّة وتنظيميّة وسياسيّة، وتتسلَّمُ وظائف فكريّة مهمّة في مجتمعات القرون الوسطى. جديرٌ بكتب الفلسفة المدرسيّة أن تُدرِجَ بين أعلام تاريخ الفكر متصوِّفاتٍ جليلات مثل كاترينا دا سيينا، فضلًا عن هايلدغارد بنجين التي ما زلنا حتّى اليوم عاجزين عن الاستغناء عنها لفهم كلّ ما يخصّ الرؤى الميتافيزيقيّة والانطباعات حول المطلق اللانهائيّ.

أجد هشاشةً في الاعتراض الذي لا يعتبر التصوُّف فلسفة، فتاريخ الفلسفة يفسح مجالًا واسعًا لمتصوِّفين عظماء من سويّة هاينريش زويزه، يوهانس تاولر، أو ميستر إكهارت. والقول بأنَّ معظم التصوُّف النسويّ كان يولي أهمّيّةً قصوى للجسد على حساب الأفكار المجرَّدة، يشبه القول بأنَّ على كتب الفلسفة المدرسيّة أن تُسْقِطَ منها، ما أدراني، فيلسوفًا مثل موريس ميرلو بونتي.

انتقت النسويّاتُ منذ زمن بطلةً لهنَّ: هيباثيا التي كانت في الإسكندريّة، إبّان القرن الخامس، أستاذةً للفلسفة الأفلاطونيّة والرياضيّات العليا. أصبحت هيباثيا رمزًا، ولكن مع الأسف لم يبقَ من أعمالها سوى الأسطورة التي تشكَّلت حول شخصها، إذ ضاع أثر أعمالها، وضاع أثرها هي أيضًا، حيث تمزَّقت حرفيًّا إلى أشلاء على يد رعاعٍ مسيحيِّين متوحِّشين، الذين

بحسب بعض المؤرِّخين حرَّضهم كيرلس الإسكندريّ الذي غدا فيما بعدُ قدّيسًا – قدّيسًا ليس لهذا السبب بالطبع. ولكن ألا يوجد سوى هيباثيا؟

قبل أقلّ من شهر صدر في فرنسا (عن دار أرليا) كتيِّبٌ بعنوان *تاريخ النساء الفيلسوفات*. المؤلِّف، لمن يتساءل، هو جيل ميناج، الذي نكتشف أنَّه عاش في القرن السابع عشر، وكان فقيهًا باللاتينيّة وضليعًا بفكر مدام دو سيفينييه ومدام دو لافاييت. وقد ظهر كتابه عام 1690، بعنوان «*Historia Mulierum Philosopharum*». لم يقتصر على هيباثيا فقط: فعلى الرغم من تناول كتاب ميناج للحقبة الكلاسيكيّة بشكلٍ أساسيّ، يُقدِّم لنا مجموعة من الشخصيّات الشغوفات: ديوثيما السقراطيّة، أريتي القورينيّة، نيكاريتا الميغاريّة، هيباركيا الكلبيّة، ثيودورا المشّاءة (بالمعنى الفلسفيّ للكلمة)[1]، ليونسيا الأبيقوريّة، ثيميستوكليا الفيثاغورثيّة. أثناء تصفُّحه النصوص القديمة وأعمال آباء الكنيسة، عثر ميناج على ما لا يقلّ عن خمس وستّين فيلسوفة، ذلك أنَّه استوعب فكرة الفلسفة بمفهومٍ شاملٍ إلى أبعد الحدود. ولكن إذا حسبنا أنَّ المرأة في المجتمع الإغريقيّ كانت محاطةً بجدران بيتها، وأنَّ الفلاسفة كانوا يُفضِّلون اللهو مع الغلمان على الفتيات، وأنَّ المرأة إذا أرادت التمتُّع بشهرةٍ شعبيّةٍ فكان لزامًا عليها أن تصبح محظيّة، أدركنا بذلك حجم الجهود التي بذلتها هؤلاء المفكِّرات لإثبات وجودهنّ. ومن جهةٍ أخرى، ما زالت ذكرى أسبازيا باقية، بوصفها محظيّة، رفيعة المستوى، ويُنسى أنَّها كانت منكبَّةً على البلاغة والفلسفة، وأنَّ سقراط (بحسب شهادة بلوتارخس) كان يتردَّدُ إليها باهتمام.

أخذتُ أتصفَّح ثلاث موسوعاتٍ فلسفيّة معاصرة، ولم أعثر من تلك

1- يشدِّد إيكو على المعنى الفلسفيّ للكلمة «*peripatetica*» أي المدرسة المشّائيّة أو أتباع الفلسفة الأرسطيّة، لأنَّها في التعبير السوقيّ قد تأتي بمعنى «عاهرة» وهذا منتشرٌ في لغاتٍ أوروبيّة عدّة. وإنَّ التشديد على هذا الجانب يصبُّ في مصلحة المقال تمامًا، لأنَّك إذا قلتَ بالإيطاليّة «المشّاء» قصدتَ الفيلسوف المبجَّل والمعلِّم الأوّل أرسطوطاليس الذي كان، بحسب الأسطورة، يحاضر بتلاميذه وهو يمشي حولهم؛ أمّا إذا قلتَ «مشّاءة» قصدتَ العاهرة الساقطة التي تبيع الهوى على أرصفة الطرقات. (المترجم).

الأسماء (ما عدا هيباثيا) على أثر. والحال أنّه كان للفيلسوفات وجودٌ بالتأكيد. إلّا أنَّ الفلاسفة فضّلوا تناسيهنَّ، ربّما بعد أن استولوا على أفكارهنّ.
2003

أين توجد معاداة الساميّة؟

أدّت سلسلةٌ من الوقائع الأخيرة (التي لا تقتصر على التفجيرات، إنّما استطلاعات رأيٍ مقلقة أيضًا) إلى إعادة مسألة معاداة السامية إلى الواجهة. يصعب التمييز بين الاعتراض على سياسات شارون (وهذا ما يجمع عليه كثيرٌ من اليهود) وبين معاداة الدولة الإسرائيليّة، وبين معاداة الساميّة؛ إلّا أنَّ الرأي العامّ ووسائل الإعلام تنزع إلى التعميم المفرط دومًا. إضافةً إلى ما يبدو عليه الرأي العامّ الغربيّ أنّه يركن إلى فكرتين مريحتين: أنَّ معاداة الساميّة مسألةٌ عربيّة، وأنَّ أوروبا ليست معنيَّةً إلّا بجزئيّةٍ منها تتعلّق بحركة النازيّين الجدد حليقي الرؤوس.

لم تستطع أوروبا يومًا أن تُفرِّقَ جيِّدًا بين ثلاثة مظاهر لمعاداة الساميّة: المظهر الدينيّ، والمظهر الشعبيّ، والمظهر «العلميّ». كانت معاداة الساميّة الدينيّة بالتأكيد مسؤولةً عن معاداة الساميّة الشعبيّة: فالقول بأنَّ اليهود هم شعب قتلة الإله سوَّغَ كثيرًا من البوغروم[1]، ذلك أنّه كان من الصعب على الشعوب الأوروبيّة أن تستوعب يهود الشتات الذين قرَّروا الحفاظ على تقاليدهم. ناهيك بأنَّ دينًا يقوم على «الكتاب»، وبالتالي على القراءة، وسط بحرٍ من الأمّيّين، كان يُبدي أتباعَهُ مثل مفكّرين خطيرين يتكلّمون لغةً مبهمة. لكنّني أعني بمعاداة الساميّة على أساسٍ «علميّ» تلك التي ادَّعت -بحججٍ تاريخيّة وأنثروبولوجيّة- تفوُّقَ العرق الآريّ على العرق العبريّ، والتي تبنَّت العقيدة السياسيّة للمؤامرة اليهوديّة الهادفة إلى الاستيلاء على العالَم المسيحيّ؛ العقيدة التي وجدت أقصى تعابيرها في كتاب

1- كلمة روسيّة تشير إلى أحداث الشغب الشعواء الممارسة ضدّ أقلّيّة عرقيّة أو جماعة دينيّة، وكثر استخدامها على الانتهاكات الغوغائيّة ضدّ اليهود منذ العصور الوسطى تقريبًا. (المترجم).

بروتوكولات *حكماء صهيون*. وهذا الكتاب هو من إنتاج الأنتلجانسيا العلمانيّة الأوروبيّة أيضًا.

أمّا في العالم العربيّ فلا وجود لمعاداة الساميّة على أساسٍ دينيّ، لأنَّ القرآن يعترف بتقاليد كبار آباء الكتاب المقدَّس، من إبراهيم وحتّى يسوع. وكان المسلمون في عصور توسُّعهم متسامحين إلى حدٍّ بعيد مع اليهود والمسيحيّين: مواطنين من الدرجة الثانية، بقدر ما كانوا يدفعون الجزية يستطيعون ممارسة شعائر دينهم وتنمية تجاراتهم. ولكونها غير قائمة على الدين، تعدُّ معاداة الساميّة الإسلاميّة اليوم ذات طبيعة عرقيّة–سياسيّة حصرًا (قد تساندها المسبِّباتُ الدينيّة، لكنَّها لا تؤسِّس لها). لو أنَّ صهاينة القرن التاسع عشر أقرّوا دولة إسرائيل الجديدة في يوتا، لما كان العرب معادين للساميّة. لا أودُّ أن يساء فهمي: لأسبابٍ تاريخيّةٍ ودينيّةٍ كان لليهود كلَّ الحقّ في التطلُّع نحو فلسطين، وكانوا قد دخلوا الأرض سلميًّا على مدى قرن، ومن حقِّهم البقاء فيها طالما أنَّهم حصلوا عليها بكدِّهم. لكنَّ معاداة الساميّة العربيّة لا تتمحور حول الدين، إنّما حول الحقّ بالأرض.

وعليه فإنَّ المسؤوليّة الأوروبيّة أخطر. ارتُكِبَت مجازر تحت عنوان معاداة الساميّة الشعبيّة، مسنودةً بمعاداة الساميّة الدينيّة، لكنَّها كانت مجازر محلّيّة وغير ممنهجة. أمّا معاداة الساميّة الحقيقيّة، أي «العلميّة»، فقد نشأت في أواخر القرن الثامن عشر ومطالع التاسع عشر، ليس في ألمانيا بل في إيطاليا، وجزئيًّا في فرنسا الملكيّة الدستوريّة. ففي فرنسا إذًا تشقُّ نظريّاتُ العنصريّة طريقها، أو بالأحرى الجذور العرقيّة للحضارات، وتصاغ ما بين فرنسا وإيطاليا نظريّةُ المؤامرة اليهوديّة بوصفها المسؤولة الأولى عن فظائع الثورة الفرنسيّة ومن ثَمَّ عن مكيدةٍ تروم إخضاعَ الحضارة المسيحيّة. أثبت التاريخ أنَّ كتاب *بروتوكولات حكماء صهيون* كان من إنتاج يسوعيّين دستوريّين بتعاونٍ استخباراتيّ فرنسيّ–روسيّ، واعتُبِرَ في فترةٍ متأخّرة أنَّه عملٌ لا غبار على مصداقيّته لدى الرجعيّين القيصريّين ولدى النازيّين على حدٍّ سواء. وحتّى في الإنترنت نجد أنَّ معظم المواقع العربيّة المعادية للساميّة تتّخذ معاداة الساميّة «العلميّة» الأوروبيّة هذه مرجعًا جوهريًّا لها.

يبذل النائب جانفرانكو فيني الموقَّر قصارى جهده لإسقاط معاداة الساميّة

عن التاريخ القديم لحزبه السياسيّ، ولا يجدر بنا سوى الإشادة بعمله هذا. لكنَّكم إذا ذهبتم إلى مكتبةٍ مُتخصِّصة وجدتُم كتبًا تُعنى بالغيبيّات حول الكأس المقدَّسة، وخطابات موسوليني، وبروتوكولات حكماء صهيون، كلَّها معًا. معيارٌ غريبٌ من نوعه، لطالما أفاد منه مُنظِّرون أيديولوجيّون في اليمين الإيطاليّ، حاضرون دومًا في مكتباتٍ كهذه، مثل يوليوس إيڤولا.

وبطبيعة الحال هنالك منظَّماتٌ إرهابيّة، بعيدة كلَّ البعد عن فاسينو وداليما، تُصرِّح أنَّها «شيوعيّة». لكنَّ اليسار الإيطاليّ أحرزَ بفضل تضحيات قتلاه على الأرض، حقَّهُ بالتمايز عن تلك الكتائب المتطرِّفة، وذلك بانحيازه إلى جانب الدولة في وجه تلك الموجة الإرهابيّة. أمّا مَن يلجأ إلى التعميم المفرط فهو برلسكوني الذي -على الرغم من فاعليّته السياسيّة- لا يستطيع تكوين صلاحيّةٍ ثقافيّة. فهل ذهب يمين فيني الموقَّر أبعد من ذلك؟ هل اليمين مستعدٌّ للقول إنَّ إيڤولا عندما لم يكن مجنونًا طريفًا بما فيه الكفاية -أي يجوز دحضه علميًّا لكنَّه ممتعٌ سرديًّا- كان معاديًا طائشًا للساميّة ولم يتنازل عن رأيه هذا حتّى بعد أن انتهت الحرب؟ مَن الذي يجب عليه أن يتكفَّلَ في المدرسة، والتربية الدائمة للراشدين، باقتلاع جنون معاداة الساميّة «العلميّة» التي كان النائب جورجو ألميرانتي متواطئًا معها، بترؤسه مجلّة التخاريف المسمّاة «*الدفاع عن العرق*»؟

إنَّه لمن الضرورة والواجب أن ندافع عن أنفسنا من خطر الإرهاب العربيّ. ولكنَّ ذلك لن يجدي، على مستوى التربية الدائمة على الأقلّ، إلّا بمكافحة الأعداء الذين في ديارنا، الذين يُلهِمون معاداة الساميّة العربيّة.

2003

مَن نادى بالحجاب؟

في الحجاب قيل كلُّ شيءٍ ونقيضه. يبدو لي الموقف الذي عبَّر عنه رومانو برودي عقلانيًّا: إذا كان المقصود بالحجاب هو الغطاء الأشبه بالفولار الذي يُبقي الوجه مكشوفًا، فليضعه مَن أراد (ناهيك بأنَّه يُلطِّفُ الوجه، ويُظهِرُ كلَّ النساء كالعذراء مريم التي رسمها أنتونيلّو دا ميسّينا، وآمل

ألّا يُفهَمَ حُكمي الجماليّ البريء هذا على أنَّه وقاحة). يختلف الوضع مع كل أشكال النقاب الذي يُغطّي الجسد كلّيًا بما يعيق تحديد هويّة الشخص، لأنَّ القانون لا يسمح بذلك. ولا بدَّ أن يكون هذا المنع قد مهَّدَ لجدالاتٍ من نوعٍ مباين، فبمقتضى هذا القانون يتعيَّن منع أقنعة الكرنفال أيضًا (وأذكِّركم بفيلم *البرتقالة الآليّة*، حيث ارتكب جرائمَ قتلٍ مُروِّعةً مَن وضع قناعًا يثير البهجة). ولكن فلنقل إنَّ هذه مشكلات جانبيّة.

إن كان هنالك «علامةٌ» في كلِّ تلك الحالات حيث ينوب شيءٌ مّا لشخصٍ مّا عن شيءٍ مّا بصفةٍ مّا[1]، فهي أنَّ الحجاب الإسلاميّ ظاهرةٌ سيميائيّة، مثلما هو الزيُّ الموحَّد الذي ليست وظيفته الأساسيّة وقاية الجسم من تقلُّبات المناخ، وقبَّعات الراهبات (وهذه أيضًا غالبًا ما تكون في منتهى اللطافة). هذا ما يجعل الحجاب مثار جدلٍ لا يتوقَّف، في حين أنَّنا لم نتناقش يومًا حول المناديل الكبيرة التي كانت فلّاحاتنا يعتمرنها في السابق، لأنَّها لم تكن تحمل أيّ قيمةٍ رمزيّة.

يُنتَقَدُ الحجاب لأنَّه يُرتَدى للتأكيد على هويّةٍ مّا؛ بينما لا يوجد تحريمٌ للتباهي بهويّةٍ أو الجهر بانتماء: مثل وضع شارة تعريف الحزب على الصدر، أو ارتداء الدثار الكبوشيّ، أو الإزار البرتقاليّ والرأس الحليقة. برز تساءلٌ مثيرٌ للاهتمام حول ما إذا كانت الفتيات المسلمات مُلزَمات بالحجاب لأنَّه فريضةٌ قرآنيّة. وقد صدر مؤخَّرًا كتاب *الإسلام* (منشورات إليكتا، 2006) لغابريلي مانديل خان، النائب العام للطريقة الأخويّة الصوفيّة الخلواتيّة بفرعها في إيطاليا. ويبدو لي الكتاب مدخلًا ممتازًا لتاريخ العالم الإسلاميّ وشريعته وشعائره وطقوسه. إذ يُشدِّدُ على أنَّ الحجاب الذي يُغطّي الوجه والشعر هو تقليدٌ ما قبل إسلاميّ، راجعٌ إلى أسبابٍ مناخيّة أحيانًا، وليس مفروضًا في السورة الرابعة والعشرين من القرآن، التي يكثر الاستشهاد بها في هذه الحالات، والتي بخلاف ذلك تدعو إلى تغطية الصدر فقط.

وإذ خشيتُ أن تكون ترجمة مانديل حداثيّةً ومعتدلة نوعًا مّا، إن صحَّ

1- تعريف العلامة بحسب الفيلسوف السيميائيّ الأمريكيّ تشارل سندرس بيرس. (المترجم).

التعبير، ذهبتُ للبحث في الإنترنت عن القرآن بترجمته الإيطاليّة التي تصدَّى لها حمزة بيكّاردو، تحت الإشراف العلميّ لاتّحاد الجاليات والمنظَّمات الإسلاميّة في إيطاليا، فوجدتُ الآية كاملةً: «وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهنَّ ويحفظن فروجهنَّ ولا يبدين زينتهنَّ إلّا ما ظهر منها وليضربن بخُمُرِهنَّ على جيوبهنَّ ولا يبدين زينتهنَّ إلّا لبعولتهنَّ أو آبائهنَّ أو آباء بعولتهنَّ أو أبنائهنَّ أو أبناء بعولتهنَّ أو إخوانهنَّ أو بني إخوانهنَّ أو بني أخواتهنَّ أو نسائهنَّ أو ما ملكت أيمانهنَّ أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء...». وللتحقّق اطَّلعتُ أخيرًا على القرآن بترجمته الأقدم التي أنجزها ألسّاندرو باوزاني، الخبير الكبير بالدراسات الإيرانيّة (الصادرة عن ريتزولي)، فوجدتُ فيه كذلك، مع بعض الفروقات اللغويّة، فرض «تغطية الصدر بحجاب».

لواحدٍ مثلي لا يفقه العربيّة، ثلاث شهادات من مصادر مختلفة تكفي. القرآن يحثُّ بكلّ بساطة على الاحتشام، ولو كان قد أُنزِلَ اليوم في الغرب لحثَّ على تغطية السُّرّة أيضًا، لأنَّ رقصة البطن صارت منتشرة حتّى في شوارع الغرب.

فمن هو الذي كان ينادي النساء بأن يتحجَّبن؟ يثبت مانديل ببالغ الرضا أنَّ الرسول بولس (في الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس) هو أوَّل المنادين بالحجاب، سوى أنَّه كان يُحدِّد هذا الواجب على النساء الواعظات والمتنبِّئات. ولكن حتّى قبل القرآن بكثير، ها هو العلَّامة ترتليان (الذي كان مونتانيًّا مهرطقًا نعم، لكنَّه يبقى مسيحيًّا) في رسالته *حول زينة النساء* يقول: «يجب ألّا تعجبن إلّا أزواجكنّ. وكلَّما أعجبتنَّهم قلَّ انشغالكنَّ بإعجاب الآخرين. لا تقلقن أيَّتها المباركات، فما من امرأةٍ قبيحةٌ عند زوجها... كلُّ زوجٍ يطالب بهبة الطهارة، لكنَّه لا يرغب في الجمال، إن كان مسيحيًّا... لا أقول لَكُنَّ هذا لأشور عليكنَّ بمظهرٍ خارجيٍّ جلفٍ وسمج، ولا أريد إقناعكنَّ بأنَّه من الخير أن تكنَّ مهملات وقذرات، ولكنَّني (أنصحكنَّ) بالمقدار الأدنى والسليم من الاعتناء بالجسد... وبالفعل يرتكبن خطيئةً بحقّ الربّ أولئك النساء اللواتي يُعذِّبن بشرتهنَّ بالموادّ المبيِّضة، ويُلطِّخن وجناتهنَّ بالصبغة الحمراء ويُكحِّلنَ عيونهنَّ بمسحوق الفحم... يأمركنَّ

الربُّ بأن تتحجَّبن، بحيث لا يظهر الرأس منكنَّ». وهذا ما يفسِّرُ أنَّه في تاريخ الرسم كلّه لا تظهر العذراء أو القدّيسات إلّا محجَّبات، مثل كثيرٍ من المسلمات اللطيفات.

2006

يهود، وماسونيّون ويسار الكافيار

لم يخمد الجدال الصحفيّ حول قضيّة الدون جلميني[1] بعد، ولا يزال حتّى الساعة التي أكتب فيها هذا المقال، وأودُّ الإشارة فورًا إلى أنّني لستُ مهتمًّا كثيرًا بمعرفة ما إذا كانت التُّهم الموجَّهة إليه مُحقَّة أم باطلة، لأنَّ الخطأ فعلٌ إنسانيّ، سواء أكان الخاطئ قسًّا أم قاضيًا؛ أمّا بخصوص ما تبقّى فتلك شؤونٌ شخصيّة. ومن زاويةٍ أخرى، أقرُّ بأنَّ الذين اتَّهموه ليسوا سجناء أو أصحاب سوابق فحسب، إنّما ينحدرون من عوالم المخدِّرات، وإذا كان من الممكن في إمبراطوريّة المخدِّرات تصوُّرُ غولٍ له عيون حشرة ينقضُّ عليك، فمن الممكن أيضًا تصوُّرُ أن يتحرَّش بك كهنوتيٌّ ثمانينيّ، لأنَّ الرعب (كما يؤكِّد لوفكرافت) ليس له حدود.

ورغم هذا يكمن الجانب الأهمّ من القضيّة (الذي نُفِيَ في غضون يومين) في التأكيد على أنَّ تلك الاتّهامات مُقدَّمةٌ من شرذمة من اليهود ويسار الكافيار. ثمَّ صوَّبَ الدون جلميني ادّعاءه جرّاء الردّ اليهوديّ الغاضب، وقال إنَّه يُرجِّح الماسونيّين. وبما أنَّ الماسونيّين هم مثل حبريّة أوبوس داي أو اليسوعيّين، كلَّما خَفُتَ الكلام حولهم كان ذلك أفضل، لم يعيروا أدنى اهتمام للقضيّة، ذلك أنَّ لا أحد قتل ستّة ملايين ماسونيّ (لقي بعض الفحّامين مصرعهم في حقبة اليقظة الإيطاليّة، هذا كلُّ ما في الأمر)، لذا فإنَّ الماسونيّين هم أقلُّ حساسيّة من اليهود حيال هذه المواضيع.

ظهرت عدّة مقالات على الفور (أذكر مقال سيرّا ومقال باتّيستا) تلاحظ

1- اتُّهِمَ الدون بييرينو جلميني بالتحرُّش الجنسيّ في أحد مراكز التعافي من الإدمان؛ فراح يلقي التهم جزافًا، على اليساريّين واللوبي اليهوديّ وأطرافِ أخرى، بحُجَّة أنَّهم ينوون تشويه سمعة الكنيسة الكاثوليكية. (المترجم).

كيف أنَّ اقتباس الدون جلميني يشي بأصداء (واعية أو غير واعية) لجدالات إكليروسيّة غابرة، وأنَّ هذا يُشكِّل الجانب الأسوأ للمسألة. ومن المعلوم جيّدًا بالفعل أنَّ فكرة المؤامرة اليهوديّة-الماسونيّة، قبل أن تتغذّى على *بروتوكولات حكماء صهيون*، كانت قد نشأت في أوساطٍ يسوعيّة واتَّبعت كلَّ الجدل المناهض للثورة الفرنسيّة بدايةً، والمناهض لليقظة الإيطاليّة لاحقًا.

ولكن، بما أنَّ الفاتيكان نفسه قد رفض المؤامرة اليهوديّة-الماسونيّة منذ ذلك اليوم، غدت هذه الصورة تبدو مدفونةً في مكتبات المعاهد الأسقفيّة التي علاها الغبار، في حين تنازلوا عن حقوقها الفكريّة لأدولف هتلر وبن لادن. وها إنَّ كاهنًا حيًّا في هذه الأيّام، ومن المفترض أنّه درس في معهدٍ أسقفيٍّ خلال الثلاثينات (أي بعد الوفاق بين الدولة والكنيسة)، يثبت أنَّه احتفظ في طوايا نفسه بذكرياتٍ شفهيّةٍ على الأقلّ عن الغول الذي قضَّ مضاجع أساتذته الأكبر سنًّا.

في العام 1992، كان هنالك كاردينالٌ مسكين، لم يكن يقصد ازدراء اليهود مطلقًا إنّما كان يهاجم المافيا، فوصفها بأنَّها «كنيس الشيطان». ويا للكارثة! أحدَثَت تصريحاته على الفور جدلًا، شاركتُ فيه أنا أيضًا بكتابة *مغلَّفين*. مَن علَّلَ استخدام هذا التعبير يذكر أنَّ كلمة «كنيس» في القواميس تعني كذلك «مؤتمر، محفل، اجتماع سرّيّ مشبوه»، وقد ورد ذكرها حتّى في رؤيا يوحنا. والحال أنّه ليس في سفر الرؤيا وحده يرد المفهوم بسياقٍ مناوئٍ لليهود، بل إنَّ استعماله الحاليّ راجعٌ إلى كتابٍ صادر عام 1893 من تأليف المونسنيور موران، «*كنيس الشيطان*»، حيث يبيِّنُ فيه أنَّ الماسونيّة، جماعة عبدة إبليس، قد تفشَّت فيها الثقافةُ العبرانيّة (إضافةً إلى -كان موران سخيًّا للغاية هنا- متون هرمس، والغنوصيّين، وعبدة الثعبان، والمانويّين، وفرسان الهيكل وفرسان مالطة) وأنَّ اليهود يطمحون من خلالها إلى الاستيلاء على العالم.

الآن، بعد هذا الكتاب الشيطانيّ (الذي حصل على نجاحٍ كاسحٍ في عهده) لم يعد من الممكن تلافي الانتقاد عند استخدام تعبير «كنيس الشيطان» مثلما لم يعد من المقبول التلويح براية الصليب المعقوف بذريعة أنَّه محض رمزٍ فلكيٍّ بريءٍ ومهيبٍ ذي جذورٍ ما قبل تاريخيّة.

لاحظتُ في أحد *المغلّفات* السابقة بروز جدالات ضارية مضادّة للإكليروس والدين من جهة، واستعادة لجدالٍ كهنوتيٍّ ومرتبطٍ بكفاحٍ مناصرٍ للكنيسة المقدَّسة ضدَّ العالم الحديث من جهة أخرى، وضدَّ أساطير اليقظة (في إيطاليا) وأيديولوجيا الدولة الوحدويّة. وهذا أعقد من مشية القريدس... لكنّي ربّما كنتُ على خطأ، لم نكن بصدد عودةٍ غريبةٍ إلى جدالات ميتة، إنّما عودةٌ طبيعيّةٌ للملغيّ، لشيءٍ كان هناك على الدوام ولم نعد نتحدَّث بشأنه لمجرَّد الحفاظ على حسن التربية. لكنَّ مَن تربَّى على الخشية من المؤامرة اليهوديّة لا ينسَاها أبدًا، حتّى لو من خلال جملٍ جاهزة - وحتّى لو كانت قشرة التحديث الثقافيّ تسمح بإضافة تعابير مثل «يسار الكافيار». باختصار، يبدو أنَّ هنالك مَن لم يتوقَّف البتّة عن قراءة (في الليل أيضًا) روايات الأب بريشاني.

في كلّ هذه الواقعة لم يدهشني سوى أمرٍ واحد: إقحام الدون جلميني الماسونيّين في قائمته المهلوسة. وهذا تعبيرٌ جميل عن الامتنان، طالما أنَّه (أتقيَّدُ بما قيل لي) تلقَّى تمويلاتٍ سخيّةً جدًّا من سيلفيو برلسكوني، العضو السابق في محفل البروباغاندا الماسونيّ P2، بطاقة رقم 1816، رمز E.19.78، مجموعة 17، ملفّ رقم 0625.

2007

تناقضات المعادين للساميّة

دعا دانيال بارنبويم عددًا كبيرًا من المفكِّرين في أنحاء العالم لتوقيع بيان حول الكارثة الحاصلة في فلسطين. والنداء للوهلة الأولى بديهيٌّ أو يكاد، ويطالب في الواقع بالإسراع بوساطةٍ فاعلة بكل السبل الممكنة. لكنَّ أهمّيّته هي من كونه نابعًا من فنّانٍ إسرائيليٍّ كبير: وهو دليلٌ على أنَّ العقول الواعية والمستنيرة في إسرائيل أيضًا تنادي بالكفّ عن التساؤل في أيّ صفٍّ يقع الحقّ أو الباطل، وبالتأسيس للتعايش بين الشعبين. وإن كان كذلك، فمن الممكن تفهُّم مظاهرات الاحتجاج السياسيّ ضدَّ الحكومة الإسرائيليّة، لولا أنَّ تلك المظاهرات عادةً ما تندرج تحت سمة المعاداة للساميّة. وإن

لم يكن المشاركون أنفسهم يعمدون إلى الإقرار الجهير بمعاداتهم للساميّة، فإنَّ الصحف هي التي تفعلها، والتي أقرأ فيها «مظاهرة معادية للساميّة في أمستردام» وأشياء من هذا القبيل، كما لو أنَّها من أكثر الأمور طبيعيّةً في العالم. وصار الأمر يبدو طبيعيًّا لدرجة أنَّه يبدو من غير الطبيعيّ أن تراه طبيعيًّا. ولكن فلنتساءل ما إذا كنّا سنعرّف مظاهرةً سياسيّة ضدّ حكومة ميركل بالعمل المعادي للعرق الآريّ، أو مظاهرةً ضدّ حكومة برلسكوني معاديةً للحضارة اللاتينيّة.

لن تكفي مساحة *المغلَّف* لتناول معضلة معاداة الساميّة الضاربة في القدم، وقياماتها الموسميّة إن صحَّ التعبير، وجذورها المتعدِّدة. إذ إنَّ النزعة التي تحيا طيلة ألفي عام تنضح بشيءٍ من الإيمان الدينيّ، والمعتقد الأصوليّ، ولنا أن نصفها بأحد الأشكال الكثيرة للتطرُّف التي أضرَّت بكوكبنا على مدى قرون. فإذا كان هناك كثيرون ممّن يؤمنون بوجود الشيطان الذي يتآمر لاقتيادنا إلى الهلاك، فلمَ لا يتسنّى لآخرين تصديق المؤامرة اليهوديّة للاستيلاء على العالم؟

ولكن يروقني أن أوضِّح أنَّ معاداة الساميّة، شأنها شأن سائر النزعات الإيمانيّة العمياء وغير العقلانيّة، تعيش على التناقضات، ولا تتجنَّبها بل تقتات عليها بلا استحياء. فعلى سبيل المثال، في كلاسيكيّات معاداة الساميّة في القرن التاسع عشر، انتشرت صورتان نمطيّتان، تُستَخدم كلاهما بحسب مقتضيات الظرف: الأولى هي أنَّ اليهودي، بسبب معيشته في أماكن ضيِّقةٍ ومظلمة، كان أكثر تعرُّضًا للعدوى والأمراض من المسيحيّين، ما يعني أنَّه خطير؛ والثانية هي أنَّه، لأسباب غامضة، كان يُثبِتُ أنَّه أشدُّ صمودًا أمام الأوبئة والجوائح الأخرى، فضلًا عن كونه شهوانيًّا للغاية ومُخصبًا إلى حدٍّ مريع، وبالتالي يُعدُّ خطيرًا بوصفه غازيًا للعالم المسيحيّ.

وهنالك صورةٌ نمطيّة أخرى كانت تُستَعمل على نطاقٍ واسع من قوى اليمين واليسار على حدٍّ سواء، وسأستشهد بكتابٍ كلاسيكيٍّ لدى المعادين للساميّة الاشتراكيّين (توسينيل، «*اليهود الملوك في عصرنا*»، 1847، فرنسا) وكتابٍ كلاسيكيٍّ لدى المعادين للساميّة الكاثوليك الدستوريّين (غوجينو دي موسو، «*اليهود، الدين اليهوديّ وتهويد الشعوب المسيحيّة*»، 1869،

فرنسا). في كلا الكتابين يشار إلى أنَّ اليهود لم يزاولوا الزراعة، ليبقوا منعزلين عن إنتاجيّة الدولة التي كانوا يقيمون فيها؛ وبالمقابل انكبُّوا كلّيًّا على التمويل أي على استحواذ الذهب، ذلك أنَّهم رُحَّلٌ بطبيعتهم، ومستعدُّون دومًا لهجرة الدولة التي استضافتهم، منقادين وراء طموحاتهم الماسونيّة، وبالتالي يحملون ثروتهم معهم بسهولة. لكنَّ هنالك كتبًا معادية للساميّة في تلك الحقبة، إلى جانب البروتوكولات السيِّئة السمعة، كانت تتَّهمهم بالاعتداء على المُلكيّات غير المنقولة بغية الاستيلاء على الحقول.

قلنا إنَّ معاداة الساميّة لا تخشى التناقضات. ولكنْ في الحقيقة هناك ميزةٌ بارزةٌ لدى اليهود الإسرائيليّين وهي أنَّهم زرعوا أراضيهم في فلسطين بطرائق عصريّة وأنشأوا مزارع نموذجيّة، وأنَّهم إذا كانوا يقاتلون فذلك دفاعًا عن أرضٍ يعيشون عليها بعد أن توطَّدوا فيها. ولهذا السبب تمامًا لا لسواه يلومهم المعادون للساميّة العربُ، حتّى إنَّ المشروع الأساسيّ المطروح هو إزالة دولة إسرائيل.

صفوة القول أنَّ المعادي للساميّة ينزعج من اليهوديّ إذا كان وجوده في دياره موقتًا، وينزعج منه بالمِثل إذا كان وجوده فيها ثابتًا. أعلم علم اليقين أنَّ الاعتراض سيكون بطبيعة الحال كالتالي: ذلك المكان الذي قامت عليه إسرائيل هو أرضٌ فلسطينيّة. لكنَّ هذه الأرض لم تُؤخَذ بالعنف وإبادة السكّان الأصليّين، مثل أمريكا الشماليّة، أو بتدمير بعض الدول التي يحكمها عاهلٌ شرعيّ، مثل أمريكا الجنوبيّة، إنّما على مدى هجراتٍ بطيئة وإنشاءاتٍ لم يعترض عليها أحد.

بكلّ الأحوال، إن كان يزعجك اليهوديُّ الذي كلَّما انتقدتَ سياسة إسرائيل اتَّهمكَ بمعاداة الساميّة، فإنَّ القلقَ الأشدّ وطأةً يبثُّه أولئك الذين يسارعون إلى اعتبارك معاديًا للساميّة لمجرَّد أنَّك وجَّهتَ انتقادًا بحقّ السياسة الإسرائيليّة.

2009

الرومانيّون الملاعين[1]

حاولت وزارة الداخليّة أن تنشر بعض البلاغات الرسميّة المحرجة، التي وَثَّقت بموجبها أنَّ المسؤولين عن 60.9 بالمئة من حالات الاغتصاب هم مواطنون إيطاليّون (وبالمناسبة يعرف علماء الاجتماع مسبقًا أنَّ الغالبيّة الساحقة للاغتصاب تُرتَكبُ ضمن العائلة، وقد أحسن السياسيّون مثل برلسكوني وكازيني وفيني وآخرين صنعًا بأنَّهم تطلّقوا، تجنُّبًا لمواقف مأساويّة من هذا النوع). والبقيّة، بما أنَّ الموضة الحاليّة هي إطلاق التّهم جزافًا بحقّ الرومانيّين، فيبدو أنَّ هؤلاء مسؤولون عن نسبة 7.8 بالمئة فقط، في حين أنَّ نسبة 6.3 بالمئة يفوز بها المغاربة (الذين كما يُعلِّمنا ألبرتو مورافيا وصوفيا لورين، قد أدّوا دورهم منذ أكثر من ستّين عامًا)[2].

لا داعي لتذكّرونا بفعلاتهم. مَن سيَّر دوريّات الحرس الشعبيّ؟ هل نلصقها بأهالي مدينة بيرغامو؟[3] لعلّه من المناسب أن نتذكَّر المشاركة المشؤومة للرومانيّين، بعد الحرب مباشرةً، بمجزرة فيلاربابسه، ولكن لحسن الحظّ كان قصاص الإعدام ما يزال نافذًا حينها، ومن العدالة أن يُعدَمَ كلٌّ من

1- يريد أمبرتو إيكو هنا أن يُفنِّد المزاعم الشعبويّة التي تعزو كلَّ جرم يقع في إيطاليا إلى المهاجرين والأجانب. وفي فترةٍ معيَّنة كان للرومانيّين (من رومانيا) النصيب الأكبر من تلك التُّهم، يعمد إيكو إلى تذكير الإيطاليّين بجرائم مُروِّعة ومعروفة اقترفها إيطاليّون، وذلك برَومَنَةَ أسمائهم بحيث يبدو أنَّ الفاعلين رومانيّون. فالهدف من هذه الطريقة الساخرة هي انتقاد الرهاب المهول من الأجانب ولاسيّما الرومانيّين ليبدو أنّه مهزلة. (المترجم).

2- إحالة على رواية *الشوشاريّة*، للأديب ألبرتو مورافيا، التي تحوَّلت إلى فيلم شهير من بطولة صوفيا لورين. والحال أنَّ الشوشاريّة تأتي على ذكر فصيلٍ من المغاربة منخرط في الجيش الفرنسيّ اغتصب أفراده فتيات إبّان دخولهم إيطاليا في صفوف الحلفاء. وقد صدرت الرواية بالعربيّة بترجمة نبيل رضا المهايني عن دار المدى (المترجم).

3- دعت قوى أقصى اليمين في مدينة بيرغامو إلى تشكيل دوريّات من متطوِّعين بحُجّة تأمين المنطقة من المهاجرين غير الشرعيّين الذين تُنسَب إليهم الجريمة والبطالة في البلاد. ويعدُّ هذا خرقًا فاضحًا للقانون وتقويضًا لهيبة الدولة وتعدّيًا على مهامها. لذا فإنَّ إيكو يتساءل هنا: مَن الذي انتهك القانون وحطَّ من قدر مؤسّسات الدولة؟ (المترجم).

لابربيرو، يوهان بوليو، يوهان لينتولوي، وفرنزسك سابوريتولو. ليوناردا شانشولوي، المُصبِّنة[1]، كانت من رومانيا أيضًا؛ ورينا فورت –واضحٌ من اسمها الأجنبيّ أنّها من رومانيا– المسؤولة عن مجزرة شارع سان غريغوريو عام 1946. دع عنك الأصول الرومانيّة للكونتيسة بيلّيتاني (كانت كنيتها قبل الزواج إمينيسكو) التي أطلقت النار على عشيقها في فيلا ديستي عام 1948.

لم تكن ماريّا مارتينارو رومانيّة لكنَّ القاتل المأجور راوول غيانو الذي قتلها عام 1958 (يذكر الجميع جريمة شارع موناتشي) بتفويضٍ من جوفانّي فينارولو، كان من رومانيا بالتأكيد. ومن رومانيا كان المايسترو أرنالد غرازوزول الذي يقال إنَّه قتل زوجته في فيوجي. ورومانيًّا كان بيتر كافلارو الذي أقدم مع عصابته على ارتكاب عمليّة خطفٍ داميةٍ ومخزية في ميلانو؛ وكذلك كان أعضاءُ عصابة شارع أوزوبو الآثمة رومانيين. ولا بدَّ أنَّ الذين هاجموا المصرف الزراعيّ كانوا من رومانيا، على الرغم من عدم اكتشافهم بعد (فريدو وفنتورو رومانيّان بلا شكّ)؛ وأنَّ الإرهابيّين الذين ارتكبوا مجزرة محطّة بولونيا كذلك[2]. ورومانيّان هما بريفتولوي وبرلسكيسكو[3] المشتبه بهما في قضيّة إفساد القضاة؛ ورومانيٌّ هو الفتى مازو الذي قتل أبويه في العام 1991؛ والفتاة إريكا (اسمٌ أجنبيٌّ تقليديّ) والفتى عمر (ومسلمٌ أيضًا؟!) اللذان قتلا أمَّها وشقيقها في نوفي ليغوري كانا رومانيّين أيضًا.

وكانت السيّدة فرنزسك دي كونيا من رومانيا بما لا يقبل الشكّ، والشريكان إيربا أولندو وروتزا كذلك، وسندوارا وكالفولوي وقتلتهما كذلك على حدٍّ سواء. ورومانيّةٌ هي المصارف التي أفضت بالمودعين مؤخّرًا إلى الإفلاس؛ ورومانيّون هم أفراد جماعة أبناء الشيطان. ورومانيّين كان أولئك الأشقياء الذين يرمون الصخور من على جسور الطرق السريعة؛ ورومانيّون هم الكهنة المتحرِّشون بالأطفال؛ ورومانيٌّ قاتل الضابط كالابريزي. ومن

1- ليوناردا تشانتشولي قاتلة متسلسلة من نابولي، كانت تُمزِّق ضحاياها إربًا وتُذوِّبهم بالصودا الكاوية المستخدمة في التصبين. (المترجم).

2- مجزرتا المصرف الزراعيّ بميلانو (1969)، ومحطّة بولونيا (1980)، من تدبير منظّمات إرهابيّة يمينيّة نازيفاشيّة متطرِّفة. (المترجم).

3- إشارة إلى برلسكوني، وتشيزاري بريفيتي وزير الدفاع في حكومته. (المترجم).

رومانيا هم الذين اختطفوا وقتلوا ألدو مورو، كارلو كازالينيو، فيتّوريو باكيليت، والتر توباجي، ماركو بياجي وآخرين[1]. رومانيّون هم قتلة مينو بيكوريلّي، وأفراد منظّمة أونو البيضاء الإجراميّة. وختامًا، كان من رومانيا قتلةُ إنريكو ماتّيي، واللصّ جوليانو ورفيقه بيشيوتا، والمحامي ماورو دي ماورو، والشقيقان روسيلّي، وجاكومو ماتّيوتّي[2].

ومن رومانيا كان اللصّ جوليانو والمسؤولون عن مجزرة بورتيلا ديلي جينستري، والمذنبون في قضيّة ويلما مونتيزي (هل تذكرون العابس بيتشونولوي؟)، ومطلقو النار على المتظاهرين في ريجّو إيميليا، والضالعون بمحاولة الانقلاب «الخطّة الوحيدة». ورومانيّين كان رفاق وحش فلورنسا، والمتورِّطون بمقتل جوفانّي فالكونه، وباولو بورسيلّينو[3]، وبمجزرة ساحة لوجّا في مدينة بريشا، ومذبحة قطار الإيتاليكوس، ومجزرة أوستيكا. ورومانيٌّ هو المسؤول عن مقتل بيير باولو بازوليني، ومطلق الرصاص على ساق إندرو مونتانيلّي، ومجموعة قتل ألدو مورو، وقتلة فرانشسكو كوكو، فيتّوريو أوكّورسيو، إميليو أليسّاندريني، غويدو روسّا، بيبّينو إمباستاتو، بيبّو فاڤا، بييرسانتي ماتّاريلّا، جورجو أمبروزولي، إتسيو تارانتيلّي، سالڤو ليما، الدون بينو بولييزي، إلاريا ألبي، ماسّيمو دانتونا، كارلو جولياني[4]. ومن رومانيا بطبيعة الحال العميل في منظّمة الذئاب الرماديّة الذي حاول اغتيال البابا، وقتلة كارلو ألبرتو دالّا كييزا وعقيلته، ومختطف إيمانويلا أورلاندي. وفي النهاية كان كلُّ المنتمين إلى عشيرة تيميزوارا، بادالامينتو، بروفنسانول، لياجو، بونتادو، ريجنارا رومانيين. ومن رومانيا كان الخنّاقون النازيفاشيّون

1- اغتالت منظّمات اليسار الإرهابيّ المتطرّف: مورو رئيس الحزب المسيحيّ الديمقراطيّ، الصحافيّ والمناضل كازالينيو، الأستاذ الجامعيّ باكيليت، الأكاديميّ توباجي، والقاضي بياجي. (المترجم).

2- ماتّيوتّي سياسيٌّ وصحافيٌّ اشتراكيّ، اغتاله الفاشيّون بإيعازٍ من موسوليني في العام 1924. (المترجم).

3- فالكونه وبورسيلّينو خبيران قانونيّان لقيا مصرعهما على يد المافيا. (المترجم).

4- كارلو جولياني ناشطٌ شابٌّ شارك في الاحتجاجات على مؤتمر الثماني المنعقد في جنوا عام 2001، ولقي مصرعه على يد قوات حفظ النظام الذين شنّوا هجومًا عنيفًا جدًّا على المتظاهرين. (المترجم).

توتو وكونكوتيلولوي، المناصرون بطبيعة الحال لحزب الحرّاس الحديديّين الذي أسَّسَه كودريانو.

لقد دنَّسَ هؤلاء الرومانيّون سمعةَ بلدِ المواطنين النزهاء الذين يتَّقون الله ويتورَّعون عن العنف، ويحترمون الاختلافات العرقيّة والدينيّة والسياسيّة. ولحسن الحظّ أنَّنا أدركنا أخيرًا أنَّ المذنبين هم رومانيّون. والآن، ما علينا إلّا أن ننضوي في دوريّات الحرس الشعبيّ التي تُنظِّمها عصبة الشمال اليمينيّة خيرَ تنظيم، ليتسنّى لنا بعد طول انتظارٍ إحلالُ النظام وإنفاذ القانون من جديد في بلدنا المتعوس هذا.

2009

يا للعار، ليس لنا أعداء!

حدث لي أن رويتُ في هذا العمود مغامراتي مع سائقي التاكسي. تصبح هذه المغامرات مثارًا للاهتمام بصورةٍ أكبر في نيويورك أكثر منها في أيّ مكانٍ آخر، وذلك لأسبابٍ ثلاثة. الأوَّل هو أنَّ سائقي التاكسي هناك ينحدرون من شتّى الأصول واللغات والألوان؛ ثمّة لافتةٌ تشير إلى اسم السائق، وتغدو لعبةً ممتعةً في كلّ مرَّة معرفة ما إذا كان السائق تركيًّا، أو ماليزيًّا، أو يونانيًّا، أو يهوديًّا روسيًّا إلخ. ويبقى معظمهم لصيقين بجهاز الراديو، حيث يخاطبهم المذيع بلغتهم ويبثُّ أغنياتهم، وغالبًا ما تشبه الرحلة من الفيلاج إلى سنترال بارك السفر إلى كاتماندو.

السبب الثاني هو أنَّه لا أحد في نيويورك يعمل سائق تاكسي مدى الحياة، إنّما هي مهنةٌ موقتة؛ بحيث إنَّك تجد على المقود الطالبَ، والمصرفيَّ العاطل عن العمل، والمهاجرَ الآتيَ توًّا. والسبب الثالث هو أنَّ سائقي التاكسي يتعاقبون على جماعات: تكون الغالبيّة في فترةٍ مّا من اليونانيّين، ثمَّ يخلفهم باكستانيّون، ثمَّ يتلوهم جميعًا سائقون من بورتوريكو. الأمر الذي يسمح برصد موجات الهجرة، ونجاحات الأعراق المختلفة: عندما تختفي جماعةٌ مّا من العمل في مجال التاكسي فهذا يعني أنَّها تنجح في مجالٍ آخر، يتناقلون الأخبار، ويدخلون جميعًا في قطاع دكاكين التبغ، أو

متاجر الخضروات، فينتقلون إلى منطقةٍ أخرى من المدينة، ويرتقون مرتبةً اجتماعيّةً وإن صغيرة.

لذا، بمعزلٍ عن الفروقات النفسيّة الفرديّة (هناك الهستيريّ، والمفرط في ترحابه، والملتزم سياسيًّا، والمعادي لشيءٍ مّا، إلخ)، فالتاكسي هو مرصدٌ سوسيولوجيٌّ ممتاز.

في الأسبوع الماضي صدَفَ أنّي ركبتُ مع أحدهم من ذوي البشرة الملوَّنة، يصعب تفكيك طلاسم اسمه، فأوضح لي أنّه باكستانيّ. حينها سألني من أين أتيتُ (في نيويورك يأتي المرء دومًا من مكانٍ بعيد)، فأجبتُهُ أنّني إيطاليّ، فأخذ يستجوبني. كان يبدو مهتمًّا كثيرًا بإيطاليا، لكنّي أدركتُ أنَّ اهتمامه عائدٌ إلى كونه لا يعرف شيئًا عن إيطاليا، لا يعرف أين تقع تمامًا، ولا اللغة التي نتحدَّث بها (وعادةً ما يستغرب السائق عندما أقول له إنّنا في إيطاليا نتحدَّث الإيطاليّة، لأنّه بات يظنُّ أنَّ البشر لا يتحدَّثون إلّا الإنكليزيّة).

قدَّمتُ له توصيفًا سريعًا عن شبه جزيرةٍ تتوسَّطها الجبالُ وتحيط بها السواحل، وتضمُّ مدنًا جميلة. سألني كم تعدادنا، وصُدِمَ لكوننا قلَّةً إلى هذه الدرجة. ثمَّ سألني إن كنّا بيضًا جميعًا أم من عرقٍ هجين، فحاولتُ أن أعطيه فكرةً عن بلدٍ أبيض في الأساس لكنَّ فيه الآن بعض السود، أقلّ من أمريكا بكلّ الأحوال. أراد أن يعرف بطبيعة الحال كم عدد الباكستانيّين، وحزن إثر معرفته أنَّ العدد قليلٌ جدًّا، أقلّ من الفلبينيّين أو الأفارقة، ولا بدَّ أنّه تساءل لماذا يتحاشى أهله هذا البلد.

تحامقتُ حين قلتُ له إنَّ هنالك عددًا لا بأس به من الهنود، فنظر إليَّ ناقمًا: أخطأتُ في وضع شعبين على خلاف في سلّةٍ واحدة، وفي تسمية أناسٍ ينفر منهم ويعتبرهم أدنى منه.

فسألني في النهاية مَن هم أعداؤنا. وعندما قلت «عفوًا؟»، أوضح بفارغ الصبر أنّه يودُّ معرفة الشعب الذي نقاتله حاليًّا على أقاليم متنازع عليها، أو لأحقادٍ عرقيّة، أو بسبب خروقاتٍ مستمرّة للحدود، إلى آخره. فقلتُ له إنّنا لسنا في عداءٍ مع أحد. ففسَّرَ بنفاد صبرٍ أنّه يودُّ معرفة ما إذا كان لنا خصومٌ

تاريخيّون، أولئك الذين ينحروننا ونحن ننحرهم. فردَّدتُ على مسامعه أنّه ليس لنا أعداء، وأنَّ الحرب الأخيرة التي خضناها وضعت أوزارها منذ ما يزيد على خمسين عامًا، من دون أن نعرف تمامًا والحال هذه مَن كانوا أعداءنا ومَن هم حلفاؤنا. لم يبدُ راضيًا: كان يُعبِّر بوضوحٍ عن يقينه من أنَّني أكذب. كيف يُعقَلُ أن يكون ثمّة شعبٌ ليس له أعداء؟

انتهت المحادثة على ذلك النحو، ونزلتُ بعد أن تركتُ له إكراميّةً من دولارين كي أعوِّضه عن سلميَّتنا المتراخية. ثمَّ حدثت لي تلك الظاهرة التي يُسمِّيها الفرنسيّون «*esprit d'escalier*»: أي ما إن تنزل السلالم بعد أن تكون قد تحدَّثتَ مع أحدهم، حتّى تلمع في رأسك الإجابة الصائبة التي كان ينبغي أن تردَّ بها عليه، أو الضربة القاضية التي لم تخطر في بالك في حينها.

كان ينبغي أن أقول له: غير صحيح أنّه ليس للإيطاليّين أعداء. ليس لهم أعداءٌ خارجيّون، وبكلّ الأحوال لم يتوافقوا يومًا على تحديدهم، ذلك أنَّهم في حربٍ دائمة، ولكنْ في الداخل. الإيطاليّون يتحاربون فيما بينهم، مدينةً ضدَّ مدينةٍ في الماضي، مُهرطقين ضدَّ مُتزمِّتين، ثمَّ طبقةً ضدَّ طبقة لاحقًا، وحزبًا ضدَّ حزب، وتيّارًا من الحزب ضدَّ تيّارٍ من الحزب نفسه، ثمَّ منطقةً ضدَّ منطقة، وفي النهاية حكومةً ضدَّ القضاء، والقضاء ضدَّ القوى المسيطرة على الاقتصاد، والتلفزة الحكوميّة ضدَّ التلفزة الخاصّة، وحلفاء ائتلاف ضدَّ حلفاء الائتلاف ذاته، وإقليمًا ضدَّ إقليم، وصحيفةً ضدَّ صحيفة.

لستُ واثقًا ممّا إذا كان سيفهمني، لكنّني على الأقلّ ما كنتُ لأبدو مُخزيًا كمَن ينتمي إلى بلدٍ ليس له أعداء.

2009

هل نقاطع أساتذة اللاتينيّة الإسرائيليّين؟

في يناير 2003، أسِفتُ في أحد *المغلّفات* على أنَّ المجلّة البريطانيّة *The Translator*، التي ترأسها القديرة منى بيكر، المشرفة على «*Encyclopedia of Translation Studies*»/ «*موسوعة دراسات الترجمة*»، قرَّرت (في سياق اعتراضها على سياسات شارون) أن تقاطع

المؤسَّسات الجامعيّة الإسرائيليّة، لذا طالبت أكاديميّين إسرائيليّين اثنين، كانا جزءًا من هيئة إدارة المجلّة، بتقديم الاستقالة. وللصدفة، كان الأكاديميّان من أشهر المعترضين على سياسة حكومة بلدهما، إلّا أنَّ منى بيكر لم تُعِرْ هذا الأمر اكتراثًا.

ولاحظتُ أنَّه ينبغي التميز بين سياسة حكومةٍ مّا (بل وحتّى دستور دولةٍ مّا) وبين التوتُّرات الثقافيّة التي يشهدها البلد. كنتُ ألمِّحُ ضمنيًّا إلى أنَّ اعتبار جميع مواطني البلد مسؤولين عن سياسة حكومتهم هو واحدٌ من أشكال العنصريّة. ليس هناك أيُّ فرق بين مَن يتصرَّف على هذا النحو، وبين مَن يؤكِّد على ضرورة قصف كلِّ الفلسطينيّين ما دام يرتكب بعض الفلسطينيّين عمليّاتٍ إرهابيّة.

الآن، قُدِّمَ في تورينو بيانٌ من جانب «الحملة الإيطاليّة للمقاطعة الأكاديميّة والثقافيّة لإسرائيل»، الرامية لانتقاد سياسة الحكومة الإسرائيليّة، يؤكِّد على أنَّ «الجامعات، والأكاديميّين والمفكِّرين الإسرائيليّين، بالمجمل تقريبًا، أدّوا ويؤدُّون دورًا داعمًا لحكومتهم فهم ضالعون في سياساتها. الجامعات الإسرائيليّة هي أيضًا مكانٌ تتحقَّقُ فيه أهمُّ مشاريع البحوث، لغاياتٍ عسكريّة، على أسلحةٍ جديدة ترتكز على النانوتكنولوجيا والأنظمة التكنولوجيّة والسيكولوجيّة لمراقبة المدنيّين وقمعهم».

والمطلوب هو الامتناع عن المشاركة في أيّ شكل من أشكال التعاون الأكاديميّ والثقافيّ، والإسهام بأيّ مشروعٍ مُقترنٍ بالمؤسَّسات الإسرائيليّة؛ والعمل على دعم المقاطعة الشاملة للمؤسَّسات الإسرائيليّة على المستويين الوطنيّ والدوليّ، بما في ذلك تعليق كلّ أشكال التمويل والمساعدات لهذه المؤسَّسات.

لا أوافق إطلاقًا على سياسة الحكومة الإسرائيليّة، ولقد قرأتُ باهتمامٍ بالغٍ بيانَ كثيرٍ من اليهود الأوروبيّين ضدَّ توسيع المستوطنات الإسرائيليّة (البيان، والجدل الذي أثاره، يُظهِران مدى احتدام النقاش حول هذه المعضلات في المجتمع اليهوديّ، داخل إسرائيل وخارجها). لكنّي أعتبر التأكيد على أنَّ «الأكاديميّين والمفكِّرين الإسرائيليّين، بالمجمل تقريبًا، أدّوا

ويؤدُّون دورًا داعمًا لحكوماتهم» محض افتراء، لأنَّ جميعنا يعلم كم من المفكِّرين الإسرائيليّين قد جادلوا ويجادلون في هذه الموضوعات.

هل ينبغي لنا الامتناع عن استضافة كلِّ فيلسوفٍ صينيّ إلى مؤتمرٍ للفلسفة بسبب أنَّ حكومة بيجين تحظر غوغل؟

بوسعي أن أتفهَّمَ مثلًا (للخروج من الموضوع الإسرائيليّ المحرج) أن يقطع قسمُ الفيزياء بجامعة روما أو أكسفورد كلَّ علاقاته المؤسّساتيّة بقسم الفيزياء بجامعة طهران أو بيونغ يانغ إذا ثَبُتَ أنَّ الأخير مُتورِّطٌ على نطاقٍ واسع في التعاون لصنع القنبلة الذرّيّة في إيران أو كوريا الشماليّة. لكنّي لا أستطيع أن أفهم لماذا يجدر بتلك الجامعات أن تقطع علاقاتها بقسم تاريخ الفنون الكوريّة أو الأدب الفارسيّ القديم.

رأيتُ أنَّ صديقي جانّي ڤاتّيمو شارك في إطلاق نداء المقاطعة ذاك. حسنًا، فلنفترض (عبثًا!) أنَّ بعض الدول الأجنبيّة تناقلت شائعةً تقول إنَّ حكومة برلسكوني تنتهك مبدأ الديمقراطيّة المقدَّس المتمثِّل بفصل السلطات وذلك بإسقاط شرعيّة القضاء، وتفيد من دعم حزبٍ عنصريٍّ ومعادٍ للأجانب بصورةٍ حتميّة. هل سيطيب لڤاتّيمو، المنتقد الكبير لهذه الحكومة، أن تكفَّ الجامعات الأمريكيّة عن دعوته بصفته بروفسورًا زائرًا، وأن تعمل الهيئاتُ المختصّة بالدفاع عن سلطة القانون على سحب جميع منشوراته من المكتبات الأمريكيّة؟ أظنُّ أنَّه سيصيح في وجه الظلمِ ويجزم أنَّ هذا مشابهٌ لتحميل كلّ اليهود المسؤوليّة عن قتل الإله لمجرَّد أنَّ مجمع السنهدريم كان مُتكدِّر المزاج في يوم الجمعة ذاك.

غير صحيح أنَّ كلَّ الرومانيّين مغتصبون، وكلَّ القساوسة متحرِّشون بالأطفال، وكلَّ الدارسين لفلسفة هايدغر نازيّون. وعليه فإنَّ أيَّ موقفٍ سياسيّ، وأيَّ انتقادٍ بحقّ حكومةٍ معيَّنة، لا ينبغي أن يشمل شعبًا كاملًا وثقافةً كاملة. وهذا ينطبق بشكلٍ خاصّ على جمهوريّة المعرفة، حيث لطالما كان التضامن بين أكاديميّي العالم وفنّانيه وكُتَّابه وسيلةً لتجاوز كلِّ الحدود بهدف الدفاع عن حقوق الإنسان.

2010

جمل شرطيّة واعتداءات

منذ خمسة عشر يومًا اعترضتُ على دعوةٍ لمقاطعة المؤسَّسات الأكاديميّة الإسرائيليّة والمفكِّرين الإسرائيليّين، التي وقَّعَ عليها حتّى صديقي جانّي ڤاتّيمو. لم أضع الخلاف على سياسة الحكومة الإسرائيليّة موضعَ نقاش، لكنّي كنتُ أقول إنَّه من غير الممكن تأييد ما ترمي إليه الدعوة، بأنَّ «الأكاديميّين والمفكِّرين الإسرائيليّين، بالمجمل تقريبًا، أدَّوا ويؤدُّون دورًا داعمًا لحكومتهم فهم ضالعون في سياساتها». فجميعنا يعلم كم مفكِّرًا إسرائيليًّا يجادل في هذه الموضوعات.

ثمَّ تلقَّيتُ رسالة محترمة من ڤاتّيمو، وفي الوقت نفسه عدّة رسائل من قرّاءٍ يشاركونه آراءه. يقول ڤاتّيمو: «أشعر أنَّني كالملام على استعمالٍ خاطئ للجملة الشرطيّة -أقدِّرُ مدى اهتمامك بالكلمات والنحو وأنت عالم السيمياء- في خطابٍ يدور حول الاعتداء على مدرسة دياز... السؤال الجوهريُّ هو التالي: كم مفكِّرًا إيطاليًّا من عيارك أو، عذرًا، أقلّ منك أهمّيّةً، اتَّخذ موقفًا صريحًا ضدّ مذبحة غزة؟ والآن كم مفكِّرًا إيطاليًّا ندَّدَ بإيقاف تشومسكي على الحدود؟».

لكنَّني في ذلك الحين لم أكن ألوم ڤاتّيمو، بخصوص الاعتداء على مدرسة دياز[1]، على استعماله الخاطئ للجملة الشرطيّة، إنّما لأنَّه أراد أن يدوس على جميع رجال الشرطة الإيطاليّين انتقامًا لما فعله بعضهم. وأتصوَّرُ أنّه لا بدَّ لكلِّ إنسانٍ يتمتَّع بالحسِّ السليم أن ينبذ هذه الفكرة جملةً وتفصيلًا. فإذا كانت أخطاء شخصٍ واحد تبيح لنا الحكم على فئةٍ بأكملها، أو على شعبٍ بأكمله، فقد لا يكون هذا معاداةً للساميّة بقدر ما هو عنصريّةٌ مؤكَّدة. السؤال الجوهريُّ الذي يتحدَّث عنه لم يكن بخصوص السكوت

1- في الحادي والعشرين من يوليو 2001 اقتحم رجال الشرطة مدرسة دياز واعتدوا على الناشطين الذين اتّخذوها معقلًا للاحتجاج على انعقاد مؤتمر مجموعة الدول الصناعية الثماني في جنوا. وأسفر الاعتداء عن جرحى بعضهم في حالةٍ حرجة. ويبدو أنَّ ڤاتّيمو انتقد أداء جهاز الشرطة بالعموم، في حين أنَّ إيكو رفض التعميم. (المترجم).

عمّا يحدث في غزة (وهو حدثٌ فظيع) أو التضييق المستنكر على تنقُّلات تشومسكي (الذي بالمناسبة أعرب عن رفض المقاطعة). السؤال الجوهريُّ كان متعلِّقًا بالمقاطعة.

تجتهد كلُّ الرسائل التي وصلتني بتعداد الحجج ضدَّ سياسة الحكومة الإسرائيليّة، متناسين أنّني أنا نفسي عبَّرتُ عن عدم موافقتي عليها. لكنَّ مقالتي كانت تتساءل عمّا إذا كان بالاستناد إلى رفض سياسة إحدى الحكومات، يحقُّ للمجتمع الثقافيّ الدوليّ أن يحظر كلَّ الباحثين والعلماء والكتّاب المنتمين إلى البلد الذي تحكمه تلك الحكومة.

ويبدو أنَّ المعترضين على كلامي لا يرون أيَّ فرقٍ بين المشكلتين. فعلى سبيل المثال يكتب إليَّ ڤاتّيمو، للتشديد على أنَّ فكرة المقاطعة تقوم على مناهضة الصهيونيّة لا على معاداة الساميّة: «هل من المعقول أن نتّهم بمعاداة الساميّة كثيرًا من اليهود المناهضين للصهيونيّة الذين يشعرون بأنَّ دينهم اليهوديّ مهدَّدٌ تمامًا من سياسة القوّة هذه؟». هنا مربط الفرس بالضبط. إن كنّا نقرُّ –وعلينا أن نقرَّ لا محالة– بوجود عدد كبير من اليهود (حتّى داخل إسرائيل، بالمناسبة) الرافضين لسياسة القوّة التي تتّبعها حكومتهم، فلماذا يُدعى إلى مقاطعةٍ شاملةٍ تعمُّ هؤلاء أيضًا؟

انتشر خبران سيّئان مؤخّرًا. الأوّل عن حظر مدارس المتطرّفين الدينيّين الإسرائيليّين مآسي سوفوكليس، ورواية *آنا كارينينا*، وأعمال إسحاق باشيفيس سنجر والرواية الأخيرة لعاموس عوز. لا شأن للحكومة بهذا، إنّما طالبان المحلّيّة، ونعرف جيّدًا أنَّ طالبان موجودة في كلِّ مكان (كان لدينا كذلك طالبان كاثوليك تُحرِّمُ فكر ماكيافيلّي). فلماذا إذًا (وهذا هو الخبر الثاني) تصرَّفَ المقاطعون في تورينو على غرار طالبان عندما احتجّوا على منح جائزة صالون الكتاب (التي مُنِحَت في النهاية) لعاموس عوز؟ باختصار، لأنَّ عاموس عوز غير مُرحَّبٍ به في ميا شياريم (حيُّ الأصوليّين في القدس) وغير مُرحَّبٍ به في تورينو (مدينة الكفن المقدَّس). فإلى أين يذهب هذا اليهوديُّ الشريد؟

يصرُّ ڤاتّيمو على أنَّ مناهضة الصهيونيّة لا تعني معاداة الساميّة. وأنا

أؤمن بذلك. أعلم جيّدًا أنّه منذ سنتين حينما أكّدَ أنّه يكاد يُصدّق ما جاء في *بروتوكولات حكماء صهيون*، إنّما أراد أن يطلق إحدى نكاته المستفزّة التي يتميَّز بها – إذ لا وجود لإنسانٍ عاقل وصاحب دراساتٍ فذّة يقرأ *البروتوكولات* ويعتبر هذه المجموعة من الفضائح الذاتيّة المتناقضة فيما بينها عملًا أصيلًا (ويُصدِّق أنَّ حكماء صهيون كانوا على ذلك القدر من الغباء). ولكن قد ينتبه ڤاتّيمو إلى أنّه في الإنترنت ثمّة مواقع تستنكر نكتته، إلى جانب مواقع كثيرة أخرى تبتهج بها. فكلُّ نكتةٍ متطرِّفة هي عرضةٌ لموافقة البلهاء دائمًا.

لكنَّ ڤاتّيمو (وأفهمه) لا يستطيع ادِّخار النكات، فيختم قائلًا: «أحمدي نجاد يُهدِّد بمحو إسرائيل؟ هل هناك مَن يُصدِّق ذلك حقًّا؟». حسنًا، قد أكون عاطفيًّا، لكنّني أخاف قليلًا إذا صرَّحَ أحدهم عن نيّته بإزالة أمّةٍ عن وجه الأرض. وهي الأسباب ذاتها التي تجعلني أقلق على مصير الفلسطينيّين.

2010

اخرس، أيُّها المفكِّر القذر!

لا يصدر هذا *المغلَّف* إلّا كلَّ خمسة عشر يومًا، بحيث إنَّه إذا وقع شيءٌ مّا يهمُّني كثيرًا، توجَّبَ عليَّ الانتظار أسبوعين لكي أتحدَّثَ فيه. إلّا أنَّ الأوان لا يفوت أبدًا. إذًا، في مطلع مارس، كتب إرنستو غالّي ديلّا لوجّا في *الكورييري ديلا سيرا*، عدّة أشياء بدت انتقاديّةً بحقّ شعب الحرّيّة[1]؛ وها إنَّ ساندرو بوندي، إنياتسيو لاروسّا، ودينيس فرديني، المنسِّقين لهذا الحزب، كتبوا رسالةً في الرابع من مارس وفي الصحيفة نفسها للتعبير عن استنكارهم. لن أدخل في حيثيّات المسألة، فصاحب الرأي حرٌّ بانتقاد أيِّ حزبٍ سياسيّ، وبعض رجال السياسة أحرارٌ بالردِّ على تلك الانتقادات. ما يهمُّني فعلًا هو خيارٌ معجميٌّ لجأ إليه الممثِّلون الثلاثة لحزب الحرّيّة.

كتب هؤلاء: «هنالك انتقادات... تغدو عقيمةً مع الأسف لأنَّها لا

1– «شعب الحرّيّة»، هو ائتلاف يمين الوسط الذي ضمَّ قوى اليمين والمحافظين والنيو ليبراليين عام 2009 بزعامة سيلفيو برلسكوني وحزبه فورتسا إيطاليا. انحلَّ الائتلاف في العام 2013.

تنبع من رؤيةٍ صادقة للواقع، إنّما من فكرٍ ذي مرجعٍ ذاتيّ، على حدّ وصف المفكّرين». ويظهر في مقاطع لاحقة من الرسالة أنَّ ما جاء به غالّي ديلا لوجّا هو انتقاداتٌ تقليديّة لـ«مفكّر»، وأنَّ مَن يبني انتقادات كتلك يتصرَّفُ «كما لو أنَّ الوقائع ليست موجودة، متقوقعًا في وسطٍ عقيمٍ فعليًّا لا يصحبه فيه سوى كتبه المفضَّلة، وتأمُّلاته المسهبة التي لا تخصُّ أحدًا غيره».

ما يثير الاستغراب هو أنَّه، إذا كان المقصود بكلمة «مفكِّر» هو الشخص الذي يعمل بوساطة التفكير بدلًا من الإعمال اليدويّ، فهذا يعني أنَّ وظيفة المفكّر لا تنحصر في الفلاسفة والصحفيّين، إنّما تشمل موظَّفي المصارف، وموظَّفي شركات التأمين، وبالتأكيد رجال السياسة مثل بوندي (الذي يكتب قصائد أيضًا) ولاروسّا وفيرديني الذين بحسب ما وردني لا يتقاضون معاشاتهم من فلاحة الأرض. أمّا إذا كان المقصود بالمفكِّر هو الشخص الذي لا يعمل بوساطة التفكير فحسب، إنّما بوساطة التفكير يؤدّي مهامّ نقديّة (أيًّا كان ما ينتقده، وأيًّا كانت الطريقة)، فهذا يعني، مرّةً أخرى، أنَّ الموقِّعين على الرسالة يجدر بهم اتِّخاذ أنفسهم مثالًا عن العمل الفكريّ.

وهذا لأنَّ لكلمة «Intellectuel» إيحاءاتٍ تاريخيّةً مميَّزة. فعلى الرغم من اكتشاف أحدهم ظهورها للمرّة الأولى عام 1864 في رواية *الفارس ديتوش* لباربي دورفيليه، وعام 1879 لدى موباسان، وعام 1886 لدى ليون بلوا، فلقد بدأ استخدامها الممنهج خلال قضيّة دريفوس، منذ العام 1898 على الأقلّ، حين عمدت مجموعة من الكتّاب والفنّانين والعلماء مثل بروست، أناتول فرانس، سوريل، مونيه، رونار، دوركهايم، علاوة على إميل زولا الذي سيكتب رسالته اللاذعة «*J'accuse*»/ «*أنا أتّهم*»، إلى الإعراب عن يقينهم من أنَّ دريفوس كان ضحيّة مؤامرة، حاقدة على اليهود في جزء كبير منها، وعن مطالبتهم بإعادة النظر في المحاكمة. عُرِّفَ هؤلاء بصفة المفكِّرين من قِبَلِ جورج كليمنصو، لكنَّ الصفة سرعان ما استُخدِمَت بهدف القدح من قِبَلِ ممثِّلين عن الفكر الرجعيّ مثل موريس بارّي وفرديناند برونتيير للدلالة على الأشخاص الذين، عوضًا

عن انشغالهم بالشعر والعلم والتخصُّصات الغامضة الأخرى (بشؤونهم الخاصّة، بالمحصِّلة)، يحشرون أنوفهم في أمورٍ لا يفقهونها، من قبيل مشكلات التجسُّس الدوليّ والعدالة العسكريّة (التي ينبغي إيلاء شؤونها إلى العسكر بالضبط).

المفكِّر إذًا، بحسب تعريف المناوئين لدريفوس، هو الشخص الذي يقضي حياته بين الكتب وأفكاره التجريديّة الدخانيّة وليس له تواصل بالواقع الملموس (فمن الأفضل أن يخرس إذًا). ينبع هذا التقييم التحقيريّ من جدليّات ذلك العصر، لكنَّه يبدو مماثلًا بشكلٍ فريدٍ للتعابير المستخدمة في رسالة كلٍّ من بوندي ولاروسّا وفيرديني.

لا أجرؤ على الظنّ بأنَّ الموقِّعين الثلاثة على الرسالة، على الرغم من كونهم مفكِّرين هم كذلك (بحيث إنَّهم يتباهون بمعرفتهم مصطلح «المرجع الذاتيّ»)، تنطبق عليهم الصفة إلى حدِّ درايتهم بجدليّاتٍ مضت عليها مئة وعشرون سنة. كلُّ ما في الأمر أنَّهم يحتفظون في جيناتهم بذكرياتٍ عن آفاتٍ جداليّة قديمة، كتلك التي تصف على أساسها أحدهم بأنَّه مفكِّرٌ (قذر) لأنَّه يفكِّر (فهو مفكِّرٌ إذًا) بطريقةٍ مختلفة عنك.

2010

أزواجُ زوجاتٍ مجهولات

يُوثِّق موقع موسوعة *النساء* (*www.enciclopediadelledonne.it*) الإلكترونيّ عددًا كبيرًا من النساء، من كاترينا دا سيينا إلى تينا بيكا، وما بينهما عددٌ لا يُحصى من النساء اللواتي طواهنَّ النسيان عمدًا وظلمًا. ومن جهة أخرى، يُحدِّثنا جيل ميناج منذ العام 1690 في كتابه التأريخيّ عن النساء الفيلسوفات، عن ديوتيما السقراطيّة، أريتي القورينيّة، نيكاريتا الميغاريّة، هيباركيا الكلبيّة، ثيودورا المشّاءة (بالمعنى الفلسفيّ للكلمة)، ليونسيا الأبيقوريّة، ثيميستوكليا الفيثاغورثيّة، اللواتي نعلم عنهنَّ القليل القليل. ومن المنصف أن يُسلَّط الضوء عليهنَّ الآن بعد قرونٍ من التغييب.

أمّا ما نفتقر إليه فهو موسوعة عن الزوجات. يقال إنَّ وراء كلّ رجلٍ

عظيم امرأةً عظيمة، بدءًا بجستنيان وثيودورا ووصولًا -إن أردتم- إلى أوباما وميشيل (ومن المثير للاستغراب ألّا يكون العكس صحيحًا: اِقرأ عن إليزابيث الأولى وإليزابيث الثانية)؛ إلّا أنَّه بالعموم لا يؤتى على ذكر الزوجات. ومن العصر الكلاسيكيّ القديم فصاعدًا صارت الأهمّيّة تولى إلى العشيقات أكثر منها للزوجات. اشتُهِرَت كارلا شومان أو ألما ماهلر بسبب ذكرياتها الخارجة عن إطار الزواج. والزوجة الوحيدة التي ما زالت تُذكَر بوصفها زوجةً هي زانثيب، ودائمًا ما يَرِدُ اسمها بالسوء.

وقع بين يديَّ نصٌّ لبيتيغريلّي، الذي يحشو حكاياته باقتباساتٍ تثقيفيّة، وغالبًا ما يخطئ بالأسماء (Yung عوضًا عن Jung، دائمًا)، لا بل غالبًا ما يخطئ بالحواديت، التي يتصيَّدها من سجلّات وقائع لا أصل لها. في إحدى الصفحات يذكر تنبيهًا لبولس: «تزوَّجوا عندما لا تستطيعون تحمُّل المزيد!» (وهذه نصيحةٌ جيّدة للقساوسة المتحرِّشين بالأطفال)، لكنَّه يلاحظ أنَّ غالبيّة العظماء، مثل أفلاطون ولوكريتيوس وفرجيل وهوراس وآخرين، كانوا عُزَّبًا. لكنَّ هذا غير صحيح، أو ليس بالمطلق على الأقلّ.

بما يتعلَّق بأفلاطون لا بأس، يخبرنا المؤرِّخ ديوجانس اللايرتيّ عنه أنَّه لم يكن يكتب الأشعار إلّا لفتيةٍ وسيمين، مع أنَّه اتَّخذ من بين تلامذته امرأتين، لاستينيا وأسيوتيا؛ وذلك مع أنَّه كان يقول إنَّ الرجل العفيف ملزمٌ باتّخاذ زوجة. من الواضح أنَّ الزواج الفاشل لسقراط كان يُثقِلُ عليه. بيد أنَّ أرسطوطاليس تزوَّجَ بيثيا، وبعد وفاتها عاشَرَ إربيليد، لا يُعرَفُ بالضبط إذا ما عاشرها كزوجة أو كخليلة، لكنَّه ساكَنَها كزوجةٍ له، لدرجة أنَّه ذكرها بمودّة في وصيّته، علاوة على أنه أنجب منها نيقوماخس، الذي نُسِبَت إلى اسمه إحدى مدارس الأخلاق.

لم يكن لدى هوراس أيّ زوجة أو ولد، لكنّي أظنُّ -بالرجوع إلى كتاباته- كانت تروقه بعض الهفوات. وكان فرجيل يبدو خجولًا حتّى إنَّه لا يجرؤ على المصارحة بحبّه، ولكن سرت شائعات عن علاقته بزوجة الشاعر فاريوس روفوس. هذا وقد تزوَّجَ أوفيد ثلاث مرّات. أمّا عن لوكريتيوس، فلا تخبرنا المصادر القديمة بشيءٍ تقريبًا، لكنَّ القدّيس جيروم يلمح إلى أنَّ

لوكريتيوس قد انتحر لأنَّ إكسير الحبّ ساقه نحو الجنون (ربّما لأنَّ للقدّيس مصلحةً في إضفاء الجنون على ملحدٍ خطير). ومن هنا أخذت التقاليد القروسطيّة والإنسانويّة تحيك القصص حول امرأةٍ غامضة تدعى لوسيليا، قد تكون زوجته أو عشيقته، قد تكون ساحرة أو امرأة مغرمة به طلبت الإكسير من ساحرة. ويقال أيضًا إنَّ لوكريتيوس تجرَّعَ الإكسير بنفسه، ولكن بأيّ حال لا تظهر لوسيليا بصورةٍ إيجابيّة في كلّ هذا. إلّا إذا كان بومبونيو ليتو على حقّ، فبالنسبة إليه انتحر لوكريتيوس جرّاء غرامه العاثر برجلٍ يدعى أستيريسكوس.

ومع تقدُّم العصور، ظلَّ دانتي يُخصِب خيالاته حول بياتريتشي، لكنَّه كان متزوِّجًا بجيمّا دوناتي، علمًا بأنَّه لا يتحدَّث عنها البتّة. ويظنُّ الجميع أنَّ ديكارت كان أعزب (لكونه قد توفّي باكرًا وعاش حياة حافلة بالأحداث)، لكنَّه في الواقع كان لديه ابنة، فرانسين (توفّيت في ربيعها الخامس) من مُدبِّرةٍ منزليّة عرفها في هولندا، هيلينا يانس فان دير ستورم، التي اتّخذها شريكةً عدّة سنوات، مع أنَّه لم يعترف بها سوى خادمة. لكنَّه وخلافًا لكلّ الافتراءات اعترف بابنته - ووفقًا لمصادر أخرى كانت له مغامرات غراميّة أخرى.

خلاصة القول، يكثر الظنُّ برجال الكهنوت والشخصيّات الخياليّة التي تفاوتت في الإفصاح عن مثليّتها الجنسيّة مثل سيرانو دو برجيراك (أعتذر على هذا الخبر السيّئ لعشّاق روستان) أو فيتغاينشتاين، على أنَّهم عُزَّب، في حين أنَّ الرجل العظيم الوحيد الذي تأكَّدت عزوبته هو كانط. قد لا تُصدِّقون لكنَّ هيغل أيضًا كان متزوِّجًا، بل يبدو أنَّه كان زير نساء كذلك، وله ابن طبيعيّ، وشهيّة مفتوحة على الطعام. دع عنك ماركس، المتعلِّق أشدَّ التعلُّق بزوجته جينّي فون ويستفالين.

تبقى هناك مشكلة: ما أثر جيمّا على دانتي، وهيلينا على ديكارت، وسائر الزوجات الأخريات اللواتي يتكتَّم التاريخ عن ذكرهنّ؟ وماذا لو أنَّ إربيليد هي التي كتبت في الحقيقة كلَّ أعمال أرسطوطاليس؟ لن نعرف ذلك أبدًا. فالتاريخ، إذ يكتبه الأزواج، يحكم على الزوجات بالمجهوليّة التامّة.

2010

عودة العمّ طوم

لعلَّ القارئ الذي يلفي نفسه وحيدًا في قطار، خلال أصبوحة رماديّة من شهر مايو الممطر هذا، ويجد بين يديه هذا الكتاب (أو الرواية؟) لفوريو كولومبو، منقوصًا من غلافه وصفحاته الأولى، سيتساءل لماذا أجهد الكاتب بنات أفكاره لإعادة إنتاج روايات ديكنز، بفتيته الهزيلين المتعرِّضين لعقوبات جسديّة لا تطاق؛ لماذا يريد استحضار نوائب المسكين ريمي في رواية *بلا عائلة* في مغارة السيّد غاروفولي؛ لماذا استنسخ بأردأ صورةٍ وقائع «الزنوج المساكين» في الرواية القاسية *كوخ العمّ طوم*، أو أسوأ من هذا اقتصر على تقديم حكايات أمريكا الجنوبيّة العميقة، حيث الزنجيّات المسكينات يُرمى بهنَّ من وسائل النقل العموميّة، على أنَّها حكاياتٌ حاليّة. مهلًا يا كولومبو العزيز، فإنَّنا نحيا في زمانٍ مختلفٍ كلّيًّا، لحسن الحظّ!

إلّا أنَّ قارئنا ستصعقه المفاجأة عندما يجد الكتاب كاملًا بغلافه ومقدِّمته، ليرى أنَّ عنوانه *ضدّ عصبة الشمال* (إصدار لاتيرزا، بسعرٍ لا يفوق تسعة يورو يُقدِّم لك قصص رعبٍ يقشعرُّ منها بدن ستيفن كينغ) ولا يحتوي على قصصٍ مختلقة إنّما حصيلة مفصَّلة عن مَشاهِد من العنصريّة والاضطهاد المرتَكَبة في عدّة بلديّاتٍ إيطاليّة يديرها حزب عصبة الشمال المتطرِّف الآنف الذكر. هي المشاهِدُ ذاتها التي حاول كولومبو مرارًا بصفته نائبًا أن يُبلِغَ عنها في البرلمان، ليتلقّى ذات مرَّة من بريغاندي نائب عصبة الشمال حُجَّةً مضادّة ومشروعة من قبيل: «يا وجه الطيز!» (*منقول حرفيًا*).

في هذه اللارواية لسوء الحظّ يسرد علينا كولومبو «حكايةً إيطاليّة، حيث وكلاء البوليس ورجال الشرطة المدنيّة يهدمون مخيَّمات الرُّحَّل بالجرّافات، بين الثانية والثالثة ليلًا، ويرهبون الأطفال»، وحيث يوضع أبناء غجر السينتي في المدرسة -مثل الأطفال الأجانب- في صفوفٍ معزولة، ولا يُقدِّمون لهم الطعام خلال ساعة الغداء المدرسيّة. يبدأ الكتاب بحكاية أسرة كاريس: الأب، مواطنٌ إيطاليٌّ منذ أجيال، يقيم في كياري ويعمل بالخردة، وقد سلَّمَته إحدى إدارات يسار الوسط المتهوِّرة مبنىً مسبق الصنع بثلاث غرف؛ لكنَّ الإدارة اليمينيّة التي خلفتها عام 2004 (العمدة السيناتور ماتساتورتا)

استعادت الأرض لأنَّ «خطَّة الإسكان قد تغيَّرت»، فهُدِمَ منزل كاريس، وألغت البلديّة إقامتهم، ولم يعد بوسع الأولاد الذهاب إلى المدرسة، فأرغمت الأسرة برمَّتها على العيش في كرفانة؛ بحيث إنَّ الشرطة المدنيّة إزاء حالة البداوة المرفوضة هذه تضرب العربة بالهراوات الحديد ليلًا كلَّما اضطرَّ الأب إلى التوقُّف للاستراحة أو التبوُّل.

لكنَّ الكتاب يتحدَّث عن كلِّ أنواع الأجانب. ففي تريمولي ينقضُّ رجال الشرطة على بائع متجوِّل من بنغلادش، يضربونه ويحشرونه في الصندوق الخلفيّ لسيّارة الشرطة. وفي بارما يلقون القبض على إيمانويل بونسو، فتى أسود البشرة كان ذاهبًا إلى المدرسة المسائيّة، يوسعونه ضربًا مبرحًا ولا ينتبهون إلّا متأخِّرًا إلى أنّه لم يكن بحوزته مخدِّرات يبيعها مثلما اشتبهوا. وفي إحدى الحافلات في فاريزي يأمر ولدٌ ذو أربعة عشر عامًا فتاةً محجَّبة من عمره بإخلاء المقعد له، تقاومه الفتاة، فيضربها الولد ورفاقه لكمًا وركلًا. وفي بيرغامو تصيح سيّدةٌ في الحافلة بأنَّ جوّالها سُرِقَ، فيُقرِّر المراقب أنَّ اللصَّ لا يمكن أن يكون إلّا فتىً ملوَّن البشرة، فتوقَفُ الحافلة، يُعرَّى الفتى من ثيابه، فلا يُعثَر على الجوّال (اللصُّ شخصٌ آخر بطبيعة الحال)، لكنّهم يجدون في جعبته سبعين يورو، فيصادر المراقب المبلغ وتستحوذ عليه السيّدة الممتنّة باعتباره تعويضًا لها عن الجوَّال المسروق.

ما زلنا في الصفحة 11 من هذه اللارواية، وتمتدُّ الفصول التالية من أنماط تعذيب مريعة تكبَّدَها يائسون اعترضتهم البحريّة الإيطاليّة وسط البحر وسلَّمَتهم لزبانية القذافي، إلى اتّهاماتٍ مغرضة بحقّ الصحفيّ غاد ليرنر الذي عيَّره المتطرِّفون بـ«صاحب الأنف الكبير»، وهكذا دواليك في سردٍ متصاعدٍ لشناعاتٍ غرائبيّة وممتعة.

من الغريب أنَّ الإيطاليّين يفضح بعضهم بعضًا من أجل أربع ماسات وثلاث شهادات جامعيّة مدفوعة (أليس التخرُّج من جامعة ألبانيّة دليلًا على عنصريّة محدودة؟)، في حين أنّهم منذ أعوامٍ يقبلون أن تقع في بلدهم كلُّ تلك الأشياء، التي يسردها الكتاب دون مواربة.

2012

بروست والبوش[1]

أوقاتٌ عصيبةٌ هذه التي تمرُّ حاليًّا على مَن يؤمن بالاتّحاد الأوروبيّ: فمِن ديفيد كاميرون الذي ينادي مواطنيه ليقرِّروا إذا ما زالوا يريدون البقاء فيه (أو إذا أرادوا ذلك يومًا)؛ مرورًا ببرلسكوني الذي يعلن أنَّه موالٍ للاتّحاد وفي اليوم التالي إمّا يدغدغ غرائز الفاشيّين القدامى وإمّا يساند مَن يعتقد بأنَّ العودة إلى الليرة أفضل خيار؛ وليس انتهاء عند عصبة الشمال وفكرها المحدود ما تحت الأوروبيّ. بوجيز العبارة يبدو أنَّ رفات الآباء المؤسِّسين لأوروبا الموحَّدة يستشيط غيظًا في القبور.

ومع هذا لا يخفى على أحدٍ أنَّه في أثناء الحرب العالميّة الثانية لقي واحدٌ وأربعون مليون أوروبيّ مصرعهم (أقول الأوروبيّين فقط، من دون حسبان الأمريكيّين والآسيويّين) وذلك لأنَّهم كانوا يتذابحون؛ وأنَّه منذ تلك اللحظة -باستثناء الحدث البلقانيّ المأساويّ- عاشت أوروبا ثمانية وستّين (أقول 68) عامًا من السلام. وإذا روينا للشبّان أنَّ الفرنسيّين اليوم قد يتحصَّنون عند خطّ ماجينو لمقاومة الألمان، وأنَّ الإيطاليّين يريدون استئصال كلى اليونان، وأنَّ بلجيكا قد تُغزى، وأنَّ الطائرات البريطانيّة قد تقصف ميلانو، فقد يظنُّ هؤلاء الشبّان (الذين ربّما يوشكون على إنهاء عام دراسيٍّ في بلدٍ آخر من القارّة بفضل برنامج التبادل الطلّابيّ إرازموس، وربّما يلتقون في نهاية هذه التجربة توأم روحهم الذي يتكلَّم لغةً أخرى، ليصبح أولادهم مزدوجي اللغة) سيظنّون أنّنا نختلق لهم أحداث رواية من الخيال العلميّ. لا بل حتّى الراشدون أنفسهم ما عادوا يلاحظون أنَّهم بلا جواز سفر يعبرون حدودًا كان آباؤهم أو أجدادهم يجتاحونها والبنادق في أيديهم.

ولكن هل تعجز فكرة أوروبا عن جذب الأوروبيّين حقًّا؟ أطلق برنار هنري ليفي منذ مدَّة بيانًا متَّقدًا للعمل على إيجاد هويّةٍ أوروبيّة، «*أوروبا أو*

1- «Boches» في رائعته *بحثًا عن الزمن المفقود*، يذكر بروست هذه اللفظة التحقيريّة، التي كانت مستخدمة في الماضي لدى الفرنسيّين للدلالة على الألمان الأوباش. وننوّه إلى أنَّ جميع الاقتباسات في هذا المقال مستمدّة من *الزمن المستعاد*، ترجمة د. جمال شحيد. (المترجم).

الفوضى»، وبدأه بتهديدٍ مقلق: «أوروبا ليست في محنة، بل إنَّها تموت. ليست أوروبا كمنطقة، بطبيعة الحال. إنّما أوروبا كفكرة. أوروبا كحلم وكمشروع». وقَّعَ على البيان أنطونيو لوفو أنتونيس، فاسيليس أليكساكيس، خوان لوي ثبريان، فرناندو ساباتير، بيتر شنايدر، هانس كريستوف بوتش، جوليا كريستيفا، كلاوديو ماغريس، يورغي كونراد وسلمان رشدي (رشدي ليس أوروبيًّا لكنَّه لجأ إلى أوروبا في بدايات تعرُّضه للملاحقة). وبما أنّي وقَّعتُ أنا أيضًا، التقيتُ بعددٍ من الموقِّعين، منذ عشرة أيّام، في مسرح رون بوان في باريس، لمناقشة هذه المواضيع. وقد برز أحدها سريعًا، ووجد منّي ترحيبًا كبيرًا، إذ يقرّ بوجود وعيٍ للهويّة الأوروبيّة، فأخذتُ أشير إلى بعض الصفحات من *الزمن المستعاد* لمارسيل بروست. نحن في باريس أثناء الحرب العالميّة الأولى، خلال الليل، والمدينة تخشى غارات الزبلين/ المناطيد الألمانيّة، والرأي العامّ يُنسِب شتّى أنواع الوحشيّة إلى *البوش* المكروهين. حسنًا، لكنَّنا نتنشَّق من صفحات بروست أهواءً مُحِبَّةً للألمان، تتبدّى في أحاديث الشخصيّات. شارلوس محبٌّ للألمان، حتّى لو بدا تقديره لهم متعلِّقًا بتفضيلاتٍ جنسيّة أكثر من تعلُّقه بهويّةٍ ثقافيّة. يقول: «إعجابنا بالفرنسيّين يجب ألّا يدفعنا إلى تحقير أعدائنا. إنَّك لا تعرف من هو الجنديّ الألماني، أنت الذي لم تره في الاستعراضات يمشي مشية الإوزة». وعندما استعدت الصورة المثالية للرجولة كما رسمها لي في بالبيك... قال: «انظر، إنَّ الفتى الرائع المتمثِّل بالجنديّ الألمانيّ هو فتىً قويٌّ وسليم ولا يفكِّر إلّا في عظمة بلاده، *Deutschland uber Alles*، *ألمانيا فوق كلّ شيء*».

دع عنك شارلوس، ففي خطاباته المتَّسمة بالنزعة الجرمانيّة بعضُ الأصداء الأدبيّة. فلنتحدَّث عن سان لو، الجنديّ الماهر الذي سيلقى مصرعه في القتال. «ولكي يُفهِمَني [سان لو] بعض التباينات بين الظلمة والنور التي سحرت صباحه... لم يتورَّع عن التلميح بصفحةٍ كتبها رومان رولاند، لا بل بنيتشه، مع العلم أنَّ الرجال المرابطين على الجبهة كانوا أكثر استقلالًا من الآخرين في المؤخّرة، فلم يكونوا يخشون لفظ اسم ألمانيّ... وإذا كلَّمني سان لو عن معزوفة لشومان، فلم يذكر اسمها إلّا بالألمانيّة، ولم يداور إطلاقًا عندما قال لي إنّه حين سمع أوّل زقزقة عند تخوم تلك الغابة سَكِرَ كما لو

كلَّمه العصفور عن أوبرا «سيغفريد» الرائعة التي يتمنّى كثيرًا أن يسمعها بعد الحرب».

وأيضًا: «أُبلِغتُ بموت روبير دو سان لو الذي قُتِلَ بعد عودته إلى الجبهة وهو يدافع عن تراجع رجاله. لم أجد رجلًا مثله أقلّ كرهًا لشعبٍ من الشعوب... وآخر كلمات تفوَّهَ بها وسمعتُها منه كانت منذ ستّة أيّام، وهي أغنية شعبيّة لحَّنَها شومان ودمدمها أمامي سان لو على الدرج باللغة الألمانيّة، فاضطررتُ إلى إسكاته بسبب الجيران».

كما أنَّ بروست يسارع إلى إضافة أنَّ كلَّ الثقافة الفرنسيّة لم تكن تمانع، حتّى في تلك الأيّام، دراسة الثقافة الألمانيّة، وإن تخلَّلها بعض الحذر: «هذا الأستاذ الجامعيّ كتب كتابًا ممتازًا عن شيلر وكتبت عنه الصحف. ولكنَّها قبل الكلام عن مؤلِّف الكتاب، كانت تقول، بمنزلة إذنٍ للنشر، إنَّه حارب في مارن وفي فيردان وحصل على خمسة أوسمة وقُتِلَ له ابنان. عندئذٍ كان يُشاد بوضوح كتابه عن شيلر وعمقه، ويُنعَتُ الكتاب بأنَّه بالغ الأهمّيّة، بشرط أن يقال «هذا الـ *بوش* الكبير» بدلًا من «هذا الألمانيّ العظيم»».

هذا هو المبنيّ على قاعدة الهويّة الثقافيّة الأوروبيّة: حوارٌ طويل بين الآداب، والفلسفات، والأعمال الموسيقيّة والمسرحيّة. لا شيء يمكنه محوها على الرغم من الحرب، إذ إنَّ هذه الهويّة تُشكِّل مجتمعًا يصمد إزاء أعتى الحواجز، وهو الحاجز اللغويّ.

ولكن إذا كان هذا الحسُّ بالهويّة الأوروبيّة ماثلًا بقوّة لدى النخب الثقافيّة، فهل هو كذلك لدى العوام؟ أخذتُ أتفكَّرُ حول أنَّ كلًّا من الدول الأوروبيّة ما زالت حتّى الساعة تحتفي بأبطالها (في المدرسة وفي التظاهرات العامّة)، وهؤلاء الأبطال جميعًا كانوا قد قاتلوا بشراسة وقتلوا شعوبًا أوروبيّةً أخرى، بدءًا من أرمينيوس الجرمانيّ الذي أباد جيوش فاروس الرومانيّ، مرورًا بجان دارك، والسيّد القنبيطور (لأنَّ المسلمين الذين كان يقاتلهم كانوا أوروبيّين منذ عصور)، وليس انتهاءً بعديدٍ من أبطال اليقظة الإيطاليّة أو الهنغاريّة، وقتلانا الذين سقطوا في المعارك ضدّ العدو النمساويّ. هل سمع أحدكم يومًا ببطلٍ أوروبيّ؟ أكان للأبطال الأوروبيّين وجودٌ أساسًا؟ فمَن هما إذًا بايرون

وسانتورّي دي سانتاروزا اللذان توجّها لمساندة اليونانيّين لنيل استقلالهم؟ ومَن هو شندلر الذي أنقذ حياة ما يربو على ألف يهوديٍّ من المحرقة دون أن يتساءل عن أمّتهم؟ وإذا اختتمنا بأبطالٍ غير مقاتلين، فمَن هم دي غاسبيري ومونيه وشومان وأديناور وسبينيلّي؟ وبالنبش في أعماق التاريخ لا بدَّ أن نعثر على آخرين نُحدِّثُ عنهم الفتية (والراشدين أيضًا). هل من المعقول أن يتعذَّرَ علينا العثور على أستريكس أوروبيٍّ نُحدِّثُ عنه أوروبيّي الغد؟

2013

كلاسيكيّو زماننا

محكمة إقليميّة كلاسيكيّة: نشر جوفانّي بيلارديلّي في الثلاثين من يونيو الماضي على صفحات *الكورييري* مقالًا يُبلِّغُ عن حدثٍ في منتهى الخطورة. توجَّهَ أبٌ وأمٌّ إلى المحكمة الإقليميّة في مقاطعة لاتسيو، للاحتجاج على رسوب ابنهم، التلميذ في فرع الدراسة الكلاسيكيّة [الأدبيّ]، بعد أن حصل على ثلاث علامات في الرياضيّات، وأربع في الفيزياء، وثلاث في تاريخ الفنّ؛ احتجّا بدلًا من صفع وريثهم على وجهه مثلما كان الآباء الرجعيّون يفعلون في الماضي. وما كان من تلك المحكمة إلّا أن ألغت الرسوب من علياء سلطتها. الآن، قد يكون السقوط في ثلاث موادّ على الرغم من خطورته غير كافٍ للرسوب؛ إلّا أنَّ هذه الأشياء ينبغي أن يحسم أمرها مجلسُ أساتذة أو جهازٌ تعليميٌّ أعلى. فاللجوء إلى محكمة إقليميّة منعدمة الكفاءة بالنظر في مثل هذه القضايا، قد يُشجِّع الآباء الذين عند حصول أبنائهم على علاماتٍ متدنّية لا يوبِّخونهم بل يسائلون المعلِّمين. أفظاظٌ يربُّون أبناءً أفظاظًا مثلهم وأكثر.

ولكن هناك ما هو أسوأ. يقرُّ الحكم أنَّ أربع علامات في الفيزياء وثلاثًا في الرياضيّات ليس أمرًا خطيرًا لأنّنا بصدد مدرسة ثانويّة كلاسيكيّة/ أدبيّة. مثلما أنَّ بعض المفكِّرين من اليونان العظمى[1] (على حدّ وصف جانّي أنييلّي)

1- تهجَّمَ رجل الأعمال الكبير جانّي أنييلّي ذات مرّة على المثقَّف والسياسيّ تشيرياكو دي ميتا، واصفًا إيّاه بأنّه مفكّرٌ من اليونان العظمى، ويقصد بهذا الازدراء أنّه ذو فكرٍ عفا عليه الزمن. يستخدم إيكو التعبير نفسه إذًا للسخرية من بعض المثقّفين ذوي الرأي السطحيّ. لذا فالمقصود من «بعض المفكِّرين من اليونان العظمى» دلالة على مثقّفين معاصرين لا إغريق. (المترجم).

لا يعرفون أنَّه من الممكن تلقّي معارف أدبيّة للتسجيل لاحقًا في الطبّ أو الهندسة أو الرياضيّات أو علوم أخرى. وأنَّه من أجل الوصول إلى تأهيلٍ إنسانويٍّ جيّد، فإنَّ المبدأ الثاني للديناميكا الحراريّة قد يكون في بالغ الأهمّيّة لكشف ألغاز الفعل المطلق. فمن سيراقب المراقبين؟ ومن سيُرّسب قضاة المحكمة الإقليميّة في لاتسيو؟ أم إنَّ آباءهم سيعترضون؟

تيريزيو النشيط: أقرأ في «*صفحات يهوديّة*» قائمةً تحوي فاشيّين وعنصريّين ومعادين للساميّة وكلُّهم مرموقون، إذ سُمِّيَت بأسمائهم شوارع بعض البلدات. وفي روما ونابولي كُرِّمَ غايتانو أتزاريتي، الذي كان رئيسًا لمحكمة العرق. وسُمِّيَت شوارع باسم نيكولا بيندي (في مودينيو دي باري، وباري، ومودينا)، وساباتو فيسكو (في سالرينو)، وأرتورو دونادجو (في روما وفالكونارا): ونحن هنا بصدد ثلاثة أشخاص، على الرغم من شهرتهم في مجالات أخرى، كانوا من بين أوائل الموقِّعين على *بيان العرق* البغيض في العام 1938.

ولكن لا بأس، فمن المعروف أنَّ كثيرًا من البلديّات أُديرَت من قِبَلِ فاشيّين، وربّما لم تكن الأحزاب الأخرى، إبّان اقتراح المشروع، تعلم شيئًا عن أولئك السادة الذين كُرِّموا بإطلاق أسمائهم على الشوارع. إضافةً إلى أنَّه من الممكن الافتراض أنَّ هؤلاء استحقّوا التكريم في مجالاتٍ أخرى وقد تُغفَرُ لهم هفواتهم العَرَضيّة لانتماءٍ بُنِيَ على أساس المنفعة أو الدناءة أو العصبيّة المفرطة. ألم نغفر (تقريبًا) لهايدغر، مع أنَّه آمن بالنازيّة؟ ألم تنضوِ بطريقةٍ أو بأخرى إلى الإذاعة السويسريّة الناطقة بالإيطاليّة شخصيّاتٌ محبوبة وتستحقُّ المودّة مثل أوسكار كاربوني، والتر كياري، جلبرتو غوفي، غورني كرامر، وأوغو تونياتسي؟ إذ لا أحد منهم قال أو كتب بوجوب ذبح ستّة ملايين يهوديّ.

بيد أنَّ الحدث الصادم هو أن تُسمِّي بلديّة كاستيلاماري دل غولفو (ترابانی) شارعًا باسم تيريزيو إنترلاندي (الذي لم يولد في تلك الأرجاء حتّى). لم يكن تيريزيو إنترلاندي عالمًا محترمًا مثل بيندي أو فقيه قضاء حتّى في إيطاليا ما بعد الحرب مثل أتزاريتي، بل كان وغدًا قذرًا كرَّسَ حياته برمَّتها لزرعِ الأحقاد والعنصريّة ومعاداة الساميّة بمجلّة «*الدفاع عن العرق*». فالذي يتصفّح سنويّات تلك المجلّة المقرفة، أو يقرأ المختارات التي أشرفت على جمعها فالنتينا بيزانتي (إصدار بومبياني، 2006)، يدرك أنَّه ما من أحد ينشر الأكاذيب

والسخافات المعتادة في تلك المجلّة إلّا إذا كان مأجورًا خبيث النيّة. كدتُ أنسى: في تلك الأعوام نفسها أصدر إنترلاندي كتابه «*Contra judaeos*»، وحتّى الذين لا يفقهون اللاتينيّة بإمكانهم استيعاب الغاية منه.

ومن جهةٍ أخرى، يناقشون في روما إمكانيّة تسمية شارع باسم جورجو ألميرانته، الذي كان أمين سرّ التحرير في مجلّة «*الدفاع عن العرق*»، بذريعة أنّه (لا جدال في هذا) تقبّلَ اللعبة الديمقراطيّة (ليتني أرى ذلك!) وذهب لتكريم نعش برلينغوير. لكنَّ برلينغوير الشيوعيّ لم يكتب الأشعار في دعم إبادة القولاق.

2014

من موس إلى شارلي

أعتبر صديقي آرت سبيجلمان عبقريًّا. يبقى كتابه «*موس*» أحد أهمّ النصوص الأدبيّة (مع أنّه قصّةٌ مصوَّرة) التي تناولت الهولوكوست. لكنّني في هذه المرّة لا أوافق على موقفه. طلبت منه مجلّة *نيو ستيتسمان* غلافًا يُجسِّد حرّيّة الفكر، وكان الغلاف الذي نشرته جرائد أخرى في غاية الروعة (امرأةٌ مكمَّمة الفاه بشكلٍ مريع). لكنَّ سبيجلمان طلب أن ينشر كاريكاتيرًا له عن محمَّد أيضًا، فلم تُلَبِّ المجلّة مطلبه. فسحب سبيجلمان غلافه ردًّا على ذلك.

فجَّرَت أحداث شارلي إيبدو كثيرًا من اللغط (لم أكتب عنها لأنّني أجريتُ مقابلتين بعد المأساة بقليل، وما كان *المغلّف* ليصدر إلّا بعد خمسة عشر يومًا. لكنّني تألّمتُ كثيرًا وصُدِمتُ لأنّني ما زلت أحتفظ بكاريكاتير طريف عنّي رسمه وولينسكي الذي لقي مصرعه في المجزرة، وكان قد أهدانيه أيّامَ كنّا نلتقي في الحانة مع أعضاء تحرير مجلّة *لينوس*).

أعود إلى المسألة. أعتقد أنَّ الأحداث أبرزت حقَّين وواجبَين. فإذا أخذنا البابا فرانسيس إذ قال إنّه لا يجد حرجًا في لكم مَن يسيء إلى أمّه (وقد اغتاظ من كلامه كثيرون)، أودُّ أن أذكّرَ بأنّه لم يقل إنّه سيقتله. فهو يعرف فعلًا أنَّ هناك وصيَّةً تُحرِّم القتل فلم يكن أمامه سوى إدانة ما نفَّذه الإرهابيّون الذين -بمشاركة حلفائهم السفّاحين من تنظيم الدولة- يُمثِّلون الشكل الجديد من

النازيّة (عنصريّة، إبادة الأعراق الأخرى، ومخطَّط للسيطرة على العالم). كان ينبغي إدانة المذبحة، والمشاركة في المسيرة التي جرت بالفعل، دفاعًا عن حرّيّة التعبير.

ينبغي الدفاع عن الحقّ بحرّيّة الفكر حتّى لمن لا يرى الأمور مثلنا (يُعلِّمنا فولتير). ولكن، لو أنَّ صحفيّي شارلي إيبدو لم ينالوا ما نالوه من انتقامٍ شرس، ولو أنَّ المجزرة لم تقع، لكان لكلّ شخصٍ الحقُّ في انتقاد كاريكاتيراتهم المسيئة، ليس بحقّ محمَّد فحسب، إنّما بحقّ يسوع والعذراء أيضًا، المشابهة كثيرًا لتلك التي كان ليو تاكسيل ينشرها في القرن التاسع عشر التي كانت تُجسِّد العذراءَ حاملًا بحمامة ويوسفَ ذا قرون.

هناك مبدأ أخلاقيّ لا ينبغي بموجبه الإساءة إلى مشاعر الآخرين الدينيّة، ولهذا السبب تمامًا نجد أنَّ مَن يُجدِّف بالإله في بيته لا يذهب للتجديف داخل الكنيسة. لا ينبغي الامتناع عن رسم محمَّد كاريكاتوريًّا خشيةً من الانتقام والتنكيل، إنّما لأنَّ ذلك (والمعذرة إن بدا تعبيري رقيقًا أكثر ممّا يجب) يُعدُّ «وقاحة». ولا ينبغي رسم العذراء البتول كاريكاتوريًّا، حتّى لو كان الكاثوليك (مثلما هم عليه، اليوم على الأقلّ) لا يخطر في بالهم ذبح مَن يفعلها. وبالمناسبة لقد تصفَّحتُ الإنترنت ورأيتُ أنَّ كلَّ المواقع المعترضة على رفض *النيو ستيتسمان* لم تعرض رسمة سبيجلمان. لماذا؟ احترامًا للآخرين أم خوفًا منهم؟

أبرزت أحداث شارلي إيبدو مبدأين جوهريّين، ولكن كان من الصعب التفريق بينهما وسط أجواء الرعب الذي سبَّبه مَن كان على باطل. فصار من الجائز الدفاع عن حقّ التعبير وإن بطريقةٍ فجّة، وذلك بالتأكيد على هتاف «أنا شارلي». لكنّي لو كنتُ شارلي ما استهزأتُ بمشاعر المسلمين ولا المسيحيّين (ولا البوذيّين، في حالةٍ أخرى).

إذا أُهينَ الكاثوليك من إساءتك إلى العذراء البتول، فاحترِمْ مشاعرهم – واكتب والحال هذه دراسةً تاريخيّة رزينة تُشكِّكُ من خلالها بحقيقة التجسُّد. أمّا إذا أطلق الكاثوليك النار على مَن يسيء إلى العذراء البتول، فقاتِلهمْ بشتّى الوسائل.

لطالما أشاع النازيّون والمعادون للساميّة من كلّ نوع كاريكاتيراتٍ مريعة بحقّ «اليهود الشائنين»، وقد تقبّلَت الثقافة الغربيّة هذه الإهانات باحترام حرّيّة مَن يُعبِّر عنها. ولكنّنا انتفضنا حين انتقلوا من الكاريكاتور إلى المجزرة. بعبارةٍ أخرى، احتُرِمَت حرّيّة إدموند درومون (في القرن التاسع عشر) بأن يكون معاديًا شرسًا للساميّة، ولكنْ عُلِّقَت المشانق للسفّاحين النازيّين في نورمبرغ.

2015

عن الكراهية والموت

عن الكراهية وعن المحبَّة

كتبتُ في السنوات الأخيرة عن العنصريّة، وعن صناعة العدوّ وعن التوظيف السياسيّ لمشاعر الكراهية بحقّ الآخر أو المختلف. كنتُ أظنُّ أنّني قلتُ كلَّ شيء، إلّا أنَّني في مناقشةٍ حديثة مع صديقي توماس ستاودر تبيَّنتُ (كما في تلك الحالات حين لا نذكر مَن قال هذا ومَن قال ذاك، لكنَّ الخلاصات تتقاطع في النهاية) بعض المعطيات، وهي معطياتٌ جديدة (بالنسبة إليَّ على الأقلّ).

نحن نميل، بخفّةٍ ما قبل سقراطيّة نوعًا مّا، إلى اعتبار الكراهية والمحبّة طرفي نقيض، يتصادمان بشكلٍ متناظر، كما لو أنَّ ما لا نحبُّه نكرهه والعكس بالعكس. وبطبيعة الحال ثمّة ما بين القطبين تبايناتٌ لا تنتهي. فعلى الرغم من استخدامنا للكلمتين بطريقةٍ مجازيّة، فإنَّ حبّي للبيتزا وعدم ولعي بالسوشي لا يعنيان أنَّني أكره السوشي. يعجبني السوشي أقلّ من البيتزا. وفي حال أخذنا كلًّا من الكلمتين بمعناها المحدَّد، فإنَّ محبَّتي لشخصٍ مّا لا تعني أنّني أكره جميع الآخرين، وهكذا في الطرف المناقض للحبّ قد ينوب عدم الاكتراث أكثر من سواه (أحبُّ أبنائي ولا أكترث بسائق التاكسي التي ركبتُها قبل ساعتين).

بيد أنَّ جوهر المسألة هو أنَّ الحبَّ عازل. فإن كنتُ أحبُّ امرأةً حدَّ الجنون، أستوجب أن تحبّني وألّا تحبَّ أحدًا غيري (أو ليس بالمستوى نفسه على الأقلّ)؛ والأمُّ تحبُّ أبناءها وترغب في أن يبادلوها محبَّةً مميَّزة

(ليس لنا من الأمّهات سوى واحدة) ولا تشعر أنّها مضطرّةٌ إلى محبّة أبناء الآخرين بالكثافة نفسها. فالحبُّ إذًا، بحدّ ذاته، أنانيٌّ، استحواذيٌّ، انتقائيّ.

لا شكَّ أنَّ وصيّة المحبّة تفرض عليك أن تحبَّ قريبك مثلما تحبُّ نفسك (كلُّهم، ستّة مليارات قريب)، لكنَّ هذه الوصيّة إنّما توصينا بألّا نكره أحدًا، ولا تستوجب أن نحبَّ إسكيميًّا مجهولًا مثلما نحبُّ أبانا أو حفيدنا. سيُميِّزُ الحبُّ حفيدي عن صيّاد الفقمة دومًا. وحتّى لو لم أفكّر (كما تقول الأسطورة المعروفة) بأنّي لا أهتمُّ بشيءٍ إذا مات مندرينيٌّ في الصين (لا سيّما إذا كان موته يصبُّ في مصلحتي) وتمنَّيتُ أن تُقرَعَ الأجراس لي على الدوام، فسوف أتألَّمُ على وفاة جدّتي أكثر من وفاة المندرينيّ.

أمّا الكراهية فقد تكون جمعيّة، ولا بدَّ أنّها كذلك في الأنظمة الشموليّة، بحيث إنَّ المدرسة الفاشيّة كانت تطالبني في صغري بأن أكره «كلَّ» أبناء ألبيون[1]، وكان المذيع ماركو أبيليوس يتلو كلَّ مساء في الراديو عبارته الشهيرة: «فليلعن الربُّ الإنكليزَ شرَّ لعنة». هذا ما تريده الديكتاتوريّات والتيّارات الشعبويّة، وغالبًا حتّى الأديان بنسختها الأصوليّة، لأنَّ الكراهية تجاه العدوّ تُوحِّدُ الشعوب وتُلهِبهم جميعًا بنارٍ واحدة. الحبُّ يُدفئ صدري تجاه قلّةٍ من الأشخاص، أمّا الكراهية فتُلهِب قلبي وقلوب كلِّ الذين في صفّي، تجاه ملايين من الأشخاص، تجاه أمّةٍ بأكملها، وعرقٍ برمّته، وأناسٍ مختلفين عنّي باللون أو اللغة. العنصريُّ الإيطاليُّ يكره كلَّ الألبان أو الرومانيّين أو الغجر؛ بوسّي[2] يكره كلَّ أبناء الجنوب (وإذا كان يتقاضى راتبًا مدفوعًا من ضرائب الجنوبيّين أيضًا، فهذه روعة العداء، حيث تتّحد الكراهية بالاستمتاع بالأذى والازدراء)؛ برلسكوني يكره كلَّ القضاة ويسألنا أن نكرههم نحن أيضًا، وأن نكره كلَّ الشيوعيّين، حتّى إذا كلّفنا الأمر أن نراهم حيث ما عاد لهم وجود.

الكراهية إذًا ليست فردانيّة إنّما كريمةٌ، عطوف، وتعانق في ضمّةٍ واحدة

1- «Albion»: اسم قديم لبريطانيا، وكان يُستَخدم في الحقبة الفاشيّة بصفةٍ تحقيريّة لبريطانيا حتّى من موسوليني نفسه. (المترجم).

2- أمبرتو بوسّي، مؤسِّس حزب عصبة الشمال اليمينيّ المتطرِّف، ويكفي اسم الحزب لفهم تمايز أتباعه عن الجنوب. (المترجم).

حشودًا غفيرة. ففي الروايات وحدها يقال لنا ما أبهى الموت من أجل الحبّ؛ ولكنْ في الصحف -في صباي على الأقلّ- فكانوا يُصوِّرون موت البطل في منتهى الجمال عندما يرتقي وهو يرمي قذيفةً على العدوّ المكروه.

هذا ما يُفسِّر أنَّ تاريخ نوعنا لطالما اتَّسَم بالكراهية، والحروب، والمجازر، لا بأفعال المحبَّة (لأنَّها محرجة وغالبًا ما تكون شاقّة إذا ما أُرِيدَ منها التمدُّد خارج نطاق أنانيّتنا). إنَّ نزوعنا نحو ملذّات الكراهية طبيعيّةٌ لدرجة أنَّ حُكَّام الشعوب يحصدونها بكلّ سهولة، في حين أنَّه لا يدعونا إلى المحبَّة إلّا أشخاصٌ انعزاليّون يتفرَّدون بعادةٍ مقرفةٍ تنطوي على تقبيل مرضى الجذام.

2011

أين اختفى الموت؟

تُكرِّس *المجلَّة الأدبيّة* (*Magazine Littéraire*) الفرنسيّة عددها في نوفمبر «عمّا يعرفه الأدب عن الموت». قرأتُ المقالات المختلفة بإمعان، لكنّي أُحبِطتُ من أنَّها كرَّرت عليَّ، من بين كثيرٍ من الأشياء التي لا أعرفها، مفهومًا معروفًا: وهو أنَّ الأدب لطالما اهتمَّ بالموت، بالتوازي طبعًا مع اهتمامه بالحبّ. تتحدَّث مقالات المجلَّة الفرنسيّة بكياسة عن حضور الموت في الفنون السرديّة إبّان القرن الماضي وفي الأدب القوطيّ ما قبل الرومانتيكيّ على حدٍّ سواء. سوى أنَّه كان بالإمكان مناقشة موت هكتور وحِداد أندروماخي، أو عذابات الشهداء في كثيرٍ من نصوص القرون الوسطى. دع عنك أنَّ تاريخ الفلسفة يبدأ بالمقولة التقليديّة لمقدِّمةٍ منطقيّةٍ أكبر من أيّ برهان: «كلُّ البشر فانون».

يبدو لي أنَّ المشكلة في مكانٍ آخر، وربّما تتعلَّق بأنَّ الناس في هذه الأيّام تقرأ بمقدارٍ أقلّ: نحن المعاصرين أصبحنا عاجزين عن التفاهم مع الموت. كانت الأديان، والأساطير، والطقوس القديمة تجعل لنا الموت مألوفًا، حتّى لو ما فتئنا نخشاه. وكنّا نعتاد التسليم بالموت بفضل مراسم التشييع الجليلة، ونواح الندَّابات، والجنازات المهيبة. وكنّا نتحضَّر للموت

من خلال الخُطَبِ عن الجحيم، ففي أثناء طفولتي مثلًا كنتُ أدعى لقراءة صفحاتٍ عن الموت من كتاب *الولد المتعقِّل* للدون بوسكو، الذي لم يكن مجرَّد قسٍّ بهيجٍ يلاعب الأولاد، إنّما كان يتمتَّعُ بمخيِّلةٍ مبصرة ومتأجِّجة. كان يُذكِّرنا بأنَّنا لا نعلم أين يدركنا الموت بغتة – سواء أكنّا في أسرِّتِنا، أو في العمل، أو في الطريق، أو بسبب انقطاع شريان، أو الزكام، أو فوران الدم، أو الحمّى، أو القرح، أو الزلزال، أو بالصاعقة، «وربّما حالما تنتهي من قراءة هذه الفكرة». كنّا في تلك اللحظات نشعر بأنَّ رؤوسنا أظلمت، وأحداقنا تألَّمت، وألسنتنا لُذِعَت، وأنوفنا سُدَّت، وصدورنا ضاقت، ودماءنا جمدت، ولحومنا هلكت، وقلوبنا اعتُصِرَت. من هنا تنبع ضرورة التدرُّب على تمرين الموت الحميد: «عندما تُنبِّهني قدماي شبه المشلولتين إلى أنَّ مسيرتي في هذه الحياة شارفت على النهاية... عندما لا تتمكَّن يداي المرتعشتان والمخدَّرتان على الإمساك بك، يا صليبي الغالي، وتتركانك رغمًا عنهما لتسقط على فراش آلامي... وعندما تركِّز عيناي الواهنتان، والمنبهرتان من فظاعة الموت، نظراتها المحتضرة والذابلة إليك... وعندما تثير وجنتاي الشاحبتان والممتقعتان تعاطفَ الحاضرين وخوفَهم، وعندما يتبلَّل شعري بعرق الموت، على رأسي، معلنًا عن دنوِّ أجلي... وعندما تغرق مخيّلتي بأحزانٍ قاتلة، وترتعد بفعل أطيافٍ مرعبة ورهيبة... وعندما أتوقَّف عن استعمال حواسّي كلّها... كن رحيمًا بحالي، يا يسوع الشفقة».

ساديّةٌ بحت، قد يقول قائل. ولكنْ ما الذي نُعلِّمُه اليوم لمعاصرينا؟ أنَّ الموت يحدث بعيدًا عنّا في المستشفيات، وأنَّنا ما عدنا نتبع النعش إلى المقبرة، وأنَّنا ما عدنا نرى الموتى. أما عدنا نرى الموتى؟ بل إنَّنا نراهم باستمرار، تُلطِّخُ إربُ أدمغتهم نوافذَ سيّارة الأجرة، وتتطاير أشلاؤهم في الهواء، وتتهشَّمُ عظامهم على الأرصفة، ويسقطون في عمق البحر وأقدامهم مربوطةٌ بكتلةٍ إسمنتيّة، وتتدحرج رؤوسهم على الأرضيّات – ولكنَّهم ليسوا نحن، ولا أحبَّتنا، إنّما هم الممثِّلون. غدا الموت استعراضًا، بما فيها القضايا حيث تروي لنا وسائل الإعلام عن الفتاة المغتصبة أو ضحيّة القاتل المتسلسل. لا ترينا الجثّةَ الممزَّقة، لا ترينا إلّا الأصدقاء الباكين الذين يضعون الأزهار في مكان الجريمَة. وبساديّةٍ أشدّ وطأة، يطرقون باب الأمّ

ليسألوها: «كيف كان شعوركِ عندما علمتِ بمقتل ابنتكِ؟». لا يعرضون الموت، إنّما الصداقة المفجوعة والأمومة الثكلى، وهذا ما يَمَسُّنا بعنفٍ أقلّ.

وهكذا فإنَّ اختفاء الموت من أفق تجربتنا المباشر سيجعلنا أكثر هلعًا بكثير، عندما تحين اللحظة، إزاء هذا الحدث الذي يرافقنا منذ ولادتنا – والذي يستطيع الإنسان العاقل أن يتفاهم معه طوال الحياة.

2012

الحقُّ بالسعادة

أحيانًا يراودني الشكُّ في أنَّ كثيرًا من المشكلات التي تحزننا –أقصد أزمة القيم، الانصياع للمغريات الإعلانيّة، اللهاث للظهور في التلفزيون، فقدان الذاكرة التاريخيّة والفرديّة؛ باختصار، كلّ تلك الهموم التي غالبًا ما نشتكي منها في أعمدةٍ ثقافيّة من هذا النوع– عائدٌ إلى الصياغة التعيسة لإعلان الاستقلال الأمريكيّ في 4 يوليو 1776، الذي أقرَّ فيه المؤسِّسون بثقةٍ ماسونيّة في «المصائر المدهشة والتقدُّميّة»[1]، أنَّه «لجميع البشر الحقّ بالحياة والحرّيّة والسعي وراء السعادة».

وغالبًا ما قيل إنَّ هذا هو أوّل تأكيد، في تاريخ القوانين المؤسِّسة للدولة، على الحقّ بالسعادة عوضًا عن واجب الطاعة أو فروضٍ صارمةٍ أخرى من هذا القبيل؛ وكان المبدأ للوهلة الأولى فعليًّا يُعدُّ تأكيدًا ثوريًّا. لكنَّه أسفر عن التباسات، أجرؤ على وصفها بالالتباسات السيميائيّة.

إنَّ الأدب المتمحور حول السعادة واسعٌ، بدءًا من أبيقور وربّما قبله أيضًا. ولكن ببعض الحسّ السليم يبدو لي أنَّه لا أحد منّا استطاع أن يُعرِّف السعادة. إن كان القصد هو تلك الحالة الدائمة، أي أن يعيش الإنسان سعيدًا طوال حياته، بلا شكوك، أو آلام، أو مِحَن، فإنَّ هذه الحياة تبدو مماثلةً لحياة الأبله – أو حدًّا أقصى لحياة شخص يعيش منعزلًا عن العالم ولا مطامح له أكثر من العيش بلا خضّات: يخطر في ذهني فيلمون وباوكيس. ولكنْ

1- في قصيدته الشهيرة «زهرة الصحراء»، يقتبس ليوباردي عبارة «المصائر المدهشة والتقدُّميّة» للسخرية من العلوم التي تُبشِّر الإنسان بمستقبلٍ أفضل. (المترجم).

حتّى هذين، إن وضعنا الشعر جانبًا، لا بدَّ أنَّهما مرًّا بلحظات كدر، لعلَّها انحصرت بإنفلونزا أو وجع أسنان.

المسألة هي أنَّ السعادة، بوصفها الامتلاء المطلق أو الثمالة إن جاز لي، كأن تلامس السماء بإصبعك، هي حالةٌ عابرة، فصليّة وقصيرة المدّة: هي الفرحة بولادة ابن، البهجة بأن يصارحنا الحبيب أو الحبيبة بأنَّه يشاركنا مشاعرنا، وربّما السرور بالفوز باليانصيب، أو بلوغ غاية (الأوسكار، أو كأس البطولة)، بل وحتّى لحظة جميلة في أثناء جولةٍ مع الأصحاب؛ إلّا أنَّ كلَّ هذه اللحظات عابرة تمامًا، تتلوها لحظات فزع وهلع وألم وكرب أو قلق على الأقلّ.

علاوةً على أنَّ فكرة السعادة تجعلنا نفكِّر دومًا بسعادتنا الشخصيّة، ونادرًا ما نلتفت إلى سعادة الجنس البشريّ، بل غالبًا ما يكون انشغالنا ضئيلًا بسعادة الآخرين للسعي وراء سعادتنا. وحتّى السعادة الغراميّة غالبًا ما تتقاطع مع تعاسة شخصٍ آخر مرفوض، ولا نعبأ به أبدًا، إرضاءً لانتصارنا.

تغزو فكرة السعادة هذه عالم الإعلانات التسويقيّة والاستهلاك، حيث يبدو كلُّ مقترحٍ نداءً إلى حياةٍ سعيدة: مُرطِّبٌ لتقوية البشرة، سائلُ التنظيف الذي سيقضي أخيرًا على شتّى البقع، الأريكةُ بنصف سعرها، المشروبُ الروحيُّ بعد العاصفة، اللحمةُ المعلَّبةُ التي تجتمع حولها الأسرة السعيدة، السيَّارةُ الجميلةُ والاقتصاديّةُ، والفوطةُ التي ستسمح لكم بدخول المصعد دون الاكتراث بحاسّة شمّ الآخرين.

نادرًا ما نفكِّر بالسعادة عندما نقترع أو نرسل ابننا إلى المدرسة، ولكنْ فقط عندما نشتري أشياء لا نفع فيها، ونظنُّ أنَّنا بهذه الطريقة نُلبّي حقَّنا بالسعي وراء السعادة.

فمتى إذًا نعبأ بسعادة الآخرين، طالما أنَّنا لسنا وحوشًا بلا قلوب؟ عندما تُقدِّمُ لنا وسائل الإعلام تعاسة الآخرين: صغارٌ سود البشرة يموتون جوعًا وينهشهم الذباب، سِقامٌ بأمراضٍ لا علاج لها، شعوبٌ محقتها أمواجُ التسونامي. نكون حينئذٍ مستعدّين حتّى للتصدُّق بفلس، أو في أحسن الأحوال نتبرَّع على قدر استطاعتنا.

إنّما كان على إعلان الاستقلال أن يقول إنَّ لجميع البشر الحقّ-الواجب

بتقليص نسبة التعاسة في العالم، بما فيها تعاستنا بطبيعة الحال. وعليه كان كثيرٌ من الأمريكيّين سيفهمون أنَّه لا يجوز لهم الاعتراض على العلاجات الطبّيّة المجّانيّة – إلّا أنَّهم يعارضونها لأنَّ هذه الفكرة الغريبة تبدو مضرَّةً بحقِّهم الشخصيّ بسعادتهم الضريبيّة الشخصيّة.

2014

باريسُنا

في ليلة المجزرة الباريسيّة بقيتُ لصيقًا بالتلفاز، مثل كثيرٍ من الناس. كنتُ أستند إلى إلمامي الجيّد بخريطة باريس، لأحاول تحديد موقع تلك الأحداث، لأتكهَّنَ ما إذا كان في الأرجاء يسكن صديقٌ مّا، وكم تبعد تلك الأماكن عن مقرِّ دار النشر التي تُصدِر أعمالي، أو عن المطعم الذي أتردَّد إليه بشكلٍ اعتياديّ. وكنتُ أطمئن نفسي بأنَّها بعيدة، جميعها تقع على الضفّة اليمنى، في حين أنَّ عالمي الباريسيّ الشخصيّ يقع على اليسرى.

لم يمنعني هذا من الذعر والرعب، لكنَّه شعورٌ يماثل أنَّك لم تكن راكبًا على متن الطائرة التي سقطت للتوّ. ولم نفكِّر في تلك الليلة بعدُ أنَّه من الممكن لهذا كلِّه أن يقع حتّى في مدننا. إنَّها مأساة، ولا تسألوني لمن تُقرَع الأجراس: ستبقى دومًا مأساةَ الآخرين.

ورغم هذا أحسستُ بما يشبه الضيق عندما ردَّدتُ في نفسي ذلك الاسم، باتاكلان، كنتُ أعرفه. وأخيرًا تذكَّرت: منذ عشرة أعوام تقريبًا، قدَّمتُ في الباتاكلان إحدى رواياتي، مع حفلٍ موسيقيٍّ رائعٍ لجانّي كوشا وريناتو سيلّاني. إذًا هذا مكانٌ كنتُ فيه وكان من الممكن أن أكون فيه مرّةً أخرى. ومن ثَمَّ –لا بل على الفور– تعرَّفتُ على العنوان: جادّة ريشار لونوار: مكان إقامة المحقِّق ميغريه!

لعلَّكم تقولون إنَّه من غير المشروع إقحام شخصيّة خياليّة في المشهد، لا سيّما أنَّنا بصدد حدثٍ «حقيقيّ» بهذا القدر من الروع. ولكنْ كلّا، فهذا يُفسِّر صدمة قلوب الجميع وتأثُّرهم بالمجزرة الباريسيّة، مع أنَّ مجازر مُروِّعةً وقعت في كثيرٍ من مدن العالم. فأن تكون باريس هي موطن الكثيرين منّا،

فهذا تمامًا لأنَّ في ذاكرتنا تندمج المدينة الحقيقيّة بالمدينة الخياليّة، كما لو أنَّ كلتيهما تصبحان لنا، أو أنّنا عشنا في كلتيهما.

هنالك باريس حقيقيّة مُتمثِّلة بكافيه دو فلور، وهنري الرابع، وفرانسوا رافاياك، وقطع رأس لويس السادس عشر، ومحاولة اغتيال أورسيني لنابليون الثالث، ودخول أرتال الجنرال لوكلير عام 1944. ولكن حتّى بالنسبة إلى هذه الأحداث، فلنقل الحقيقة، هل نذكر الحدث (الذي لم نشارك به) أم تجسُّدَه الروائيّ والسينمائيّ؟

لقد عايشنا باريس المحرَّرة على الشاشات بأفلام مثل *باريس تحترق*، مثلما عايشناها بفترة أقدم بمشاهدة *أطفال الجنّة*، مثلما يُشعِرُنا الدخول ليلًا (في الحقيقة) إلى ساحة دي فوج بالقشعريرة التي لا نحسُّ بها إلّا على الشاشات، مثلما نعيد معايشة عالم إديث بياف، حتّى لو أنّنا لم نرها يومًا، مثلما نعلم كلَّ شيء عن شارع لوبيك لأنّنا سمعنا عنه بفضل المغنّي إيف مونتان.

فإذا كنّا في الحقيقة نتمشّى على امتداد نهر السين ونتوقّف أمام بسطات باعة الكتب، فإنّنا هناك أيضًا نعيد معايشة الكثير من النزهات الرومانسيّة التي قرأنا عنها. وإذا نظرنا من البعيد إلى كنيسة نوتردام فلا يسعنا إلّا أن نفكّر بكوازيمودو وإزميرالدا. تنتمي إلى ذاكرتنا باريسُ النزال بين الفرسان في دير الكراملة الحفاة، وباريس غانيات بلزاك، وباريس لوسيان دو روبمبريه وراستينياك، الصديق الوسيم، فريدريك مورو ومدام أرنو، غافروش عند الحواجز، سوان وأوديت دو كريسي[1].

1- يستعرض أمبرتو إيكو عيّنةً من الأحداث والشخصيّات الروائيّة الباريسيّة التي أثّرت فيه أيّما تأثير. كوازيمودو وإزميرلادا بطلا «أحدب نوتردام» لهوغو؛ النزال بدير الكراملة في «الفرسان الثلاثة» لدوما؛ «ألق الغانيات ومآسيهنّ» رواية لبلزاك؛ لوسيان دو روبمبريه وراستينياك شخصيّتان أساسيّتان في «الملهاة الإنسانيّة» لبلزاك؛ «الصديق الوسيم» (*Bel – Ami*) رواية لموباسان؛ فريدريك مورو ومدام أرنو بطلا «التربية العاطفيّة» لفلوبير؛ غافروش الفتى الذي انضمَّ إلى الثوّار عند الحواجز في «البؤساء» لهوغو؛ سوان وأوديت دو كريسي شخصيّتان في «بحثًا عن الزمن المفقود» لبروست. (المترجم).

باريسُنا «الحقيقيّة» (التي باتت خياليّة) هي حيٌّ مونتمارتر في زمان بيكاسو وموديلياني، أو موريس شوفالييه، ولنضِفْ أيضًا مقطوعة *أمريكيٌّ في باريس* لجورج غيرشوين، والفيلم الموسيقيّ المأخوذ عنها، الخالد رغم تصنُّعه، من بطولة جين كيلّي وليزلي كارون، وأيضًا باريس فانتوما الهارب في أقنية الصرف، والمحقِّق ميغريه بالضبط - الذي عايشنا معه كلَّ الضبابات، وكلَّ الحانات، وكلَّ ليالي قصر العدل في كي ديز أورفيفر.

علينا أن نعترف أنَّ كثيرًا من الأشياء التي فهمناها عن الحياة والمجتمع، عن الحبّ والموت، قد علَّمتنا إيّاها باريس الخياليّة هذه، المتخيَّلة ورغم ذلك حقيقيّة. لذا فلقد أصابوا بيتنا بمقتل، بيتنا الذي عشنا فيه أكثر ممّا عشنا في عناويننا المسجَّلة. لكنَّ كلَّ هذه الذكريات تجعلنا نأمل خيرًا على الرغم ممّا حصل، ذلك أنّه ما يزال «نهر السين يجري، يجري، يجري...»[1].

2015

1- من أغنية «السين» الشهيرة للفنّانة جاكلين فرانسوا. (المترجم).

بين الدين والفلسفة

كلُّ ذي رؤيةٍ يرى ما يعرفه أصلًا

في الأيّام الماضية، كنتُ أقرأ وثيقة الأخت لوسي حول السرِّ الثالث من ظهورات مريم في فاطيما[1]، ووجدتُ فيها عناصر مألوفة. ثمَّ أدركتُ الأمر: لم تكن الأخت لوسي صغيرةً أمّيّةً عندما كتبت هذا النصّ، إنّما في العام 1944، أي بعد أن غدت راهبةً راشدة؛ فهو منسوجٌ من اقتباساتٍ يتيسَّرُ إرجاعها إلى رؤيا يوحنا اللاهوتيّ.

إذًا، ترى لوسي ملاكًا يستلُّ سيفًا من نار كأنَّه يريد إحراق العالم. كما يتحدَّث سفرُ الرؤيا عن الملائكة الذين يرشُّون النار على العالم في الإصحاح 9.8، على سبيل المثال، بمناسبة الحديث عن ملاك البوق الثاني. صحيحٌ أنَّ هذا الملاك لا يحمل سيفًا مُتوهِّجًا، لكنَّنا سنرى فيما بعد من أين أتى هذا السيف (ناهيك بأنَّ التراث الأيقونيّ حافلٌ برسومات الرؤساء الملائكة الذين يُشهِرُون سيوفًا ملتهبةً بالنار).

ثمَّ ترى لوسي النور الإلهيّ كما لو في مرآة: هذه الإشارة غير آتية من سفر الرؤيا، إنّما من الرسالة الأولى لبولس الرسول إلى أهل كورنثوس (إنَّنا نرى الأشياء السماويّة الآن *Per speculum* *في مرآة*، في لغز، لكن حينئذٍ وجهًا لوجه 13.12).

1- فاطيما (أو فاطمة) مدينة برتغاليّة، وكانت الأخت الراهبة لوسيا دوس سانتوس في صغرها مع إخوتها قد رأت هناك تجلّيات مريم العذراء عام 1917، وغدت المدينة محجًّا للمؤمنين المسيحيّين. (المترجم).

بعد ذلك يظهر أسقفٌ بثوبٍ أبيض: واحدٌ فقط، في حين أنَّ خدم الربّ اللابسين ثيابًا بيضاء، المُنذَرين للشهادة، يظهرون في سفر الرؤيا عدَّة مرَّات (في الإصحاح 6.11، وفي 7.9، وفي 7.14)، ولكنْ صبرًا!

ثمَّ يظهر أساقفةٌ وقساوسة يصعدون جبلًا وعرًا، وها نحن في سفر الرؤيا، 6.12، حيث يختبئ ملوك الأرض في المغاير وبين صخور الجبال. ثمَّ يصل الأب الأقدس إلى مدينةٍ «نصفها خربة»، ويلتقي في مسيره أرواح الجثث: المدينة مذكورةٌ في الرؤيا، الإصحاح 11.8، بما فيها من جثث، بينما تنهار المدينة وتخرب في 11.13، وتصبح على شاكلة بابل في الإصحاح 18.19.

فلنتابع: يُقتَلُ الأسقف وكثيرٌ من المؤمنين الآخرين من قِبَلِ جنودٍ بالسهام والأسلحة الناريّة؛ وإن كانت الأخت لوسي تضيف الأسلحة الناريّة من باب التجديد، فإنَّ المذابح بالأسلحة المدبَّبة الحادَّة يتولّاها جرادٌ شبهُ خيلٍ مهيّأةٍ للحرب في سفر الرؤيا، الإصحاح 9.7، عند النفخ بالبوق الخامس.

وفي النهاية نصل إلى الملاكين اللذين يرشّان الدم بمرشَّةٍ زجاجيّة (*regador* بالبرتغاليّة). سفر الرؤيا زاخرٌ بالملائكة الذين يرشُّون الدماء، لكنَّهم في الإصحاح 8.5 يفعلونها بوساطة مبخرة، وفي الإصحاح 14.20 يطفح الدم من معصرة، وفي الإصحاح 16.3 يسكبونه من جامات غضب الله.

لماذا المرشَّة؟ فكَّرتُ أنَّ فاطيما ليست بعيدةً عن منطقة أشتورية حيث نشأت في القرون الوسطى منمنماتُ المستعربين البديعة التي تتناول سفرَ الرؤيا، وأُعِيدَ تشكيلها غير مرَّة. وفيها تظهر ملائكةٌ تُسْقِطُ الدمَ على دفقات من كؤوسٍ غير محدَّدة الصُّنع، كما لو أنَّهم يرشُّون العالَمَ تمامًا. وما يشير إلى أنَّ التراث الأيقونيّ أدّى دوره في ذاكرة الأخت لوسي هو ذلك الملاك الذي يحمل سيفًا من نار في بداية حديثنا، لأنَّ الأبواق التي في أيدي الملائكة تظهر في تلك المنمنمات أحيانًا على شكل نصولٍ قرمزيّة اللون.

الأمر المثير للاهتمام (إن لم نقتصر على ملخَّصات الصحف، وقرأنا التعليق اللاهوتيّ الذي أدلى به الكاردينال راتزينغر كاملًا) هو أنَّ هذا الرجل النزيه، حين يدأب على التذكير بأنَّ الرؤى الشخصيّة ليست مادّةً للإيمان، وأنَّ المجاز ليس نبوءةً تؤخذ بحذافيرها، إنّما يُذكِّرُ صراحةً بالتطابقات مع سفر الرؤيا.

ليس هذا فقط، بل يُوضِّح أنَّ الفاعل في الرؤية يرى الأشياء من وجهة نظر «طرائق التمثُّل والمعرفة المتاحة له»، لذا فإنَّ «الصورة لا تتشكَّل إلّا بحسب معاييره واحتمالاته». ما يعني أنَّه -بعبارةٍ أقرَب إلى العلمانيّة (مع أنَّ راتزينغر يعنون المقطع بـ«البنية الأنثروبولوجيّة للرؤية»)- إن لم يكن هنالك نماذج أصليّة بحسب تعريف يونغ[1]، فكلُّ ذي رؤية يرى ما تعلَّمَه من ثقافته.

2000

جذور أوروبا

انتعشت الأخبار الصيفيّة بسجالٍ حول إمكانيّة اعتراف الدساتير الأوروبيّة بالأصول المسيحيّة للقارّة. يستند المطالبون بالاعتراف إلى واقع -منطقيٍّ بالطبع- وهو أنَّ أوروبا نشأت على ثقافة مسيحيّة، ما قبل سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة، منذ عصر مرسوم قسطنطين الكبير على أقلّ تقدير. فمثلما لا يمكن تصوُّر العالم الشرقيّ بلا البوذيّة، كذلك لا يمكن تصوُّر أوروبا دون أخذ دور الكنيسة بالحسبان، فضلًا عن الملوك أصحاب الجلالة المسيحيّين جدًّا، واللاهوت المدرسيّ، وصنائع وأمثال قدّيسيها العظماء.

بالمقابل، يأخذ معارضو الاعتراف بعين الاعتبار المبادئ العلمانيّة التي تقوم عليها الديمقراطيّات الحديثة. فالساعي إلى الاعتراف يذكر أنَّ العلمانيّة هي إنجازٌ أوروبيٌّ حديثٌ للغاية، من موروثات الثورة الفرنسيّة: لا شأن لها بالجذور الضاربة في عمق الرهبانيّة والفرنسيسكانيّة. والمعترض يتطلَّع إلى أوروبا الغد بالأحرى، التي تمضي حتميًّا لتصبح قارّةً متعدِّدة الأعراق، حيث من المرجَّح أن يعيق الاعترافُ الصريحُ بالجذور المسيحيّة عمليّةَ إدماج القادمين الجدد، وأن تحال تقاليدُ أخرى ومعتقداتٌ أخرى (التي من المحتمل أن تغدو مرتفعة النسبة) إلى مجرَّد ثقافاتٍ ومذاهبَ أقلَّويّة تحظى بالتسامح ليس إلّا.

إذًا، كما هو واضح، هذه ليست مجرَّد حرب أديان، لأنَّها تنطوي

1- يقترح يونغ نماذج أصليّة، أو قوالب نمطيّة، تتشكَّل من صور ذهنيّة تقوم على الأديان والأساطير، لتصبح المكوِّن الأساسيّ للاوعي الجماعيّ؛ وقد تتشارك فيه كثيرٌ من الأمم من دون تواصل بينها. (المترجم).

على مشروعٍ سياسيّ، ورؤيةٍ أنثروبولوجيّة، وقرارٍ برسم ملامح الشعوب الأوروبيّة سواء أكان بناءً على ماضيهم أم بناءً على مستقبلهم.

فلننظر في الماضي. هل تطوّرت أوروبا على قاعدة الثقافة المسيحيّة حصرًا؟ لا أشير إلى الإثراء الذي أفادت منه الثقافة الأوروبيّة على مرّ العصور، بدءًا بالرياضيّات الهنديّة، والطبّ العربيّ أو حتّى الصلات بالشرق الأقصى، لا من عصر الرحّالة ماركو بولو فحسب إنّما من عصر الإسكندر الأكبر. كلُّ ثقافةٍ إنّما تستوعب عناصر ثقافات قريبة أو بعيدة، لكنّها تتميَّز لاحقًا بالطريقة التي تتملَّكُ بها تلك العناصر. لا يكفي أن نقول إنّنا مدينون بالصِفر للهنود أو العرب، ما دامت أوروبا هي المكان الذي أُكِّدَتْ فيه للمرّة الأولى فكرةُ أنَّ الطبيعة مكتوبةٌ بلغةٍ رياضياتيّة[1]. إنّما نحن نتجاهل الثقافة الإغريقيّة–الرومانيّة.

استوعبت أوروبا الثقافةَ الإغريقيّة–الرومانيّة سواء أكان على مستوى القانون أم على مستوى الفكر الفلسفيّ، بل وحتّى على مستوى المعتقدات الشعبيّة. وقد احتوى الدين المسيحيّ، بيسرٍ كبيرٍ في أغلب الأحيان، طقوسًا وأساطيرَ وثنيّة، وهنالك أشكالٌ من تعدُّد الآلهة ما زالت باقيةً في التديُّن الشعبيّ. ليس عصر النهضة وحده الذي ضجَّ بتماثيل فينوس وأبولو، واتَّجه لإعادة اكتشاف العصر الكلاسيكيّ، وآثاره ومخطوطاته. فلقد شيَّدَ العصرُ الوسيطُ المسيحيُّ لاهوتيّاتِهِ على فكر أرسطوطاليس، الذي أُعِيدَ اكتشافه بوساطة العرب، وإذا كانت مسيحيّةُ العصر الوسيط تجاهلت أفلاطون إلى أبعد الحدود، فإنّها لم تتجاهل الأفلاطونيّة المُحدَثَة، التي أثَّرت في آباء الكنيسة على نحوٍ واسع. ولا يمكن فهم أوغسطين، الأعظم بين المفكِّرين المسيحيّين، من دون تشرُّب التيَّار الأفلاطونيّ. بل إنَّ مفهومَ الإمبراطوريّة نفسه، الذي جرى في محوره نزاعٌ طويل الأمد بين الدول الأوروبيّة، وبين هذه الدول والكنيسة، هو ذو أصولٍ رومانيّة. ثمّ إنَّ أوروبا انتقت لغة روما اللاتينيّة لغةً للطقوس المقدَّسة، والفكر الدينيّ، والقوانين، والمساجلات الجامعيّة.

1- «الكون، كتاب الطبيعة، مكتوبٌ بلغة الرياضيّات، أحرفه مثلّثات ودوائر وأشكالٌ هندسيّة». غاليليو غاليلي. (المترجم).

ومن جهةٍ أخرى، لا يمكن فهم التقاليد المسيحيّة من دون التوحيد اليهوديّ. إنَّ النصَّ الذي قامت عليه الثقافة الأوروبيّة، النصَّ الأوَّل الذي فكَّرَ بطباعته الطبَّاعُ الأوَّل، النصَّ الذي أسَّسَ للغة الألمانيّة إذ أنجز ترجمته لوثر، النصَّ الجوهريّ للعالَم البروتستانتيّ، هو الكتابُ المقدَّس. لقد ولدت أوروبا المسيحيّة ونشأت على ترتيل المزامير، وتلاوة قصص الأنبياء، والتفكُّر بأيّوب أو بإبراهيم. بل إنَّ التوحيد اليهوديّ كان الأرضيّة الوحيدة للحوار بين التوحيد المسيحيّ والتوحيد الإسلاميّ.مكتبة سُر مَن قرأ

لكنَّ الأمر لا ينتهي عند هذا الحدّ. فالثقافة الإغريقيّة، منذ عصر فيثاغورث على الأقلّ، ما كان يمكن تصوُّرها لولا أخذ الثقافة المصريّة القديمة بالحسبان؛ وقد كانت علوم المصريّين القدماء والكلدانيّين مصدر الإلهام لدى أعرق الظواهر الثقافيّة الأوروبيّة، ألا وهي النهضة، في حين أنَّ الخيال الأوروبيّ، من أوائل فكّ رموز المسلّات وإلى شامبليون، ومن الطراز الإمبراطوريّ إلى شطحات الـ*New Age*، الموغلة في حداثتها وغربيّتها، لطالما نهل من نفرتيتي، وألغاز الأهرامات، ولعنات الفرعون والخنافس الذهبيّة.

شخصيًّا لا أرى أيَّ بُطلانٍ في أن يحتوي الدستور على إشارةٍ إلى الجذور الإغريقيّة–الرومانيّة واليهوديّة–المسيحيّة لقارّتنا، المتَّحدة على التأكيد بأنَّها -اعتمادًا على هذه الجذور تمامًا، ومثلما أنَّ روما فتحت معبدها لآلهةٍ من كلّ نوع وتولّى عرشَها الإمبراطوريَّ رجالٌ من بشرةٍ سوداء (لا ننسَ أنَّ القدّيس أوغسطين وُلِدَ في أفريقيا)- انفتحت على الاندماج بكلِّ إسهامٍ ثقافيٍّ وعرقيٍّ آخر، آخذةً بعين الاعتبار أنَّ استعدادها لهذا الانفتاح يُشكِّلُ إحدى أعمق سماتها الثقافيّة.

2003

اللوتس والصليب

تابعتُ باهتمامٍ النقاشَ الذي فتحه الكاردينال راتزينغر حول صواب (أو بُطلان) السماح للمتديِّنين الكاثوليك بدعم شعائر التأمُّل والزهد بتقنيّاتٍ جسمانيّةٍ من وحيٍ شرقيّ. لا داعي، بالتأكيد، للرجوع إلى تقنيّات التنفُّس

عند رهبان النسكيّة في القرون الأولى، لأنَّ صلاة المؤمن الأخير نفسها تأخذ بالحسبان الوظيفةَ التي قد يؤدّيها الجسد بإيقاعاته ووضعيّاته في تهيئة الذهن للتأمُّل. لكنَّ تقنيّات التأمُّل الشرقيّ تميل إلى استخدام الجسد بغية الوصول إلى نوعٍ من إبطال الحواسّ والإرادة، حيث يُنسى الجسدُ ومعه الألمُ وبلايا طبيعتنا المادّيّة. فهي بهذا المعنى أقرب إلى ذلك السعي لإخماد القلق والآلام الذي اتَّسمت به الأتاراكسيا [فلسفة الطمأنينة] الكلاسيكيّة والوثنيّة.

إلّا أنَّه لا يسعنا سوى الاتّفاق مع الكاردينال راتزينغر بهذا الخصوص. فالمسيحيّة تقوم على فكرة أنَّ ابن الربّ، ابن الإنسان، يُبيِّنُ أنَّ درب الخلاص من الشرّ يمرُّ عبْر الصليب. لا يمكن للألم أن يكون منسيًّا في الدين المسيحيّ، بل إنَّه وسيلةٌ أساسيّةٌ للصلاح الوجدانيّ.

لا أودُّ أن يساء فهمي. لا شأن لما أقوله على الإطلاق بالجدال الذي استعر على مستوياتٍ عليا مؤخَّرًا، حول واجب المسيحيّ من عدمه في الاهتمام بتخفيف آلام العالم. يكفي أن يقرأ المرء بضع صفحات من الإنجيل ليدرك أنَّ المسيحيَّ من واجبه تهوين آلام الآخرين. ولكن يجب عليه أن يصفّي حساباته جيّدًا مع ألمه الشخصيّ. على المسيحيّ أن يضحّي بنفسه كي لا يعاني الآخرون، وينبغي له أن يفعل ما يقوى عليه في سبيل تقليص نسبة الألم الذي يُحزِن العالم قدر المستطاع. حتّى إنّه يجدر به تقليص ألمه الشخصيّ أيضًا، إن استطاع فعلها من دون إلحاق الضرر بأحد، لذا فمرحبًا بالطبّ نفسه إذا سكَّنَ عذاباتنا (فالانتحار والمازوشيّة خطيئتان). ولكن بما أنَّ نسبة الألم تلك حتميّةٌ لا محالة (بسبب الخطيئة الأصليّة، وكلّ عيوب هذا العالم الدنيويّ)، يتوجَّبُ على المسيحيّ أن يستخلص العبرة الأخلاقيّة، والزهديّة القصوى من الألم الذي سيلاقيه.

مثاليًّا، لا يجدر بأيّ أحدٍ أن يعاني، بقدر ما يتعلَّق الأمر بك؛ ولكن نظرًا إلى أنَّ إرادتك الصالحة لا تستطيع إلغاء حضور الألم في العالم، فعليك أن تجتهد في تقبُّل واستثمار تلك الحصَّة من الألم التي تعرضها عليك الحياة. يخطرني الكتيِّب الرائع للفيلسوف لويجي بايرسون، *فلسفة الحرّيّة* (إصدار ميلانغولو 2000)، حيث بعد عدّة صفحات تتميَّز بتوتُّرٍ عالٍ من الميتافيزيقا حول الإشكاليّة الرهيبة فيما إذا كان الشرُّ يُعشِّش للمفارقة في داخل الكرة

الإلهيّة نفسها، يُحتَفى بالألم، المتناول بإرادةٍ حرّةٍ ومن دون تملُّص، باعتباره الوسيلة التي تحت تصرُّفنا لتخطّي الشرّ.

ليس بالضرورة أن نكون مسيحيّين طائفيًّا لتقبُّل هذا المنظور، فهو متغلغلٌ بذاته في الفكر الغربي؛ وإنَّ أعظم ما قدَّمَه الشعراء والفلاسفة غير المؤمنين (خذ ليوباردي مثلًا) نابعٌ من هذا/الإيثوس[1]. ولا شكَّ أنّ هذا/الإيثوس غريبٌ كلّيًّا عن النداء إلى اعتماد المذاهب الشرقيّة. لن أوافق الكاردينال راتزينغر إذا كان يستند إلى هذه الأرضيّة ليُحرِّمَ على العلمانيّين وغير المسيحيّين ممارسة أنماط الزهد التي يُفضِّلونها. وبالقدر نفسه لا أوافق على ضمانات أولئك المتديّنين الكاثوليك الذين يُذكِّرون الكاردينال بأنَّ اعتماد وضعيّة اللوتس لا يعني أن ننسى لغز الصليب. فهذه شؤون داخليّة تخصُّ الكنيسة. لكنَّ النقاش يشملنا جميعًا، بتلك الجزئيّة على الأقلّ، حيث -على حدّ قول كروتشه- لا يمكننا ألّا نعتبر أنفسنا مسيحيّين.

في الآونة الأخيرة، ظهر فيلسوفٌ في التلفاز (في برنامج *ماوريتسيو كوستانسو*) يؤكِّد أنّنا للخروج من أزمة العالم الغربيّ يجدر بنا الاهتداء إلى الروحانيّة الإسلاميّة (كان يتطلّع إلى «سيف الإسلام»[2]، مستندًا إلى استعارةٍ موسولينيّةٍ غير موفَّقة). لا أستبعد أنّه بوسع كثيرين العثور على حلّ مشكلاتهم حتّى في طوطميّات القبائل الهنديّة. ولكنّنا، على ما نحن عليه، وبما في ذلك الفلسفة، تَشَكّلنا في إطار الثقافة اليهوديّة-المسيحيّة. قد يلجأ الإرهابيُّ التائب إلى تغيير جلده، لكنَّ الفلاسفة يُقرِّرون تحوُّلاتهم من خلال التفكير في داخل الجلد الذي وُلِدوا عليه.

2005

1- «Ethos» كلمة يونانيّة تعني منظومة الأعراف والتقاليد التي تُشكِّل سماتٍ تراثيّة وثقافيّة وأخلاقيّة مُميِّزة لروح الجماعة. (المترجم).

2- في العام 1937 أُهدِيَ بينيتو موسوليني سيفًا فخريًّا، من جانب أحد زعماء القبائل الليبيّة المتحالفة مع الاستعمار الإيطاليّ. وتعهَّدَ موسوليني بالمقابل بتوفير الحماية للمسلمين في ليبيا وافتتاح مدارس قرآنيّة واحترام سنّة النبيّ محمّد في البلاد. سُمّيَ ذلك السيف حينها «سيف الإسلام»، وأُطلِقَ على الدوتشي لقب «حامي الإسلام». (المترجم).

نسبويّة؟

لا تُلقى اللائمة على سماجة وسائل الإعلام إنّما على واقع أنَّ بعض الناس يتحدَّثون وهم لا يفكِّرون إلّا بكيف ستشير إليهم وسائل الإعلام. وهناك بالتأكيد انطباعٌ بأنَّ سجالاتٍ معيَّنةً (حتّى ما بين أشخاصٍ يُفترَض أنَّهم لم ينكفئوا عن الفلسفة) تحتدم على وقع ضربات الهراوة، من دون رهافة، وذلك باستخدام مصطلحاتٍ حسَّاسة كما لو أنَّها حجارة. مثالٌ تقليديٌّ على هذا هو السجال الذي ينقسم على جانبيه، في إيطاليا، مَن يُسَمَّون بالمحافظين الجدد المتديِّنين، الذين يتَّهمون الفكر العلمانيّ بـ «النسبويّة»، وبعضُ الممثِّلين عن الفكر العلمانيّ الذين يتحدَّثون، بما يتعلّق بخصومهم، عن «الأصوليّة».

ما الذي تعنيه «النسبويّة» في الفلسفة؟ أنَّ تصوُّراتنا عن العالم لا تستنفد تعقيداته، إنّما هي رؤىً محتملة عنه، وكلُّ رؤيةٍ منها تحتوي على بذرة من الحقيقة؟ كان هناك وما زال فلاسفةٌ مسيحيّون يؤيِّدون هذه الأطروحة.

أنَّ هذه التصوُّرات لا ينبغي الحكم عليها بمقتضى الحقيقة بل بمقتضى استجابتها للضرورات التاريخيّة-الثقافيّة؟ إنَّ فيلسوفًا مثل ريتشارد رورتي يؤيِّد ذلك، ضمن مفهومه للـ «براغماتيّة».

أنَّ الشيء الذي نعرفه منسوبٌ إلى الشكل الذي يعرفه به الفاعل؟ ها نحن إزاء الكانطيّة العريقة والعزيزة. أنَّ كلَّ اتِّساقٍ حقيقيٌّ في داخل نموذجه الفكريّ حصرًا؟ هذا يُسمَّى «الكُلَّانيّة». أنَّ القيم الأخلاقيّة منسوبةٌ إلى الثقافات؟ هذا اكتشافٌ حاصلٌ في القرن السابع عشر. أنّه ليس هناك حقائق إنّما تأويلات؟ قالها نيتشه. أنَّ كلَّ شيء مباحٌ في حال عدم وجود إله؟ هذه عدميّة دوستويفسكيّة. أنَّها النظريّة النسبيّة؟ لا تمازحونا رجاءً.

ينبغي أن يكون واضحًا أنَّه إذا كان هناك مؤمنٌ بالنسبويّة بالمعنى الكانطيّ فهو ليس كذلك بالمعنى الدوستويفسكيّ (كانط الصالح كان يؤمن بالله والواجب)؛ وأنَّ النسبويّة النيتشويّة لا تمتُّ بصلة لنسبويّة الأنثروبولوجيا الثقافيّة، لأنَّ الأولى لا تؤمن بالحقائق والثانية لا تضعها موضع شكّ؛ وأنَّ الكُلَّانيّة بحسب أورمان كواين مرتكزةٌ بقوّةٍ إلى فلسفةٍ تجريبيّةٍ صحّيّة تعطي ثقةً كبيرة للمحفِّزات التي نتلقّاها من محيطنا، وهلمَّ جرًّا.

باختصار، يبدو أنَّ مصطلح «النسبويّة» قد يُحال على أشكالٍ من الفكر الحديث التي غالبًا ما تكون في تضادّ، وأحيانًا يُعتَبرُ مفكِّرون يرتكزون إلى واقعيّةٍ عميقة أنّهم نسبويّون، وتُلفَظُ «النسبويّة» في خضمّ السجال باللهجة نفسها التي تحدَّثَ بها يسوعيّو القرن التاسع عشر عن «السمّ الكانطيّ».

ولكن إن كان كلُّ ذلك نسبويّة، فلا تبرأ من هذه التهمة إلّا فلسفتان لا غير، وهما التوماويّة الراديكاليّة المحدثة[1] ونظريّة المعرفة لدى لينين في *المادّيّة والمذهب النقديّ التجريبيّ*. يا له من تحالفٍ عجيب!

2005

الصدفة والتصميم الرشيد

في الأسبوع الماضي، أقرَّ إيوجينيو سكالفاري بظهورٍ جديدٍ لحكايةٍ كانت تبدو أنّها بائدة ومدفونة (أو محصورة في منطقة *الحزام الإنجيليّ* الأمريكيّة، وهي مجموعة الولايات الأكثر رجعيّةً وانعزاليّةً عن العالم، المتجذّرة في أصوليّتها البدائيّة، والتي لا يأخذها أحدٌ على محمل الجدّ ما عدا بوش، لمصلحةٍ انتخابيّة أغلب الظنّ). عادت الجدالات حول الداروينيّة – التي لمست مشاريعَ إصلاح مدرستنا، أقصد المدرسة الإيطاليّة والكاثوليكيّة.

أصرّ على «الكاثوليكيّة» لأنَّ الأصوليّة المسيحيّة نشأت في الأوساط البروتستانتيّة واتّسمت بقرار تفسير النصوص المقدَّسة حرفيًّا. ولكن لكي يكون هناك تفسيرٌ حرفيٌّ للنصوص المقدَّسة، ينبغي أن تكون قابلةً للتفسير بحرّيّةٍ من قِبَلِ المؤمن، وهذا الأمر نموذجيٌّ في البروتستانتيّة. لا ينبغي أن يكون هناك أصوليّة كاثوليكيّة، لأنَّ التفسير بالنسبة إلى الكاثوليك تتوسّط به الكنيسة.

الآن، منذ آباء الكنيسة، بل وقبل ذلك مع فيلون السكندريّ، تطوَّرَ تأويلٌ ناعم، كتأويل القدّيس أوغسطين، الذي كان مستعدًّا لتقبُّل أنّ الكتاب المقدَّس

1- حركة فلسفيّة ولاهوتيّة حديثة تعمد إلى إعادة تقييم القدّيس توما الإكوينيّ بوصفه منبعًا للمعرفة، وإعادة دراسة فكره والإتيان بتأويلات جديدة لمشروعه اللاهوتيّ، وذلك لنقض البراغماتيّة والتحديث الكنسيّ واللاعقلانيّة. (المترجم).

غالبًا ما يتحدَّث عن طريق المجازات والاستعارات، لذا من الممكن جدًّا أن تكون أيَّامُ الخلقِ السبعةُ سبعةَ آلاف عام. وقد تقبَّلت الكنيسة هذا الموقف التأويليّ جوهريًّا.

حريٌّ بالإشارة إلى أنَّه، ما إن نقرَّ بأنَّ أيَّام الخلق السبعة هي حكايةٌ شعريّة من الممكن تأويلها بغضّ النظر عن حرفيّتها، سيبدو سفر التكوين أنَّه يُثبِتُ ما يقوله داروين: في البدء يحدث ما يشبه *البيغ بانغ* بانفجار النور، ثمَّ تتَّخذ الكواكب شكلها، وتحدث على الأرض انزياحاتٌ جغرافيّةٌ هائلة (الأراضي اليابسة تنفصل عن البحار)، ثمَّ تظهر النباتات، الثمار والبذور، وأخيرًا تتمخَّض الكائنات الحيّة عن المياه (تبدأ الحياة بالظهور من الماء)، تُحلِّق الطيور، ولا تظهر الثدييات إلّا لاحقًا (نَسَبُ الزواحف غير دقيق، ولكن لا يمكننا مطالبة سفر التكوين بالكثير). وفي النهاية حصرًا، وفي ذروة هذا المسار (أي بعد القردة البشرانيّة العليا، بحسب تصوُّري) يظهر الإنسان. الإنسان الذي -لا ننسى- غير مخلوقٍ من العدم، إنّما من الطين، أي من مادّةٍ سابقة. فهل هناك ما يفوق إيمانًا كهذا بنظريّة التطوُّر (دون استبعاد وجود خالقٍ بطبيعة الحال)!

ما الذي ادَّعاه اللاهوت الكاثوليكيّ مرارًا كي لا يتطابق مع نظريّة التطوُّر الماديّ؟ ليس أنَّ كلَّ الأشياء من صنع الخالق فحسب، إنّما النقلة النوعيّة التي تحقَّقت في التدرُّج التطوُّريّ، عندما أدخل الله روحًا عاقلة خالدة في كائنٍ حيّ. وبناءً على هذه النقطة لا سواها تخاض المعركة بين الماديّة والروحانيّة.

ثمّة جانبٌ مثيرٌ للاهتمام في النقاش الدائر في الولايات المتّحدة لإقرار تأويلٍ في المدارس بجانب «الفرضيّة» الداروينيّة (جديٌر بالتذكير أنَّ غاليليو أثناء محاكمته أفلت نفسه من العقاب حين أقرَّ أنَّ ما جاء به هو فرضيّة لا اكتشاف) -لئلا يبدو فرضًا لمعتقدٍ دينيٍّ في نظريّةٍ علميّة- وهو ألَّا تُقدَّمَ النظريّة كخلقٍ إلهيٍّ بقدر ما هو تصميمٌ رشيد. بمعنى أن نُلمِّحَ إلى أنَّنا لا نريد أن نفرض عليكم حضورًا محرجًا ليهوه ذي اللحية الطليقة والشبيه بالإنسان، إنّما نريدكم أن تتقبَّلوا أنَّه في حال كان هناك تطوُّر، فإنَّ هذا التطوُّر لم يقع بمحض الصدفة بل بحسب خطّة، أو مشروع، وأنَّ هذا المشروع لا يمكن

إرجاعه إلّا إلى شكلٍ من أشكال «العقل» (بمعنى أنَّ فكرة التصميم الرشيد قد تتقبَّل إلهًا واحديًّا عوضًا عن إلهٍ متعالٍ).

ما يبدو لي غريبًا هو أنَّهم يغفلون عن أنَّ التصميم الرشيد لا يستبعد مسارًا قائمًا على الصدفة كالمسار الداروينيّ، الذي يجري عبر محاولات وأخطاء إن صحَّ القول، بحيث لا يبقى سوى الأفراد الذين تكيَّفوا بشكلٍ أفضل مع البيئة أثناء كفاحهم من أجل الحياة. فلنتذكَّر الفكرة الأنبل التي لدينا عن «التصميم الرشيد»، أي الخلق الفنّيّ. يقول لنا مايكل أنجلو في إحدى سوناتاته الشهيرة إنَّ الفنّان، عندما يجد نفسه قبالة كتلة رخاميّة، لا يكون لديه فكرة مسبقة عن التمثال الذي سيخرج منها، لكنَّه يتدرَّج بذلك عبر محاولات، مستجوبًا مقاومة المادّة، ومحاولًا أن ينفض عنها «الزائد» ليستخرجَ التمثال شيئًا فشيئًا من الشوائب المادّية التي تُكبِّلُهُ. لكنَّ التمثال مهما كان، تمثال موسى أم مجموعة تماثيل السجناء على السواء، لا يكتشفه الفنّان إلّا في نهاية ذلك المسار المؤلَّف من المحاولات المستمرّة.

قد يتجلَّى التصميم الرشيد إذًا عبْر سلسلةٍ من قبول أو نبذ ما تعرضه الصدفة. وينبغي أن نُقرِّر بطبيعة الحال إن كان المصمِّم سابقًا للتصميم، المصمِّم القادر على الاختيار والرفض، أم أنَّ الصدفة التي تقبل وترفض هي التي تتجلّى كشكلٍ وحيدٍ للعقل – ما يشبه أن نقول إنَّ الصدفة هي الإله. وهذه ليست مسألةً بسيطة. بل إنَّها ببساطة، من الناحية الفلسفيّة، أعقد بقليل من رؤية الأصوليّين لها.

2005

الرَّنة والجَمَل

في هذه الأسابيع ما قبل أعياد الميلاد، ثار جدالٌ حول مجسَّم مغارة ميلاد يسوع. فمن جانبٍ ألغت بعض سلسلات المتاجر الكبرى بيع الموادّ اللازمة لتركيب المغارة لأنَّه (يقال) ما عاد يطلبها أحد، ما سبَّبَ استياءً لدى كثيرٍ من الناس الذين عوضًا عن مهاجمة أمثالهم من غير المهتمّين بهذا التقليد، صبُّوا غضبهم على التجّار (بل على سلسلة متاجر، اتَّضحَ لاحقًا أنَّها لم تبع

تماثيل مغارة الميلاد في السابق إطلاقًا). ومن الجانب الآخر، استُنْتِجَ أنَّ فقدان التعاطف مع المغارة مردُّه الإفراط في *الصوابيّة السياسيّة*، ضاربين مثلًا عدّة مدارس توقّفت عن تركيب المجسَّم تجنُّبًا لإهانة مشاعر الأطفال المنتمين إلى أديانٍ أخرى.

بما يخصُّ المدارس، قد يكون ذلك دلالةً سيّئة، على الرغم من محدوديّة الظاهرة، لأنَّ المدرسة لا يجدر بها إلغاء التقاليد بل احترامها كلّها بالأحرى. فإذا أرادت أن تجمع الأطفال من أعراقٍ مختلفة على التعايش السلميّ، فعليها السماح لكلٍّ منهم باستيعاب تقاليد الآخرين. فخلال أعياد الميلاد لا بدَّ من تركيب مغارة الميلاد، وفي المناسبات المهمّة للأديان الأخرى أو الجماعات العرقيّة، لا بدَّ من استعراض رموزهم أو تحضيرات طقوسهم. وبهذه الطريقة يتثقَّفُ الأطفال بتعدُّد التقاليد والمعتقدات المتنوّعة، ويشارك كلٌّ منهم بشكلٍ أو بآخر باحتفاليّات الآخرين، فالمسيحيّ الصغير قد يفهم طقس رمضان، والمسلم الصغير قد يتعلَّم شيئًا مّا عن ميلاد يسوع.

أمّا بما يخصُّ إحجام المتاجر عن بيع تماثيل المغارة، فيتملَّكني انطباعٌ بأنّنا بصدد تضخيم إعلاميّ. ففي سان غريغوريو أرمينو، في نابولي، ما يزال بيع تلك التماثيل الصغيرة الرائعة متواصلًا؛ عرَّجتُ قبل عامين على متجر ريناشنته الكبير في ميلانو، والطابق المخصَّص لمنتجات مجسَّم الميلاد، وكان مكتظًّا على أشدِّه؛ وقد أجرت صحيفةٌ أسبوعيّة تحقيقًا بين رجال السياسة وخَلُصَت إلى أنّه كلَّما ازدادوا يساريّةً أو عداءً شرسًا للإكليروس، كانوا مولعين بمغارة الميلاد. حتّى إنَّ الأمر قد يوحي بأنَّ مغارة الميلاد ظلَّت رمزًا عزيزًا على قلوب العلمانيّين، في حين اعتنق المتردِّدون إلى الكنيسة شجرةَ الميلاد، ووضعوا بابا نويل في مكان يسوع الطفل أو الملوك المجوس، الذين كانوا في صغري مُحمَّلين بالهدايا، وهذا ما يُفسِّرُ الفرحة التي تعمُّ احتفاء الأولاد آنذاك بملك السماوات الذي يهبط من النجوم للانشغال بألعابهم.

غير أنَّ المسألة أعقد من ذلك. يُفتَرض أنَّ الشجرة وبابا نويل يُمثِّلان تقليدًا بروتستانتيًّا، لكن من دون التذكير بأنَّ سانتا كلوز كان قدّيسًا كاثوليكيًّا، وهو سان نيكولا من باري (وقد خضع اسمه لتحريفٍ إلى نيكولاس أو

نيكولاوز). بيد أنَّ الشجرة الدائمة الخضرة هي في الآن ذاته إرثٌ وثنيٌّ لأنَّها تُذكِّر بالاحتفال بالانقلاب الشتويّ، عيد اليول، السابق لانتشار المسيحيّة، وقد ثبَّتَت الكنيسة ميلاد المسيح في موعد اليول نفسه لتتشرَّبَ التقاليد والاحتفاليّات السابقة وتتآلفَ معها. نقطة غموضٍ أخيرة: لقد نزعت الوثنيّةُ الجديدةُ الاستهلاكيّةُ القداسةَ كليًّا عن الشجرة، التي أمست محض قطعة أثاث موسميّ، مثل زينة إنارة الطرقات أيّامَ الأعياد. وبات الآباء وأبناؤهم يستمتعون بتعليق الكرات الملوَّنة عليها، لكنَّني كنتُ أستمتع أكثر بكلّ تأكيد بمشاهدة والدي وهو يباشر تركيب مغارة الميلاد في مطلع ديسمبر، وكان من البهجة رؤية مجسَّمها يتفجَّر بالينابيع والشلّالات بفضل جهاز المحقن المخفيّ.

ما نشهد على فقدانه إنّما هو تطبيق المغارة لأنَّ تركيبها يُكلِّف جهدًا وابتكارًا (كلُّ شجرات الميلاد متشابهة في حين أنَّ المغارات تختلف بعضها عن بعض دومًا)، وإن أمضى الناس أمسياتهم بتحضير المغارة يجازفون بتفويت تلك الاستعراضات التلفزيونيّة التي تُعدُّ مهمّةً للغاية من أجل سلامة العائلة، طالما أنَّهم يُحذِّروننا دائمًا أنَّ حضور الآباء إلزاميٌّ في حال أردنا أن يشاهد أبناؤنا نساءً عاريات وأدمغة مسحوقة.

وإذ أذكر أنَّ والدي، الوفيَّ لمجسَّم المغارة، كان اشتراكيًّا من أتباع جوزيبّي ساراغات، غيرَ مغالٍ بإيمانه بالربوبيّة ومعتدلًا في مناهضته للكنيسة، أعتقد أنَّ تناسي مغارة الميلاد ضررٌ حتّى لغير المؤمنين وربّما خصوصًا لهم. وبالفعل، فإنَّ ابتكار مجسَّم المغارة كان يتطلَّب شخصيّةً عظيمة بحجم فرنسيس الأسيزيّ، الذي كان إيمانه يتجسَّد لا سيّما بتحدُّثه إلى الذئاب والطيور: فمغارة الميلاد هي من أكثر الأشياء بشريّةً يمكن ابتكارها وأقلّها تعاليًا للتذكير بميلاد يسوع. ففي تلك المشهديّة المقدَّسة لا شيء، ما عدا المذنَّب والملاكين اللذين يرفرفان فوق الزريبة، يشير إلى مسائل لاهوتيّة، وكلَّما احتشدت المغارة بالشخصيّات احتُفِيَ بالحياة اليوميّة، لمساعدة الصغار على فهم كيف كانت الحياة اليوميّة في الأزمنة السالفة، وربّما يشعرون بحنينٍ تجاه طبيعةٍ لم تتلوَّث بعد.

وفي حين أنَّ التقليد العلمانيّ والاستهلاكيّ لشجرة الميلاد، يستحضر

خرافاتٍ لا أبالغ إن وصفتُها بالنازيّة، وتتلاشى في ليل الزمان، يحتفي التقليد الدينيّ لمغارة الميلاد بوسطٍ علمانيٍّ يضجُّ بالطبيعة: بتلك البيوت المتناثرة على التلال، والأغنام، والدجاج، والحدّادين والنجّارين، وحمّالات الماء، والثور، والحمار والجمل - الذي قد يمرُّ بيسرٍ في ثقب إبرة، بينما مَن يضع هدايا باهظة الثمن تحت الشجرة فلن يدخل ملكوت الله.

2006

أيا لساني الوقح التزِم الصمت...

أعتقد أنَّه مرَّت خمسة عشر عامًا منذ أن كتبتُ أنَّ أوروبا خلال بضعة عقود ستصبح قارّةً ملوَّنة، إلّا أنَّ العمليّة ستُكلِّف دموعًا ودماءً. لم أكن نبيًّا، إنّما شخصٌ يتمتَّع بالحسّ السليم وغالبًا ما يستنصح التاريخ، موقنًا بأنَّنا إذا تعلَّمنا ما وقع، فسوف نفهم في أغلب الأحيان ما قد يقع. أكتفي برؤية ما الذي يُقلِق الأرواح في هذه الأيّام، بصرف النظر عن العمليّات الإرهابيّة. ففي فرنسا يكتب أستاذٌ مدرسيٌّ انتقاداتٍ بحقّ الدين الإسلاميّ فيُهدَّدُ بالموت. وفي برلين يُلغى عرضٌ لإخراج أوبرا إيدومينيو لموزارت حيث تظهر فيه رؤوس مبتورة لا ليسوع وبوذا فحسب (فقد يُسمَح بذلك) إنّما لمُحَمَّدٍ أيضًا. لا أتحدَّث عن البابا، الذي بحُكم سنِّه المتقدِّمة كان ينبغي له أن يدرك مدى الفرق بين درسٍ جامعيّ لبروفسورٍ مّا وخطبة حبرٍ أعظمَ تبثُّها كلُّ القنوات، كان عليه إذًا أن يتوخّى الحذر أكثر (ولكن بكلّ تأكيد، أولئك الذين اتَّخذوا من اقتباسٍ تاريخيٍّ ذريعةً للسعي لإشعال حرب أديان جديدة، ليسوا ممَّن أُفضِّلُ الخروج معهم للعشاء).

كتب برنار هنري ليفي عن قضيّة الأستاذ الفرنسيّ، مقالًا جميلًا (نشرته *الكوريِيري ديلا سيرا* في 4 أكتوبر): من الممكن أن نكون على خلافٍ تامٍّ مع ما يفكِّر فيه، ولكن يجب علينا أن ندافع عن حقِّه بالتعبير عن رأيه الحرّ في مادّةٍ دينيّة، ولا يجوز الخضوع للابتزاز. أمّا عن قضيّة أوبرا إيدومينيو، في العدد نفسه من *الكوريِيري*، فكتب سيرجيو رومانو ما أودُّ إعادة طرحه بكلماتي، التي ليس رومانو بمسؤولٍ عنها: إن كان هنالك مخرجٌ مريضٌ

بالتحديث ويعمل على إخراجِ أوبرا لموزارت، ويُدرِج فيها رؤوسًا مبتورة لمؤسِّسي أديان، بينما لم يفكِّر موزارت نفسه بهذا على الإطلاق، فأقلُّ ما يمكن فعله هو ركله حيث يستحقّ، ولكن لأسبابٍ جماليّة ونَصّيّة، مثلما يجب ركل المخرجين الذين يُقدِّمون *أوديب الملك* بشخصيّات ترتدي بدلات مخطّطة ومزدوجة الصدر. ولكن في اليوم نفسه، في *لا ريبوبليكا*، ينادي موسيقارٌ مرموق بحجم دانيال بارمنبويم إلى احترام حقوق الفنّ، مع أنَّه يطرح تساؤلًا رصينًا عمّا إذا كانت المجازفة بإخراجٍ من هذا النوع تتناسب حقًّا مع روح موزارت.

أعتقد أنَّ صديقي دانيال يوافقني في الاستياء من انتقاد (أو حظر) إخراج مسرحيّة *تاجر البندقيّة* لشكسبير منذ عدّة سنوات، لأنَّها بالتأكيد مستوحاةٌ من معاداة الساميّة الشائعة في ذلك العصر (وقبله أيضًا، من تشوسر فصاعدًا)، مع أنَّ الإخراج الحديث يُبيِّنُ في شايلوك حالةً إنسانيّة ومثيرةً للشفقة. ولكنَّنا بصدد التالي: الخوف من التكلُّم. وأذكِّر أنَّ هذه التابوهات ليست كلّها منسوبةً إلى الأصوليّين الإسلاميّين (الذين لا يمزحون بما يتعلّق بحساسيّتهم المفرطة)، لكنَّها بدأت مع أيديولوجيّة *الصوابيّة السياسيّة*، المستلهمة بحدّ ذاتها من إبداء الاحترام نحو الجميع، لكنّها باتت تمنع، في أمريكا على الأقلّ، التفوُّهَ بنكاتٍ لا أقول بحقّ اليهود أو المسلمين أو المقعدين، بل أيضًا بحقّ الاسكتلنديّين، وأهالي جنوا، والبلجيك، ورجال الشرطة، ورجال الإطفاء، وعمّال النظافة والإسكيمو (الذين لا ينبغي تسميتهم بهذه التسمية، لكنّي إذا سمَّيتُهم كما يرغبون هم فلن يفهم أحدٌ عمَّن أتكلَّم).

منذ حوالي العشرين عامًا كنتُ أدرِّسُ في نيويورك، ولتبيين كيفيّة تحليل النصّ، اخترتُ –عشوائيًّا تقريبًا– حكايةً فيها بحَّارٌ سليط اللسان يصف (في سطرٍ واحدٍ منها فقط) فرجَ عاهرة قائلًا إنَّه «واسع مثل رحمة الـ...» – وها أنا أضع النقاط الثلاث لاسم ذاتٍ إلهيّة. وفي نهاية الدرس اقترب منّي طالبٌ من الواضح أنَّه مسلم، ولامني بلهجةٍ محترمة لأنّي انتقصتُ من احترام دينه. فأجبتُه أنّي كنتُ أقتبس بذاءة لسان أحدهم ليس إلّا، لكنّي اعتذرتُ بكلّ الأحوال. وفي اليوم التالي أدرجتُ في كلامي تلميحًا ينتقص (رغم طرافة التلميح) من احترام شخصيّةٍ عظمى في اللاهوت المسيحيّ. فضحك

الجميع، وانضمَّ الطالب نفسه إلى الهزر العامّ. فسحبتُه من ذراعه في النهاية وسألتُه لماذا ينتقص من احترام ديني *أنا*. لكنّي حاولتُ أن أوضِّح له الفرق بين اقتباسٍ فكاهيّ، وذكر اسم إلِهٍ عبثًا والتجديف بالذات الإلهيّة، فدعوتُهُ بذلك إلى تسامحٍ أكبر. فبادر هو إلى الاعتذار، وأعتقد أنَّه فهم مقصدي. ولعلَّ ما لم يتلقَّفهُ جيّدًا هو تسامُح العالَم الكاثوليكيّ إلى أبعد الحدود، نظرًا إلى أنَّه في «ثقافة» التجديف، حيث قد ينعت المؤمنُ التقيُّ الإلهَ الأعلى بأوصافٍ شنيعة، ما عاد يُصدَمُ أحدٌ بذلك.

ولكن ليست كلُّ العلاقات التربويّة قد تكون مسالمة ومُتمدِّنة كتلك التي أجريتُها مع طالبي. ومن الأفضل التزام الصمت فيما تبقّى. ولكن ما الذي سيحدث لثقافةٍ إذا كان حتّى الطلبة يتخوَّفون من ارتكاب زلّةٍ أو حماقة بحقِّها، فلا يجرؤون بعدُ على الإشارة إلى أيّ فيلسوفٍ عربيّ؟ سيصيبها *لعن الذاكرة*، أي حذفٌ شاملٌ لثقافةٍ عريقة ومختلفة، عن طريق الصمت. وهذا لن يفيد المعرفةَ والتفاهمَ المتبادل.

2006

صنميّةٌ وتحريمٌ مخفَّفٌ للأيقونات

هل نحن نعيش في حضارة الصور حيث تبدَّدت الثقافة الأبجديّة أم إنَّ الأبجديّة تظفر من جديد مع صعود الإنترنت؟ أين نضع التلفاز، والـ DVD، وألعاب الفيديو؟ إنَّ علاقة البشر بالصور لطالما كانت مؤرِّقة نوعًا مّا، وهذا ما تُذكِّرنا به ماريّا بيتّيتيني في كتابها *ضدّ الصور. جذور تحريم الأيقونات* (إصدار لاتيرزا 2006). ينبغي لي أن أتحدَّث عن كتيِّبٍ «رشيق» يقع في مئة وستّين صفحة، لكنّي لا أودُّ خداع أحد: الكتيِّب مكثَّفٌ وموجَّهٌ إلى الملمّين بمسائل فلسفيّة ولاهوتيّة. حتّى إنَّني، ونظرًا إلى أنَّ كثافته لا تسمح بتلخيصه، سأتوقَّف عند بعض الاستطرادات الحرّة حول هذه المهارة البشريّة (المجهولة لدى الحيوانات)، أي إنشاء «الوثن».

بالنسبة إلى أفلاطون، إذا كانت الأشياء محاكاةً ناقصةً لنماذج مثاليّة، فالصور محاكاةٌ ناقصةٌ للأشياء، لذا فهي محاكاةٌ باهتةٌ وبالية؛ لكنَّ الصور

مع الأفلاطونيّة المُحدَثَة تصبح محاكاةً مباشرةً للنماذج المثاليّة، فمصطلح «*agalma*» يعني «تمثال»، وفي الآن نفسه يعني «صورة»، وكذلك «سطوع»، و«وقار»، وبالتالي «جمال».

كان الغموض حاضرًا في العالم اليهوديّ، حيث لا نقاش على عدم تصوير الربّ (بل لا يمكن حتّى لفظ اسمه الحقيقيّ)، ولكن في نهاية المطاف لقد خلق الربُّ الإنسانَ على صورته، وإن قرأتَ في الكتاب المقدَّس أوصاف هيكل سليمان، رأيتَ أنَّه لا يقتصر على التصاوير النباتيّة والحيوانيّة من كلّ نوع فحسب، إنّما يشمل ملائكة الشيروبيم أيضًا. ويُطبَّق تحريمُ تصوير الأشياء السماويّة ذاته في العالم الإسلاميّ، وكان اللجوء إلى أشكالٍ خطّيّة ومجرَّدة ساريًا في أماكن العبادة، لكنَّ الثقافة الإسلاميّة أمدَّتنا بمنمناتٍ رائعة تعكس وفرة القدرة على التصوُّر.

ومع المسيحيّة لم يتَّخذ الربُّ جسدًا «مرئيًّا» فحسب، بل إنَّ هذا الجسد الإلهيّ خلَّفَ صورًا لوجهه على أقمشة ومناديل دامية. كما أنَّ المسيحيّة (وقد فسَّرَ ذلك هيغل بجدارة لاحقًا) كانت في حاجةٍ إلى الصور لا لتصوير أمجاد السماوات فقط، بل لتصوير وجه المسيح المشوَّه والمعذَّب إضافةً إلى شناعة مُعذِّبيه ووحشيَّتهم.

فمن الطبيعيّ والحال هذه أن يختلط الأمر أكثر: فمن جانب، يقول لنا أحد الأفلاطونيّين الجدد مثل ديونيسيوس الأريوباغيّ الزائف إنَّه لا يمكن التحدُّث عن الأشياء الإلهيّة إلّا بالإنكار (فما بالك بتصويره بطريقةٍ ملائمة!) ولذا فإن كان لا بدَّ من التلميح إلى الربّ فمن المستحسن استخدام أكثر الصور المغايرة فظاعةً، كالدبّ أو الفهد؛ ورغم هذا، ومن الجانب الآخر، عمد مَن قرأ ديونيسيوس الأريوباغي الزائف إلى تعديل الفكرة بحيث إنَّ كلَّ الأشياء الأرضيّة ما هي إلّا صورة للأشياء السماويّة، وكلّ مخلوق دنيويّ هو «رسمة» تقريبًا للأشياء التي لا يسع حواسّنا الإحاطة بها، لذا فمن المشرَّع والمناسب طرح رسومات لهذه الرسومات.

لكنَّ البسطاء كان سهلًا عليهم الانتقال من سحر الصورة إلى مطابقتها بالشيء الذي يُمثِّلها، والانزلاق من عبادة الصور إلى الصنميّة (عودة إلى

عجل الذهب). ومن هنا جاءت واقعة تحريم الأيقونات والحملة البيزنطيّة الشهيرة ضدّ الصور.

وعلى النقيض من ذلك لا تتخلّى كنيسة روما عن استخدام التمثُّلات البصريّة لأنَّ الرسم هو أدب الرعاع -كما سيقال مرارًا- ولا يمكنك أن تُعلِّمَ البسطاء الأمّيّين إلّا عن طريق الصور. لكنَّ النقاش يسائل عن مدى قوّة غابة التصاوير هذه التي تغصُّ بها الأديرة والكاتدرائيّات، وقد صيغت نظريّةٌ حذرة في عهد شارلمان تفيد بأنَّ الصور جيّدة بالطبع، ولكن لتحفيز الذاكرة ليس إلّا، ففي النهاية سيكون من الصعب الجزم إذا ما كانت صورةٌ أنثويّةٌ تُمثِّلُ العذراء المسيحيّة التي يجب تقديسها أم فينوس الوثنيّة التي يجب عداؤها، ما لم تكن مرفقةً بترويسة. كما لو أنَّ الشارلمانيّين قرأوا رولان بارت إذ يُنظِّر للتجذير اللغويّ للصور (ليس للاحتفاء بالربّ إنّما لبيع الأصنام التجاريّة الجديدة)، واستبقوا نظريّة الثقافة اللغويّة-البصريّة، مثلما هي عليه النظريّة الراهنة، التي حلَّ فيها التلفاز ببساطة (صورة زائد كلمة) محلَّ الكاتدرائيّة- ما أقوله هو أنَّ البابا صار يتقدَّسُ، ويتصنَّم أحيانًا، على الشاشات، وليس بالذهاب إلى الكنيسة.

تتوالد تأمُّلاتٌ أخرى مع الانتهاء من كتيِّب ماريّا بيتّيتيني (المقلق على الرغم من خفّته): منها أن يحيا التخوُّف الدائم من أنَّ الصور، بما فيها المقدَّسة، تنسينا الربّ (وهذا ما قلق بشأنه القدّيس برنار)، أو أن نشتكي بلهجةٍ علمانيّة من أنَّ الصور الجديدة تستنزف «ضياع الهالة»، لكنَّ الفنَّ المعاصر يُدمِّر أو يُشوِّه صور التراث أوّلًا (بيكاسو أو اللاشكليّ)، ومِن ثَمَّ يتلاعب بها بمضاعفتها (آندي وارهول)، وفي النهاية يستبدلها، يرميها، يعيد تدويرها، يعيد خلقها، بما يشبه التحريم المخفَّف والمتواصل للأيقونات.

وعليه فإنَّ الوضع الذي نعيش فيه أعقد بكثير ممّا كان يُقلِقُ أفلاطون، وينبغي لنا العودة بالنقاش من الصفر.

2007

سكالفاري والحقائق (حقائقه وحقائقي)

في الأسبوع الماضي توقَّفَ إيوجينيو سكالفاري، باهتمامٍ أمتنُّ له عليه،

عند مجموعة دراسات تاريخيّة أصدرتُها مؤخّرًا. وبعد إثباتاتٍ كثيرة تنمُّ عن عدم كفاءته، توجَّهَ لتحديد موضوعةٍ فلسفيّةٍ بما يبعث الرعدة في العروق وفي نبضات القلب[1]. ومَن يدري ما الذي سيضمره لي لو كان كفؤًا.

خلاصة القول إنَّ سكالفاري يعثر في الدراسة الأخيرة من مجموعتي على مُحاجَّةٍ ضدَّ الفكر النيتشويّ الذي ينصُّ على أنّه ليس هناك حقائق بل تأويلات. يمتلك سكالفاري من الإمكانيّات ما يساعده على ملاحظة أنَّ الحقائق صامتة تمامًا لأنَّها تحثُّ على التأويل، وبعبارةٍ موجزة أنَّ كلَّ ما نعرفه راجعٌ إلى الطريقة التي نشاهده بها، أي إلى منظورنا التأويليّ. ثمَّ يعترض على أنّني لا أفسِّر «الطريقة التي تُمكِّنُ الحقائق من التدخُّل في تأويلاتنا».

يكفيني للردِّ عليه أن أذكِّر بأنّي حاولتُ تفسير ذلك في أعمالي السابقة مثل *حدود التأويل*؛ *كانط وخلد الماء*، وأنَّ مسألةً بهذا القدر لا يُرَدُّ عليها بحدود مغلَّفٍ بسيط. ولكن بالإمكان توضيح غموض محتمل، أو مصدر سوء فهم على الأقلّ. أعتقد أنَّ سكالفاري نفسه لا يستبعد أنَّ ثمّة شيئًا مّا هناك في الأعلى حين ننظر إلى النجوم في السماء: سيقول ببساطة إنَّ ما نعرفه عنه راجعٌ إلى الطريقة التي نؤوِّل بها الظاهرة (والدليل أنَّ القدماء كانوا يرون فيه أشكالًا سماويّة، وفلكيّي مرصد بولامار يرون فيه شيئًا مختلفًا، لكنَّهم هم أنفسهم مستعدُّون لإعادة النظر في تأويلهم عندما تُبيِّنُ لهم وسائلُ أرقى أشياءً كانت حتّى اللحظة تفوت انتباههم).

لكنَّنا الآن نستطيع الإدلاء بثلاثة إثباتات مختلفة جدًّا فيما بينها: 1. ليس هناك حقائق بل تأويلات؛ 2. نعرف كلَّ الحقائق عبر تأويلنا؛ 3. وجود الحقائق يبرهنه أنَّ بعض التأويلات غير صالحة تمامًا، لذا هنالك شيءٌ يرغمنا على الاستغناء عنها. وإنَّ الخلط بين هذه الأنواع الثلاثة من الإثباتات هو الذي يدفع أشخاصًا مثل راتزينغر مثلًا أو آخرين إلى اعتبار الفكر الحديث

1- اقتباسٌ تعبيريٌّ من الكوميديا الإلهيّة للشاعر الأعظم دانتي أليغييري: «انظر إلى الوحش الذي أرجعني القهقرى. أعنِّي عليه أيُّها الحكيم الذائع الصيت، لأنَّه يبعث الرعدة في عروقي وفي نبضات القلب». (الجحيم، الأنشودة الأولى 88-90 ترجمة د. حسن عثمان، إصدار دار المدى). (المترجم).

تجسيدًا لنسبويّةٍ راديكاليّة. لكنَّ النسبويّة الراديكاليّة لا تتجسَّد إلّا إذا تقبّلنا الإثبات رقم 1 – الذي يميل نحوه نيتشه بشكلٍ خطير، أيًا كانت وجهته. أمّا مَن يتقبَّل الإثبات رقم 2 فإنَّه يقول أمرًا بديهيًّا. فمن الطبيعيّ أنّني إذا رأيتُ ضوءًا في آخِر المرج خلال الليل سأبذل جهدًا تأويليًّا لكي أجزم أنّني أرى يراعة، أو مصباحًا معلّقًا على نافذة بعيدة، أو شخصًا يشعل سيجارة، أو ضوءًا طيفيًّا دفعة واحدة، وهكذا دواليك. ولكن في حال أنّي جزمتُ أنَّها يراعة على بُعد عشرة أمتار منّي، ووثبتُ إلى الأمام للإمساك بها، ثمَّ انتبهتُ أنّني وصلتُ إلى آخِر المرج، وكلّما تقدَّمتُ مزيدًا ظلَّ الضوء بعيدًا، فحينذاك سأكون مجبرًا على التخلّي عن تأويل «اليراعة» واعتباره تأويلًا خاطئًا (لعلّي أرجِّح المصباح، لكنَّ الأمر متروكٌ للموقف). بكلّ الأحوال سأكون إزاء شيءٍ مّا يجعل من تأويلي بلا سند–بمعزلٍ عن تأويلي نفسه. وذلك الشيء الذي يتحدّى تأويلي أسمِّيه «حقيقة». الحقائق إذًا هي تلك الأشياء التي تقاوم تأويلاتي.

إنَّ أفكاري عن الحقائق لا تُعنى بالطبيعة فحسب، بل بالنصوص أيضًا. ذات مرّة رويتُ عن مناقشة حادّة وممتعة وقعت بين نقّاد مُتخصِّصين بجويس ومولعين بروايته *يقظة فينيغان* (كتابٌ يبدو أنّه يُشجِّع كلَّ التأويلات الممكنة)، حيث عثر قارئٌ، بعد إلماحٍ إلى السوفييت، على لعبة كلمات تضع «berial» عوضًا عن «burial» (الدفن) واستخلص أنّه بصدد إلماحٍ إلى لافرينتي بيريا، وزير ستالين، الذي أُعدِمَ بالرصاص. وما لبث أن لاحظ قرّاءٌ آخرون أنَّ بيريا كان قد لمع نجمه بعد الفترة التي كتب فيها جويس نصَّه هذا، لذا فلا يمكن للإشارة أن تخصَّه. وأجاب قرّاءٌ آخرون (وقد بلغوا حدود الهذيان) بأنَّه من غير المستبعد أن يكون لدى جويس قدراتٌ تنبُّؤيّة. إلى أن وصل قارئٌ آخَر ودعاهم لملاحظة كيف أنَّ الصفحات السابقة تصوغ توريةً دينيّة، ومرجعيّتُها إلى يوسف التوراتيّ، الذي دُفِنَ مرّتين، وكيف أنَّ في القصّة المقدَّسة يظهر اثنان باسم بيريا[1]، سواء أكان حفيد يوسف أم ابن إفرايم شقيق الحفيد. إنَّ وجود سياقٍ بهذه القوّة هو حقيقةٌ بالنسبة إليّ، وهذه الحقيقة تجعل الفرضيّة

1– بالعربيّة اسمه «بريعة»، وقد تركناه على لفظه بالإنكليزيّة للحفاظ على لعبة الكلمات. (المترجم).

التوراتيّة (التي لها معنى) أكثر مصداقيّة من تلك السوفييتيّة (التي لا تُفسِّر شيئًا). هنالك تأويلاتٌ تدحضها الحقائقُ (السياقيّة).

الحقائق هي ذلك الشيء الذي، ما إن نؤوِّله بطريقةٍ خاطئة، يخبرنا بعدم التوصُّل إلى أيّ نتيجة إذا استمررنا على هذه الحال. أتفهَّمُ أنَّ هذا التعريف للحقائق بحدِّ ذاته قد يُغضِبُ كثيرين، ولكن ليس الفلاسفة وحدهم مَن يعمل بهذه الطريقة، بل حتّى العلماء. فإذا نوينا الذهاب إلى القمر فإنَّ تأويل غاليليو ينجح بصورةٍ أكبر من تأويل بطليموس.

2007

كوكايين الشعوب

في نقاشٍ مخصَّصٍ مؤخّرًا لسيمياء المقدَّس انتهى بنا المطاف إلى الحديث حينذاك عن تلك الفكرة الممتدّة من ماكيافيلّي إلى روسّو، إضافةً إلى فكرة «الدين المدنيّ» لدى الرومان، باعتباره مجموعةً من المعتقدات والالتزامات القادرة على صون المجتمع. وأُشيرَ إلى أنّنا عن طريق هذا التصوُّر، الصالح بحدِّ ذاته، نتوصَّل بسهولةٍ إلى فكرة الدين بوصفه *أداةً للحكم* (*instrumentum regni*)، وذريعةً تستخدمها سلطةٌ سياسيّةٌ معيَّنة (حتّى لو تسلَّمَها كَفَرة) للجم رعيَّتها.

كانت الفكرة حاضرةً أساسًا عند كُتَّابٍ اختبروا دين الرومان المدنيّ، وعلى سبيل المثال يكتب بوليبيوس (*تواريخ*، الجزء الخامس) بخصوص الطقوس الرومانيّة أنّه «في أمَّةٍ مكوَّنةٍ من عارفين حصرًا، من غير المجدي اللجوء إلى وسائل كهذه، ولكن بما أنَّ الجماهير هي بطبيعتها مُتقلِّبة وخاضعة لأهواء من شتّى الأنواع، وجشعٍ لا يُكبَح له جماح، وغضبٍ عنيف، فلا مجال إلّا لردعها بمنظوماتٍ كهذه، ومخاوفَ غامضة. وإنَّني لهذا أميل إلى الرأي بأنَّ القدماء لم يغرزوا في الجماهير الإيمانَ الدينيَّ وخرافاتِ العالم السفليّ عبثًا، بل أرى أنَّ مَن يسعى لإلغائها في أيّامنا هذه مغفَّلٌ بالأحرى... فالرومان، رغم أنّهم يديرون قدرًا هائلًا من الأموال في الوظائف الحكوميّة والسفارات، لا يحافظون على نزاهتهم إلّا إجلالًا لتعهُّدهم بالقَسَم؛ وفي

حين أنَّنا نادرًا ما نجد لدى شعوبٍ أخرى مَن لا يمسّ المال العامّ، فمن النادر لدى الرومان العثور على أحدٍ يُدنِّس نفسه بهذه الخطيئة».

إن كان الرومان يتصرَّفون على ذلك النحو النزيه في العصر الجمهوريّ، فمن المؤكَّد أنَّهم كفُّوا عن ذلك فيما بعد. ولنا أن نفهم لماذا قام سبينوزا بعد عصور بإعادة قراءة مبدأ الـ*instrumentum regni*، ومراسمه الباهرة والجذَّابة: «إنَّ السّرّ الكبير في النظام الملكيّ ومصلحته الحيويّة هو خداع الناس وإضفاء اسم الدين على الخوف الذي تتمُّ به السيطرة عليهم، بحيث يناضلون من أجل عبوديّتهم، وكأنَّ فيها خلاصهم... وعلى العكس من ذلك لا يمكننا في جمهوريّةٍ حرّة أن نتصوَّر أو نأخذ على عاتقنا شيئًا أشرَّ من ذلك»[1] (*رسالة في اللاهوت والفلسفة*).

وهكذا لم يكن من الصعب الوصول إلى التعريف الماركسيّ الشهير الذي يعتبر الدين أفيون الشعوب.

ولكن هل صحيحٌ أنَّ كلَّ الأديان تمتلك دومًا هذه *الفاعليّة المنوِّمة*[2]؟ لجوزيه ساراماغو على سبيل المثال رأيٌ مختلفٌ بشكلٍ جليّ، فلقد هاجم الأديان في أكثر من مناسبة باعتبارها مبعثًا للنزاعات: «الأديان، كلُّها، بلا استثناء، لن تصلح أبدًا لتقارُبِ البشر وإحلال السلام بينهم، بل على العكس كانت وما تزال سببًا لعذاباتٍ يعجز اللسان عن وصفها، ومجازر، وأنماطٍ من العنف المروِّع جسديّةٍ وروحيّة تؤسِّس لأحلك الفصول ظلمةً في تاريخ البشريّة البائس» (*لا ريبوبليكا*، 20 سبتمبر 2001).

ويختتم ساراماغو في موضعٍ آخر أنَّنا «لو كنّا جميعًا ملحدين لاستطعنا أن نتعايش في مجتمعٍ أكثر سلمًا». لستُ واثقًا من أنَّه على حقّ، ولكن يبدو أنَّ البابا راتزينغر أجابه بطريقةٍ غير مباشرة في تعميمه البابويّ «*لأنّنا بالرجاء خلصنا*» حيث يقول لنا إنَّ إلحاد القرن التاسع عشر والقرن العشرين،

1- من ترجمة حسن حنفي ومراجعة فؤاد زكريا لرسالة في اللاهوت والفلسفة لسبينوزا. (المترجم).

2- «*virtus dormitiva*» اقتباسٌ من مسرحيّة موليير «مريض الوهم». والجملة واردة في المسرحيّة باللاتينيّة على سبيل السخرية، لأنَّ الشخصيّة تُفسِّر لماذا يسبِّب الأفيون النوم، بالقول إنَّه يحتوي على فاعليّة منوِّمة. (المترجم).

خلافًا لما يشاع، ومع أنَّه قُدِّمَ كاحتجاجٍ ضدَّ ظلم العالم والتاريخ الكونيّ، قد فعل ما فعل «بحيث نجمت عن هذه الفرضيّة أعتى وأقسى الانتهاكات بحقّ العدالة».

يخامرني ظنٌّ بأنَّ راتزينغر يلمح إلى لينين وستالين اللادينيّين، لكنَّه ينسى أنَّ الرايات النازيّة كانت تزدان بعبارة «*Gott mit uns*» (وتعني «الربُّ معنا»)؛ وأنَّ كتائب السَدَنة العسكريّين كانت تبارك الشارات الفاشيّة؛ وأنَّ الذي استلهم من المبادئ الدينيّة وحظي بمؤازرة جماعة «محاربو يسوع الملك» كان هو السفَّاح فرانشسكو فرانكو (بمعزلٍ عن جرائم خصومه، كان هو الذي بدأ)؛ وأنَّ الفانديين كانوا متعصِّبين لدينهم وقاتلوا الجمهوريّين الذين ابتكروا كذلك معتقد العقل الإله (بصفته *instrumentum regni* *أداةً للحكم*)؛ وأنَّ الكاثوليك والبروتستانت ذبَّحَ بعضهم بعضًا بكلّ سرور وعلى مدى أعوامٍ وأعوام؛ وأنَّ الصليبيّين وأعداءهم كان لهم دوافع دينيّة على السواء؛ وأنَّ الدفاع عن الدينِ الرومانيّ كان يتمثَّلُ بإطعامِ المسيحيّين للأسُود؛ وأنَّ كثيرًا من المحارق أُضرِمَت لأسبابٍ دينيّة؛ وأنَّ الأصوليّين الإسلاميّين الذين هاجموا برجي التجارة متديِّنون للغاية، وأسامة وطالبان الذين دمَّروا تماثيل بوذا كذلك؛ وأنَّ للنزاع المرير بين الهند وباكستان مسوِّغاتٍ دينيّة؛ وفي النهاية أنَّ بوش غزا العراق مناديًا «*God bless America*»، اللهمَّ بارك أمريكا.

لذا تبادَرَ إلى ذهني أنَّ الدين إذا كان أفيون الشعوب أحيانًا، فإنَّه كان كوكايين لها في أغلب الأحيان.

2007

آلهة أمريكا

لطالما كانت إحدى أروع التسالي للزائر الأوروبيّ إلى الولايات المتّحدة هي أن يلتقط موجات القنوات التلفزيونيّة المخصَّصة للبرامج الدينيّة صباح يوم الأحد. مَن لم يشاهد اجتماعات المؤمنين الذين تخطفهم النشوة، والقساوسة الذين يلقون الحرمانات الكنسيّة على الملأ، ومجاميع الإناث

اللواتي يشبهن ووبي غولدبرغ ويرقصن إيقاعيًّا ويصرخن «أوه جيسوس!»، فلا بدَّ أنَّه كوَّنَ فكرةً عن ذلك بمشاهدة فيلم *بورات* مؤخّرًا، لكنَّه ظنَّ أنَّه حيال بدعة ساخرة، كالتي جاء عليها تقديم كازاخستان. كلّا، إنَّ ما قدَّمَه ساتشا بارون كوهين هو مثالٌ عن كاميرا متخفِّية، فلقد صوَّرَ ماذا يقع حوله بالضبط. إذ تُظهِرُ إحدى شعائر الأصوليّين الأمريكيّين طقسَ تسييل دماء القدّيس جينّارو كما لو أنَّه اجتماعٌ لطلبة في عصر التنوير.

في أواخر الستّينات زرتُ جامعة أورال روبرتز في أوكلاهوما (أورال روبرتز كان أحد أولئك الدعاة التلفزيونيّين وذا كاريزما عالية)، حيث هناك برجٌ مزوَّدٌ بمنصَّةٍ دوَّارة يطلُّ على الجامعة. وكان المؤمنون يرسلون التبرُّعات، وبحسب قيمة المبلغ كان البرج يبثُّ أدعيتهم في الأثير. وللتعيُّن أستاذًا في الجامعة كان المرء يجيب على لائحة أسئلة تتضمَّن هذا: «هل تتمتَّع بموهبة اللغات، كالرُّسُل؟»، ويقال إنَّ أحد الأساتذة الشبَّان، وكان في حاجةٍ ماسّة إلى عمل، أجاب: «ليس بعد»، فعُيِّنَ بفترة اختبار.

كانت الكنائس الأصوليّة معادية للنظريّة الداروينيّة، ومعادية للإجهاض، وتؤيّد إدراج الصلاة الإلزاميّة في المدارس، وكانت تعادي الساميّة وفقًا لمقتضيات الضرورة، لكنَّها كانت حتّى عقودٍ قليلة تُمثِّل في الواقع ظاهرةً هامشيّةً فعلًا، ومحصورةً في *الحزام الإنجيليّ*. وكانت الواجهةُ الرسميّةُ للبلاد تتمثَّلُ بحكوماتٍ حريصة على فصل السياسة عن الدين، فضلًا عن جامعات، وفنّانين وكُتّاب، وهوليوود.

في العام 1980 خصَّصَ فوريو كولومبو للحركات الأصوليّة كتابه *إله أمريكا*، لكنَّ الكتاب قُرِئَ من قِبَلِ كثيرين على أنَّه نبوءة تشاؤميّة لا أنَّه تقريرٌ عن واقع مقلق بوتيرةٍ متصاعدة. وقد أعاد كولومبو إصدار الكتاب (بملحق جريدة *أونيتا* منذ بضعة أسابيع) بمقدِّمة جديدة لا تسمح هذه المرَّة لأحدٍ أن يتناوله كنبوءة. فبالنسبة إلى كولومبو اقتحم الدين دائرة السياسة الأمريكيّة في العام 1979 أثناء الحملة التي احتدمت بين كارتر وريغان. كان كارتر ليبراليًّا فاضلًا لكنَّه مسيحيٌّ متحمِّس، ممّن يُلقَّبون بأنَّهم وُلِدوا على الإيمان من جديد. وكان ريغان محافظًا، لكنَّه رجل استعراض سابق، بشوش، دنيويّ، ومتديّنٌ لا لشيء سوى لأنَّه كان يذهب إلى الكنيسة يوم الأحد. ما حدث

أنَّ مجموعة الطوائف الأصوليّة انحازت إلى جانب ريغان، فكافأهم الأخير بالتشديد على مواقفه الدينيّة، وعلى سبيل المثال عيَّنَ في المحكمة العليا قضاةً معارضين للإجهاض.

وبالتوازي أخذ الأصوليّون يؤيّدون كلَّ مواقف اليمين، ودعموا لوبي الأسلحة، وناهضوا نظام الرعاية الطبيّة، ومن خلال دعاتهم الأكثر تطرُّفًا ساندوا سياسة الحرب، حتّى إنَّهم قدَّموا منظورًا لهولوكوستٍ ذرّيّ كضرورةٍ لإلحاق الهزيمة بمملكة الشرّ. واليوم نرى أنَّ قرار ماكين، باختيار امرأة معروفة بنزعاتها العقائديّة لمنصب نائب الرئيس، وأنَّ استبيانات الرأي غلَّبت تأييد قراره هذا في البداية على الأقلّ، ينصبُّ في هذا التوجُّه تمامًا.

لكنَّ كولومبو يجعلنا نلاحظ أنَّه بينما كان الأصوليّون في الماضي يتعارضون مع الكاثوليك، بات الكاثوليك الآن، وليس في أمريكا وحدها، يقتربون أكثر فأكثر من اعتماد مواقف الأصوليّين (انظر على سبيل المثال العودة الغريبة لمعاداة الداروينيّة بعد أن كانت الكنيسة قد وقَّعت إن جاز التعبير على هدنة شاملة مع النظريّات التطوُّريّة). وبالفعل ها هي الكنيسة الإيطاليّة لا تنحاز إلى جانب الكاثوليكيّ المتديّن برودي إنّما إلى جانب علمانيٍّ مُطلَّقٍ وماجن؛ ما يوحي بأنَّه في إيطاليا أيضًا تهيمن النزعة لمنح أصوات المؤمنين للسياسيّين الذين، رغم لامبالاتهم بالقيم الدينيّة، أبدوا استعدادهم التامّ للتنازل لأشدّ المطالب العقائديّة تصلُّبًا للكنيسة التي تؤيّدهم.

تخطرني إحدى خطب القسّ صاحب الكاريزما بات روبرتسون عام 1986: «أريدكم أن تفكّروا بنظامٍ تعليميٍّ تُحظَر فيه الدراسات الإنسانيّة في المدارس كلّيًّا، ومجتمعٍ تسيطر فيه الكنيسة الأصوليّة على السلطات التي تُحدِّد مصير الحياة الاجتماعيّة».

2008

رفات من أجل العام الجديد

في عدد الثالث من يناير الماضي، على صفحات *الكورييري ديلا سيرا*، لم يتناول أرماندو تورنو الرفات المقدَّس فحسب، بل الرفات العلمانيّ

أيضًا، من رأس ديكارت إلى دماغ غوركي. فالاحتفاظ بالرفات ليس وقفًا على المسيحيّين، كما هو شائع، إنّما هو عرفٌ متداول لدى كلّ الأديان والثقافات. يؤثِّر في عادة حفظ الرفات دافعٌ أكاد أصفه بالأسطوريّ-الماديّ، حيث نجد فيها استمدادًا لقوّة أحد العظماء أو القدّيسين بالتمسُّح بأجزاء من جسده، كما نجد فيها ذوقًا عاديًّا يتَّسم به جامع الأنتيكات (فالمهووس بجمع التحف مستعدٌّ لإنفاق رؤوس أموال لمجرَّد الاستحواذ على النسخة الأولى المنشورة من كتابٍ شهير، أو النسخة التي كانت ملكًا لشخصيّةٍ مهمّة). وغالبًا ما يحدث في المزادات الأمريكيّة أن تكون التذكاريّات المطروحة بأسعار باهظة أشياءً مثل القفّازات (الحقيقيّة) لجاكلين كينيدي أو القفّازات (الزائفة) التي ارتدتها ريتا هيوارث في فيلم *جيلدا*. وفي النهاية هناك الحافز الاقتصاديّ: استحواذ رفات شهير في العصور الوسطى كان يُعدُّ موردًا سياحيًّا ثمينًا لأنَّه يجذب سيول الحجّاج، مثلما يحدث اليوم لمرقصٍ في داخل مدينة ريميني يستجذب السائحات الألمانيّات والروسيّات. ومن جهةٍ أخرى رأيتُ عديدًا من السيّاح في ناشفيل، تينسي، آتين للتحلُّق بإعجابٍ حول سيّارة الكاديلاك التي كانت لإلفيس بريسلي. مع أنّها لم تكن الوحيدة، إذ كان بريسلي يُغيِّر سيّارته كلَّ ستّة أشهر.

لعلّي فُتِنتُ بأجواء الميلاد الروحانيّة التي كنتُ أتحدَّث عنها في مغلَّفٍ سابق، فوجدتُني بدلًا من تصفُّح الإنترنت (كالجميع) للتلصُّص على فيديوهات إباحيّة، قرَّرتُ مدفوعًا بنفسيَّتي الفكاهيّة والغريبة الأطوار أن أتصفَّحه بحثًا عن أشهر الرفات.

ومثالٌ على هذا، نعلم اليوم أنَّ رأس يوحنا المعمدان محفوظ في كنيسة سان سلفسترو كابيته في روما، لكنَّ المعارف السابقة كانت تقول إنَّها في كاتدرائيّة أميان. وبكلِّ حال لا بدَّ أنَّ الرأس المحفوظ في روما منقوص من الفكّ السفليّ، المحفوظ بدوره في كاتدرائيّة القدّيس لورنس في فيتيربو. أمّا الطبق الذي احتوى رأس المعمدان فهو في جنوا، في خزينة كاتدرائيّة القدّيس لورنس، بجوار رفات القدّيس، غير أنَّ جزءًا من هذا الرفات محفوظٌ أيضًا في الكنيسة القديمة لدير البندكتيّات في لوانا، بينما من المفترض أنَّ إحدى أصابعه في متحف أوبرا كاتدرائيّة فلورنسا، وإحدى ذراعيه في

كاتدرائيّة سيينا، والفكّ السفليّ في كنيسة القدّيس لورنس في فيتيربو. أمّا الأسنان، فواحدة منها موجودة في كاتدرائيّة راغوزا، وأخرى في مونتزا مع خصلةٍ من شعره. ولا توجد أخبارٌ عن الأسنان الثلاثين الأخرى. هناك أسطورةٌ قديمة تقول إنَّ رأس المعمدان في عامه الثاني عشر محفوظ في إحدى الكاتدرائيّات، ولكن لم أتوصَّل إلى أيِّ وثيقةٍ رسميّة تُثبِت صحّة هذه الشائعة.

عُثِرَ على الصليب الحقيقيّ في القدس، من قِبَلِ القدّيسة هيلانة، والدة قسطنطين. استلبه الفرس في القرن السابع، واستردَّه الإمبراطور البيزنطيّ هرقل، ثمَّ حمله الصليبيّون في ساحة المعركة ضدَّ صلاح الدين. انتصر صلاح الدين لسوء حظّهم، وفُقِدَ كلُّ أثرٍ للصليب إلى الأبد. ورغم هذا استطاع بعضٌ أن يجمع أجزاءً منه. فالمسامير، قد يكون أحدها محفوظًا في كنيسة الصليب المقدَّس في القدس (روما). وتاج الشوك، الذي ظلَّ محفوظًا طويلًا في القسطنطينيّة، قسَّموه بغية التبرُّع بشوكةٍ واحدة على الأقلّ لعدّة كنائس وأحرام. والحربة المقدَّسة، التي غدت مُلكًا لشارلمان وخلفائه، توجد اليوم في فيينا. وكانت قلفة يسوع معروضةً في كالكاتا (فيتيربو) إلى أن أبلغ الكاهن عن سرقتها في العام 1970. لكنَّ كثيرًا من الكنائس صرَّحَت بمُلكيَّتها للقلفة نفسها: روما، سانتياغو دي كامبوستيلا، شارتر، بيزنسون، ميتز، هيلدسهايم، شارو، كونك، لانغر، أنتويرب، فيكان، بوي -أن- فوليه، أوفيرن. والدم المراق من جرح الجنب، الذي جمعه لونجينوس، قد يكون منقولًا إلى مانتوفا، لكنَّ دمًا آخر محفوظٌ في كاتدرائيّة الدم المقدَّس في بْرُوجْ. المهد المقدَّس موجودٌ في كنيسة سانتا ماريّا ماجوري (روما)، بينما -وكما هو معلوم- الكفن المقدَّس في تورينو. قماط يسوع الطفل في آخن. والمنديل الذي استعمله المسيح لغسل أرجل تلاميذه موجودٌ سواء في الكنيسة الرومانيّة سان جوفاني لاتيرانو أو في ألمانيا، في آك، وليس من المستبعد أن يكون يسوع قد استخدم منديلين أو أنَّه غسل الأرجل في مناسبتين. وكثيرٌ من الكنائس تحفظ شعر مريم أو حليبها، وقد يكون خاتم زواجها بيوسف النجَّار في بيروجا، في حين أنَّ خاتم خطوبتها في نوتردام بباريس.

وفي ميلانو كان يُحتَفَظُ بدُثُرِ الملوك المجوس، لكنَّ فريدريش بارباروسا استلبها في القرن الثاني عشر كغنيمة حرب ونقلها إلى كولونيا. وأشير بكلِّ تواضع إلى أنّي رويتُ هذه الحكاية في روايتي *باودولينو*، لكنّي لا أدَّعي هداية مَن لا يؤمن.

2009

الصليب، رمزٌ علمانيٌّ تقريبًا

لا أذكر كيف ومتى، لكنَّ الجدل حول تعليق الصلبان في المدارس ثار منذ قرابة ستّة أعوام. وبعد مضيٍّ وقتٍ طويل، لم تتغيَّر شروط الإشكاليّة كثيرًا، باستثناء المتعلّقات ببروز الخلاف بين الحكومة الإيطاليّة والكنيسة من جهة، والاتّحاد الأوروبيّ من جهةٍ أخرى.

تحظر الجمهوريّة الفرنسيّة إظهار الرموز الدينيّة في مدارس الدولة، لكنَّ بعضًا من أكبر تيَّارات الكاثوليكيّة الحديثة نشأت في فرنسا الجمهوريّة بالضبط، سواء أكانت يمينيّة أم يساريّة، من شارل بيغوي وليون بلوا إلى ماريتين ومونييه، ووصولًا إلى مبادرة القساوسة العمَّال؛ وإن كانت فاطيما في البرتغال، فإنَّ لورد في فرنسا. فمن الواضح إذًا أنَّ إزالة الرموز الدينيّة من المدارس لا تؤثِّر سلبًا في حيويّة المشاعر الدينيّة. في جامعاتنا لا يوجد صلبانٌ في القاعات، في حين أنَّ عددًا كبيرًا من الطلّاب يوالون حركة «المناولة والتحرير» الكاثوليكيّة. وبالمقابل، أمضى جيلان إيطاليّان على الأقلّ طفولتهم في صفوفٍ كان فيها صليبٌ يتوسَّط صورة الملك وصورة الدوتشي؛ فتباينت توجُّهات الثلاثين تلميذًا في كلِّ صفّ: أصبح بعضهم ملحدين، وآخرون مناهضين للفاشيّة، وآخرون -أعتقد أنّهم الأغلبيّة- صوَّتوا من أجل إرساء النظام الجمهوريّ.

ولكن، بينما كان من الخطأ الاكتفاء بذكر التراث المسيحيّ في الدستور الأوروبيّ، لأنَّ أوروبا تأثَّرت أيضًا بالثقافة الوثنيّة الإغريقيّة والتراث اليهوديّ (وإلّا ما الكتاب المقدَّس؟)، فصحيحٌ كذلك أنَّ تاريخ أممها المتعدِّدة متَّسمٌ بمعتقداتٍ ورموزٍ مسيحيّة، بحيث إنَّ الصليب موجودٌ على بيارق كثيرٍ من

المدن الإيطاليّة التي قد يحكم بلديّتها الشيوعيّون لعقود، وعلى شعارات العوائل النبيلة، وعلى العديد من الأعلام الوطنيّة (الإنكليزيّ، السويديّ، النرويجيّ، الدنماركيّ، الأيسلنديّ، المالطي إلخ) ما جعل من الصليب إشارةً مُتفرِّغة من كلّ مضامينها الدينيّة. ليس هذا فحسب، من المفترض أنَّ مسيحيًّا حسَّاسًا يستاء من التزيُّن بصليبٍ ذهبيٍّ على الصدور المشعرة للذكور المتعجرفين من أبناء روما المتخصِّصين بالسائحات الألمانيّات، بقدر ما يستاء من فتحة صدر سيّدات داعرات (نتذكَّر أنَّ الكاردينال لامبرتيني، إذ رأى صليبًا على صدرٍ مزهرٍ لامرأةٍ حسناء، أدلى بملاحظاتٍ شبقة على حلاوة تلك الآلام). وتتزيَّن فتياتٌ بأطواقٍ تتدلَّى منها الصلبان ويتجوَّلن بسرّةٍ مكشوفة وتنوّرة قصيرة بالكاد تغطّي المغبن. لو كنتُ البابا لطالبتُ بأن يختفي من المدارس رمزٌ مهانٌ إلى هذه الدرجة، إجلالًا له بالفعل.

وطالما أنَّ الصليب قد أصبح رمزًا علمانيًّا، فيما عدا ظهوره داخل الكنيسة، أو حياديًّا في كلّ الأحوال، فأيُّ الجانبين أكثر نفاقًا: الكنيسة التي تريد إبقاءه أم الاتّحاد الأوروبيّ الذي يريد إزالته؟

وبالمثل يظهر الهلال الإسلاميّ في أعلام الجزائر، وليبيا، والمالديف، وماليزيا، وموريتانيا، والباكستان، وسنغافورة، وتركيا وتونس، ورغم هذا يُدرَسُ انضمام تركيا إلى الاتِّحاد الأوروبيّ مع أنَّها تضع ذلك الرمز الدينيّ على علمها. وإن دُعِيَ راهبٌ كاثوليكيٌّ إلى إجراء محاضرة في أوساطٍ مسلمة، فإنَّه سيتقبَّلُ الحديث في صالةٍ مزخرفة بآيات القرآن.

ماذا نقول لغير المسيحيّين الذين باتوا يسكنون في أوروبا بشكلٍ مستقرّ؟ أنه يوجد في هذا العالم عادات وتقاليد ينبغي احترامها. وأنّ هذا ما يدفعني لنزع حذائي إذا زرتُ مسجدًا، وإلّا ما ذهبتُ. وأنّ هذا ما يدفع سائحة ملحدة لعدم ارتداء ملابس مثيرة إذا زارت كنيسةً مسيحيّة، وإلّا اقتصرت على زيارة المتاحف. الصليب واقعٌ أنثروبولوجيٌّ ثقافيّ، وظهوره متأصِّلٌ في الوعي المشترك. مَن يهاجر إلى بلادنا عليه أن يتآلف مع مظاهر الوعي المشترك هذه في البلد المضيف. فأنا أعرف أنَّ البلاد المسلمة تمنع استهلاك الكحول (ما عدا في أماكن مخصَّصة كالفنادق للأوروبيّين)، فلا أذهب لاستفزاز السكَّان المحلّيّين مُتجرِّعًا الويسكي أمام باب جامع.

وينبغي للاندماج في أوروبا التي تزداد اكتظاظًا بالمواطنين الأجانب أن يقع على قاعدة تسامحٍ متبادل. أعتقد أنَّه لا يجدر بفتىً مسلمٍ أن ينزعج من وجود صليبٍ في قاعةٍ، طالما أنَّ معتقداته تحظى بالاحترام، ولا سيّما إذا تحوَّلت حصّة الديانة إلى حصّةٍ لتاريخ الأديان تتطرَّق إلى ما يؤمن به ذلك الفتى أيضًا.

وبطبيعة الحال، إن أردنا تجاوز المشكلة حقًّا، فيمكننا وضع صليبٍ قُحٍّ ومجرَّد[1]، مثل الذي نجده عادةً في مكتب رئيس أساقفة، منعًا لإحالةٍ بديهيّة على دينٍ بعينه. لكنّي أراهن أنَّ فكرةً عبقريّةً ومعقولةً كهذه قد تُحسَبُ على أنَّها رضوخ. فلنتابع شجارنا إذًا.

2009

الملوك المجوس، هؤلاء المجهولون

حدث لي عن طريق الصدفة تقريبًا أنّي شهدتُ موقفين في الأيّام الأخيرة: في الأوّل فتاةٌ في الخامسة عشرة تتصفَّح ببالغ الاهتمام كتابًا يحتوي على لوحاتٍ مستنسخة؛ وفي الثاني فتَيان في الخامسة عشرة أيضًا يزوران (بافتتان) متحف اللوفر. وُلِدَ الثلاثة جميعًا ونشأوا ضمن أسرٍ غير مؤمنة، وفي بلادٍ تُطبِّقُ العلمانيّة تطبيقًا صارمًا. الأمر الذي يجعلهم يفهمون أنَّ شخصيّات لوحة *طوّافة الميدوزا* هم بائسون نجوا من الغرق للتوّ، أو أنَّ الشخصيّتين في لوحة القبلة الشهيرة لهايز، في معرض بريرا، هما عاشقان؛ لكنَّهم لا يستطيعون أن يدركوا لماذا قدَّمَ الملائكيُّ فتاةً لمقابلة مخنَّثٍ مجنَّح، أو لماذا يهبط رجلٌ مهملُ الهيئة من جبلٍ وهو يتدحرج حاملًا على كتفيه لوحًا صخريًّا ثقيلًا للغاية، وقرناه تبعثان أشعّةً مضيئة.

يتعرَّف الفتية بالطبع على عملٍ فنّيٍّ يُجسِّد ميلاد المسيح أو صلبه، لأنَّهم رأوا شيئًا مشابهًا من قبل؛ لكنَّهم إذا شاهدوا ثلاثة سادة بدُثُرٍ طويلة وتيجان في مجسَّم مغارة الميلاد، فما عرفوا مَن هؤلاء ولا مِن أين جاؤوا.

1- المقصود هو تعليق صليب خشبيّ لا يضمُّ جسد المسيح، وبالتالي لا يُصوِّر مشهد الصلبوت الخاصّ بالدين المسيحيّ بطبيعة الحال. (المترجم).

ومن المستحيل أن نفهم ثلاثة أرباع الفنّ الغربيّ، على أقلّ تقدير، ما لم نعرف وقائع العهد القديم والعهد الجديد وقصص القدِّيسين. فمَن هي الفتاة التي تُرسَمُ عيناها على الأطباق الصغيرة، وتظهر في فيلم *ليلة الموتى الأحياء*؟ ومَن هو الفارس الذي يشطر قطعة لباس نصفين فيُستَخدم دعايةً مضادَّة لأزياء أرماني؟

يحدث إذًا في كثيرٍ من المواقف الثقافيّة أن يتعلَّم الفتية والفتيات كلَّ شيء عن موت هكتور ولكن لا شيء عن موت القدّيس سيباستيان، وكلَّ شيء عن عرس قدموس وهارمونيا ولكن لا شيء عن عرس قانا. وفي بعض البلاد تقاليد راسخة عن قراءة الكتاب المقدَّس، ويعرف الأطفال كلَّ شيء عن عجل الذهب، ولكن لا شيء عن ذئب القدّيس فرنسيس. وفي مواقع أخرى حُشِيَ الأولاد بدروب الصليب لكنَّهم مُجهَّلون بما يخصُّ *المرأة المتسربلة بالشمس* التي تظهر في رؤيا يوحنا.

لكنَّ الأسوأ يقع طبعًا عندما يتعامل مواطنٌ غربيّ (ليس المراهقون فحسب) مع تجسيداتٍ لثقافاتٍ أخرى – صارت أكثر حضورًا اليوم حيث أصبح الناس يسافرون إلى بلدانٍ بعيدة فيما يأتي سكَّان بلادٍ أخرى للإقامة عندنا. لا أتحدَّث عن ردود الفعل المرتبكة التي يبديها الغربيّون إزاء قناعٍ إفريقيّ، أو الضحك على تماثيل بوذا التي تغزوها التجاعيد (فهؤلاء إن سئلوا لأجابوا أنَّ بوذا هو إله الشرقيّين مثلما أنَّ محمَّدًا إله المسلمين)؛ إنّما هنالك كثيرٌ من جيراننا قد يُصدِّقون بسهولة أنَّ واجهة معبدٍ هنديٍّ صمَّمها الشيوعيّون لتمثيل ما يحدث في قصر شيرتوزا[1]، ويهزُّون رؤوسهم أسفًا إذا رأوا الهنودَ أنفسهم يأخذون مأخذ الجدّ سيّدًا متربِّعًا وله رأس فيل، دون أن ينتبهوا أنَّهم لا يجدون ما يردُّون به حيال شخصٍ إلهيٍّ مُتمثِّلٍ بيمامة.

لذا، وبغضِّ النظر عن أيّ اعتبارٍ دينيّ، وحتّى من أقصى وجهات النظر علمانيّةً في العالم، يجدر بالفتية أن يحصلوا في المدرسة على معلوماتٍ أساسيّةٍ عن فكر الديانات المتعدِّدة وتقاليدها. فاعتبار ذلك أمرٌ غير ضروريّ يشبه أن نقول بعدم وجوب تدريسهم عن جوبيتر ومينيرفا لأنّهما كانا مجرَّد خرافاتٍ تتسلّى بها عجائز مرفأ بيرايوس.

1- أحد ممتلكات برلسكوني حيث كان يقيم الحفلات الماجنة والخليعة. (المترجم).

فالمسعى لإجراء التربية الدينيّة باعتماد دينٍ واحد (الكاثوليكيّة في إيطاليا، على سبيل المثال) هو أمرٌ خطير من الناحية الثقافية، ذلك أنّه من جهةٍ لا يمكن منع التلاميذ غير المؤمنين أو أبناء غير المؤمنين من عدم حضور تلك الحصَّة، فيخسرون الإلمام حتّى بأدنى العناصر الثقافيّة الجوهريّة؛ ومن الجهة الأخرى تُحظَر الإشارة في التربية المدرسيّة إلى أيٍّ من التقاليد الدينيّة الأخرى. ليس هذا فقط، بل إنَّ حصَّة الديانة الكاثوليكيّة قد تُجرى في فضاء من النقاش الأخلاقيّ، الجدير بأسمى الاحترام، حول واجباتنا نحو أمثالنا أو حول ماهيّة الإيمان، متجاهلين تلك المعلومات التي تساعدنا على التمييز بين الفورناريّة والمجدليّة التائبة[1].

صحيحٌ أيضًا أنَّ أبناء جيلي درسوا كلَّ شيء عن هوميروس ولا شيء عن الأسفار الخمسة [التوراة]، وقد تلقَّينا دروسًا رديئة عن تاريخ الفنّ في المدرسة الثانويّة، بقدر ما كانوا يُعلِّموننا كلَّ شيء عن الشاعر بوركييلّو ولا شيء عن شكسبير – وعلى الرغم من هذا تدبَّرنا أنفسنا، لأنَّ الوسط كان ممتلئًا بما يجعلنا نستمدُّ المحفِّزات والمعلومات. لكنَّ أولئك الفتية ذوي الخمسة عشر عامًا الذين ذكرتُهم، الذين لا يستطيعون التعرُّف على الملوك المجوس، يوحون إليَّ بتناقص المعلومات المفيدة، وتزايد غير المفيدة، التي تنتشر في الوسط.

فليضع الملوك المجوس أيديهم المقدَّسة الستَّ على رؤوسهم!

2009

هيباستيريا!

من الصعب ألّا يسمع المرء باسم هيباثيا، في غمرة الحملة الترويجيّة لفيلم *أغورا* –للمخرج أليخاندرو أمينافار– وسلسلة الجدالات التي أثارها. بأيّ حال، لأولئك الذين لم يطَّلعوا على الأحداث بعد، أقول إنَّ هيباثيا عاشت وعلَّمت في فجر القرن الخامس بعد الميلاد، في إمبراطوريّةٍ بات

1- «الفورناريّة» أو ابنة الفرّان، لوحة لرافايلّو. «المجدليّة التائبة» لوحة لكارافاجّو. (المترجم).

فيها الجميع مسيحيّين بمن فيهم الإمبراطور، في مدينة الإسكندريّة حيث تتنازع الأرستقراطيّةُ الوثنيّةُ المتداعيةُ والسلطةُ الدينيّةُ الجديدةُ الممثَّلةُ بالأسقف كيرليس ومجتمعٌ يهوديٌّ غفير؛ هيباثيا الفيلسوفة ذات التوجُّه الأفلاطونيّ الجديد، عالمة الرياضيّات والفلك، البديعة الجمال (حسبما قيل) ومعبودة تلاميذها. وإذا بعصابةٍ من أخويّة البارابالاني، الأشبه بحركة طالبان مسيحيّة في ذلك العصر، ميليشيا خاصَّة بالأسقف كيرليس، تنقضُّ على هيباثيا وتُمزِّقها إلى أشلاء حرفيًّا.

لا يبقى أثرٌ لأعمال هيباثيا (لعلَّ كيرليس أوعز بإتلافها)، وليس هنالك من شهود إلّا قلّةٌ قليلة، من مسيحيّين ووثنيّين على السواء. كلُّ الشهود تقريبًا يقرُّون بأنَّ كيرليس يتحمَّل المسؤوليّة بشكلٍ أو بآخر. تسقط هيباثيا في طيّ النسيان طويلًا، إلى أن يعاد تقييمها في القرن السابع عشر فصاعدًا، ولا سيّما من قِبَلِ التنويريّين، باعتبارها شهيدة الفكر الحرّ، ويشيد بها كلٌّ من جيبون، فولتير، ديدرو، نيرفال، ليوباردي، وحتّى بروست ولوتزي، إلى أن تصبح أيقونة النسويّة.

لا يحابي الفيلمُ المسيحيّين وكيرليس بالتأكيد (كما لا يتستَّر على انتهاكات الوثنيّين واليهود)، وسرعان ما سرت شائعةٌ تفيد بأنَّ قوى الظلام الرجعيّة المتربِّصة تعمل لحظره في إيطاليا، وهكذا انطلقت حملةٌ لجمع آلاف التواقيع. ما فهمتُه هو أنَّ فرع التوزيع الإيطاليّ كان متردِّدًا حيال نشر فيلم قد يثير استنكارات واسعة من جانب الكاثوليك تُعيق انتشاره، لكنَّ حملة التواقيع تلك دفعته لتجريب المغامرة. عمومًا، ليس الفيلم ما أودُّ الحديث عنه (فيلم متقن سينمائيًّا، رغم بعض المغالطات التاريخيّة الفاضحة)، إنّما عن متلازمة المؤامرة التي فجَّرَها.

بتصفُّح الإنترنت وجدتُ هجومًا كاثوليكيًّا، مفاده الاحتجاج على مَن أراد تسليط الضوء كلّه على الوجه العنيف للأديان (لكنَّ المخرج يُردِّد أنّ غايته النقديّة هي الأصوليّة بكلّ أنواعها)، ولم يحاول أحدٌ أن ينفي أنَّ كيرليس، الذي لم يكن رجل كنيسة فقط بل شخصيّة سياسيّة كذلك، كان قاسيًا، بحقّ اليهود كما بحقّ الوثنيّين. وليس من قبيل الصدفة أن يُسمَّى قدّيسًا ومِلْفانًا بعد حوالي ألفٍ وخمسمئة سنة، من قِبَلِ ليون الثالث عشر،

البابا المتوجِّس من الوثنيّة المحدثة الممثَّلة بالماسونيّة واللبراليّين المعادين الشرسين للإكليروس الذين كانوا يهيمنون على روما في زمانه. ومن المحيِّر الاحتفاء بكيرليس من جانب البابا راتزينغر، في 3 أكتوبر 2007، الذي يثني على «الطاقة العظيمة» لحكمه دون أن ينفق سطرين لانتشاله من تلك العتمة التي أثقل بها التاريخ عليه.

كيرليس يزعج الجميع: وجدتُ في الإنترنت رينو كاميلّيري (المدافع عن كتاب *الفهرس الجامع لأخطاء عصرنا الأساسيّة* للبابا بيوس التاسع). فلكي يضمن كاميلّيري براءة كيرليس، يستشهد بالأسقف يوسابيوس القيصريّ. شاهدٌ ممتاز، سوى أنَّ يوسابيوس كان قد توفّي قبل خمسة وسبعين عامًا من مأساة هيباثيا، لذا لم يتمكَّن من الشهادة على شيء. أقول، إن كنتم تريدون إشعال حربٍ دينيّة، فيرجى أن تراجعوا ويكيبيديا على الأقلّ.

ولكن فلنعد إلى المؤامرة: تنتشر في الإنترنت أنباءٌ مختلفة عن الرقابة المفعَّلة (ممّن؟) للتكتُّم على فضيحة مقتل هيباثيا. فمثلًا هناك مَن يدَّعي أنَّ المجلَّد الثامن من *تاريخ الفلسفة الإغريقيّة والرومانيّة* لجوفانّي رياله (إصدار بومبياني، 2004)، المخصَّص للأفلاطونيّة المُحدَثَة، والمحتوي معلوماتٍ عن هيباثيا، قد اختفى من المكتبات بشكلٍ غامض. اتَّصلتُ بدار النشر بومبياني التي صارحتني بصحَّة نفاد المجلَّدين السابع والثامن من بين مجلَّدات السلسلة العشرة (لذا ستعاد طباعتهما)، وذلك لأنَّهما يتطرَّقان إلى مواضيع مثل *المتون الهرمسيّة* وبعض مظاهر الأفلاطونيّة المُحدَثَة التي لا تهمُّ مَن يُعنى بالفلسفة فحسب، إنّما تثير هوس كلِّ الحمقى الذين ينكبُّون على العلوم الغيبيّة المسندة والباطلة على السواء. لكنّي ذهبتُ لاحقًا إلى رفوف مكتبتي لتصفُّح هذا المجلَّد الثامن السيّئ الصيت ورأيتُ أنَّ رياله -وهو مؤرِّخٌ للفلسفة ولا يتناول إلَّا النصوص الصالحة للمراجعة، في حين أنَّ هيباثيا لم تترك أثرًا- يُكرِّس لهذه الفيلسوفة سبعة أسطر (سبعة بالعدد) حيث يكتفي بقول القليل الذي عُرِفَ عنها جدّيًا. فعلى أيّ أساسٍ يُحظَرُ الكتاب إذًا؟

إلّا أنَّ نظريّة المؤامرة تذهب بعيدًا، ويشاع في الإنترنت دومًا عن اختفاء جميع الكتب المعنيّة بالأفلاطونيّة المُحدَثَة، وهذه حمرنةٌ قد

تُغشي من الضحك أيَّ طالب في سنة أولى فلسفة. باختصار، إن أردتم معرفة شيءٍ مّا عن هيباثيا جدّيًا، فتصفَّحوا موقع موسوعة النساء (www.enciclopediadelledonne.it)، حيث تُقدِّم سيلفي كويو معلومات مهمّة في هذا الموضوع. ولمزيدٍ من التثقُّف، اسألوا غوغل: «Sylvia Ronchey Ipazia» وستجدون خبزًا (غير محظور) لأسنانكم.

2010

هالوين والنسبويّة والسلتيّون

بمناسبة عيد جميع القدّيسين ارتفعت أصواتٌ كاثوليكيّة كثيرة مندِّدة بعيد الهالوين، الذي تضاء فيه حبّات القرع من الداخل ويجوب الأطفالُ البيوتَ متنكِّرين بزيّ الساحرات ومصّاصي الدماء ويطلبون الحلويات من الكبار. وبما أنَّ في هذا العيد مسعىً لطرد فكرة الموت الشرّيرة، يُقدَّمُ على أنّه بديلٌ للاحتفاء بالقدّيسين والموتى؛ واتُّهِمَ هذا الطقس بأنّه تقليدٌ أعمى لعادةٍ أمريكيّةٍ بالية، كما دُمِغَ بأنَّه أحد أشكال «النسبويّة».

لا أعلم جيّدًا كيف للهالوين أن يُوصَمَ بالنسبويّة، لكنَّ ما يحدث للنسبويّة اليوم مماثلٌ لما حدث للنعت المهين «فاشيّة» في العام 1968، حيث كان فاشيًّا كلُّ مَن لا يرى الأمور كما تراها أنت. وأنوِّهُ أنّني لا أُكِنُّ ولعًا مُتأجِّجًا بالهالوين (إلّا لأنَّ شارلي براون كان يحبُّه)، وأعرف حقَّ المعرفة أنَّ هذا الحفل في الولايات المتَّحدة يقيمه عبدة شيطان ومُتحرِّشون بالغلمان للاعتداء على الأولاد الذين يتركهم آباؤهم السُّذَّج خارج البيت في المساء. سوى أنّي أعترض على فكرة وصفه بالعيد البالي والمستورد من أمريكا. أو بالأحرى هو كذلك، لكنَّه عائدٌ لا مستورد، لأنَّ الهالوين نشأ كاحتفالٍ وثنيٍّ في أوروبا السلتيّة وفي بعض بلدان شمال أوروبا حيث خضع للتنصير بطريقةٍ أو بأخرى.

ما حدث للهالوين والحال هذه مشابهٌ لما حدث لسانتا كلوز، الذي كان في الأصل سان نيكولا من باري، المنحدر من تركيا أساسًا. ويبدو أنَّ تسمية سانتا كلوز جاءت تمامًا من العيد الهولنديّ «*Sinterklaas*» (عيد ميلاد

القدّيس). ثمَّ اندمج بابا نويل بأودين، كبير الآلهة في الميثولوجيا الجرمانيّة الذي كان يحمل الهدايا للأطفال، وهذا هو إذًا أصل القرابة الوطيدة بين طقسٍ وثنيّ وعيدٍ مسيحيّ.

شخصيًّا، لديَّ اعتراضٌ حتّى على بابا نويل، لأنَّني كنتُ أتلقّى الهدايا من يسوع الطفل والملوك المجوس –وهذا ما دفعني مؤخَّرًا للتحقُّق ممّا إذا كانت دُثُرُ الملوك الثلاثة ما تزال في كاتدرائيّة كولونيا، بعد أن سرقها فريدريش بارباروسا ورينالد دي ديسيل من كنيسة سان يوستورجو في ميلانو. لكنَّني كنتُ أغضب في صغري من بعض الأولاد، الذين بدلًا من الملوك المجوس يتطلَّعون إلى البيفانا– وهي بالمناسبة ذات أصول وثنيّة كذلك، وقريبة جدًّا من ساحرات هالوين، وإذا كانت هيئات الإكليروس لم تمتعض منها فهذا لأنَّها نُصِّرَتْ بشكلٍ أو بآخر لأنَّ اسمها صوتيًّا يقارب الإيبيفانيا[1]. لذا قوبلت البيفانا الفاشيّة بالترحاب، بعد إبرام الصلح بين الدولة والكنيسة.

أمّا في الجدل المثار حول الهالوين فقد صدح صوتٌ خارج السرب وهو رأي روبرتو بيريتا (في صحيفة *آفّينيره* 23 أكتوبر) إذ دعا لضبط النفس والتروّي قبل إطلاق الحرمانات الكنسيّة وإعلان حملات كهنوتيّة شعواء، لأنَّ الهالوين ما هو إلّا «ارتداد السوء على الكنيسة نفسها. حقًّا. فقد كانت حكمة الآباء المؤسِّسين من القرن الرابع على الأقلّ... تُفضِّل الوسطيّة عوضًا عن الإلغائيّة، والتعاقب والتحوُّل عوضًا عن الإزالة، والتفتيت، والدفن، والحظر. بمعنى أنَّ أجدادنا استطاعوا «تنصير» الأعياد الوثنيّة».

ويكفي التذكير بأنَّ ميلاد المسيح نفسه ثُبِّتَ في الخامس والعشرين من ديسمبر (تاريخٌ لا يستند إليه أيٌّ من الأناجيل للإشارة إلى ولادة يسوع، لا بل وفقًا لحساباتٍ فلكيّة فمن المفترض أن تكون النجمة قد ظهرت في

1- «La Befana» أسطورة شعبيّة عن الساحرة بيفانا العجوز التي تمتطي مكنستها وتُحلِّق ليلًا في السماء وتهبط من مداخن البيوت لتترك الهدايا للأطفال. وكان هذا الاحتفال يقام في 6 يناير، مطلع السنة، فترمز العجوز إلى السنة المتهالكة المنقضية. أمّا «L'Epifania» فهي كلمة من أصل إغريقيّ وتعني التجلّي الإلهيّ، للدلالة على عيد الغطاس ومعموديّة يسوع بنهر الأردن. واعتمدته الكنيسة في يوم 6 يناير. (المترجم).

الخريف) بغية التوافق مع العادات الوثنيّة والتقاليد الجرمانيّة والسلتيّة التي كانت تحتفل بعيد اليول، أي عيد الانقلاب الشتويّ، ومن هنا أيضًا تأتي شجرة الميلاد (لكنّي من أولئك الذين يُفضِّلون مغارة الميلاد الفرنسيسكانيّة، لأنّها تتطلَّب مُخيِّلةً أخصب، بينما يتمكَّن حتّى القرد المتدرِّب من نصب شجرة الميلاد).

إذًا، وبدلًا من شقشقة الثياب، قد يكفي تنصير الهالوين أيضًا، كما يقترح بيريتا نفسه: «إذا كان على الهالوين (جديرٌ بالتذكير أنَّ الكلمة تعني حرفيًّا «عشيّة جميع القدّيسين») أن يستعيد طابعه السلتيّ -سواء أكان حقيقيًّا أم باطلًا- على أن يتطبَّعَ بثقافة الاستهلاك أو أن يتوارى خلف طقوس «شيطانيّة» أو تكاد، فما عليه سوى العودة إلى موطنه الأصليّ. ويتبقّى أمامنا أن نفكِّر بكيف ولماذا لم تتسنَّ لنا القوّة الثقافيّة (وربّما الروحيّة أيضًا) لتكرار ما نفَّذه أسلافنا».

2011

الفلسفة الملعونة

نشرت صحيفة *لا ريبوبليكا*، في عدد 6 أبريل الماضي، مقطعًا من كتاب ستيفن هوكينغ وليونارد ملودينوف *التصميم العظيم* (موندادوري، 2010)، مسبوقًا بعنوانٍ فرعيٍّ مقتَبسٍ من النصّ نفسه: «الفلسفة ماتت، الفيزيائيّون وحدَهم يشرحون الكون». وكان موت الفلسفة قد أُعلِنَ في السابق مرارًا، لذا لم أجد ما يثير الدهشة، سوى ما بدا لي أنَّ عبقريًّا بحجم هوكينغ يتفوَّه بكلامٍ هراء. وللتأكُّد من أنَّ *لا ريبوبليكا* لم تُلخِّص الفكرة بأسلوبٍ رديء ذهبتُ بنفسي واشتريتُ الكتاب، فأكَّدت لي قراءتُهُ شكوكي.

يبدو أنَّ الكتاب مكتوبٌ بيدين اثنتين لا أربع، مع أنَّ هذا التعبير في حالة هوكينغ مجازيٌّ بشكلٍ مؤلم لأنَّنا نعلم أنَّ أطرافه لا تستجيب لأوامر دماغه الاستثنائيّ. لذا فإنَّ الكتاب جوهريًّا هو من صنيعة المؤلِّف الثاني، الذي تعدُّهُ ثنيّة الغلاف الداخليّة مُعمِّمًا شعبيًّا للعلوم من طرازٍ رفيع وكاتبًا لسيناريوهات بعض حلقات *ستار تْريك* (وهذا ما تُبيِّنُه الصور الإيضاحيّة البديعة التي تبدو

أنّها مصمَّمة لموسوعة للصغار من زمانٍ فائت، لأنّها ملوَّنة وجاذبة، لكنَّها لا تشرح أيَّ شيء البتّة عمّا يجدر بها أن تُوضّحه من مبرهَناتٍ معقّدة ذات تركيبٍ فيزيائيّ -رياضيّ- كونيّ). ربّما لم يكن من الصائب أن يُوكَلَ مصير الفلسفة إلى شخصيّاتٍ لها آذان أرنب.

يُستَهلُّ العملُ بإثباتٍ قاطعٍ تمامًا على أنَّ الفلسفة لم يعد لديها ما تقوله وأنَّ الفيزياء وحدها القادرة على أن تُفسِّر لنا: 1 كيف نستطيع استيعاب العالم الذي نحن فيه؛ 2 ما طبيعة الواقع؛ 3 ما إذا كان الكون في حاجةٍ إلى خالق؛ 4 لماذا هنالك شيءٌ مّا بدلًا من العدم؛ 5 لماذا نحن موجودون؛ 6 لماذا توجد هذه المجموعة الفريدة من القوانين وليس شيئًا آخر. أسئلةٌ فلسفيّةٌ تقليديّة كما هو واضح، ولكن عليَّ أن أقول إنَّ الكتاب يكشف أنَّ الفيزياء قادرةٌ بشكلٍ أو بآخر على الإجابة على الأسئلة الأربعة الأخيرة بالضبط، والتي تبدو أنّها الأكثر فلسفيّةً بين الجميع.

سوى أنّه لمحاولة الإجابة على الأسئلة الأربعة الأخيرة ينبغي الإجابة على السؤالين الأوّلين، أي، بعبارةٍ أخرى: ما الذي يعنيه أن يكون شيءٌ مّا واقعًا، وهل نحن نعرف العالم مثلما هو عليه حقًّا. لا بدَّ أنّكم تذكرون ذلك من الفلسفة التي تعلّمتموها في المدراس: هل نحن نعرف العالم عن طريق توافق العقل مع الشيء؟ هل ثمّة شيءٌ مّا خارجنا (يضيف وودي آلن: «وإذا كانت الإجابة نعم، فلماذا يُحدِثون كلَّ هذه الضجّة؟») أم إنّنا كائناتٌ بركليّة[1]، أو أدمغةٌ في حوض، على حدّ تعبير هيلاري بوتنام؟

حسنًا، إنَّ الإجابات الأساسيّة التي يطرحها هذا الكتاب إنّما هي فلسفيّةٌ بشكلٍ مُميَّز، ولولا هذه الإجابات الفلسفيّة ما كان بمقدور أحدٍ، بمن فيهم الفيزيائيُّ، أن يقول لماذا يعرف وما الذي يعرفه. وبالفعل يتحدَّث الكاتبان عن «واقعيّة مقترنة بالنماذج»، أو يعتبران بالأحرى أنّه «لا وجود لأيٍّ من مفاهيم الواقع مستقلَّة عن التوصيفات والنظريّات». لذا «يمكن للنظريات المتباينة أن تُوصِّف الظاهرة نفسها بطريقةٍ مُرضِية بوساطة البنى المفاهيميّة

1- نسبةً إلى الفيلسوف جورج بركلي، مطوِّر نظريّة اللامادّيّة في فلسفة الفيزياء. (المترجم).

المتغايرة» وكلُّ ما يمكننا إدراكه عن الواقع ومعرفته وقوله مُتعلِّقٌ بالتفاعل بين نماذجنا وذلك الشيء الموجود خارجنا لكنَّنا لا نعرفه إلّا بفضل شكل أعضائنا الحسّيّة ودماغنا.

لا بدَّ لأكثر القرّاء تشكُّكًا أن يكون قد لمح في الأمر شبحًا كانطيًّا، لكنَّ الكاتبين ببساطة يطرحان ما يُسمَّى في الفلسفة *نظريّة الكُلّانيّة*، ويُسمِّيها بعضهم *الواقعيّة الداخليّة*، وآخرون *الحركة التشييديّة*.

من الواضح أنَّنا لسنا بصدد اكتشافات فيزيائيّة إنّما توظيفات فلسفيّة، من شأنها إسناد وشرعنة بحوث الفيزيائيّ - الذي، إن كان فيزيائيًّا بارعًا، لا يسعه إلّا أن يطرح إشكاليّات الأسس الفلسفيّة لمناهجه. الأمر الذي كنّا نعرفه سلفًا، مثلما كنّا نعرف شيئًا يسيرًا عن الاكتشافات الخارقة (الراجعة بطبيعة الحال إلى ملودينوف وطاقم السفينة الفضائيّة *ستار تريك*) التي تفيد بأنَّ «الإنسان في الأزمنة الغابرة كان بفطرته يعزو أفعال الطبيعة العنيفة إلى مجمع آلهة ناقمة أو عدائيّة». يا ساتر ثمَّ يا لطيف!

2011

التهرُّب الضريبيّ والاسترداد بالخفاء

يوجد مُتهرِّبون من الضرائب في كلّ البلدان لأنَّ الأسف الناجم عن دفع الضرائب شعورٌ إنسانيٌّ عميق. ولكن يقال إنَّ الإيطاليّين هم الأكثر ميولًا إلى هذه الآفة من شعوبٍ أخرى. لماذا؟

لا بدَّ لي أن أعود إلى ذكرياتٍ قديمة، وأن أستحضر صورة أبٍ كبوشيّ فرنسيسكانيٍّ عجوز يتمتَّع بحسٍّ إنسانيٍّ عظيم، وصاحب علم وأصالة، كنتُ أودُّه كثيرًا. إذًا، كان هذا الراهب الجليل والمحبوب يُحدِّثنا أنا وفتية آخرين عن مبادئ الأخلاق، وقد فسَّرَ لنا أنَّ التهريب والتهرُّب الضريبيّ، إن صحَّ اعتبارهما من بين الخطايا، فهما من الخطايا المغفورة لأنّهما لا ينتهكان الشرائع الإلهيّة، إنّما قوانين الدولة ليس إلّا.

كان حريًّا به أن يذكر توصية المسيح بإعطاء ما لقيصر لقيصر، وتوصية بولس الرسول لأهل رومية («أعطوا الجميع حقوقهم: الجزية لمن له الجزية،

الجباية لمن له الجباية»). لكنَّه ربّما كان يعلم أنَّ بعض علماء اللاهوت، في العصور الماضية، قد أيّدوا فكرة أنَّ القوانين الضريبيّة ليست مُلزِمةً بالضمير، إنّما بقوّة القصاص حصرًا. ولكنَّ لويجي لورينتزيتي، مدير مجلّة *علم اللاهوت الأخلاقيّ*، يُعلّق حيال استعادة هذا الرأي اليوم قائلًا: «إنَّنا نظلم أولئك العلماء إن تجاهلنا السياق الاجتماعيّ والاقتصاديّ الذي دفعهم لابتداع تلك النظريّة. لم يكن تنظيم المجتمع ديمقراطيًّا على الإطلاق؛ في حين كان النظام الضريبيّ مجحفًا، والضرائب الجائرة تقهر الفقراء».

وبالفعل كان الراهب الطيّب يذكر حالةً أخرى، وهي الاسترداد بالخفاء. سأشرحها بقولٍ مُبسَّط: إذا ادَّعى عاملٌ بأنَّه مظلومٌ لما يتقاضاه من أجرٍ زهيد، فلا يرتكب خطيئةً إن اختلس تلك الزيادة التي يُفترَض أنَّه يستحقُّها. أي حصرًا إذا كان من الواضح أنَّ أجره غير عادل، وإذا حُرِمَ من إمكانيّة مناشدة القوانين النقابيّة. ولكنَّ توما الإكوينيّ نفسه كان له شكوكه في موضوعٍ من هذا النوع. فمن جهة «عندما يقع شخصٌ في هذا المأزق... فقد يُشبع حاجته بالعبث، الصريح أو الخفيّ على السواء، بممتلكات الآخرين. وهذا الفعل ليس له طبيعة الاختلاس أو السرقة». (*الخلاصة اللاهوتيّة* II–II, 66, 7). ومن جهة أخرى «مَن يأخذ ممتلكه ممّن يحوزه بغير حقّ، فإنَّه يخطئ لا لكونه يضرُّ به... إنّما يخطئ في حقّ العدالة الشرعيّة، لأنَّه يتطاول على الحكم على ممتلكاته متجاوزًا قواعد القانون» (*الخلاصة اللاهوتيّة* II–II, 66, 5). وبما يتعلَّق بقواعد القانون، كان لتوما الإكوينيّ أفكارٌ واضحة وحازمة، وما كان ليوافق برلسكوني عندما قال إنَّه يجب تفهُّمُ المواطنين الذين يتهرَّبون من ضريبةٍ جائرة جدًّا. حتّى توما الإكوينيّ كان يرى أنَّ القانون هو القانون.

ومع هذا كان تصوُّر القدّيس توما لحقوق المُلكيّة يقترب أكثر من فكرة «العدالة الاجتماعيّة» بحسب المنظور الكاثوليكيّ، على أساس أنَّ المُلكيّة كانت تُعتَبر مشروعة «من حيث امتلاكها» وليس «من حيث استعمالها»: إذا كان لديَّ كيلو خبز حصلتُ عليه بنزاهة فلي الحقُّ في أن يُعترَفَ بمُلكيَّتي له، ولكن إن كان بجواري مُعدَمٌ يتضوَّر جوعًا فواجبي أن أتقاسم معه الخبز مناصفةً. فإلى أيّ مدى يمكن للتهرُّب أن يكون استردادًا بالخفاء؟

في *رسالة اللاهوت الأخلاقيّ*، المتوافرة على الإنترنت، التي توصي

بالتقيُّد بالقوانين السارية وتشير إلى أنَّ «الجزء الأسلم من الشعب» هو الذي يدفع الضرائب ولا يمارس التهريب؛ تقرُّ بالمقابل بأنَّ «التهرُّب عمومًا لا يُرى على أنَّه فعلٌ مضرٌّ بالسمعة (القانون نفسه يعتبره مخالفة إداريّة لا جناية)، على الرغم من أنَّه يُولِّد إحساسًا بحرجٍ أخلاقيّ». لذا ما كان مونتي محقًّا حينما قال إنَّ المتهرِّبين لصوص: هم ليسوا إلّا أناساً اضطرّوا إلى الإحساس بحرجٍ أخلاقيّ.

لكنَّ الكاهن الذي تحدَّثتُ عنه في البداية كان يترفَّع عن الخوض في تفاصيل هذه الاحتيالات الشرعيّة، بل كان يقتصر على القول إنَّ التهرُّب والتهريب ليسا بالخطيئتين المميتتين لأنَّهما يُرتكَبان «حصرًا» ضدَّ قوانين الدولة. ويبدو لي أنَّه في موقفه هذا يعكس تربيةً تلقَّاها في صباه، قبل معاهدة الصلح بين الدولة والكنيسة، إذ كانت الدولة بحسب تلك التربية شرًّا لا تجوز موالاته. ومن الواضح أنَّ جزءًا من هذه الأفكار القديمة ترسَّخت في الحمض النوويّ لشعبنا.

2012

التجربة المقدَّسة

يتَّخذ البابا فرانسيس اسمًا فرانسيسكانيًّا (مع أنَّه يسوعيّ)، وينزل في فندق -لا ينقصه سوى انتعال صندل وارتداء قلنسوة الرهبان- ويطرد كرادلة المرسيدس من الهيكل، وأخيرًا يذهب بمفرده إلى لامبيدوزا للتضامن مع منبوذي البحر المتوسِّط كما لو أنَّ قانون بوسّي-فيني[1] ليس من تشريعات الدولة الإيطاليّة. هل من المعقول أنَّه الوحيد الذي ما زال يقول ويفعل «أشياء يساريّة»؟ ولكن في البداية سرت أقاويل تتحدَّث عن تعقُّله المفرط تجاه جنرالات الأرجنتين، وتُذكِّر بمعارضته للاهوتيّين المناصرين للتحرير، وتُشدِّد على صمته المستمرّ إزاء الإجهاض، والخلايا الجذعيّة الجينيّة، والمثليّين جنسيًّا، كما لو أنَّ لزامًا على البابا أن يجوب الطرقات لإهداء واقياتٍ ذكريّة للفقراء. فمَن هو البابا برغوليو؟

1- قانون يقيِّد الهجرة إلى إيطاليا، من إعداد زعيمي قوى اليمين جانفرانكو فيني وأمبرتو بوسّي في حكومة برلسكوني الثانية. (المترجم).

أعتقد من الخاطئ اعتباره يسوعيًّا أرجنتينيًّا: هو يسوعيٌّ باراغوانيّ. ومن المستحيل ألّا يكون تأهيله متأثّرًا بـ «التجربة المقدَّسة» التي أقامها اليسوعيّون في الباراغواي. وإنَّ النزر اليسير الذي يعرفه الناس عنهم راجعٌ إلى فيلم *Mission*، لكنَّ الفيلم يُكثِّفُ مئةً وخمسين عامًا من التاريخ بساعتين من العرض، وبتصرُّفٍ مفتوح.

سنُلخِّص. كان الغزاة الإسبان قد ارتكبوا مذابح، يعجز اللسان عن وصفها، ما بين المكسيك والبيرو، مستندين إلى لاهوتيّين يؤيِّدون الطبيعة الحيوانيّة للهنود الحمر (كلُّهم قردة)، ولم يتكرَّم إلّا دومينيكانيٌّ شجاع مثل بارتولومي دي لاس كاساس، لتحدّي فظاعة الكورتيس والبيثارو، مُقدِّمًا السكَّان الأصليّين من منظورٍ مختلف كلّيًّا. وفي مطلع القرن السابع عشر يعترف المبشِّرون اليسوعيّون بحقوق الهنود الحمر (شعب الغواراني بشكلٍ خاصّ، إذ كان يعيش أوضاعًا ما قبل تاريخيّة)، ويُنظِّمونهم داخل «مستوطنات»، أو بالأحرى مجتمعات مكتفية ذاتيًّا وذاتيّة الدعم: لا يُجمِّعونهم لإجبارهم على العمل من أجل المستعمرين، بل يُعلِّمونهم كيف يديرون شؤونهم بأنفسهم، أحرارًا من كلِّ أشكال السخرة، بمشاركةٍ شاملة للخيرات التي ينتجونها. تُذكِّر بنية تلك القرى وتلك الأنظمة الشبيهة بـ «الشيوعيّة»، برواية *يوتوبيا* لتوماس مور، أو *مدينة الشمس* لتومّازو كامبانيلا، وسيصفها كروتشه بـ «شيوعيّة كامبانيليّة مفترضة»؛ لكنَّ اليسوعيّين كانوا يستلهمون تجربتهم بالأحرى من المجتمعات المسيحيّة البدائيّة. وبينما كانوا يؤسِّسون مجالس انتخابيّة مكوَّنة من السكَّان الأصليّين حصرًا (لكنَّ إدارة العدل كانت وقفًا على الآباء)، كانوا يُعلِّمون هؤلاء الخاضعين لهم العمارة، والزراعة والرعي، والموسيقى والفنون، والأبجديّة (صحيحٌ أنَّ التعليم لم يشملهم جميعًا، لكنَّه ساعد في تنشئة فنَّانين وكُتَّابٍ موهوبين أحيانًا). أشاد اليسوعيّون بالتأكيد نظامًا أبويًّا صارمًا، ذلك أنَّ العمل على تحضُّر الغواراني كان يعني تخليصهم من الاختلاطيّة الجنسيّة، والتكاسل المزمن، والثمالة الطقوسيّة وأحيانًا من أكل لحوم البشر. إذًا مثلها مثل أيِّ مدينةٍ فاضلة: كلُّنا مستعدُّون للافتتان بكمالها التنظيميّ، لكنَّنا لا نودُّ الإقامة فيها بالتأكيد.

بيد أنَّ رفض العبوديّة، وهجمات عصابات الباندیرانتس، صيَّادي العبيد،

أدّى إلى تأسيس ميليشيا شعبيّة، قاتلت النخّاسين والمستعمرين ببسالة. إلى أن اعتُبِروا مُحرِّضين وأعداء خطيرين للدولة تدريجيًّا، فحُظِرَت الرهبنة اليسوعيّة في القرن الثامن عشر في إسبانيا والبرتغال أوّلًا، ثمَّ قُمِعَت، وانتهت معهم «التجربة المقدَّسة».

انبرى كثيرٌ من التنويريّن ضدَّ هذه الحكومة الثيوقراطيّة، ووصفوها بأشدّ الأنظمة وحشيّةً وطغيانًا في العالم على الإطلاق؛ لكنَّ آخرين تحدَّثوا عن «شيوعيّة طوعيّة بوحيٍ دينيٍّ رفيع» (أنطونيو موراتوري)، وقالوا إنَّ الرهبنة بدأت بمعافاة جراحِ العبوديّة (مونتسكيو)، وشبَّهَ غابرييل دو مابلي المستوطنات اليسوعيّة بحكومة ليكرجوس أسبارطة، ولاحقًا تحدَّثَ بول لافارغ عن «أوّل دولة اشتراكيّة في التاريخ».

والآن، عندما يُنصَحُ بقراءة صنائع البابا برغوليو وفقًا لهذا المنظور ينبغي الأخذ بالحسبان أنَّ أربعة قرون قد مرَّت منذ ذلك الحين، وأنَّ تصوُّر الحرّيّة الديمقراطيّة بات مألوفًا حتّى لدى المتعصِّبين الكاثوليك، وأنَّ برغوليو حتمًا لا يفكّر في الذهاب إلى لامبيدوزا لإجراء تجارب مقدَّسة ولا علمانيّة، وطوبى له إن استطاع تصفية «مؤسّسة الأعمال الدينيّة». ولكن لا بأس من حينٍ لآخر، وفي ظلِّ ما يحدث اليوم، أن ننظر إلى قبس التاريخ.

2013

أديانٌ توحيديّة وديانات شركيّة

تهبُّ رياح الحرب، ولسنا بصدد حربٍ صغيرة ومحدودة النطاق إنّما بصدد صراعٍ قد تتورَّط فيه عدَّة قارّات. يأتي التهديد حاليًّا من مشروعٍ أصوليٍّ يطرح أسلمة كلِّ العالم المعروف، وصولًا حتّى إلى روما (قيل ذلك) مع أنَّ لا أحد قد هدَّدَ بإرواء الإبل من أحواض الماء المقدَّسة في كنيسة القدّيس بطرس.

كلُّ هذا يفضي بالتفكير إلى أنَّ التهديدات الكبرى العابرة للقارَّات تأتي دومًا من أديانٍ توحيديّة. لم يشأ الإغريق والرومان الاستيلاء على فارس أو قرطاج لفرض آلهتهم. كانت لديهم مخاوف إقليميّة واقتصاديّة، لكنَّهم من

وجهة النظر الدينيّة ما إن يلتقوا بآلهةٍ جديدة لشعوبٍ بعيدة حتّى يُرحّبوا بها في مجامع آلهتهم. أنت هرمس؟ جيّد، سأُسمّيك ميركوريوس وستصبح واحدًا من آلهتنا. هل كان الفينيقيّون يُقدّسون عشتروت؟ جيِّد، ترجمها المصريّون القدماء إلى إست، وصارت عند الإغريق أفروديت أو فينوس. لم يغزُ أحدٌ أرضًا لاجتثاث عبادة عشتروت.

ولم يستشهد المسيحيّون الأوائل لأنَّهم كانوا يعترفون بإله إسرائيل (هذا شأنهم)، بل لأنَّهم كانوا ينكرون شرعيّة الآلهة الأخرى.

لا توجد ديانةٌ شركيّة شنَّت حربًا ذات أبعاد كبيرة لفرض آلهتها. هذا لا يعني أنَّ الشعوب المعتنقة دياناتٍ شركيّة لم تدخل حربًا، إلّا أنَّها كانت حروبًا قبليّة لا شأن للديانة بها. لقد غزا برابرةُ الشمالِ أوروبا، والمغولُ بلادَ المسلمين، ولكن ليس ليفرضوا آلهتهم، بل حتّى إنَّهم سرعان ما اعتنقوا الأديان المحلّيّة. سوى أنَّه من المستغرب أنَّ برابرة الشمال، بعد أن أصبحوا مسيحيّين وأسَّسوا امبراطوريّةً مسيحيّة، عملوا جاهدين خلال الحروب الصليبيّة على تغليب إلههم على إله المسلمين، حتّى لو كنّا في نهاية المطاف بصدد الإله نفسه، توحيدٌ يقاتل توحيدًا.

إنَّ المسيحيّة والإسلام هما الدينان التوحيديّان اللذان شنّا غزواتٍ في سبيل فرض إلهٍ واحد (لعلّي أضيف الاستعمار إلى حروب الاستيلاء أيضًا، فالاستعمار بغضِّ النظر عن مطامعه الاقتصاديّة لطالما سوَّغَ احتلالاته بمشروعٍ تبشيريٍّ سامٍ يهدف إلى تنصير الشعوب الخاضعة، بدءًا بالأزتك والإنكا، وحتّى مشروع «الحضارة» الإيطاليّ في إثيوبيا، متناسين أنَّهم كانوا مسيحيّين مثلنا).

الحالة الفريدة هي التوحيد اليهوديّ، الذي بطبيعته لم يُطبِّق التبشير إطلاقًا، وكانت الغاية من الحروب المذكورة في الكتاب المقدَّس هي تأمين أرضٍ للشعب المختار، لا لدعوة الشعوب لاعتناق اليهوديّة. لكنَّ الشعب اليهوديّ أيضًا لم يسعَ إلى إدماج معتقداتٍ ودياناتٍ أخرى فيه.

لا أقصد بكلِّ هذا أن أقول إنَّ الإيمان بالطاقة الروحيّة للمراعي أو بآلهة اليوروبا حضاريٌّ أكثر من الإيمان بالثالوث الأقدس أو الله الأحد الذي بعث

محمَّدًا له رسولًا. ما أودُّ قوله هو أنّه لا أحد حاول السيطرة على العالم باسم الطاقة الروحيّة أو أحد الآلهة الذي انتقل إلى ديانة الكاندومبليه البرازيليّة – ولم يحاول البارون سامدي من مذهب الفودو أن يدفع المؤمنين به إلى ما وراء حدود الكاريبي الضيِّقة.

يمكن أن نقول إنَّ المعتقدات التوحيديّة حصرًا هي التي تسمح بتكوين كيانات إقليميّة تسعى لاحقًا للتوسُّع. لكنَّ شبه القارّة الهنديّة لم تحاول قط تصدير آلهتها، وكانت الإمبراطوريّة الصينيّة كيانًا إقليميًّا مترامي الأطراف، من دون الإيمان بإلهٍ واحدٍ خالقٍ للعالم، و(حتّى يومنا هذا) لم تحاول أن تتمدَّد في أوروبا وأمريكا. لعلَّ الصين تفعلها الآن، ولكن بسبلٍ اقتصاديّة ومن دون التزاماتٍ دينيّة، مستعدّة لشراء مصانع وأسهم في الغرب، لكن لا يهمُّها البتّة إن ظلَّ الناس يعبدون يسوع، أو الله، أو يهوه.

ربّما يتمثَّل المعادل للأديان التوحيديّة التقليديّة، بالأيديولوجيّات العلمانيّة الكبرى: كالنازيّة مثلًا (لكنَّها نابعة من إلهامٍ وثنيّ) والماركسيّة السوفييتيّة الملحدة. ولكنَّ حروب الاستيلاء التي خاضتها هذه الأيديولوجيّات قد توقَّفت، وذلك لخلوِّها من إله الجيوش المتأهِّب لاستلاب عقول أتباعه.

2014

التربية الحسنة

مَن هو الأكثر ذِكْرًا؟

في خضمّ النقاشات المختلفة حول مراقبة الجودة في الجامعات الإيطاليّة، غالبًا ما يُحال على معايير مطبَّقة في بلدانٍ أخرى. ويكمن أحد هذه المعايير في التحقُّق من عدد الاقتباسات والإشارات التي حصلت عليها في النشر المتخصِّص أعمالُ بروفسور أو مُمتحَنٍ لمسابقة. وهنالك مؤسَّساتٌ تؤمِّنُ إحصائيّاتٍ في منتهى الدقّة لهذا الشأن، وقد يبدو هذا النوع من التحقُّق ناجعًا للوهلة الأولى. لكنَّه مثل كلّ التحقيقات الكمّيّة، له حدوده. فهو يشبه المعيار الذي اقترحناه وطبَّقناه أحيانًا، للتحقُّق من فاعليّة جامعةٍ معيَّنة بناءً على عدد المتخرِّجين منها. لا شكَّ أنَّ جامعةً تُخرِجُ من فرنها كثيرًا من المُجازين تُولِّد انطباعًا بأنَّها جامعةٌ ناجحة، ولكن من السهل تشخيص حدود هذه الإحصائيّات. فهناك جامعةٌ سيّئة، تبتغي الحصول على أكبر عدد من الطلبة، فتتبرَّع بالعلامات يميناً وشِمالًا ولا تبدي أيَّ حزمٍ بما يخصُّ جودة رسائل التخرُّج، ما يؤدّي إلى وصم هذا المعيار بقيمةٍ سلبيّة. فماذا عسى أن نقول عن جامعةٍ صارمةٍ وحازمة تُفضِّلُ تخريج عددٍ قليل لكنَّه نوعيٌّ وعالي الجودة؟ قد يكون أكثرُ المعايير مصداقيّةً (لكنَّه لا يخلو من بعض الانتقادات) هو الذي يُقيِّمُ عدد المتخرِّجين قياسًا بعدد المسجَّلين. فالجامعة التي لا تضمُّ سوى مئة مسجَّل لكنَّها توصل إلى التخرُّج خمسين طالبًا، تعطي انطباعًا بأنَّها أكثر فاعليّةً وصرامة من جامعةٍ أخرى تضمُّ عشرة آلاف مسجَّل وتُخرِّجُ منهم ألفين.

باختصار، المعايير المحصورة بالكمّيّة هي ما هي. نعود الآن إلى التحقُّق من عدد الاقتباسات والإشارات. وأوضِّحُ على الفور أنَّ المعيار قد يجدي في المنشورات العلميّة «الصلبة» (رياضيّات، فيزياء، مجالات طبّيّة إلخ)، لكنَّ جدواه أقلُّ بكثير في العلوم «الهشّة» المعروفة باسم العلوم الإنسانيّة. فلنضرب مثالًا: أفترض أنّي نشرتُ كتابًا أبيِّنُ فيه أنَّ يسوع كان المؤسِّس الحقيقيّ للماسونيّة (لاحِظوا أنَّني لقاءَ مبلغٍ طائل، كالذي يُصرَف على الأعمال الخيريّة، سأتمكَّن من تدبير ببليوغرافيا موجودة تتناول هذا الشأن؛ سوى أنَّها أعمالٌ لم تُحمَلْ على محمل الجدّ كثيرًا). فإن استطعتُ تدبير مسندٍ لنظريّتي يوحي بأنَّه متينٌ للغاية، أحدث جلبةً كبيرة في مجال الدراسات التاريخيّة والدينيّة، وستظهر مئات الأطروحات التي ستذكر عملي. فلنُسلِّم جدلًا أنَّ جزءًا عظيمًا من هذه الأطروحات تذكر نظريّتي لتنقضها: فهل يوجد تحقيقٌ كمّيٌّ يُميِّز ما بين الاقتباسات الإيجابيّة والاقتباسات السلبيّة؟

فماذا عسى أن نقول إذًا عن كتابٍ متينٍ ومُبرهَنٍ لكنَّه أثار سجالاتٍ وتنديدات، ككتاب المؤرِّخ هوبزباوم عن القرن العشرين الوجيز؛ وما المعايير التي سنطبِّقها لإزالة كلّ اقتباسات الذين تناولوه انتقاديًّا؟ ثمَّ هل سنمنع عن داروين كرسيَّ الأستاذيّة لمجرَّد أنَّ ما يفوق الخمسين بالمئة من الذين ذكروه، وما زالوا يذكرونه، ما فعلوها ويفعلونها إلّا ليقولوا إنَّه كان على باطل؟

فإذا بقي المعيار كمّيًّا حصرًا، توجَّبَ علينا الاعتراف بأنَّ من بين أكثر الكُتّاب ذِكْرًا في العقود الأخيرة هما مايكل بيجانت وهنري لنكولن اللذان ألَّفا كتابًا عن الكأس المقدَّسة، وأصبح الكتاب بيست سيلر. الكتاب يحتوي على ترّهات، لكنَّه كان وسيبقى من أكثر الكتب ذِكْرًا. إذا كان المعيار كمّيًّا فقط، فلا بدَّ لجامعةٍ تمنحهما كرسيَّ الأستاذيّة بقسم تاريخ الأديان، أن تتصدَّر تصنيف الجامعات.

وإنَّ كلَّ هذه الشكوك المتعلِّقة بالعلوم الهشَّة، يجب أن تكون مُحرِّضةً أكثرَ للعلوم الصلبة أيضًا. فلقد صدم ستانلي بونس وزملاؤه الأوساطَ العلميّةَ بنظريّةٍ (قوبلت باستنكارٍ واسع ومن الوارد أنَّها خاطئة) عن الاندماج النوويّ البارد. وقد ذُكِرَا بعددٍ لا يُحصى من المرّات، من باب

تفنيد أفكارهما دائمًا على الأرجح. فإن كان المعيار كمّيًّا فحسب، توجَّبَ علينا أخذهما بعين الاعتبار الجادّ. قد يعترض بعضٌ بأنَّ المعيار الكمّيّ في هذه الحالات لا يُطبَّقُ إلّا على مجلّاتٍ أثبتت جدّيّتها في التناول العلميّ، ولكن -دع عنك أنَّ المعيار تحوَّلَ في هذه الحالة إلى معيارٍ نوعيّ- ماذا عسى أن نفعل لو أنَّ هذين الباحثين لم يلقيا إلّا التفنيد في هذه المجلّات؟ سيكون لزامًا علينا أن نُدرِج معاييرَ نوعيّة من جديد. ولكن سيسرُّني أن أرى كم من التفنيدات تلقَّى أينشتاين عندما أفصح عن النسبيّة العامّة. فلنأخذ من جهةٍ أخرى موضوعةً من بين الأكثر جدلًا، ونرى إن كانت تلك الظاهرة المسمّاة بالانفجار العظيم قد خضعت للتحقُّق. نعلم أنَّ علماء مرموقين لهم آراءٌ متناقضة. فماذا لو ظهرت نظريّةٌ جديدة تنكر الانفجار العظيم، هل علينا أن نمحو كلَّ الإشارات السلبيّة من جانب الذين ما زالوا يؤيّدون هذه الفرضيّة؟

لا أقول هذه الأشياء لأنَّ في جعبتي حلًّا معقولًا، إنّما للتذكير بصعوبة إرساء معايير ممتازة على أسسٍ كمّيّة، وخطورة إدراج العوامل النوعيّة (ففي المحصِّلة كان هذا ما اعتمدته الثقافة الرسميّة الستالينيّة لتطرد من المجمع العلميّ كلَّ الذين لا يتقيَّدون بمبادئ الجدليّة المادّيّة أو لا يولون اعتبارًا لنظريّات ليسينكو). لا أريد بهذا أن أؤكِّد على عدم وجود معايير. إنّما أشير إلى مدى صعوبة إعدادها، ومدى حساسيّة هذه المادّة.

2003

اللاصوابيّة الإيطاليّة

تُعدُّ الـ*politically correct* «*الصوابيّةُ السياسيّةُ*» حركةً حقيقيّةً وتامّةً مبنيّةً على أفكار، وقد نشأت في الجامعات الأمريكيّة، بإلهامٍ ليبراليٍّ وراديكاليّ، أي يساريّ، غايتها الاعتراف بالتعدُّديّة الثقافيّة، بغية التخلُّص من بعض الآفات اللغويّة التي كانت تؤسِّس لمسارات التمييز بحقّ الأقلّيّات أيًّا كانت. وعليه، بدأوا يقولون *blacks* ومن ثَمَّ *Afro-Americans* عوضًا عن «زنوج»، *gay* عوضًا عن مئات الألقاب المهينة والمخصَّصة للمثليّين

جنسيًّا والتي يعرفها الجميع. وبطبيعة الحال أفرزت حملة التطهير اللسانيّ هذه أصوليّتَها الخاصّة بها، حتّى وصل الأمر إلى حالاتٍ فاضحةٍ عند بعض النسويّات اللواتي اقترحن الكفَّ عن قول كلمة *history* (وذلك بسبب الضمير *his* الذي يوحي بأنَّ التاريخَ قصَّتُه «هو»، لذا يجب أن نقول *herstory*، أي قصَّتُها «هي»، ما ينمُّ بالطبع عن جهلٍ صارخٍ بالجذر اللاتينيّ-الإغريقيّ الذي اشتُقَّت منه الكلمة، والذي لا يتضمَّن أيَّ إحالةٍ على الجنس).

بيد أنَّ هذه الميول اتَّخذت مظاهر المحافظين الجدد أو الرجعيّين بكلِّ صراحة. فإذا قرَّرتَ أن تتوقَّف عن تسمية الأشخاص الذين يستعملون الكرسيّ المتحرِّك بالمعاقين أو المُقعَدين، وأردتَ تسميتهم «ذوي احتياجات خاصّة»، دون أن تبني لهم سلالم مُخصَّصة تُسهِّل دخولهم إلى المرافق العامّة، فأنت منافقٌ بالتأكيد، لأنّك ألغيتَ الكلمة، ولم تضع حدًّا للإشكاليّة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى استبدال تعبير العاطلين عن العمل بـ«المتوقِّفين عن العمل إلى أجلٍ غير مسمًّى»، أو التسريح من العمل بـ«الفترة الانتقاليّة المبرمجة بين تغيُّرات الوظيفة». ومَن يدري لماذا لا يخجل المصرفيُّ من اسم مهنته ولا يلحُّ على مناداته بـ«العامل في مجال التوفير». إن غيَّروا اسمك فهذا لكي تنسى أنَّ هنالك شيئًا يتَّصف بالخلل في المهنة نفسها.

يتطرَّق إدواردو كريزافولّي إلى هذه الإشكاليّة وغيرها الكثير في كتابه *الصوابيّة السياسيّة والحرّيّة اللغويّة* (إصدار فاليكّي، 2004)، حيث يربط بين كلِّ التناقضات، المناصرين لهذه النزعة والمعارضين لها - فضلًا عن أنَّه كتابٌ ممتعٌ حقًّا. لكنّي أثناء قراءته خطر في بالي أن أتأمَّلَ في الحالة العجيبة التي تمرُّ بها بلادنا. ففي الحين الذي تفجَّرَ فيه مصطلح الصوابيّة السياسيّة وانتشر، تطوَّرَت لدينا بازديادٍ حالةٌ من «اللاصوابيّة السياسيّة». فإذا كان رجال السياسة في الماضي يقرأون من ورقةٍ صغيرة، ويقولون: «يتبيَّنُ أنَّه في سياسة التقاطعات، على الرغم من أنَّها متوازية، ثمّة إجماعٌ على تغليب خيارٍ تقاربيٍّ من شأنه أن يمحو أيضًا كلَّ نقاط التلاقي»؛ فإنَّهم اليوم يُفضِّلون أن يقولوا: «الحوار؟ فليُحشَرْ في مؤخّرات أولئك الأوغاد أبناء العاهرة!». صحيحٌ أنَّ الشيوعيّين الأقدمين كانوا في منتدياتهم، في

زمنٍ ولّى، يدأبون على وصم خصومهم بـ «الذباب الحوذيّ»[1]؛ وأنَّ النوّاب تحت قبّة البرلمان، أثناء الشجارات، كانوا يلجؤون إلى خياراتٍ معجميّةٍ فاجرة تفوق ألفاظ الحمَّالين في المرفأ؛ لكنَّها كانت نطاقات محصورة إن صحَّ التعبير، حيث تحصل العادات على القبول – مثلما كان يحدث في المواخير ذات الذاكرة العطرة، حيث لم يكن كلامِ السيّدات مراقَبًا أكثر من كلام البرلمانيّين. أمّا اليوم فإنَّ تقنيّات الشتيمة تُبثُّ على التلفاز، دليلٌ على إيمانٍ راسخٍ بقيم الديمقراطيّة لا يتزعزع.

بدأت الظاهرة في أغلب الظنّ مع الزعيم اليمينيّ المتطرِّف أمبرتو بوسّي، الذي أطلق شعار «عصبة الشمال تنتصب»[2] للكناية على «رخاوة» خصومه بطبيعة الحال؛ وكان اللقب الذي أطلقه على برلسكوني، «برلسكاتس»[3]، لا لبس فيه، لكنَّ الظاهرة اتَّسعت كثيرًا. يذكر ستيفانو بارتيتزاغي، في زاويته في *لا ريبوبليكا*، عددًا من شتائم متداولة في الوقت الراهن، لكنَّه يفعلها بحسن نيّة في العموم. لذا، وللإسهام من جانبي في تلطيف اللاصوابيّة السياسيّة الإيطاليّة، وبعد أن رجعتُ إلى مجموعة قواميس، من بينها قواميس لهجات، يطيب لي أن أقترح بعض التعابير الدمثة واللطيفة لشتم الخصم، ومنها التالي على سبيل المثال: رعراع، بُجاجة، عَبَاقِية، شأف، نغل، حرفوش، كتيت، عُفاشة، تلقامة، ألْكَع، ثأداء، شَكْس، وخم، أفْهَر، سفيح، بُحتر، جُحدر، بقَّاق، هِجرَع، عفنقس، فَدْم، الرويبضة، زهرمان البخاري، تحوت، مبطان، نقيط، مسطيجة، أنْوَك، سهوق، لَعُوس، عَضَنَّك، إجفيل، فسفوس، عوايني، أمْرَغ، طشمة، كحتوت، وكواك، مبلع، نفَّاج، شطَّاح، شطَّاط، شخَّاخ، أهتر، قشمر، مُطي، عجي، طيلسان، ممسوخ، زامل، هامل، يَهْفُوف، هُجعة،

1- «الذباب الحوذيّ»: تعبيرٌ يُطلَق على الشخص الذي يدَّعي أحقّيّته بقيادة الآخرين دون أن يكون لديه أيُّ مؤهّلات من أجل ذلك. والتعبير راجعٌ لإحدى حكايات لافونتين، حيث الذبابة تدَّعي أنَّها قادت الخيول التي تجرُّ العربة على المنحدر الوعر. (المترجم).

2- تورية بين الانتصاب الذكريّ والوثبة السياسيّة لهذا الحزب الشعبويّ، ولا بدَّ أنَّ الرابط يكمن تمامًا بادّعاء الفحولة على المستويين. (المترجم).

3- تركيب بين كلمتين: الأولى صيغة تصغير لاسم برلسكوني «*Berlusca*»، والثانية «*cazzo*» والتي تعني قضيب ذكريّ. وفي هذه الحالة تحقير لبرلسكوني. (المترجم).

شاضومة، زَغَبة، مُطاخ، السَّعدان، خرَّاص، خبَّاص، فنَّاص، تطياح، جعار، غطريس، عضروط، ابن إستها[1].

2004

عندما يكون القول هو الفعل

في العدد الأخير من مجلّة *إسبريسّو*، اختتم إيوجينيو سكالفاري عموده كاتبًا: «ممنوعٌ عليك الحديث عن مقاومةٍ عراقيّة، وإلّا اتُّهِمتَ بالحماقة والتحيُّز». يقول قائل: ها هو يبالغ كعادته. كلّا، ففي اليوم نفسه، يكتب أنجلو بانيبيانكو على صفحات *الكورييري ديلّا سيرا*: «...«المقاومون»، كما يصفهم بعض الغربيّين المسترخين...». ولو كان هنالك مراقبٌ فضائيٌّ لقال: بينما تتقطَّع الرؤوس هنا وهناك وتتطاير الأشلاء في القطارات والفنادق، لا شغل يشغل بال الإيطاليّين إلّا ألعاب الكلمات.

سيقول المراقب الفضائيّ إنَّ الكلمات قليلة الأهميّة، ما دام قرأ لشكسبير قولَهُ إنَّ الوردة تبقى وردة وإن تغيَّرَ اسمُها. وبخلاف ذلك، يحدث غالبًا أن تصبح الكلمة عظيمة الأهميّة إذا ما استُخدِمَت في محلّ كلمةٍ أخرى. فمن الواضح أنَّ بعض الذين يتحدَّثون عن مقاومةٍ عراقيّة يقصدون تأييد ما يعتبرونها حربًا شعبيّة؛ فيما يلمح الآخرون، من الجانب المقابل، إلى أنَّ إضفاء لقب المقاومين على سيَّافين يقطعون الرقاب، إنّما يعني تدنيس «مقاومتنا». والغريب أنَّ جزءًا كبيرًا من الذين يعتبرون استخدام مصطلح «المقاومة» في هذه الحالة استخدامًا معيبًا، هم أنفسهم الذين يحاولون منذ مدّة نزع الشرعيّة عن مقاومتنا، إذ شبَّهوا المناضلين بأنَّهم عصابة من قطَّاعي الرؤوس. صبرًا! لكنَّ المشكلة هي أنَّنا ننسى أنَّ «مقاومة» هي مصطلحٌ تقنيّ ولا يتضمَّن أيّ حكمٍ أخلاقيّ.

أوَّلًا هنالك الحرب الأهليّة، التي تندلع عندما يطلق مواطنون يتحدَّثون

1- ارتأينا أن نُعرِّب هذه الفقرة، لأنَّ نقلها حرفيًّا يؤدّي إلى خسارة الرنين اللفظيّ. كان إيكو قد لجأ إلى كلمات لم تعد متداولة، وبعضها آتٍ من اللهجات الإيطاليّة، لذا رأينا أنّه من الأفضل السير على غراره بما يخصُّ اللغة العربيّة. (المترجم).

اللغة نفسها النارَ بعضهم على بعض. حرب فونديه كانت حربًا أهليّة، والحرب الإسبانيّة كذلك، وكذلك كانت مقاومتنا للنازيفاشيّة، إذ كان هناك إيطاليّون في الخندقين كليهما. سوى أنَّ حربنا كانت حركة مقاومة أيضًا، طالما أنَّ هذا المصطلح يشير إلى نهوض جزءٍ من مواطني بلدٍ معيَّن ضدَّ قوّة احتلال. ولو صَدَفَ بعد رسوِّ الحلفاء في صقليّة أو أنسيو، أن تشكَّلت جماعاتٌ من الإيطاليّين لمهاجمة الأمريكيّين والبريطانيّين، لتحدَّثَ الجميع عندئذٍ عن مقاومة، بمن فيهم أولئك الذين يعتبرون الحلفاء هم «الأخيار». بل إنَّ عصابات الجنوب في القرن التاسع عشر أيضًا، كانت تُمثِّل أحد أشكال المقاومة ضدَّ المناصرين للبوربون الإسبان، سوى أنَّ الشماليّين («الأخيار») الذين جاءوا لتوحيد الجنوب بالشمال، قضوا على كلِّ «الأشرار»، الذين بتنا نذكرهم على أنَّهم رجال عصابات. ومن جهةٍ أخرى كان الألمان يسمُّون المناضلين «متمرِّدين».

نادرًا ما أخذت الحربُ الأهليّةُ أبعادًا ميدانيّة (لكنَّها حصلت في إسبانيا)، فنصفها بالعادة أنَّها حرب عصابات. وحرب العصابات أيضًا هي حركة مقاومة، مكوَّنة من ضرباتٍ فجائيّة على مبدأ الكرّ والفرّ. وأحيانًا يدخل «أمراء الحرب» في حرب العصابات، ولدى هؤلاء عصاباتٌ خاصّة، وتدخل عصاباتٌ بلا أيديولوجيا أيضًا، تستغلُّ الفوضى. أمّا الحرب في العراق، فيبدو أنَّ لها مظاهر حربٍ أهليّة (عراقيّون يقتلون عراقيّين آخرين)، ومظاهر حركة مقاومة، تضاف إليها عصابات من كلّ نوع. تقاتل هذه العصابات قوىً أجنبيّة، ولا يهمُّ إن بدا لنا هؤلاء الأجانب على حقٍّ أم على باطل، ولا إن كانوا مدعوّين ومُرَحَّبًا بهم من جانب جزءٍ من المواطنين. إن كان أهل المكان يقاتلون جيوشًا أجنبيّةً محتلّة، فهذه مقاومة، وبذا تسقط الحُجَّة عمَّن يرى عكس ذلك.

وأخيرًا هناك الإرهاب، وله طبيعةٌ أخرى وغاياتٌ أخرى واستراتيجيّةٌ أخرى. كان في إيطاليا إرهاب، وما يزال جزئيًّا، دون أن يكون هنالك مقاومة أو حربٌ أهليّة؛ وكذلك في العراق إرهاب، يمرُّ عَرْضيًّا بين عصابات المقاومين وتجمُّعات الحرب الأهليّة. وفي الحروب الأهليّة، وحركات المقاومة، لا شكَّ أنَّ العدوَّ معروفٌ مَن هو وأين يكون (تقريبًا)، أمّا في

الإرهاب فلا، قد يكون الإرهابيُّ هو الرجل الذي يجلس بجوارنا في القطار. ما يؤدّي إلى أنَّ الحروب الأهليّة والمقاوَمات تُخاض بالاشتباكات المباشرة أو عمليّات التمشيط، بينما يُكافَحُ الإرهاب بوساطة أجهزة الاستخبارات. الحروب الأهليّة والمقاوَمات تُخاض في عين المكان، أمّا الإرهاب فينبغي مكافحته في مكانٍ آخر، حيث معاقل الإرهابيّين وملاذاتهم.

مأساة العراق أنَّ فيه من كلِّ شيء، وقد يحدث أن تستخدم جماعةٌ مقاوِمةٌ تكتيكاتٍ إرهابيّة - أو أن يلجأ الإرهابيّون، الذين لا يكتفون بطرد المحتلّ طبعًا، إلى تقديم أنفسهم على أنّهم مقاوِمون. وهذا يُعقِّد الأمور، لكنَّ رفض استخدام المصطلحات التقنيّة يُعقِّدها أكثر. فلنفترض أنّنا اعتبرنا فيلم *The Killing* فيلمًا رائعًا، حيث يظهر الأشرار لطفاء أيضًا، وأنَّ أحدًا مّا يرفض تسمية السطو المسلَّح على المصرف هكذا، ويُفضِّل تسميته «السرقة ببراعة». لكنَّ السرقة ببراعة قد يتصدَّى لها رجل أمن يحرس المحطّات والأماكن السياحيّة، وعادةً ما يعرف المحترفين المحلّيّين الصغار سلفًا؛ بينما تستوجب حماية المصارف من السطو أجهزةً إلكترونيّة مكلفة وقوى للتدخُّل السريع، لتخوض اشتباكًا مع أعداء لا يزالون مجهولي الهويّة. وعليه فإنَّ اختيار التسمية الخاطئة ربّما يبدو باعثًا على الاطمئنان، لكنَّه يفضي إلى اختيار سبل العلاج الخاطئة. فقتال عدوٍّ إرهابيٍّ بعمليّات التمشيط التي عادةً ما تُستَخدم لمقاتلة حركات المقاومة، مجرَّد وهم؛ كما أنَّ قتالَ مَن يكرُّ ويفرُّ بالوسائل التي ينبغي استخدامها مع الإرهابيّين، خاطئٌ بالقدر نفسه. لذا يجدر بنا استخدام المصطلحات التقنيّة الملائمة للظرف، من دون الرضوخ للأهواء والابتزازات.

2004

«دكاترة» المرحلة الجامعيّة الأولى

تزداد المقالات السوداويّة بصورةٍ دائمةٍ حول خراب الجامعات الإيطاليّة. وبالتأكيد لن تنعمَ الجامعاتُ بصحَّةٍ جيّدة في بلدٍ يُخصِّص إنفاقًا ضحلًا على البحوث، حيث يخضع الحضور الإلزاميّ لمشيئة الصُّدف

(نحن من بين بلادٍ قليلةٍ تسمح للطالب بالتقدُّم إلى امتحان نهاية السنة من دون أن يكون قد رأى أستاذه يومًا -لا لأنَّ الأخير لم يثبت وجوده قطّ، بل لأنَّ الطالب لم يكن يحضر الدروس). وصحيحٌ أنَّ مصداقيّة بعض تلك المقالات ضئيلة لأنَّها كُتِبَت من قِبَلِ مثقَّفين رفيعي المستوى لا يزاولون مهنة التدريس القذرة، لذا تراهم يتحدَّثون عن عالَمٍ غير معروفٍ بالنسبة إليهم- ولكن حتّى المقال الفارغ مدفوعُ الأجر. وفي النهاية تهتمُّ معظم الإدانات بالشهادة المختصرة.

تتعرَّض الشهادة المختصرة للانتقادات لأنَّها تتَّبع جملةً ممّا يسمَّى بالنماذج التعليميّة المختصرة جدًّا، وتُقيِّمُ هذه النماذج بتشدُّدٍ استنادًا إلى نظام «النقاط»، الذي لا يستوجب عددًا كبيرًا من الصفحات لكلّ مادّة (الأمر الذي أرغم الناشرين على التفكير بإصدار كتبٍ تدريسيّة بأحجامٍ تناسب الأمّيّين) بحيث تتضاءل الشهادة المختصرة لتغدو أشبَه بمدرسةٍ عليا.

الشهادة المختصرة موجودةٌ في كلّ البلدان، ووَجَبَ على إيطاليا أن تُنسِّقَ أنظمتها مع بقيّة الدول. فحين نقرأ أنَّ جون كينيدي تخرَّجَ من هارفرد فهذا يعني أنَّه أنهى مرحلة السنوات الثلاث من الشهادة المختصرة في الكوليج. إلّا أنَّ المرحلة الجامعيّة الأمريكيّة الأولى ذات السنوات الثلاث، تُعلِّمُ أكثر بقليل ممّا كان الطلبة يتعلَّمونه عندنا في مدرسةٍ ثانويّةٍ جيّدة في زمنٍ مضى (المدارس المتوسِّطة سيِّئة هناك). ومع هذا يُعتَقَدُ أنَّ تأهيلًا جامعيًّا من ثلاث سنوات يسمح للمواطن بتحقيق ذلك «التعليم العالي» الذي لا غنى له عنه ليدخل في مجال إحدى المهن بعدئذ. فلماذا إذًا تُعدُّ السنوات الثلاث في الكوليج في أمريكا أفضل من شهادتنا المختصرة؟

ناهيك بأنَّهم هناك لا يقولون للفتية إنَّهم صاروا بعد السنوات الثلاث «دكاترة» (ولكن لا بأس، فمن أجل التشجيع على الدراسة قد يُمنَحُ لقب صاحب السموّ أو الساتراب)، فإنَّ حضور كلّ الدروس هناك إلزاميّ، ما يتيح للطالب أن يعيش مع الآخرين كلَّ يوم، وأن يدخل في تواصلٍ يوميٍّ ومستمرّ مع الأساتذة. فالمشكلة إذًا لا تكمن في قِصَر مدّة الشهادة إنّما بكثافة الحضور.

كيف يمكننا معالجة عدم إلزاميّة الحضور عندنا؟ سأستند إلى تجربتي طالبًا للفلسفة في الخمسينات. في ذلك الوقت أيضًا كان يمكنك أن تغيب عن الدروس، لكنَّ كلًّا من الامتحانات الثمانية عشر كان شاقًّا إلى أقصى الحدود. اتَّفق أساتذتنا جميعًا (وللصدفة كانوا لا أقلَّ من نيكولا أبانيانو، نوربيرتو بوبيو، لويجي بايرسون إلخ) اتَّفقوا على أنَّك في نهاية السنوات الأربع، ما بين امتحانٍ وآخر، كنتَ ستتمكَّن من كلّ الفلاسفة الأساسيّين تقريبًا، من أفلاطون إلى هايدغر. وقد يحدث لك بحسب السنوات أن تتجاوز هيغل، على سبيل المثال، لكنَّك كنتَ ستتمكَّن من سبينوزا، لوك وكانط (كلّ هذه المدارس النقديّة الثلاث)؛ وعندما تتدرَّب على كُتَّابٍ من هذا العيار الثقيل ستكون قادرًا فيما بعد أن تقرأ بمفردك أولئك الذين تجاوزتَهم لسببٍ مّا. وباعتبار أنَّ بعض الامتحانات كانت تتضمَّن ألف صفحة على الأقلّ، وامتحانات أخرى أقلّ بقليل، ففي نهاية تلك الامتحانات الثمانية عشر تكون قد اشتغلتَ على ما لا يقلُّ عن اثنتي عشرة ألف صفحة، والكمّيّة مهمّةٌ للغاية بالنسبة إلى فتىً في طور التأهيل. كانت ثمانية عشر امتحانًا، وللتخرُّج في السنة الرابعة (ومَن يتأجَّل تخرُّجُه بعد تلك المدّة كان يُعتَبر مُتخلِّفًا) كان عليك أن تُقدِّمَ خمسة امتحانات في السنوات الثلاث الأولى، وثلاثة في الأخيرة، ليتاح لك الوقت لإعداد الأطروحة، الشاقّة بحدّ ذاتها. ورغم هذا كلِّه لم يمت أحد.

وإذا كان على تلك السنوات الأربع أن تؤهِّلَ خبيرًا بالفلسفة، فكان هنالك كثيرٌ من الامتحانات التي لا شأن لها بالفلسفة، كاللغة اللاتينيّة واللغة الإيطاليّة، أو أربعة امتحانات في التاريخ. ومع أنَّ ثمانية عشر شهرًا من الخدمة العسكريّة لا تضاهي من حيث الإثارة والتأهيل امتحان اللاتينيّة مع أستاذٍ مثل أوغوستو روستانيي (الذي كان يُلزِمك بدورةٍ مفصَّلة عن أدب عصر الانحطاط، مع كلّ نصوص أوسينيوس وكلاوديانو وروتيليوس نامازيانوس وهلمَّ جرًّا، إضافةً إلى الأعمال الكاملة -أجل، الكاملة- لكلٍّ من فرجيل وهوراس، التي ينبغي ترجمتها ارتجاليًّا)، ونظرًا إلى أنَّنا في تلك الفترة كنّا ندرس الإيطاليّة والتاريخ واللاتينيّة في المدرسة المتوسِّطة أساسًا، فكان بإمكانك أن تنجح في ثلاثةٍ من تلك الامتحانات على الأقلّ بيسر. وهكذا كنتَ تصل إلى خمسة عشر امتحانًا من الموادّ الفلسفيّة، التي

يجب استيعابها في ثلاث سنوات (إضافةً إلى رسالة التخرُّج)، فكنتَ تتعلَّم كلَّ ما ينبغي تعلُّمُه، وتقرأ الكُتَّاب الكلاسيكيّين، من دون الحاجة إلى سَنّ نماذج مختصرة.

لماذا لم نفعل هكذا؟ لأنَّنا حصلنا على فهمٍ ضيِّقٍ ومُتشدِّدٍ لنظام «النقاط»، في حين لم يكن ذلك ضروريًّا. لكنَّ هذا موضوعٌ آخر.

2008

أفكارٌ على نسخةٍ مبيَّضة

منذ حوالي عشرة أيّام، شغلت ماريّا نوفيلا دي لوكا وستيفانو بارتيتزاغي ثلاث صفحات من صحيفة *لا ريبوبليكا* (مطبوعة، مع الأسف) للحديث عن زوال فنّ الخطّ. بات الجميع يعلم أنَّ أولادنا، ما بين الكمبيوتر (إذا استخدموه) والرسائل النصّيّة، ما عادوا يجيدون الكتابة يدويًّا، إلّا إذا كتبوا الأحرف الكبيرة بعسر. يقول أحد المعلِّمين في مقابلة إنَّهم يرتكبون كثيرًا من الأخطاء الإملائيّة، لكنَّ هذه برأيي مشكلة أخرى: فالأطبّاء يعرفون الإملاء الصحيح ويكتبون بشكلٍ سيّئ، وقد يكون المرء خطَّاطًا أكاديميًّا لكنَّه يحار بين كتابة *صيت* أو *صيط*، *عيناكِ* أو *عيناكي*.

وفي الواقع أعرف أطفالًا يتردَّدون إلى مدارس جيِّدة ولا بأس بكتابتهم (باليد وبالأحرف المتَّصلة)، لكنَّ المقالات التي أشرتُ إليها تتحدَّث عن خمسين بالمئة من أولادنا، ومن الواضح أنَّ الأقدار تتلطَّفُ بي فأراني أتعامل مع الخمسين بالمئة الآخرين (وبالمحصِّلة هذا ما يحدث لي في السياسة).

تتمثَّلُ الإشكاليّة في أنَّ المأساة قد بدأت قبل قدوم الكمبيوتر والجوّالات بزمنٍ طويل. كان والداي يكتبان بخطٍّ مائلٍ نوعًا مّا (ويضعون الورقة بالعُرض أيضًا)، وكان الحرف بمعايير اليوم على الأقلّ، يُعدُّ عملًا فنّيًّا. صحيحٌ أنَّه كان يسود اعتقادٌ بأنَّ الخطَّ الجميل هو فنُّ الأغبياء، ومن الوارد أنَّ مَن أشاع هذا كان خطُّهُ رديئًا؛ غير أنَّه من الصحيح أيضًا أنَّ الخطَّ الجميل لا يعني أنَّ صاحبه يتفرَّد بالذكاء، ولكن بكلّ الأحوال كان من المستحبّ أن تقرأ رسالة أو وثيقة مكتوبة مثلما يشاء الربّ (أو مثلما كان يشاء).

وقد نشأ جيلي كذلك على الكتابة الجيّدة، وكانوا في الأشهر الأولى من الصفّ الأوَّل الابتدائيّ يربُّوننا على رسم العصيّ المستقيمة، ثمَّ اعتُبِرَ هذا التمرين بليدًا وقمعيًّا، لكنَّه كان يُربّينا على تثبيت المعصم لاستحكام التنميق، بريشة بيرّي الرائعة، وزخرفة الأحرف الغليظة من أحد جانبيها والناعمة من جانبها الآخر. وأحيانًا، ليس دائمًا، كانت الرواسب القذرة تعلق على رأس الريشة، وغالبًا ما تدفق من مخزن الحبر فتُلوِّث المقاعد والدفاتر والأصابع والملابس - وكنّا نستغرق عشر دقائق لإزالتها، بالتواءاتٍ كثيرة وملطِّخة.

بدأت الأزمة ما بعد الحرب مع قدوم أقلام الحبر الجافّ. دع عنك أنَّ هذه الأقلام كانت في بداياتها تُوسِّخ كثيرًا هي أيضًا، وإن مرَّرتَ إصبعك على الكلمات الأخيرة حالما تنتهي من كتابتها أحلتَها إلى بقعة. ما أدّى إلى انحسار الرغبة في الكتابة بشكلٍ جيّد. وبأيّ حال، حتّى لو كان القلم الجافّ يعطي كتابةً نظيفة، فإنّها كانت بلا روح أو أسلوبيّة أو طابع.

ولكن لماذا علينا أن نتحسَّرَ أبد الدهر على الخطّ الجميل؟ إنَّ إتقان الكتابة الجيّدة والعاجلة على لوحة المفاتيح تُربِّي على سرعة التفكير، وغالبًا (ليس دائمًا) ما يُظلِّل لنا المصحِّحُ الآليُّ بالأحمر هفواتِنا؛ وإن كان استخدام الجوَّال يؤدِّي بالأجيال الشابّة إلى اختزال «Ti sei perduto» بـ «T 6 xduto»، فلا ننسى أنَّ أسلافنا كانوا سيرتعدون لو رأونا نكتب «gioia» عوضًا عن «gioja»، «io avevo» عوضًا عن «io aveva»؛ وأنَّ شيشرون كان سينزعج لو رأى اللاهوتيّين القروسطيّين يكتبون «respondeo dicendum quod».

هذا وقد قلنا آنفًا إنَّ فنَّ الخطّ يُربِّي على التحكُّم باليد وعلى التناسق بين المعصم والدماغ. يذكر بارتيتزاغي أنَّ الكتابة باليد تهدف إلى تأليف الجملة ذهنيًّا قبل كتابتها؛ لكنَّ الكتابة باليد عمومًا، مع مقاومة القلم والورقة، تفرض إبطاءً تأمُّليًّا. فمعظم الكُتّاب، حتّى إن اعتادوا الكتابة على الكمبيوتر، يودُّون أحيانًا لو استطاعوا النقش بالمسمار على لوح الصلصال كالسومريّين، ليتسنَّى لهم التفكير بهدوء.

سيكتب أولادنا على الكمبيوتر والجوَّال أكثر فأكثر. ورغم هذا فلقد تعلَّمت البشريَّة أن تستعيد كتمرينٍ رياضيٍّ وهوايةٍ جماليّةٍ ما طرحته الحضارة

كضرورة: ما عاد يجدر بنا التنقُّل على الحصان لكنَّنا نمارس رياضة ركوب الخيل؛ ورغم وجود الطائرات ثمّة أشخاصٌ كثرٌ ينذرون أنفسهم للزوارق الشراعيّة مثل فينيقيٍّ منذ ثلاثة آلاف عام؛ هنالك أنفاقٌ وسككُ حديد لكنَّ الناس تشعر بالمتعة في توقُّل هضاب الألب؛ ومع أنَّها حقبة الإيميل ثمّة مَن يجمع الطوابع؛ ونذهب إلى الحروب بالكلاشينكوف لكنَّنا نجري بطولات مسايفة وديّة.

سيكون من المرجوّ أن ترسل الأمَّهات أولادهنَّ إلى مدارس لتعلُّم فنّ الخطّ الجميل، وأن يُشغِلْنَهُم بمسابقات وبطولات، لا لمجرَّد تربيتهم على الجمال، بل لضمان سلامتهم النفسيّة الحركيّة. ومثل هذه المدارس موجودٌ أساسًا، يكفي أن تبحثوا عن «مدارس فنون الخطّ» على الإنترنت. وقد يُوفِّر هذا فرصة عمل لمَن يعملون بدوامٍ جزئيّ.

2009

ما كان رأي غاتّاميلاتا؟

في أواخر شهر يونيو من كلّ عام، ينجح الصحفيُّون بجهدٍ يسيرٍ في ملء صفحةٍ أو اثنتين بالتعليق على المواضيع المُدرَجة في امتحانات البكالوريا. تُستدعى خيرة عقول الأمّة وأصفاها ألقًا في سبيل هذا، ولا شكَّ أنَّ أكثر الامتحانات تعليقًا هو امتحان اللغة الإيطاليّة، فمن الصعب أن تشرح للجمهور العريض ممّا تألّفَ امتحان الرياضيّات، أمّا التأسُّف على الفتية الذين فُرِضَ عليهم للمرَّة المليون كتابة تأمُّلاتهم عن عصر اليقظة، فهذا في متناول أيّ خرِّيج. وأحيانًا تكون تمارين «نقّاد موضوع الإنشاء في امتحانات البكالوريا» ممتعة بفضل رشاقة الأسلوب وبراعة صاحبه، لكنَّها (وأقولها مع كامل الاحترام) غير مفيدة إطلاقًا.

وفي الواقع لا يهمُّ أن نعرف ما موضوع الإنشاء المدرج في الامتحان، إلّا إذا كان (حصل ذات مرّة على ما أذكر) يحتوي على أخطاء جسيمة، أو إذا كان يطرح أفكارًا عبثيّة وعجائبيّة، من قبيل «اكتب عن زراعة الورود في دبي».

تتعلّق مواضيع الإنشاء في العادة بأمورٍ لا بدَّ للطلّاب أن سمعوا بها،

وإن لم يكن لدى أحدهم فكرة بالمطلق عن المجرمين السياسيّين، فلا بدَّ أن يكون لديه فكرة عن الثقافة الجماهيريّة أو عن البحوث على الدماغ. أقصد أنَّ الطالب يستطيع أن يتجاهل كلَّ شيء عن علوم الأعصاب شرط أن يدرك ما الذي يعنيه إجراء بحوث عن وظيفة الدماغ البشريّ؛ وحتّى لو كان يعتقد أنَّ الروح مبهمة وأنَّ النبش في الدماغ مضيعةٌ للوقت، فهذا أيضًا قد يُعتَبر رأيًا من الممكن خوضه برعونةٍ جدليّة وروحيّة.

والحال أنَّ امتحان البكالوريا في الإنشاء يجب أن يُثبِت أمرين لا غير. الأوَّل هو أنَّ الممتَحَن أو الممتَحَنة تجيد الكتابة بلغةٍ إيطاليّةٍ مقبولة، ولا يُطالَبُ أحدٌ بأن يكون من سويّة إميليو غادّا (لا بل مَن يكتب في الامتحان على غرار غادّا يجب أن يُنظَرَ إليه بعين الشبهة، لأنَّه لم يدرك أنَّ المطلوب ليس إثبات عبقريَّته التي يصعب فهمها إنّما إعطاء أدلّةٍ على قدرته على استخدام اللغة المتداولة في بلده). والأمر الثاني هو أنَّه على الممتحَنين إثبات قدرتهم على صياغة فكرة، وإنشاء حُجَّة دون خلط الأسباب بالنتائج أو العكس، وقدرتهم على التمييز بين مُقدِّمة وخاتمة. وكلُّ المواضيع جيِّدةٌ لإثبات هذه القدرات. لعلّي أبالغ، ولكن حتّى تأييد فرضيّةٍ باطلة بشكلٍ جليٍّ قد يكون موضوعًا موفَّقًا لإبراز تلك القدرات.

أثناء المرحلة الثانويّة، كلَّفَني رفيق الدراسة بالكتابة عن الموضوع التالي: *حلِّلْ بيت دانتي «رفع فمه عن الطعام الخبيث» وفسِّرْ كلمة «طعام»* لا *كما كان سيفهمها الفارس غاتّاميلاتا بل كما قد يفهمها كريستيان ديور*. أذكر أنَّني، بالنسبة إلى كلّ رفاقي، أنشأتُ الموضوع بطريقةٍ ممتازة، كما لو كان له رأسٌ وذيل، وفي هذه الحالة قلَّدتُ بشكلٍ هزليٍّ بلاغةَ ناقدةٍ أدبيّةٍ تؤلِّف كتبًا مدرسيّة، ولكن بالمجمل أثبتُّ قدرتي على خوض فرضيّاتٍ غير متناسقة واستخراج سلسلة من الأفكار المتناسقة.

بجانب الشكاوى على مواضيع الإنشاء، تظهر في الصحف أيضًا نقاشاتٌ عمّا إذا كانت البكالوريا الحاليّة مُتطلِّبة أكثر أم متساهلة أكثر، وتظهر كتاباتٌ نوستالجيّة لأبناء جيلي، الذين يذكرون الأيّام التي كان عليهم أن يرفِّعوا كلَّ الموادّ من السنوات الثلاث كلِّها. صحيح، كنّا نقضي الأشهر الأخيرة منغلقين في المنزل، بينما يجتاحنا قيظ الصيف، بعضنا يتجرَّع الأمفيتامنين

أو يتسمَّم بالكافيين، وهناك مَن يخرج من هذه التجربة المريعة ليعاني أعوامًا (أو طوال حياته ربّما) من كوابيس ليليّة يحلم فيها بتقديم امتحان البكالوريا مجدَّدًا. ورغم هذا أذكر أنَّ اثنين من رفاق المدرسة قد ماتا في سنِّ الثانية عشرة، أحدهما تحت القصف وثانيهما غرقًا في نهر، لكن لا أحد من رفاق الثانويّة قد مات بسبب امتحان البكالوريا. كان امتحانًا، أكثر إنسانيّةً وإفادةً من مبارزة المينسور الألمانيّة، أو سباقات الجري على جُرْف الشباب المحروق على طريقة جيمس دين. امتحانٌ يخرج المرء منه مُحصَّنًا، لا في المعرفة إنّما في الشخصيّة.

فلماذا نعاقب أولادنا بامتحان بكالوريا أسهل من اللازم؟

2013

التلاقي وجهًا لوجه في المهرجانات

تكثر المهرجانات الأدبيّة-الفلسفيّة في أواخر هذا الخريف. ويبدو أنَّ كلَّ مدينةٍ تريد أن يكون لها مهرجانها الخاصّ، لتنافس حظوظ مهرجان مانتوفا ذي الأسبقيّة؛ كلُّ مدينةٍ تسعى لاستضافة أرقى العقول الموجودة في السوق، وبعض العقول في بعض الحالات تهاجر من مهرجانٍ إلى مهرجان، لكنَّ مستوى الضيوف رفيعٌ عمومًا. والحال أنَّ ما يثير الصحف والمجلّات لا يكمن في أنَّ هذه المهرجانات تتنظَّم، فقد ننخدع واهمين بوجود داعمٍ للثقافة، بقدر ما يكمن في أنَّها تجذب حشودًا متزاحمة قد تملأ إستاد كرة قدم، سوادها الأعظم من الشباب الذين يتوافدون من مدنٍ أخرى ويقضون يومًا أو اثنين للإصغاء إلى كُتَّابٍ ومفكِّرين. علاوةً على أنَّ إدارة هذه الفعاليّات تتسابق عليها فرقٌ من المتطوِّعين (من فئة الشباب أيضًا)، ويهبون أنفسهم لها مثلما كان آباؤهم يفعلون فيما مضى لانتشال الكتب من الطين في أعقاب الطوفان الذي أغرق فلورنسا.

لذا يبدو لي أنَّ السطحيّة والغباوة تغلبان على رأي بعض المنظِّرين في الأخلاق، الذين لا يحملون الاهتمام بالثقافة على محمل الجدّ إلّا إذا جذب عددًا ضحلًا من أمثالهم، ويرون في هذه الفعاليّات مثالًا صريحًا على

ماكدونالدز الفكر. فالظاهرة خلافًا لذلك جديرةٌ بالاهتمام، وحريٌّ بنا أن نتساءل عمّا يدفع الشباب للذهاب إلى هناك لا إلى المراقص؛ ولا تقولوا لي إنَّ الأمرين متشابهان، لأنّي لم أسمع بعد عن سيَّاراتٍ مليئة بالشبّان تحت تأثير *الإكستازي* تتعرَّض لحادث سيرٍ في الثانية ليلًا إثر عودتهم من مهرجانٍ فكريّ.

إنّما أودُّ أن أذكِّر أنَّ الظاهرة، على الرغم من انتشارها في الأعوام الأخيرة على نطاقٍ واسع، ليست بجديدة؛ لأنَّه منذ مطلع الثمانينات قد بدأت المكتبة البلديّة في مدينة كاتوليكا تُنظِّم أمسيات (غير مجّانيّة!) بعنوان «*ما الذي يفعله الفلاسفة اليوم*»، وكان الجمهور يأتي حتّى بالحافلات من محيطٍ لا تقلُّ مساحته عن مئة كيلومتر. وفي تلك الآونة أيضًا تساءل أحدهم ما الذي يحدث.

كما لا أعتقد أنَّه من الممكن تشبيه الحدث بالمقاصف الفلسفيّة المُقامَة بساحة الباستيل بباريس، حيث في صباح يوم الأحد، وبينما نحتسي من كأس البرنود، نتناول الفلسفة المبسَّطة والعلاجيّة، الشبيهة بالتحليل النفسيّ الأقلّ تكلفةً. كلّا، ففي الندوات التي نتحدَّث عنها هنا يصغي الجمهور طيلة ساعات إلى خطاباتٍ تليق بقاعةٍ جامعيّة. يذهب إليها، يبقى فيها، ويعود إليها.

إذًا ليس هنالك سوى نوعين من الإجابات. تحدَّثنا عن الأوَّل منذ الندوات الأولى في مدينة كاتوليكا: نسبةٌ من الشبَّان ضجروا من مقترحات التسلية الخفيفة، والمراجعات الصحفيّة التي (باستثناء حالات نادرة وممتازة) باتت محض مقالات قصيرة لا تتجاوز الأسطر العشرة، والقنوات التلفزيونيّة التي إذا تحدَّثت عن كتاب لا تعرض البرنامج إلّا بعد منتصف الليل. لذا فإنَّ الشباب يُرحِّب بمبادراتٍ ملتزمة وجادّة. يقال إنَّ جمهور هذه المهرجانات يصل إلى مئات وأحيانًا إلى آلاف من المشاركين، وهي نسبةٌ ضئيلة جدًّا بالتأكيد إذا قسناها بغالبيّة أبناء هذا الجيل، يساوون أعداد الذين يتردَّدون إلى المكتبات المكوَّنة من عدّة طوابق، هم نخبة بلا شكّ؛ لكنَّهم نخبةٌ جماهيريّة، أي ما يمكن أن تكون عليه نخبةٌ في عالمٍ من سبعة مليار نسمة. وهذا أقلّ ما يسع مجتمعٌ أن يطلبه من العلاقة بين الموجَّهين ذاتيًّا والمنقادين بأهواء غيرهم، من الصعب أن نحصل على أكثر من ذلك إحصائيًّا، ولكنْ، الويلُ إذا لم يكن لهؤلاء وجود.

والإجابة الثانية هي أنَّ هذه الندوات الثقافيّة تكشف عدم كفاية الوسائل الحديثة للتواصل الاجتماعيّ الافتراضيّ. قد يكون لديك آلاف الأصدقاء على فيسبوك لكنَّك في النهاية، إن لم تكن تحت تأثير المخدِّرات كلّيًا، ستلاحظ أنّك لستَ في تواصلٍ حقًّا مع أشخاصٍ من لحمٍ وعظم، فتبحث عندئذٍ عن فرصة للمؤانسة وتقاسم الخبرات مع أناسٍ يرون الأمور مثلما تراها أنت. وهذا يشبه ما أوصى به وودي آلن ما عدتُ أذكر أين: «إن أردتَ أن تجد لنفسك فتاة فعليك أن تذهب إلى حفلات الموسيقى الكلاسيكيّة». لا إلى حفلات الروك، حيث تزعق باتِّجاه المنصَّة ولا تعرف مَن بجوارك، أمّا في الحفلات السمفونيّة أو موسيقى الحُجرة، فقد تصادف أحدًا في الممرّ أثناء فواصل الاستراحة. لا أقول إنَّ الناس يذهبون إلى المهرجانات للبحث عن شريك، إنّما لكي يتلاقوا وجهًا لوجه.

2013

متعة التأنّي

منذ قرابة العشرين عامًا، حينما قدَّمتُ سلسلة محاضرات في مبادرة Norton Lectures بجامعة هارفرد، تذكَّرتُ أنَّ إيتالو كالفينو كان عليه أن يُقدِّم محاضراته قبل ذلك بثماني سنوات، لكنَّه رحل قبل أن ينهي كتابة المحاضرة السادسة (وصدرت نصوصه لاحقًا بعنوان *المحاضرات الأمريكيّة*). وبمثابة تقديرٍ لكالفينو بدأتُ من المحاضرة التي كان يُمجِّد فيها السرعة، وقد ذكرتُ طبعًا أنَّ دفاعه عن السرعة لا يدَّعي إنكاره متعة التأنّي. لذا كرَّستُ واحدةً من محاضراتي لمتعة التأنّي.

لم يكن التأنّي يعجب السيّد أومبلو، مدير دار النشر أوليندروف، فرفض مخطوطة «*بحثًا عن الزمن المفقود*»، وعلَّق: «صديقي العزيز، ربّما أكون بليدًا، لكنّي لا أستطيع أن أفهم أنَّ أحدًا يُوظِّف ثلاثين صفحة ليصف كيف يتقلَّب ويتقلَّب في فراشه قبل أن يغلبه النعاس». كان إنكار متعة التأنّي سيحرمنا من قراءة بروست إذًا. ولكن، دع عنك بروست، كنتُ أذكر حالةً مثاليّةً للتأنّي في رواية *الموعودان بالزواج* لألسّاندرو مانتزوني.

الدون أبونديو، عائدًا إلى منزله، يتلو أدعيته، فيرى شيئًا لم يكن ليودَّ رؤيته البتّة: اثنان من أعوان الإقطاعيّ في انتظاره. لو كان الأمر راجعًا لكاتبٍ آخر، لأشبَعَ نفاد صبرنا على الفور وأخبرنا بما حدث. إلّا أنَّ مانتزوني في تلك اللحظة يُوظِّف عدَّة صفحات ليشرح لنا ما طبيعة عمل هؤلاء الأعوان في ذلك الزمن؛ وعندما يخبرنا بذلك، يتأنّى مرّةً أخرى، متريِّثًا مع الدون أبونديو الذي يُمرِّر إصبعه في الياقة وينظر إلى الخلف، لعلَّ أحدًا يأتي لنجدته. وفي النهاية يتساءل الدون أبونديو: «ما العمل؟» (مستبقًا لينين).

هل كان من الضرورة أن يُدرِجَ مانتزوني تلك المعلومات التاريخيّة؟ كان يعلم جيِّدًا أنَّ القارئ قد يفكِّر في تجاوزها، وربّما فعلها كلُّ قارئٍ لهذه الرواية، في القراءة الأولى على الأقلّ. حسنًا، يُشكِّلُ الوقتُ اللازمُ لتقليب الصفحات التي لا نقرأها جزءًا من استراتيجيّةٍ سرديّة. التأنّي لا يُضخِّم تشنُّجَ الدون أبونديو وحده، إنّما تشنُّجنا نحن القرّاء أيضًا، ويجعل عذابه أكثر خلودًا. وأتحدّاكم أن تقولوا لي إنَّ *الكوميديا الإلهيّة* ليست حكايةً من التأنّيات كذلك، حيث كان لرحلة دانتي أن تُجرى في ليلةٍ واحدة مثل مرور الحلم، لكنَّ بلوغ ذروة المجد الختاميّ توجبنا بالاستغراق في مئة أنشودة.

تفترض تقنيّة التأنّي قراءةً غير متعجِّلة، أي بطيئة. تحدَّثَ وودي آلن عن تقنيّات القراءة السريعة (*quick reading*)، بتقليب صفحات النصّ بعجالة، واختتم قائلًا بما معناه: «قرأتُ *الحرب والسلم* بهذه الطريقة. تتحدَّث عن روسيا».

وتتناول آنّا ليزا بوتزولا القراءة البطيئة بكتابها *القراءة البطيئة في زمن الاستعجال* (إصدار سكريبتا، 2014)، لكنَّها لا تقتصر على تمنّي العودة إلى القراءة بوتيرةٍ مسترخية. إنّما تربط المشكلة بموضوعة السرعة في زمننا، والتحليلات الأنثروبولوجيّة التي أُجريَت بهذا الشأن، وتطرح مسألتها في قلب سلسلةٍ من التطبيقات العلاجيّة التي تشمل حتّى الوجبات البطيئة (*slow food*).

أمّا فيما يخصُّ الأدب، تعاين بوتزولا نظريّات جينيت، شكلوفسكي وغيرهما، وتُحلِّلُ بتعمُّقٍ أعمالَ مارياس، ماك إيوان، بوفالينو دي لوكا،

ساراماغو، كونديرا، ديليرم، روميث، باريكّو-وتقتضي عليَّ نزاهةُ المُراجِعِ أن أذكر أنَّها كذلك تعنى بأعمالي مشكورةً، وبالاستمتاع بالتأنّي في *لانهائيّة القوائم*.

تنشأ عن هذا دراسةُ ظواهر تقنيّات التأنّي التي تُولِّد في القارئ رغبةً في تعلُّم المطالعة بطريقةٍ أبطأ - حتّى لو تعيَّنَ عليه أن يتأنّى في قراءة ثلاثين صفحة ليفهم كيف يتقلَّب المرء ويتقلَّب في فراشه قبل أن يغلبه النعاس. كتاب بوتزولا يقع في مئة وثلاثين صفحة، باستثناء الملاحظات والمصادر، ويُقرَأ بالبطء اللازم.

2014

هل نلغي الثانويّة الأدبيّة؟

في الرابع عشر من نوفمبر، أُجريَت في تورينو محاكمةٌ علنيّة (ترأَّسَها قاضٍ مثل أرماندو سباتارو) وكان المتَّهم هو الثانويّة الأدبيّة. وقدَّمَ المدَّعي العامّ، الاقتصاديُّ أندريا إكينو، بشهاداتٍ غزيرة وإحصائيّاتٍ وفيرة، التُّهَمَ التالية: واحد، غير صحيح أنَّ الفرع الأدبيّ يمنح تأهيلًا جيّدًا للدراسات والمهن العلميّة؛ اثنان، مَن يبادر إلى الدراسات الإنسانيّة حصرًا قد يخاطر بتكوينِ معرفة جزئيّة عن الواقع لذا فهي مشوَّهة (لكنَّ إكينو كان منصفًا إذ أقرَّ بأنَّ هذا يحدث أيضًا لمن يبادر إلى الدراسات العلميّة والتقنيّة حصرًا)؛ ثلاثة، نتجت الثانويّة الأدبيّة من خطّة إصلاحٍ فاشيّة، المعروفة بإصلاحات جنتيلي. وفي نهاية المحاكمة، برَّأ مجلس القضاء الثانويّة الأدبيّة بشكلٍ كامل، ربّما لأنَّ التُّهم كانت مُصاغةً بطريقةٍ قطعيّةٍ مفرطة. فمثلًا، أثبت شهودٌ لامعون أنَّ إصلاحات جنتيلي كانت تستعيد إصلاحاتٍ سابقة ذات طابعٍ ليبرالي وقد بدت ممقوتة في الأوساط الفاشيّة. إلّا إذا كان عيبها الوحيد هو العزم على تشكيل طبقة حاكمة متركِّزة خصوصًا على الدراسات الإنسانيّة، دون إيلاء الأهمّيّة اللازمة للموادّ العلميّة.

أنا كنتُ محامي الدفاع، ووافقتُ في مرافعتي على كثيرٍ من الاتّهامات، وأضفتُ أنَّ الثانويّة الأدبيّة التي سنَّها جنتيلي لم تكن تعطي حيِّزًا ضيِّقًا للعلوم

فقط بل حتّى لتاريخ الفنّ، واللغات الحديثة. أمّا اللغات الميّتة كما تُسمَّى، فبعد ثماني سنواتٍ من دراسة اللاتينيّة كان المتقدِّمون لامتحان البكالوريا في عهدي يخرجون من الفرع الأدبيّ عاجزين بالعموم عن قراءة هوراس من المرّة الأولى. لِمَ لا نحاول أن نُعلِّمَ التلاميذ إجراء حوارٍ بمستوى مبتدئٍ من اللاتينيّة مثلما كان يفعل مثقَّفو أوروبا الكبار قبل زمنٍ قصيرٍ جدًّا؟ لا ينبغي للمُتقدِّم إلى امتحان الفرع الأدبيّ أن يصبح علَّامةً باللاتينيّة بالضرورة (فهذا تتعهَّد به الجامعة)، ولكن يجب أن يكون قادرًا على فهم أسس الحضارة الرومانيّة، وأن يُحدِّد جذور الكلمات المشتقّة، وأن يعي الأصول اللاتينيّة (والإغريقيّة) لكثيرٍ من المصطلحات العلميّة، وباستطاعته أن يتحصَّلَ على هذا حتّى بتعويده قراءة اللاتينيّة الكهنوتيّة والقروسطيّة، الأكثر ألفةً وسهولةً عليه. وبتمكينه من إجراء مقارنات مجدية بين المفردات والنحويّات اللاتينيّة وتلك التي في اللغات الحديثة. وفيما يتعلَّق بالإغريقيّة، فلماذا نُشغِلُ التلاميذ بهوميروس، العسير حتّى على المتخصِّصين، ولا نُشجِّعهم على القيام بترجمات من الإغريقيّة الهيلانيّة، كالكتب الطبيعيّة لأرسطوطاليس، فيشتغلون على تلك اللغة التي كان شيشرون نفسه يجيد التحدُّث بها؟

من الممكن التفكير بثانويّةٍ أدبيّة-علميّة حيث لا تختفي الموادّ الأدبيّة. ذكرتُ أنَّ أدريانو أوليفيتّي، الرائد في إنشاء أجهزة الحاسوب الأولى، كان يُوظِّف مهندسين بطبيعة الحال وعباقرة المعلوماتيّة المتفوِّقين، لكنَّه وظَّفَ أيضًا خرِّيجين قد تكون أطروحاتهم الجامعيّة عن كسينوفون وربّما نالوا علاماتٍ تامّة. كان أوليفيتّي قد أدرك أنَّه لا يمكن الاستغناء عن المهندسين لتصوُّر الهارد وير، أمّا لابتكار سوفت وير جديد (أي البرامج) فلا بدَّ من أدمغةٍ تربَّت على مغامرات الإبداع، وتمرَّست في الأدب والفلسفة. وتساءلتُ: أليس هناك شبّانٌ كثرٌ يبتكرون اليوم تطبيقاتٍ جديدة للموبايلات (وينجحون في مهنٍ لم تكن موجودة في السابق) قادمين من تأهيل العلوم الإنسانيّة!

لكنّي لا أفكِّر بالمعلوماتيّة وحدها. فالحصول على تربيةٍ أدبيّة يعني إجادة تصفية الحسابات مع التاريخ ومعَ الذاكرة. إذ إنَّ التكنولوجيا لا تستطيع العيش إلّا في الحاضر، وتنسى البعد التاريخيّ يومًا بعد يوم. وإنَّ ما ينبئنا به ثوقيديديس عن وقائع الأثينيّين والميلوسيّين ما يزال مفيدًا لفهم وقائع

كثيرة من السياسة المعاصرة. فلو أنَّ بوش قرأ لمؤرِّخين كبار (الجامعات الأمريكيّة تزدحم بهم) لأدرَكَ لماذا أخفق الإنكليز والروس، في القرن التاسع عشر، في إحكام سيطرتهم وهيمنتهم على أفغانستان.

من جهةٍ أخرى، كان العلماء العظماء مثل أينشتاين يتمتَّعون بثقافةٍ فلسفيّةٍ راسخة، وقد استهلَّ ماركس مشواره بأطروحةٍ عن ديمقريطس. فلنقترحْ قوانين إصلاحٍ إذًا، ولكنْ فلنحافظ على الثانويّة الأدبيّة لأنّها تسمح بتخيُّل ما لم يكن متخيَّلًا بعد، وهذا ما يُميِّزُ المعماريّ عن المتعهِّد المحتال.

2014

عن الكتب ومواضيع أخرى

هل يضرّ هاري بوتر بالراشدين؟

كنتُ قد كتبتُ *مغلّفًا* عن هاري بوتر منذ ما يقارب العامين، عقب صدور الأجزاء الثلاثة الأولى من السلسلة، وكان الجدل في العالم الأنغلوسكسونيّ محتدمًا حول ما إذا كان سرد حكايات السحر هذه على الأولاد يُلحِقُ الضرر بالتربية، وما إذا كانت هذه الحكايات تدفعهم إلى تصديق الهلوسات الخفائيّة جدّيًا. والآن وقد أصبحت ظاهرة هاري بوتر عالميّة حقًّا، مع انتشار الفيلم، حَدَثَ لي أنّني شاهدتُ منذ أسبوعين حلقةً من برنامج *بآبا لباب* حيث استُضيفَ الساحر أوتيلما، وكان في منتهى السعادة لهذه الدعاية التي تصبُّ في مصلحة السادة الذين على شاكلته (وبالمناسبة، كان يرتدي ثيابًا كالمشعوذين، حتّى إنَّ إد وود نفسه ما كان ليجرؤ على إظهاره في أيٍّ من أفلامه الفظيعة)، في مواجهة طارد أرواحٍ شرّيرةٍ بارز كالأب أمورت (اسم على مسمّى) الذي يرى أنَّ حكايات هاري بوتر تنقل أفكارًا شيطانيّة. ولعلّي أوضِّحُ أنَّه بينما كانت غالبيّة الأشخاص العقلاء المدعوّين إلى البرنامج يعتقدون أنَّ السحر الأبيض والسحر الأسود هما محض أكاذيب (مع ضرورة التعامل بجدّيّة مع مَن يُصدِّقونها)، كان الأب طارد الأرواح يتعامل بجدّيّة مع أيّ شكلٍ من أشكال السحر (سواء أكان أبيضَ أم أسودَ أم مُنقّطًا) بوصفه من عمل الشيطان.

إن كان هذا هو الجوّ العامّ، فلا بدَّ لي أن أعود إلى ضرب سهمٍ في مصلحة هاري بوتر. فهذه حكايات سحرة ومشعوذين، أجل، ومن البديهيّ

أن تحرز نجاحًا باهرًا، فلطالما أَحَبَّ الأطفال الجنّيات والأقزام والتنانين ومستحضري الأموات، ومع هذا لم يفكّر أحدٌ يومًا أنَّ بياض الثلج كانت نتيجةً لمؤامرةٍ إبليسيّة؛ إلّا أنَّ حكايات هاري بوتر أحرزت نجاحًا متواصلًا لأنَّ مؤلِّفتها (لستُ أدري إن كانت بخطّةٍ متقنة للغاية، أم بفطرةٍ مذهلة) استطاعت أن تعيد إخراج بعض المواضيع السرديّة النموذجيّة بحقّ.

هاري بوتر هو ابن ساحرين طيّبين لقيا مصرعهما على أيدي قوى الشرّ، لكنَّه لا يعلم هذا في البداية، بل يعيش يتيمًا مقهورًا عند أعمامه المستبدّين والوضيعين. ثمَّ تُكشَفُ له طبيعتُهُ وتوجُّهاتُهُ، وينتقل إلى مدرسةٍ داخليّةٍ للسحرة الشباب من كلا الجنسين حيث يقع في مغامراتٍ عجائبيّة. وها نحن إزاء النموذج التقليديّ الأوّل: آتوا بطفلةٍ صبيّةٍ ورقيقة، أذيقوها شتّى صنوف العذاب، واكشِفوا لها في النهاية أنَّها سليلة أسرةٍ نبيلة، قُدِّرَ لها مصيرٌ باهر؛ وهكذا ستحصلون ليس على البطّة السوداء وسندريلا فحسب، إنّما على أوليفر تويست وريمي بطل رواية *بلا عائلة* أيضًا. علاوةً على أنَّ مدرسة هوغوورتس التي ينضمُّ هاري إلى صفوفها ليدرس كيفيّة تحضير الجرعات السحريّة، تشبه مدارس داخليّة بريطانيّة كثيرة، حيث تقام إحدى تلك الرياضات الأنغلوسكسونيّة التي تدهش قرّاءَ شمال المانش لأنَّهم يفهمون قواعدها، وقرّاءَ القارّة كذلك لأنَّهم لن يفهموها أبدًا. وهنالك موضوعٌ نموذجيٌّ آخر يُذكِّرُ برواية مولنار *أولاد شارع بال*. وهناك شيءٌ من *يوميّات جانّينو الشقيّ*، حيث يعقد التلاميذ الصغار اجتماعًا سرّيًّا للتآمر على المعلِّمين الغريبي الأطوار (وبعضهم منحرفون). أضف إلى ذلك أنَّ الأولاد يلعبون بركوب المكنسة الطائرة، وهكذا يكون لدينا أيضًا ماري بوبينس وبيتر بان. وأخيرًا، تبدو مدرسة هوغوورتس إحدى تلك القلاع الغامضة التي كنّا نقرأها في صغرنا من سلسلة «مكتبة الناشئة» بإصدار سالاني (الدار الإيطاليّة نفسها التي تنشر هاري بوتر اليوم)، حيث مجموعةٌ متعاضدة من أولادٍ ببنطلونات قصيرة وبناتٍ بشعرٍ أشقر طويل، يكشفون ألاعيب وكيلٍ محتال، عمٍّ فاسد، عصابة شطّار، ويتوصَّلون في النهاية إلى كنز، وثيقة ضائعة، مغارة أسرار.

إن كانت حكايات هاري بوتر تحتوي على أسحارٍ تقشعرُّ لها الأبدان

وحيواناتٍ مرعبة (الحكاية تدور دومًا حول أطفالٍ نشأوا على وحوش من تصميم رامبالدي وعلى أفلام الكرتون اليابانيّة)، فإنَّ هؤلاء الأولاد يناضلون من أجل قضايا عادلة مثل كثيرٍ من الكشّافة، وينصتون إلى مربّيهم الفاضلين، لدرجة التَّماسّ (بعد التصويبات التاريخيّة الضروريّة) بملائكيّة رواية *قلب* التي أَلَّفَها دي آميشيتس.

هل نظنُّ حقًّا أنَّ الأطفال، عندما يقرأون حكايات عن السحر، سيُصدِّقون الساحرات حين يكبرون؟ (هذا ما يجمع عليه الساحر أوتيلما والأب أمورت، وإن بانطباعاتٍ متناقضة). لا بدَّ أنّنا جميعًا شعرنا بفزعٍ طبيعيٍّ حيال الغيلان والمستذئبين، لكنّنا حينما كبرنا تعلّمنا ألّا نخشى التفّاح المسموم إنّما ثقب الأوزون. وكنّا جميعًا في طفولتنا نظنُّ أنَّ اللقلق هو الذي يأتي بالأطفال، لكنَّ هذا لم يمنعنا لاحقًا، عندما كبرنا، من انتهاج نظامٍ ملائمٍ (وأكثر استحسانًا) لإنجابهم.

المشكلة الحقيقيّة ليست عند الأولاد، الذين يُصدِّقون منذ ولادتهم حكايةَ القطّ والثعلب في بينوكيو لكنّهم يتعلّمون فيما بعد أن يهابوا مخادعين آخرين ليسوا من صنع الخيال؛ المشكلة المقلقة هي عند الراشدين، أولئك الذين لم يقرأوا في صغرهم حكايات السحر، والذين غالبًا ما تقودهم البرامج التلفزيونيّة حتّى إلى استشارة قارئي الفنجان، والغشّاشين بورق التاروت، ومقيمي القدّاس الأسود، والعرّافين، والمنجّمين الدجّالين، والأطبّاء الشعبيّين، ومشعوذي الإكتوبلازم، وكاشفي لغز توت عنخ آمون. ثمَّ ينتهي بهم المطاف، لفرط ما صدّقوا السحرة، للعودة إلى الوثوق أيضًا بالقطط والثعالب.

2001

كيف تحمي نفسك من فرسان الهيكل

تلقَّيتُ للتوّ كتاب بيير بول ريد، *القصّة الحقيقيّة لفرسان الهيكل* (إصدار نيوتن كومبتون، 2001)، إضافةً إلى ملحق مجلّة «التاريخ والملفّ» (عدد آب 2001)، بعنوان *استراتيجيّة الجريمة. فيليب الجميل والاحتفاليّة السرّية*

لفرسان الهيكل، للكاتبة باربرا فراله. الكتاب الأوَّل ضخمٌ يقع في ثلاثمئة صفحة، والثاني كُتيِّبٌ من ستّين صفحة، لكنَّ كليهما لا يطرح الترَّهات. وربّما كانت مقدِّمةٌ من هذا النوع ستبدو غريبةً لو أنَّنا نُقدِّمُ سيرةً عن يوليوس قيصر أو تاريخ الآباء الحجّاج، إلّا أنَّنا إزاء فرسان الهيكل مُلزَمون بتوخّي الحذر سلفًا.

إن كنتَ ناشرًا مبتغاهُ الربح، بوسعك تكليف كاتبٍ محترفٍ همُّهُ المال بتأليف كتابٍ عن فرسان الهيكل. وكلّما وضعتَ في الكتاب وقائع لا يمكن إثباتها تاريخيًّا، تزاحم القرّاءُ المتعطِّشون للغموض على شرائه. أمّا إن أردتَ معرفة مدى مصداقيّة كتابٍ مّا عن فرسان الهيكل، فانظر إلى فهرسه. إن كان يبدأ بالحملة الصليبيّة الأولى، وينتهي بمحرقة فرسان الهيكل عام 1314 (متبوعًا حدًّا أقصى بملحقٍ يتحدَّث عن الخرافات اللاحقة بمنظورٍ متشكِّك)، فهذا كتابٌ جادٌّ أغلبَ الظنّ. أمّا إذا وصل بكلّ ثقةٍ للحديث عن فرسان عصرنا هذا، فالكتاب مهزلة.

إلّا إذا كان القصدُ التحدُّثَ (شرطَ اعتمادِ وجهة نظر مؤرِّخ) عن الأسطورة، كيف نشأت وكيف تطوَّرت. ويبقى العمل الهائل الأكثر توثيقيّةً في هذا الموضوع هو *الماسونيّة: البنّاؤون الأحرار وفرسان الهيكل والخفائيّون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر* لرينيه لوفوريستييه (أوبييه، 1970). ومَن أراد تتبُّعَ مصير الأسطورة في الغابة الدهماء التي أنتجتها الخفائيّة المعاصرة، بين طوائف غنوصيّة، وأخويّاتٍ شيطانيّة، وروحانيّين، وتنظيماتٍ فيثاغورثيّة، وأتباع الصليب الورديّ، وماسونيّين متنوِّرين وصيّادي الأطباق الطائرة، فعليه بكتاب ماسّيمو إنتروفينيه، *قبّعة الساحر* (إصدار سوغاركو، 1990). ولكن إن أردتم ملخَّصًا تاريخيًّا جيِّدًا، متَّزنًا وموثوقًا، منذ المحاكمة وحتّى أيّامنا هذه، فعليكم بكتيِّب فرانكو كارديني الملحق بمجلّة «التاريخ والملفّ» (عدد أبريل 2000): *أسرار الهيكل. الباطنيّة وفرسان الهيكل*. وبكافّة الأحوال، إن كنتم تودُّون القراءة عن القصّة الحقيقيّة لفرسان الهيكل «الحقيقيّين»، فبإمكانكم الإفادة أيضًا من كتاب جان فافييه، *لغز فيليب الجميل* (إصدار يوفنس، 1982)، وكتاب آلان دومورجيه، *تنظيم فرسان الهيكل بين النشأة والأفول* (إصدار غارتزانتي، 1987)، وكتاب بيتر بارتنر، *فرسان الهيكل* (إصدار إيناودي، 1991).

لماذا أثار فرسان الهيكل كثيرًا من الأساطير؟ لأنَّ قصَّتهم تليق بروايةٍ متسلسلة. أنشِئوا تنظيمًا رهبانيًا–فروسيًا، واجعلوه ينجز صنائع حربيّة هائلة، وأمِدُّوه بثراءٍ باذخ، واعثروا على ملكٍ يعتزم التخلُّص ممّا باتت تُسمّى دولة داخل الدولة، ويؤمِّنُ مفتِّشين يجمعون له أخبارًا شائعة، بعضها حقيقيٌّ وبعضها باطل، لوضعها في لوحةٍ فسيفسائيّة فظيعة (مؤامرة، جرائم قذرة، هرطقات رهيبة، شعوذة وجرعة كبيرة من المثليّة الجنسيّة)، ألقوا القبض على المشتبه بهم وعذِّبوهم، أخبِروهم بأنَّ مَن يُقرّ بذنبه ينجو بجلده، ومَن ثَبُتَت براءتُهُ سيُلَفُّ حول عنقه حبلُ المشنقة... ليكون ضحاياكم أنفسهم أوّلَ الذين يشرعنون محاكم تفتيشكم (والأساطير التي ستنجم عنها).

تنتهي قصّة التنظيم بشكلٍ مأساويّ عند ذلك الحدّ الذي يُمهِّدُ لمساراتٍ سياسيّة أيديولوجيّة تستمرُّ حتّى أيّامنا هذه. ولكن، إزاء هذا القدر من القمع الغاشم يتوالد سؤالٌ حتميّ: أين انتهى فرسان الهيكل الناجون من المحرقة؟ هل أقدموا على إنهاء حياتهم في أحد الأديرة بمحاولةٍ لنسيان تلك الواقعة، أم إنَّ الارتياب الذي يتَّصف به كلُّ التائبين دفعهم لإعادة تشكيلهم في تنظيمٍ سرّيّ، يعمل في الخفاء أكثر من ذي قبل، ويتشعَّبُ عبْر العصور؟ لا تستند الفرضيّة الثانية إلى أيّ دليلٍ تاريخيّ، لكنَّها تطلق العنان لألعاب التاريخ البديل والمتخيَّل وغير الموثَّق، إلى ما لانهاية.

إن بحثتم على الإنترنت وجدتم كثيرًا من تنظيمات فرسان الهيكل ما تزال بالخدمة. فاعتماد أيٍّ من الأساطير ليس مُحرَّمًا شرعًا. بإمكان أيّ امرئٍ أن يُنصِّبَ نفسه كاهنًا أعلى لدى إيزيس أو أوزيريس، ففي كلّ الأحوال لم يعد هناك فراعنة ليكذِّبوه. فإن أردتم تاريخًا بديلًا ومتخيَّلًا وغير موثَّقٍ إذًا، فعليكم بالتوجُّه نحو التاريخ النفسيّ التشويقيّ، لويس شاربنتييه (*ألغاز فرسان الهيكل*، إصدار أتانور، 1981)، أو *دانتي فارس الهيكل* لروبرت ل. جون (إصدار هويبلي، 1987، لكنَّه صادرٌ بلغته منذ العام 1946) – حيث ستجدون أمثلةً عن أسلوب النصّ الجدليّ من قبيل: «إنَّ المقصود بأعضاء بياتريتشي التي «انتثرت على الأرض ترابًا»... هم الأعضاء الكثيرون (نُشدِّد على هذا)، المنتشرون في إيطاليا كلّها، للمنظَّمات الروحانيّة التابعة لفرسان الهيكل، التي كانت تلك المرأة النبيلة تُضفي عليها اسمها الغنوصيّ هذا بما لا يرقى إليه الشكّ» (ص 351).

ولكن، إن كان هذا ما يعجبكم، فسارِعوا على الفور إلى أشدّ نماذج التاريخ غير الموثَّق وقاحةً، *الكأس المقدَّسة*، لمايكل بيجانت وريتشارد لي وهنري لنكولن. إذ إنَّ فساد طويَّتهم الخياليّ بديهيٌّ بحيث يتسنَّى للقارئ الملقَّح أن يستمتع كما لو كان يشارك بلعبة تقمُّص الأدوار.

2001

خفّة عجوز لامبورغو التي لا تُحتَمل

ينبغي في المقام الأوَّل أن نُحدِّدَ الشخصيّة، وهذا ليس بالأمر الهيِّن. فلنحاوِلْ إذًا: باولو دي بينيديتّي، كما تقول الكنية نفسها، من أصولٍ يهوديّةٍ لكنَّه وُلِدَ في أسرةٍ اعتنقت المسيحيّة لستُ أدري منذ متى؛ وبصفته مسيحيًّا فهو روحٌ متديِّنة إلى أبعد الحدود (ألَّفَ كتبًا وأدار مشاريع نشريّة ذات محتوىً دينيّ). هو أكثر المسيحيِّين تهوُّدًا من بين الذين عرفتُهم في حياتي، وكان لا بدَّ منه بطبيعة الحال أن يصبح مُتخصِّصًا بالتوراتيّات وأستاذًا بالدراسات العبرانيّة في إحدى الكلّيّات اللاهوتيّة. وكأنَّ كلَّ ما سبق لا يكفي، هو أكثر العقول الموجودة تلموديّةً، وسأبيِّنُ ذلك بهذه القصّة التي كنتُ شاهدًا عليها عندما كنّا نعمل معًا في دار بومبياني للنشر. كان الرجل معنيًّا بتحرير *قاموس الأعمال والشخصيّات*، وكان قد طلب بضع معلوماتٍ محدَّثة عن تيبار دو شاردان من أحد المتخصِّصين الفرنسيّين على ما أظنّ، فكتب له الأخير أيضًا أنَّ هناك مؤسَّسةً سُمِّيت على اسم شاردان وترأَسها «جلالتها ماري خوسيه دي سافويا».

حذف دي بينيديتّي «جلالتها»، لا لأنَّه متأثِّرٌ بفكر اليعاقبة، حسب رأيي، إنّما لرصانةٍ فطريّة يتميّز بها محرِّرو الموسوعات. أبقى على ماري خوسيه دي سافويا فقط. سوى أنَّ صاحب المعلومة، ذا المشاعر الملكيّة بطبيعة الحال، كتب رسالةً ناريّةً مستنكرًا الحذف قائلًا: «اللقب الملكيّ، يا سيّد، لا يُزال أبدًا». فأجاب دي بينيديتّي: «لكنَّ الأميرة لم تُتوَّجْ قطّ». وبالفعل، فبين الانتقال من إيمانويلي الثالث إلى أمبرتو الثاني إلى إعلان الجمهوريّة، لم تُقَم مراسم التتويج. الشكليّات هي الشكليّات، والمراسم هي المراسم،

فأُفحِمَ المتخصِّصُ الفرنسيُّ ولم يردّ. قولوا لي الآن إنَّ شخصيّةً من هذا النوعِ لا تُعدُّ تلموديّةً في كلّ ليفةٍ من أليافها.

إلّا أنَّ شخصيّةً من هذا النوع، يُكرِّس حياته للنصوص المقدَّسة، لا يمكن ألّا تكون لديه هواية دنيويّة، وها إنَّ هوايته تشبه الكابالا أو تكاد. يلهو (بمعنى يدرس ويكتب) بقصيدة الليميريك [الهراء]. يستكشف هوامشها وسلالتها، حتّى إنَّه ساعَدَ في ترجمة *كتاب الجرذ العجوز عن القطط العمليّة* لإليوت لدى بومبياني. فضلًا عن كونه وفيًّا لذلك العبقريّ المستهتر فردیناندو إنكارّيغا – لكنّي أدَّعي أنَّه كان يُوقِّع باسم إنغارّيكا، بالاطلاع على نسختي من طبعة أعماله الصادرة عام 1860؛ دي بينيديتّي يقول ذلك لكنَّه يصرُّ على خطأه الثبوتيّ، في حين من المفترض أنَّه يعلم أنَّك إذا غيَّرتَ حرفًا واحدًا من التوراة أُبيِدَت الأرضُ بلهيبٍ ناريّ.

كان إنغارّيكا قاضيًا على سالرنو، وكان يكتب بجدّيّةٍ تامّة، ومن دون أيّ مقصدٍ فكاهيّ، أبياتًا أناكرونيّة واعظة من هذا القبيل: «الفلك عِلمٌ جميل / يحمل الإنسانَ لقياس / النجومِ، والشمس، وكوكب القمر / ولرؤية ما الموجود فوقها. / وما إن تصل إلى هناك / تسبر شعلةَ العالم جيِّدًا: / انسجام هذا الدائريّ / وقفٌ للربّ وحده». دعوةٌ للزفاف، تدفع دي بينيديتّي لمحاكاةٍ من هذا القبيل: «القنِّينة هي ذلك الشيء / الذي يلتفُّ حول الحليب / ولكن إن رماها أحد / وا أسفاه! لا يبقى منها شيء». أو: «المومياء شيءٌ / يُحنَّط ليبقى / بالحفظ والصون / داخل أهراماتٍ كبيرة». وللختام: «الصرح شيءٌ / يُنصَبُ في الحدائق / لتثقيف المواطنين: / فهذا الذي في الأعلى هو تمثال غاريبالدي».

صدرت تمارينه المختلفة لدراسة شعر الهراء ونظم القصيد على غراره عن دار شيفيلر (*الهراء وأشياء أخرى*، 2007، 12 يورو)، ولا أدري أيُّهما أهمّ: استكشاف تاريخ شعر الهراء وأوزانه، أم التسالي التي يحاول الكاتب الاشتغال عليها. سأذكر هنا من أبيات الليميريك خاصّته: «كان هناك امرأةٌ اسمها كلَريس / وكانت التعيسة الحظّ تتحسَّر: / ليت كان اسمي كلارِس / لكنتُ صعدتُ فوق تلك الصنوبرة / فهي عدوُّ المَدَّة ما قبل الأخيرة». وهذه: «كان هناك عجوزٌ من لامبورغو / يأكل الخبز والصلصة / وعندما امتلأت

معدته / ندم وأصبح راهبًا / يا لذاك الناسك عجوز لامبورغو». وللختام: «كان هناك هنديٌّ اسمه فالميكي / ينطق أبياتًا غاضبة / دفنه نملٌ ضخم / وصار يصيح نادمًا / بعد أن كان قاطع طريق زمانًا». سيتَّضح لاحقًا في هذا الكتيِّب المعرفيّ النيِّر، أنَّ فالميكي هو مؤلِّف الرامايانا، ملحمة شعريّة تمتدّ على أربعة وعشرين ألف فقرةً، لذا سيكون من العسير عليه أن ينطق ستة وتسعين ألف بيت، «مقارنةً بقالب الليميريك أو قصيدة لأونغاريتّي». يحمل دي بينيديتّي قارئه على أكُفّ الراحة، فينقل ثمانية أبيات لفالميكي بلغتها الأصليّة، السنسكريتيّة، لكي يتسنّى لأيّ أحدٍ أن يحكم بنفسه.

الهرُّ أساسيٌّ في نشاط دي بينيديتّي الإبداعيّ، إذ يهديه كثيرًا من تلك القُصَيّدَات اللذيذة، التي لا ينقصها شيء لتصبح قصائد كبيرة. وكذلك رأيي بقصائده عن الملائكة، الذين ليسوا هررة لكنّهم حيواناتٌ فريدة بالتأكيد.

ما القول؟ إن تبقَّى لديكم وقت بعد مشاهدة برامج التوك شو، اقرأوا دي بينيديتّي. فالحدود بين الجنون والحكمة هزيلة لدرجة أنَّ عبورها مرارًا لَهُوَ تمرينٌ جيِّد. لا تشتكوا إن لم آتِكم بأمثلةٍ أخرى، كما كان يطيب لي، لكنّي أردتُ أن تنفقوا الاثني عشر يورو من جيبكم لتطّلعوا على البقيّة.

2002

ملامسة الكتب

حَدَثَ لي خلال الأسابيع الأخيرة أنّني تحدَّثتُ في مناسبتين مختلفتين عن البيليوفيليا [ولع اقتناء الكتب]، وفي المناسبتين كلتيهما كان بين الجمهور كثيرٌ من فئة الشباب. وقد حللتُ ضيفًا في مقابلة إذاعيّة على أثير راي 3 ببرنامجٍ رائع وهو *فهرنهايت* (الذي يعمل مُعدُّوه جاهدين على نشر شغف القراءة)، وقلت إنَّ البيليوفيليا تشبه قليلًا أن يقول منحرفٌ إنَّه يمارس الحبَّ مع الماعز. فإذا رويتَ أنَّك أمضيتَ ليلةً مع نعومي كامبل أو حتّى مع جارتك الحسناء، يتابعك الآخرون باهتمامٍ أو حسدٍ أو استثارةٍ ماكرة. لكنَّك إذا رويتَ عن المتع التي انتابتك بمجامعة عنزة، سيحاول الناس أن يُغيِّروا الموضوع مُحرَجين. وبالمثل، إذا كان هنالك مَن يجمع لوحاتٍ من

عصر النهضة أو خزفيّاتٍ صينيّة، فإنَّ مَن يدخل بيته ينتشي بهذه الأعاجيب. أمّا إذا كان يُظهِرُ كتابًا باليًا يعود للقرن السابع عشر ذا قطعٍ اثني عشريّ، محمرَّ الأوراق، ويقول إنَّ الذين يمتلكون مثله لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة، فإنَّ الزائر يصاب بالملل ويستعجل لحظة الانصراف.

الببليوفيليا هي محبَّة الكتب، ولكن ليس محبَّة محتواها بالضرورة. فالاهتمام بالمحتوى يُلبَّى بالذهاب إلى المكتبة العامّة، في حين أنَّ المولع باقتناء الكتب، حتّى لو كان مهتمًّا بالمحتوى، يريد الغرض، وحبَّذا لو كان من أوائل الأغراض الخارجة من مكابس الطبَّاع. يصل الببليوفيليّون إلى درجةٍ من الهوس -لا أوافق عليها لكنّي أتفهَّمُها- بحيث إذا وقع بين أيديهم كتابٌ غير مفصولةٍ صفحاتُهُ، يمتنعون عن الفصل بينها ويتركونها على حالها، كي لا ينتهكوا الكتاب. فبالنسبة إلى هؤلاء، يُعتَبر الفصلُ بين صفحات كتابٍ نادرٍ مماثلًا -بالنسبة إلى جامع الساعات- لتحطيم صندوق الساعة لرؤية آليّتها.

الببليوفيليُّ ليس من يحبُّ *الكوميديا الإلهيّة*، إنّما هو الذي يحبُّ تلك النسخة المعيَّنة من تلك الطبعة المعيَّنة من *الكوميديا الإلهيّة*. يريد أن يتسنّى له لمسها، تصفُّحها، وتمرير يديه على جلدتها. فهو بهذا المعنى كأنَّما «يتحدَّث» مع الكتاب، بصفته غرضًا، عن الحكاية التي يرويها الكتابُ عن أصوله، وعن سيرته، وعن الأيدي اللامتناهية التي مرَّ من خلالها. وأحيانًا يروي الكتابُ حكايةً مكوَّنةً من بصمات أصابع، وملاحظاتٍ مدوَّنةٍ على الهامش، وتظليلات تحت كلمات، وتواقيع على صفحة العنوان، وحتّى من ثقوبٍ خلَّفَها السوس الناخر؛ وتصبح الحكاية أحلى عندما يكون عمر الكتاب خمسمئة سنة، وما زالت صفحاته الطازجة والبيضاء تخشخش على ملمس الأصابع.

ولكن بوسع الكتاب، بصفته غرضًا، أن يروي حكاية جميلة حتّى لو لم يتجاوز الخمسين عامًا. لديَّ نسخةٌ من *الفلسفة في العصر الوسيط* لإيتيين جلسون تعود إلى مطالع الخمسينات، وقد رافقتني منذ أيَّام أطروحة التخرُّج لغاية اليوم. كان الورق في تلك الحقبة تعيسًا، وبات الكتاب يتذرَّى ما إن أحاول تقليب صفحاته. لو كان الكتاب بالنسبة إليّ وسيلة عمل حصرًا،

لاستطعتُ تدبير طبعة حديثة، موجودة في الأسواق بسعرٍ مناسب. لكنّي أريد تلك النسخة بحدّ ذاتها، بعتاقتها الهشّة، وملاحظاتي وتظليلاتي عليها بألوانٍ مختلفة بحسب فترات إعادة القراءة، لأنّها تُذكّرني بسنوات دراستي، وما تلاها، فهي جزءٌ من ذكرياتي إذًا.

ينبغي أن نخبر الشبّان بهذا الأمر، فقد جرت العادة على الظنّ بأنَّ شغف البيليوفيليا حكرٌ على الأثرياء. وبالتأكيد هناك كتبٌ عتيقة تساوي مئات الملايين (بيعت طبعة الإنكونابول الأولى من *الكوميديا الإلهيّة* بالمزاد منذ بضعة أعوام بمليار ونصف المليار)، لكنَّ محبّة الكتاب لا تُعنى بالكتب العتيقة فحسب، إنّما بالقديمة أيضًا، التي قد تكون الطبعة الأولى من ديوان شعر حديث - ثمّة مَن يبحث عن كلّ مجلّدات «مكتبة سالاني للناشئة». ومنذ ثلاث سنوات، عند إحدى البسطات، عثرتُ على الطبعة الأولى من *يأجوج* لجوزيبّي بابيني، مجلّدةً لكنّها محافِظةً على الغلاف الورقيّ الأصليّ، بسعر عشرين ألف ليرة. صحيحٌ أنّي رأيتُ الطبعة الأولى من *أناشيد أورفيّة* للشاعر كامبانا منذ عشرة أعوام بإحدى القوائم بسعر ثلاثة عشر مليونًا (وهذا يُبيّنُ أنَّ الشاعر المسكين تمكّنَ بالكاد من طباعة نسخٍ قليلة)، لكنَّك تستطيع جمع تشكيلات رائعة من كتب القرن العشرين إذا امتنعتَ من حينٍ لآخر عن تناول العشاء في مطعم بيتزا. وكان أحد طلبتي، بالطواف على البسطات، كان لا يجمع إلّا منشورات الدليل السياحيّ من حقبٍ مختلفة، ظننتُ في البدء أنّها فكرةٌ غريبة الأطوار، لكنَّ هذا الطالب انطلق من تلك المجلّات التي بهتت ألوانها لينجز رسالةَ تخرُّجٍ بديعةً تدرس كيف تتغيَّر النظرة إلى مدينةٍ معيَّنة على مدى الأعوام. ومن جهةٍ أخرى، يستطيع أيُّ شابٍّ ذي موارد متواضعة أن يصادف، في سوق بورتا بورتيزي أو سانت أمبروجو، كتبًا ذات قطع ستّة عشريّ تعود للقرن السادس عشر والسابع عشر، وما يزال سعرها مساويًا لسعر حذاءٍ رياضيّ، وحتّى لو لم تكن كتبًا نادرة، فهي قادرة على أن تتحدَّث عن عصرها.

بالمحصِّلة، يحدث لجامع الكتب ما يحدث لجامع الطوابع. لا شكَّ أنَّ المقتني المخضرم يحوز على تُحفٍ تساوي ثروة؛ لكنّي في طفولتي كنتُ أشتري من بائع القرطاسيّة ظروفًا تحوي عشرة أو عشرين طابعًا مدهشًا،

وكنتُ أقضي الأمسيات والأمسيات وأنا أحلم بمدغشقر أو جزر فيجي، ومثلَّثاتٍ صغيرة متعدِّدة الألوان، لم تكن نادرة بالتأكيد، لكنَّها مدهشة. يا للحنين!

2004

ها هي الزاوية القائمة

ثمّة معتَقدٌ معتَّقٌ يقول إنَّ الأشياء تُعرَف بوساطة تعريفاتها. وهذا صحيحٌ في بعض الحالات، كالصيغ الكيميائيّة مثلًا، فمعرفة المقصود بالـ NaCl تساعد مَن يفقه بالكيمياء على فهم أنَّها صيغةٌ لمركَّب الكلور والصوديوم، وقد يفكِّر -مع أنَّ التعريف لا يقولها صراحةً- بأنَّ مُركَّبَ كلوريد الصوديوم هذا هو الملح. لكنَّ كلَّ ما يتوجَّب علينا معرفته عن الملح (أنَّه يُستَخدم لحفظ الطعام ويضفي عليه نكهة، وأنَّه يرفع الضغط، وأنَّه يُستَخرج من البحر أو الملَّاحات، وأنَّه في الأزمنة القديمة كان أعلى ثمنًا وقيمةً من اليوم)، لا يخبرنا به التعريف الكيميائيّ. فلقد حصلنا على ما نعرفه عن الملح، أو ما يفيدنا منه بالأحرى (بالاستغناء عن تفاصيل أخرى ربّما)، بفضل احتياجنا لا إلى سماع التعريفات، إنّما إلى سماع «الحكايات». وهذه الحكايات، بالنسبة إلى مَن أراد أن يعرف عن الملح كلَّ شيءٍ حقًّا، تصبح بالفعل روايات مغامرة رائعة، مع القوافل التي تسير على امتداد طريق الملح عبْر الصحراء، ما بين إمبراطوريّة مالي والبحر، أو وقائع الأطبّاء الأوَّلين الذين كانوا يعالجون الجروح بالماء والملح... بعبارةٍ أخرى، إنَّ معرفتنا (بما فيها المعرفة العلميّة، لا الأسطوريّة فقط) منسوجةٌ من الحكايات.

إذا أراد الطفل أن يعرف العالم، فأمامه طريقتان: الأولى هي ما تُسمَّى بالتعلُّم بالإظهار، بمعنى أنَّ الصغير يسأل ما الكلب، فتريه أمُّهُ كلبًا (ومن العجب أنَّ الطفل إذا أظهرتَ له كلبًا من سلالة الداشهند يستطيع في اليوم التالي أن يُعرِّف سلوقيًّا على أنَّه كلبٌ أيضًا – لعلَّه يبالغ بالجمع فيضيف إلى قائمة الكلاب أوَّلَ عنزةٍ يراها، ولكن من الصعب أن يطرح كلبًا من قائمة الكلاب).

والطريقة الثانية ليست هي تعريف الكلب كالتالي: «الكلب من الثدييات المشيميّة، من فصيلة الكلبيّات، اللواحم، البرثنيّة الأطراف». (تخيَّلوا ما الذي سيفعله الطفل بهذا التعريف، الصحيح من حيث التصنيفات). إنّما ينبغي للتعريف أن يكون على شكل حكاية بطريقةٍ أو بأخرى: «هل تذكر ذلك اليوم حين دخلنا حديقة الجدّة، وكان هناك حيوانٌ بمواصفاتٍ كذا وكذا...»

وبالفعل، الطفل لا يسأل ما الكلب، وما الشجرة... بل إنَّه في العادة يرى ثمَّ يشرح له أحدٌ مّا اسم هذا الشيء وذاك الحيوان. إلّا أنَّ الأسئلة عن السبب تتوالد تمامًا عند تلك اللحظة. فالمشكلة ليست في أن يدرك أنَّ الزان والسنديان هما شجرتان، إنّما حين يبرز فضوله الحقيقيّ ورغبته في معرفة لماذا هذه الشجرة هناك، من أين أتت، كيف تنمو، بماذا تفيد، لماذا تتساقط أوراقها. وهنا بالضبط تتدخَّل الحكايات. المعرفة تنتشر بوساطة الحكايات: نغرس بذرة، ثمَّ تنبت البذرة إلخ.

حتّى «الشيء» الحقيقيّ الذي يريد الأطفال معرفته دومًا، وهو من أين يأتي الأطفال، لا يمكن أن يقال إلّا على شكل حكاية، سواء أكانت حكاية القنَّبيط أم حكاية اللقلق، أم حكاية الأب الذي يعطي بذرةً صغيرة للأمّ.

وإنَّني ممَّن يعتقدون أنَّ المعرفة العلميّة أيضًا لا بدَّ أن تأخذ شكل الحكاية، وأذكِّرُ طلّابي دومًا بصفحةٍ جميلةٍ كتبها بيرس، حيث لتعريف الليثيوم يُوصِّفُ بعشرين سطرًا تقريبًا ما الذي ينبغي فعله في المختبر للحصول على الليثيوم. أعتبر هذه الصفحة شاعريّةً للغاية، لم أكن قد شهدتُ على تشكُّل الليثيوم من قبل، وحين تسنَّى لي رؤية هذه الحادثة المبهجة ذات يوم، شعرتُ أنَّني في كهف الخيميائيّ – مع أنَّها كيمياءٌ بحت.

إذًا، أوَّل من أمس لفت صديقي فرانكو لوبيبارو، في محاضرةٍ عن أرسطوطاليس، لفت انتباهي إلى أنَّ إقليدس، وهو أبو الهندسة، لا يُعرِّفُ الزاوية القائمة أبدًا على أنَّها زاويةٌ ذات تسعين درجة. وإن فكَّرنا مليًّا وجدنا أنَّ هذا التعريف صحيحٌ بالتأكيد لكنَّه غير مفيد لمن لا يعلم ما الزاوية أو لمن لا يعلم ما الدرجات – وآمل ألّا تُدمِّر الأمَّهات أولادهنَّ بإخبارهم أنَّ الزوايا تكون قائمةً إذا كانت بتسعين درجة.

أمّا إقليدس، فكان يُعبِّر عن فكرته هكذا: «عندما يقوم مستقيمٌ على مستقيمٍ آخر، تنشأ زاويتان متجاورتان ومتطابقتان، وكلُّ واحدةٍ من هاتين الزاويتين المتطابقتين قائمةٌ، والمستقيم الذي قام على المستقيم الآخر يُسمَّى عمودًا».

أفهمتم؟ هل تريدون معرفة ما الزاوية القائمة؟ سأقول لكم كيف تصنعونها، أو بالأحرى سأروي عليكم حكاية الخطوات اللازمة لصنعها. وبعدئذٍ ستفهمون. وبالمناسبة، بإمكانكم تعلُّم حكاية الدرجات فيما بعد، وبكلّ الأحوال لن تتعلَّموها إلّا بعد أن تصنعوا ذلك اللقاء المذهل بين المستقيمين.

يبدو لي هذا تثقيفيًّا للغاية وشاعريًّا للغاية، ويُقرِّبُ كثيرًا بين أكوان الخيال، حيث ينبغي تخيُّلُ عوالِمَ لابتكار حكاية، وبين أكوان الواقع، حيث ينبغي ابتكار حكايات ليتسنَّى لنا فهم العالَم.

(لماذا رويتُ عليكم هذا كلَّه؟ لأنَّني منذ *المغلَّف* الأوَّل عام 1985 أحطتُكم علمًا بأنِّي سأتحدَّث عن كلّ ما يدور في رأسي، وهذا ما دار في رأسي اليوم).

2005

رحلةٌ إلى مركز جول فيرن

عندما كنّا صغارًا، كنّا منقسمين حزبين: الذين يُفضِّلون سالغاري، والذين يُفضِّلون فيرن. وأعترف فورًا بأنَّني في تلك الحقبة كنتُ أفضِّل سالغاري، والآن يجبرني التاريخ على إعادة النظر في آرائي السابقة. إذ إنَّ سالغاري، بعد أن قُرِئ مرارًا، وحُفِظَت عباراته عن ظهر قلب، وبات محبوبًا لدى جميع مَن عاشوه في طفولتهم، لم يعد يغري الأجيال الجديدة (على ما يبدو). والحقُّ يقال، لم يعد يغري حتّى الشيوخ عندما يعيدون قراءته، لالتماس الحنين أو الفكاهة، وإلّا تغدو القراءة شاقّة، ويبعث أيكُ المنغروف وخنزيرُ البربيروسة على الملل.

بالمقابل، يُحتفى في هذا العام، 2005، بالذكرى المئويّة على رحيل جول

فيرن، وهنالك الكثير من الصحف اليوميّة، والأسبوعيّة، والندوات، ليس في فرنسا وحدَها، تحاول إعادة النظر فيه لتبيين كم مرّةً استبقت خيالاتُهُ الواقعَ. ألقيتُ نظرةً على قوائم النشر في بلدنا فتبيَّنتُ أنَّ روايات فيرن أُعيِدَت طباعتها بنسبةٍ كبيرة مقارنةً بروايات سالغاري، دع عنك بلده فرنسا حيث توجد متاجر أنتيكا فيرنيّة أيضًا، ولا شكَّ أنَّ هذا عائدٌ لروعة الأغلفة الكرتونيّة لطبعة دار هيتزل (وفي باريس، على الضفّة اليسرى وحدَها، متجران على الأقلّ مخصَّصان حصرًا لبيع هذه الكتب الباهرة والمجلَّدة بالأحمر والذهبيّ، وبأسعارٍ فلكيّة).

وعلى الرغم من الاستحقاقات التي يجب الاعتراف بها لصاحبنا سالغاري، مبتكر شخصيّة ساندوخان، فإنَّه لم يكن يتمتَّع بحسّ فكاهةٍ عالٍ (وينطبق هذا على شخصيّاته أيضًا، ما عدا يانيس)، في حين أنَّ روايات فيرن زاخرة بالفكاهة، ويكفي أن نذكر تلك الصفحات البديعة من روايته *ميشيل ستروغوف* حيث، بعد معركة كوليفان، يشغل هاري بلونت مراسل الديلي تلغراف مكتب البرْقيات لإملاء آياتٍ من الكتاب المقدَّس، ليمنع منافسه ألسد يوليفيه من إرسال خبره إلى باريس؛ ثمَّ يتمكَّن يوليفيه من دخول المكتب خلسةً لإرسال أغنياتٍ من تأليف بيير جان دو بيرانجيه. يقول النصّ: « -هكذا إذًا!- هتف هاري بلونت. -نعم، هكذا!- يردّ ألسد يوليفيه». قولوا لي إنَّ هذا ليس أسلوبًا مُتفرِّدًا!

سببٌ آخر للإعجاب بفيرن: كثيرٌ من القصص الاستباقيّة، حين تُقرَأ بعد زمنٍ طويل، بعد تحقُّقِ ما كانت تتنبَّأ به بشكلٍ أو بآخر، تُشعِرُ قارئها بالخيبة، لأنَّ الأشياء التي تحقَّقت فعلًا، والابتكارات التي صُنِعَت فعلًا، هي أكثر إبهارًا ممّا تخيَّله الروائيُّ في عهده. لكنَّ فيرن يبقى استثناءً: لا وجود لغوّاصةٍ ذرّيّةٍ أكثر إبهارًا من غوَّاصة ناوتيلوس من الناحية التكنولوجيّة، ولا وجود لأيّ سفينةٍ هوائيّة أو طائرة جامبو جت أعجَبُ من سفينة الدفع المروحيّ لقبطانها روبور الفاتح.

ثالث عوامل الجذب (والفضل فيه يعود للمؤلِّف والناشر على حدٍّ سواء) هو الرسومات التي ترافق الروايات. نحن الأوفياء لسالغاري، سنذكر بعاطفةٍ عارمةٍ دومًا اللوحات المدهشة التي وضعها ديلّا فالّه، وغامبا، وأماتو، لكنَّها

مجرَّد رسومات، كأنَّها لوحات هايز أو رافايلّو (سأقضي على نفسي بهذا التشبيه) إذا صُوِّرَت بالأبيض والأسود. إنّما الرسومات في روايات فيرن فعبارةٌ عن نقوشات أشدَّ غموضًا وإغواءً - تأتيك رغبةٌ في تفحُّصها بالعدسة المكبِّرة.

القبطان نيمو يشاهد الأخطبوط المهول من الكوَّة الضخمة في الغوَّاصة ناوتيلوس؛ سفينة روبور الطائرة ذات السواري التكنولوجيّة الحادّة؛ المنطاد الذي يتهاوى على «الجزيرة الغامضة» (هل نحن نرتفع؟ -لا، على العكس، إنَّنا نهبط!- بل أسوأ من ذلك، يا سيّد شيرو، إنَّنا نتدهور!)؛ الصاروخ العملاق المتّجه صوب القمر؛ الكهوف في باطن الأرض، صورٌ تنتفض من ظلماتٍ سحيقة، تشوبها ملامح مسوّدة ومحتدّة تتخلَّلها جروحٌ مبيّضة، كونٌ ليس في أنحائه إشباعٌ لونيٌّ متجانسٌ وخالص، رؤىً قوامها الخدوشُ والأثلامُ وانعكاساتٌ تعشي الأبصار لخلوِّها من الآثار، عالَمٌ موصوفٌ من وجهة نظر حيوانٍ يرى بشبكيّةٍ خاصّةٍ به، وربّما كذلك تراه الأبقارُ والكلابُ والسحالي، عالَمٌ ليليٌّ يتجسَّسون عليه من بين شفرات الشبابيك الملساء، بقعةٌ أقلُّ ليليّةً تكاد تكون تحتمائيّة حتّى لو كان موضعها في السماء، مكوَّنةٌ من نقوشاتٍ وسحوجٍ لا تولِّدُ الضوء إلّا هناك حيث أمعن المنقاش بالسطح مبرزًا أدقَّ تفاصيله.

وماذا لو كان المال ينقصكم لشراء نسخ من طبعة هيتزيل من أحد متاجر الأنتيكا، أو أنَّ الطبعات المعاصرة لا ترضيكم؟ ابحثوا على الإنترنت عن موقع (*http://jv.gilead.org.il/*). ثمّة سيّدٌ يُدعى زفي هار إيل يجمع كلَّ المعلومات عن فيرن، ويُعِدُّ قائمةً بالاحتفاليّات العالميّة الجارية، وفهرس مصادر مكتمل، وأنطولوجيا دراسات، وثلاثمئة وأربع صور مذهلة من الطوابع المكرَّسة لفيرن في عدّة بلدان، والترجمات العبريّة (السيّد زفي إسرائيليٌّ بالتأكيد، ويعمل على الموقع لذكرى ابنه الذي رحل في عامه التاسع عشر)، علاوة على مكتبة افتراضيّة فيها نصوص فيرن الكاملة بعدّة لغات، وكل النقوشات بالنسبة إلى الطبعات الفرنسيّة الأصليّة على الأقلّ، وبإمكانكم تنزيلها ثمَّ تكبيرها حسب الطلب (لأنَّ بعضها غبشة) حيث تزداد إبهارًا.

2005

الفضاء على شكل فتّاحة قناني

قد يرى أحدهم أنّه من المعيب أن أقدِّمَ مراجعةً لكتابٍ كنتُ قد كتبتُ مقدِّمته. ولكن، بينما نتوقّع أن تكون المراجعة موضوعيّةً وغير خاضعة لاهتمامات شخصيّة، فإنَّ هذه *المغلّفات* هي بتعريفها تعبيرٌ عن اهتماماتٍ واستطلاعاتٍ وتفضيلاتٍ شخصيّة. وإن كنتُ قد كتبتُ مقدِّمةً لكتابٍ مّا فذلك لأنَّه أعجبني، لذا أتحدَّث عنه. نحن بصدد «*الأمر بسيط، يا فيتغنشتاين!*» لريناتو جوفانّولي. وعلى الرغم من إيحاء العنوان بالمشاكَسَة[1]، فإنَّ الكتاب جادٌّ وصعب (إصدار ميدوزا، 2007).

ريناتو جوفانّولي هو أيضًا مؤلِّفٌ لواحدٍ من أكثر الكتب «العلميّة» إمتاعًا، *علم الخيال العلميّ* (بومبياني، 2001)، وهو عبارةٌ عن استعراضٍ ممنهج للأفكار الأساسيّة العلميّة «من منظورٍ تخييليّ» المتوافرة في جميع روايات الخيال العلميّ الأساسيّة (قوانين الروبوتيّة، طبيعة الفضائيّين والمسوخ، والما فوق فضائيّة والبعد الرابع، والرحلات في الزمن والمفارقات الزمنيّة، والأكوان الموازية وهلمَّ جرًّا). تُبيِّنُ هذه الأفكار ترابطًا لا ريب فيه، كما لو أنَّها تُكوِّنُ نظامًا، معادلًا للنظام العلميّ من حيث التجانس والتابعيّة. الأمر الذي ليس مخالفًا للحقيقة، لأنَّ كُتَّاب الخيال العلميّ يقرأ بعضهم بعضًا، هذا أوَّلًا، ثمَّ هنالك موضوعاتٌ معيَّنة تهاجر من قصّة إلى قصّة، ولقد نشأت جملةٌ من الأصول موازيةٌ للقواعد المتَّبعة بالعلوم الرسميّة؛ ناهيك بأنَّ الروائيّين لا يُطوِّرون خيالهم بما يناقض حلول العلم، إنّما من العلم يستقون النتائج القصوى؛ وأخيرًا لأنَّ بعض الأفكار التي اقترحها الخيال العلميّ (من فيرن فصاعدًا) صارت حقائق علميّة فيما بعد.

يُطبِّق جوفانّولي في هذا الكتاب المعيار نفسه على أرخبيل الأدب البوليسيّ، ويستنتج أنَّ منهج المحقِّقين في الأدب السرديّ مماثلٌ لمنهج الفلاسفة والعلماء. الفكرة بحدّ ذاتها ليست جديدة، لكنَّ الجديد يكمن

1- يوحي العنوان بالمشاكسة لأنَّه يجمع اسم الفيلسوف فيتغنشتاين بالعبارة الشهيرة التي ترِدُ مرارًا على لسان شارلوك هولمز متحدِّثًا إلى زميله واطسون. أمّا ما الذي يجمع بين الفلسفة والرواية البوليسيّة، فهذا ما يسعى المقال إلى توضيحه. (المترجم).

في السعة والدقّة اللتين تُعالَجُ بهما هذه الفكرة، حتّى إنَّنا قد نتساءل -مثلما يفعل الكاتب نفسه في الحقيقة- عمّا إذا كان هذا الكتاب يُمثِّل فلسفةً للسرد البوليسيّ أم منهجًا فلسفيًّا يستند إلى نماذج فكريّة مستمدّة من السرد البوليسيّ. ولأنَّني لا أعرف إن كان حريًّا أن أنصح بقراءته مَن يريد أن يفهم الرواية البوليسيّة أم مَن يريد أن يفهم الفلسفة، فها أنا أنصح به كليهما.

يتَّضح هكذا أنَّه ليس بعض كُتَّاب الأدب البوليسيّ قد كانوا على اطّلاعٍ على الإشكاليّات الفلسفيّة والعلميّة فحسب (راجِعْ على سبيل المثال صفحاتٍ عن العلاقات بين داشيل هاميت ونظريّة النسبيّة والطوبولوجيا) بل إنَّ بعض المفكِّرين أيضًا ما كان لهم أن يفكِّروا بما فكَّروا به (أغلب الظنّ) لو أنَّهم لم يقرؤوا رواياتٍ بوليسيّة - وبإمكانكم أن تروا أيَّ مقصدٍ قد استوحاه فيتغنشتاين في مرحلته الفكريّة الثانية من قراءته لأدب الجريمة/ *hard boiled novels*.

لا أعرف ما إذا كانت الفلسفة تأتي قبل البوليسيّة، لأنَّ *أوديب الملك* في نهاية المطاف هي قصّة تحقيقٍ في جريمة، غير أنَّه من المؤكَّد أنَّ الحكاية البوليسيّة، ابتداءً من الرواية القوطيّة ومن آلان بو، قد أثَّرت في المفكِّرين الأكاديميّين أكثر ممّا نتصوَّر. يُبيِّنُ لنا جوفانّولي بمعادلاتٍ حسابيّة ومخطَّطاتٍ بيانيّة وألاعيب أخرى أنَّ العبور من الأدب البوليسيّ الذي يسرد التحريّات الجنائيّة إلى الأدب البوليسيّ الذي يعتمد الإثارة الحركيّة، مماثلٌ للعبور من فيتغنشتاين الذي كتب *الرسالة المنطقيّة الفلسفيّة* إلى الذي كتب *تحقيقات فلسفيّة*: هو الانتقال من نموذجٍ فكريٍّ قوامُهُ الاستنتاج (الذي يتوقَّع عالمًا مرتَّبًا، وسلسلة وجودٍ عظمى، قابلة للتفسير بما يتَّصلُ بالعلاقات الملزمة تقريبًا بين الأسباب والنتائج، ومرتكزة على نوعٍ من التناغم المعدِّ سلفًا بحيث إنَّ تنظيم الأفكار وترابطها في ذهن المحقِّق يعكس التنظيم والترابط القائم في الواقع) إلى نموذجٍ فكريٍّ «براغماتيّ» لا يعود فيه المحقِّق إلى نبش الأسباب بقدر ما يثير النتائج.

من المؤكَّد أنَّ رواية التحرّي الجنائيّ هي أنموذجٌ مصغَّرٌ عن البحث الميتافيزيقيّ، نظرًا إلى أنَّ كليهما ينحلُّ في السؤال «مَن فعل هذا؟» - وهذا السؤال هو النسخة الفلسفيّة من الـ*whodunit*. كان تشيسترتون قد عرَّفَ

الحكاية البوليسيّة بأنّها رمز الألغاز العليا، وقد قال دولوز إنَّ الكتاب الفلسفيّ لا بدَّ أن يكون نوعًا من البوليسيّة. وما الطرق الخمس لإثبات وجود الربّ عند توما الإكويني إن لم تكن نموذجًا عن التحقيق، من خلال تقفّي الأثر الذي خلَّفَه أحدهم؟ إلّا أنَّ هنالك فلسفةً مطبَّقةً في أدب الجريمة. راجِعْ رهان باسكال: «هيّا، فلنخلط الأوراق، لنرى بعدئذٍ ما الذي سيحدث». أمورٌ تليق بمحقِّقين من قبيل سام سبيد ومارلو.

كان بودّي أن أستفيض في عرض المقاطع التي يُنَاقَشُ فيها حول الصلات المحتملة بين أغاثا كريستي وهايدغر. ولا شكَّ أنَّ جوفانّولي لا يفترض أنَّ رواية *ثمّ لم يبق منهم أحد* (1939) أثّرت في *الكينونة والزمان* (1927)، حتّى لو أنَّ اهتمامه السابق بالمفارقات الزمنيّة كان سيدفعه إلى شيءٍ كهذا؛ ولكن ممّا لا شكَّ فيه أنَّ العثور لدى هذه السيّدة البريطانيّة على فكرة «الكينونة من أجل الموت»، مستمدَّةً من مصادر قروسطيّة، تبدو لي ضربة معلِّم. توصيةٌ أخيرة: اذهبوا لقراءة الصفحات التي تتناول هاميت والفضاء على شكل فتّاحة قناني.

2007

عن كتابٍ لم نقرأه

أذكر (ولكن، كما سيتبيَّنُ لاحقًا، ليس بالضرورة أنّني أذكر جيِّدًا) مقالًا في غاية الروعة لجورجو مانغانيلّي، يشرح فيه كيف بوسع قارئٍ لبيبٍ أن يعرف ما إذا كان يجدر به قراءة كتابٍ مّا أم لا حتّى قبل أن يفتحه. لم يكن يتحدَّث عن تلك المزيّة المطلوبة غالبًا من القارئ المحترف (أو القارئ المتذوِّق)، التي تعينه على الاكتفاء بمطلع الكتاب، أو صفحةٍ يفتحها عشوائيًّا، أو الفهرس، أو قائمة المصادر، لكي يُقرِّر أنَّ الكتاب يستحقُّ عناء القراءة. فهذا، برأيي، وليد الخبرة لا أكثر. كلّا، كان مانغانيلّي يتحدَّث عن نوعٍ من البصيرة المُلهَمة، التي كان يدَّعي بطبيعة الحال أو لغرابة الحال أنَّه وُهِبَ إيّاها.

في كتاب *كيف تتحدَّث عن كتابٍ لم تقرأه قطّ* (إكسلسيور 1881، الصادر عام 2007) لا يتناول بيير بايار -وهو المحلِّل النفسيّ والأستاذ

الجامعيّ في الأدب- كيف علينا أن نعرف عدم وجوب قراءة كتابٍ مّا، إنّما كيف نتحدَّث بأريحيّةٍ عن كتابٍ لم نقرأه، حتّى إذا كان الحديث قائمًا بين بروفسورٍ وطالب، وحتّى إذا كان الكتابُ المعنيُّ ذا أهمّيّةٍ فائقة. حساباته علميّة: تضمُّ المكتبات المرموقة عدّة ملايين من المجلَّدات، فإذا كان لنا أن نقرأ منها واحدًا باليوم، فلن نقرأ منها سوى 365 كتابًا بالسنة، و3650 كتابًا بعشر سنوات، ولن نقرأ ما يزيد على 25.200 كتاب ما بين العاشرة والثمانين من عمرنا. رقمٌ تافه. من جهةٍ أخرى، فإنَّ كلَّ مَن حظي بتعليمٍ ثانويٍّ جيّد في إيطاليا يعرف حقَّ المعرفة أنَّه قادرٌ على الإصغاء إلى حديثٍ يدور -فلنفترض- حول ماتّيو بانديلّو، أو فرانشسكو غويتشارديني، أو ماتّيو ماريّا بوياردو، وحول عددٍ هائل من تراجيديّات فيتّوريو ألفييري، بل حتّى حول رواية *اعترافات إيطاليّ* لإيبّوليتو نييڤو، التي لم يدرس في المدرسة سوى عنوانها ومنزلتها النقديّة، لكنَّه لم يقرأ منها سطرًا واحدًا.

إنَّما المنزلة النقديّة هي النقطة المفصليّة بالنسبة إلى بايار. يُصرِّح بايار بلا خجلٍ أنَّه لم يقرأ *يوليسيس* لجيمس جويس مطلقًا، غير أنَّه قادرٌ على الحديث عنها مشيرًا إلى أنَّها استعادةٌ للأوديسة (التي يقرُّ بالمناسبة أنَّه لم يقرأها كاملةً)، وأنَّها ترتكز على المونولوج الداخليّ، وأنَّها تدور في دبلن، خلال يومٍ واحد إلخ. ويقول: «يحدث مرارًا إذًا، أثناء دروسي، أن أحيل على جويس، دون أن يرفَّ لي رمش». إذ إنَّ معرفة الصلة التي تربط كتابًا مّا بكتبٍ أخرى غالبًا ما تعني أنَّنا نعرف عن الكتاب أكثر ممّا سنعرفه لو أنَّنا قرأناه.

يُظهِر بايار كيف أنَّنا عندما نُلزِم أنفسنا بقراءة كتبٍ أجَّلنا قراءتها مدّةً طويلة، نلاحظ أنَّنا نعرف كثيرًا عن محتواها، لأنَّنا في أثناء تلك المدّة قرأنا كتبًا أخرى تتحدَّث عنها، أو تشير إليها، أو تتحرَّك في منظومتها الفكريّة نفسها. وهكذا (مثلما أنَّه يُقدِّم بعض التحليلات الممتعة عن نصوصٍ أدبيّةٍ مختلفةٍ تتحدَّث عن كتبٍ لم تُقرَأ، من روبرت موزيل إلى غراهام غرين، ومن بول فاليري إلى أناتول فرانس ودافيد لودج) يُشرِّفني بايار بتكريس فصلٍ كاملٍ لروايتي *اسم الوردة*، حيث يُثبِتُ غوليالمو دا باسكرفيل إلمامه الشامل بمحتوى الكتاب الثاني من *فنّ الشعر* لأرسطوطاليس، مع أنَّه كان يمسكه بيديه للمرَّة الأولى، وذلك لأنَّه ببساطة أقام استنتاجاته عن الكتاب معتمدًا

على قراءاته لأعمالٍ أخرى لأرسطوطاليس. وسترون في نهاية هذا *المغلَّف* أنَّني لا أذكر هذه الفقرة بداعي المباهاة.

الجانب اللافت في هذا الكتاب الساحر، والأقلُّ تناقضًا ممّا يبدو، هو أنَّنا ننسى نسبةً كبيرةً من الكتب التي قرأناها فعلًا، لا بل إنَّنا نؤلِّف عنها ما يشبه صورةً افتراضيّة، لا تتكوَّن ممّا تقوله هذه الكتب حقًّا بقدر تكوُّنها ممّا شكَّلتْه هذه الكتب في أذهاننا. لذا فإنْ أقدَمَ أحدهم، وهو لم يقرأ كتابًا محدَّدًا، على ذكر مقاطع أو مواقف غير موجودة فيه، فسنكون مستعدِّين جدًّا لتصديق أنَّ الكتاب يحتوي عليها.

وهنا يبرز المحلِّل النفسيّ في بايار أكثر من أستاذ الأدب، إذ يعرب عن عدم اهتمامه بأن تقرأ الناس كتب الآخرين، بقدر اهتمامه بفكرة أنَّ لكلِّ قراءة (أو لاقراءة، أو قراءة منقوصة) مظهرًا ابتكاريًّا، وأنَّ على القارئ (بعبارةٍ مبسَّطة) أن يضع بالأحرى من عنده في الكتاب. لدرجة أنَّ بايار يطمح إلى مدرسةٍ «يبتكر» فيها التلاميذُ الكتبَ التي لا ينبغي لهم قراءتها، طالما أنَّ الحديثَ عن كتبٍ لم يقرؤوها وسيلةٌ للتعرُّف على ذواتهم.

يُبيِّنُ بايار كيف إذا أورَدَ أحدهم إشاراتٍ مغلوطةً في معرض حديثه عن كتابٍ لم يقرأه، فإنَّ حتّى الذين قرأوا الكتاب لا يفطنون إلى تلك الإشارات؛ سوى أنَّه يعترف في نهاية الكتاب أنَّه أدرَجَ معلوماتٍ مُضلِّلة في ملخَّص كلٍّ من *اسم الوردة*، *الرجل الثالث* لغرين، *تغيير الأماكن* للودج. المضحك في الأمر هو أنَّني سرعان ما فطنتُ إلى الخطأ المدسوس في رواية غرين، وأنَّ الشكَّ خامرني بما يخصُّ لودج، لكنَّني لم أفطن إلى الخطأ المتعلِّق بروايتي. ما يعني من الوارد أنَّني أسأتُ قراءة كتاب بايار أو أنَّني (أخوِّلُهُ هو وقرّائي باعتقاد ذلك) تصفَّحتُه بالكاد. لكنَّ الأمر الأهمّ هو أنَّ بايار لم ينتبه أنَّه باعترافه بأخطائه الثلاثة (المتعمَّدة) يؤكِّد ضمنيًا بأنَّ للكتب قراءةً أصحّ من سواها – حتّى إنَّه، بالتحليل الذي يجريه على تلك الكتب لدعم فرضيّته عن اللاقراءة، يُقدِّمُ عنها قراءةً دقيقةً جدًّا. وإنَّ هذا التناقضَ جليٌّ بما يثير الشكوك فيما إذا كان بايار قد قرأ الكتاب الذي ألَّفه.

2007

عن زوال الوسائط

الأحد الماضي، في اليوم الختاميّ لمدرسة باعة الكتب المكرّسة لأمبرتو وإليزابيتّا ماوري، في فينيسيا، نوقِشَت أمورٌ عديدةٌ من بينها زوال وسائط تخزين المعلومات. كانت وسائط تخزين المعلومات في الماضي هي حجر رشيد، اللوح الطينيّ، البردية، الرقّ، والكتاب المطبوع بالتأكيد. أظهر الكتاب المطبوع حتّى الآن مقدرته على الصمود بشكلٍ ممتاز طيلة خمسمئة عام، لكنَّ هذا لا يصحُّ إلّا على الكتب المصنوعة من ورق الخِرَق. فمنذ منتصف القرن التاسع عشر اعتُمِدَ ورق الخشب، ويبدو أنَّ هذا الورق يدوم سبعين عامًا في أقصى تقدير (ويكفي بالفعل أن نمسك بيدنا جرائد أو كتبًا ممّا بعد الحرب لنرى كيف أنَّ غالبيَّتها تتفتَّت حالما نتصفَّحها). لذا تنعقد مؤتمراتٌ منذ زمن، وتُدرَسُ سبلٌ من شتّى الأنواع بغية حفظ كلّ الكتب التي تغصُّ بها مكتباتنا، وأكثر هذه السبل شعبيَّةً (ولكن يكاد تحقيقه يكون مستحيلًا لكلّ الكتب الموجودة) هو رقمنة كلّ الصفحات ونقلها إلى وسائط إلكترونيّة.

إلّا أنَّنا هنا نواجه مشكلةً أخرى: جميع وسائط نقل المعلومات وتخزينها، من الصورة إلى الشريط السينمائيّ، ومن القرص إلى الفلاش ميموري التي نستخدمها في حاسوبنا، هي أكثر عرضةً للتلف من الكتاب. ونحن نعلم ذلك عن بعضٍ منها: كان الشريط في الكاسيت القديم ينبرم على نفسه بعد حين، وكنّا نحاول فكّه بإدخال قلم الرصاص في الثقب وتدويره، لكنَّ النتائج غالبًا ما جاءت مُخيِّبة؛ وكان شريط الفيديو يفقد الألوان والدقّة بسهولة، وإذا استُخدِمَ مرارًا بهدف التمعُّن، بإعادته إلى الخلف وتقديمه إلى الأمام، كان يتلف باكرًا جدًّا. وكان لدينا ما يكفي من الوقت لنرى كم بوسع الأسطوانة الفونوغرافيّة أن تدوم قبل أن تتخدَّش كلّيًا؛ لكنْ لم يتسنَّ لنا وقتٌ طويلٌ لنتحقَّقَ كم يدوم القرص المضغوط، فما لبثنا أن احتفينا به بصفته ابتكارًا من شأنه أن يحلَّ محلَّ الكتاب، سرعان ما خرج من الأسواق لأنَّنا بتنا قادرين على الوصول إلى المحتويات نفسها عن طريق الإنترنت وبتكاليف معقولة نسبيًّا. لا نعلم كم سيدوم الفيلم المحمَّل على الـDVD، وكلُّ ما نعرفه أنَّه

يصاب باللوثة أحيانًا عندما نُشغِّله مرَّاتٍ كثيرة. هذا ولم يسعفنا الوقت لنرى كم تدوم الأقراص المرنة المستعملة بالكمبيوتر: فقبل أن نكتشف ذلك استُبدِلَت بالأقراص الصلبة، واستُبدِلَت الأخيرةُ بالأقراص المدمجة القابلة لإعادة تخزين البيانات، وتلك أيضًا بالفلاش ميموري. وبالتزامن مع اختفاء الوسائط المختلفة، اختفت كذلك الحواسيب القادرة على قراءتها (أعتقد أنّه لم يعد لدى أحدٍ في بيته حاسوبٌ مزوَّدٌ بفتحة لإدخال فلوبي ديسك)، وإن كنتَ ممَّن لم يسارعوا إلى نقل كلٍّ ما خزَّنتَه على الوسيط السابق إلى الوسيط اللاحق (وهكذا دواليك، ومن المفترض أن يتكرَّرَ الأمر إلى الأبد، كلَّ عامين أو ثلاثة)، فلقد ضاع منك بلا رجعة (إلّا إذا كنتَ تحتفظ في القبو بعشرات الحواسيب التي عفا عليها الزمن، بمعدَّل حاسوبٍ لكلٍّ وسيطٍ منقرض).

إذًا فكلُّ الوسائط الميكانيكيّة والكهربائيّة والإلكترونيّة، إمّا أنَّنا نعرف عنها أنَّها سريعة العطل، وإمّا أنَّنا لا نعرف بعدُ كم تدوم ومن الوارد أنَّنا لن نعرف ذلك أبدًا.

وفي واقع الحال يكفي قطعٌ في التيّار، أو صاعقةٌ في الحديقة، أو أيُّ حادثٍ آخر أتفَهَ سببًا لتزول المغنطة عن الذاكرة. ولو أنَّ هناك انقطاعًا مستمرًّا للكهرباء، لن يكون باستطاعتي استخدام أيّ ذاكرةٍ إلكترونيّة. وحتّى لو سجَّلتُ على ذاكرتي الإلكترونيّة كلَّ كتاب الدون كيخوته، لن يكون باستطاعتي قراءته على ضوء شمعة، على المضجع، بالقارب، في حوض الحمَّام، على الأرجوحة؛ في حين أنَّ الكتاب يتيح لي قراءته حتّى في أشدّ الوضعيّات حرجًا. وإذا سقط منّي الحاسوب أو الكتاب الإلكترونيّ من الطابق الخامس، فأنا بمنطق الرياضيّات واثقٌ من أنَّني خسرتُ كلَّ شيء، بينما إذا سقط الكتاب الورقيُّ فإنَّ أربطته تتفكَّك في أسوأ الأحوال.

تبدو الوسائط الحديثة أنَّها تتطلَّع نحو تعميم المعلومة أكثر من حفظها. أمّا الكتاب فكان أداةً أساسيَّةً لتعميم المعلومات (لاحِظِ الدور الذي أدَّاه الكتاب المقدَّس المطبوع في الإصلاح البروتستانتيّ) ولحفظها في الآن ذاته أيضًا. فمن الممكن أن تكون الطريقةُ الوحيدةُ للحصول على أنباء الماضي بعد عدَّة قرون، آنذاك وقد أزيلت المغنطة عن جميع الوسائط الإلكترونيّة، هي اللجوءَ إلى كتاب عتيقٍ بديع. ومن بين الكتب الحديثة ستصمد تلك

المصنوعة من ورقٍ فاخر، أو تلك التي ينادي كثيرٌ من الناشرين اليوم لصناعتها من الورق الخالي من الأحماض.

لستُ متيَّمًا بالقديم. فلقد سجَّلتُ على قرصٍ صلبٍ محمول بسعة مئتين وخمسين جيغا أعظمَ روائع الأدب العالميّ وتاريخ الفلسفة: العثور فيه على اقتباسٍ من دانتي أو من *الخلاصة اللاهوتيّة* أسهل بكثير من صعود رفوفٍ عالية للإتيان بمجلَّدٍ ثقيل. لكنّي سعيدٌ بأنَّ هذه الكتب باقيةٌ على رفوفي، فهي الضامن لحفظ الذاكرة في حال تعطَّلت الآلات الإلكترونيّة.

2009

المستقبليّة لم تكن كارثة

في الذكرى المئويّة لبيان المستقبليّة، فتحت كثيرٌ من المعارض أبوابها لاستذكار هذه الحركة وإعادة تقييمها، واحتدمت الجدالات حول الطريقة التي اعتبر بها معرضُ باريس المستقبليّين على أنّهم مُقلِّدون للتكعيبيّة، في حين حاولت مختلف المعارض الإيطاليّة أن تُشدِّد على أصالتهم وفرادتهم. ومن بين كلّ المعارض يبدو لي أنَّ المعرض الذي نظَّمه القصر الملكيّ بميلانو هو الأكثر تميُّزًا، وذلك لأسبابٍ عديدة. لم أعد أذكر الصحيفة التي كتبت عنه مشتكيةً من خلوِّهِ من أعظم الأعمال المؤسِّسة للحركة، من قبيل لوحة *ديناميّة لاعب كرة قدم* لأمبرتو بوتشوني، أو *جنّاز غالّي الأناركيّ* لكارلو كارّا. لكنَّ هذا الأمر لا ينبغي أن يزعج أحدًا، لا لأنَّ تلك الأعمال عُرِضَت مرارًا، بل لأنَّ المعرض يُبرِزُ شيئًا أفضل وأغزر. فعوضًا عن عرضه أعمالًا كبيرة محدَّدة، يُسلِّط المعرضُ الضوءَ على ما كان قبل الحركة المستقبليّة وما الذي كان متواكبًا معها، خصوصًا في ميلانو التي تطوَّرت فيها المستقبليّة قبل انتقالها إلى فرنسا. يُبيِّنُ المعرض ما جاء بعد المستقبليّة أيضًا، وصولًا إلى بعض الفنّانين المعاصرين المهمّين، ولكن إذا كان من الواضح أنَّ الموروث الفنّيّ يترك أثرًا على الدوام، فإنَّ ما حدث قبل العام 1909 المشؤوم هو أقلُّ وضوحًا.

وفي واقع الحال لقد تعوَّدنا التفكير بأنَّ قبل المستقبليّين كان هناك

الواقعيّون المتأثّرون بفرانشسكو باولو ميكيتّي الذي أُعجِبَ به غابريلي دانّونتسيو، ورسّامو البورتريه من أمثال جوفانّي بولديني، والرمزيّون أو التقسيميّون مثل غايتانو بريفياتي، كلُّهم يفتنون البرجوازيّين الطيِّبين الذين يتردَّدون إلى المتاحف والمعارض؛ وإذ، تقع هزَّةٌ مباغتة، أحد تلك المنعطفات الخاطفة التي تُغيِّر التاريخَ، كالثورات، أو الطبيعةَ، كالكوارث، لتظهر حينها الطلائع التاريخيّة، والتي من بينها في إيطاليا الحركةُ المستقبليّة.

كثرٌ يعرفون النظريّة الرياضيّاتيّة للكوارث التي صاغها رينيه توم: الكارثة، بمعناها هذا، هي مثل «طيَّة» حادّة لا يوجد قبلها شيء ويوجد بعدها كلُّ شيء، أو العكس. وبناء على هذا المعنى، يُصنَّفُ في خانة الكوارث كلٌّ من النوم أو الموت (إنَّ سيّد لاباليس قبل أن يموتَ بلحظات كان على قيد الحياة)، وكثيرٌ من الأحداث التاريخيّة بحسب بعض التفسيرات، كالانتفاضات، أو التمرُّدات داخل السجون (وحتّى الشفاء الغامض الأسباب قد يُعتَبر كارثة). والحال أنَّ معرض ميلانو يجعلنا نتلمَّسُ بأيدينا أنَّ المستقبليّة لم تكن كارثة. تكفي مشاهدة الأعمال المعروضة لنلاحظ كيف أنّه (دع عنك الأجسام المسالة لنحّاتٍ من أواخر القرن التاسع عشر مثل ميداردو روسّو) في الأعوام الأولى من القرن العشرين، وقبل ظهور الروائع العظمى للمستقبليّة، تمامًا عندما كان كارلو كارّا أو جاكومو بالّا أو أمبرتو بوتشوني ما زالوا يرسمون لوحاتهم التصويريّة (التي تعرَّفَ فيها النقّادُ منذ زمنٍ على بذور المستقبليّة القادمة)، ترسَّخت أصول ديناميكيّة المستقبليّة حيث من غير المتوقَّع العثور عليها أو حيث لم يبحث عنها أحد. في العام 1904 يرسم بيليتسا دا فولبيدو لوحة *سيّارة على طريق* بينيتشه حيث لا نرى السيّارة تقريبًا إنّما طريقٌ يجري على ضربات فرشاة سريعة ومُحزَّزة. وفي العام 1907 يرسم غايتانو بريفياتي لوحة *عربة الشمس* حيث يضمُّ إلى رمزيّته البائدة تصويرًا ملموسًا لحركة هذا النجم السريعة والمتشنِّجة. وهذه مجرَّد أمثلةٍ بسيطة، ولكنَّ الأمر يبدو كما لو أنَّ أواخر الرمزيّين كألبرتو مارتيني يُنذِرون بقدوم المستقبليّين، وأنَّ المستقبليّين اللاحقين ما زالت أعينهم ترنو إلى التقسيميّين والرمزيّين. دع عنك أنجلو روماني الذي ينجز بين العامين 1904 و1907 بورتريهات وأشكالًا يصعب توصيفها، تُسمَّى *الصرخة والشبق*، التي لا يسعني وصفها

إلّا بأنَّها رمزيـ-مستقبليـ-تعبيريـ-تجريديّة، أكثر عشوائيّةً من الرسومات المستقبليّة التي لم تظهر حينها بعد. وهذا ما يُفسِّر سبب انضمام روماني إلى بيان المستقبليّين ومِن ثَمَّ افتراقه عنهم لاحقًا، كما لو كان يبحث هائمًا عن شيءٍ آخر.

يقترح المعرض في ميلانو تأمُّلاتٍ كثيرة بمعزلٍ عن وقائع الحركات الفنّيّة. لكنَّنا اعتدنا أن ندرس التاريخ بتجزئة أحداثه كلٌّ على حدة، وأن ننظر إلى الأحداث التاريخيّة الكبرى باعتبارها كوارث بالضبط: أربعة رجال بلا سراويل يقتحمون الباستيل فتندلع الثورة الفرنسيّة؛ عدّة آلاف من المسحوقين (ولكن يبدو أنَّ الصورة فُبرِكَت) يقتحمون قصر الشتاء فتندلع الثورة الحمراء؛ تُطلَقُ النيران على أرشيدوق فيفطن الحلفاء أنَّهم لا يستطيعون التعايش مع الإمبراطوريّات الوسطى؛ يُغتالُ جاكومو ماتّيوتّي فتُقرِّر الفاشيّة أن تتحوَّل إلى دكتاتوريّة... إلّا أنّنا نعرف أنَّ الأحداث استُخدِمَت كذرائع، أو إن جاز التعبير كمؤشِّرة الكتاب، ليتسنّى لهم تثبيت بداية شيءٍ مّا، ونعلم أنَّ الأحداث العظمى التي أصبحوا لها رمزًا كانت تختمر في ظلِّ لعبةٍ بطيئةٍ من التأثيرات والتنميات والتفسُّخات.

إنَّ التاريخَ موحلٌ ولزج. يجب أن نتذكَّر هذا دومًا، لأنَّ كوارث الغد تختمر اليوم، بنيّةٍ مُبيَّتة.

2009

قاطِعْني إن كنتَ تعرفها

إنَّ الأعمال التي حاولت تقديم تعريفٍ فلسفيٍّ وسيكولوجيٍّ للمضحك هي مَنجَمٌ للنكات. فأروع الطرائف اليهوديّة موجودةٌ في كتاب فرويد *النكات وعلاقتها باللاوعي*؛ ويحتوي كتاب *الضحك* لهنري برغسون على دررٍ كالاقتباس التالي من يوجين لابيش: «صه! للربِّ وحدَهُ الحقُّ في قتل أمثاله!». إلّا أنَّ ذِكر النكتة في هذين العملين ينفع كمثالٍ لشرح نظريّة.

دعوني أقدِّمْ لكم كتابًا تُستَخدم فيه النظريّاتُ ذرائعَ لسرد النكات. جيم هولت ليس فيلسوفًا، وقد كتب هذه الصفحات في الأساس بمجلّة النيويوركر،

وصدرت في إيطاليا بعنوان *اسمع هذه. النكتة وتاريخها الموجز وفلسفتها* (العنوان الأصليّ يبدو أقرب لعبارة «قاطِعْني إن كنتَ تعرفها»). يذكر هولت نظريّاتٍ متناقضة أيضًا (ويتَّضحُ بالمناسبة أنَّه مُلِمّ بها على نحوٍ واسع) وذلك ليمطرنا بوابلٍ من النكات. لا أعتقد أنَّه يصحُّ اعتماد كتابه ككتابٍ مدرسيٍّ للمرحلة الابتدائيّة، لأنَّه يُفضِّلُ التوقُّف عند نكاتٍ لاذعةٍ بشكلٍ بارز. كما أنَّه يذكر نكاتٍ أمريكيّة، تلك التي يرويها الكوميديان مثل لينّي بروس، وغالبًا ما تكون صعبةً على الفهم ما لم يتقن المرء اللغة ويعرف الأوساط. على سبيل المثال: «لماذا تُسمَّى نيوجيرسي ولاية الحدائق؟ لأنَّ فيها *روزنبلوم* في كلّ حيّ»، فلكي نضحك على هذه النكتة ينبغي أن نعرف أنَّ روزنبلوم هي كنية يهوديّة، وأنَّها توحي بالإنكليزيّة بمعنى تفتُّح الأزهار، وأنَّ نيوجيرسي يسكنها كثيرٌ من اليهود. فإن لم تكن مقيمًا في نيويورك، فلن تضحك.

فما بالك إذًا بالصعوبات التي واجهها المترجم ألفونسو فيناسّا دي رينيي، الذي اضطرَّ إلى وضع الملاحظات التوضيحيّة في الحواشي، ومن المعلوم كم هو محزنٌ أن تشرح نكتة. لكنَّ هذا لن يمنعني من إضافة ملاحظةٍ منقوصة لطرفةٍ تسخر من واقع أنَّ الأساقفة يُعيِّنون قساوسة مثليِّين: «لماذا الأساقفة فاشلون بالشطرنج؟ لأنَّهم لا يستطيعون تمييز الفيل عن الملكة». لا نكهة لهذه النكتة إذا قيلَت هكذا، إذ تفقد لعبة الكلمات معناها، وكذلك لأنَّه غير صحيح أنَّ المثليِّين لا يُميِّزون بين رجلٍ وامرأة. تُوضِّح ملاحظة المترجم أنَّ فيل الشطرنج بالإنكليزيّة هو «*bishop*» وهذه الكلمة تعني «أسقف» كذلك، ما يجعل النكتة منطقيّةً أكثر، طالما أنَّها تتحدَّث عن شؤونٍ إكليروسيّة. لكنَّها تغفل عن الإشارة إلى أنَّ الملكة، «*queen*»، باللغة الفئويّة تدلُّ على «مثليّ الجنس» بأشدّ المعاني تحقيرًا. وعليه فالنكتة تقصد أنَّهم «لا يُميِّزون أسقفًا عن شاذّ»، وهذا يناقض الصوابيّة السياسيّة، لكنَّه فكاهيٌّ بقدرٍ أكبر.

إنَّ ترجمة النكات والحال هذه عملٌ شنيع، ورغم ذلك فكثيرٌ من طرائف الكتاب مضحكة، وبعضها يستحقُّ عناء ذِكره. هنالك نكاتٌ في الأدب الإغريقيّ القديم (كيف تريدني أن أقصَّ لك شعركَ؟ الحلَّاق يسأل؛ فيجيبه الزبون: بصمت!)، ويذكر هولت نكتةً وصلتنا ناقصة: مواطنٌ من أبديرة، المدينة التي ذاع صيت سكَّانها بسبب غبائهم، يسأل مخصيًّا كم ولدًا أنجب، فيردُّ هذا بأنَّه

لم ينجب أولادًا لأنَّه ليس لديه عضوٌ تناسليّ. لكنَّ الإجابة مفقودة، الأمر الذي يُحزِن هولت. لذا أقترح التكملة من عندي: «ما شأن هذا! أنا أيضًا، لا يعمل عضوي بالشكل المرجوّ، ورغم ذلك أنجبت لي زوجتي ثلاثة أولاد رائعين».

جميلٌ هو الفصل عن *الدعابات* للمؤرِّخ بوجّو براتشوليني، والشروحات التي تُعنى بكيف ألهمت المفاسدُ الجنسيّةُ نكاتٍ ساديّةً كالنكات عن الأطفال الموتى التي كانت متداولة في الولايات المتَّحدة منذ عدَّة عقود («لونه أحمر ويتدلّى، فما هو؟ طفلٌ منحورٌ ومعلَّقٌ على واجهة الجزارة»). ومثيرٌ للاهتمام هو الاستذكار المؤثِّر للأنثروبولوجيّ المتخصِّص في أبحاث النكتة، آلان دندس (ما الجائزة الأولى في الاتّحاد السوفييتيّ لكُتَّاب النكات عن النظام؟ خمسة عشر عامًا)، ودراساته الحادّة ربّما حول أغبى النكات عن الفيلة. وفي الفصول المتقدِّمة أجد النكتة التالية ذكيّة جدًّا: «ماذا تقول حلزونة لحصان على ظهر سلحفاة؟ يوو-هوو!»، بإمكانكم رويها للأطفال أيضًا. بخلاف النكتة عن حمية كلنتون، فهذه لا تناسب الأطفال: «نَحِفَ لدرجة أنَّه صار قادرًا على رؤية وجه مُتدرِّبتِهِ». وطريفةٌ هي النكتة عن فلانٍ دخل إلى حانة وقال إنَّ كلَّ رجال الشرطة أوغاد؛ أبدى أحد الجالسين إلى المشرب اعتراضه؛ لماذا، هل أنت شرطيّ؟ سأله الأوَّل؛ فرَدَّ الثاني: لا، أنا وغد. قد تناسب الأطفالَ نكتةُ الهيكل العظميّ الذي يدخل إلى حانة (ربّما الحانة نفسها) ويطلب بيرة وخرقة لمسح الأرض.

وبما أنَّ هولت لا يُوفِّرُ شيئًا، سأذكر الطرفة عن قتل الإله، المنسوبة إلى ليون ويسيلتير: «علامَ كلُّ هذا الغضب؟ لقد قتلناه لمدَّة يومين فقط!». وسأُغفِلُ النكات المنطقيّة الفلسفيّة، التي لا يفهمها إلّا جمهورٌ مُتخصِّص. مع أنَّه يؤسفني عدم ورود نكتةٍ قيلت حقًّا في مؤتمرٍ للمنطق. يشار إلى صيغة الاستنتاج المنطقيّة بعبارة «إن كان p فهو q»، وبالإنكليزيّة تُلفَظ (*if pi then kiu*). وفي أثناء الندوة ذهب أحد الباحثين إلى المرحاض فوجد طابورًا من الناس. فقال عندئذ: «if pee then queue»، تختلف الكتابة لكنَّ اللفظة مطابقة، سوى أنَّها في الحالة الثانية تعني: إذا أردت التبوُّل فعليك الوقوف في الطابور.

2009

Festschrift

يُقصَدُ بكلمة *festschrift* في الوسط الأكاديميّ كتابٌ يضمُّ مساهماتٍ علميّةً يُعدِّهُا الأصدقاء والطلبة للاحتفال بعيد ميلاد أحد الأساتذة. وقد يحتوي هذا الكتاب على دراساتٍ مُتخصِّصة حول الشخص المعنيّ، لذا يتطلَّبُ من المساهمين جهدًا شاقًّا، ومن المحتمل أن يشارك فيه الطلبة الأوفياء فقط، لا الزملاء المشاهير الذين لا وقت أو رغبة لديهم ليكرِّسوا لزميلهم تأمُّلاتٍ عسيرة كهذه. ومع هذا، وبغية جذب أسماء شهيرة أيضًا، لا يفرض الكتاب مواضيع محدَّدة، لأنَّه لا يُقدِّمُ هذه الدراسات على أنَّها «عن فلان الفلانيّ» إنّما «على شرف فلان الفلانيّ».

ومن السهل أن نتصوَّر، ولا سيّما في الحالة الثانية، كيف أنَّ المادّة المرسَلَة من أجل كتابٍ تكريميٍّ هي مادّةٌ مهدورة عمليًّا، فمن أين لأحدٍ أن يعرف أنَّك كتبتَ عن ذلك الموضوع التخصُّصيّ في تلك المجموعة! وبأيّ حال، هي تضحيةٌ كانت تُؤدَّى بكلِّ سرور، وربّما كان المساهمون ينشرون المادَّة نفسها في مكانٍ آخر لاحقًا. سوى أنَّ الكتاب التكريميّ كان يقام فيما مضى عندما يُتِمُّ البروفسور فلان أعوامه الستّين - وهي سنٌّ كانت تعكس عمرًا مديدًا، وإذا جرت الأمور على خير فكان يموت قبل بلوغ السبعين. أمّا اليوم، وبفضل تقدُّم الطبّ، يتعرَّض البروفسور فلان لخطورة العيش حتّى التسعين عامًا، فيتعيَّنُ على طلبته تشريفه بكتابٍ تكريميٍّ في عيد ميلاده الستّين، والسبعين، والثمانين والتسعين.

هذا وبما أنَّ العلاقات الدوليّة تكثَّفت في آخر نصف قرن، وأصبح لدى كلِّ باحثٍ علاقات صداقة مباشرة مع عددٍ من الشخصيّات يفوق ما كان في السابق بكثير، صار الباحث المتوسِّط يتلقّى كلَّ عامٍ ما لا يقلُّ عن عشرين أو ثلاثين طلبًا لكتبٍ تكريميّةٍ لزملاء من شتّى أصقاع الأرض بلغوا بكلّ سعادةٍ أعمارًا توراتيّةً أو تكاد. فإذا حَسَبنا أنَّ المادَّة المكتوبة لكتابٍ تكريميٍّ يجب أن تكون بحدود العشرين صفحة، هذا في أقلّ تقدير وإلّا وُصِفَت بالشحيحة، فعلى الباحث أن يكتب وسطيًّا ستّمئة صفحة بالعام الواحد، وحبَّذا لو كانت كلُّها أصيلة، للاحتفاء بأصدقاء مُعمَّرين للغاية ومحبوبين للغاية. معلوم، الأمر لا يطاق، لكنَّ الرفض قد يُنظَرُ على أنَّه انتقاصٌ للاحترام.

ثمّة طريقتان لا غير لتدارك هذه المأساة. فإمّا أن تطالب بأن تُعَدَّ الكتب التكريميّة لمن هم في الثمانين عامًا فما فوق حصرًا، وإمّا أن تفعل مثلي: بثُّ أرسل المادّة نفسها لأيّ كتابٍ تكريميٍّ مهما كان (بتغيير الأسطر العشرة الأولى وأسطر الخاتمة ليس إلّا)، ولم يكتشف أمري أحد.

2010

هولدن العجوز

إثر رحيل سالنجر قرأتُ عدّة مقالات تستذكر روايته *الفتى هولدن*[1] ورأيتُ أنَّ المقالات تنقسم فرعين: ينطوي الأوَّل على ذاكرة متأثِّرة لمن منحت لهم الروايةُ تجربةً قرائيَّةً رائعة في فترة المراهقة، فيما يشمل الثاني تأمُّلاتٍ نقديَّةً لأولئك الذين (وهُم إمّا في مقتبل العمر وإمّا في أرذله) قرأوها كما تُقرَأ أيُّ روايةٍ عاديّة. وكانت قراءات الفرع الثاني كلُّها متردِّدة، تتساءل ما إذا كان *هولدن* سيُخلَّدُ في تاريخ الأدب أم أنَّه يُمثِّلُ ظاهرةً مرتبطة بحقبتها وجيلها. مع أنَّ لا أحد طرح إشكاليّاتٍ من هذا النوع باستذكار *هرتزوغ* إثر وفاة سول بيلو أو *العراة والموتى* عقب رحيل نورمان ميلر. فلماذا يحدث ذلك مع *هولدن*؟

أعتقد أنَّني فأر تجارب ممتاز. صدرت الرواية في العام 1951، وتُرجِمَت إلى الإيطاليّة في العام اللاحق عن دار كازيني بعنوانٍ لا يُشجِّع كثيرًا: *حياة إنسان*، فمرَّت مرور الكرام ولم تحظَ بالنجاح إلّا في العام 1961 عندما صدرت عن دار إيناودي بعنوان *الفتى هولدن*. وعليه فإنَّ أثر الرواية يشبه حلوى مادلين بروست لمن كان مراهقًا في بداية الستّينات. أنا في تلك الفترة كنتُ في الثلاثين، منغمسًا بقراءة جويس، ففاتني سالنجر. ولم تتسنَّ لي قراءته إلّا منذ عشرة أعوام، لغرضٍ توثيقيٍّ أو ما شابه، ولم يترك فيَّ أيَّ أثرٍ يُذكَر. فما السبب؟

قبل كلِّ شيء، لم يذكِّرني سالنجر بأيّ عاطفةٍ راودتني أيّامَ المراهقة؛

1- الفتى هولدن عنوان الترجمة الإيطاليّة لعنوان الرواية الشهيرة «الحارس في حقل الشوفان»، وقد ارتأينا إبقاء العنوان الإيطاليّ على حاله. (المترجم).

وثانيًا، من المحتمل أنَّ اللغة الشبابيّة التي استعملها بفرادةٍ كان الزمن قد تجاوزها (معلوم، الشبَّان يُبدِّلون لغتهم كلَّ فصلٍ من السنة)، لذا بدا لي زائفًا؛ وأخيرًا، حاز «أسلوب سالنجر» منذ أعوام الستّينات وحتّى اليوم حظوظًا وافرة، جعلته يعاود ظهوره في رواياتٍ كثيرةٍ لكُتَّابٍ آخرين، فلم يكن له إلّا أن يبدو لي مكرَّرًا، أو بأيّ حال غير استثنائيّ وغير مستفزّ. أصبحت الرواية غير مثيرة للاهتمام بسبب النجاح الذي أحرزته.

يدفعنا هذا إلى ملاحظة ما في تاريخ «حظوظ» عملٍ مّا، من مدىً لأهمّيّة الظروف والسياقات التاريخيّة التي يظهر فيها العمل، وصِلَتِهِ بحياة القارئ نفسها. سأضرب مثلًا من مستوىً مختلف: أنا لا أنتمي إلى جيل *التيكس* ويدهشني دومًا أن أسمع أحدهم يُصرِّحُ بأنَّه نشأ في ظلّ أسطورة التيكس. التفسير بسيط: ظهر التيكس في العام 1948، وفي تلك الحقبة كنتُ ما أزال في المرحلة الثانويّة حيث كففتُ عن قراءة الكوميكس، الذي لم أعد إلى قراءته إلّا في الثلاثينيّات من عمري، في حقبة رواج شخصيّة تشارلي براون، وإعادة اكتشاف الكلاسيكيّات مثل دِكْ تريسي أو كريزي كات، وبداية المدرسة الإيطاليّة العظيمة مع غويدو كريباكس وأوغو برات. فكذلك أجدني أميل إلى شخصيّات الفنّان بينيتو ياكوفيتّي، مثل بيبّو وبتريكا وبالّا، الرائجة في الأربعينات، لا إلى كوكّو بيل (1957).

ولكنْ، فلنكن حذرين من مغبّة إرجاع كلِّ الأشياء إلى المسائل الشخصيّة. فمن البديهيّ أن يكره أحدهم *الكوميديا الإلهيّة* لأنَّه في فترة دراسته لها كان يعاني من خيبةٍ عاطفيّةٍ رهيبة، إلّا أنَّه قد يكون مُعرَّضًا للمشكلة ذاتها مع أفلام توتو. ورغم ذلك لا ينبغي التساهل مع آفة التفكيكيّة الباطلة التي تعتبر أنَّ النصَّ بلا أيّ معنى وأنَّه مُتعلِّقٌ كلّيًّا بالطريقة التي يؤوِّله بها القارئ. قد تحزن إذا تذكَّرتَ فيلم *توتو، بيبينو والأنثى اللعينة* لأنَّ حبيبتك هجرتك تمامًا في اليوم الذي رحتَ فيه لمشاهدة الفيلم، لكنَّ هذا لا ينفي أنَّك، إذا قمتَ بتحليلٍ حياديٍّ عن أيّ عاطفة، وجدتَ مشهد الرسالة إلى دوريان غراي بديعًا من حيث الإيقاع وجرعة المؤثِّرات الكوميديّة.

فإذا أمكنَ لقيمة العمل الفنّيّة أن تُقَيَّمَ بصرف النظر عن ظروف تلقِّينا الشخصيّ، تبقى لدينا إذًا مسألة أسباب نجاحه أو فشله في فترةٍ محدَّدة. ما

مدى ارتباط نجاح كتابٍ مّا بالحقبة (والسياق التاريخيّ) التي ظهر فيها؟ لماذا يسحر *هولدن* الشبَّانَ الأمريكيّين في عقد الخمسينات لكنَّه في الفترة ذاتها لا يؤثِّر في الشبَّان الإيطاليّين، الذين لا يكتشفونه إلّا بعد عشر سنوات؟ لا يكفي التفكير بالحظوة الكبرى التي تتمتَّع بها إيناودي في سوق النشر وقدراتها الدعائيّة بالمقارنة مع كازيني.

باستطاعتي أن أذكر كثيرًا من الأعمال التي حصلت على جماهيريّةٍ واسعة وتقديرٍ من النقّاد، ما كانت لتحصل عليهما لو أنّها نُشِرَت عشرة أعوام قبلئذٍ أو عشرة أعوام بعدئذ. هنالك أعمالٌ معيَّنة يجب أن تصدر في اللحظة المناسبة. ونحن نعلم بدءًا من الفلسفة اليونانيّة فصاعدًا، أنَّ «اللحظة المناسبة» أو الـ*kairòs* «لحظة الحقّ» تُكوِّنُ إشكاليّةً جدّيّة. فأن نجزمَ بأنَّ عملًا مّا ظهر أو لم يظهر في اللحظة المناسبة لا يعني قدرتنا على شرح لماذا كانت تلك بالذات هي اللحظة المناسبة. وهذه إشكاليّةٌ لا حلَّ لها، كأن نتكهَّنَ أين ستكون يومَ الأربعاء كرةُ بينغ بونغ أودعناها يومَ الإثنين أمواجَ البحر.

2010

أرسطوطاليس الداهية

صدرت للتوّ الترجمة الإيطاليّة لكتابٍ مثيرٍ للاهتمام لبيتر ليسون *الاقتصاد بحسب القراصنة. المفاتن الخفيّة للرأسماليّة* (غارتزانتي، 2010)، حيث يُبيِّنُ الكاتب الأمريكيّ، المؤرِّخ للرأسماليّة، المبادئ الأساسيّة للاقتصاد والديمقراطيّة الحديثين متَّخذًا طواقم سفن القراصنة في القرن السابع عشر أنموذجًا (أجل، بالضبط هي سفن القرصان الأسود وفرانسوا لولونييه، حيث ترفرف راية الجمجمة، التي لم تكن سوداء في البداية إنّما حمراء، ومن هنا جاءت تسميتها بالفرنسيّة *Jolie rouge* وقد حُرِّفَت بالإنكليزيّة لتصبح جولّي *روجر*).

يُظهِرُ ليسون أنَّ جماعة القراصنة، بقوانينها الفولاذيّة التي لا بدَّ لكلّ قرصانٍ جديرٍ بهذا اللقب أن ينصاع لها، هي بالأساس منظَّمةٌ «مستنيرة»، ديمقراطيّة، مساواتيّة ومنفتحة على التنوُّع: باختصار، كانت أنموذجًا ممتازًا عن المجتمع الرأسماليّ.

يتعمَّق جوليو جوريلّو بمقدِّمته للنسخة الإيطاليّة في هذه الموضوعات أيضًا، لذا لن أتناول ما يقوله كتاب ليسون، لكنّي سأتطرَّق إلى ارتباطٍ بالأفكار لفت انتباهي كثيرًا. يا للعجب! إنَّ الذي، من دون أن يعرف شيئًا عن الرأسماليّة، كان قد حدَّدَ تشابهًا بين القراصنة والتجّار (ما يعني أصحاب المؤسَّسات الحرَّة، نماذج الرأسماليّة القادمة) هو أرسطوطاليس.

يعود لأرسطوطاليس الفضل بأنَّه أوَّلُ مَن عرَّفَ المجاز، سواء أكان في *فنّ الشعر* أم في *الخطابة*، وفي كلٍّ تعاريفه التأسيسيّة تلك كان يؤيِّدُ أنَّ المجاز ليس زخرفةً بلاغيّةً فحسب بل هو شكلٌ من أشكال المعرفة. ولا يجدر الاستخفاف بهذا الكلام، إذ سيُنظَرُ إلى المجاز في العصور اللاحقة ولفترةٍ طويلة على أنّه مجرَّد طريقةٍ لتجميل الخطاب لا تُغيِّرُ جوهره. وما زال بعض الناس حتّى يومنا هذا يرونه كذلك.

في *فنّ الشعر* قال أرسطوطاليس إنَّ فهمَ الاستعارات الجيّدة يعني «القدرة على إدراك الشبه أو الفكرة المماثلة». وكانت الكلمة التي يستخدمها هي *theoreîn* وهذه تأتي بمعنى إدراك، تحقُّق، مقارنة، إطلاق حُكم. وقد عاد أرسطوطاليس إلى هذه الوظيفة المعرفيّة للمجاز على نطاقٍ أوسع في *الخطابة* حيث يقول إنَّ ما يثير الإعجاب مستحسنٌ لأنَّه يجعلنا نكتشف تجانسًا غير متوقَّع، ما يعني أنَّه «يضع تحت أعيننا» (هكذا عبَّرَ بالحرف) شيئًا لم نلاحظه من قبل، ما يدفعنا للقول: «انظر، إنَّه كذلك حقًّا، ولم أكن أعرف».

كما يتَّضح بالطريقة نفسها أنَّ أرسطوطاليس كان يولي الاستعارات الجيّدة وظيفةً علميّةً تقريبًا، مع أنَّه عِلمٌ لا ينطوي على اكتشاف شيءٍ كان بالأصل موجودًا، بل على إظهاره للمرَّة الأولى، وعلى خلق وسيلةٍ جديدةٍ للنظر إلى الأشياء.

وما الذي كان أحد الأمثلة الدامغة عن استعارات تضع تحت أعيننا شيئًا للمرّة الأولى؟ هي استعارةٌ (لا أدري أين وقع عليها أرسطوطاليس) بموجبها يُدعى القراصنة «مُزوِّدين» أو «مُورِّدين». يقترح أرسطوطاليس، لفهم هذه الاستعارة وغيرها، أن يُحدَّدَ قاسمٌ مشتركٌ على الأقلّ بين شيئين مختلفين ومتنافرين ظاهريًّا، ثمَّ أن يُنظَرَ إلى الشيئين المختلفين على أنَّهما صنفان من ذلك النوع.

وعلى الرغم من أنَّ التجّار كانوا يُعتَبرون أشخاصًا صالحين يركبون البحر

لنقل بضائعهم وبيعها بطريقةٍ مشروعة، في حين أنَّ القراصنة كانوا أوغادًا يهاجمون سفن أولئك التجَّار وينهبون ما فيها، فإنَّ الاستعارة تشير إلى وجود قاسم مشترك بين القراصنة والتجَّار، وهو العمل على عبور البضائع من المصدر إلى المستهلك. فما من شكٍّ في أنَّ القراصنة، بعد أن ينهبوا ضحاياهم، كانوا يذهبون إلى مكانٍ مّا لبيع المنافع التي استولوا عليها: لذا كانوا ناقلين، مُزوِّدين، ومُورِّدين للبضائع -حتّى لو من المفترض أن يُتَّهَمَ زبائنُهُم بحيازة مسروقات. بكلّ حال، كان هذا التشابه الصاعق بين التجَّار والسُّلَّاب يُكوِّنُ سلسلةً من الشكوك- بحيث يُدفَعُ القارئ إلى القول: «كان كذلك، وكنتُ على خطأ».

كانت الاستعارة من جهةٍ تُلزِمُ بإعادة اعتبار دور القرصان في الاقتصاد المتوسِّطيّ، لكنَّها من الجهة الأخرى تُسلِّط الضوء على تشكيكٍ بدور التجَّار وحيلهم. بالمحصِّلة، تستبق هذه الاستعارةُ، بمنظور أرسطوطاليس، ما سيقوله بريخت لاحقًا: أنَّ الجريمة الحقيقيّة ليست سرقة بنك إنّما امتلاكه - وبطبيعة الحال لم يكن للستاغيريّ الصالح أن يعرف أنَّ طرفة بريخت الواضحة كانت ستبدو مريعةً ومقلقة على ضوء ما حدث في الأعوام الأخيرة في أسواق المال العالميّة.

عمومًا، يجب ألّا ندَّعي بأنَّ أرسطوطاليس (وقد كان مستشارًا لدى ملك) يرى الأمور مثلما رآها ماركس، لكنَّكم قد تتفهَّمون كم أمتعتني حكاية القراصنة هذه. يا لأرسطوطاليس الداهية!

2010

مونتالي وزهر البيلسان

في كتيِّبها اللطيف *مونتالي والثعلب* تستحضر ماريّا لويزا سباتزياني ذكرياتٍ من صداقتها الطويلة مع إيوجينيو مونتالي، وتروي حادثةً ينبغي أن تُدرَّسَ في المدارس. إذًا، سباتزياني ومونتالي يمرّان بجانب نسقٍ من البيلسان، الزهرة التي لطالما أحبَّتها سباتزياني لأنَّها «بالتمعُّن فيها تُلمَحُ سماءٌ ليليّةٌ مرصَّعةٌ بالنجوم، وفيها براعم دقيقة على شكل حزمٍ شعاعيّة: فاتنة». وتقول إنَّها ربّما لهذا السبب، من بين أشعار مونتالي التي حفظتها

عن ظهر قلب منذ زمن، كانت تُفضِّل بيتًا أحَدَ عشريَّ التقطيع ذا وقْعٍ فريد: «سامِقَةٌ تَرتَجِفُ أبرَاجُ البَيْلَسَان».

وحين يرى مونتالي صديقته مسرورةً أمام البيلسان، يقول: «ما أجمل هذه الزهرة!» ثمَّ يسأل عن اسمها، فتنضعق سباتزياني مُصدِرةً «صرخة وحشٍ جريح». كيف يُعقَل هذا! الشاعر الذي كان قد صنع من البيلسان صورةً شعريّةً باهرة، يعجز عن التعرُّف على زهرة بيلسان في الطبيعة؟ لكنَّ مونتالي علَّلَ الأمر قائلًا: «كما تعلمين، الشعرُ يُصنَعُ من الكلمات». إنَّني أجد هذه الحادثة جوهريّةً لفهم الفرق بين الشعر والنثر.

يتحدَّث النثر عن الأشياء، وإذا أدرَجَ الراوي زهرة بيلسان في حكايته فعليه أن يعرف ما هي وأن يصفها كما يجب، وإلّا بوسعه الاستغناء عن ذكرها من بابٍ أولَى. في النثر يجدر بك أن تكون مُتمكِّنًا ممّا تريد الحديث عنه ثمَّ ستأتيك الكلمات المناسبة من تلقاء نفسها: «*rem tene, verba sequentur*». فما كان لألسّاندرو مانتزوني أن يفتتح روايته *الموعودان بالزواج* بتلك الجملة الأولى الباهرة ([ذلك الغصن من بحيرة كومو] وهي من الناحية العروضيّة تُساعيةُّ التقطيع بالمناسبة)، متبوعًا بتوصيفٍ غنائيٍّ للمناظر الطبيعيّة، لو أنَّه لم ينظر مليًّا ومطوَّلًا إلى السلسلتين الجبليَّتين المتواصلتين دون انقطاع، والرَّعن على الجهة اليمنى وجانب الضفّة العريض على الجهة الأخرى، والجسر الذي يربط الضفَّتين، فضلًا عن جبل ريزيغونه. أمّا في الشعر فيحدث العكس كلّيًّا، يجدر بك أن تُغرَمَ بالكلمات أوَّلًا، ثمَّ يأتي ما تبقَّى من تلقاء نفسه: «*verba tene, res sequentur*».

أهذا يعني أنَّ مونتالي لم يرَ في حياته أكوام الحنطة الدقيقة، والأعشاب البحريّة ونجم البحر، والأجاف، وسياج الحُبَض المشذَّب، والريشة التي تتغرَّى، والقرميد المتهدِّم، والفراشة المجنونة، ونقنقة الحجل، ورقصة الفورلان والريغدون، والدرب العشبيّ المنحدر؟ مَن يدري، لكنَّ هذه هي قيمة الكلمات في الشعر، بحيث إنَّ *الساقية المخنوقة «تقرقر»* (gorgoglia) لمجرَّد أنَّها تصلح للتقفية مع *تهشُّم «الورقة»* (foglia)، وإلّا كان للساقية -ما أدراني- أن تبقبق، تغمغم، تغرغر، تحشرج أو تلهث، في حين أنَّ الضرورة الصوتيّة المحض شاءت أنَّ الساقية تقرقر بأسلوبٍ بديع و«إلى

الأبد / متَّحدةً مع الأشياء التي تنغلق في دائرة / وضَّاحةً كالنهار / تُغذِّيها من نفسها الذاكرة».

2011

الكذب والتظاهر

لا بدَّ أنَّ القرَّاء لاحظوا أنَّني تناولتُ الكذب في بعض *المغلَّفات* الأخيرة. هذا لأنَّي كنتُ أحضِّرُ مداخلةً أجريتُها الإثنين الماضي في مهرجان ميلانيزيانا، المكرَّسة هذه السنة لموضوعة «الأكاذيب والحقائق»، حيث تحدَّثتُ كذلك عن التخييل السرديّ. هل الرواية أكذوبة؟ يبدو لقاء الدون أبونديو (في رواية *الموعودان بالزواج*) باثنين من أعوان الإقطاعيّ في إحدى نواحي ليكّو، يبدو للوهلة الأولى كذبةً لأنَّ مانتزوني كان يعلم جيِّدًا أنَّه يروي أمرًا ابتدعه بنفسه. لكنَّ مانتزوني لم يكن يقصد الكذب: *كان يتظاهر* بأنَّ ما كان يرويه قد وقع فعلًا ويطلب منّا المشاركة في تخيُّله؛ تمامًا مثلما نقبل أنَّ طفلًا يمسك العصا ويتظاهر بأنَّها سيف.

يتطلَّب التخييلُ السرديُّ بطبيعة الحال إبرازَ دلالاتٍ عن التخيُّليّة، بدءًا بكلمة «رواية» على الغلاف، واستهلالاتٍ من قبيل «كان ذات مرَّة...»، لكنَّه غالبًا ما يبدأ بدلالة غير صحيحة على الحقيقة. وهاكم مثالٌ على هذا: «... قبل ثلاث سنوات كان السيّد ليمويل جلفر قد تعب من مقابلة الفضوليّين الذين كانوا يزورونه في بيته في ريدريف، فاشترى قطعة صغيرة من الأرض عليها بيت مناسب بالقرب من نيويورك... قبل أن يغادر ريدريف، ترك بين يديّ كوديعةٍ مجموعةً من الأوراق... وقد قرأتُها بإمعان ثلاث مرّات... إنَّ مظهر الحقيقة واضح فيها كلّها. وفي الحقيقة، فإنّ كاتبها كان معروفًا لدى جيرانه، بالحرص على الصدق، لدرجة أنّه أصبح بينهم مضرب المثل في الصدق. فلو أراد أحدهم أن يؤكّد شيئًا فإنّه يقول: «إنَّ الأمر صحيح كأنّه وَرَدَ على لسان جلفر»»[1].

1- من ترجمة د. محمد رجا عبد الرحمن الديريني لكتاب رحلات جلفر لسويفت. (المترجم).

إذا رأيتم الغلاف الداخليّ للطبعة الأولى لرواية رحلات *جلفر*، فلن تجدوا فيه اسم جوناثان سويفت كمؤلِّفٍ للخيال إنّما اسم جلفر ككاتب سيرة ذاتيّة حقيقيّ. ربّما لا ينخدع القرّاء بهذا، فمنذ كتاب *القصص الحقيقيّة* للوقيانوس فصاعدًا، تشي التأكيدات المفرطة على حقيقيّة المكتوب بأنّها دلالة على أنَّه خياليٌّ، إلّا أنَّه غالبًا ما تختلط الوقائع الخياليّة بالإحالات على الحياة الواقعيّة في الرواية بطريقةٍ وثيقة، حتّى إنَّ كثيرًا من القرّاء يُضيِّعون البوصلة.

وهكذا، يحدث أنَّهم يحملون الروايات على محمل الجدّ كما لو أنَّها تتحدَّث عن أشياء وقعت حقًّا، وأنَّهم ينسبون إلى الكاتب آراء الشخصيّات. وأؤكِّد لكم، بصفتي مؤلِّفًا لروايات، أنّنا بعد أوّل عشرة آلاف نسخة، ننتقل من الجمهور المعتاد على التخييل السرديّ إلى الجمهور البدائيّ الذي يقرأ الرواية على أنَّها سلسلةٌ من التأكيدات الحقيقيّة، مثلما كان المتفرِّجون في مسرح العرائس يشتمون الخائن غانيلون.

أذكر أنَّه في روايتي *بندول فوكو*، تريد شخصيّة ديوتالّيفي السخرية بصديقه بيلبو الذي يستخدم الكمبيوتر استخدامًا مهووسًا، فيقول له في الصفحة 45: «الآلة موجودة، بالتأكيد، لكنَّها لم تُنتَج في وادي السيليكون خاصَّتك». فنوَّهَ لي زميلٌ يُدرِّس الموادّ العلميّة هازئًا أنَّ الـ Silicon Valley تترجم إلى الإيطاليّة بوادي السيليكيوم. فقلتُ له إنّي أعرف جيّدًا أنَّ الحواسيب تُصنَع من السيليكيوم (بالإنكليزيّة *سيليكون*)، حتّى إنَّه لو نظر في الصفحة 275 لقرأ أنَّ السيّد غاراموند يقول لبيلبو أن يضع الحواسيب في خانة *تاريخ المعادن* لأنَّه مصنوعٌ من السيليكيوم، فيجيبه بيلبو: «لكنَّ السيليكيوم ليس معدنًا، بل من أشباه الفلزات». وقلتُ له أيضًا إنَّني لستُ أنا مَن كان يتكلَّم في الصفحة 45، إنّما ديوتالّيفي، الذي له الحقُّ في ألّا يفقه في العلوم أو اللغة الإنكليزيّة، هذا أوّلًا، وثانيًا كان واضحًا أنَّ ديوتالّيفي يسخر من الترجمات السيِّئة عن الإنكليزيّة، كما لو أنَّ أحدًا يتحدَّث عن *الهوت دوغ* قائلًا إنَّه كلبٌ ساخن.

ابتسم زميلي (الذي لا يثق بالإنسانويّين) مُتشكِّكًا، ظنًّا منه أنَّ شرحي مجرَّد ترقيعٍ بائس.

كان هذا مثالًا عن قارئ، على الرغم من أنَّه متعلِّم، لا يستطيع قراءة رواية باعتبارها كُلًّا واحدًا، وبالتالي لا يقدر على ربط جوانبها بعضها ببعض؛ كما أنَّه منيعٌ عن حسّ الدعابة، ولا يُميِّز بين آراء المؤلِّف ورأي إحدى الشخصيّات. ذلك أنَّ اللاإنسانويّين الذين على شاكلته يجهلون مفهوم *التظاهر* بالمطلق.

2011

الانخداع والتماهي

تحَدَّثتُ في الأسبوع الماضي عن أنَّ كثيرًا من القرَّاء يجدون صعوبةً في التمييز بين الحقيقة والخيال في روايةٍ مّا، ويميلون إلى نسب أفكار الشخصيّات وأهوائها إلى كاتبها. وجدتُ دليلًا على ذلك في موقع إلكترونيّ ينشر مقتطفاتٍ لعددٍ من الكُتَّاب، ومن بينها «كلمات لأمبرتو إيكو» حيث نجد التالي: «الإيطاليّ منافق، كذّاب، جبان، خائن، يُفضِّلُ الخنجر على السيف، والسمَّ على الدواء، لزجٌ في التفاوض، متماسكٌ فقط في استبدال الراية عند كلّ تحوُّلٍ للريح»[1]. لا أنفي أنَّ في ذلك شيئًا من الحقيقة، لكنَّها فكرةٌ شائعة وضاربة في القدم تداوَلَها كُتَّابٌ أجانب، كما أنَّها في روايتي *مقبرة براغ* يكتبها رجلٌ أظهَرَ في الصفحات السابقة نزعاتٍ عنصريّةً تختلف بنسبة ثلاثمئة وستّين درجة مستخدمًا أكثر الكليشيهات رثاثةً. سوف أحاول ألّا أضع شخصيّاتٍ تافهة في كتاباتي القادمة، فقد تُنسَبُ إليَّ يومًا مّا مقولاتٌ فلسفيّة من قبيل «ليس لدى الإنسان من أمَّهات سوى واحدة».

والآن أقرأ في زاوية إيوجينيو سكالفاري الثقافيّة، *زجاج منفوخ*، مقالًا يتناول *مغلَّفي* السابق، ويثير إشكاليّةً جديدة. يقرُّ سكالفاري بوجود أشخاصٍ لا يُفرِّقون بين التخييل السرديّ والواقع، لكنَّه يعتقد (ويعتقد أنَّني أعتقد، وهذا صحيح) أنَّ التخييل السرديّ قد يكون حقيقيًّا أكثر من الحقيقة نفسها، وأنَّه يلهمنا فرصة التماهي بالشخصيّات، وإدراك ظواهر تاريخيّة، وخلق سبلٍ جديدةٍ للإحساس إلخ. بالتأكيد، لا يمكننا إلّا أن نتَّفق مع هذا الرأي.

1- من ترجمة د. أحمد الصمعي لرواية مقبرة براغ لإمبرتو إيكو. (المترجم).

بل أكثر من ذلك، يتيح التخييل السرديّ منافذ جماليّة أيضًا: فالقارئ يعلم جيّدًا أنَّ مدام بوفاري لم يكن لها وجودٌ حقيقيّ، ورغم هذا يستمتع بالطريقة التي أَلَّفَ بها فلوبير هذه الشخصيّة. إلّا أنَّ هذا البعد الجماليّ نفسه يقودنا إلى نقيضه، البعد المعنيّ بـ «مفهوم الحقيقة» (الذي يُجمِعُ عليه كلٌّ من الفلاسفة والعلماء ولا سيّما القضاة الذين ينبغي لهم أن يُقرِّروا في المحكمة ما إذا كان الشاهد يقول الحقيقة أم لا). إنَّهما بعدان مختلفان، وويلٌ لقاضٍ تهتزُّ مشاعره إذا روى المذنبُ أكاذيبَه بطريقةٍ جماليّة؛ وأنا كنتُ معنيًّا بأبعاد مفهوم الحقيقة، حتّى إنَّ فكرتي هذه نَمَت خلال أحد خطاباتي عن الباطل والكذب. هل من الباطل القول إنَّ مستحضرات ڤانّا ماركي تعيد نموّ الشعر؟ باطل. هل من الباطل القول إنَّ الدون أبونديو التقى باثنين من أعوان الإقطاعيّ في رواية مانتزوني؟ باطلٌ من منظور مفهوم الحقيقة، نعم، لكنَّ الراوي لا يريد أن يقول لنا إنَّ حكايته حقيقيّة، إنّما يتظاهر بأنَّها حقيقيّة ويطلب منّا أن نتظاهر بذلك نحن أيضًا. يطلب منّا أن «نؤجِّلَ شكوكنا» كما أوصى الشاعر كولريج.

يذكر سكالفاري رواية *آلام فرتر* ونحن نعلم كم من الفتية والفتيات الرومانسيّين انتحروا لأنَّهم تماهوا بالبطل. أكانوا يظنُّون أنَّ الحكاية حقيقيّة؟ ليس بالضرورة، مثلما أنَّنا نعرف أنَّ مدام بوفاري لم يكن لها وجودٌ حقيقيّ ونتأثَّر بالوقت ذاته حتّى البكاء على مصيرها. نعترف أنَّ التخييل ما هو إلّا من صنع الخيال ومع هذا نسعى إلى أن تتماهى ذواتنا في عمق شخصيّتها.

وهذا لأنَّنا نعلم أنَّه إن لم يكن هناك وجودٌ لمدام بوفاري، فإنَّ كثيرًا من النساء يشبهنها، كما نشبهها نحن أيضًا إلى حدٍّ مّا، وبهذا نتعلَّم درسًا عن الحياة بشكلٍ عامّ وعن أنفسنا كذلك. كان الإغريق القدماء يؤمنون بأنَّ ما وقع لأوديب قد حدث بالفعل، لتمنحهم مأساته فرصةً للتأمُّل في القدر. أمّا فرويد فكان يعرف حقَّ المعرفة أنَّ أوديب لم يكن له وجود، لكنَّه قرأ في أحداث أسطورته مغزىً عظيمًا عن أسرار اللاوعي.

فما الذي يحدث لأولئك القرّاء الذين أخصُّهم بالذِّكر هنا، الذين لا يستطيعون التمييز مطلقًا بين الحقيقة والخيال؟ لا يحتمل موقفهم أيَّ بعدٍ جماليّ، لأنَّهم منهمكون في حمل الحكاية على محمل الجدّ حتّى إنَّهم

لا يتساءلون ما إذا كانت جيِّدة أم رديئة؛ لا يسعون إلى استخلاص العبرة؛ لا يتماهون بشخصيّاتها. إنَّهم ببساطة يعانون من عجزٍ في الخيال – على حدّ تعبيري، غير قادرين على «تأجيل شكوكهم». وبما أنَّ هؤلاء القرَّاء هم أكثر ممّا نتصوَّر، لذا يستحقّون اهتمامًا أكبر لأنَّنا نعرف أنَّهم يُفوِّتون جميع المسائل الجماليّة والأخلاقيّة الأخرى.

2011

ثلاث أفكار فاضلة

استثمارات: صُدِمنا جميعًا بالسيّد الذي حوَّلَ مئتي ألف يورو إلى الإندراغيتا [المافيا الكالابريّة] لتحصيل أربعة آلاف صوت، إن لم تخنِّي الذاكرة. وهذه أشياء غير لائقة بالفعل. لكنَّنا لم نتمعَّن بثلاثة أشياء أخرى. أوَّلًا، من أين حصل هذا السيّد على مئتي ألف يورو (وهو مبلغٌ سيظلُّ يعادل أربعمئة مليون ليرة إيطاليّة سابقًا)؟ حسنًا، قد تكون هذه حصيلة مدَّخراته من عرق جبينه. ثانيًا، لماذا أنفق ما يعادل راتب موظَّفٍ صغير على مدار خمسة عشر عامًا، بغية حصوله على منصب عضو في المجلس المحلّيّ؟ وحتّى لو افترضنا أنَّ المبلغ حصيلة مدَّخراته، كيف كان سيتدبَّر أمره في العام الأوَّل إن كان قد أنفقَ كلَّ مدَّخراته؟ ربّما لأنَّ منصبه الجديد كان سيسمح له بجني أكثر من مئتي ألف يورو بكثير.

والمشكلة الثالثة هي ما يشاع في ميلانو عن أربعة آلاف شخص باعوا أصواتهم مقابل خمسين يورو. فإمّا أنَّهم كانوا خائبين إلى هذه الدرجة وإمّا أنَّهم ماكرون. وبكلتا الحالتين، الأمر يبعث على الحزن.

سحب استثمار: كلُّ الذين يهوون الكتب استاؤوا من فعلة السيّد دي كارو، المدير والسارق لمكتبة جيرولاميني بنابولي، إذ يبدو أنَّه لا يتاجر منذ أعوام بكتبٍ مسروقة فحسب إنّما ينتج كتبًا مزوَّرة ببراعةٍ فائقة أيضًا. فإذا صدَّقتُ مقالة كونكيتا سانّينو الموثَّقة بشكلٍ جيّد، والمنشورة في *لا ريبوبليكا* بعدد الثاني من نوفمبر، فإنَّ كثيرًا من هذه الكتب بيعت على موقع إيباي، ومن بينها نسخة من كتاب *وقائع نورمبرغ*، الإنكونابول الشهير، لهارتمان

شيديل، بقيمة ثلاثين ألف يورو. لكنَّ هذا يعني أنَّ دي كارو ليس المذنب الوحيد في هذا الموضوع. فجميع المطَّلعين على مزادات الكتب مهما تفاوتت مستوياتهم (ويكفي استكشافٌ لا تزيد مدَّتُه على خمس عشرة دقيقة على الإنترنت) يعلمون أنَّ هذا الكتاب قد يتراوح سعره ممّا لا يقلُّ عن خمسة وسبعين ألف يورو إلى حدٍّ أقصى يبلغ مئة وثلاثين ألفًا، بحسب سلامة النسخة. لذا فإنَّ نسخةً بثلاثين ألفًا فإمّا أنّها ناقصة أو أنَّها بشروطٍ مثيرةٍ للشفقة حتّى إنَّ باعة الكتب النزيهين يُسمُّونها «نسخة دراسيّة» (لكنَّها في هذه الحالة لا ينبغي لسعرها أن يصل إلى ثلاثين ألف يورو). وعليه، فمَن اشترى نسخةً من ذلك الكتاب على الإيباي بهذا السعر ليس جاهلًا بأنَّه أقدَمَ على حيازة مسروقات (إن كنّا متسامحين؛ وإتجارٌ ببضائع مسروقة إن كنّا صارمين). إنَّنا محاطون بالأنذال تمامًا، بعضهم يباع بخمسين يورو، وآخرون بتخفيضاتٍ بنسبة ستّين بالمئة مقارنةً بأسعار السوق.

البدء منذ الطفولة: أقرأ بدهشةٍ كبيرة على صفحة (*Yahoo Answers*) النداء التالي: «مساعدة صغيرة! أحتاج إلى تلخيصٍ لحكاية *الشيء* لأمبرتو إيكو. هلّا ساعدتموني؟؟ ألف شكر». لا توجد إجابات حاليًّا. هناك إجابةٌ على طلب مساعدة آخر حول واجبٍ منزليّ: «ما آثار التكنولوجيا على الفتية؟ ساعدوني من فضلكم». (وكلُّ هذه النداءات مصحوبة دومًا بوجهٍ مبتسم). تردُّ لويجيا، وهي إحدى المستخدِمات: «هاهاهاها أرى أنَّ التكنولوجيا أثَّرت على الفتية بحيث صاروا يبحثون عن إجاباتٍ سهلة على شبكات ومنصَّات التواصل الاجتماعيّ لأنَّهم ما عادوا قادرين على صياغة فكرةٍ بمفردهم، فيمضون بحثًا عمَّن يُلقِّمهم إيّاها. أصبح الويب بمعرفته الكلّيّة جدَّتهم التي تُدلِّلهم فتُفسِدهم وتُطفئ عقولهم تدريجيًّا... هاهاهاها».

أحسنتِ يا لويجيا، فأنتِ فتاةٌ تتمتَّع بحسٍّ سليم. ولكنْ فلنعد إلى المسألة، التي تغريني، حيث دعا أحد المعلِّمين أو الأساتذة تلاميذه لتلخيص واحدةٍ من حكاياتي. لا أعتقد البتّة أنّه طلب الملخَّص لمجرَّد أن يبحث عنه تلاميذه؛ بل لا بدَّ أنَّه أعطاهم نسخةً عن الحكاية نظرًا إلى أنَّ النص قصير. وعمومًا، فالحقيقة المؤلمة هي أنَّ حكايتي القصيرة (لن أقول لكم أين نُشِرَت، وإن أردتُموها فاجروا بحثًا صغيرًا عنها) لا تتعدَّى خمس صفحات، أقول خمس

صفحات. وعليه، فإنَّ قراءتها ستكون على مَن أطلق النداء أسرَعَ بكثير من تشغيل الكمبيوتر، ودخول النت، وكتابة الرسالة، وانتظار إجابة. أو أنَّه قرأها لكنَّه عاجزٌ عن الحديث عن محتواها (وأؤكِّد لكم أنَّها أقصوصة في منتهى البساطة، يفهمها حتّى الأطفال).

أعتقد أنَّ الأمر مردُّهُ الكسل ليس إلّا. ولقد قيل لي في طفولتي إنَّ المرء يبدأ بسرقة تفَّاحة، ثمَّ محفظة، ثمَّ يخنق أمَّه. وبالمثل يبدأ المرء بطلب ملخَّصٍ من الآخرين، ثمَّ يبيع صوته بخمسين يورو، ثمَّ يسرق كتابًا عتيقًا، لأنَّ العمل متعب، على حدّ وصف ذلك الرجل[1].

2012

مَن يخشى النمور الورقيّة

في مطلع الستّينات كشف عالم الاجتماع مارشال ماكلوهان عن بعض التغيُّرات الجوهريّة في طريقة تفكيرنا وتواصلنا. وكان أحد تكهُّناته أنّنا داخلون إلى قريةٍ عالميّة، وممّا لا شكَّ فيه أنَّ كثيرًا من نبوءاته تحقَّقت في فضاء الإنترنت. ولكنْ، بعد أن حلَّلَ أثر الطباعة في تطوُّر الثقافة وحساسيّتنا الفرديّة نفسها بكتابه مجرَّة غوتنبرغ، كشف ماكلوهان في كتابه *استيعاب الميديا* وأعمالٍ أخرى، عن أفول الخطّيّة الأبجديّة وهيمنة الصورة – الأمر الذي (بعبارةٍ شديدة التبسيط) تترجمه وسائل الإعلام إلى «سيكفُّ الإنسان عن القراءة، وسيشاهد التلفاز (أو الصور الوامضة في المرقص)».

توفّي ماكلوهان عام 1980، تمامًا في الوقت الذي دشَّنت فيه الحواسيب الشخصيّة دخولها في الحياة اليوميّة (ظهرت منها نماذج تجريبيّة في أواخر السبعينات، لكنَّ دخولها الواسع إلى الأسواق الجماهيريّة بدأ عام 1981 مع جهاز PC IBM)، ولو أنَّه عاش بضع سنوات لاضطرَّ إلى الإقرار بأنَّ حضارةً أبجديّةً جديدةً تُثبِتُ حضورها في عالَمٍ تهيمن عليه الصورة ظاهريًّا: فالحاسوب الشخصيّ يستوجب أنَّك تعرف القراءة والكتابة وإلّا

1- «ذلك الرجل» هو ليس أقلّ من الأديب الإيطاليّ الكبير تشيزاري بافيزي، الذي نشر ديوانًا له بعنوان «العمل متعب» عام 1936. (المترجم).

ما تمكَّنتَ من فعل شيء. وصحيحٌ أنَّ أطفال عصرنا الراهن يجيدون استخدام الآيباد حتّى قبل دخولهم المدرسة، إلّا أنَّ كلَّ المعلومات التي نتلقَّاها عن طريق الإنترنت والإيميل والـSMS، ترتكز على معارف أبجديّة. بقدوم الكمبيوتر اكتمل الموقف المعلن في رواية فيكتور هوغو *أحدب نوتردام* الذي صرَّحَ به الراهب فرولّو، حيث أشار إلى كتابٍ مّا أوّلًا، ثمَّ إلى الكاتدرائيّة التي كان يراها من النافذة، زاخرةً بالصور والرموز البصريّة الأخرى، وقال: «هذا سيقتل ذاك». وأثبت الكمبيوتر بالتأكيد أنَّه وسيلةٌ تليق بقريةٍ عالميّة، لِما فيه من وصلات تشعُّبيّة [*Hyperlink*]، وهو قادرٌ على إحياء «*ذاك*» الكاتدرائيّة القوطيّة، بيد أنَّه يستند بشكلٍ أساسيّ إلى مبادئ غوتنبرغيّة حديثة.

عادت الأبجديّة، ولكن مع ابتكار الكتاب الإلكترونيّ تبدَّت إمكانيّةُ قراءة النصوص الأبجديّة لا على الورق إنّما على شاشة؛ ومن هنا تمخَّضت سلسلةٌ من نبوءات جديدة حول اندثار الكتاب والصحيفة (وقد برز هذا الاندثار جزئيًّا من بعض نسب الهبوط في المبيعات). فصار كلُّ صحفيٍّ عقيم الخيال يمارس رياضته المفضَّلة، ألا وهي أن يسأل الأدباءَ منذ أعوام عن رأيهم باندثار هذا الوسيط الورقيّ. كأنّه لا يكفي إثبات أنَّ الكتاب ما زال يتميّزُ بأهمّيّةٍ أساسيّة من حيث نقل المعلومة وحفظها، وأنَّ لدينا دليلًا علميًّا على كتبٍ طُبِعَت خمسمئة عام مضت وقد صمدت بشكلٍ مذهل، في حين أنَّه لا يوجد لدينا أدلَّة علميّة لإثبات أنَّ الوسائط الممغنطة المستخدمة في الوقت الراهن ستتمكَّن من الصمود أكثر من عشر سنوات (ولا يمكننا التحقُّق من ذلك، طالما أنَّ حواسيب هذا الزمن لم تعد تقرأ الفلوبي ديسك السائد في الثمانينات).

غير أنَّ هناك بعض الأحداث المشوِّشة التي نقلت أنباءَها الصُّحفُ حقًّا، والتي لم نتبيَّن بعدُ معناها وتداعياتها. جيف بيزوس، صاحب أمازون، اشترى جريدة الواشنطن بوست في شهر أغسطس؛ وفي الوقت الذي نعلن فيه زوالَ الجرائد اليوميّة الورقيّة، استثمر وارن بافيت مؤخَّرًا في ثلاث وستّين جريدةً يوميّة محلّيّة. يلاحظ فيديريكو رامبيني على صفحات *لا ريبوبليكا* أنَّ بافيت هو أحد عمالقة الاقتصاد القديم وليس مُحدِّثًا، لكنَّه يتفرَّد بحنكةٍ منقطعة

النظير فيما يخصُّ فرص الاستثمار. ويبدو أنَّ كثيرًا من حيتان السيليكون فالّي يتَّجهون كذلك نحو الجرائد اليوميّة.

يتساءل رامبيني عمّا إذا كانت الضربة القاضية ستأتي من جانب بيل غيتس أو مارك زوكربيرغ بشراء النيويورك تايمز. وحتّى لو افترضنا أنَّ هذا الأمر لن يقع، فمن الواضح أنَّ العالم الرقميّ بات يعيد اكتشاف الورق. حساباتٌ تجاريّة، مضارباتٌ سياسيّة، رغباتٌ في الحفاظ على الطباعة بصفتها حارسًا للديمقراطيّة؟ لا أجرؤ على محاولة تقديم أيّ تأويلٍ لهذا الحدث بعد. ولكن يبدو لي من المثير للاهتمام أنّنا نشهد على انقلابٍ جديدٍ للنبوءات. وربّما كان ماو على خطأ: خذوا النمور الورقيّة مأخذ الجدّ.

2013

روما الرابعة

سقوط روما الرابعة

في منتصف الألفيّة الثالثة تقريبًا، ألَّفَ *إدواردجيبون@هيستوري.يوكي*[1] كتابه الشهير «تاريخ اضمحلال الإمبراطوريّات الغربيّة وسقوطها»، حيث تحدَّثَ عن انحلال روما القرن العشرين الرابعة، التي كانت عبارةً عن شبكة إنترنت مهيبة ومكوَّنة من إمبراطوريّةٍ مركزيّة عظمى وأرخبيلٍ من الممالك الفدراليّة. وإنَّ قيمة هذا الكتاب عائدةٌ إلى قوَّته السرديّة؛ أمّا عيبه فكان في أنَّ مؤلِّفه حاول، بطريقةٍ ميكانيكيّةٍ نوعًا مّا، تفسير سقوط روما الرابعة بالمصطلحات ذاتها التي فسَّرَ بها أسلافُهُ المؤرِّخون ووصَّفَوا سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة الأولى.

1- «*edwardgibbon@history.uk*» يسخر أمبرتو إيكو من مصائر أسمائنا بسبب توغُّل تكنولوجيا الاتّصالات في حياتنا إلى العمق، بحيث أنَّ إيميلاتنا الشخصيّة ستصبح أسماءنا يومًا مّا. يتخيَّلُ إيكو في هذا المقال كيف ستتحدَّث الأجيال القادمة عن الفترة الحاليّة، وتردّي الأوضاع السياسيّة في إيطاليا اليوم، وفي الغرب عمومًا، وكيف سيقارنونها بتردّي أحوال الإمبراطوريّات الرومانيّة المتعاقبة وانتكاساتها. لذا فإنَّ المؤرِّخ المفترض المسمّى *إدواردجيبون@هيستوري.يوكي* وهو محاكاةٌ ساخرة لاسم المؤرِّخ البريطانيّ الكبير إدوارد جيبون (1737-1794)، مؤلِّف *اضمحلال الإمبراطوريّة الرومانيّة وسقوطها*؛ سيتناول حقبة برلسكوني وتهافت مفهوم الدولة، بكتابٍ متخيَّلٍ بعنوانٍ ساخرٍ أيضًا «اضمحلال الإمبراطوريّات الغربيّة وسقوطها» محاكيًا عنوان كتاب جيبون الشهير آنف الذكر. (المترجم).

فعلى سبيل المثال، كانت روما الرابعة تعتزُّ بأنّها هزمت روما السارماتيّة[1] الثالثة، لكنَّها -إذ أعادت تأويل مقولة «parcere subiectis et debellare superbos» [اعفُ عن المستسلمين واقهَرِ المتمرِّدين] بصياغةٍ بديعة- لم تدمجها تحت لواء فيالقها، إنّما سمحت بتطوير مافيا حرّة في سوقٍ حرّة. كانت روما الأولى قد سقطت لأنَّها سلَّمَت أمرها لجيوشٍ من المرتزقة الذين لم يكونوا مستعدِّين كثيرًا للموت في قتال البرابرة؛ أمّا روما الرابعة فقد ابتكرت نموذجًا لحروبٍ لا يموت فيها أحدٌ من مرتزقتها، ولا يُقتَلُ فيها أيٌّ من البرابرة، ظاهريًّا على الأقلّ. وهكذا تبدَّى بلاء روما الرابعة عندما انتبهت أنَّ الإمبراطوريّة، مثلما أنَّها لم تعد تخسر حروبًا، لم تكن تنتصر في أيّ حرب. وبما أنَّ الحروب (من حيث التعريف تنتهي بانتصار أحد الطرفين) ليست لها نهاية، فما عاد بوسع روما الرابعة أن تُوطِّدَ سلامها الدائم.

في روما الأولى كان التربُّعُ على العرش الإمبراطوريّ يقع جرّاء انقلاباتٍ في القصر، حيث يبرز دكتاتورٌ مّا ويتخلَّص من خصومه بشراسة. على عكس روما الرابعة، حيث كانت أزمة الخلافة تنشب عندما يتربَّعُ على العرش الإمبراطوريّ بطريقةٍ ديمقراطيّةٍ إمبراطوران اثنان دفعةً واحدة، وما عاد أحدٌ قادرًا على تمييز الحاكم الشرعيّ بينهما. ثمَّ انتقلت النزاعات على الخلافة إلى أشدّ الممالك التابعة هامشيّةً، لكنَّها لم تكن تتمثَّلُ بالاستيلاء على السلطة بقدر تضييعها للسلطة. ذلك أنَّ فصيلين يتنازعان على الحكم، يجدر بكلٍّ منهما صون التكاتف الداخليّ إلى أقصى الحدود، والتطلُّع في الحين ذاته إلى إحداث أزماتٍ وانقساماتٍ في الجماعة المعادية. أمّا في الممالك التابعة لروما الرابعة، فكان هناك تجميدٌ مأساويٌّ للجبهات بين معسكرين، إذ لا يهاجم أيٌّ منهما الآخر وذلك لانشغاله بمعركته الداخليّة. لذا كان الفصيل المنتصر هو الذي يُدمِّرُ أعداؤه (الأقوى) أنفسَهم أوّلًا.

1- السارماتيّون قبائل شرقيّة عاشت في السهوب الأوراسيّة وعلى ضفاف الفولغا، دخلوا في اشتباكاتٍ واسعة مع الرومان، إلى أن استطاعت الإمبراطوريّة الرومانيّة احتواءهم. وربّما يكون المقصود من استحضارهم هنا هو أنَّ الحضارة الغربيّة تغلَّبت على المعسكر الشرقيّ لكنَّها لم تعمل على استيعابه مثلما فعلت روما في زمانها، بل أمعنت في تطوير رأسماليّة متوحِّشة تبتلع كلَّ شيء. (المترجم).

وكان *إدواردجيبون@هيستوري.يوكي* محقًّا في وصف الحقبة التاريخيّة التي درسها بأنّها مرحلة اضمحلالٍ جديدة. سوى أنَّ فترة الاضمحلال الأولى كانت تخشى على حدود الإمبراطوريّة من شراذم «برابرة بيض وضخام» (كما أنشَدَ الشاعر)، في حين أنَّ الفترة الثانية كانت ترتعد من الغزو المسالم لبرابرة قِصار وملوَّنين[1]. وفي كلتا الحالتين كانت الإمبراطوريّة تتفاعل مع الحدث بتأليف «قصائد متوَّجَة وخاملة» (كما قال الشاعر نفسه). وقد عكَّرَت الشهوانيّةُ الشائعةُ صفوَ العادات التليدة: مواكب من فتياتٍ شبه عاريات، ينشرن البهجة في الفعاليّات الاجتماعيّة الكبرى، ورجال السلطة يُقدِّمون أنفسهم على الملأ بمعانقة فاجراتٍ ماجنات وغناء أناشيد الفرح والمتعة. ولم يعد الشعب منجذبًا إلّا لألعاب السيرك، حيث يشاهد المجزرة المتبادلة لحوالي عشرة شبّانٍ منغلقين طوال أشهر في الزنزانة نفسها. وحتّى دينُ الأجداد بات في خطر: المؤمنون، عوضًا عن انشغالهم بالمسائل اللاهوتيّة العظمى التي تأسَّسَ عليها إيمانهم، انساقوا خلف ديانات الأسرار والخفايا والغوامض، وباتوا يعبدون تماثيل ناطقة وباكية، ويستمعون إلى وسطاء الوحي، ويخلطون الطقوس التقليديّة بأساليب العهر الجماعيّ.

2000

ولكن هل هو متحدِّثٌ كبيرٌ حقًّا؟

سيصدر هذا *المغلَّف* عندما يكون السجال قد هدأ، أغلبَ الظنّ، حول تصريحات رئيس الوزراء، وطنيًّا ودوليًّا، بما يخصُّ مشكلاته العائليّة المفترضة؛ وعليَّ أن أقول إنَّ الصحافة، من مختلف مشاربها، تعاملت مع هذا الشأن برصانةٍ نموذجيّة، إذ دوَّنَت الحدثَ وعلَّقت عليه منذ اليوم الأوَّل، لكنَّها تفادت إيغال السكِّين في الجرح. لذا فإنّي أعود إلى الخبر الآن، بعد

1- إشارة إلى هوس اليمين المتطرِّف بتشبيه موجات الهجرة بغزوٍ منظَّم وممنهج يهدف لتغيير الهويّة الثقافيّة الأوروبيّة. فيشبِّهون هجرات الآسيويّين والأفارقة وغيرهم (القصار والملوَّنين) بغزوات البرابرة (الضخام والبِيض) الذين أسقطوا روما. (المترجم).

مضيّ هذه المدَّة، لا لأنّي أفتقد حسن السلوك، بل لأنَّ الحادثة يجب أن تُناقَش في السنوات المقبلة في محاضرات علوم التواصل، إذ إنَّ حقوق التحليل العلميّ مصانة.

كما آمل أن يكون الجميع قد نسي ما حصل بعد مضيّ حوالي الأسبوعين. حسنًا: باستقباله زعيمًا أجنبيًّا، أدلى رئيس وزرائنا ببعض الإفادات المتعلِّقة بعلاقةٍ مزعومة (بمعنى أنَّها شائعة، مادّةٌ للنميمة) بين زوجته ورجلٍ آخر، واصفًا زوجته بأنَّها «امرأةٌ مسكينة». وبقراءة الصحف بدءًا باليوم اللاحق، يُستَنتَجُ أنَّ لهذه الخطوة تفسيرين ممكنين. الأوَّل: لشدّة غيظ رئيس وزرائنا من هذه المذمَّة الشخصيّة للغاية، فرَّغَها على العلن. والثاني: لكون المتحدِّث الكبير، الذي هو رئيس وزرائنا، قد سمع بشيوع نميمةٍ محرجةٍ بالنسبة إليه، قرَّرَ أن يقطع رأس الثور وأن يجعل النميمة مادَّةً للهزل العامّ، بحيث ينتزع عنها لذَّتها المحرَّمة.

ومن الواضح أنَّ عبارة «امرأة مسكينة» كانت في الحالة الأولى ستبدو مهينةً بحقّ زوجته، في حين أنَّها في الحالة الثانية ستبدو مهينةً بحقّ الطرف الثالث المزعج والمفترض (مسكينةٌ هي لو كان الخبر صحيحًا -يُلمِح- لكنَّ الخبر ليس صحيحًا بالطبع، فها أنا أمازح فيه). لو كان التفسير الأوَّل صائبًا، مع أنَّني أميل إلى استبعاده، فستكون الحالة أقرب إلى اختصاص علم النفس منها إلى علم السياسة. فلنفترض أنَّ التفسير الثاني هو الصائب إذًا. فهذا تمامًا ما ينبغي أن يصبح مادّةً للتحليل لا لدى طلّاب علوم التواصل فحسب إنّما لدى طلّاب التاريخ أيضًا.

يبدو المتحدِّث الكبير أنّه قد تجاهل بالفعل مبدأً بديهيًّا يكون بموجبه تكذيبُ الخبر هو الخبر نفسه مضروبًا باثنين. وليته كان اثنين فقط. فأنا على سبيل المثال (ربّما لأنَّني في الأشهر الأخيرة قد سافرتُ كثيرًا، إلى بلادٍ لا تلهج بما يقع في ديارنا) لم أسمع من قبل بهذه النميمة – التي من المحتمل أنَّها شاعت بين بعض السياسيّين، وبعض المثقَّفين، وبعض ضيوف اليخوت على الشاطئ الزمرُّديّ. حتّى لو كنّا كرماء، فلنقل بين ألف، ألفي شخص. ولكن بعد المداخلة العلنيّة لرئيس الوزراء، آخذين بالاعتبار وجود الاتّحاد الأوروبيّ، وصل التلميح إلى مئات الملايين من الناس. لا تبدو لي ضربة معلِّم، بل ضربة متحدِّثٍ كبير.

حسنًا موافقون، سنوصي طلَّابنا بألّا يتصرَّفوا على هذا النحو، فدعاية معجون الأسنان التي تبدأ بـ«تكذيبًا لمن يدَّعي أنَّ معجون الأسنان يُسبِّب السرطان» قد تزرع في ذهن المشتري سلسلةً من الشكوك وقد تفضي إلى انهيارٍ في مبيعات هذا الغرض النسائيّ النافع. سنشرح لهم أنَّ برلسكوني، مثل هوميروس، ينعس من حينٍ لآخر، إنَّه العُمر.

إلّا أنَّ التفسير الثاني مهمٌّ جدًّا من منظور علم التاريخ. ففي العادة يفعل السياسيُّ ما بوسعه للإبقاء على مشكلاته المنزليّة بمعزلٍ عن مشكلات الدولة. فوجئ كلينتون والسروال بيده، لكنَّه بذل أفضل ما عنده ليتجاوز الفضيحة، حتّى إنَّه حرَّكَ زوجته لتقول على التلفزيون إنَّ الأمر تافه. وقد يكون موسوليني ما هو عليه، لكنَّه كان يحلُّ مشكلاته مع السيّدة راكيل بين حيطان البيت الأربعة، ولا يذهب لمناقشتها في ساحة فينيسيا، وإن كان قد أرسل كثيرًا من الناس إلى روسيا فهذا لأنَّه كان يلاحق حلمه بالمجد، لا لإرضاء عشيقته كلاريتّا بيتاتشي. فأين تحقَّقَ، في التاريخ، اختلاطٌ كاملٌ بين السلطة السياسيّة والشؤون الشخصيّة؟ في الإمبراطوريّة الرومانيّة، حيث الإمبراطور وليٌّ مطلقٌ للدولة، يفلت من سيطرة مجلس الشيوخ عليه، ويكتفي بمؤازرة الحرس البريتوريّ المكلَّف بحمايته، فيطرد أمَّه حينذاك، ويُعيِّنُ حصانه سيناتورًا، ويُجبِر حاشية البلاط الذين لا يُقدِّرون أشعاره على تقطيع شرايينهم...

مغزى الكلام أنَّ هذا يحدث عندما لا ينشأ نزاع مصالح إنّما تطابقٌ مطلقٌ للمصالح بين الحياة الشخصيّة (والمصالح الخاصّة) والدولة. وتطابق المصالح المطلق هذا يُنذِرُ بقيام نظام، في مُخيِّلة مَن يحلم بإقامته على الأقلّ، لا صلة له بأيٍّ من أنظمة العصور الفائتة، بل بتقاليد الإمبراطوريّة السفلى. ثمَّ هل تذكرون، في بداية عهد الملكيّات المطلقة، كيف يستبق لورد باكنغهام (بحسب دوما في رواية الفرسان الثلاثة) انقضاضَ ميلادي دي وينتر على مجوهرات الملكة (عشيقته)، فيغلق الموانئ ويعلن الحرب على فرنسا؟ هكذا بالضبط، عندما يتأسَّسُ تطابقٌ مطلقٌ للمصالح، تقع حوادث من هذا النوع.

2002

اقتل العصفور[1]

تستحقُّ المناقشات حول الطبائع المنسوبة إلى «النظام» الذي تعمل حكومة برلسكوني على إرسائه بمنهجٍ بطيءٍ وتدريجيّ، تستحقُّ مزيدًا من التوضيح لمفاهيم معيَّنة من قبيل: محافظ، رجعيّ، فاشيّ، لامبالي، شعبويّ وإلى آخره. الرجعيُّ هو الذي يؤمن بوجود حكمةٍ عريقة، ونموذجٍ تقليديٍّ للمنظومة الاجتماعيّة والأخلاقيّة، يجب العودة إليه بأيّ ثمن، ممانعًا شتّى ما يُسمَّى بمنجزات التقدُّم، بدءًا بالأفكار الليبراليّة-الديمقراطيّة وانتهاءً بالتكنولوجيا والعلم الحديث. لذا فإنَّ الرجعيَّ ليس محافظًا، إنّما ثوريٌّ «إلى الوراء» إن جاز التعبير. وكان هنالك على مدى التاريخ رجعيّون كبار لا يُمثِّلون بالتأكيد أيًّا من ملامح الأيديولوجيات الفاشيّة، الخاصّة بالقرن العشرين. لا بل لو قارنّاها بالرجعيّة التقليديّة، لوجدنا أنَّ الفاشيّة كانت «ثوريّة-حداثويّة»، تُمجِّدُ السرعة والتقنيّة الحديثة (راجِع المستقبليِّين)؛ وهذا رغم أنَّها وفَّقَت بأسلوبٍ عجيبٍ يليق بها فعلًا بين تيَّاراتٍ متعارضة، فضمَّت إلى صفوفها رجعيِّين بالمعنى التاريخيّ للكلمة، مثل يوليوس إيڤولا.

المحافظ ليس رجعيًّا وليس فاشيًّا حتّى. هاك تشرتشل على سبيل المثال، كان ذا تطلُّعاتٍ ليبرالية ومناهضة للشموليّة. أمّا الشعبويّة فهي شكلٌ من أشكال النظام الذي، إذ يحاول تجاوز الوساطات البرلمانيّة، يرمي إلى توطيد علاقةٍ جماهيريّة مباشرة بين الزعيم ذي الكاريزما والجماهير. وقد شهد التاريخ على صعود شعبويّةٍ ثوريّةٍ تلتجئ إلى الشعب لاقتراح إصلاحاتٍ اجتماعيّة، وكذلك أشكال عديدة من شعبويّةٍ رجعيّةٍ على حدٍّ سواء. الشعبويّة ببساطة هي منهجٌ يتضمَّنُ إحياءً غريزيًّا لما يُفتَرَض أنَّها الأفكار أو الأحكام المسبقة الأكثر تجذُّرًا لدى الجموع (تُعرَّفُ هذه

1- «*Ammazza l'uccellino*» استعادة لعنوان مجموعة قصصيّة كتبها أمبرتو إيكو للأطفال تحت اسم مستعار «ديدالوس». والعنوان يحتوي على تلاعب لغويّ بين معنيين باللغة الإيطاليّة، «ما أجمل العصفور!» و«اقتل العصفور!». وسنرى أنَّ هذا العنوان هو للحديث عن قانونٍ يسمح بالصيد. (المترجم).

المشاعر بالبوجاديّة أو اللامبالاتيّة)[1]. أمبرتو بوسّي، على سبيل المثال، ينتهج أسلوبًا شعبويًّا بدغدغة مشاعر لامبالاتيّة، كالرُّهاب من الأجانب أو الارتياب بالدولة. وبهذا المعنى لا شكَّ أنَّ اللامبالاتيّة تفوح من تأليب برلسكوني لمشاعر عميقةٍ و«همجيّة» كأن يعتبر التهرُّبَ الضريبيَّ سلوكًا صائبًا، وأنَّ الساسة كلَّهم لصوص، وأنّه ينبغي لنا عدم الوثوق بالعدالة لأنَّها هي التي تزجُّ بنا في السجن. في حين أنَّ المحافظ الجادّ والملتزم لن يُحرِّضَ المواطنين أبدًا على الامتناع عن دفع الضرائب، فذلك قد يضرُّ بالنظام الذي يعتزم المحافظة عليه.

وعلى الرغم من التباين الكبير بين هذه التوجُّهات المختلفة، فإنَّ كثيرًا من موضوعات الجدال السياسيّ متداخلة. فلنأخذ عقوبة الإعدام مثلًا. قد تكون هذه العقوبة موضع تأييدٍ أو رفضٍ على حدٍّ سواء من قِبَلِ المحافظين؛ وعادةً ما تجد تأييدًا لدى الرجعيّ المتشبِّث بأساطير الفداء، والجزاء، وإراقة الدم بوصفها عنصرًا مطهِّرًا للذنوب (راجع دوميستر)؛ وقد تكون ذريعةً مناسِبةً لشعبويٍّ يؤلِّب مخاوف عامّة الناس من الجرائم المتوحِّشة، لكنَّها لم تكن موضع تساؤلات البتّة حتّى في ظلّ الأنظمة الشيوعيّة. بخلاف التوجُّه نحو القيم البيئيّة: إذ إنَّ حماية أمِّنا الأرض، حتّى لو كلَّفَتنا فناء الجنس البشريّ، هي موضوعةٌ محبَّبةٌ لدى الرجعيِّين، لكنَّ الدفاع عن البيئة قد يتبنّاه محافظٌ يتمتَّع بحسِّ المسؤوليّة (ليس بوش طبعًا، لأنَّه مضطرٌّ إلى الاستجابة للقوى الصناعيّة الساعية إلى تطوُّرٍ لا رقابة عليه)، بقدر ما يتبنّاه ثوريٌّ من أقصى اليسار.

قد يؤيِّد الشعبويُّ احترامَ البيئة، لكنَّه في العادة مُلزَمٌ بتصفية حساباته مع المشاعر العميقة لهذا «الشعب» الذي يستهدفه. كان الفلّاحون على مدى

1- البوجاديّة نسبة إلى السياسيّ الفرنسيّ بيير بوجاد، الذي «الاتّحاد للدفاع عن التجّار والحِرَفيّين» في وجه هيمنة الصناعة، من خلال حملةٍ دهمائيّة تقتات على خيبة العامّة من النظام البرلمانيّ وعجز الجمهوريّة الرابعة والوضع السياسيّ المتزعزع. كذلك اللامبالاتيّة، في إيطاليا، تتَّخذ اسمها من مجلّة «الإنسان اللامبالي» التي تأسَّست في أعقاب الحرب العالميّة الثانية، لتُعبِّر عن تململ الناس من أداء الطبقة السياسيّة وعدم ثقتهم بنجاح التجربة الديمقراطيّة والوطنيّة عمومًا. (المترجم).

العصور يحترمون البيئة بما يتعلَّق بزراعة المنطقة الضيِّقة المحدَّدة لهم فقط، لكنَّهم لطالما قطعوا أشجار الغابات كلَّما ناسبهم ذلك، دون أن يُشغِلوا بالهم بالعواقب الجيولوجيّة على نطاقٍ أوسع. وإذا بدا لنا أنَّ الفلّاحين في الماضي كانوا يحترمون البيئة أكثر من الفلّاحين المعاصرين فهذا لأنَّ الغابات والأحراج كانت حينذاك متوافرةً بكثرةٍ لدرجة أنَّ قطعهم لأشجارها لم يكن يُسبِّب أيَّ مشكلة بعد. «لكلِّ امرئٍ الحقُّ في بناء منزله حيثما أراد، دون أن يكون مُقيَّدًا بأيّ عوائق بيئيّة»: قد يكون هذا شعارًا شعبويًّا ناجحًا.

أثار النقاشَ في هذه الأيّام قانونٌ يرمي إلى توسيع ضمانات الصيّادين بشكلٍ غير محدود. فالصيد ممارسةٌ وهوايةٌ شعبيّة، وتستند إلى مشاعر موروثة وتقاليديّة. فطالما أنَّ المجتمعات البشريّة تسمح بتربية الدواجن والأبقار والخنازير، لذبحها فيما بعد وتناول لحومها، فلا غضاضة إذًا في السماح بالذهاب إلى محميّاتٍ مخصَّصة، بعيدًا عن المناطق المأهولة، وخلال فصولٍ محدَّدة، لممارسة رياضة قتل الحيوانات الصالحة للأكل ما دام تكاثرها يحظى بالرعاية والوقاية. شرط أن يتمَّ الأمر ضمن حدودٍ معيَّنة. إلّا أنَّ القانون المذكور يهدف إلى دفع هذه الحدود إلى أبعادٍ ما قبل إيكولوجيّة. لماذا؟ لأنَّ المقترح يغازل نزعة التقاليد المتوارثة، ويغازل «الشعب العميق»، المرتاب بأيّ نقدٍ وإصلاحٍ للتقاليد، والشعب حساءٌ لثقافة كلِّ التيّارات البوجاديّة.

يُبيِّنُ مشروع القانون هذا مرّةً أخرى مدى الطبيعة الشعبويّة–اللامبالاتيّة لنظامٍ صاعد، يتغذّى على دغدغة غرائز خارجة عن السيطرة لناخبٍ لم يتربَّ جيّدًا على ممارسة النقد.

2004

عن نظام الشعبويّة الإعلاميّة

عندما حلَّ برلسكوني ضيفًا على البرنامج التلفزيونيّ *بأبا لباب* وأعلن الانسحاب الإيطاليّ المفتَرض من العراق، كنتُ في باريس بعدها بأيام، لحضور افتتاح صالون الكتاب؛ فحظيتُ بفرصةٍ للتحدُّث عن الشؤون

الإيطاليّة مع الفرنسيِّين، المتخصِّصين في عدم فهم ما يحدث في بلدنا – وغالبًا ما كانوا محقِّين في هذا.

السؤال الأوَّل: لماذا أعلن رئيس وزرائكم قرارًا بهذا القدر من الخطورة في برنامجٍ تلفزيونيٍّ وليس في البرلمان –حيث كان سيلتمس رأيًا أو قبولًا؟ فشرحتُ أنَّ هذا هو شكل نظام الشعبويّة الإعلاميّة الذي يعمل برلسكوني حاليًّا على إرسائه، حيث تقام علاقةٌ مباشرة بين الزعيم والشعب، عبْر وسائل الإعلام، مُجرِّدًا البرلمان من صلاحيّاته (حيث لا يحتاج رئيس الوزراء إلى البحث عن قبول لأنَّه قد ضمن القبول أساسًا– لذا يتحوَّل البرلمان إلى كاتب العدل الذي يُوثِّقُ الاتّفاقيّات المبرمة بين برلسكوني وُمقدِّم البرنامج برونو فسبا).

وشرحتُ أيضًا أنَّ إيطاليا بلدٌ عجيبٌ مبنيٌّ على النفاق اللفظيّ. فعندما تتحدَّث الصحف والإذاعات الأمريكيّة عن العراق تستخدم كلمة *insurgency* (التي تُتَرجم في بلدي «انتفاضة» أو حرب عصابات واسعة على الأقلّ)؛ في حين أنَّنا في إيطاليا إذا استخدم أحدهم كلمة «مقاومة» المقابلة لتلك تقريبًا، نُمزِّقُ ثيابنا كما لو أنَّه تجرَّأ على مقارنة الإرهاب الأصوليّ بالمقاومة الإيطاليّة الماجدة. ولا نقبل فكرة أنَّ «المقاومة» هي مصطلحٌ حياديّ، مثل «التمرُّد» أو «الانتفاضة»، ينبغي استعماله حين يحمل جزءٌ من الشعب في بلدٍ مّا السلاحَ ليقاوم محتلًّا أجنبيًّا – حتّى لو لم يعجبنا ما يفعله المقاومون، وحتّى لو اندسَّت في حراك المسلَّحين جماعاتٌ من الواضح جدًّا أنَّها إرهابيّة. وكشفتُ أيضًا عن أنَّ أكثر الاعتراضات المتألِّمة على تشويه سمعة المقاومة الإيطاليّة الماجدة آتيةٌ بالمناسبة ممَّن يحاولون في أماكن أخرى أن يُثبتوا كيف كانت مقاومتنا صنيعة رجال عصابات ومجرمين. لكنَّ هذه قصَّةٌ أخرى.

لذا أوضحتُ (وهذا قصورٌ لفظيٌّ آخر غريبٌ من نوعه) أنَّ كثيرًا من الأشخاص يشقشقون ثيابهم عندما نتحدَّث بخصوص برلسكوني عن «نظام»، لأنَّهم يظنُّون أنَّه لم يكن هنالك سوى نظام واحد، وهو النظام الفاشيّ، ويُثبِتون بسهولة أنَّ برلسكوني لا يجبر الأطفال الإيطاليّين على ارتداء القميص الأسود ولا يحاول الاستيلاء على أثيوبيا (الأمر الذي لن

يفكِّر حتّى اليمينيّ فرانشسكو ستوراتشه بفعله، حسب اعتقادي). ولكنْ، كلمة «نظام» تعني شكل حُكم، والدليل أنّنا نتحدَّث عن نظامٍ ديمقراطيّ، ونظام ملكيّ، ونظامٍ جمهوريّ إلخ. وما يعمل برلسكوني على إرسائه هو شكلٌ حُكمٍ غيرُ مسبوق، مختلفٌ عن الشكل الذي سنَّهُ الدستور، وهذه هي بالضبط الشعبويّة الإعلاميّة التي كنتُ أتحدَّث عنها، والدليل أنَّ برلسكوني بغية تعزيز نظامه هذا يحاول أن يُعدِّلَ الدستور.

تضاعفت الأسئلة في الأيّام اللاحقة بعد الردود القاسية اللهجة التي وجَّهَها بوش وبلير، إذ قال برلسكوني إنّه لم يقل مطلقًا إنَّه سيسحب القوّات من العراق. ولكن كيف من المعقول أن يناقض نفسه بهذه الطريقة - سألني محاوريَّ. فشرحتُ أنَّ هذا هو أجمل ما في الشعبويّة الإعلاميّة. فإن كنتَ تذهب إلى البرلمان لتقول شيئًا، فأنت في قلب الحدث، ولن يكون بوسعك بعدئذ أن تنكر أنَّك قلتها. بخلاف ذلك كان برلسكوني قد قالها على التلفزيون، وسرعان ما حصل على النتيجة التي كان يتطلَّعُ إليها (كسب شعبيّةٍ معيَّنة لمصالح انتخابيّة)؛ وبعد ذلك، عندما أكَّدَ أنَّه لم يقلها، هدَّأ غضب بوش من جانب، ولم يخسر القبول الذي كسبه من الجانب الآخر، لأنَّ أهمَّ ميزات وسائل الإعلام الجماهيريّ تتمثَّلُ في أنَّ مَن يتابعها (ولا يقرأ الصحف) ينسى في اليوم اللاحق ما قيل حقًّا في اليوم السابق، وربّما يتذكَّر بالحدّ الأقصى انطباعه بأنَّ برلسكوني قال شيئًا طريفًا.

وهذا مسلكٌ اعتياديٌّ في البرامج التلفزيونيّة لبيع المنتجات: بوسع مَن يبيع مستحضرات الشعر أن يُظهِرَ في الثامنة والنصف صورتين لزبونٍ أصلع كلّيًّا استعاد شعره الكثيف لاحقًا، ليقول في العاشرة والنصف إنَّ منتجه جادٌّ بطبيعة الحال، لا يَعِدُ بإنماء الشعر المفقود لكنَّه معجزةٌ في إيقاف تساقط الشعر المتبقّي. وفي الأثناء إمّا يتغيَّرُ المتفرِّجون، وإمّا إذا بقوا أنفسهم ينسون ما قيل قبل ساعتين، ولا يتذكَّرون إلّا انطباعهم بأنَّ البائع يبيع أشياء مسجَّلَة لا آمالًا زائفة.

ولكن -لاحظ محاوريَّ- ألا ينتبه الإيطاليّون أنَّهم بما فعله برلسكوني (ومعه إيطاليا) يفقدون مصداقيّتهم ليس لدى شيراك وشرودر فحسب إنّما لدى بلير وبوش أيضًا؟ لا، أجبتُ، هذا ما ينتبه إليه الإيطاليّون الذين يقرأون الصحف، لكنَّ هؤلاء أقلّيّةٌ بالمقارنة بأولئك الذين يتلقَّون الأنباء حصرًا من

التلفزيون، والتلفزيون لا يُقدِّم إلّا الأنباء التي تعجب برلسكوني. وهذا هو بالضبط نظام الشعبويّة الإعلاميّة.

2005

أمريكيّةٌ في روما

لدى آليس أوكسمان بعض الإعاقات. فهي أمريكيّة، وهذا قد يُحزِن اليسار الراديكاليّ، لكنَّها لم تشارك في يوم الاستقلال الأمريكيّ، الذي ظهرت فيه نساءٌ متَّشحاتٌ بالأعلام الأمريكيّة، وهذا قد يجعلها مكروهة في نظر صحيفة *إلفوليو* ذات التوجُّهات اليمينيّة. وهي يهوديّة، الأمر الذي قد يُحزِن كثيرين في هذه الأيّام، من اليمين مثلما من اليسار. وهي يساريّة، وهذا ما يُحزِن اليمين. إضافةً إلى أنَّها زوجة فوريو كولومبو، وهذا ما قد يحرِّضُ ضدَّها شكوكًا من اليمين ومن اليسار على حدٍّ سواء. لحسن الحظّ أنَّها ليست قبيحة.

لذا من الطبيعيّ أن يكون كتابها مريرًا، وهو بعنوان *في عهد برلسكوني. يوميّات سيِّدة أمريكيّة في روما 2001–2006* (إصدار إديتوري ريونيتي، 2007). ومريرةٌ هي المشاهِدُ التي تتكلَّمُ فيها بضمير الأنا، في المراسلات الإلكترونيّة المتبادلة مع ابنتها التي عاشت أحداث 11 سبتمبر (وما تلاها) في نيويورك؛ ومريرٌ كلامُها عن حوادث زوجها الصحفيّة (ربّما قد بالغت في ذكرها، واشتباهها بنزاع المصالح)؛ لكنَّ المرارة تستفحل وتصبح مربكةً عندما تكتفي بالإتيان بقصاصاتٍ من الصحف وأنباء من الوكالات، دون أيّ تعليقٍ من جانبها. الأمر الذي يجعل كتابها وثيقةً صادمة، لمن نسي، عن إحدى أشدّ الفترات ظلامًا وبشاعةً في تاريخنا. وسأكتفي هنا بمختارات قليلة:

2001. «أتطلَّعُ إلى تحرير البلد من ثآليل القضاء» (كارلو تاورمينا). «–جنوا مدينةٌ جميلةٌ جدًّا.– ولكن، سيّدي الرئيس، هنالك حربٌ خارج هذه القاعة وقد سقط قتيلٌ في الشارع.– آه، نعم، عرفتُ بذلك، إنَّه حدثٌ مأساويّ» (بوش في قمّة الدول الثماني، جنوا). «هذه حرب أديان» (أوريانا فالّاتشي). «ثمّة اتّفاقٌ تامٌّ في الرؤى بين بوش وبرلسكوني» (نشرة الأخبار على قناة راي2).

2002. «استخدم إنتزو بياجي وميكيلي سانتورو ودانييلي لوتاتسي[1] التلفزيونَ الوطنيَّ استخدامًا إجراميًّا» (برلسكوني بتصريحٍ من العاصمة البلغاريّة صوفيا). «أستضيف هنا في سردينيا بنات صديقي بوتين» (برلسكوني). «في بورتو روتوندو تتبدّى ملامح مستقبل كامب ديفيد إيطاليّ»[2] (مجلّة بانوراما). «في الجنوب يسيرون خلفي بموكبٍ ويُهلِّلون كأنّني قدِّيس» (برلسكوني، قناة راي1).

2003. «ماريانو أبيتشيلا[3] يشدُّ أوتار الغيتار، يُسمِعُهُ بعضَ الأنغام، فيباشر رئيسُ الوزراءِ مؤلِّفُ الكلماتِ بالغناء. هذا هو العالم العاطفيّ والموسيقيّ لرئيس وزرائنا: إنَّه خوليو إغلاسياس الإيطاليّ» (صحيفة ليبيرو). «القضاة مجانين، ومضطربون ذهنيًّا» (برلسكوني). «إذا قُتِلتُ فتذكَّروا أنَّ الجريمة وقعت بتفويضٍ خطّيٍّ من أنطونيو تابوكّي وفوريو كولومبو. وأبلِغوا جهاز المخابرات فورًا» (جوليانو فيرّارا). «برلسكوني رجلٌ ليبرالي بشكلٍ فريد. إنَّه طيِّبٌ بشكلٍ هائل، طيِّبٌ بشكلٍ استثنائيّ. أصاب فيرّارا عندما قارنه بموزارت من حيث البراءة والعبقريّة» (ساندرو بوندي). «هل نُسلِّمُ بيتنا لأوَّل قردٍ يأتينا؟ لا مزاح في هذا» (أمبرتو بوسّي).

2004. «أولئك القضاة شيوعيّون ملاعين» (كارلو تاورمينا). «برلسكوني؟ أنت تعلم كم هو شاطر. أنا معجبةٌ به جدًّا. بوتين يُقدِّره، بوش يُقدِّره. وأخيرًا ثمّة مَن يُقدِّره» (سيمونا فنتورا). «كانوا يصرخون على برلسكوني: «عد إلى بيتك». فصرخنا نحن كذلك. فقال لي بنفسه: «وجهكِ خراء»» (آنّا غالّي،

1- مُقدِّمو برامج حواريّة واستقصائيّة وساخرة، تتناول برلسكوني وقضايا الفساد. اتَّهمهم برلسكوني إذًا بأنَّهم يُحرِّضون ضدَّه بطريقةٍ إجراميّة، وقدَّمَ الثلاثة استقالاتهم من التلفزيون. (المترجم).

2- في بورتو روتوندو، بجزيرة سردينيا، يقع قصر شيرتوزا العائد لممتلكات برلسكوني الذي كان يقيم فيه حفلاتٍ ماجنة مع راقصات وقاصرات. مجلّة بانوراما تمتدح رئيس الوزراء وتتباهى بصنائعه من منظورٍ سياسيّ للتغطية على الفضيحة. (المترجم).

3- مغنٍّ إيطاليّ اشتُهِر بغنائه كلمات من تأليف برلسكوني. (المترجم).

مواطنة). «أشعر بالعار من تعيين الشاعر ماريو لوتزي سيناتورًا مدى الحياة. شخصٌ من هذا النوع يُهين عالَمنا... كان من الأفضل تعيين مايك بونجورنو» (ماوريتزيو غاسبارّي).

2005. «كم طول حضرتك؟ متر وثمانية وسبعون؟ لا تبالغ، تعال إلى هنا عند المرآة، انظر، طولي متر وواحد وسبعون. ولكن هل يبدو لك صائبًا أن يُوصَفَ رجلٌ بطول متر وواحد وسبعين بأنَّه قزم؟» (برلسكوني في *لا ستامبا*). «تشتَّتَ ذهن الناخب بسبب وفاة البابا، الأمر الذي كان له تأثيره في بيانات الامتناع عن التصويت بلا شكّ» (إنريكو لالوجّا). «إيطاليا تعيش في عصر الرفاهية... ففي صفّ ابني لدى كلّ فتىً هاتفان محمولان» (برلسكوني في نشرة أخبار راي2). «قصري يشرف على إطلالةٍ رائعة... وألاحظ في هذه السنة أيضًا قوارب كثيرة. وإن كانت هذه قوارب أثرياء فهذا يعني أنَّ لدينا من الأثرياء كثيرًا. الرواتب بازديادٍ يفوق التضخُّم، وثراء عائلاتنا ليس له مثيلٌ في أوروبا» (برلسكوني في *لا ستامبا*).

2006. «هؤلاء اللوَّاطة يثيرون الاشمئزاز» (روبرتو كالديرولي). «إنَّني فاشيّةٌ وأفتخر. فالفاشيّون أفضل من الشواذّ» (ألسّاندرا موسوليني[1] في برنامج *بآبا لباب*). «الأمور على خير ما يرام... في الأمس ذهبتُ إلى المطعم مع بعض الأصدقاء، ولم يكن هناك مكانٌ شاغر. حتّى توجَّبَ عليهم أن يقولوا إنَّني أتيتُ، فأنْهَضوا بعض الأشخاص» (برلسكوني على قناة لا سيتّي).

أنْهَضوا بعض الأشخاص. لحسن الحظِّ أنَّ ما يعمل برلسكوني على إرسائه ليس بنظام. ومن المؤسف أنَّ الكتاب ينتهي مع العام 2006. إذ كان سيخبرنا عن احتفاليّة يوم الدفاع عن قيم الأسرة التي وقف في صفوفها الأولى مطلَّقون أكثر من مرَّة، ومساكنون إلى أجلٍ غير مسمّى، وعزَّابٌ

1- ألسّاندرا موسوليني، ابنة عازف البيانو رومانو موسوليني، (وماريّا شيكولونه شقيقة الممثّلة صوفيا لورين)، وبطبيعة الحال هي حفيدة الدكتاتور بينيتو موسوليني. تعمل في مجال السياسة، وتنادي إلى إحياء القيم الفاشيّة. ودخلت البرلمان غير مرّة عن قوى اليمين المتطرِّف، ولها حضور تلفزيونيّ كثيف، وسلوكيّات استفزازيّة ومثيرة للجدل. (المترجم).

رفضوا الزواج من باب الزهد (وكان بينهم -إذا اعتمدنا على الاحتمالات- بعضُ المتحرِّشين بالأطفال أيضًا).

2007

قلبي مُلكٌ لِدادي

فكرة رقم واحد: أقرأ أنَّ رئيس وزرائنا قال إنَّه لا ضير في ترشيح نساء غير بشعات من الناحية الجسديّة. المشكلة تكمن في كيف تقال الأشياء. فالجميع يعرف نكتة اليسوعيّ والدومينيكانيّ اللذين يجريان تمارين روحانيّة، وكان اليسوعيُّ يُدخِّن هانئًا وهو يتلو أدعيته. فسأله الدومينيكانيّ كيف أمكن له فعلها، فأجابه اليسوعيُّ بأنَّه طلب الإذن ممَّن هم أعلى منه. فقال الدومينيكانيُّ الساذج إنَّه طلب الإذن هو كذلك ولم يُمنَحْ إيّاه. «ولكن كيف طلبتَه؟» سأله اليسوعيّ. ردَّ الدومينيكانيّ: «هل لي أن أدخِّن وأنا أصلِّي؟» وكان من البديهيّ أن يجيبوا بلا. أمّا اليسوعيُّ فقد طلب الإذن كالتالي: «هل لي أن أصلِّي وأنا أدخِّن؟» فأجابه القيِّمون أنَّ بإمكانه الصلاة في أيِّ ظرف.

لو أنَّ برلسكوني قال إنَّه لا ضير في أن تكون المرشَّحة إلى الانتخابات جميلة أيضًا، لصفَّقَ له الجميع بمن فيهم النسويّات. لكنَّ كلامه فُهِمَ بأنَّه لا ضير في ترشيح فتاةٍ جميلة إلى الانتخابات؛ وهنا سقط الحمار. ربّما من السوء أن تُرشَّح فتاة لمجرَّد أنَّها جميلة.

فكرة رقم اثنين: بمناسبة الحديث عن الفتاة النابوليّة التي تنادي برلسكوني «بابا»، لا شكَّ أنَّه من المعيب النظر إلى الأمر بخبث. ورغم ذلك من المستحيل ألّا نتذكَّرَ أغنيةً خالدة لكول بورتر، اشتُهِرَت بفضل أداء مارلين مونرو وإيرثا كيت «*My heart belongs to daddy*»، حيث تظهر الصبيّة بصوتٍ شبقٍ لتروي كيف أنَّها لا تستطيع إقامة علاقات سليمة مع الشبّان الذين من عمرها لأنَّ قلبها مُلكٌ لِدادي، ما يعني «بابا». وقد سال حبرٌ غزيرٌ على أهواء هذه الصبيّة (أهو سفاح قربى، تحرُّش بأطفال، اعتداء على قيم العائلة؟) وما زالت الأفكار بهذا الخصوص غامضة - ومن جهةٍ أخرى،

كان كول بورتر ماكرًا... ومع ذلك فالأغنية جميلة جدًّا وشهوانيّة جدًّا، ومن المستغرب أنَّ ماريانو أبيتشيلّا لا يعرفها.

فكرة رقم ثلاثة: يبدو أنَّ رئيس الوزراء هذا نفسه قد قال إنَّنا لا نريد أن نتحوَّلَ إلى حضارةٍ متعدِّدة الأعراق، وعليه ونزولًا عند رغبة عصبة الشمال اليمينيّة يجب تكثيف المراقبة على الهجرة. ويبدو للوهلة الأولى أنَّه يعيد ما قاله بييرو فاسّينو حول وجوب مراقبة المهاجرين غير الشرعيّين ومساعدة أولئك النظاميّين. إلّا أنَّ هنالك فكرةً أخرى وراء ذلك، وهي أنَّ القرار بأن نصبح أو لا نصبح حضارةً متعدِّدة الأعراق هو قرارٌ طوعيّ. كما لو أنَّ روما الإمبراطوريّة (وما قبلها أيضًا) قرَّرت من تلقاء نفسها أن تتعرَّض لغزو البرابرة أو لا. فالبرابرة، عندما يضغطون على الحدود، يدخلون وقُضيَ الأمر. لكنَّ حكمة روما الإمبراطوريّة (التي سمحت لها بالصمود عدّة قرون) تجسَّدَت في إنفاذ قوانين لشرعنة مستوطنات البرابرة، بمنح الجنسيّة لمن يقيمون مسالمين ضمن حدود الإمبراطوريّة - بل وقد جنَّدتهم في جيشها أيضًا. وهكذا صار لديها أباطرةٌ إيليريّون وأفارقة، ودينٌ جديد أسَّسَه تركيٌّ يُدعى بولس الطرسوسيّ، وأمازيغيٌّ من بين آخرٍ مفكّريها يُدعى أوغسطين.

عندما تضغط حشودٌ هائلة على حدود عالَمنا لتدخله لا ينبغي أن نتعامل كأنَّ قرار قبولهم من عدمه راجعٌ إلينا. ناهيك بأنَّ إيطاليا لو أنَّها في العقود المنصرمة قدَّمَت نفسها بصورة الفقر والتردّي، ربّما ما فكَّرَ آلاف الأفارقة (والبلقانيّين) بالمجيء إلينا. والحال أنَّهم كانوا يشاهدون التلفزيون الإيطاليّ، قنوات ميدياسيت[1] على وجه الخصوص، حيث كانت بلادنا تظهر أنَّها مسكونةٌ بالخليعات المدهشات، وحيث يكتفي المرء في برنامج مسابقات بالإجابة بأنَّ غاريبالدي لم يكن درَّاجًا ليفوز برقائق الذهب. كان من البديهيّ أنَّ جميعهم سيلقون بأنفسهم في البحر حينها للوصول إلى هنا، دون أن يعرفوا أنَّهم سينامون داخل علبة كرتونيّة في سراديب المحطّة وأنَّهم سيتحرَّشون بنساء ستّينيّات، هذا إذا سارت الأمور على ما يرام.

1- مؤسَّسة إعلاميّة ضخمة أسَّسها برلسكوني، تبثُّ معظم الوقت برامج ترفيهيّة ذات محتوى متدنٍّ وأحيانًا بشكلٍ مبتذل وحسّيّ. (المترجم).

فكرة رقم أربعة: أقرأ أنَّ المقرصنين لا يخترقون ذاكرة البنوك فقط، بل يُعرِّضون أجهزة مخابرات نصف الكوكب للخطر، باختراقهم حتّى لمواقع السي آي إيه. أمرٌ متوقَّع. أتصوَّر الآن أنَّ المحادثة عبْر الإنترنت، عمّا قريب (أو بدءًا بهذه الفترة) لن يستخدمها إلّا الفَجَرَة، الذين يجهلون بكلِّ طمأنينة أنَّ بوسع شريكهم المخون الاطّلاع على كلِّ محادثتهم؛ والأغبياءُ الذين يحبُّون رؤية حساباتهم الجارية مُفرَّغة. أمّا أجهزة المخابرات فلقد هجروا الإنترنت منذ زمن. فمن المريح إرسال رسالة سرّيّة من لندن صباح الثلاثاء لتصل فورًا إلى نيويورك، ولكن في واقع الحال إذا غادر عميلٌ سرّيٌّ لندن في التاسعة فإنَّه يصل إلى نيويورك قبل منتصف النهار بالتوقيت المحلّيّ. لذا فمن الأسهل أن يدسَّ الرسالة في كعب حذائه، أو أن يحفظها غيبًا، أو أن يحشرها في شرجه إذا اقتضى الأمر. هيّا بنا إذًا، فلنمضِ على مشية القريدس نحو التقدُّم!

2007

«لستُ عنصريًّا! إنّما هو زنجيّ!»

لعلَّ السجالات قد هدأت على المستوى الوطنيّ، ولكن ليس على المستوى الدوليّ. فما زلنا حتّى اللحظة نتلقّى إيميلات من أصدقاء من بلدانٍ عدّة، يسألوننا فيها مذهولين كيف تجرَّأ رئيس الوزراء برلسكوني على زلّة اللسان التاريخيّة هذه، عندما تظارَفَ عن أنَّ الرئيس الجديد للولايات المتَّحدة، إضافةً إلى كونه شابًّا وبهيَّ الطلعة، فهو مُسمَرٌّ أيضًا.

واجتهد عددٌ كبيرٌ من الأشخاص في محاولة تفسير السبب وراء استعمال برلسكوني لهذا التعبير. تراوح الكارهون بين تأويلاتٍ كارثيّة (برلسكوني تقصَّدَ إهانة الرئيس الجديد) وتأويلاتٍ هابطة: برلسكوني كان يعلم جيِّدًا أنَّه يرتكب زلّة لسان ولكنَّه يعلم كذلك أنَّ ناخبيه يعشقون مثل هذه الزلّات ويستظرفونه من أجل ذلك تمامًا. أمّا تأويلات المحبِّين فتراوحت بين تبرئةٍ ساذجة (برلسكوني يهوى أسِرَّةَ التسمير، لذا كان يريد امتداح أوباما)، وتسامحٍ محدود (تفوَّهَ بنكتةٍ بريئة، لا تبالِغوا).

ما لا يفهمه الأجانب هو لماذا لم يجنح برلسكوني للدفاع عن نفسه

بالقول إنَّهم أساؤوا فهمه وأنَّه كان يقصد شيئًا آخر (فهذا هو تكتيكه المعتاد)، بل عوضًا عن ذلك أصرَّ مُدَّعيًا أنَّ تعبيره مشروع. حسنًا، الإجابة الصحيحة الوحيدة هي أنَّ برلسكوني كان حسن النيّة فعليًّا، وكان يظنُّ أنَّه قال شيئًا عاديًّا للغاية، وما زال حتّى الساعة لا يرى في كلامه ما يعيب.

لقد قال (حسب ظنِّه) إنَّ أوباما أسود البشرة؛ أوليس أسود البشرة، أهناك مَن يجرؤ على النكران؟ يبدو أنَّ برلسكوني يُلمِّح ضمنيًّا إلى ما يلي: من واقع الحال أنَّ أوباما أسود، وكلُّ الكُتّاب السود في أمريكا أبدوا سعادتهم بدخول رجلٍ أسود إلى البيت الأبيض، ولطالما ردَّدَ السود في أمريكا أنَّ black is beautiful/ *السواد جميل*، والسواد والسمرة سيّان، لذا من الممكن القول إنَّ tanned is beautiful/ *السمرة جميلة*. أم لا؟

لا. لعلَّكم تذكرون أنَّ البيض الأمريكيّين كانوا يُسمُّون ذوي الأصول الإفريقيّة بالزنوج «nigro»، وإذا أرادوا التعبير عن احتقارهم قالوا «nigger». ثمَّ قَبِلَ السود بأن يُسمَّوا «black»؛ وما زال بعضهم يقولون عن أنفسهم حتّى اليوم، سواء من باب الاستفزاز أم الممازحة، إنَّهم نيغّر. ولكن هم حصرًا مَن يحقُّ لهم استخدام هذه الكلمة، أمّا إذا قالها لهم رجلٌ أبيض هشَّموا وجهه. وهذا مثلما أنَّ هنالك مثليِّين يصفون أنفسهم استفزازيًّا بتعابير أشدّ احتقارًا، ولكن إذا استخدمها أحدٌ مّا وهو ليس مثليًّا شعروا بالإهانة على الأقلّ.

والحال أنَّ القول بأنَّ رجلًا أسود دخل البيت الأبيض هو إقرارٌ محض، وقد يقال بدافع السرور أو الكراهية على حدٍّ سواء، ولكن لا يحقُّ لأحدٍ أيًّا كان أن يقوله. أمّا أن تصف رجلًا أسود بأنَّه مُسمَرٌّ فهذا تعبيرٌ مراوغ، لأنَّه يلمح إلى الاختلاف دون أن يجرؤ على تسميته باسمه. أن تقول إنَّ أوباما «رجلٌ أسود» فهذه حقيقةٌ ساطعة، أمّا إذا قلتَ «إنَّه أسود» فهذا إيحاءٌ إلى لون البشرة، وعليه فالقول بأنَّه مُسمَرٌّ ما هو إلّا استهزاءٌ لئيم.

من المؤكَّد أنَّ برلسكوني لم يشأ إحداث أزمة دبلوماسيّة مع الولايات المتَّحدة. ولكنْ هناك تعابير وتصرُّفات، من شأنها أن تُميِّزَ بين الناس على أساس انحدارهم من طبقاتٍ اجتماعيّةٍ مختلفة أو من مستوياتٍ ثقافيّةٍ مختلفة. قد يُحسَبُ تعاليًا، ولكن في بعض الأوساط إذا قال أحدهم «تمَّ

اتّخاذ إجراءات» قوبل بالاستهجان مباشرةً، ومثله مَن يقول «جامعة بهارفرد» ظنًّا منه أنَّ هارفرد اسم مكان (ثمّ هنالك من يلفظها «هاروارد» أيضًا)؛ كما يُطرَدُ من بعض الأوساط الخاصّة مَن يكتب «*Finnegan's Wake*» عوضًا عن «*Finnegans Wake*». وهذا يشبه كيف كانوا في الماضي يُحدِّدون تدنّي طبقة شخصٍ مّا إذا رفع خنصره عند قرع الكؤوس، وإذا قدَّموا له فنجان قهوة أجاب: المرّة القادمة على حسابي، وإذا قال «امرأتي» بدلًا عن «زوجتي».

وأحيانًا يخون السلوكُ الوسطَ الأصليَّ: أذكر أنَّ شخصيّة عامّةً معروفةً بتشدُّدها، جاء يصافحني باحترام عند نهاية خطابي لافتتاح أحد المعارض قائلًا: «بروفسور، لا تدري كم أمتعتَني!». ابتسم الحاضرون على خجل، لكنَّ ذلك الرجل الطيِّب، لكثرة ما عاشَرَ أناسًا يتَّقون الله، كان لا يعلم أنَّ هذا التعبير لم يعد مُستَخدمًا إلّا بالمعنى الجنسيّ. إذ يقال بما يخصُّ الروحانيّات: «كان إمتاعًا فكريًّا بحقّ». -أليس الأمران متطابقين؟- قد يتساءل برلسكوني. لا طبعًا، التعابير الكلاميّة ليست متطابقة أبدًا.

بكلّ بساطة، برلسكوني لا يتردَّدُ إلى أوساطٍ معيَّنة حيث يعلم الجميع بجواز ذِكر الأصول العرقيّة وبُطلان التلميح إلى لون البشرة، تمامًا مثلما لا ينبغي تناول السمك بالسكّين.

2008

برلسكوني وبستوريوس

يزداد الأدب الذي يتناول برلسكوني اتِّساعًا. سيصدر عمّا قريب كتابٌ هجائيٌّ اطَّلعتُ على مخطوطته (عن دار مانفستوليبري)، بعنوان *ظاهرة سيلفيو برلسكوني*، للكاتب بيرفرانكو بلّيتسيتّي، ينتقل من جماليّة الرئيس إلى شهوانيّته، بلؤمٍ صرف. وقد صدر كتابٌ آخر لماركو بلبوليتي بعنوان *جسد الرئيس* (إصدار غواندا، 2009)، يعاين مظهرًا خاصًّا جدًّا من تلك الشخصيّة: علاقته بجسده والصورة التي يُظهِرُه بها على الدوام.

قد يبدو غريبًا، ولكن ليس لكلّ الرؤساء جسد؛ يكفي التمعُّن بقائدِ

عظيم مثل دي غاسبيري، الذي لا بدَّ لمن عاش في الخمسينات أن يذكر بشاعة الطائر الجارح، المحدودة بملامح وجهه حصرًا. اذهبوا لرؤية تمثاله في ترينتو، ليس له جسد، لأنَّه ملبوسٌ ببدلة مُتجعِّدة من طراز فاتشيس. وكذلك زعماء الماضي، لم يكن لهم جسد (إنّما وجهٌ لتحديد هويَّتهم حدًّا أقصى)، من بييترو نينّي إلى أمنتوري فانفاني، بمن فيهم بالميرو تولياتّي حيث هيبته التي لا يرقى إليها الشكّ تتَّسم بطابع المفكّرين في أبعد تقدير. لكنَّ هذا ينطبق على ساسة الدول الأخرى أيضًا: لا أحد يذكر جسد الرؤساء الفرنسيّين، ما عدا جسد ديغول (وهذا بسبب قامته وأنفه الكاريكاتوريّين لا أكثر)؛ ومن البريطانيّين تبقى صورة تشرتشل، لكنَّها تُركِّزُ على وجه السِّكِّير المخضرم وسيجاره، أمّا ما تبقّى فليس سوى ذكرى مبهمة عن وزنه الزائد؛ وروزفلت لم يكن لديه جسمانيّة (إلّا بالمعنى السلبيّ، لأنَّه كان مُقعَدًا)، وترومان يبدو عميل شركة تأمينات، وأيزنهاور يبدو عمًّا لطيفًا، أمّا كينيدي فكان أوَّلَ من راهَنَ على جسده (ولكن، مرَّةً أخرى، بالوجه فقط) وقد غلب نيكسون بحصيلة عدّة لقطاتٍ تلفزيونيّةٍ متقنة.

هل كان لقادة التاريخ العظماء جسد؟ لقد أهدى فنُّ النحت الرومانيّ الجسدَ لبعضهم، مثل أغسطس قيصر، في حين أنَّ آخرين من المفترض أنَّهم استولوا على السلطة لأنَّهم كانوا أقوياء ويتمتَّعون بنفوذٍ لا على الشعب (الذي لم يكن لديه الفرصة لرؤيتهم) إنّما على حاشيتهم. وتتكفَّلُ الأسطورة بما تبقّى، فعلى سبيل المثال يُنسَب إلى العواهل الفرنسيّين مزيَّة علاج داء الخنازير. لكنّي لا أعتقد أنَّ نابليون جرَّ جنوده إلى المذبحة بفضل مزاياه الجسمانيّة.

أمّا إذا أردنا أن نعرف لماذا يتَّخذ رئيسٌ جسدًا ويعتني بصورة هذا الجسد بشكلٍ مهووس (انتبه، ليس الوجه وحده، بل الجسد كلّه)، فعلينا أن ننتظر عصر وسائل الإعلام الجماهيريّ، بدءًا بالفوتوغراف.

وها نحن نبدأ، مثلما يفعل بلبوليتي أيضًا، بدراسة علاقة موسوليني بجسده، الجوهريّ في طبيعة حكمه، لدرجة أنَّ الدلالة على إسقاط نظامه تجلَّت إن صحَّ التعبير بقلب سطوته الجسمانيّة وتشويه جسده بتعليقه رأسًا على عقب.

وإن كان ثمّة تشابهات بين برلسكوني وموسوليني، فلنكن واضحين، لئلّا نُغضِبَ أحدًا، فهذا ليس لأنَّ برلسكوني «فاشيّ»، بل لأنَّه مثل موسوليني يريد إرساء علاقة شعبويّة مع الجماهير، بفضل عنايته المهووسة بصورته ومظهره. لا أبتغي تتبُّعَ تحليلات بلبوليتي الذي يُفضِّلُ تناول الصور الفوتوغرافيّة على سواها، منذ الزمن الذي كان فيه برلسكوني مغنّيًا على متن القوارب وحتّى أيّامنا هذه؛ إنّما أتأسَّفُ بالحدّ الأقصى على أنَّ غزارة التحليلات لا تتوافق مع عدد الصور التي يتلهَّفُ لها القارئ (ثمّة عشرون صورة، «ناطقة» حقًّا، لكن بعد هذا التذوُّق يطيب لنا المزيد).

وكإرشاداتٍ قرائيّة أقترح تحليلاته الرائعة عن اليدين، الابتسامة، التعامل غير المتوقَّع والمستفزّ لهذه الشخصيّة مع النساء، التطوُّرات البديهيّة حول الثقافة النرجسيّة (يلجأ بلبوليتي إلى قاماتٍ ومصادرَ من شتّى الأنواع، من يونغ إلى فوكو وريتشارد سينيت)، الملاحظات على استخدام العائلة كامتدادٍ (وإن ثانويّ) لجسمانيّته.

في نهاية المطاف، إن كان لا بدَّ من فرقٍ جوهريٍّ بين موسوليني وبرلسكوني، فهو أنَّ الأوّلَ -باستثناء بزّته العسكريّة- كان يستعمل جسده، بما فيه صدره العاري، مثلما ولدته أمُّه، وبإبرازٍ جريءٍ لصلعته؛ بينما يغلب على برلسكوني العنصرُ السايبورغيُّ، والتبدُّلُ التدريجيُّ لملامحه الطبيعيّة (يشير بلبوليتي إلى تشابهٍ فريدٍ بين برلسكوني وأوسكار بستوريوس، العدَّاء ذي الساقين الاصطناعيّتين)، من زراعة الشعر إلى إزالة التجاعيد، ليعرض نفسه على مُحبِّيه بصورةٍ ممعدنةٍ تصبو إلى أن تكون بلا عُمر. توقٌ إلى الخلود، مستهجنٌ على مَن يُحلِّله بلبوليتي في النهاية باعتباره «نجمة الفَناء الخالدة».

2009

الحالة الغريبة للجليس المجهول

وقعت أنظاري منذ قليل على خبرٍ موجزٍ بجريدة *الجورنالي* من عدد 13 يوليو. أن يصل متأخّرًا خيرٌ من ألّا يأتي أبدًا. يقول الخبر: «البروفسور يهوى المطبخ الهجين. أمبرتو إيكو، الذي يُعتَبر نقطةً مرجعيّة للفكر اليساريّ،

شوهِدَ السبت الماضي في ميلانو، على ساعة الغداء، يجالس شخصًا مجهولًا في مطعم مختصٍّ بتقديم الأطعمة الآسيويّة بشارع سان جوفانّي سول مورو. محلٌّ متَّزن، لكنَّه ليس نخبويًّا بالتأكيد. وهذه هي الوجبات «الكلاسيكيّة» المفضَّلة لدى مؤلِّف *اسم الوردة*: في القائمة رزٌّ صينيٌّ مقليّ، ومكرونة الصويا بالكاري ودجاجٌ بالخضار والبامبو، علاوةً على وصفاتٍ تجريبيّة. لا بدَّ أنَّ كلَّ ما يُلتَقَطُ بالأعواد يعكس هيامًا مشتركًا عند صفوة التقدُّميّين. ففي هذا المطعم الصينيّ-الميلانيّ ذاته، شوهِدَ مؤخَّرًا غويدو روسّي أيضًا، وهو الخبير الحقوقيّ، والسيناتور أساسًا، والرئيس السابق لشركة تيليكوم، والمفوَّض الاستثنائيّ للاتّحاد الإيطاليّ لكرة القدم إبّان الصيف الساخن الذي شهد الفضيحة الكرويّة عام 2006. الصين أقرب. يكفي إضافة مقعد إلى المائدة».

لا شيء خارقٌ للعادة. ثمّة كَتَبة يعيشون من سرد حوادث صغيرة كهذه. وطالما لا يسعني الظنُّ بأنَّ مُحرِّرَ الخبر يتربَّص كلَّ يومٍ بمطعم صينيٍّ «غير نخبويّ» (أي حيث من الصعب أن يلقى، ما أدراني، باولا بينيتّي مع روكّو سيفريدي، أو كارلا بروني مع الوزير ريناتو برونيتّا، على طاولة مضاءة بالشموع)[1]، فلا يبقى أمامي سوى اعتقادي بأنَّ جاسوس النمائم الواعد أيضًا يتردَّد إلى المطعم بشكلٍ اعتياديّ، بما أنَّه يتميَّز بالإنارة الجيِّدة والنظافة والأسعار المعقولة بالنسبة إلى مَن يعمل في أدنى مرتبة من هرميّة إدارة التحرير. وإذ سئم المتستِّرُ من تناول السبرينغ رول مرَّةً تلو مرَّة، فلا بدَّ أنَّه نطَّ عن كرسيّه لفكرة تسجيله سبقًا صحفيًّا استثنائيًّا من شأنه أن يُغيِّرَ مسيرته المهنيّة.

لا يوجد شيءٌ عاديٌّ أكثر من الذهاب إلى مطعم صينيّ، ومن العاديّ جدًّا أن نتَّجه إليه أنا وغويدو روسّي على حدٍّ سواء. لم أكن أعلم أنَّه يرتاده أيضًا، لكنَّ هذا المطعم يقع على بُعد مئة متر عن مسكن كلٍّ منّا، فمن البديهيّ إذًا

1- بهدف السخرية من الخبر، يُقدِّم إيكو صورة متخيَّلة عن لقاءات سرّيّة هادئة بين أضدادٍ في مطاعم ترتادها نخبة المجتمع: باولا بينيتّي سياسيّة كاثوليكيّة معروفة بمواقفها المتشدِّدة ضدّ المثليّين والإجهاض، روكّو سيفريدي ممثِّل إيطاليّ تخصَّصَ في الأفلام الإباحيّة؛ ريناتو برونيتّا أحد وزراء اليمين، الذي خاض مشادّة كلاميّة مع كارلا بروني. (المترجم).

أن نذهب إلى هناك، إن كنّا لا نريد حقًّا أن نتذوّقَ الأوركيد بقنافذ البحر لدى مطعم كراكو بيك مقابل بضع مئات من اليورو.

فما الداعي لنشر خبرٍ يخلو من أيّ فائدة، أسخف من خبر أنَّ الكلب يعضُّ الإنسان، بل يوازي خبر أنَّ الكلب ينبح؟

سأحاول أن أقدِّمَ فرضيّات. في البداية ينبغي لك أن تذيع شبهات، حتّى لو كانت تافهة، ضدَّ مَن لا يتّفق مع أفكارك. ربّما تذكرون جميعًا حادثة البرنامج التلفزيونيّ *ماتينو 5* الذي راقب وكشف القاضي ميزيانو (ذنبه أنّه أصدر في قضيّة دار موندادوري حُكمًا أحزَنَ رئيسَ وزرائنا) بينما كان يتمشّى، ويُدخِّن سيجارة، ويذهب إلى الحلّاق ويجلس في النهاية على مقعدٍ مسفرًا عن جواربه الفيروزيّة؛ أمورٌ يصفها صوت المعلِّق بأنّها من «الغرائب»، فهي أدلّةٌ على أنَّ القاضي الحانث بيمينه ليس بكامل قواه العقليّة.

هل قالوا ما يسيء إليه؟ على الإطلاق. ولكن لماذا كان ذاهبًا إلى الحلّاق بجوارب فيروزيّة (في حين أنَّ المواطنين الشرفاء يذهبون إلى الحلّاق بجوارب خمريّة حدًّا أقصى)، والأهمُّ لماذا يسارع أحدهم لينقل إلينا النبأ كأنّه يبعث لنا رسالةً مشفَّرة؟ هذه تقنيّةٌ صحفيّةٌ لا ترقى لخطف جائزة بوليتزر، لكنّها قد تؤثِّر فيمن يرتدي جوارب قصيرة.

من الوارد أنَّ طاقم التحرير في *إلجورنالي* يستهدفون ناخبًا متقدِّمًا في السنّ، لا يتناول مع زوجته إلّا القليل من الخضار المطبوخة والسباغيتّي الخالية من الصلصة، ويفزع لدى سماعه خبرًا عن رجلٍ يأكل مثل الصينيّين (المعروف عنهم أنّهم يُفضِّلون القردة والكلاب)؛ أو مقيمًا في قريةٍ نائية حيث لم يسمع بحياته عن مطاعم صينيّة؛ أو مرتابًا بأيّ شيءٍ متّصلٍ بأعراقٍ دخيلة وتوسُّعيّة فما بالك بالصينيّين؛ أو (كما يقول الخبر) مَن يظنُّ أنَّ استعمال الأعواد «هيامٌ مشترك عند صفوة التقدُّميّين»، لأنَّ الأشخاص المعتدلين يستخدمون الشوكة مثلما علَّمتهم أمّهاتهم؛ أو مَن يفكِّر أنَّ الصين ما زالت تحت حكم ماو، ما يعني أنَّ تناول الطعام الصينيّ تصريحٌ (والخبر يوحي بذلك) بأنَّ الصين قريبة، مثلما كانت في العام 1968 (ملاحظة مهمّة: الصين قريبةٌ حقًّا، الآن، ولكنْ لأسبابٍ تتعلّق باليمين أكثر من اليسار).

ثمَّ ما الذي يعنيه أنّي كنتُ على الطاولة بصحبة «جليسٍ مجهول»؟ مَن يكون هذا الذي كنتُ أتحايل لعدم إبراز اسمه بلافتاتٍ ملائمة؟ من أين كان آتيًا؟ ولماذا يلتقي بي؟ ولماذا في مطعمٍ صينيّ، كما في إحدى روايات دانييل هاميت، وليس في مطعم «تلال بيستويا» أو «في نابولي الجميلة» مثلًا؟ وبطبيعة الحال، هذا الجليس المجهول كان مجهولًا بالنسبة إلى المؤرِّخ العظيم صاحب الخبر وليس بالنسبة إليّ، فهو صديقٌ لي. إلّا أنَّ نشر أنباء تفيد بأنَّ فلانًا يجالس «مجهولين»، وفي مطعمٍ صينيٍّ علاوةً على ذلك، يوحي كثيرًا بشخصيّة «الدكتور فو مانشو» وفكرة «الخطر الأصفر»[1].

هذا ما تقترفه «صفوة التقدُّميّين». ولحسن الحظّ أنَّ الصحافة لهم بالمرصاد.

2010

تفضَّلْ بالدخول يا كريتو...

لا يمكننا إلّا أن نعرب عن تضامننا مع حكومتنا عندما تطالب البرازيلَ رسميًّا بتسليم تشيزاري باتّيستي[2]. وأعتقد أنَّ هذا ما ينبغي أن يفكِّر به، وإن عَرَضيًّا، حتّى الذين يعتبرون باتّيستي ضحيّةَ خطأ قضائيّ: فإن كنّا بصدد خطأ قضائيّ، فلا يجوز للبرازيل أن تَبُتَّ فيه، إلّا إذا صرَّحَت -علنًا ورسميًّا- أنَّ الدولة الإيطاليّة في فترة إدانة باتّيستي كانت جهازًا دكتاتوريًّا يدوس على الحقوق السياسيّة والمدنيّة ويقمع حرّيّة مواطنيه.

1- الدكتور فو مانشو شخصيّة خياليّة من ابتكار الكاتب البريطانيّ ساكس روهمر، يُجسِّدُ دهاء الشرّ، ويستخدم علومه وحيله الشرقيّة بهدف إلحاق الهزيمة بالعرق الأبيض. تُلخِّص هذه الشخصيّةُ الرهابَ الغربيَّ، الذي راج في نهايات القرن التاسع عشر، من أن تتجاوز الصينُ الحضارةَ الغربيّة في المنافسة على السيطرة على العالم، وهو ما عُرِفَ بتسمية الخطر الأصفر. (المترجم).

2- تشيزاري باتّيستي مجرم وإرهابيّ منخرط بجماعة «البروليتاريا المسلَّحة من أجل الشيوعيّة». صدرت بحقّه مذكّرة اعتقال، فولّى هاربًا إلى البرازيل، بعد طوافٍ بين عدّة دولٍ كان الإنتربول يلاحقه فيها. حصل على حقّ اللجوء السياسيّ، بعد أن دخل السجن وخرج منه مرارًا. تفرَّغَ لتأليف الروايات الإجراميّة، في حين ما تزال الدولة الإيطاليّة بين صدٍّ وردّ تطالب البرازيل بتسليمه. (المترجم).

أمّا والأمر ليس كذلك، فإنَّ المطالبة بتسليمه ضروريّة، وذلك لإثبات أنَّ مستويات الحكم الثلاثة التي خضع لها باتّيستي كانت تُمثِّلُ عدالةً تمارس عملها في بلدٍ ديمقراطيٍّ وضمن قضاءٍ مستقلٍّ عن أيّ إملاءاتٍ سياسيّة (وأقولها لمن لديه أسبابٌ لعدم الثقة بحكومة برلسكوني: لقد صدر قرار القضاء ذاك عندما كان برلسكوني ما يزال مجرَّد مواطن في إيطاليا).

لذا فإنَّ المطالبة بتسليم باتّيستي تعني الدفاع عن كرامة قضائنا، ويجدر بكلّ مواطنٍ ديمقراطيٍّ أن يعرب في هذه الحالة عن تضامنه مع تحرُّك الحكومة (ورئاسة الجمهوريّة).

أحسنتَ يا برلسكوني الموقَّر -نكاد نقول- تصرُّفك سليم. ولكن لماذا برلسكوني الموقَّر نفسه، عندما يبادر القضاء إلى دعوى جزائيّة بحقِّه (هي ليست إدانةً بالحكم المؤبَّد ظلمًا إنّما استدعاء بسيط ليدافع عن نفسه من تهمةٍ قد لا يكون لها أساس، محميًّا بكل ضمانات القضيّة)، لا يرفض المثول أمام القضاة فحسب، بل يعارض أحقّيّتهم في تولّيهم قضيّته أيضًا؟ هل يعتزم الإعراب عن تضامنه مع باتّيستي في مساعيهما المشتركة لنزع الشرعيّة عن مجلس القضاء الإيطاليّ؟ هل يتأهَّب للهجرة إلى البرازيل ليطالب تلك الحكومة بالحماية نفسها التي تؤمِّنها لباتّيستي، في وجه قضاتنا وتصرُّفاتهم غير الشرعيّة المزعومة؟ أم إنَّه يعتبر القضاة الذين أدانوا باتّيستي رجالًا شرفاء، ولزامٌ عليه الدفاع عن كرامتهم لصون شرف الدولة الإيطاليّة نفسها، ويعتبر أنَّ إيلدا بوكّاسّيني خلافًا لذلك ليست امرأةً شريفة، فيستخدم بحقّ قضائنا مكيالين ومعيارين – إذ يعتبره شريفًا مكرَّمًا عندما يدين باتّيستي، ووضيعًا محقَّرًا عندما يتحرَّى في قضيّة روبي؟

قد يقول المدافعون عن برلسكوني الموقَّر إنَّ باتّيستي أخطأ بإفلاته من العدالة الإيطاليّة، لأنَّه في قرارة نفسه يعلم أنَّه مذنب، في حين أنَّ برلسكوني لأسبابٍ محقَّةٍ يفعل الأمر ذاته لأنَّه في قرارة نفسه يعتبر أنَّه بريء. ولكن إلى متى ستصمد هذه الحُجَّة؟

يبدو مَن يلجأ إلى هذه الحُجَّة أنَّه لم يتمعَّن في نصٍّ عرفه كلُّ مَن دخل المدرسة (مثلما حدث لبرلسكوني الموقَّر)، وهو كريتو لأفلاطون. أودّ أن

أذكِّرَ بمقدِّماته مَن نسوا: سقراط مدانٌ بالإعدام (ظلمًا، نحن نعلم ذلك، وهو أيضًا كان يعلم)، لا يبرح السجن، ينتظر سمّ الشوكران. يزوره أحد تلامذته، كريتو، ويخبره بأنَّهم أعدُّوا كلَّ شيء ترتيبًا لفراره، ويستخدم كلَّ البراهين الممكنة لإقناعه بأنَّ له الحقَّ وعليه الواجبَ في الإفلات من إعدامٍ جائر.

لكنَّ سقراط يجيب مُذكِّرًا كريتو بكيف يجب أن يكون موقف الرجل الصالح أمام جلالة قوانين المدينة. فبقبوله العيش في أثينا والتمتُّع بكامل حقوق المواطَنة، أقرَّ سقراط بأصالة تلك القوانين، وإذا تجرَّأ على إنكارها لمجرَّد أنَّها جاءت ضدَّه حينًا، فإنَّه بعصيانها يساهم في نزع الشرعيّة عنها وبالتالي في هدمها. ولا يجوز أن نغتنم القانون ما دام يصبُّ في مصلحتنا، ونرفضه عندما يُقرِّر أمرًا لا يطيب لنا، لأنَّنا مع القوانين نبرم اتِّفاقًا وثيقًا ولا يجوز أن نفسخه متى راق لنا.

لاحِظوا أنَّ سقراط لم يكن رجل حكم، وإلّا كان قد قال مزيدًا، أي لو ظنَّ أنَّ له الحقَّ في مخالفة القوانين التي لا تعجبه، ما عاد له الحقُّ كرجل حكمٍ بأن يطالب الآخرين بطاعة القوانين التي لا تعجبهم، أو بعدم اجتياز الشارع والإشارة حمراء، أو بعدم دفع الضرائب، أو بعدم نهب المصارف، أو (كما يقال) بعدم التحرُّش بالقُصَّر.

لم يقل سقراط هذه الأشياء لكنَّ المغزى من رسالته يبقى هو هو: مترفِّعٌ، متنزِّهٌ، صلبٌ كالجلمود.

2011

الضوابط والطهرانيّون

أثارت الانتقادات بحقّ تصرُّفات رئيس وزرائنا جملةً من اعتراضاتٍ تتَّصف بالبذاءة الشهوانيّة. وكان أوَّلها لا يطمح إلى تبرئة الرئيس بقدر ازدراء منتقديه: «أنتم يا جيل الـ 68 البائد، يا مَن كنتم تُبشِّرون بالحبِّ الحُرِّ والمخدِّرات المهلوسة، أصبحتم اليوم طهرانيّين أخلاقويّين تستهجنون ممارسات الرئيس الجنسيّة، هذا إن كان هناك ممارساتٌ جنسيّة لا حفلات عشاء قوامها الكوكا كولا لايت» (رأيي أنَّها عشاءاتٌ تعيسة، بدون حتّى

قطرةٍ من نبيذ الغافي أو خمرة غريكو دي توفو!). ليس لديَّ إلمامٌ واسع بالحبِّ الحُرّ الذي نادى به ناشطو الـ 68، إذ كان عمري في تلك الآونة ستّةً وثلاثين عامًا (وهي سنٌّ كانت تعتبر حينذاك ناضجة)، وكان لديَّ ابنان وكنتُ أعملُ أستاذًا جامعيًّا. لذا لم أذهب عاريًا بشعرٍ طويلٍ إلى حفلات الروك ومدخِّنًا الماريجوانا. ولكن يبدو لي أنَّ المقصود بالحرّيّة الجنسيّة وقتها هو أن يمارس شخصان الجنس معًا وفقًا لاختيارٍ حرّ، ومجّانًا على وجه الخصوص. وهذا مختلفٌ كلّيًّا عن الجنس السائد ما قبل حراك الـ 68، أقصد مواخير الذكريات النوستالجيّة، حيث كان بالإمكان ممارسة الجنس بحرّيّة، إنّما بثمن.

ورغم هذا، يصيب مَن يقول إنَّ النزعة الطهرانيّة تفوح من الانتقادات الموجَّهة إلى الرئيس على مراودته فتياتٍ من أخلاقيّات مرنة للغاية. فلكلِّ امرئٍ الحقُّ بممارسة الجنس بالطريقة التي ترضيه (مثليّة أو مغايرة، بوضعيّة الكلب، بوحشيّة، سادومازوشيّة، فمويّة، تبظيريّة، ثَدْيَويّة، أونانيّة[1]، رشّ المني في أوعيةٍ غير ملائمة، الاستمتاع بتخيُّلاتٍ جنسيّة، الولع بالبراز، الولع بالحقن الشرجيّة، افتضاحيّة، فيتشيّة، ارتداء ملابس مغايرة، تلامسيّة، الولع بالبول، تلصُّصيّة - وإلى آخره من أشكال الجماع)، شرط أن يُطبِّقها مع آخرين بالتراضي، ودون أن يؤذي مَن لا يرغب بالمشاركة أو مَن لا يقدر على إبداء موافقةٍ واعية (لهذا تمامًا يُدان التحرُّش بالأطفال، ومجامعة البهائم، والاغتصاب، والمكالمات الهاتفيّة الفاحشة)، وشرط أن يحدث هذا كلُّهُ في أماكن مغلقة بحيث لا يخدش حياء الطهرانيّين، مثلما لا يجدر بأحدٍ أن يُجدِّفَ على الملأ مراعاةً لمشاعر المؤمنين.

وعليَّ أن أقرَّ بأنَّ المعترضين على رئيس الوزراء غالبًا ما شطُّوا بإصرارهم على المظاهر الجنسيّة لقضيّة روبي. ومن الطبيعيّ أن يحدث هذا، لأنَّك إذا رويتَ على الإيطاليّين عن نزاع المصالح، وفساد رجال القضاء، والتكتُّم على رؤوس الأموال، والقوانين المفصَّلة على مقاس

1- نسبةً إلى أونان ابن يهوذا، الذي أمره بالزواج من زوجة أخيه على أن يُحسَبَ النسل لأخيه، فراح يقذف على الأرض، فغضب عليه الربُّ وأماته. (سفر التكوين، الإصحاح 38). (المترجم).

شخص بعينه، فإنَّهم سيقفزون عن المقال؛ أمّا إذا صفعتَهم فورًا بروبي من الصفحة الأولى، فسوف يُفصّصون الجريدة حتّى صفحة التوقُّعات الجويّة. لكنَّ الاعتراض على الرئيس ليس اعتراضًا على أهوائه الجنسيّة. إنّما هو اعتراضٌ على مكافأته للمدعوِّين إلى عشاءاته بمنحهم مناصب في الهيئات الإقليميّة، أو البلديّة، أو الوطنيّة أو الأوروبيّة، وعلى نفقتنا. فإذا كان راتبُ المستشار الإقليميّ المدفوع للسيّدة نيكول مينيتّي آتيًا من جيبي أنا (بنسبة مئوية) وراتبُ مَن يعيش على ألف يورو بالشهر أيضًا (وإن بنسبةٍ أقلّ)، فلا شأن للطهرانيّين في هذه الحالة إذًا، إنّما شأن الضوابط (القانون).

الإشكاليّة الأخلاقيّة ليست في عدم وجوب ممارسة الحبّ (فممارسة الحبُّ خيرٌ دومًا من خوض الحرب، كما كانوا يقولون في العام 1968)، بل في ألّا يُمارَسَ الحبُّ على نفقة مَن لا علاقة له بالأمر. وأذكِّرُ بأنَّه لا أحد انتقد بييرو مارّاتسو، مدير منطقة روما، على مراودته عابرين جنسيًّا، إنّما لأنَّه استخدم في سبيل ذلك سيّارة شرطة.

فلنفترض أيضًا أنَّ رئيس الوزراء لم يكافئ مدعوّاته من المخصَّصات الحكوميّة. قيل ذات مرّة إنَّه من المشرَّع أن يفعل المرء في بيته ما يشاء، لكنَّ هذا يصحُّ لموظَّفٍ مصرفيّ أو طبيب أو عاملٍ منتسبٍ إلى اتّحاد الموظَّفين والعمّال في مجال التعدين؛ أمّا إذا عُرِفَ عن رجل سياسة أنَّه يقيم في بيته ممارساتٍ معيَّنة فمن الصعب ألّا يسفر ذلك عن فضيحةٍ عامّة. وما كانت الحياة المهنيّة لجون بروفومو وغاري هارت أن تُدمَّرَ إلّا بسبب اقترانهما بامرأةٍ واحدة، امرأةٍ واحدة فقط (واحدة لكلٍّ منهما). فما بالك إذا كانت النسوة كثيرات، يُنقَلنَ إلى الحفلة بالحافلة، فلا يمكنك عندئذٍ أن تمنع النكات حول الروبيغيت[1] من الظهور حتّى في الصحف الكوريّة أو التلفزيون التونسيّ (بوسعكم أن تتحقَّقوا على الإنترنت).

1- اصطلاح صحفيّ لقضيّة فضيحة روبي التي مُنيَ بها برلسكوني. والتعبير يدمج اسم روبي بكلمة - غيت الإنكليزيّة، إيحاءً إلى ووترغيت الفضيحة الكبرى التي هزَّت موازين السياسة الأمريكيّة. (المترجم).

قد يقول أحد المدافعين عن الرئيس إنَّ هذا ما كان ليقع لو لا أن تجسَّسَ الطهرانيّون على مواطنٍ من العامّة من ثقب قفل الباب وأنَّهم فضحوا خطيئته المزعومة في الخارج. لكنَّ المستخدم النهائيّ هو الذي بادر إلى ذلك عندما حضر عيد ميلاد العارضة ليتيتزيا نويمي وعندما أحرج الشرطة للإفراج عن روبي. وهذه أفعالٌ تخصُّ الشعب كلّه. وحين يُبرِّر رئيس حكومة لنفسه قائلًا إنَّه صدَّقَ بحسن نيّة أنَّ روبي هي حفيدة مبارك لأنَّها هي التي أخبرته بذلك (مثلما صدَّقها حين أخبرته بأنَّها راشدة)، فمن الطبيعيّ أنَّ يتفتَّقَ الناس في الخارج من الضحك، إذ من مهازل مطلع القرن أن يُصدِّقَ رجلٌ مسؤولٌ عن بلدٍ بأكمله ما ترويه على مسمعه راقصةُ عمود.

2011

«خريئة!»

انتبه الجميع أنَّ برلسكوني، منذ ابتعاده عن رئاسة الـوزراء، لم يعد يتصدَّر العناوين الأولى في الجرائد أيضًا. وهذا ليس لأنَّه أراد ذلك. فلقد تفضَّلَ بزيارةٍ إلى صديقه بوتين، وبدا أنَّه رئيس نادي الروتاري بجمهوريّة فانواتو؛ وهبط من المروحيّة بصحبة فتياتٍ جديدات، وظنَّ الناس أنَّها شؤونه الخاصّة. وما انفكَّ ترتيبه في الاستطلاعات يتراجع بلا هوادة.

والآن وقد أعلن عن عودته إلى المعترك السياسيّ، استعاد الصفحات الأولى. لاحِظوا جيِّدًا أنَّه لا يهمُّ إذا عاد أم لا، فمعروفٌ عنه كم يُغيِّر رأيه بسهولة بين اليوم والغد؛ سوى أنَّه اليوم عاد ليبتسم في وجهنا عند كلّ منعطف.

برلسكوني عبقريٌّ في الدعاية، لا أحد ينكر ذلك، وهو مُتمسِّكٌ بمبدأ يقول: «تحدَّثوا عنّي، ولو بالسوء، ولكن تحدَّثوا عنّي». ثمَّ إنَّ هذا تكتيك جميع الافتضاحيّين: لا شكَّ أنَّ التعرّي واستعراض الجهاز التناسليّ عند مدخل مدرسة إناث يُعرِّضُك للانتقاد، لكنَّك إن فعلتَها ضمنتَ الصفحة الأولى – وبعض الناس، بغية الظهور على الصفحة الأولى، مستعدُّون أن يصبحوا حتّى قتلة متسلسلين.

لدرجةٍ من الممكن عندها أن نفترض أنَّ جزءًا (وأقول جزءًا، غير أنَّه جزءٌ

متين) من الكاريزما البرلسكونيّة لدى كثيرٍ من الناخبين مرتبطٌ ليس بما يقوله أو يفعله هو فحسب، بل بمثابرة خصومه على وضعه على الغلاف باستمرار، بغية انتقاده.

فكيف نتعامل معه (لا أشمل أتباعه، إنّما الذين يخشونه بصفته كارثة على جمهوريّتنا الضعيفة) بدءًا بهذه اللحظة ولغاية الانتخابات المقبلة؟

لقد قيل لي مرارًا إنَّني حالما بدأتُ أنطق الكلمات، بعد كلمة ماما وبابا وجدَّتي، رحتُ أصيح ذات يوم بكلمة «خريئة!»، بلفظٍ أقرب إلى الفرنسيّة، كعادة لهجاتنا الشماليّة، يصعب على القسم السفليّ من الجزمة الإيطاليّة. وكان موضوع النقاش هو كيف استحدثتُ هذا المصطلح، الذي يجهله علماء اللسانيّات وفقهاء المعاجم كلّيًّا؛ لعلّي سمعتُ شتيمةً من قبيل «يا خرا» من بعض عمَّال البناء الذين كانوا يشتغلون في المنزل المقابل وكنتُ أشاهدهم من ردهة بيتنا بإعجاب. والحال أنَّ التأنيب وضرب القفا والتوبيخ لم يُجدِ نفعًا. كنتُ أردِّد «خريئة» على فترات، مسرورًا على الدوام بالانتباه الذي ألقاه.

إلى أن وصلنا إلى الفضيحة. ذات يوم أحد، عند منتصف النهار بالتمام، كنتُ في أحضان أمّي في الكاتدرائيّة، وكانت أجراس عيد الصعود قد قرعت للتوّ (بحيث لا يُسمَعُ أزيز ذبابةٍ حائمة) فشَّجعني ذلك الصمت المباغت والمطبق، وصرختُ نحو المذبح بكلِّ ما أوتيتُ من قوّة: «خريئة!»

يبدو أنَّ القسّ أوقفَ طقس التبريك برهةً، فيما أجبرت نظراتُ المؤمنين المذهولةُ والصارمةُ والدتي الطيِّبةَ على الخروج من المكان المقدَّس، مضرَّجةً بالخزي.

كان ينبغي إيجاد حلٍّ بطبيعة الحال، وسرعان ما وُجِدَ وكان ناجعًا. ففي الأيَّام اللاحقة صرختُ «خريئة» فتظاهرت أمّي بأنَّها لم تسمع. وكنتُ ألحُّ، «أمّاه، خريئة!»، فكانت تردُّ (وهي مندمجة بنفض الأسِرَّة) «آه، حقًّا؟»، فألحُّ: «خريئة!» فتلتفت إلى أبي وتخبره بأنَّ الأختين فاتشو قد يأتيان لزيارتنا في المساء.

باختصار، لعلَّ قرَّائي الأعزَّاء تلقَّفوا مآل القصّة: اغتظتُ من عدم ورود أيِّ ردّ، وكففتُ عن قول «خريئة!» ووهبتُ نفسي لتعلُّم مفرداتٍ أثرى وأعقد

كنتُ أستخدمها «بفصاحةٍ منمَّقة»، الأمر الذي أسعَدَ والديَّ وأرضاهما بابنٍ لكأنَّه عضوٌ في أكاديميّة الكروسكا العريقة.

لا أريد استثمار ذكريات طفولتي لإسداء النصائح إلى السياسيّين وكتبة المقالات القصيرة ومخرجي الصحف. إلّا إذا كانوا راغبين بألّا يصبحوا صدىً لصوت خصمهم، فليقتدوا بوالدتي.

2012

طبقة المعزولين

في كتابها الأخير *كشف سياسيّ* (إصدار لاتيرزا، 2012) تتناول جوفانّا كوزينتزا العجزَ المستمرَّ للطبقة السياسيّة الإيطاليّة عن مخاطبة ناخبيها بطريقةٍ مقنعة. وبالتأكيد تكاد اللغةُ البيروقراطيّة المتخشِّبة أن تكون مهجورة منذ زمن (علمًا بأنَّ كوزينتزا تجد آثارًا دالّةً عليها بلا رحمة عند خطيبٍ ينتمي إلى الجيل الجديد مثل نيكي فندولا)؛ وبدأ عهدٌ جديدٌ للمخاطبة السياسيّة -ليس مع برلسكوني إنّما مع كينيدي- مبنيٌّ لا على الشعار أو البرنامج بل على صورة المرشَّح (وجسده)؛ وها نحن نشهد انتقالًا، حاسمًا ولا مفرَّ منه، من الاجتماع الخطابيّ إلى الفاصل الإعلانيّ. لكن يبدو لي أنَّ هذا الكتاب يعود على نقطةٍ جوهريّة من البداية إلى النهاية: لا يتمكّن سياسيّونا من المخاطبة، لأنَّهم عندما يتحدَّثون لا يتماهون بمشكلات الناس التي يتوجَّهون إليها، بل يُركِّزون «بمرجعيّةٍ ذاتيّة» على مشكلاتهم الخاصّة.

أهذا يشمل برلسكوني كذلك، رغم أنَّه استطاع التحدُّث بكلامٍ بسيط، وهتافاتٍ فعَّالة، وأساليب قائمة على الابتسامة والنكتة أيضًا؟ أجل، يشمله. ربّما ليس في هذه الأوقات السعيدة التي استطاع أن يطرح نفسه خلالها من وجهة نظر مستمعيه وأن يُفسِّرَ رغباتهم التي لا تُباح بقوله لهم إنَّه من الصواب عدم دفع الضرائب؛ ولكن بشكلٍ عامّ، وخصوصًا في الآونة الأخيرة، كان يتحدَّث بطريقةٍ مضطَربةٍ عن أعدائه، وعمَّن يسبح عكس تيَّاره، وعن رجال القضاء الذين يسعون لإيذائه، وليس عن واقع أنَّ «الناس» باتت تستشعر الأزمة الاقتصاديّة التي لم يستطع إخفاءها حتّى.

الآن، سأترك للقرّاء متعة ارتشاف شراسة كوزينتزا التي لم تُوفِّرها على أحد (ولعلَّ المستهدف الأكبر هو بيير لويجي برساني)، أودُّ أن أتساءل لماذا لا يستطيع رجال حكومتنا التماهي بمشكلات الناس. وقد قُدِّمَت الإجابةُ منذ مدّة من قِبَلِ هانس مانيوس إنزنسبرغر في مقالة (لم أعد أذكر ما عنوانها وأين نشرها) يكشف فيها عن أنَّ رجل السياسة المعاصر هو أكثر الكينونات انفصالًا عن واقع الناس لأنَّه يعيش في حصونٍ محميّة، ويسافر بسيّاراتٍ مصفَّحة، ويتحرَّك مطوَّقًا بالمرافقة، لذا فإنَّه لا يرى الناس إلّا من مسافةٍ بعيدة، ولا يحدث له أبدًا أن يشتري أغراضه من أحد المتاجر أو أن يقف في الطابور أمام نافذة حكوميّة. فالسياسة، وقد هدَّدَها الإرهاب، أفرزت أعضاء طبقةٍ مدانةٍ بألّا تعرف شيئًا عن البلد الذي يجدر بها أن تحكمه. طبقة نعم، ولكن بمعنى طبقة الباريا الهنديّة، المعزولين عن أيّ تواصلٍ مع البشر الآخرين.

حلول؟ ينبغي إقرار عُرفٍ بألّا يحقُّ لرجل السياسة البقاء في الحكومة ولا في البرلمان إلّا لفترةٍ محدودة جدًّا (فلنقل هي السنوات الخمس لدورةٍ تشريعيّة، أو إذا تساهلنا فدورتان). يجدر به بعدها أن يعود ليعيش مثل شخصٍ عاديّ، بلا مرافقة، مثلما كان في السابق. ثمَّ إذا أراد العودة إلى السلطة، بعد فترة انتظارٍ محدَّدة، سيكون مُحمَّلًا ببعض التجارب اليوميّة من خارج الطبقة.

وقد توحي هذه الفكرة بأخرى، وهي ألّا يكون هناك فئةٌ ممَّن يمتهنون السياسة، أي أن تُفتَحَ أبوابُ البرلمان والحكومة للمواطنين العاديّين الذين يُقرِّرون خدمة البلد لفترةٍ وجيزة. لكنَّ هذا قد يكون خاطئًا، ومضرًّا للغاية، على غرار حركة بيبّي غريلّو المتردِّية. إنَّ مَن يهب نفسه لمهنة السياسة، في منظَّماتٍ مختلفة، يتعلَّم فنون إدارة الشأن العامّ، وأودُّ أن أضيف أخلاقيّات التفاني، مثلما كان يحدث للساسة المحترفين في الحزب المسيحيّ الديمقراطيّ والحزب الشيوعيّ الإيطاليّ، الذين كانوا يبدؤون بكلّ تفانٍ بالعمل من القاع في التجمُّعات الشبابيّة ثمّ في إطار الحزب. وبحكم خياراتهم، لم يُنشئوا مشاريع خاصّة، أو مكاتب مهنيّة، أو معامل أو تعهُّدات بناء، لذا لم يُغرِهِم دخول البرلمان أو الحكومة لتأمين ثرواتهم ولا لتنميتها – خلافًا لما يحدث لمن تعيَّنَ في البرلمان بوساطة «كبيرٍ»

يُلزِمه بردِّ الجميل يومًا مّا، ويُلهِمه بنموذج النزاع الرائع على المصالح، فيسعى تاليًا إلى محاكاته. ثمَّ إنَّ العمل في داخل الحزب أيضًا قد يدفع للتهاون مع الفساد؛ وقد يكون هذا حادثًا مؤسفًا، غير أنَّه لن يؤثِّرَ على نظامٍ بأكمله.

2012

فلنقرأ الدستور

توقَّفتُ عند هذا الموضوع في *مغلَّفٍ* قبل سنتين، ولستُ أنا الذي يُكرِّر نفسه. أجد بالفعل، وعلى الدوام، في سياق الجدالات المختلفة حول الحكومة والبرلمان والقانون الانتخابيّ، إثباتين كانا يبدوان حتّى الأمس من تراث جماعات اليمين الشعبويّ، لكنَّهما أصبحا مادّةً للتناول من قِبَلِ أشخاصٍ ينتمون إلى مذهبٍ سياسيّ آخر وعمقٍ ثقافيٍّ آخر.

الإثبات الأوّل هو أنَّ هذا البرلمان فاقدٌ للشرعيّة لأنَّه انتُخِبَ في ظلّ قانون «البورتشيلوم»[1]، الذي اعتُبِرَ مناقضًا للدستور. ولكن في الوقت الذي انتُخِبَ فيه هذا البرلمان كان البورتشيلوم قانون الدولة، وما كان من الممكن التصويت اعتمادًا على قانونٍ آخر، لذا فإنَّ البرلمان انتُخِبَ بموجب القانون المعمول به في حينه. ولا بدَّ من إجراء انتخاباتٍ جديدة على أساس قانونٍ جديد بالتأكيد، إلّا أنَّ الجهةَ التي يجب عليها أن تسنَّ هذا القانون الجديد هي البرلمانُ الحاليُّ نفسه، بكامل صلاحيّاته بصفته منتَخَبًا بموجب القواعد المعمول بها في لحظة انتخابه.

أتفهَّمَ أن يثير الوضعُ حيرةً، ولكن ما باليد حيلة، إمّا نأكل هذا البرسيم وإمّا نذهب إلى الجحيم. وكلُّ إثباتٍ على عدم شرعيّة هذا البرلمان يبدو هباءً.

والفكرة الثانية المتداولة هي أنَّ رئيس الحكومة الحاليّة ووزراءه لم

1- قانونٌ اقترحه اليمينيّ روبرتو كالديرولي، بطلبٍ من برلسكوني لتعزيز حصصه الانتخابيّة داخل مجلس النوّاب ومجلس الشيوخ. تعرَّضَ المشروع لانتقادات واسعة بسبب عدم دستوريّته، ما دفع كالديرولي نفسه لوصفه بالقذر «*porcata*»، ومن هنا جاءت تسميته الإعلاميّة «*porcellum*». (المترجم).

يُنتَخَبوا من قِبَلِ الشعب. صحيحٌ أنَّه كان خيرًا لماتيو رينتزي أن يواجه انتخاباتٍ جديدة وأن يُقدِّمَ نفسه في المشهد السياسيّ رئيسًا منتَخَبًا للحزب الذي حاز أغلبيّة المصادقات، لكنَّ هذا لا يعني البتّة أنَّ رينتزي، بصفته رئيس الحكومة مستقبلًا، قد انتُخِبَ من الشعب. كانت هذه حيلةً برلسكونيّة: فرَضَ اسمه ووجهه باعتباره رمزًا لقائمته، فأقنَعَ ما لا يُحصى من الناخبين بأنَّهم إذا صوَّتوا لقائمته فسوف يُنتَخَبُ هو رئيسًا للحكومة. لا زور أشدُّ هولًا من هذا، حتّى إنَّ برلسكوني كان بوسعه الفوز في الانتخابات ومن ثَمَّ الذهاب لدى رئيس الدولة لاقتراح رئيس وزراء من قائمته، سانتانشه أو شيليبوتي أو راتسي، على سبيل المثال لا الحصر، ودون أن يخرق نصَّ الدستور من أجل هذا.

يقرُّ الدستور بالفعل أن ينتخب الشعب نوَّابه (بتفضيلات أو بقوائم مغلقة، هذه مشكلةٌ أخرى والدستور لا يتحدَّث بهذا الخصوص)، وينتخب البرلمان رئيس الجمهوريّة الذي بعد أن يتشاور مع مُمثِّلي عدَّة أحزاب، يُسمِّي بإرادته الحرّة رئيس الحكومة ووزراءه، ومن حيث المبدأ بوسعه أن يُسمِّي جدَّته أو مدير محطّة قطارات قرية روكّاكانّوتشا، إذا كانت أغلبيّة القوى السياسيّة قد ذكرت اسمه.

ثمَّ يُترَكُ الأمرُ للبرلمان لمنح الثقة للحكومة المسمَّاة من قِبَلِ رئيس الجمهوريّة (بحيث تنشأ رقابةٌ من جانب مُمثِّلي الشعب) وفي حال حُجِبَت هذه الثقة تعود المباحثات إلى نقطة الصفر، إلى أن يجد رئيس الجمهوريّة حكومةً تنال ثقة البرلمان. هذا ما وقع حين سمَّى عدَّةُ رؤساء للجمهوريّة شخصيّاتٍ غير برلمانيّة مثل ديني وتشامبي رؤساءً للحكومة، ووزراءً تقنيّين، وحتّى عندما الرئيسُ سمَّى ماريو مونتي، بتنصيبه سيناتورًا مدى الحياة قبل دقائق، لم يكن مونتي حينذاك منتَخَبًا من قِبَلِ الشعب على الإطلاق إنّما مُسمًّى من قِبَلِ رئيس الجمهوريّة بالضبط.

والجميل أنَّ هذه الأشياء قد قيلت، وإن بطريقةٍ غير مباشرة، في المادّة 64 من الدستور، التي تُحدِّدُ الآتي: «لأعضاء الحكومة، وإن لم يكونوا جزءًا من البرلمان، الحقُّ في حضور الجلسات، ويُلزَمون بحضورها في حال استدعائهم. ويجب الإصغاء إليهم في كلّ مرَّةٍ يطلبون فيها ذلك». مفهوم؟

كان الذين وضعوا الدستور يرون من الطبيعيّ جدًّا أن يكون أعضاء الحكومة أغرابًا عن البرلمان الذي بوسعه أن يُحدِّدَ طريقة مشاركة هؤلاء في جلساته. وللأمانة، حين وُبِّخَ برلسكوني على ندرة حضوره في البرلمان، ما كان ينبغي مراقبته باعتباره رئيسًا للوزراء إنّما بصفته نائبًا أو سيناتورًا خاملًا.

2012

تجنَّبْ لفتَ الأنظار

كنّا نتوقَّع فوزًا ساحقًا للحزب الديمقراطيّ، وانتعاشة باهتة لبرلسكوني، فلم تتحقَّق التوقُّعات. ولكن هناك سابقة، عندما أعلن آخيل أوكّيتّو أنَّه جهَّزَ دبَّابةً مرحة[1]، فبدأت الحقبة البرلسكونيّة. وبالمثل كان منهج الحزب الديمقراطيّ، خلال الحملة الانتخابيّة الماضية، قائمًا بأكمله على عبارات النصر: كان برساني واثقًا من أغلبيَّته الساحقة، واعتقد أنَّ مَن سيربح الانتخابات (أي هو) سيحكم. وهكذا، بينما بدا لكثيرٍ منّا أنَّ زعيم الحزب الديمقراطيّ يقود حملةً كسيِّدٍ عظيم، لا يتراخى فيها كخصومه، أضحت حملته واهنة، لأنَّها قامت على أساس اليقين الحتميّ بأنَّ الحزب الديمقراطيّ، بحسب استطلاعات الرأي، كان قد ضمن الفوز أصلًا.

نتيجة بديهيّة: كلَّما تقدَّمَ اليسار واثقًا من فوزه، خسر. أهو نحسٌ محض؟ لم أعد أذكر بأيّ برنامجٍ حواريٍّ قال باولو مييلي إنَّها حقيقةٌ جليّة، ومنذ ما لا يقلُّ عن ستِّين عامًا، أنَّ خمسين بالمئة من الناخبين في إيطاليا لا يريدون حكومة يسار أو يسار وسط. لعلَّ الأمر مردُّه (وفقًا لتعليقي) إلى الرهاب القديم العائد إلى أيَّام مقولة «ستالين اللعين، الغول الأحمر في الكرملين» التي كانوا يُعلِّموننا إيّاها على صفحات مجلّة *باليلا* الأسبوعيّة؛ ولعلَّه الرهاب من البلشفيّ الذي يسقي خيله من الأحواض المقدَّسة في كاتدرائيّة

1- آخيل أوكّيتّو، أمين الحزب الشيوعيّ الإيطاليّ، صرَّحَ في العام 1989 بوجوب إجراء تغييرات جذريّة في داخل الحزب الشيوعيّ. سوى أنَّ الغلبة كانت ليمين الوسط الذي كان يتزعَّمه برلسكوني. (المترجم).

القدّيس بطرس (الرهاب الذي استثمرته بروباغاندا اللجان المدنيّة[1] بشدّة عام 1948)؛ لعلَّه الرهاب المتواصل من أنَّ اليسار سيفرض مزيدًا من الضرائب (وهذا ما خطَّطَ له اليسار دومًا، لكنَّ اليمين هو الذي سنَّهُ)؛ وبأيّ حال ذاك هو شعب البرجوازيِّين الطيِّبين من أعمارٍ متوسِّطة ومتقدِّمة، الذين لا يقرأون الجرائد ولا يشاهدون إلّا قنوات ميدياسيت، الذين يتوجَّهُ إليهم برلسكوني ليُحذِّرهم من عودة الشيوعيّة، ذاك الشعب يُصدِّقُ تلك الأمور، ليصبح الخوف من حكوماتٍ يساريّةٍ مماثلًا بعض الشيء للخوف من الأتراك الذي لا بدَّ أنَّه استمرَّ طويلًا حتّى بعد معركة ليبانت وبدء انحسار الإمبراطوريّة العثمانيّة.

إذًا، أعود إلى كلام ميلي، إذا كان نصف الناخبين الإيطاليّين يعيشون هذه الخشية المتجذِّرة، فليس أمامهم سوى التوجُّه إلى مَن يمنحهم ترياقها، أي يُصوِّتون طيلة خمسين عامًا للحزب المسيحيّ الديمقراطيّ، وعشرين للبرلسكونيّة السياسيّة.

أعتقد أنَّ ميلي أجرى ذلك التحليل عندما بدا أنَّ نزول مونتي إلى المعترك السياسيّ من شأنه أن يعطي بدائل أخرى - لذا رأينا كيف أنَّ برلسكوني، مدفوعًا بهذه الخشية، قاد معركته ضدَّ مونتي بتصويره دائمًا على أنَّه عبدٌ غبيٌّ لليسار. حسنًا، أخفق مونتي وعادت فكرة ردع اليسار لتكون حكرًا على برلسكوني. وهذا ما يفضي بنا إلى استنتاجٍ يبدو لي طبيعيًّا: اليمين يفوز عندما يقنعُ اليسارُ الناخبين المعتدلين بأنَّه سيتولّى السلطة. أمّا اليسار فيفوز عندما، كما هي حال حملات رومانو برودي، لا يتفاخر بثقةٍ زائدة، إنّما يوحي بمحفِّزٍ لاشعوريّ: «نأمل الخروج بنتيجةٍ مُرضِية»، وقد تمكَّنَ اليسار من الفوز عندما لم يراهن الجميع على ذلك.

لا غنى عن جرعةٍ من أداء دور الضحيّة لئلّا يتحمَّسَ الخصوم. خاض غريلّو حملةً تليق بمنتصرين، لكنَّه أفلح في توليد انطباعٍ بأنَّهم يستبعدونه من قنوات التلفزيون وأنَّه اضطرَّ إلى النزول إلى الميادين - وهكذا ملأ الشاشات

1- «اللجان المدنيّة» هي منظّمة تأسَّست بتفويض من البابا بيوس الثاني عشر، بهدف تعزيز الروح الكاثوليكيّة عند الإيطاليّين في مواجهة المدّ الشيوعيّ. (المترجم).

بأدائه دور ضحيّة النظام. غير أنَّ هنالك أيضًا مَن كان يجيد التباكي: تولياتّي، الذي كان يُقدِّمُ العمَّالَ على أنَّ الرجعيّة المتربِّصة تمنعهم من دخول أروقة الحكم؛ بانّيلّا، الذي لطالما اشتكى من تجاهل وسائل الإعلام للراديكاليّين فاستطاع احتكار انتباه الصحف والتلفزيونات الدائم؛ برلسكوني الذي لطالما قدَّمَ نفسه مضطهدًا من الصحف والنخب والقضاء، وعندما كان في الحكم كان يشتكي أنَّهم لا يتركونه يعمل ويعرقلون مساعيه. جوهريٌّ إذًا مبدأُ «ابكِ وانكح»، أو بالأحرى، كي لا نُعبِّر بطريقةٍ سوقيّة، مبدأُ الـ «keep a low profile»، بمعنى: تجنَّبْ لفت الأنظار.

فالسادة من أوساط العمر يمتنعون عن التصويت أو يُصوِّتون عشوائيًّا إذا كانوا واثقين من عدم تقدُّم اليسار. أمّا إذا تفاخر اليسار بالنصر، التجأ هؤلاء المعتدلون إلى الذي دهَنَهُ الآبُ بالطِّيْب[1].

2013

اشتَبِهوا بمن يقاضيكم

كنتُ قد كتبتُ شيئًا من هذا القبيل في *مغلَّفٍ* من العام 1995، ولكنْ ليس ذنبي إن كانت الأمور على بُعد ثمانية عشر عامًا تجري بالطريقة نفسها، في هذا البلد على الأقلّ. ومن جهةٍ أخرى، كنتُ قد كتبتُ في *مغلَّفٍ* آخر أنَّ صحيفة *لا ريبوبليكا*، للاحتفال بالذكرى السنويّة العشرين على تأسيسها، أدرجت في عددها ذاك طبعةً ثانيةً للعدد الصادر قبل عشرين عامًا. وقد خِلتُ أنَّ العدد الثاني هو الأوّل، وقرأْتُهُ باهتمامٍ كبير، ولم يخامرني الشكُّ إلّا عند النهاية حين رأيتُ برامج قناتين تلفزيونيَّتَين لا غير. أمّا ما تبقّى، فكانت

1- «مَن اختاره الشعب كمن دهَنَهُ الآب» عبارةٌ قالها برلسكوني لإضفاء الفضيلة على نفسه، ضدَّ المطالبات بمحاكمته: لا يُحاكَم مَن انتخبه الشعب ديمقراطيًّا. ولعلَّه اقتبسها من إنجيل لوقا (الإصحاح السابع)، حيث تأتي امرأة آثمة إلى يسوع وتدهن قدميه بالطيب، فيصفح عن آثامها. بمعنى أنَّ ذنوب برلسكوني مغفورة ما دام انتخبه الشعب. ولطالما التجأ برلسكوني للمظلوميّة مُشبِّهًا نفسه تارةً بسقراط وتارةً بيسوع وغاليليو، الذين ظلمتهم المحاكمات وأعاقت مشاريعهم النافعة للبشريّة. (المترجم).

الأخبار ما قبل عشرين عامًا هي نفسها التي كنتُ سأنتظرها ما بعد عشرين عامًا، ولا تُلقى اللائمةُ في هذا على الصحيفة، إنّما على إيطاليا.

في العام 1995، كنتُ أتأسّف على آفةٍ غريبةٍ تنتهجها بعض الجرائد المتحيِّزة لبعض مشاهير متَّهمين، فعوضًا عن الدأب على إثبات براءتهم، كانت تنشر مقالات غامضة وإيحائيّة، إن لم تكن اتِّهاميّةً عمدًا، وهادفة لنزع الشرعيّة عن القضاة.

جديرٌ بالذكر أنَّ إثباتَ أنَّ التهمة في إحدى المحاكمات متحاملة ومغرضة هو في حدِّ ذاته إثباتٌ رائعٌ على الديمقراطيّة، وليت هذا متاحٌ في معظم المحاكمات الصوريّة التي تجريها دكتاتوريّاتٌ من كلّ صنف. إلّا أنَّ هذا ينبغي فعله في حالاتٍ استثنائيّة. فالمجتمع الذي تُنزَعُ فيه الشرعيّة، دائمًا ومبدئيًّا، ليس عن التهمة فحسب، إنّما عن هيئة القضاة بشكلٍ ممنهجٍ أيضًا، هو مجتمعٌ يعاني خللًا مّا. إمّا أنَّ العدالة مُعطَّلة وإمّا أنّ محاميي الدفاع غير موفَّقين.

وعلى الرغم ممّا سبق، فإنَّ هذا بالضبط ما نشهده منذ زمن. المناورة الأولى للمتَّهم ليست في برهنة أنَّ أدلَّة الادّعاء متنافية، بل في إثباته للرأي العامّ أنَّ الادّعاء قد تطاله الشبهات. فإن نجح المتَّهم في هذه العمليّة، أضحى سير المحاكمة أمرًا ثانويًّا. ذلك أنَّ القرار –في محاكماتٍ منقولةٍ على التلفاز– هو للرأي العامّ، الذي يحجب الثقة عن هيئة الادّعاء ويميل إلى إقناع كلِّ هيئة القضاء بأنَّ تصديق الادّعاءات أمرٌ مكروهٌ شعبيًّا.

لذا فإنَّ المحاكمة ما عادت تخصُّ نقاشًا بين طرفين يُقدِّمان أدلَّةً وأدلَّةً مضادّة، بل تخصُّ –وقبل المحاكمة أيضًا– نزالًا إعلاميًّا بين متَّهمين قادمين ومدَّعين قادمين وأعضاء هيئة قضاء ينكر عليهم المتَّهمُ حقَّهم في مقاضاته.

إن استطعتَ أن تُثبِتَ أنَّ الذي يتَّهمك فاسق، وارتكب خطايا أو حماقاتٍ أو جنايات –حتّى لو كانت لا تمتُّ بصلة للمحاكمة– فقد انتصرت. وليس من الضروريّ إثبات أنَّ القاضي ارتكب جريمة. يكفي (وهذه حقيقة) أن تُصوِّره وهو يرمي عقب سيجارته على الأرض (الأمر الذي لا ينبغي فعله طبعًا، وإن في لحظة شرود)، أو (وهذا ما وقع فعلًا) وهو يتجوَّل بجوارب نيليّة مقيتة، وسرعان ما يصبح القاضي مُقاضى، لما في ذلك من تلميحٍ بأنَّه

شخصٌ غريب الأطوار وغير أهلٍ بالثقة، ومصابٌ بعاهاتٍ وراثيّةٍ تجعله غير كفؤ بتولّي مهامه.

ويبدو أنَّ هذه الأساليب موفَّقة، طالما أنَّها متواصلة منذ ما لا يقلُّ عن عشرين عامًا. كما أنَّ هذه التلميحات تدغدغ أسوأ غرائز الشخص العاديّ، الذي إذا غُرِّمَ على رَكن سيّارته في الوضعيّة الثالثة، يشتكي قائلًا إنَّ الشرطيّ غير طبيعيّ، يُضمِر الحسد لمن لديه بي إم دبليو، مثلما يُتَّهَمُ به الشيوعيّون عادةً. يشعر الجميع في كلّ التحرّيات أنَّهم جوزف ك، الشخصيّة الكافكويّة، بريئًا أمام عدالةٍ تتَّصف بارتيابيّةٍ مهولة.

إذًا، قبل ثمانية عشر عامًا، كنتُ أقول: تذكَّرْ، في المرَّة القادمة، حين يدهمونك بالجرم المشهود، في اللحظة التي تهوي بالعصا على الشرطيّ الذي فاجأك وأنت تفلق رأس جدَّتك بالبلطة، فلا تنشغلْ بتنظيف آثار الدماء، أو بإثبات أنَّك كنتَ في مكانٍ آخر خلال تلك الساعة، على موعدٍ مع أحد الكرادلة. يكفي أن تُثبِت أنَّ الذي فاجأك بالجرم المشهود، لم يشمل تصريحُهُ الضريبيُّ الذي أدلى به قبل عشرة أعوامٍ كعكةَ الميلاد التي تلقَّاها هديَّةً من إحدى المؤسَّسات (وحبَّذا لو أنَّ هنالك شكوكًا حول علاقة صداقةٍ وثيقةٍ تربطه بالمدير العامّ للمؤسَّسة المانحة).

2013

كلُّ هذا سيصبح ملكك يا بُنيَّ

بينما أكتب هذا المقال (وكيف لي أن أعرف، اعذروني إن كان أحدهم قد غيَّرَ رأيه في الأثناء، مثلما يحدث يوميًّا والحال هذه) أكَّدَت مارينا برلسكوني بحزمٍ أنَّها لا تنوي قبول إرث والدها السياسيّ، وتعتقد أنَّ استمرارها بإدارة الأعمال أكثر حكمةً، ومن الوارد أنَّها تحتذي بالمثل الميلانيّ الشعبيّ: «فليعمل الخبَّاز بمهنته» إذ يوصى المرءُ بصنع ما يجيده لا أن يهدر وقته في حِرَفٍ لا يفقهها.

ولكن، باستبعاد مارينا، لا شيء يمنع برلسكوني من البحث عن فردٍ آخر من عائلته لضمان استمراريّة السلالة. لديه ما يكفيه، بين أبناء وبنات، وربّما

أولاد عمومة، حتّى إنَّ هذا الرجل النشط الذي يُنفِّذ شيئًا ويُخطِّط لأشياء، قد يخطر في باله أن يدفع زوجته فيرونيكا لاريو لخوض معترك السياسة، طالما أنَّ كلَّ بيرون له إيڤيتا خاصّته[1]. وفي حال رفضت السيّدة لاريو، فلِمَ لا يفكِّرُ بوريثةٍ مُتبنّاة، نيكول مينيتّي على سبيل المثال، أو روبي أو أيّ أولجتينة[2] أخرى؟

لا جدوى من الاعتراض بأن لا وجود لمفهوم الأسرة الحاكمة في الأنظمة الديمقراطيّة، وأنَّ هذا ليس إلّا ديدن الملوك العواهل، والأباطرة الرومان حين لا يقتحم الحرس البريتوريّ المشهد ليغيِّرَ أوراق اللعب على الطاولة، والمستبدّين الكوريّين حصرًا. كلّا، فالأسر الحاكمة موجودةٌ في الديمقراطيّات أيضًا، انظر كيف خلفت مارين لوبان والدَها على زعامة الحزب. وإن ازددنا إلحاحًا فبإمكاننا الحديث عن أسرة كينيدي (حيث عُرقِلَ انتقال السلطة إلى بوب جرّاء مقتله على يدٍ غادرة)، وقد وصل كلٌّ من الرئيسين بوش إلى سدَّة الحكم أيضًا، كما ليس من المستحيل أن تأتينا السيّدة كلينتون.

صحيحٌ أنَّ الرئيس في أمريكا لا يمكنه تمرير السلطة إلى إخوته أو زوجاته أو أبنائه بمبادرةٍ منه، إنّما يتعيَّنُ عليه انتظار التصديق من التصويت الشعبيّ على عودة العائلة نفسها إلى الرئاسة، وبكلّ الأحوال لا تنتقل السلطة بهذه السرعة، بل ينبغي انقضاء بعض الأعوام. ورغم هذا ما من شكٍّ في أنَّ عودة تلك الكنية إلى الحياة السياسيّة دلالةٌ على مفهوم الأسرة الحاكمة، وإيمانٌ عميقٌ بأنَّ الدم النقيّ لا يكذب.

إلّا أنَّه في حالة انتقال الصلاحيّات من واحدٍ من عائلة برلسكوني إلى آخر هنالك ما هو أكثر من الدلالة على الأسرة الحاكمة واستحضار قيم الدم. برلسكوني يعتبر أنَّه من الشرعيّ، ومن الطبيعيّ تقريبًا، أن تنتقل الزعامة إلى

1- إيڤيتا بيرون، زوجة الرئيس الأرجنتينيّ خوان بيرون، وقد استغلَّت كونها السيِّدة الأولى لأداء دورٍ سياسيّ، باصطفافها إلى جانب العمَّال والفقراء وتأييد حقوقهم. (المترجم).

2- تدلُّ الكلمة على أربع عشرة فتاة نزلن في فندق أولجيتينا بميلانو، ليشاركن في حفلات برلسكوني في قصر آركوري، التي عُرِفت بحفلات البونغا بونغا. فدرجت تسمية الفتيات بنسبهنَّ إلى الفندق الذي نزلن فيه. (المترجم).

أحد وَرَثَته لأنَّ لديه فهمًا تملُّكيًّا للحزب السياسيّ. يفكِّر أنَّ التركة قابلةٌ للنقل لأنَّ رأس المال ملكه، فيتصرَّفُ مثل كبار روَّاد الصناعة، الذين يرون أنَّ المؤسَّسة هي من ممتلكات العائلة ولا بدَّ من نقل ملكيّتها إلى السليل وفقًا لمبدأ التوريث. والمثال النموذجيّ هو آل أنييلّي: نقل الجدُّ جوفانّي إدارة المشاريع لحفيده جانّي (تولّى فالّيتا الوصاية ريثما أتمَّ الوارثُ السنَّ القانونيّة) وعند وفاة جانّي، ونظرًا لانعدام آخرين من آل أنييلّي، انتقلت الحظوة إلى حفيدٍ آخر له كنيةٌ أخرى لكنَّه من دم أنييلّي نفسه. ولعلَّكم تذكرون المالك الأمريكيّ الكبير، الذي يظهر في عدّة أفلام، وهو يُري وريثَهُ امتداداتٍ شاسعةً من المراعي والقطعان قائلًا: «كلُّ هذا سيصبح ملكك يومًا ما يا بُنيَّ!»

ولكن هل من الطبيعيّ أن يكون الحزب من أحد ممتلكات العائلة كمصنعٍ للصفائح المعدنيّة أو البسكويت؟ دع عنك أنَّ أفكارًا من هذا النوع لم تخطُر حتّى في بال موسوليني (مع أنَّ الحزب كان حزبه حقًّا، والدليل أنَّه انحلَّ برحيله)، فهل تتخيَّل أن يفكِّر دي غاسبيري بنقل الحزب المسيحيّ الديمقراطيّ إلى ابنته ماريّا رومانا؛ أو أن يُورِّثَ كراكسي الحزب الاشتراكيّ لابنيه بوبو أو ستيفانيا، أو أن يتشبَّثَ برلنغوير بحقٍّ إلهيٍّ ليفوِّضَ ابنته بيانكا بإدارة الحزب الشيوعيّ الإيطاليّ وهلمَّ جرًّا؟ لا، لأنَّ الحزب لم يؤسِّسه هؤلاء، ولم يكن مموَّلًا من هؤلاء، بل كان عليهم مباحثة الهيئات الأخرى التي انتخبتهم، لذا لم يكن لديهم تصوُّرٌ ميراثيٌّ للحزب.

القرار بتوريث السلطة يعكس درايةً تامّةً بأنَّ الحزبَ شيَّدَهَ الرِّيس، ولا يصمد من دون اسم الرِّيس، وأنَّه مموَّلٌ من الرِّيس، وأنَّ أعضاء الحزب ليسوا ناخبي الرِّيس، إنّما موظَّفون يشتغلون تحت إمرة الرِّيس. ففي الأحزاب ذات الملكيّة الخاصّة، لكلِّ سمكة قرشٍ دولفينها.

2013

اليسار والسلطة

لم أكن حاضرًا على الحادثة، لكنَّني سمعتُ بها من شخصٍ ثقة. إذًا، في العام 1996 فاز رومانو برودي بالانتخابات توًّا، وصعد اليسار إلى السلطة

للمرَّة الأولى. أُقيمَ احتفالٌ كبير، على ما أعتقد، في ساحة الشعب، وكان الحشد صاخبًا. وبينما كان داليما متوجِّهًا نحو المنصّة، أمسكت إحدى السيّدات بذراعه وهي تصيح: «أيُّها الرفيق ماسّيمو، الآن صار بوسعنا أن نكون معارَضةً متينة!»

انتهت القصَّة لكنْ لم تنتهِ اللعنة التي تُمثِّلُ أحد أعراضها. لقد أدركت تلك الناشطة أنَّ حزبها فاز بالانتخابات، ولكنْ ليس أنَّه مجبَرٌ على تسلُّم مقاليد الحكم؛ وكانت لا تستطيع أن تتصوَّرَ الحزبَ يُكرَهُ على أن يقول نعم حيال كثيرٍ من الأمور، لأنَّها لطالما رأت فيه قوّةً بطوليّةً وعنيدةً تقول لا على كلّ شيء.

غير أنّه في هذه السيّدة يتلخَّصُ تاريخٌ مأساويٌّ لليسار الأوروبيّ: طيلة مئة وخمسين عامًا عاش هذا اليسار بصفته قوّةَ معارَضة؛ ثوريّة، أجل، لكنْ بترقُّبٍ طويلٍ وأليمٍ لاندلاع الثورة (وفي روسيا، وفي الصين، حيث الثورة اندلعت حقًّا، أُجبِرَ اليسار على الحكم لا على المعارضة، فأصبح ذلك اليسار شيئًا فشيئًا قوّةً محافِظة).

ولهذا السبب شعر اليسار دومًا بقدرته على الرفض، ونظر بعين الريبة إلى أجنحته التي تميل نحو الإذعان والمداهنة، فما كان أمامه إلّا أن استأصلها باعتبارها اشتراكيّة ديمقراطيّة، وإلّا هجره الناشطون ليؤسِّسوا حزبًا أكثر راديكاليّة. ولهذا لطالما كان اليسار شقاقيًّا، مدانًا بما يشبه انقسام النواة المتواصل، وبفعله هذا لم تتسنَّ له عناصر القوّة الكافية لتولّي السلطة بطبيعة الحال – ولعلّي أقولها بنبرةٍ ماكرة: هذا من حسن حظّه، وإلّا كان مرغمًا على قول نعم مرّةً تلو أخرى، وعلى تقديم كلّ التنازلات التي يستوجبها اتّخاذ القرارات الحكوميّة، وكلَّما رضخ للتسويات كان سيفقد نقاوته الأخلاقيّة التي تراه مغلوبًا على أمره وقادرًا بعزيمةٍ وإصرارٍ على رفض مغريات السلطة. كان يكتفي بالتفكير بأنَّ تلك السلطة، التي كان يرفضها، قد تنهار يومًا مّا.

إنَّ قصّة تلك المرأة بساحة الشعب تُفسِّر كثيرًا من الأمور التي ما زالت تحدث حتّى في أيّامنا هذه.

2015

من الغباء إلى الجنون

لا، ليس التلوُّث. إنّما عدم نقاوة الهواء

تهبُّ رياح الحرب فيما نجد أنفسنا بين يدي أقوى رجلٍ في العالم، وهو بوش. لا يطالب أحدٌ الآن بما أراده أفلاطون، أي أن يحكم الفلاسفةُ الدولَ، ولكن من الجيِّد أن تكون الدولُ بيد أناسٍ أفكارهُم واضحة. ومن الجدير أن نطَّلع على مواقع متعدِّدة في الإنترنت تجمع عباراتٍ شهيرةً أطلقها بوش. هناك عباراتٌ غير محدَّدة الزمان أو المكان، عثرتُ من بينها على هذه: «إن أخفقنا فقد نفشل. حان الوقت لكي تدخل البشريّة في المجموعة الشمسيّة. ليس التلوُّثُ ما يُهدِّدُ البيئة، إنّما عدم نقاوة الهواء والماء».

للصحفيّين: «لا بدَّ لي من أن أسأل مَن طرح عليَّ السؤال. لم يتسنَّ لي المجال لأسأل مَن طرح عليَّ السؤال: ما السؤال الذي طرحه عليَّ». (أوستن، 8 يناير 2001). «أظنُّ أنَّك إذا عرفتَ ما الذي تُفكِّرُ به، فإنَّ هذا سيُسهِّلُ الإجابة على سؤالك. لا أستطيع الإجابة على سؤالك» (رينولدسبرغ، أوهايو، 4 أكتوبر 2000). «المرأة التي كانت تعلم أنَّني عانيتُ عسر اختيار المفردات – حسنًا، أنا لم أحاورها في أيِّ مقابلة» (أورانج، 15 سبتمبر 2000).

سياسة: «اللاشرعيّة هي ما ينبغي لنا الحديث عنها بمقتضى عدم امتلاكنا إيّاها» (20 مايو 1996). «أعتقد أنَّنا جميعًا على طريقٍ لا عودة فيها نحو مزيدٍ من الحريّة والديمقراطيّة. لكنَّ الأمور قد تتغيَّر» (22 مايو 1998). «إنَّني حريصٌ على صون السلطة التنفيذيّة ليس من أجلي فحسب، بل من أجل أسلافي أيضًا» (واشنطن، 29 يناير 2001). «إنَّنا ملتزمون بالعمل مع كلا

الطرفين لإيصال مستوى الإرهاب إلى مستوىً مقبول لدى كلا الطرفين» (واشنطن، 2 أكتوبر 2001). «أعرف أنَّ هنالك كثيرًا من الطموحات في واشنطن، هذا طبيعيّ. لكنّي آمل أن يدرك الطموحون أنَّ النجاح بنجاح أسهل من النجاح بفشل» (مقابلة مع أسوشيتد برس، 18 يناير 2001). «أعظم شيء في أمريكا هو أنَّه ينبغي لكلّ مواطنٍ أن يُصوِّت» (برنامج ستّون *دقيقة 2*، 5 ديسمبر 2000). «أحد العوامل المشتركة التي وجدتُها هو أنَّ الانتظار يتمحور حول ما هو مُنتَظَر» (لوس أنجلس، 27 سبتمبر 2000). «من الضرورة أن ندرك أنَّه كلَّما تزايدت التبادلات التجاريّة تزايدت التجارة» (في اجتماع منظَّمة الدول الأمريكيّة، كيبك سيتي، 21 أبريل 2001).

تربية: «بكلّ صدق، المعلِّمون هم المهنة الوحيدة التي تُعلِّم أبناءنا» (18 سبتمبر 1995). «سيكون لدينا الأمريكيّون الأفضل تربيةً في العالم» (21 سبتمبر 1997). «أريد أن يقال إنَّ إدارة بوش مُتوجِّهة نحو النتيجة، لأنَّني أؤمن بنتيجة تركيز العناية والطاقة على تربية الأطفال على القراءة، ليحصلوا على نظامٍ تربويٍّ معنيٍّ بالأطفال وآبائهم، عوضًا عن التطلُّع إلى نظامٍ يرفض التغيير، لنَصنع من أمريكا ما نريدها أن تكون، بلدًا من أناسٍ يجيدونَ القراءة ويجيدون الأمل» (واشنطن، 11 يناير 2001). «إنَّ النظام التربويّ العموميّ هو أحد أساسات ديمقراطيّتنا. ففي نهاية المطاف هو حيث يتعلَّمُ أطفال أمريكا أن يكونوا مواطنين مسؤولين، ويتعلَّمون الكفاءات الضروريّة للاستفادة من مجتمعنا الانتهازيّ الخارق» (1 مايو 2002).

علوم: «المريخ يقع في مدارنا نفسه جوهريًّا. يبعد عن الشمس بقدر ما نبعد عنها تقريبًا، وهذا أمرٌ مهمّ. نعتقد أنَّنا رأينا صورًا عن قنوات وعن مياه. وإن كان ثمّة ماء ثمّة أكسجين، وإن كان ثمّة أكسجين فبوسعنا أن نتنفَّس» (8 نوفمبر 1994). «إنَّ الفضاء هو الأولويّة الرئيسة دومًا بالنسبة إلى ناسا» (5 سبتمبر 1993). «الغاز الطبيعيّ نصف كرويّ. يعجبني أن أصفه بالنصف الكرويّ في الطبيعة لأنَّه المنتج الذي بوسعنا العثور عليه في الجوار» (أوستين، 20 ديسمبر 2000). «أعلم أنَّ البشر والسمك يستطيعون التعايش بسلام» (ساغيناو، 29 سبتمبر 2000).

شؤون خارجيّة: «أمضينا وقتًا طويلًا في الحديث عن إفريقيا، وهذا

تصرُّفٌ سليم. إفريقيا هي أمّةٌ تعاني مرضًا عجيبًا» (مؤتمر صحفيّ، 14 يونيو 2001). «تحدَّثتُ مع بيثنتي فوكس، الرئيس المكسيكيّ الجديد، للحصول على نفطٍ يُورَّدُ إلى الولايات المتّحدة. فهكذا لن نظلَّ تابعين للنفط الأجنبيّ» (الخطاب الرئاسيّ الأوّل، 10 مارس 2000). «مشكلة الفرنسيّين هي أنّه ليس لديهم كلمة لـ «entrepreneur»» (مُتحدِّثًا مع بلير). «هل لديكم سودٌ أنتم كذلك؟» (مُتحدِّثًا مع الرئيس البرازيليّ فرناندو كاردوزو، في ولاية ساو باولو، 28 أبريل 2002). «منذ أسبوع حوصِرَ عرفات في مقرِّه برام الله، وهو مقرٌّ من الواضح أنّه مكتظٌّ بدعاة السلام الألمان وما شابههم من هذا النوع من الناس. والآن قد رحلوا. وأصبح عرفات حرًّا بإبداء زعامته، ليحكم العالم» (واشنطن، 2 مايو 2002). «معظم وارداتنا آتٍ من وراء البحار» (خلال النشرة الصباحيّة لإذاعة ن ب ر، 26 سبتمبر 2000). «أفهم أنَّ التوتُّر في الشرق الأوسط يخلق توتُّرًا في المنطقة برمَّتها» (واشنطن، 13 مارس 2002). «إنَّ رحلتي إلى آسيا تبدأ من اليابان لسببٍ مهمّ. تبدأ من هنا لأنَّ أمريكا واليابان منذ قرنٍ ونصف أسَّسا واحدًا من أعظم التحالفات وأكثرها ديمومةً في العصور الحديثة. وقد نجَمَ عن هذا التحالف عهدٌ من السلام في المحيط الهادئ» (طوكيو، 18 فبراير 2002).

2002

كيفيّة الثراء على حساب مواجع الآخرين

إن كنتم غير راضين عن وضعكم الاقتصاديّ وتريدون تغيير مهنتكم، فإنَّ مهنة البصّار هي من بين أكثر النشاطات التي تدرُّ أرباحًا طائلة وأكثرها سهولةً (بخلاف ما قد يبدو لكم). يكفي أن تتمتَّعوا بشحنةٍ معيَّنة من اللطافة، وقدرةٍ دنيا على فهم الآخرين، وما تيسَّرَ لكم من انعدام الضمير. ولكن حتّى من دون هذه الكفاءات، بإمكانكم الاستعانة دومًا بالاحتماليّات التي تعمل من أجلكم.

حاوِلوا إجراء هذه التجربة: اقتربوا من شخصٍ مّا، باختيارٍ عشوائيٍّ أيضًا (من الأفضل طبعًا إذا كان مستعدًّا للتحقُّق من كفاءاتكم في علم الخوارق). انظروا في عينيه وقولوا له: «أشعر أنَّ هنالك مَن يُفكِّر بك بشدّة، إنَّه شخصٌ

لم تره منذ أعوامٍ طويلة، لكنَّك أحببته جدًّا في زمنٍ مضى، وعانيتَ لأنَّه لم يبادلك المشاعر... لقد أدرك هذا الشخص الآن هولَ ما سبَّبه لك من مواجع، فهو نادم، رغم معرفته بفوات الأوان...». هل هناك أحدٌ في العالم، باستثناء الأطفال، لم يعانِ في ماضيه حبًّا تعيساً، أو غير متبادل بما فيه الكفاية على الأقلّ؟ وهكذا سيكون الخاضع للتجربة أوَّلَ مَن يُهرَع لطلب نجدتكم والتعاون معكم، ويقول لكم إنَّه حدَّدَ الشخصَ الذي استطعتم التقاط أفكاره بدقّة.

بإمكانكم أيضًا أن تقولوا لأحدهم: «هناك شخصٌ يحطُّ من شأنك، ويتكلَّم عنك بالسوء هنا وهناك، ويفعلها بسبب حسده». من الصعب جدًّا أن يجيبكم بأنَّ الجميع يُقدِّرونه أيَّما تقدير وأنَّ ليس لديه أدنى فكرة عمَّن قد يكون ذلك الشخص. بل سيكون بالأحرى مستعدًّا لتحديده فورًا، ومعجبًا بقدرتكم على الإدراك الحسّيّ الفائق.

أو جرِّبوا أن تقولوا للخاضع للتجربة أنَّكم ترون أشباح أحبَّتِهِ الراحلين تحوم حوله. اقتربوا من شخصٍ متقدِّمٍ في السنّ وقولوا له إنَّكم ترون بجانبه طيفَ شخصٍ عجوز، توفّي بمرض القلب. كلُّ فردٍ حيّ لديه والدان وأربعة أجداد، وإن حالفكم الحظّ يكون لديه عمٌّ أو إشبينٌ أو إشبينةٌ أعزّاء على قلبه. إذا كان الخاضع للتجربة متقدِّمًا في السنّ فمن السهل أن يكون أحبَّتُهُ في عداد الموتى، ومن بين ستّة أموات لا بدَّ من وجود واحدٍ على الأقلّ متوفّى بقصور القلب. وإن لم يحالفكم الحظّ مطلقًا، يجدر بكم أن تحرصوا على وضع هذا الشخص بين ثلّةٍ من المهتمّين بمواهبكم الخارقة، عندئذ قولوا إنَّكم ربّما قد أخطأتم، وأنَّ ما ترونه ليس أحد أقارب الشخص الذي تتحدَّثون إليه، إنّما الجالس بجانبه. وبالتأكيد سيبادر أحد الحضور قائلًا هذا صحيح إنَّه أبي أو إنَّها أمّي، وبذلك تكونون قد تفاديتم الحَرَج، وبوسعكم التحدُّث عن الدفء الذي ينشره ذلك الطيف، والمحبّة التي يكنُّها لقريبه أو قريبته اللذين باتا يتقبَّلان إغراءاتكم كلَّها...

ولا شكَّ أنَّ القرّاء الفطنين استطاعوا تحديد ألاعيب بعض الشخصيّات المتفرِّدة بجاذبيّتها التي تظهر في البرامج التلفزيونيّة. لا شي أسهل من

إقناع والدٍ فقَدَ ابنه توًّا، أو مَن لا تزال مفجوعةً برحيل والدتها، أو زوجها، أنَّ تلك الروح الطيِّبة لم تتحلَّل في العدم وأنَّها لا تزال تبعث رسائل من الآخرة. أكرِّر، مهنة الوسيط الروحانيّ سهلة، فالوجع والانخداع سيعملان من أجلكم.

إلّا إذا كان في الجوار أحد أعضاء الـCICAP «الهيئة الإيطاليّة لاستجلاء ادّعاءات الخوارق والعلوم الزائفة»، التي بإمكانكم متابعة أخبارها على الموقع *www.cicap.org*، أو بقراءة مجلّة *العلوم والخوارق*. يطارد باحثو الهيئة الظواهرَ التي تدَّعي أنَّها من الخوارق (من الأرواح الصاخبة إلى الطفو، ومن ظواهر الوسيط الروحانيّ إلى الدوائر في حقول القمح، ومن الأجسام الطائرة المجهولة إلى التكهُّن بالعصا، من دون تجاهل الأشباح، والرؤى المنذرة، وطيّ الشوكة بوساطة الذهن، وقراءة أوراق التاروت، وتماثيل العذراء التي تذرف دمعًا حقيقيًّا من أعينها إلخ) ويُفكِّكون آليّاتها، ويُوضِّحون حيلتها، ويشرحون بطريقةٍ علميّةٍ الأمرَ الذي يبدو خارقًا للعادة، وغالبًا ما يعيدون إجراء التجربة لإثبات أنَّه باستطاعة الجميع، ما إن يفهموا مبدأ الحيل، أن يصبحوا سحرة.

اثنان من شرطة الـCICAP، وهما ماسّيمو بوليدورو ولويجي غارلاسكيلّي، أصدرا مؤخّرًا (بالتعاون مع أعضاء آخرين في الهيئة) كتاب *استقصاء الخفائيّين. عشرة أعوام من التحقيقات في الخوارق* (آفيربي، 2000) حيث ستقرؤون الكثير من القصص المسلّية، شرط ألّا تكونوا ممّن يبكون حالما يكتشفون أنَّ ليس لبابا نويل وجود.

لكنّي أتردَّد في الحديث عن تسلية. فالجهود التي يجب أن تبذلها هذه الهيئة تعني أنَّ الانخداع والسذاجة منتشران أكثر ممّا نظنّ، كما أنَّ هذا الكتاب في نهاية المطاف سيباع منه بضعة آلاف من النسخ، في حين أنَّ روزماري ألتيا يظهر على شاشة التلفاز متلاعبًا بمواجع الآخرين، فيشاهده الملايين والملايين من الناس. فمَن الذي نلقي عليه اللوم بقولنا إنَّ هذا تجهيلٌ للناس؟ المحكمة هي المحكمة.

2002

ملكة جمال، وأصوليّون، ومجذومون

عندما سيظهر عدد *الإسبريسو* هذا في الأكشاك، قد يكون معظم القرّاء قد نسوا الواقعة النيجيريّة، التي أسفرت عن مصرع ما يربو على مئتي شخص بسبب مسابقة ملكة جمال العالم. وسيكون هذا سببًا وجيهًا لئلّا يمرّ الحدث دون أن يحظى بأيّ اهتمام. على أنَّ الوضع قد يتدهور، حتّى بعد نقل المسابقة إلى لندن، إذ اتَّضح للجميع أنَّ قدوم متسابقات الجمال إلى نيجيريا كان مجرَّد ذريعة لإشعال فتيل التوتُّرات أو تأليب مشاريع تخريبيّة ذات منحىً مختلفٍ كلّيًّا: فمن غير المفهوم سبب قتل مسيحيّين وإحراق كنائس للاعتراض على مسابقة جمال، طالما أنَّ الأساقفة ليسوا أصحاب مبادرة إقامتها. ولكن، إذا كان للأحداث أن تستمرّ، فمن الصواب أن نتمعَّنَ في تلك الذريعة التي أدَّت إلى غضب الأصوليّين الرهيب.

وول سوينكا، الحاصل على جائزة نوبل للآداب، الذي دخل السجن في نيجيريا لمحاولته الدفاع عن الحرّيّات الأساسيّة في بلده المتعوس، كتب مقالًا (نشرته صحيفة *لا ريبوبليكا*) حيث أضاف إلى كثيرٍ من تأمُّلاته النيِّرة حول النزاعات النيجيريّة، قوله (بإيجاز) إنَّه لم يشعر يومًا باستلطافٍ إزاء مسابقات الجمال الوطنيّة والعالميّة، غير أنَّه جرّاء غضب الأصوليّين المسلمين أحسَّ بضرورة الدفاع عن حقوق الجسد والجمال. وأعتقد أنّي لو كنتُ نيجيريًّا لكان رأيي مطابقًا لرأيه، ولكن بما أنّني لستُ كذلك، أودُّ أن أرى المسألة من وجهة نظر بلدنا.

لا شكَّ أن الردَّ من منطلق التعصُّب ضدَّ مسابقةٍ تظهر فيها فتياتٌ بلباس السباحة، لا يُسوِّغُ مقتل ما يزيد على مئتي شخص، علاوة على أنهم لا شأن لهم بالموضوع. من البديهيّ أن نقف جميعًا في جانب الفتيات. لكنّي أرى أنَّ منظِّمي المسابقة، إذ قرَّروا إقامة الحفل في نيجيريا، قد ارتكبوا عملًا شائنًا بالفعل. لا لأنَّه كان بوسعهم أو لزامًا عليهم توقُّع ردَّة الفعل تلك، بل لأنَّ تنظيم معرضٍ للزهوِّ كهذا (تساوي كلفته مبلغًا قد يكفي لإشباع عدّة قبائل طيلة شهر) في بلدٍ بائسٍ مثل نيجيريا، بينما يموت أطفاله جوعًا وتُرجَمُ فيه الزانيات رجمًا، يشبه عرض دعاية لشرائط البورنو والأفلام الكوميديّة في

مأوىً للمكفوفين، أو إهداء مستحضرات التجميل مع صور لنعومي كامبل لمشفى الجذام. ولا يأتيَنَّ أحدٌ ليقول إنَّ مسابقة الجمال أيضًا هي وسيلةٌ لتغيير العادات والتقاليد الموروثة، ذلك أنَّ هذه الاستمالات قد تجدي نفعًا على جرعاتٍ تجانسيّة أغلب الظنّ، وليس باستفزازاتٍ استعراضيّة.

ناهيك بفكرة أنَّه عملٌ شائنٌ ما أقيم إلّا لأغراضٍ تسويقيّة مع انعدام مطلقٍ للأخلاق، فإنَّ هذا الحدث يعنينا حقًّا، لاسيّما في هذه الأوقات، لأنَّ له صلة بتخثُّر الإشكاليّات التي نُسمِّيها بالعولمة. إنَّني من أولئك الذين يرون أنَّ من بين عشر ظواهر من العولمة ثمّة خمسٌ على الأقلّ تتضمَّنُ مخارج إيجابيّة، ولكن إن كان للعولمة جانبٌ سلبيّ فهو في فرض نماذج غربيّة على بلدانٍ متخلِّفة بالإكراه لدفعها إلى تبنّي آمالٍ وأساليب استهلاكيّة لا تقوى هذه البلدان على تحمُّل تكاليفها... باختصار، إن قدَّمتُ لك المتسابقات بلباس السباحة، فذلك لكي أحفِّزك على شراء لباس السباحة الغربيّ، الذي قد يصنعه أطفالٌ جائعون في هونغ كونغ، بهدف أن يشتريه في نيجيريا مَن لا يموت جوعًا، إنّما اغتنى على أكتاف مَن يموتون جوعًا، ويتعامل مع الغرب لاستغلال أولئك البائسين وإبقائهم في شروطٍ ما قبل استعماريّة.

لذا ما كان سيؤسفني لو تلاقى أشرس مناهضي العولمة في نيجيريا خلال المسابقة، منقسمين إلى ذوي بدلاتٍ بيضاء وذوي تكتُّلات سوداء عنيفة. كان على أصحاب البدلات البيضاء (بسلميّةٍ لا تخلو من العنفوان) أن يطردوا منظِّمي المسابقة ركلًا، وأن يعرُّوهم إلّا من سراويلهم (مثل المتسابقات)، وأن يدهنوهم بالعسل ويكسوهم بريش النعام أو طائرٍ آخر متوافر في عين المكان، وأن يرغموهم على مسيرةٍ تجوب الطرقات، ويهزؤوا بهم حسب الأصول. أمّا أصحاب البدلات السوداء فكان عليهم أن يواجهوا الأصوليّين المحلّيّين، المتواطئين مع الاستعمار الغربيّ الذي يناسبه جدًّا أن تبقى هذه الشعوب متخلِّفة، وأن يستخدموا كامل قدراتهم القتاليّة لمنعهم من ارتكاب مجازرهم – كنّا جميعًا سنُصفِّق (لمرَّةٍ واحدةٍ فقط، مرّة واحدة) لمحاربي السلام هؤلاء، لأنَّك إن كنتَ عنيفًا فعليك أن تتملَّكَ شجاعةً لتقيس نفسك بخصومٍ جديرين بك.

وماذا عن المتسابقات الطموحات؟ ربّما يُقنِعهنَّ الجناحُ الألطف

من مناهضي العولمة، فيستطعن (لمرَّةٍ واحدةٍ فقط) إعادة تدوير أنفسهنَّ لتحريك أردافهنَّ الجميلة بالذهاب (محتشمات) إلى القرى لتوزيع علب اللحم وقطع الصابون، إضافةً إلى مضادّاتٍ حيويّة وزجاجات الحليب. كنّا سنراهنَّ في منتهى الجمال حقًّا.

2002

إطلاق رصاص مع وصل استلام

يقول المَثَلُ القديم إنَّ الحرب شأنٌ خطيرٌ لدرجة أنّه لا ينبغي تركها بأيدي العسكر. أمّا اليوم فيجب تعديل المَثَل: العالم أصبح مسألةً معقَّدةً لدرجة ألّا ينبغي تركه محكومًا بأيدي مَن كان يحكمه. كأن يُسلِّموا مشروع منهاتن للقنبلة الذرّيّة لخبراء نفق مونت سينيز. كنتُ أفكِّر بهذه الأشياء منذ أسبوعين في واشنطن تمامًا بينما كان القنَّاص الشهير ما زال يتجوَّل، يصعق بكلّ مرحٍ الأشخاصَ الذين يتوقُّفون عند محطّة الوقود أو الخارجين من المطعم. كانَ القنَّاص في الأعلى، ببندقيّةٍ مزوَّدةٍ بمجهر، يؤدّي عمله عند إحدى عقد الطرق السريعة أو على تلٍّ هادئ. سقطت ضحيّة، ولم تصل الشرطة إلّا بعد أن تلقَّت تبليغًا، فأغلقت الطرق لساعتين أو ثلاث، دون أن تجد أحدًا بالطبع إذ كان لدى القنَّاص الوقت الكافي للتحرُّك إلى موقعٍ آخر. فما عاد الناس يخرجون من بيوتهم ولا يرسلون أولادهم إلى المدارس طيلة أيّام.

وبطبيعة الحال كان هناك مَن حذَّرَ من أنَّ هذه الأشياء تقع بسبب التجارة الحرّة للأسلحة، لكنَّ لوبيّات صناعة الأسلحة ردَّت بأنَّ المسألة ليست في امتلاك سلاح إنّما في استعماله جيّدًا. كما لو أنَّ استعماله للقتل لا يُعدُّ استعمالًا جيّدًا جدًّا بالضبط. أو أن الناس اعتادوا شراء البنادق لاستخدامها حقنةً شرجيّة؟

ولم يُلقَ القبض على قنَّاص واشنطن فيما بعد إلّا لأنَّه ترك بصماته في كلّ مكانٍ عمدًا – هو في نهاية المطاف من أولئك الذين لا يريدون سوى الظهور على صفحات الجرائد. إلّا أنَّ واحدًا غيره لا يريد أن يُلقى القبض عليه، كان بوسعه الاستمرار حتّى يقتل أكثر ممّا قُتِلَ بجهودٍ جهيدة في مركز

التجارة العالميّ. لهذا كانت أمريكا بأعصابٍ مشدودة وما تزال: لأنّها أدركت لو أنَّ منظّمةً إرهابيّة، عوضًا عن هدر الوقت بخطف طائرات، قرَّرت نشر قرابة ثلاثين قنّاصًا في معظم الولايات، لاستطاعت أن تشلَّ البلد كليًّا. ليس هذا فحسب، بل قد يبدأ سباقُ تنافسٍ محموم بين أولئك الذين ليسوا إرهابيّين إنّما مجانين، لينضمّوا بفرحٍ إلى الحفلة.

ثمَّ ماذا كان اقتراح بعض الذين من الواضح أنّهم ما عادوا جديرين بحكم العالم؟ أن تُصنَعَ أسلحةٌ «تُوقِّعُ» على الرصاصة والخرطوش أوتوماتيكيًّا، بحيث إنّنا عند استخراج المقذوف من جسد القتيل نحصل عمليًّا على عنوان القاتل. لم يفكّروا أنّني إذا أردتُ أن أقتل أحدًا فلن أستخدم بندقيّتي بل بندقيّةً مسروقة من أحدهم، بحيث يدخل السجن بدلًا عنّي؛ وأنّني إذا كنتُ إرهابيًّا سأحظى بمعارف يؤمّنون لي سلاحًا مسروقًا، أو برقمٍ محرَّف، أو بصناعةٍ غير أمريكيّة. لا أفهم لماذا تخطر هذه الأشياء في ذهني لا في ذهن خبراء الأمن.

وليت هذا كلُّ شيء. أقرأ في عدد نوفمبر الماضي من *لا ريبوبليكا* أنّه في ظلّ التخوُّف من الانكماش (الناس يشترون القليل، الأسعار تنخفض، لنقع في أزمة أسوأ من أزمات التضخُّم)، بادر القيِّمون على النظام الاحتياطيّ الفدراليّ (أي ليسوا أولادًا هواة) إلى اقتراح الدولار القابل للتلف – وهو عملة مزوَّدة بشريطٍ ممغنطٍ يعمل على إفقاد قيمة العملة تدريجيًّا في حال لم ينفقها المرء باكرًا (وتفقد قيمتها حتّى إن أبقاها في البنك).

أحاول أن أتخيَّل ما الذي سيفعله السيّد سميث، السبَّاك، الذي يعمل كالممسوس ليُحصِّلَ مئة دولار باليوم. من المحتمل أنّه سيُخفِّضُ إنتاجيّته قبل كلّ شيء. فلماذا يُهلِكُ نفسه بالعمل ليتقاضى أجرًا زهيدًا سيغدو بلا قيمة بعد وقتٍ قصير، ولا يمكنه حتّى وضعه في دفتر التوفير لشراء بيتٍ صغير؟ لن يعمل إلّا القليل الذي يؤمّن له قرابة ثلاثين دولارًا باليوم لشراء البيرة وشرائح اللحم. أو قد يستثمر المئة دولار خاصّته كلّ يوم في نفقات غير نافعة، كنزات، عبوات المربّى، أقلام رصاص، وبعدئذٍ سيبادر إلى اقتصاد المقايضة، ثلاث أواني مربّى مقابل كنزة، لكنَّ الناس في النهاية ستُرغَم على تكديس أغراض كثيرة لا نفع منها في البيت، في حين تتوقَّف العملة عن التداول تقريبًا. السيّد سميث، مرَّةً أخرى، قد يشتري البيت الصغير، ولكنْ

على أقساط طويلة الأمد، كلّما احترقت في يده مئة دولار. سيصبح ثمن البيت عندئذٍ عشرات الأضعاف، إذا حسبنا الفوائد وما شابه، هذا إذا رأى المالك الأوّل ضرورةً لبيعه، طالما أنّه سيبقى بلا مأوى، مُحمَّلًا بأكوام الدولارات التي يجب أن ينفقها جميعًا قبل أن تنخفضَ قيمتها. وها نحن ندخل في جمود سوق العقارات، فمَن لديه بيتٌ احتفظ به لنفسه. وبما أنَّ العملة تُتلَف حتّى عند توفيرها، فمَن سيذهب لوضع نقوده في البنك حينذاك؟

أنتظر أن يخبرني أحد المختصِّين بالاقتصاد إن كان رأيي خاطئًا، فأنا لا أفقه في هذا الأمر بالتأكيد. ولكن، في المحصِّلة، يتملَّكني انطباعٌ بأنَّ هنالك كثيرًا من المبادرات المتَّخذة، بما فيها الحرب على العراق لتهدئة آلاف القنَّاصة الأصوليّين المتربِّصين عند تقاطعات الطرق الأمريكيّة السريعة، تندرج في خانة «العالم أصبح مسألةً معقَّدةً لدرجة ألّا ينبغي تركه محكومًا بأيدي مَن كان يحكمه».

2002

أعطونا مزيدًا من الوفيات

أقرأ في عدد *فينيردي دي ريبوبليكا* الخبر التالي: الحكومة الفرنسيّة، كما هي الحال عندنا، ولكن قبلنا، كانت قد طبَّقَت نظام رخصة السياقة بحسب نظام النقط، ما أدَّى إلى تقليص نسبة الحوادث، وانخفاض الوفيات بمعدَّل 18.5 بالمئة. خبرٌ في منتهى الروعة. إلّا أنَّ رئيس التجمُّع الوطنيّ للعاملين في مجال تصليح السيَّارات، وبعد أن أعرب عن ابتهاجه من انخفاض حالات الوفاة بصفته مواطنًا، كشف بصفته عاملًا في هذا المجال أنَّ مهنة شركائه دخلت في أزمة. إذ إنَّ نقص الحوادث يعني نقص التصليحات. ويبدو أنَّ عمَّال التصليح، إزاء هذه المأساة الاقتصاديّة المستمرّة، لم تتعرَّض مهنتهم للارتباك فحسب، بل لقد التمسوا مساعداتٍ من الدولة، وناشَدَ بعضهم تنفيذ فحوصات أقلّ صرامة أيضًا. باختصار، إن صحَّ الخبر، طالب هؤلاء بتخفيض الغرامات عسى أن تتحطَّمَ المزيد من السيّارات.

لا أجزم بأنَّهم يتمنَّون مزيدًا من الوفيات، ففي العادة مَن يمت بحادثٍ

مروريٍّ لا يأخذْ سيَّارته لدى المصلِّح، بل إنَّ ورَثَتَهُ يرسلونها إلى كسَّارة السيّارات مباشرةً، ولكن بالمحصِّلة لن يؤسفهم صِدامٌ عنيف لا يسفر عن وفيات إنّما عن بعض الجرحى (ومن دون أن تصبح السيَّارة، وقد تحوَّلَت إلى تابوت، غير صالحةٍ إلّا للسحق).

لا ينبغي للخبر أن يذهلنا. فكلُّ ابتكارٍ تكنولوجيّ، وكلُّ شوطٍ نقطعه على طريق التقدُّم، تنجم عنهما عطالة دائمًا، وقد بدأت الحكاية مع النسَّاجين في القرن الثامن عشر الذين هبُّوا لتحطيم الأنوال الميكانيكيّة خشيةً من البقاء بلا عمل. أتخيَّلُ أنَّ قدوم التاكسي خرب أرزاق الحوذيّ. أذكر العجوز بييترو، الذي عندما كنتُ صغيرًا كان يُستَدعى مع عربته لنقل الأسرة والحقائب إلى المحطّة حين ينوون الذهاب إلى الريف. وفي غضون بضعة أعوام حان عصر السيَّارات العموميّة وكان بييترو في سنٍّ لا تسمح له بحيازة الرخصة لإعادة تأهيله كسائق أجرة. ولكن في تلك الفترة كان قدوم الاختراعات ما يزال يتَّخذ وتيرةً بطيئة نوعًا مّا، وكان بييترو سيجد نفسه عاطلًا عن العمل حين بات أقرب إلى التقاعد.

أمّا في أيّامنا هذه فالأشياء تجري بسرعةٍ أكبر. أتصوَّرُ أنَّ إطالة متوسِّط الأعمار أدخلت أصحابَ مؤسَّسات إدارة الجنازات وعمَّالَ المقابر في أزمة، سوى أنَّ الظاهرة كانت بطيئة، أي عندما أدركوا انخفاض أعداد الستّينيّين الذين ينبغي دفنهم، كان عليهم دفن الثمانينيّين الذين لم يتوفَّوا في الستّين. لذا فإنَّ عمل هذه الفئة (بفضل فرضيّة أمّ البراهين: «كلّ البشر فانون») لن يتوقَّفَ أبدًا. ولكن إن وجدنا في الغد، لا أقول مصل الخلود، بل عقارًا يطيل أمد الحياة إلى معدَّل مئة وعشرين عامًا ضربةً واحدة، فسوف نرى فئة أصحاب مؤسَّسات إدارة الجنازات ينزلون إلى الميادين ويلتمسون إعاناتٍ حكوميّة.

المسألة تكمن في أنَّ تسارع المسارات التحديثيّة سيُفقِرُ فئاتٍ مهنيّةً بأكملها أكثر فأكثر. يكفي أن نتذكَّرَ أزمة مُصنِّعي الآلات الكاتبة، في عقد الثمانينات فقط. إمّا أنّهم كانوا شبَّانًا ونبيهين استفاقوا لضرورة أن يصبحوا خبراء في الكمبيوترات، وإمّا أنَّهم وجدوا أنفسهم خارج السباق على غفلةٍ من أمرهم.

لا بدَّ إذًا من التحضير لتدريباتٍ مهنيّة تسمح بإعادة تأهيل سريعة. فالنسَّاج في زمنٍ مضى، عند قدوم الأنوال الميكانيكيّة، لم يكن باستطاعته التحوُّل إلى مُصَنِّعٍ للأنوال الميكانيكيّة بين عشيّةٍ وضحاها. لكنَّ الآلات في هذا العصر أصبحت كونيّة، إن جاز التعبير، وبنيتها الهيكليّة أقلّ أهمّيّةً من البرنامج الذي يُشغِّلها، لذا فإنَّ المتخصِّصَ القادر على العمل على برنامج تشغيل غسَّالة يستطيع بتحديثاتٍ قليلةٍ أن يعيد تأهيل نفسه كعاملٍ على برنامج تنظيم لوحة قيادة السيَّارات.

وعليه فإنَّ التربية المهنيّة، إذ ينبغي لها المساهمة في إعادة تأهيلٍ محتملة ومتسارعة، يجب أن تغدو في معظمها تعليمًا فكريًّا، وتدريبًا على السوفتوير (أو كما يُسمِّيه الفرنسيّون «*logiciel*») أكثر من كونها تدريبًا على الهاردوير، أي الخردة، تلك المكوِّنات الهيكليّة للآلات التبادليّة التي قد تُصنَعُ بناءً على برنامجٍ آخر.

وبالتالي، عوضًا عن التفكير بمدرسةٍ تتشعَّبُ في مرحلةٍ معيَّنة لتهيِّئ تلاميذها للجامعة من جانبٍ وللعمل من جانب، حريٌّ بنا أن نفكِّرَ بمدرسةٍ لا تنتج إلّا خرِّيجين من الفرع العلميّ أو الأدبيّ، لأنَّ الذي سوف يعمل في مجال البيئة في المستقبل، يتعيَّنُ عليه اجتياز تدريبٍ فكريٍّ يكفل له يومًا مّا أن يفكِّرَ بإعادة تأهيله الشخصيّ وأن يبرمجه.

وهذه ليست محض مثاليّة ديمقراطيّة ومساواتيّة، إنّما هو منطق العمل في مجتمعٍ محوسَبٍ، يتطلَّبُ تربيةً متساويةً للجميع، ومبنيّةً على أعلى المستويات لا على أسفلها. وإلّا لن ينجم عن التحديث إلّا العطالة.

2003

يحقُّ لي أن أقولها

في بدايات العام 1981، كنتُ أتحدَّثُ عن حرب الخليج، وفسَّرتُ أنَّ «النيران الصديقة» هي «القنبلة التي يرميك بها عن طريق الخطأ شخصٌ

خرائيٌ يرتدي بزَّتك نفسها». وربّما أصبح القرَّاء اليوم، بعد حادثة كاليباري[1]، أكثر تفهُّمًا لواقع أنَّك قد تموت فعلًا بنيرانٍ صديقة؛ ولكن، قبل خمسة عشر عامًا، هوجِمتُ من قِبَلِ كثيرين ليس على لاأخلاقيّة النيران الصديقة إنّما على لاأخلاقيّة كلمة «خرائيّ». تلقَّيتُ كثيرًا من الرسائل من قرَّاء، وإن لم تخنِّي الذاكرة انتقاداتٍ في جرائد أخرى، حتّى اضطررتُ إلى كتابة *مغلَّفٍ لاحقٍ* أُذكِّرُ فيه كم كاتبًا لامعًا من أدبنا استخدم كلماتٍ مماثلة.

تتغيَّر الأخلاقيّات خلال خمسة عشر عامًا، وها هي دار ريتزولي للنشر تسمح لنفسها اليوم بإصدار كتابٍ يحمل عنوان *خرائيّات* [ترَّهات] للأمريكيّ هاري غوردون فرانكفورت (بسعر ستّة يورو، ويُقرَأُ في غضون ساعةٍ واحدة). فرانكفورت هو أستاذٌ فخريٌّ لمادّة الفلسفة، في برينستون على ما يبدو لي، والكلمة الإيطاليّة (*Stronzate*)/ *خرائيّات، ترَّهات* بمعناها الوظيفيّ تقابل عنوان الكتاب بالإنكليزيّة (*Bullshit*) وهذه الكلمة تعني حرفيًّا «بعرة الثور»، لكنَّها تُستَخدمُ في السياقات ذاتها التي تُستَخدَمُ فيها كلمة «خرائيّات» أو «خرائيّ»، بمعنى «كلام فارغ».

وأعتقد أنَّه بوسعنا استعمال كلمة «خرائيّ» لوصف شيءٍ رديءٍ لا يستحقُّ هدر النقود عليه (مثال: فتَّاحة القناني الإلكترونيّة خرائيّة). لكنَّ استعمال المصطلح الأكثر شيوعًا يُطبَّقُ على شيءٍ يُؤكَّد، أو يُقال، أو يُبلَّغ: «لقد تفوَّهتَ بكلامٍ خرائيّ. ذاك الفيلم خرائيٌّ جدًّا». فرانكفورت يتوقَّفُ عند الهراء السيميائيّ للغاية تمامًا، منطلقًا من تعريفٍ قدَّمَه فيلسوفٌ آخر، ماكس بلاك، عن «الغباوة» (بمعنى البلادة أو الحماقة): «هي إظهارٌ خادعٌ، يقارب الكذبَ أو يكاد، للأفكار أو الأحاسيس أو السلوكيّات، عن طريق الأقوال أو الأفعال المتعجرفة على وجه الخصوص».

عليكم أن تعلموا أنَّ الفلاسفة الأمريكيِّين هم أكثر حساسيَّةً لإشكاليّة حقائقنا الراسخة، حتّى إنَّهم يمضون وقتًا في التساؤل ما إذا كان من الصائب القول إنَّ أوليس عاد إلى إيثاكا، في حين أنَّ أوليس ليس له وجودٌ أصلًا. لذا

1- نيكولا كاليباري، ضابطٌ في المخابرات الإيطاليّة، قُتِلَ برصاص القوّات الأمريكيّة في بغداد عام 2005 عن طريق الخطأ. (المترجم).

يجيب فرانكفورت على كيف أنَّ الترَّهات أقوى من الغباوات، في المقام الأوَّل، ثمَّ على ما الذي يعنيه تقديم إظهارٍ خاطئ لشيءٍ مّا بدون كذب.

فيما يتعلَّق بالمشكلة الأخيرة يكفي اللجوء إلى الأدب الواسع الذي تناوَلَ هذا الأمر، من أوغسطين إلى يومنا هذا: فالذي يكذب يعلم أنَّ ما يقوله غير صحيح، ويقوله بدافع الخداع. والذي يقول أمرًا خاطئًا دون أن يعلم أنَّه خاطئ، فهو لا يكذب، مسكين، إنّما يخطئ، ببساطة، أو قد يكون مجنونًا. أفترض أنَّه إذا قال أحدٌ مّا، وهو متيقِّنٌ من ذلك، إنَّ الشمس تدور حول الأرض، اعتبرنا أنَّه يتلفَّظ بغباوة، أو بالهراء. إلّا أنَّ تعريف بلاك يكشف عن أنَّ الذي يتلفَّظ بالغباوة إنّما يفعلها لتقديم تأويلٍ خاطئٍ ليس للحقيقة الخارجيّة فحسب بل لأفكاره وأحاسيسه وسلوكيّاته الخاصّة أيضًا.

ويحدث هذا لمن يكذب كذلك: فالذي يقول إنَّ في جيبه مئة يورو (وهو غير صحيح) لا يفعلها لمجرَّد الإيهام بأنَّ في جيبه مئة يورو فحسب، بل لإقناعنا أيضًا بأنَّه موقنٌ بأنَّ لديه مئة يورو. لكنَّ فرانكفورت يُوضِّحُ أنَّ الغاية الأساسيّة للغباوة، خلافًا للأكذوبة، ليست في تقديم يقينٍ زائفٍ بحالة الأشياء التي يتكلَّم عنها المرء، إنّما في تقديم انطباعٍ زائفٍ عمّا يجول في ذهن المتكلِّم بالأحرى. وما دامت هذه هي غاية الغباوات، فإنَّها لن تصل إلى مستوى الأكاذيب، ويضرب فرانكفورت مثلًا عن أنَّه إذا استخدم رئيسٌ أمريكيٌّ تعابير إنشائيّة جدًّا عن أنَّ الآباء المؤسِّسين كانوا يُنفِّذون مشيئة الربّ، فهذا ليس لإشاعة يقينٍ هو نفسُهُ يعلم أنَّه زائف، بل لتوليد انطباعٍ بأنَّه شخصٌ ورعٌ ومُحبٌّ للوطن.

إنَّ ما يُميِّزُ الترَّهات عن الغباوات هي أنَّ الأولى إثباتٌ خاطئٌ بالتأكيد، يقولها مَن يبتغي إقناعنا بشيءٍ مّا يخصُّه، دون أن ينشغل إطلاقًا بالتحقُّق من أنَّ ما يقوله صحيحٌ من عدمه. «إنَّ ما يخفيه عنّا صاحب الترَّهات... هو أنَّ قيمة صواب تأكيداته ليست في مركز اهتمامه...». وهذه الإثباتات من شأنها أن تُروِّعَنا، وبالفعل يؤكِّد فرانكفورت أسوأ مخاوفنا: «إنَّ مجالات الإعلان الدعائيّ والعلاقات العامّة، ومجال السياسة المرتبط بها ارتباطًا وثيقًا في عصرنا، حافلةٌ بترَّهاتٍ مطلقةٍ لدرجةٍ غدت فيها تلك المجالات نماذجَ فكريّةً لا نقاش فيها». ليست غاية الترَّهات تكوين صورةٍ مضلِّلة عن

حالة الأشياء، بل إبهار مستمعين ذوي قدراتٍ متدنّية لا تسمح لهم بتبيُّن الصحيح من الخاطئ - أو أنّهم لا يعبؤون بهذه التباينات. أعتقد أنَّ الذي يتفوَّهُ بالترَّهات يُعوِّلُ على ضعف ذاكرة مستمعه، الأمر الذي يتيح له التلفُّظ بترَّهات متسلسلة تتناقض فيما بينها: «قائل الترَّهات يحاول التملّص دومًا، بطريقةٍ أو بأخرى».

2005

الأضداد المتآخية

في السابق، عندما كنتَ تستخدم كلمة «*Ossimoro*»، تضطرُّ إلى شرح معناها. وكنتَ تستعين بها لتوصيف تعابير شهيرة من قبيل «التقاطعات المتوازية»، وكان من الملائم حينها أن تُوضِّحَ أنَّ هذه الأضداد اللفظيّة هي حاصل جمع كلمتين متناقضتين كلّيًّا، مثل «الضعف القويّ»، «الأمل الخائب»، «العنف اللطيف»، «معنى ليس له معنى» (مانغانيلّي)؛ ولا ننسى الأضداد اللاتينيّة: «*formosa deformitas*» *الجميلة القبيحة*، «*concordia discors*» *الوفاق الخلافيّ*، «*festina lente*» *استعجِلْ على مهلك*.

والآن أصبح الجميع يتفوَّهون بالأضداد: غالبًا ما أصادفها في الصحافة، وقد سمعتُها من سياسيّين على التلفاز، فإمّا أنَّ الجميع انكبَّ على قراءة بحوثٍ بلاغيّة وإمّا أنَّ ثمّة شيئًا في الأجواء يبعث على التضادّ. ومن الممكن الاعتراض على ذلك بالقول إنَّ هذا الشأن ليس من أعراض العدم، فلطالما تشكَّلَت صرعاتٌ لغويّةٌ مردُّها الكسل والتقليد، بعضها يدوم مدَّة صباحٍ واحد فيما تُعمَّرُ أخرى طويلًا. ولكن -بالمحصِّلة- كانت الفتيات في عقد الخمسينات يقلن «وحشيٌّ» [بمعنى «عظيم»]، ومؤخَّرًا يقلن «عبثيٌّ» [بمعنى «هائل»]، دون أن يكون القصد راجعًا إلى عالم البهائم في الأولى، أو إلى يونسكو في الثانية. وصار الجميع لفترةٍ معيّنة يستخدمون «لُحيَظة»، مع أنَّ الزمن لم يتعرَّض للتقصير؛ أو صاروا يقولون «صحيح» عوضًا عن «نعم» (حتّى عندما يتزوَّجون في الكنيسة)، ولكن ليس بدافع الدقّة الرياضيّاتيّة إنّما تأثُّرًا ببرامج المسابقات التلفزيونيّة. وما زالت الآفة المقيتة باستخدام لفظة

«قِران» صامدة، والله يعلم لماذا، في عصرٍ لا يُقدَّمُ فيه الزوج أو الزوجة إنّما الصاحب أو الصاحبة.

ورغم هذا تميل ظنوني إلى أنَّ الأضداد اكتسبت شعبيّةً لأنَّنا نعيش في عالَمٍ، قام بعد أفول الأيديولوجيّات (التي حاولت، وبفجاجةٍ أحيانًا، تقليص التناقضات وفرض رؤيةٍ أحاديّةٍ للأشياء)، حيث بتنا لا نتجادل إلّا في حالاتٍ تناقضيّة. وإن أردتَ دليلًا دامغًا، فهاكَ «الواقع الافتراضيّ»، الشبيه بـ«اللاشيء الملموس» نوعًا مّا. وهنالك «القنابل الذكيّة»، التي لا تبدو أنَّها من الأضداد، لكنَّها كذلك إذا أخذنا بالحسبان أنَّ القنبلة غبيّةٌ بطبعها ويجب أن تسقط حيث يرمونها، أمّا إذا تصرَّفَت بمبادرةٍ منها فقد تغدو «نيراناً صديقة»، ما أحلاه من تناقض، إن كنّا نقصد بالنيران شيئًا نُفعِّلُهُ (آفة لغويّة أخرى، مع أنَّها لا تُمثِّلُ تضادًّا) لنلحق الضرر بمن ليس صديقًا لنا. وهناك تعبيرٌ يبدو لي في غاية التضادّ، وهو «تصدير الحرّيّة»، فالحرّيّة من حيث التعريف تعني أن يحصل عليها الشعب أو الجماعة بقرارٍ مستقلٍّ لا بإرغامٍ من الآخرين. وبعد التفكير مليًّا وجدتُ تضادًّا ضمنيًّا في «صراع المصالح»، لأنَّه قد يُترجَم على أنَّه «مصلحةٌ خاصّةٌ من أجل المصلحة العامّة»- أو «مصلحةٌ مشتركةٌ من أجل الفائدة الفرديّة الضيِّقة».

وددتُ إلقاء الضوء على مدى التضادّ في عبارات مثل «التعبئة العالميّة لمناهضة العولمة»، «السلام المسلَّح»، «التدخُّل الإنسانيّ» (إن كان المقصود بالتدخُّل، وهو كذلك، سلسلةً من الأحداث الحربيّة في ديار الآخرين). وبسماع البرامج الانتخابيّة لحلفاء برلسكوني الجدد، أرى نفسي محاطًا أكثر فأكثر من «يسارٍ فاشيّ»، وأعتقد أنَّه من التضادّ بما فيه الكفاية «الملحدون اللاهوتيّون» مثل بيرا أو فيرّارا. ولن أغفل عن «الذكاء الاصطناعيّ»، رغم أنَّنا اعتدنا سماعها، وحتّى «الدماغ الإلكترونيّ» (إن كان الدماغ هو ذلك الشيء اللّيِّن الموجود داخل الجمجمة)، دع عنك «الأجنَّة التي لها روح» و«طريق بديل المعبر الجبليّ» - بما أنَّ المعبر الجبليّ عادةً هو النقطة الوحيدة التي تُتَّخَذ للعبور بين جبلين. ولكي أكون محلَّ إجماع اليمين واليسار (ألا ترون تناقضًا في مبدأ «أثبِتْ حضورك بشجاعة، وذلك باللعب على الحبلين»!)، أجد تضادًّا في رؤيةٍ اقترحها حزب الزيتون: «التطوُّع في الخدمة المدنيّة الإلزاميّة».

صفوة القول، لأنّنا لم نعد قادرين على الجمع بين خياراتٍ لا يمكن لها أن تجتمع معًا، صرنا نستعين بأضدادٍ متآخية (وهذا تضادٌّ بحدّ ذاته) لنعطي انطباعًا بأنَّ ما لا يمكنه التعايش يتعايش: مهمَّة السلام في العراق، قوانين ضدَّ القضاة (الذين ينبغي لهم أن يُطبِّقوا القوانين)، السياسة في التلفزيون، والمهازل في البرلمان، حظر الهجاء غير المرخَّص، التنبُّؤات بالعدّ التنازليّ مثل سرّ فاطيما الثالث، الكاميكاز العرب الشنتويّون ببشرةٍ سمراء، نشطاء الـ68 الذين باتوا يعملون عند برلسكوني، الشعبويّة الليبراليّة. وختامًا، الخِلّانُ المطلَّقون يعادون المرتبطين مدنيًّا.

2006

التعطُّش البشريّ للتقديمات

إنَّ ما سأتحدَّث عنه هنا لا يقع لي حصرًا بطبيعة الحال، إنّما لجميع الذين يتمتَّعون بشهرةٍ في مجالٍ تخصُّصيّ، على إثر إصدارهم لعددٍ من الكتب والمقالات. لكنَّ هذا لا ينحصر في شاعرٍ كبير، أو حاصلٍ على جائزة نوبل، أو باحثٍ مكرَّس. أظنُّ (لا بل أجزم) أنَّ حوادث مشابهة قد تقع حتّى لمدير مدرسةٍ ثانويّةٍ في الضاحية، لم ينشر أيَّ كتاب، ورغم ذلك اكتسب شهرةً وإن في نطاق مجتمعه المحلّيّ، بوصفه شخصًا كفؤًا ومحترمًا وموثوقًا. ليس هذا فحسب، بل يقع الأمر كذلك لمن لا يُعتَبر كفؤًا ولا موثوقًا، ولا حتّى محترمًا ربّما، لكنَّه غدا معروفًا ومشهورًا، فلنقل لأنَّه ظهر عاريًا إلّا من سرواله في أحد برامج التوك شو التلفزيونيّة.

إذًا يقع لكلّ هؤلاء أن يتلقَّوا طلبًا لكتابة تقديمٍ لكتابٍ ألَّفه أحدٌ مّا. وكلُّ امرئٍ يردُّ بالطريقة التي تناسبه على مثل هذا النوع من الطلبات؛ بعضُهم يرى في الطلب تقديرًا لطالما رجاه، وآخرون، وأنا منهم بلا شكّ، يتلقَّون طلباتٍ كهذه بالعشرات في كلّ شهر - في شتّى المواضيع ومن جانب أيِّ شخص، من الزميل البارع إلى الشويعر الذي ينشر دواوينه على نفقته الخاصّة، ومن الروائيّ المجدِّد إلى مخترع آلةٍ جديدة للحركة الدائمة.

أجيب بالعادة أنّني (ناهيك باستحالة قراءة تلك المخطوطات جميعها،

وخطورة أن أظهَرَ كاتبَ تقديمات يعمل على العدَّاد)، رفضتُ تقديم كتبٍ أَلَّفَها أصدقاءُ أعزّاء، لذا فإنَّ الموافقة على تقديم غيرهم قد يُشعِرُهم بالإهانة. وعادةً تنتهي الأمور على ذلك النحو. ولكن، عندما يكون الملتمس صديقًا، أُهْدِرُ الوقت في كتابة رسالةٍ مفصَّلَة، أحاول أن أشرح فيها كلَّ ما علَّمتني إيّاه عقودٌ طويلةٌ أمضيتُها في دنيا الكتب. لذا أشرح أنَّ الغاية من رفضي هي إنقاذه أو إنقاذها من كارثةٍ نشريّة.

ثمّة حالتان حصرًا لا بأس بالتقديم فيهما. الأولى هي عندما يكون الكاتب المراد تقديمه متوفّى: ففي حالةٍ كهذه بوسع الشابّ ذي العشرين عامًا أن يكتب مقدِّمةً لطبعةٍ جديدةٍ من الإلياذة، لن يتضرَّرَ منها هوميروس. والثانية هي عندما يكتب مؤلِّفٌ جليلٌ وذائع الصيت تقديمًا لكاتبٍ مبتدئٍ في مقتبل العمر. لا شكَّ أنَّه تصرُّفٌ أبويّ، لكنَّ المبتدئ لن يتضايق بل سيفتخر، لأنَّه يجلُّ ويُقدِّرُ المؤلِّفَ بعيدَ المنال، وسيسعده أنَّه ضامنٌ لباكورة أعماله.

الحالة الأولى تنطوي على تقديمٍ من حيٍّ لمتوفّى، وفي الثانية تقديمٌ من شيخٍ كبيرٍ لفتى. أمّا ما تبقّى من حالات، ما بين الأحياء وما بين الراشدين، ففيها ضربةٌ قاتلة للمراد تقديمه.

وعادةً حينما يطلب المؤلِّف والناشر تقديمًا من السيّد تقديماتيلّي لكتاب السيّد كاتبوتشي، يتكهَّنان بأنَّ شعبيّة تقديماتيلّي تساعد في بيع مزيدٍ من النسخ. ومن الوارد أن يحدث هذا، حتّى لو لم تكن النسب ثابتة، إلّا أنَّ التأثير الناتج على القرّاء المحنَّكين هو التالي: «إن كان كاتبوتشي هذا، الذي كنت أجهله كلّيًّا، يحتاج إلى دعمٍ من تقديماتيلّي، فهذا دليلٌ على أنَّه من الطبيعيّ أنّي كنتُ أجهله كلّيًّا، وواضحٌ أنَّه كاتبٌ محدود القدرات، ومن الجائز أنَّ تقديماتيلّي رضخ لطلبه بدافع الصداقة، الشفقة، التضامن السياسيّ، أو ربّما مقابل مبلغٍ من المال أو خدماتٍ جنسيّة».

إن دخلتُ إلى مكتبة ووجدتُ كتاب كاتبوتشي، فلنفترض عن تأليف المذكَّرات في عصر ما بعد الفيلهلميّة، ستكون ردَّة فعلي الأولى هي: «يا لي من جاهل، لم أكن أعرف شيئًا عن كاتبوتشي هذا، ولا بدَّ أنَّه متخصِّصٌ لا يُشقُّ له غبار في أحوال عصر ما بعد الفيلهلميّة!». لاحِظوا أنَّ الظاهرة طبيعيّةٌ

جدًّا: لو ذكر أحدهم، في محاضرةٍ أو حاشية كتابٍ، عمل كاتبوتشي ذاك، الذي كنتُ أجهله، فإنَّ ردَّة فعلي الأولى (إن كنتُ شخصًا حكيمًا) ستكون بإحساسي بالنقص من الناحية الثقافيّة، وبالتعهُّد ثانيةً بالاطلاع على أعمال كاتبوتشي عاجلًا أم آجلًا. أمّا إذا وجدتُ لدى بائع الكتب عمل كاتبوتشي ورأيتُ أنَّه بتقديم تقديماتيلّي، سأسارع إلى طمأنة نفسي: كان من الطبيعيّ أنّي لا أعرف كاتبوتشي، طالما أنَّه يحتاج إلى ضمانة من الآخرين ليأخذه القرَّاء بعين الاعتبار.

يبدو لي منطقي هذا بديهيًّا، راسخًا، مقنعًا، وعندما أبديه لمَن يطلب منّي تقديمًا أضيف أنَّني شخصيًّا لا أودُّ أن يُقدِّمني أحد (ربّما بسبب فرطٍ مؤسفٍ في الكِبَر، لن أناقش) - لا بل إنَّني أعارض حالة الأستاذ الجامعيّ الذي يكتب تقديمًا لأحد تلامذته، لأنَّه يُجسِّدُ الطريقة الأكثر إضرارًا (للأسباب المذكورة آنفًا) في التشديد على حداثة سنّ الكاتب وعدم نضجه.

حسنًا، في العادة لا يقتنعون بكلامي، ويظنُّون أنَّ تصرُّفي هذا راجعٌ إلى ضغينة. وهكذا، وكلَّما كبرتُ في العمر، صار كثيرٌ من الأشخاص الذين حاولتُ إفادتهم برفضي أعداءً لي.

إلّا إذا تحقَّقت الحالة الفريدة (وأقسِمُ أنَّها تحقَّقت فعلًا) حالة الفلان الذي نشر كتابه على نفقته الخاصّة لاحقًا، ووضع فيه بمنزلة التقديم رسالة رفضي القصيرة جدًّا. هذا هو التعطُّش البشريّ للتقديمات.

2006

اللارفيق الذي يخطئ

في أحد مواقع الإنترنت، المسمَّى *التاريخ المحجوب*، ثمَّة تصريحٌ مزعومٌ ومنسوبٌ إليَّ على صحيفة *إل باييس* الإسبانيّة، وواقعٌ بين ظفرين، يُقوِّلونني فيه التالي: «كان لدى الألوية الحمراء فكرةٌ صائبةٌ في مقارعة دولة الجنسيّات المتعدِّدة، لكنَّهم أخطأوا في اعتناق الإرهاب». لذا يُستنتَج من

هذا أنّني أؤيِّدُ عبارة «رفاقٌ ويخطئون»[1]، وأنّني أوافق على مبدأ أنَّ «الأفكار كانت مقبولة، إنّما الخلل في الممارسات». ويُختَتَمُ التصريح بالقول: «إن كان هذا هو الإسهام الفكريّ للثقافة الإيطاليّة، بعد ثلاثين عامًا على اغتيال ألدو مورو، فإنَّها تمثيليّة سبَقَ أن شوهِدَت. مع الأسف».

يحتفظ الموقع أيضًا بتعليقات الزائرين، وأرى مداخلةً معقولةً من قِبَلِ متصفِّحٍ مجهول الهويّة يردُّ كالتالي: «أشكُّ في أن يتلفَّظَ البروفسور إيكو بمثل هذا الكلام الفارغ. ففي روايته *بندول فوكو* يوجد (من بين آلاف الأشياء الأخرى) تقييمه الشخصيّ لسنوات الرصاص تلك، وهو بالتأكيد لا يمتدح الإرهاب. لديَّ فضولٌ في سماع كلماته نفسها، لا نسخةً عنها تأتينا من الجرائد». إلّا أنَّ مدير الموقع لم يقرأ روايتي *بندول فوكو* ولا مقالاتي التي كنتُ أكتبها على صفحات *لا ريبوبليكا* أيّامَ قضيّة مورو، والتي أعدتُ نشرها فيما بعد في كتابي *سبعة أعوام من الرغبة* (وهذا حقُّه، الذي سأدافع عنه حتّى الموت)، بل أشكُّ حتّى في أنّه قرأ مقابلتي في جريدة *إل باييس*، وعلى الأرجح أنَّه اعتمد على بعض التعقيبات الصحفيّة الإيطاليّة الموجزة التي كانت تُلخِّصُ بعض العبارات. الاستنتاج القائم على افتراضاتٍ ناقصةٍ ومغلوطة هو خطأ في المنطق، ولا يمكن اعتباره من الحقوق بأيِّ حال.

ورغم هذا سأجيب احترامًا لذاك الشخص المتعقِّل المجهول الهويّة الذي اعتاد القراءة، وحرصًا على الذين يزورون ذلك الموقع الخبيث لئلا ينساقوا (عن حسن نيّة) إلى درب الخطأ.

إنَّ الأشياء التي ذكرتُها في تلك المقابلة الإسبانيّة هي نفسها التي كنتُ قد كتبتُها منذ ثلاثين عامًا مضت. كنتُ أقول إنَّ الجرائد تصف بيانات الألوية الحمراء بـ«المهلوسة» عندما تُسلِّمُ بوجود «الدولة الإمبرياليّة ذات الجنسيّات المتعدِّدة»، غير أنَّ هذه الفكرة (رغم صياغتها الشبيهة بالتعابير الفلكلوريّة) هي الوحيدة التي لا تشوبها الهلوسة في ذلك الشأن برمَّته، سوى أنَّها لم تكن فكرتهم، إنّما استلهموها من كثيرٍ من المنشورات

1- عبارة شائعة في أوساط اليسار والشيوعيّين الإيطاليّين، عن رفاقهم الذين اعتنقوا الكفاح المسلَّح. (المترجم).

الأوروبيّة والأمريكيّة، وعلى رأسها *المونثلي ريفيو*. وكان الحديث عن دولة الجنسيّات المتعدِّدة في تلك الحقبة يعني الاعتقاد بأنَّ الجزء الأكبر من السياسة العالميّة لم يعد مُقرَّرًا من حكوماتٍ منفردة إنّما من شبكةٍ من القوى الاقتصاديّة العابرة للحدود القوميّة والتي بيدها قرار إشعال الحروب وإحلال السلام. وكان المثال النموذجيّ في ذلك الزمن يتمحور حول الأخوات النفطيّة السبع، إلّا أنّنا في أيّامنا هذه نجد حتّى الأولاد يتحدَّثون عن العولمة، والعولمة تعني تمامًا أنّنا نأكل خسَّةً مزروعةً في بوركينا فاسو، ومغسولةً ومغلَّفةً في هونغ كونغ، ومُصدَّرَةً إلى رومانيا لتُوَزَّعَ فيما بعد في إيطاليا أو فرنسا. هذه هي حكومة الجنسيّات المتعدِّدة، وإن بدا لكم المثال تافهًا، فتأمَّلوا كيف باستطاعة كبريات شركات النقل الجويّ العابرة للحدود القوميّة أن تتحكَّمَ في قرارات حكومتنا بما يخصُّ مصير الشركة الإيطاليّة للطيران.

أمّا ما كان هلوسةً بالفعل في فكر الألوية الحمراء، وما شابهها من جماعاتٍ إرهابيّة، فيتمثَّلُ في الخلاصات الناجمة عن هذا الفكر: فلإلحاق الهزيمة بدولة الجنسيّات المتعدِّدة يجب أن تندلع ثورةٌ في إيطاليا؛ ولإيقاع هذه الدولة في أزمة يجب أن يغتالوا مورو وغيره من أشخاصٍ صالحين؛ ثمَّ لا بدَّ من فعلاتهم هذه أن تُحرِّضَ البروليتاريا للقيام بالثورة.

كانت تلك أفكارًا مهلوسة لاسيّما أنَّ الثورة في بلدٍ واحدٍ على قوىً متعدِّدة الجنسيّات لم تكن لتؤثِّرَ في شيء، وكان الضغط الدوليّ عمومًا سيعيد استتباب الوضع بأسرع وقت، هذا أوّلًا؛ وثانيًا لأنَّ وزن رجل السياسة الإيطاليّ، في لعبة المصالح هذه، كان ضئيلًا للغاية؛ وثالثًا كان لزامًا عليهم أن يعرفوا أنّه مهما اغتال الإرهابيّون من شخصيّات فإنَّ الطبقة العاملة لم تكن لتؤجِّجَ الثورة. ولمعرفة ذلك لم يكن من الضروريّ استشراف مجريات الأحداث، إنّما كان يكفيهم أن ينظروا إلى ما وقع في أمريكا اللاتينيّة مع التوباماروس الأورغوايين والحركات المماثلة (التي في الحدّ الأقصى أقنعت الضبّاط الأرجنتينيّين لا بالقيام بثورة بل بانقلابٍ عسكريّ)، في حين كانت الجماهير البروليتاريّة لا تُحرِّك إصبعًا.

والآن، إنَّ مَن يستنتج ثلاث خلاصات من افتراضٍ مقبولٍ نوعًا مّا فهذا

ليس بالرفيق الذي يخطئ. لو أنَّ رفيقي في المدرسة أكَّدَ أنَّ الشمس تدور حول الأرض بما أنَّها تشرق وتغرب، لم أكن لأصفه بالرفيق الذي يخطئ، إنّما بالأبله. فإذا وجدنا اليوم إرهابيًّا أحمر منشغلًا في تنفيذ هجماتٍ على المساجد باسم عصبة الشمال، فهذا يُثبِت تمامًا بأنَّهم لم يكونوا متعقّلين بما فيه الكفاية.

لذا فإنَّ الرفيق الوحيد (رفيقًا لمن؟) الذي يخطئ هو السيّد الذي يدير ذلك الموقع.

2008

راقص روسيّ

بات الجميع على درايةٍ بالموضوع الإنشائيّ حول قصيدة مونتالي، ولكنْ بما أنَّ هذا *المغلّف* سيصدر بعد ثمانية أيّام على الأحداث المصيريّة، فلا بأس بتلخيصٍ موجز. سُئِلَ التلاميذُ في امتحان البكالوريا أن يكتبوا موضوعًا إنشائيًّا حول قصيدةٍ لمونتالي تتحدَّث عن ابتسامةٍ غامضة. ولا قيمة للتحليل المنطقيّ الآتي ما لم نلقِ نظرةً على القصيدة، وها أنا أدوِّنها هنا:

«تُعاوِدُني ابتسامتُك، وهيَ لي مثلُ ماءٍ صفيٍّ / أبصرتُهُ بالصُّدْفة بين حصى الضِّفَّة؛ / شظاةُ مرآةٍ تُريك ازهِرارَ اللبلابِ/ تحتَ عِناقِ سَماءٍ بيضاءَ وسَاكِنة. / تلك هيَ ذكرايَ أيُّها البَعيدُ، ولستُ أدري / أهِيَ روحٌ طليقةٌ وشفيفةٌ تَتبدَّى في مُحيَّاك / أم أنت حقًّا من الهائمين، يُضنيهم داءُ الوجود / يَحملون عذابَهُم مَعهم كالتَّميمة. / لكنَّي سأقول لك: مَرآكَ في الخاطِرِ / يُغرِقُ لظى الأشجانِ بموجِ الطمأنينة، / وصورتُك تَنبَلجُ في ذاكرتي الرَّماديَّة / نَضِرَةً كهَامةِ نَخلةٍ شابَّة».

ورأيي الصريح هو أنَّ هذه هي أشدّ القوافي المونتاليّة «وعورةً»، ويبدو لي من المبالغة أساسًا أن نطالب فتىً في امتحان البكالوريا، ربّما لم يُدرِّسوه شعر مونتالي من قبل، بشرح هذه الأبيات. ولكن يعلم الجميع أنَّ الهيئة الوزاريّة ارتكبت ما هو أسوأ، فقد قدَّمَت «لمحة» (مثلما كانوا يفعلون في المدرسة على أيّامي) من شأنها أن تفرض على التلميذ ما سيقوله: أنَّ

القصيدة تُعظِّم دور المرأة الإنقاذيّ، وأنَّ ذكرى المرأة تتكثَّفُ في ابتسامتها إلخ؛ وختامُها حثٌّ على إبداء ملاحظاتٍ فريدة - وأيُّ ملاحظاتٍ أكثر فرادةً ممّا باحت به الهيئة! إذ إنَّ الجانب الممتع في المسألة، كما بات الجميع على دراية، هو أنَّ هذه القصيدة تحديدًا مهداةٌ إلى شخص (إلى ك.)، وأنَّ هذا الشخص رجلٌ لا امرأة. وليت هذا فقط: الرجل راقصٌ روسيّ، ورغم تأكيد الجميع بأنَّ مونتالي كان مغايرًا جنسيًّا، فمن المعلوم أنَّ فكرة الراقص الروسيّ لطالما أثارت قهقهةً فجّة، وكانت الأفلام الهزليّة في الخمسينات لا تخلو من راقصٍ روسيّ.

عندما قرأتُ أخبار الصحف، دون أن أتذكَّرَ القصيدة جيّدًا (حفظتُ عدّة أناشيد من ديوان *عظام الحبَّار*، ليس هذه من بينها، وهذا دليلٌ على كونها أقلَّ غنائيّةً من الأخريات)، كانت ردَّة فعلي الأولى أنَّه آن الأوان للكفّ عن النميمة حول سيرة الكاتب. فالكاتب متوفّى، في هذه الحالة أيضًا، في حين أنَّ النصّ باقٍ. وإذا كان النصّ يتحدَّث عن ابتسامة، دون أن يُحدِّدَ صاحبها، فيحقُّ للقارئ نسبها إلى مَن يشاء، مثلما أنَّ قارئ السوناتا الشكسبيريّة التي تأتي على ذكر الـ Dark Lady ليس مجبرًا على الظنّ بأنَّ هذه السيّدة رجل. غير أنّني بينما كنتُ أتفكَّرُ في نفسي عن حقوق النصّ، ذهبتُ لأبحث عن القصيدة كاملةً ورأيتُ أنَّ النصَّ من تلقاء ذاته يشير إلى أنَّه موجَّهٌ إلى رجل، إذ يقول صراحةً: «أيُّها البعيد» وهذا منادى مذكَّرٌ بالتأكيد، ولا يمكن بأيّ حالٍ من الأحوال أن يُؤوَّلَ على نقيض ذلك. ما يعني أنَّ خبراء الهيئة الوزاريّة لم يقرأوا النصّ، في حين كان النصّ سيرشدهم إلى المقصود دون حتّى الحاجة للاطلاع -كما ينصح ماريو باودينو في صحيفة *لاستامبا*- على الطبعة النقديّة التي أشرف عليها كونتيني وبيتّاريني، حيث تقع القصيدة في الصفحة 30 فيما لا تظهر المعلومة حول ك إلّا في الصفحة 872.

من جهةٍ أخرى، أرى في الاتّهامات برهاب المثليّة التي طاولت أعضاء الهيئة مغالاةً أيضًا. فلو كانت نيَّتهم ألّا يُفكِّر التلاميذ بأنَّ هذه القصيدة موجَّهَةٌ إلى رجل، كان أولَى بهم اختيار أخرى. كلّا، نحن بصدد قراءةٍ غير كافية للنصّ المقترَح.

ولكن إذا أردنا أن نكون صارمين مع الهيئة، فعلينا ألّا نتسامح مع

منتقديهم. هاكم جريدة وطنيّة مهمّة، تطرح مقالًا أفردت له صفحتين كاملتين، وتقول فيه إنَّ القصيدة عائدة للعام 1975، علمًا بأنَّ ديوان *عظام الحبَّار* صدر في العشرينات (وهذا ما يُحدِّده المقال في موقعٍ آخر من الصفحة نفسها بالمناسبة)، ثمَّ تقول إنَّ مَن اكتشف هويّة ك هو سيلفيو رامات بعد أن تخرَّجَ «بإشراف» مونتالي، وهذا غير صحيح البتّة لأنَّ مونتالي لم يكن أستاذًا جامعيًّا قطّ (وأعتقد أنَّ رامات تخرَّجَ بأطروحة «عن» مونتالي). وددتُ أن أُبيِّنَ أنَّ الاستهتار آفةٌ متفشّية على نطاقٍ واسع؛ في حين أكَّدَ موقعٌ إخباريٌّ آخر –لعلَّهُ مأخوذٌ بعجلة اللحظة– أنَّ ك هذا كان رفيق الشاعر في المدرسة. ما العمل؟ فليُطلِقْ كلٌّ منّا ابتسامةً غامضة.

2008

تقديم الاعتذار

تحدَّثتُ في *مغلَّفٍ* سابق عن آفة «تقديم الاعتذار» التي باتت منتشرةً جدًّا، بذريعة مطالبة بوش النادم بتقديم اعتذاراته على غزو العراق. ليس كافيًا أن تقترف ما كان لا ينبغي اقترافه ثمَّ تقتصر على الاعتذار. عليك أن تتعهَّدَ بعدم اقترافه مجدَّدًا، هذا في المقام الأوَّل. لن يغزو بوش العراق مرَّةً ثانية، لأنَّ الأمريكيّين أزاحوه عن منصبه بطريقةٍ سلسة، ولكن ربّما لو كان الأمر بيده لأَقدَمَ على فعلها من جديد. فكُثُرٌ ممَّن يرمون الحجارة ويُخبِّئون أيديهم، لا يُقدِّمون الاعتذار إلّا لمواصلة ما كانوا يفعلونه. ذلك أنَّ تقديم الاعتذار لا يُكلِّفُ شيئًا.

وهذا يشبه قصّة التائبين. ففي الماضي كان النادم على فعائله يسلك درب الصلاح بطريقةٍ أو بأخرى، ثمَّ يُكرِّسُ حياته للتكفير عن خطاياه، يلوذ إلى طيبة ليلطم صدره بالحصى المسنَّنة، ويتّجه لمعالجة المجذومين في إفريقيا السوداء. أمّا في أيّامنا فيكتفي التائب بشجب رفاقه السابقين، ثمَّ إمّا يحظى بعنايةٍ فائقة ويتَّخذ هويّةً جديدة في شقّةٍ مريحةٍ ومخفيّة، وإمّا يخرج من السجن باكرًا ويؤلِّف كتبًا ويجري مقابلات ويلتقي رؤساء دول ويتلقّى رسائل غرام من فتياتٍ رومانسيّات.

أحيطكم علمًا بأنّكم على هذا الرابط (*https://www.sms-pronti.com/sms_scuse_3.htm*) تجدون موقعًا مخصَّصًا في «عبارات جاهزة لتقديم الاعتذار». وأكثر هذه العبارات فاعليّةً هي: «أعتذر أ-ع-ت-ذ-ر: أكشف ع-ن تـسبيب ذنبٍ رهيب». وفي هذا الموقع (*https://news2000.libero.it/noi2000/nc63.html*) بابٌ بعنوان «فنون تقديم الاعتذار» (مخصَّصٌ للمعذرة عن الخيانات الغراميّة حصرًا)، وفيه تقرؤون: «القاعدة الأهمّ، والصالحة لكلّ زمانٍ ومكان، هي ألّا تشعر بأنّك منهزمٌ عندما تتقدَّم بالاعتذار. فطلب الغفران ليس مرادفًا للهوان، بل للسيطرة والقوّة، ما يعني عودتك السريعة إلى جانب العقل، لتُفحِمَ شريكك الذي سيجد نفسه مرغمًا على الإصغاء إليك. فالاعتراف بالأخطاء ينطوي أيضًا على تبرئة ذمّة: يساعدك على التعبير عن عواطفك دون كبتها، لكي تعيشها بصورةٍ مكثَّفة». كأنّه يقول: تقديم الاعتذار يعينك على استعادة قواك من أجل أن تعاود الكَرَّة.

تكمن المشكلة في أنَّ مَن ارتكب ضررًا يعتذر شخصيًّا إذا كان ما يزال على قيد الحياة. ولكن ماذا لو كان ميّتًا؟ عندما تقدَّمَ البابا يوحنا بولس الثاني بالاعتذار عن محاكمة غاليليو أضاء لنا الطريق. فحتّى لو كان الخطأ قد ارتكبه واحدٌ من سَلَفِهِ (الكاردينال بيلّارمينو)، فإنَّ الاعتذارَ يُقدِّمُهُ خَلَفُهُ الشرعيّ. لكنَّ الخَلَفَ الشرعيَّ ليست هويَّته واضحةً على الدوام. أضرب مثلًا: مَن عليه أن يعتذر عن مذبحة الأبرياء؟ المذنب هو هيرودس، الذي كان حاكمًا للقدس: فالحكومة الإسرائيليّة هي خَلَفُهُ الشرعيُّ الوحيدُ إذًا. ولكن، على النقيض من ذلك، واستنادًا إلى ما خَلُصَ إليه بولس، فإنَّ المسؤوليّة الحقيقيّة والمباشرة بموت يسوع لا تقع على اليهود الشائنين إنّما على حكومة روما، إذ إنَّ الجنود الرومان هم الذين كانوا عند الصليب، لا الفريسيين. ومع اندثار الإمبراطوريّة الرومانيّة المقدَّسة، لم يبقَ لها من خَلَفٍ سوى الدولة الإيطاليّة، وهذا يقتضي أن يتقدَّمَ رئيس الجمهوريّة جورجو نابوليتانو بالاعتذار عن صلب المسيح.

مَن سيعتذر عن حرب فيتنام؟ لا ندري إن كان هو رئيس الولايات المتَّحدة القادم أم واحدًا من آل كينيدي، على الأرجح هي السيّدة كيري الدمثة. أمّا عن الثورة الروسيّة وإعدام آل رومانوف فلا حيرة في هذا ولا شكوك، لأنَّ

الوريث الشرعيّ الحقيقيّ والوفيّ للينينيّة والستالينيّة هو بوتين. وماذا عن مذبحة سان بارتيليمي؟ الجمهوريّة الفرنسيّة باعتبارها وريثةً للحكم الملكيّ، ولكن بما أنَّ العقل المدبِّرَ للمذبحة بأسرها كان امرأة، كاترينا دي ميديتشي، فإنَّ واجب الاعتذار اليوم قد يقع على عاتق كارلا بروني.

وهنالك حالاتٌ مُحيِّرة. مَن يجب أن يعتذر عن الفظائع التي ارتكبها بطليموس، بوصفه الملهم الحقيقيّ لإدانة غاليليو؟ إن كان قد وُلِدَ في برقة، وفقًا لما يقال، فلعلَّ القذافي هو المُلزَمُ بالاعتذار؛ أمّا إذا صحَّت أقوالٌ أخرى عن كونه من مواليد الإسكندريّة، فتُلزَمُ الحكومة المصريّة بذلك. مَن يعتذر عن معسكرات الإبادة؟ الوَرَثَةُ الحقيقيّون للنازيّة هم الحركات النازيّة الحاليّة، ولا تبدو على هؤلاء أيُّ نيّةٍ للاعتذار، لا بل لو أُتيحَ لهم لأقاموها مرّةً أخرى.

ومَن سيعتذر عن اغتيال ماتيوتّي والإخوة روسّيلّي؟ الإشكاليّة هي: مَن هم الوَرَثَة «الحقيقيّون» للفاشيّة؟ أقرُّ بأنَّ هذه المسألة تُحيِّرني.

2008

لمن تدور الشمس

قدَّمَ إدواردو بونيتشيلّي سلسلةً من المحاضرات الأكاديميّة بجامعة بولونيا حول نظريّة التطوُّر (أصولها وتوسُّعاتها)، وما أذهلني حقيقةً ليس الإثباتات -التي ما عاد فيها جدال- على صحّة النظريّة (وإن كانت تندرج تحت توسُّعات الداروينيّين المُحدِّثين) بقدر شيوع كثيرٍ من الأفكار الساذجة والمتناقضة بخصوصها، لا من جانب مناهضيها فحسب، بل من جانب مؤيِّديها أيضًا. فعلى سبيل المثال، فكرة أنَّ الداروينيّة تقتضي أنَّ الإنسان يتحدَّرُ من القرد. (إلّا إذا أُخِذَتْ حوادث العنصريّة في زماننا بعين الاعتبار، ومال بعضهم إلى التعليق على غرار ألكسندر دوما لأحد الأجلاف الذي سخر من هجانته، فكان ردُّهُ: «والدي خلاسيّ، وجدّي زنجيّ، ووالد جدّي قرد؛ كما ترى يا سيّد، عائلتي تبدأ حيث تنتهي عائلتك»).

والحال أنَّ العِلم يواجه الرأي العامّ على الدوام، وأنّ هذا الرأي هو أقلُّ تطوُّرًا ممّا نظنُّ كثيرًا. فجميعنا، نحن المتعلِّمين، نعلم أنَّ الأرض تدور حول

الشمس لا العكس، ورغم هذا نستند في حياتنا اليوميّة إلى عبارات التصوُّر الساذج، فنقول بكلّ اطمئنان إنَّ الشمس تشرق، الشمس تغرب، الشمس في كبد السماء. ولكنْ كم عدد «المتعلِّمين»؟ في العام 1982 أجرت مجلّة *العلم والحياة* استطلاعًا في فرنسا، كشف عن وجود فرنسيٍّ من بين ثلاثة يؤمن بأنَّ الشمس هي التي تدور حول الأرض.

حصلتُ على المعلومة من *كرّاسات المعهد* (4، 2009)، وهو معهدٌ دوليٌّ للبحث والاستقصاء عن الأدباء المجانين، أي كلّ الكُتَّاب الذين كانوا يؤيِّدون تقريبًا أطروحاتٍ غير واردة. فرنسا في الصدارة بما يخصُّ هذا الموضوع، وكنتُ في *مغلَّفين* قديمين (من العام 1990 والعام 2001) قد تطرَّقتُ إلى هذا النوع الببليوغرافيّ، حتّى بعد رحيل أكبر خبراء هذا المجال، أندريه بلافيير. ولكن في هذا العدد من *الكرّاسات* يتوقّف أوليفييه جوستافريه عند الذين ينكرون الحركة الأرضيّة وكرويّة كوكبنا.

ليس من المستغرب أنَّ فرضيّة كوبرنيكوس كانت ما تزال تلقى استنكارًا في أواخر القرن الثامن عشر، من قِبَلِ علماء بارزين أيضًا، إلّا أنَّ الدراسات الغزيرة الصادرة بين القرنين التاسع عشر والعشرين تثير الدهشة إلى حدٍّ بعيد. ينحصر بحث غوستافريه على أعمالٍ فرنسيّة، لكنَّها تكفي وتزيد، بدءًا من الأب ماتالاين الذي بيَّنَ في العام 1842 أنَّ قُطر الشمس لا يتجاوز اثنين وثلاثين سنتمترًا (وقد لاقت هذه الفكرة تأييدًا من أبيقور، ولكن قبل اثنين وعشرين قرنًا) وصولًا إلى فكتور ماركوتشي الذي رأى أنَّ الأرض مسطَّحة وأنَّ جزيرة كورسيكا تقع في مركزها.

دع عنك القرن التاسع عشر. في العام 1907 نشر ليون ماكس *دراسة في عقلنة العلم التجريبيّ* (الصادرة عن مكتبةٍ علميّةٍ جادّة)، وفي العام 1936 صدر كتاب *الأرض لا تدور* للمدعو رايوفيتش، الذي أضاف أنَّ الشمس أصغر من الأرض على الرغم من أنَّها أكبر من القمر (علمًا بأنَّ الأب بويريه عام 1815 أثبَتَ العكس). وفي العام 1935 صدر عمل غوستاف بليزان (الذي يُعرِّفُ نفسه بـ «التلميذ السابق لمدرسة العلوم التطبيقيّة») بعنوانٍ دراماتيكيّ: *هل الأرض تدور؟* وأيضًا: في العام 1965 صدر كتاب موريس أوليفييه (هو الآخَر تلميذٌ سابقٌ للتطبيقيّة) عن عدم قابليّة الأرض على هذه الحركة.

الكتاب الوحيد غير الفرنسيّ في بحث غوستافريه هو لصموئيل بيرلي رووبوثام الذي يبرهن فيه أنَّ الأرض قرصٌ وفي مركزه يقع القطب الشماليّ، ويبعد عن الشمس ستّمئة وخمسين كيلومترًا. كان عمل رووبوثام قد صدر بصيغة كتيِّبٍ في العام 1849، بعنوان *علم الفلك المُفنِّد: الأرض ليست كرويّة*، وما لبث أن تحوَّلَ إلى كتابٍ ضخمٍ في ظرف ثلاثين عامًا يضمُّ أربعمئة وثلاثين صفحة، ليُمهِّدَ لإنشاء ما عُرِفَت بـ «جمعيّة التفنيد الكونيّ» التي صمدت حتّى الحرب العالميّة الأولى.

وفي العام 1956 صموئيل شنتون، العضو في جمعيّة الفلك الملكيّة، أنشأ «جمعيّة الأرض المسطَّحة» ليجمع إرث جمعيّة التفنيد الكونيّ تمامًا. وحين عرضت وكالة ناسا في الستّينات الصور التي التقطتها للأرض من الفضاء، وما عاد بوسع أحد إنكار شكلها الكرويّ، علَّقَ شنتون قائلًا إنَّ صورًا من هذا النوع لا ينخدع بها إلّا عديم الخبرة: فالبرنامج الفضائيّ مفبركٌ برمَّته، والهبوط على القمر خدعة سينمائيّة تسعى لتضليل الرأي العامّ بفكرة كرويّة الأرض الباطلة. وقد تابع خليفة شنتون، تشارلز كينيث جونسون، التصدّي للمؤامرة ضدّ الأرض المسطَّحة، فكتب عام 1980 إنَّ فكرة الكرة الدوَّارة هي مؤامرةٌ وَقَفَ في وجهها كلٌّ من موسى وكولومبوس... أحد براهين جونسون هو أنَّه إذا كانت الأرض كرويّة، فهذا يعني أنَّ سطح الكتل المائيّة الضخمة يجب أن يكون منحنيًا، غير أنَّه تحقَّقَ من أسطح بحيرة تاهوي وبحيرة سالتون ولم يعثر على أيّ انحناء.

فهل نتعجَّبَ من وجود الذين ما زالوا يعادون نظريّة التطوُّر؟

2010

ما لا ينبغي فعله

إن عبَّرَ أحدُهم عن رأيٍ مهينٍ لعملكم الأدبيّ أو الفنيّ، فلا تلجؤوا إلى التدابير القانونيّة، حتّى لو تجاوزت تعابير غريمِكم الحدودَ (الهشّة في معظم الأحيان) التي قد تتراوح ما بين الحُكم النقديّ والإساءة. ففي العام 1958 كتب الناقد الموسيقيّ الشرس والمثير للجدل، بنيامينو دال فابرو، مقالًا في

صحيفة *إلجورنو* دمَّرَ من خلاله دورًا أدَّته ماريا كالاس، النجمة التي لم يكن يحبُّها. لا أذكر ما الذي كتبه بالضبط، لكنّي أذكر عنوان المقالة الهجائيّة التي ما انفكَّ ذاك الشخص المحبوب والساخر يُوزِّعُها بين الأصحاب في حانة جمايكا في حيّ بريرا بميلانو: «مطربة إيبيدورة، تستحقُّ الرشق بالبندورة».

غضبت كالاس، الحادّة الطباع هي أيضًا، وادَّعت عليه لدى القضاء. أذكر الرواية التي كان دال فابرو يُروِّجها في حانة جمايكا: في اليوم الذي كان على محاميه أن يتكلَّمَ في المحاكمة، حضر دال فابرو مرتديًا بدلةً سوداء بالكامل ليسمح لمرافعه بالإشارة إلى مظهره كباحثٍ حازمٍ عصيٍّ على الإفساد؛ لكنَّه في اليوم الذي توجَّبَت فيه الكلمة على محامي كالاس (الذي كان سيستخدم أقاويل مغرضة تصفه بجالب النَّحس، على ذمّة دال فابرو) حضر ببدلةٍ فضفاضة من الكُتَّان الأبيض، معتمرًا قبَّعةً من الأصفر الباهت طراز بنما.

وبطبيعة الحال برَّأت هيئة المحكمة دال فابرو معترفةً بحقِّه في النقد. إلّا أنَّ الجانب المضحك من الحكاية هو أنَّ الجمهور العريض -الذي كان يتابع تطوُّرات الخلاف على صفحات الجرائد، وأفكاره مشوَّشة إزاء القانون والحقّ الدستوريّ بحريّة التعبير عن القناعات- فَهِمَ حُكمَ القضاء لا باعتباره اعترافًا بحريّة الناقد، بل اعترافًا بما كان قد قاله، أي أنَّ كالاس كانت تغنّي بطريقةٍ سيِّئة. وهكذا خرجت كالاس من الواقعة بشهادةٍ (ظالمةٍ) على سوء غنائها، بإمضاء إحدى محاكم جمهوريّتنا.

وهذا ما يُؤكِّد مغبَّةَ جرجرة مَن يُشهِّرُ بنا إلى القضاء. فالمحكمة ستحكم بحقِّه في الكلام على الأرجح، في حين أنَّ الحشود الفظّة والجموع الجاهلة سترى في حُكم القضاة الأجلّاء أنّنا نستحقُّ ذلك التشهير.

الأمر الذي يبدو متلازمًا مع المبدأين العريقين: -تكذيب الخبر هو الخبر نفسه مضروبًا باثنين؛- عندما تلفي نفسك مغمورًا حتّى عنقك بمادّةٍ لزجة فحذار أن تتحرَّكَ لئلّا تُسبِّبَ موجًا.

فما الذي ينبغي أن تفعله مع مَن يشتمك؟ أن تتركه وشأنه، لأنَّك إذا كنتَ واهبًا نفسك للآداب والفنون، فلقد ارتضيتَ سلفًا تلقّي النقد اللاذع والأحكام السلبيّة، فأنت على درايةٍ بأنَّ ذلك يُشكِّلُ جزءًا من المهنة، وستبقى

بانتظار أن يُكذِّبَ ملايينُ القرّاء في المستقبل خصمك الحاسد، تمامًا مثلما اقتصَّ التاريخ من لويس سبوهر الذي وصف السيمفونيّة الخامسة لبتهوفن بأنَّها «مفرطةٌ بالضوضاء والابتذال»؛ ومن توماس بيلي ألبرايت الذي كتب عن إيميلي ديكنسون: «شعرها ركيكٌ ومتزعزعٌ ومفتقدٌ للشكل، لا يمكنني وصفه بعباراتٍ أخرى، إنّه فظيع»؛ أو من مدير شركة مترو غولدين ماير للإنتاج، بعد إجراء بروفة سريعة لفريد أستير، كان تعليقه: «لا يجيد التمثيل، لا يجيد الغناء، وهو أصلع علاوة على ذلك. لا بأس به في الرقص».

وإذا عبَّرَ أحدُهم عن حُكمٍ سلبيٍّ عليك حين كان ينافسك على مكافأةٍ لم ينلها، فهذا أمرٌ سيّئ أيضًا، من ناحية الذوق الرفيع على الأقلّ. كان هناك كاتبٌ موهوبٌ ومعروف، شاركت زوجتُهُ بمسابقةٍ جامعيّة، فنشر انتقاداته القاسية بحقّ كتابٍ من تأليف أحد منافسيها. صحيحٌ أنَّ كارافاجّو لم يكن قدوةً في الفضيلة، وأنَّ المفكِّر العظيم فرنسيس بيكون قد أُدِينَ بالفساد فعُزِلَ من كلّ منصبٍ حكوميّ (بحسب أعراف ذلك الزمان)؛ لكنَّ الكاتب الذي تحدَّثتُ عنه، من دون إنكار فضائله الأدبيّة، كان بالنسبة إلى كثيرين جديرًا بتولّي الرقابة الأخلاقيّة.

2012

قاتلتيرون المذهل

للتخفيف من بعض آلام المفاصل، نصحني الطبيب بدواءٍ سأُطلِقُ عليه تسمية «قاتلتيرون»، تفاديًا لدعاوى قضائيّةٍ مرهقة.

فمثلما يفعل كلُّ إنسانٍ عاقل، قبل تناول الدواء، طالعتُ النشرة، تلك الورقة الصغيرة الداخليّة التي تخبرك عن الحالات التي لا ينبغي فيها استعمال الدواء (على سبيل المثال: إن تجرَّعتَ ليترًا من الفودكا، إن كان عليك سياقة شاحنة ضخمة في الليل من ميلانو إلى تشيفالو، إن كنتَ مصابًا بالجذام أو كنتِ حاملًا بثلاثة توائم). تُحذِّر نشرتي بأنَّ تناول قاتلتيرون قد ينجم عنه بعضُ ارتكاسات الحساسيّة، انتفاخٌ في الوجه والشفتين والحلق، دوخةٌ ونعاس، وعند كبار السنّ سقطاتٌ مفاجئة، زوغانٌ أو فقدانُ البصر،

أضرارٌ في العمود الفقريّ، قُصورٌ قلبيٌّ و/ أو كلويٌّ، احتباسُ البول. وقد عبَّرَ بعض المرضى عن نيّاتٍ انتحاريّة أو تعذيبٍ ذاتيّ، لذا يُوصى (أي عندما يحاول المريض إلقاء نفسه من النافذة) استشارة طبيب (أرى من الأفضل رجال الدفاع المدنيّ). وبطبيعة الحال قد يُسبِّبُ قاتلتيرون الإمساكَ، شللَ الأمعاء، اختلاجات، وإذا استُعمِلَ مع أدويةٍ أخرى فقد يتسبَّبُ بقصورٍ تنفُّسيٍّ وغيبوبة.

لن نتحدَّث عن المنع المطلق من سياقة السيَّارات أو الآليّات المعقَّدة، والاضطلاع بأنشطةٍ تنطوي على مخاطر (كأن يُحرِّكَ المريض مكبسًا وهو واقفٌ على إحدى عوارض الطابق الخمسين لناطحة سحاب). وإذا تناولتم من قاتلتيرون جرعاتٍ أكبر من تلك المقرَّرة فترقَّبوا الشعور بالهذيان، والنعاس، والتوتُّر والقلق؛ وإذا تناولتم جرعاتٍ أقلّ أو توقَّفتم عن العلاج توقُّفًا مفاجئًا فمن الوارد أن تصابوا باضطراباتٍ في النوم، ونوبات الصداع، والغثيان، والجزع، والإسهال، والانقباضات، والاكتئاب، والتعرُّق والدُّوار.

قد يشعر أكثر من شخص من أصل عشرة بانفتاح الشهيّة، والهيجان، والارتباك، وفقدان الرغبة الجنسيّة، والانفعال، واضطراباتٍ في الانتباه، والحماقة (*وفقًا للمصدر*)، وأضرارٍ على الذاكرة، والارتعاش، وعسر النطق، وإحساسٍ بالتنميل، والسبات والأرق (معًا؟)، والإعياء، وغبش البصر، وازدواجٍ في الرؤية، والدوخة واضطراباتٍ في التوازن، وجفاف الفم، والتقيّؤ، والتطبُّل، وصعوبةٍ في الانتصاب، وانتفاخ الجسم، وإحساسٍ بالانتشاء، واختلالاتٍ في المشي.

وقد يشعر أكثر من شخص من أصل مئة بانخفاض بنسبة السُّكَّر، وتبدُّلاتٍ في الشعور بالذات، والاكتئاب، وتقلُّباتٍ في المزاج، وصعوبةٍ في إيجاد الكلمات، وفقدان الذاكرة، والهلوسات، والأحلام المزعجة، ونوبات الهلع، وإحساسٍ باللامبالاة، وإحساسٍ بالغرابة (*وفقًا للمصدر*)، وعجزٍ في بلوغ الذروة الجنسيّة، وتأخُّر القذف، وصعوبةٍ في التصوُّر، وتعكُّر الحال، واختلالاتٍ في حركة العينين، وانخفاض ردود الفعل، والحساسيّة الجلديّة، وفقدان التذوُّق، وإحساسٍ بالحرقة، وارتجافٍ أثناء الحركة، وتقلُّص الوعي، والإغماء، وارتفاع الحساسيّة من الضوضاء،

والجفاف وانتفاخ العينين، والدَّمَعَان، واضطراباتٍ في النَّظْم القلبيّ، وانخفاض الضغط، وارتفاع الضغط، واضطراباتٍ في مُحرِّك الأوعية الدمويّة، وصعوبة التنفُّس، والجفاف الأنفيّ، وانتفاخ البطن، وازديادٍ في إنتاج اللعاب، والحرقة المعويّة، وفقدان الحساسيّة في مدار الفم، والتعرُّق، والقشعريرة، والتشنُّجات العضليّة، والأوجاع الغضروفيّة، وأوجاع الظهر والأطراف، والسلس، وصعوبةٍ في التبوُّل وما ينجم عنها من أوجاع، والهوان، والسقطات، والعطش، وإحساسٍ بالضغط على الصدر، وتقُّلباتٍ في فحوص الدم ووظيفة الكبد. وسأعفيكم ممّا قد يحدث لشخصٍ من أصل ألفين: من المستحيل أن يكون المرء منحوسًا إلى هذه الدرجة.

تجنَّبتُ أن أتناول حبَّةً واحدة، وذلك ليقيني من أنّي سأصاب على الفور (مثلما قال الخالد جيروم ك جيروم) بمتلازمة ركبة العاملة بمغسلة الملابس - حتّى لو كانت النشرة لا تُدوِّن ذلك. فكَّرتُ أن أرمي ما تبقّى، ولكنّي لو رميتُه في القمامة تسبَّبتُ بإحداث طفراتٍ في مستعمرات الفئران قد تسفر عن تداعياتٍ وبائيّة. فأغلقتُ على الدواء بعلبةٍ معدنيّة ودفنتُها تحت عمق مترٍ في أحد المنتزهات.

ولا بدَّ أن أقول إنَّ آلام المفاصل قد زالت في أثناء ذلك.

2012

جويس والمازيراتي

بتصفُّح قوائم دور المزادات العالميّة مثل كريستيز أو سوذبيز، يرى المرء -إضافةً إلى الأعمال الفنّيّة والمخطوطات والنوادر المتعدِّدة- ما بات يُعرَفُ بالتذكاريّات، كحذاءٍ انتعلته نجمةٌ فلانيّة في الفيلم الفلانيّ، وقلمٍ لريغن، وأشياء من هذا القبيل. الآن، ينبغي التمييز بين التجميع الغريب الأطوار والهوس الفيتشيّ بالنوادر. فجامع الأنتيكة مجنونٌ نوعًا مّا دائمًا، وحتّى عندما يُبذِّر ثروته لاقتناء نسخٍ قديمة من *الكوميديا الإلهيّة*، يبقى ولعه معقولًا. تصفَّحتُ قوائم الجامعين فوجدتُ مَن يجمع ظروف السُّكَّر،

وسدَّادات الكوكا كولا والبطاقات الهاتفيّة. أقرُّ بأنَّ تجميع الطوابع أنبل من تجميع سدَّادات البيرة، ولكن: القلب وما يريد.

وهذا مختلفٌ عن الاستحواذ على حذاء نجمة في فيلمٍ معيَّن مهما كلَّفَ الثمن. إن كنتَ تجمع كلَّ أحذية النجوم، من ميليه وما بعد، فأنت جامعٌ للتحف حقيقةً ولجنونك معنى، وإلّا فما الذي ستفعله بحذاءٍ واحد؟

وجدتُ في عدد 28 مارس من صحيفة *لاريبوبليكا* خبرين مهمَّين. الأوَّل، وقد نقلته صحفٌ أخرى، يتعلَّق بعرض الإيباي على السيَّارات الزرقاء التي وضعها ماتّيو رينتزي على المزاد. أتفهَّمُ أنَّه ما زال هناك أحدٌ مّا قد يرغب بسيّارة من طراز مازيراتي ويقتنص الفرصة للحصول على واحدة، حتّى لو كانت مثقلةً بالكيلومترات، بسعرٍ مخفَّض، ومرتضيًا إنفاق مبلغٍ طائل لصيانتها. ولكن ما معنى التنافس بآلاف اليوروهات لتملُّك السيّارة التي اشتراها (بأموالنا) وزير الدفاع لاروسّا، بأضعاف السعر المُسجَّل على قائمة السيَّارات المستعملة بمجلّة *كواتروروته*؟ هذا ما يحدث للسيَّارات الزرقاء في المزاد. الفيتشيّة هنا واضحة للغاية، حتّى لو كان من العسير فهم سرور مَن سيضع مؤخّرته على مقاعد جلديّةٍ أدفأتها شخصيّةٌ مشهورة. دع عنك مَن يعرض أرقامًا خياليّة ليسترخي حيث أدفأ وكيلُ وزارةٍ أو معاونُ مسؤولٍ ردفيه.

ولكن فلننتقل الآن إلى موضوعٍ يبدو أنَّه مختلف، ويظهر في العدد نفسه، على صفحتين. وُضِعَت في المزاد رسائلُ غرامٍ كتبها إيان فليمنغ وهو في السادسة والعشرين من العمر، بأسعارٍ تحوم حول الستّين ألف يورو للرسالة الواحدة، رسائلُ كتب فيها العميلُ الذي لم يكن بعدُ سرّيًا ما يلي: «أودُّ أن أقبِّلَ فمك، صدرك، والمناطق السفلى». حسنًا، ثمّة هواية لتجميع رسائل مكتوبة بخطّ اليد وهي مشروعة، وقد يبدو جمع المخطوطة تلو المخطوطة مسلّيًا بقدر ما هو مثير. لا بل حتّى الذين لا يمارسون التجميع قد يُسَرُّون بالحصول على الرسالة حيث كتب جويس لنورا: «إنَّني طفلكِ، وددتُ لو أنَّكِ ضربتِني، بل وجلدتِني... لا باللعب يا حبيبتي إنّما جدّيًا، على مؤخّرتي ولحمي العاري». أو الرسالة التي يكتب فيها أوسكار وايلد لعشيقه لورد دوغلاس: «من المعجزة أنَّ شفتيك الحمراوين كبتلات الورد، لم تُخلَقَا

لأنغام الغناء فحسب بل لجنون القبلات أيضًا». لعلَّها نوعيّةٌ ممتازةٌ من «لوحات المحادثة» تصلح لمشاركتها مع الأصدقاء وقضاء أمسيةٍ بالثرثرة حول نقاط ضعف الكبار.

أمّا ما لا أجد له معنى فهو القيمة التي تُضاف بالعادة إلى هذه الموجودات في تاريخ الأدب والنقد الأدبيّ. فهل معرفة أنَّ فليمنغ حين كان في عامه السادس والعشرين كتب رسائل غراميّة تليق بمراهقٍ مستثار، هل ستُغيِّر شيئًا في استمتاعنا بقراءة حكايات جيمس بوند أو بالحكم النقديّ الصادر بحقّ أسلوب مؤلِّفها؟ ولفهم الشبق لدى جويس، باعتباره حدثًا أدبيًّا، يكفي قراءة *يوليسيس*، لاسيّما الفصل الأخير، حتّى لو عاش مَن كتبه حياةً في منتهى العفّة. وبما أنَّ كثيرًا من الكبار لم تتميَّز حياتهم بالاستقامة وصفحاتهم بالشهوانيّة فحسب، بل حياتهم بالشهوانيّة وصفحاتهم بالاستقامة أيضًا، فهل سيتغيَّر حكمنا على رواية *الموعودان بالزواج* إذا طفا على السطح أنَّ مانتزوني كان سفيهًا على السرير وأنَّ كلتا زوجتيه توفِّيتا مرهَقتَين من فرط نشاطه الجنسيّ؟

أعلم أنَّ هذا يختلف عن التوق إلى سيّارة المازيراتي التي كانت للوزير لاروسّا، وعن التباهي بوثائق تُثبِتُ أنَّ بعض الكُتّاب كانوا انتصابيّين جسديًّا (أم ذهنيًّا فقط؟). ولكن بكلّ الأحوال، هذان نوعان يندرجان تحت مُسمّى الفيتشيّة.

2014

نابليون لم يكن له وجود

هاكم تسليةً تضعونها تحت شجرة الميلاد. وأيضًا، كما سترون، بعضَ النصائح للتصدّي لمتعقِّبي الغوامض. الظهور الأخير لأحد هؤلاء كان على شاشة التلفاز خلال هذه الأشهر ببرنامجٍ عنوانُهُ *آدم قدمون* (يوحي بالكاباليّة) يُنشِّطُهُ مُقدِّمٌ مُقنَّع. لا يستحقُّ الحديثَ في شأنه لأنَّ كروتسا يُكرِّسُ برنامجه الساخر للانتقام من ذلك الصنف من البرامج أسبوعيًّا. ولكنّي هنا أوجِّهُ تحيَّةً لمَن سبَقوا كروتسا.

كنت أحتفظ منذ زمنٍ بترجمةٍ إيطاليّةٍ متأخِّرة (صادرة عام 1914) لكُتيِّبٍ ساخرٍ من تأليف المدعو جان باتيست بيريه وعنوانه *نابليون لم يكن له وجود*، ولكنّي في هذه الأيّام تحديدًا استطعتُ التوصُّل إلى الطبعة الأولى، الصادرة عام 1835، بعنوان «*الخطأ الأكبر، منبع ما لا حصر له من الأخطاء*». يبرهن الكاتب أنَّ نابليون أسطورةٌ شمسيّةٌ ليس إلّا، ويحاجُّ بإثباتاتٍ غزيرة مُبيِّنًا التشابهات بين أبولو إله الشمس، و«نابوليو» (الذي قد يعني «أبولو المبيد حقًّا»)، المولود هو الآخَر في جزيرةٍ متوسِّطيّة، في حين أنَّ اسم والدته ليتيتزيا قد يعني «الفجر»، وقد يكون مشتقًّا من ليتو، وهذه والدة أبولو. كان لنابليون ثلاث أخوات يُمثِّلن الفضائل الثلاث والحال هذه، وأربعة إخوة يرمزون إلى الفصول الأربعة، وزوجتان (هما القمر والأرض). وكان ماريشالاتُهُ الاثنا عشر هم الأبراج الفلكيّة، ومثل الشمس هيمن نابليون في منتصف النهار وأفَلَ في الشمال.

وضع نابليون نهايةً لكارثة الثورة وهذا يُذكِّرُ بمصرع الوحش بيتون على يد أبولو. الشمس تطلع من الشرق وتغيب في الغرب، ونابليون جاء من مصر ليحكم فرنسا وتوفّي في البحار الغربيّة، بعد حكم دام اثنتي عشرة سنة، وهذه ليست سوى ساعات اليوم الاثنتي عشرة. «وبهذا أثبتنا أنَّ بطل عصرنا المزعوم ليس إلّا شخصيّةً مجازيّة، وأنَّ سماته كلَّها مستوحاةٌ من الشمس».

حتّى بيريه كان على عِلمٍ بأنَّه يروي ترَّهات لكنَّه كان يفعلها للسخرية من كتاب شارل فرانسوا دوبوي *منشأ كلّ الديانات* (1794)، حيث يؤكِّد أنَّ الديانات، والخرافات، وأنساب الآلهة، والغوامض، ليست سوى مجازاتٍ ماديّة وفلكيّة.

يتَّبع أريستاركو نيولايت، بكتابه *حقائق تاريخيّة*، الصادر عام 1851، الذي لم أستطع تأمين طبعته الأصليّة، يتَّبع خطى بيريه، مستخدمًا حججًا مماثلة لمجادلة كتاب *حياة يسوع* لدافيد ستراوس وقراءته النقديّة العقلانيّة للأناجيل. ولكن، قبل بيريه، نشر ريتشارد واتلي كتاب *شكوك تاريخيّة متعلّقة بنابليون بونابرت*، عثرتُ على طبعته الأولى الصادرة عام 1819. كان واتلي لاهوتيًّا بريطانيًّا، وكبير أساقفة دبلن أيضًا، وقد كتب أعمالًا جادّةً للغاية حول مواضيع دينيّة وفلسفيّة على حدٍّ سواء – كما أنَّ أحد كتبه عن المنطق أثّر في

تشارل سندرس بيرس. بذل واتلي جهوده لدحض الكتّاب العقلانيّين (هيوم على رأسهم) الذين كانوا ينكرون أحداث التاريخ غير الموثّق، كأحداث الكتاب المقدَّس، وقصص المعجزات، نظرًا إلى انعدام الأدلّة الوضعيّة. لا يتصدّى واتلي لهيوم وأمثاله، لكنَّه يدفع فرضيّاتهم إلى الحدود القصوى، فاستنادًا إلى مبادئهم يُبيِّنُ أنَّ ما رُوِيَ عن صنائع نابليون (التي تحمل صفاتٍ عجائبيّة أيضًا) ليس آتيًا من المصادر دومًا، ولم يره كثيرٌ من معاصري نابليون حقًّا، ومعظم ما يقال عنه هو محض أحاديث توالدت عن أحاديث أخرى.

إنَّ هذه اللقى العتيقة التي أتحدَّث عنها هي بمنزلة متعة خالصة لجامعي الكتب، فمن بين النصوص الثلاثة التي ذكرتُها توجد طبعةٌ حديثة، وهذا من حسن حظّ القرّاء: *الإمبراطور الذي لا وجود له*، بإشراف سالفاتوري نيغرو (1989). بإمكانكم شراؤه بسبعة يورو ووضعه هديَّةً تحت شجرة الميلاد. لكنّي أستمتع بنفض الغبار عن هؤلاء الذين سبقوا كروتسا بالسخرية. صحيحٌ أنَّ كُتَّابي الثلاثة لم يسخروا من متعقِّبي الغوامض إنّما من مفكِّرين حاولوا القضاء على الغوامض؛ ما يعني أنَّهم كانوا رجعيِّين في الواقع. لكنَّ منهجهم يظلُّ مُلهِمًا: ادفعوا فرضيّات الآخرين إلى الحدود القصوى، وستتكفَّلُ نوبة الضحك بدفنهم.

2014

هل نحن جميعًا مجانين؟

في الأسابيع المنقضية شهدنا أحداثَ عنفٍ مؤكَّدة. مجنونٌ هو الطيَّارُ الألمانيُّ الذي اقتاد إلى الموت المسافرين كلَّهم بعد أن أمَّنوه على أرواحهم؛ ومجنونٌ هو رجل الأعمال الميلانيّ الذي ارتكب مجزرةً في قصر العدل. وقد أثار القلق ذلك السائقُ العموميُّ الذي راح يطلق الرصاص في البيت – وسأتجاهل التهمة الموجَّهة إليه عن مسؤوليّته عن حادث سيرٍ راجعٍ إلى إفراطٍ في تناول الكحول، الأمر الذي قد يقع لنا جميعًا، حتّى لو كانت السياقة بعد الشرب تُولِّدُ ارتيابًا بعادات سائقٍ كان قد عمل لدى رئيس الجمهوريّة.

هل كان جميع رجال الشرطة المتَّهمين بما عُرِفَت بـ«المذبحة المكسيكيّة» في مدرسة دياز بتورينو مجانين؟ قبل دقيقةٍ واحدةٍ من فعلتهم كانوا عملاء طبيعيّين. أيُّ هوجةٍ أصابتهم عندئذٍ ليجنُّوا على ذلك النحو، كما لو أنَّهم (دع عنك الإنسانيّة) كانوا يجهلون أنَّ أحدًا مّا في نهاية المطاف كان سينتبه إلى ما فعلوه؟

ثمَّ تذكَّرتُ ما قاله روبرت أوين: «جميعُ مَن في هذه الدنيا مجانين، إلّا أنت وأنا... لا بل أنت أيضًا مجنون». ففي الحقيقة نحن نعيش على يقينٍ بأنَّ الحكمة تُمثِّلُ السويَّة وأنَّ المجانين استثناءٌ كانوا يساقون إلى المصحَّة النفسيّة في الماضي. ولكن هل هذا صحيح؟ ألا ينبغي أن نفكِّرَ بأنَّ الوضع الطبيعيَّ هو الجنون وأنَّ ما يُسمَّى بالسويَّة هو الظرف الطارئ؟ بعيدًا عن التناقض، أليس من الحصافة أن نقتنع بأنَّ في كلّ إنسانٍ مسًّا من الجنون، وأنَّ هذا المسَّ يظلُّ خفيًّا عند كثيرين طوال حياتهم، لكنَّه يتفجَّر على دفقاتٍ عند كُثُرٍ آخرين – ويتفجَّر بشكلٍ غير ضارٍّ بل ومثمرٍ أحيانًا عند مَن نعدُّهُم عباقرة ونُذُرًا وطوباويّين، في حين أنَّه يتجسَّدُ عند آخرين بأفعالٍ تجعلنا نصيح من الجنون الإجراميّ؟

إن كان كذلك، فلدى كلِّ الأشخاص الذين يعيشون في هذا العالم (أصبحنا سبعة مليارات) بُرعمُ جنونٍ قد يتمظهر على حين غرّة، أو حصرًا في لحظاتٍ محدَّدةٍ من النشاط الذي يمارسونه. من الوارد أنَّ سفَّاحي تنظيم الدولة، في ساعاتٍ معيَّنةٍ من حياتهم اليوميّة، يبدون أزواجًا أوفياء وآباءً حُنناً، وربّما يمضون بعض الوقت في مشاهدة التلفاز أو في اصطحاب أبنائهم إلى المسجد. ثمَّ ينهضون في الثامنة صباحًا، ويحملون الكلاشينكوف على أكتافهم، وقد تُحضِّرُ لهم زوجاتهم شطائر البيض المخفوق، ويذهبون لقطع رأس رجلٍ مّا أو لرشق عشرات الأطفال بوابلٍ من الرصاص. ألم يكن أدولف أيخمان هكذا؟ ومن جهةٍ أخرى، حتّى أشدّ القَتَلة وحشيَّةً، إذا سمعتَ والدته تتحدَّثُ عنه، يبدو لك حتّى اليوم السابق للجريمة الولدَ المثاليَّ، الذي يمرُّ بفترات عصبيّة أو اكتئاب في الحدِّ الأقصى.

إن كان كذلك، فيجدر بنا أن نحيا بإحساسٍ مستمرٍّ من انعدام الثقة، إذ نخشى في كلّ لحظةٍ من زوجتنا أو زوجنا، ابننا أو ابنتنا، جارنا الذي نلقي

عليه التحيَّة كلَّ صباحٍ على السلالم، نخشى أن يحمل الفأس على غفلةٍ منّا ويفلق جمجمتنا، أو أن يدسُّوا لنا الزرنيخ في الحساء.

لكنَّ الحياة على هذا الشكل تصبح لا تُطاق، وانعدام ثقتنا بأيّ أحد (بل حتّى بمُكبِّر الصوت في المحطَّة الذي يُبلِغُ أنَّ القطار المتَّجه إلى روما سينطلق بعد قليل على السكّة رقم خمسة، فقد يكون مسؤول الإبلاغ مجنونًا)، قد يحيلنا إلى موظَّفين بعقودٍ مفتوحة الأجل في خدمة البارانويا.

لذا، ومن أجل البقاء، ينبغي أن نثق بشخصٍ واحدٍ على الأقلّ. سوى أنَّه من الضروريّ أن نوقن بعدم وجود ثقةٍ مطلقة (مثلما يحدث أحيانًا في مراحل الغرام) إنّما ثقة احتماليّة لا غير. إن كان سلوك صديقك، على مدى الأعوام، جديرًا بالثقة، فبإمكاننا أن نراهن على كونه كفؤًا بالثقة. لعلَّ هذا يشبه رهان باسكال قليلًا: الإيمانُ بوجود حياةٍ أبديّةٍ أنفَعُ من عدم الإيمان بوجودها. لكنَّنا بصدد رهانٍ بالضبط. الحياة على رهانٍ لَهِيَ مجازفةٌ بالتأكيد، لكنَّ الحياة من دون هذا الرهان (إن استبعدنا الرهان على الحياة الأبديّة، فالرهان على الصديق على الأقلّ) جوهريّةٌ لسلامتنا الذهنيّة.

ولكن يبدو لي أنَّ سول بيلو قد كتب ذات مرَّة أنَّ اليقين بمناعتك ضدَّ الجنون في عصر الجنون هو أحد أشكال الجنون. لذا لا تأخذوا ما قرأتموه للتوّ على أنَّه حقيقةٌ لا تقبل النقاش.

2015

الحمقى والصحافة المسؤولة

استمتعتُ كثيرًا بقصَّة حمقى الويب. ألخِّصُها لمَن فاتته بأنَّ مواقع الإنترنت وبعض الصحف تناقلتْ ما قيل إنّني، خلال المحاضرة التي ألقيتُها بتورينو وسُمِّيَت بـ «درس *المعلّم*»، صرَّحتُ بأنَّ الويب يغصُّ بالحمقى. وهذا غير صحيح. كان *الدرس* حول موضوعٍ مختلفٍ كلّيًا، إلّا أنَّ ما جرى يبيِّنُ لنا الطريقة التي تتداول بها الصحفُ والإنترنت الأخبارَ وتُحرِّفها.

بَدَرَت قصَّةُ الحمقى أثناء مؤتمرٍ صحفيٍّ لاحقٍ، كنتُ أجيب فيه على سؤالٍ لم أعد أذكره، وقد أدليتُ بتعليقٍ مبنيٍّ على حسن النيّة المحض. فإذا

سلَّمْنا أنَّه بين سبعة مليار نسمة من سكَّان الكوكب، توجد نسبةٌ من الحمقى حتمًا، فإنَّ كثيرًا منهم كانوا يُسْمِعُون خَطلَهُم لأقربائهم أو أصدقائهم في الحانة - وهذا ما كان يُبقي آراءهم في نطاقٍ محدود. أمّا الآن فلدى القدْر الأعظم من هؤلاء إمكانيّةٌ للتعبير عن آرائهم على وسائل التواصل الاجتماعيّ. لذا تحظى هذه الآراء على نسب استماعٍ مرتفعة للغاية، وتمتزج بآراءٍ كثيرةٍ أخرى لأشخاصٍ عقلاء.

لاحِظوا أنَّ في مفهومي عن الحمقى لا وجود لأيّ دلالاتٍ عنصريّة. لا أحد يحترف الحمق (باستثناءاتٍ نادرة)، إنّما الشخص الذي قد يكون عطَّارًا، أو جرَّاحًا بارعًا، أو موظَّفًا مصرفيًّا ممتازًا، قد يتفوّه بالسخافات حيال مواضيع لا يفقهها أو لم يتفكَّر بها على نحوٍ كافٍ. ولسببٍ آخر وهو أنَّ ردود الفعل على الويب وليدة اللحظة، ولا تعطي الوقت للتمعُّن.

من الصائب أن تمنح الشبكة الإلكترونيّة حقَّ التعبير حتّى لمن لا يقول أشياء وجيهة، لكنَّ فرط التفاهات يُثقِلُ الخطوط. وبعض ردود الفعل غير اللائقة التي رأيتُها على الإنترنت فيما بعد برهانٌ على صحّة فرضيَّتي المنطقيّة. أكثر من ذلك، نقل أحدهم على لساني أنَّ الشبكة تُساوي بين آراء غبيّ وآراء مَن حصد جائزة نوبل، وسرعان ما احتدم نقاشٌ عبثيٌّ على نطاقٍ واسع عمّا إذا حزتُ جائزة نوبل أم لا. ولم يفكّر أيٌّ من هؤلاء حتّى بالاطّلاع على ويكيبيديا. وهذا يُثبِتُ كيف أنّنا ميّالون إلى الثرثرة بالترَّهات. وفي كلّ الأحوال، صار عدد الحمقى قابلًا للقياس الآن: 300 مليون بالحدّ الأدنى. يبدو بالفعل أنَّ ويكيبيديا في الآونة الأخيرة خسر 300 مليون مستخدم. كلُّهم مُتصفِّحون ما عادوا يستخدمون الويب للعثور على المعلومات، إنّما يُفضِّلون البقاء أونلاين للدردشة (بالترَّهات أغلب الظنّ) مع نظرائهم.

ينبغي للمستخدم العاديّ للشبكة أن يكون قادرًا على تمييز الأفكار المفكَّكة من الأفكار المتماسكة، لكن هذا ليس متوافرًا على الدوام، وهنا تبرز إشكاليّة الاصطفاء، التي لا تخصُّ الآراء المُعبَّر عنها في المدوَّنات أو عبْر تويتر فحسب، بل هي مسألةٌ ملحّةٌ على شتّى مواقع الويب أيضًا، حيث (وأودُّ أن أرى مَن يعترض على هذا وينفيه) من الممكن العثور على أشياء موثوقةٍ ومفيدةٍ جدًّا، إلى جانب أباطيل من كلّ صنفٍ ونوع، وفضحٍ

لمؤامراتٍ لا وجود لها، وإنكارٍ لحوادث موثَّقة، وأشكالٍ من العنصريّة، أو معلوماتٍ زائفة من الناحية الثقافيّة، ومرتجلة وتفتقر إلى الدّقّة.

فكيف الاصطفاء إذًا؟ كلٌّ واحدٍ منّا قادرٌ على الاصطفاء عندما يزور مواقع تتعلَّقُ بموضوعاتٍ من اختصاصه، فأنا على سبيل المثال أجدني حائرًا في الحُكم ما إذا كان موقعٌ عن نظريّة الأوتار يعرض أشياء صحيحة أم لا. حتّى المدرسة ليس بوسعها أن تُربِّي على الاصطفاء لأنَّ الأساتذة أنفسهم يتعرَّضون لما أتعرَّض له؛ وإنَّ أستاذ اللغة اليونانيّة سيجد أنَّه بلا حيلةٍ قبالة موقعٍ يتحدَّث عن نظريّة الكوارث، أو حتّى عن حرب الثلاثين عامًا.

ليس هناك سوى حلٍّ واحد. غالبًا ما تخضع الصحف للشبكة، إذ تستقي منها الأنباء وفي بعض الأحيان الخرافات، فتعطي بذلك الكلمة لأبرز منافسٍ لها - وتظلُّ متأخِّرةً عن الإنترنت لهذا السبب. بيد أنَّه يتعيَّنُ عليها أن تُكرِّسَ صفحتين يوميًّا على الأقلّ لتحليل مواقع الويب (مثلما تُجرى المراجعات على الكتب أو الأفلام) فتشير إلى المواقع الصالحة وتُبلِّغُ عن تلك التي تتناقل الأخبار الكاذبة أو غير الدقيقة. ولعلَّ هذه خدمةٌ جليلةٌ تُقدِّمُها الصحف للجمهور، وقد تكون مُحفِّزًا لمتصفِّحي الويب، المتعالين على الجرائد، لكي يعودوا إلى قراءتها يومًا بيوم.

وللشروع بهذه المهمَّة، قد تحتاج الصحيفة طبعًا إلى فريقٍ من المحلِّلين، ينبغي البحث عن أكثرهم خارجَ إدارة التحرير. مهمَّةٌ مكلفةٌ بلا شكّ، لكنَّها قيِّمةٌ من الناحية الثقافيّة، وقد تؤسِّسُ لبداية وظيفةٍ جديدةٍ للصحافة.

2015



بدأتُ كتابة مقالات العمود الثقافيّ **مغلّف مينرڤا** La Bustina di Minerva على الصفحة الأخيرة من مجلّة إسبريسّو Espresso عام 1985، مرّةً كلّ أسبوع لفترةٍ طويلة، ثمّ مرّةً كلّ أسبوعين. ومثلما نوّهتُ في البداية، كانت مغلّفات أعواد الثقاب «مينرڤا» تحتوي في جانبها الكرتونيّ الداخليّ على مساحتين صغيرتين خاليتين، من الممكن تسجيل الملاحظات عليهما، لذا كنتُ أعُدُّ مداخلاتي تلك تعليقاتٍ موجزةً واستطراداتٍ للأمور المختلفة التي تدور في رأسي- عادةً ما تكون مستوحاةً من الأحداث الراهنة، ولكن ليس دائمًا، لأنّني كنتُ أعتبر حدثًا راهنًا أن يتملّكني التّوقُ ذات مساء لإعادة قراءة، ما أدراني، صفحةً من هيرودوت، حكايةً للأخوين غريم، أو قصّةً مصوّرةً لباباي.

أدرجتُ كثيرًا من المغلّفات في كتاب دفتر اليوميّات الثاني الصغير، في العام 1992، وظهر منها عددٌ معتبرٌ في كتاب **مغلّف مينرڤا** الذي يُعنى بالمقالات المنشورة حتّى مطلع العام 2000، واستعدتُ بعضَها في كتاب على **مشية القريدس** في العام 2006. ولكنْ منذ العام 2000 وحتّى العام 2015، إذا أحصينا ستّةً وعشرين مغلّفًا في السنة، فهذا يعني أنّني كتبتُ أكثر من أربعمئة، وقد رأيتُ أنّ بعضَها ما زال صالحًا للاستعادة.

يبدو لي أنّ كلّ تلك المقالات (أو كلّها تقريبًا) التي جمعتُها في هذا الكتاب، قد تُقرَأُ بوصفها تأمُّلاتٍ في ظواهر «مجتمعنا السائل»، الذي أتحدّث عنه في واحدٍ من المغلّفات الحديثة، وقد وضعتُهُ استهلالًا للسلسلة. وعلى الرغم من أنّي حذفتُ كثيرًا من المتكرّرات، ما زال بعضُها موجودًا على الأرجح، لأنّ بعض الظواهر تكرّرت في هذه الأعوام الخمسة عشر بانتظام يبعث على القلق، ما يحثّ بالنتيجة على العودة بإلحاحٍ إلى مواضيع معيّنة ما تزال راهنةً بشكلٍ مخيف.

كلمةٌ بشأن العنوان. الاقتباس من دانتي أليغييري بما لا يقبل الشكّ: («پاپي ساتان، پاپي ساتان أليپّي»، الجحيم، الأنشودة السابعة، البيت الأوّل). ولكن، كما هو معلوم، على الرغم من محاولة جحافلَ من الشُّرّاح إيجاد معنى لهذا البيت، يعتقد سوادُهُم الأعظمُ أنّه بلا أيّ معنى محدّد. إنّها كلماتٌ تُشوّشُ الأفكار، عمومًا، لا سيّما أنّها وردت على لسان پلوتوس، وقد تكون مجديةً لأيّ نوعٍ من الشيطنات. لذا حَسِبتُ أنّه من المناسب استخدامُها عنوانًا لهذه المجموعة التي ليس ذنبي بقدْرِ ما هو ذنبُ الزمان أنّها غير مترابطة، تنتقل من الديك إلى الحمار- كما يقول الفرنسيّون-وتتمعّنُ في الطبيعة السائلة لهذه الأعوام الخمسة عشر.



9 789933 655969